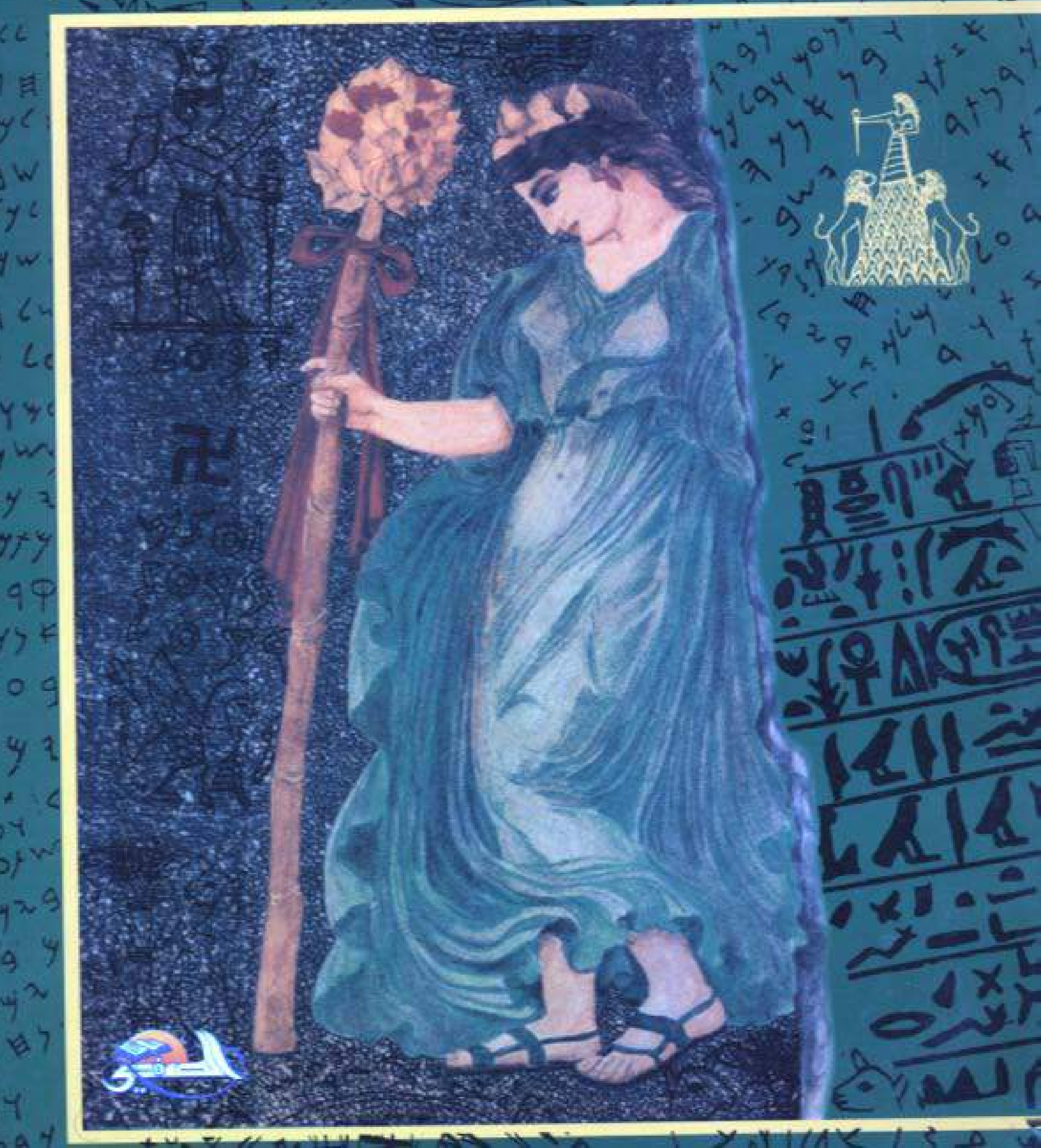
الدكتور أحمد داوود

تاريخ سوريا الحضاري القديم

١ـ «المركز»





تاريخ سوريا الحضاري القديم

الطبعة الثالثة
منشورات دار الصفدي
طباعة . نشر . توزيع
دمشق شارع سعد الله الجابري – مقابل البريد
ص.ب٣٤٧٧٦ هاتف ٢٢١٨٠١٦ فاكس ٢٢٣٥٤٤٤
E mail: alsafady @scs-net.org

الدكتور أحمد داوود



١- «المركز»



AHMAD DAOUD

THE ANCIENT HISTORY OF SYRIAN CIVILIZATION

1 – «THE CENTRE»





الحلقة الأولى

لماذا المركز؟

منذ أن وجد الانسان وحتى اليوم وأسئلة كثيرة تتزاحم في رأسه، وترتسم في مخيلته، وتنتصب أمام عينيه معترضة طريقه: الله، الكون، الوجود، الخلق، ممّ خلق الانسان، أين خلق، ولماذا، الحياة، الموت، البداية، النهاية، وجود أو عدم وجود مخلوقات أخرى، طبيعتها، الروح، العقل، النفس، ما هو الفاني وما هو الخالد، وفوق هذا وذاك: ما هي الغاية وراء الوجود كله، وراء الخلق كله.. كل هذه المسائل ما انفك الانسان يطرحها على نفسه، ويحاول الإجابة عنها في كل نشاطاته الفكرية والوضعية التجريبية.

لقد جربت الفلسفة ترتيب هذه الأسئلة ترتيباً عقلانياً منطقياً، وسعت جاهدة إلى الإجابة عنها، فانقسم الفلاسفة بناء على الغرض والجواب إلى قسمين رئيسيين: ماديين ومثاليين، ما لبث أن تشظّى كل منهما إلى عدة فروع متفرعة. وقدم الدين تصوره عن البنية الكلية للعالم، ووضع أجوبته عن تلك الأسئلة من خلال نظامه. وسعت العلوم الطبيعية، كل منها في مجاله، عن طرائق التجربة، والنتائج الملموسة، والملاحظة العلمية، إلى التوصل إلى إجابات مقنعة حول هذا الجانب أو ذاك من هذه المسألة أو تلك.

ولما كان علم التاريخ هو العلم الموسوعي الشمولي الوحيد فإنه لم يتوانَ في استخدام معطيات كل العلوم الأخرى من أجل أن يكشف، ضمن نهجه الخاص، كل ما يمكن كشفه من جوانب الحقيقة التاريخية لعملية الخلق، والنشوء، ووجود الانسان، وتطوره في المكان والزمان، واستنباط ما أمكن، العلائق والقوانين العامة، الشاملة، الناظمة لعملية الوجود والتطور على الأرض.

ونحن سوف نرى، ومن خلال أبحاث هذا الكتاب، كيف أن جميع هذه المجالات من مجالات النشاط الانساني، وأقصد العلم الطبيعي، الدين، الفلسفة، التاريخ.. إنما تسعى نحو غاية مركزية واحدة، ولو اختلفت طرقها وطرائقها، إنها ليست متناقضة، أو متقاطعة، أو متوازية، إنها متلاقية. فهي تنطلق من أرضيات ونقاط ومبادىء متباعدة، لكنها تتحرك جميعاً نحو غاية مركزية واحدة، بصرف النظر عن إخفاق بعضها ونجاح بعضها الآخر في هذه المرحلة التاريخية أو تلك من الزمن، إنها في حقيقتها الشمولية الموضوعية، متكاملة ثم متلاقية.

لقد أكدت جميعها وحدة هذا الكون، ووحدة الأصل الانساني، وجوداً، ثم تطوراً، وثقافة، وحضارة. وكان هذا من شأنه لو تسنّى له أن يأخذ أبعاده، أن يقضي على ظاهرات التعصب.

غير أن الواقع الراهن يرينا العكس تماماً، إذ برزت ظاهرة التعصب هي الأقوى وخاصة في الساحة الخاصة بكتابة التاريخ.

إن في تكامل ما قدمه العلم، والفلسفة، والدين حول وحدة الانسان وجوداً، وتطوراً، وحضارة، ومصيراً، أفضى إلى القول بوجود «مركز» للانسان وحضارته على هذا الكوكب، منه انطلقت إشعاعاته إلى كافة الأنحاء.

ولما كانت هذه الحقيقة التي قدمتها علوم الانسان مجتمعة هي إحدى موضوعات علم التاريخ، فقد صار موضوع «المركز» أحد المواضيع الملحّة في كتابة التاريخ.

وممّا عضد وقوّى دور علم التاريخ في البحث في مسألة «المركز» وتحديده وفرة المكتشفات الآثارية التي تمّ العثور عليها مؤخراً في هذا القرن، من جهة، وإنجازات العلوم الطبيعية في تقديم الوسائل الناجعة لتحديد عمر المادة عموماً وفي فهم طبيعة وعمل وتطور المادة الحية من جهة أخرى.

إن هذا كله كشف أمام الباحثين واقعاً جديداً أخذ يتجلّى في ظاهرتين:

الأولى، تتمثل في وجود المظاهر الحضارية الواحدة للانسان، سواء ما كان على صعيد الدين، أو الإبداع الفكري، أو الفني، أو اللغوي، أو الإنتاج المادي في كل مواقع الحضارة القديمة.

والظاهرة الثانية هي ما ظهر جلياً من تفاوت بيّن في السبق الزمني بين منطقة وأخرى، قد يمتد أحياناً إلى عدة آلاف من السنين، إلى جانب وجود التفاوت الملحوظ في مستويات عمق الظاهرة الحضارية الواحدة ورسوخها في الواقع بين مكان وآخر.

إن هذا تحديداً هو ما دفع ببعض العلماء إلى القول بوجود «مركز» للانسان وللحضارة قام بضخّ الانسان والحضارة إلى كافة الأنحاء، وقد تزعم هذا الاتجاه العالم الأمريكي لويس مورجان[1].

---

(1) سلطان محيسن، عصور ما قبل التاريخ، دار المستقبل، 1986 - 1987، دمشق، ص72.

لكنه سرعان ما برز على الساحة اتجاه آخر يعارض هذه النظرة بنظرة أخرى مفادها أنه ثمة تطور متواز للمجتمعات في الزمان والمكان، وأن كل منطقة وصلت إلى ابتكاراتها بشكل مستقل. وينفي أصحاب هذه النظرة صفة التخلف أو البدائية عن المجتمعات القديمة في العصور الحجرية، ويعتبرون ثقافاتها حالات قائمة بذاتها، وليست مرحلة بدائية في تاريخ الحضارة.

وثمة حقيقة أخرى ينبغي ألاّ تغيب عن الذهن، وكان لها أثر فاعل في ظهور نزعتين متعارضتين، فمنذ أن أخذت المكتشفات الآثارية في المنطقة العربية الممتدة من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي تفرض نفسها على المؤرخين والباحثين في العالم بكميتها المدهشة، وبنوعيتها، وبسبقها، وأقدميتها، أخذ الحديث عن المركز الأول للانسان والحضارة على هذا الكوكب يكثر على نطاق عالمي، ويأخذ شكل موجة جديدة من البحث يسهل التعرف فيها على نزعتين: الأولى علمية موضوعية تستند على ما تقدمه مختلف العلوم وفي مقدمتها الانتروبولوجيا، بما يتضمنه من علوم الآثار والسكان واللغات، والثانية تضليلية، هي استمرار لموجة المؤرخين المزورين الذين كتبوا التاريخ من منطلق التعصب للغرب ضد الشرق على أساس السياسات الاستعمارية التي انتهجتها الدول الغربية في القرون الأخيرة، فسخرت كل العلوم للسياسة، وفي مقدمتها علم التاريخ.

لكنه ـ وعلى حد تعبير الباحث الفرنسي الشهير بيير روسي ـ لانكفي أن نتكلم، بل أن نتكلم ما هو مفيد وصحيح[1]، فثمة معايير علمية حقيقية هي التي من شأنها أن تكشف صحة هذه النظرة او تلك يمكن أن نحدّدها بمايلي:

1 . معطيات علم المناخ والجغرافيا، وما يمكن أن توفره البيئة من شروط لوجود التجمعات البشرية الأولى وتساعد في تطورها.

2 . معطيات علم الكرونولوجيا الذي يحدّد زمن وجود التجمعات البشرية في هذه البقعة أو تلك، وزمن إنجازاتها، ممّا يدلنا على مكان السبق.

---

(1) بيير روسي، مدينة إيزيس التاريخ الحقيقي للعرب، ترجمة فريد جحا، مطبعة مؤسسة الوحدة، دمشق، 1980 ص 14 .

3 . توفر عامل التواصل التاريخي للانسان ولانجازاته في المكان الواحد عبر الزمن، إذ أن هذا العامل من شأنه أن يكشف ما إذا كان هذا التجمع البشري أو ذاك، أو هذه الظاهرة الحضارية أو تلك نابعة من المكان عبر تراكم كميّ مديد في تواصله التاريخي، أم أنها وافدة، طارئة، منقطعة.

4 . اللغة. فإن كان ثمة من يقول: إن توفر الشروط والظروف الواحدة أو المتشابهة في مكانين أو أكثر ينتج ظاهرة واحدة أو متشابهة، فإن هذا القول تسقطه اللغة، إذ لا يمكن لجماعتين بشريتين مختلفتين تعيش إحداهما، ولنقل في الوطن العربي، وتعيش الاخرى في الهند أو أوروبا أو أمريكا، أن يبتدعا ـ نتيجة لتشابه الظروف أو الشروط ـ لغة واحدة. إن هذه المعايير التي لا يماري فيها أحد هي التي نعتمدها في بحثنا هذا من أجل الكشف عن صحة أو بطلان هذه النظرة أو تلك حول حقيقة وجود المركز، أولاً، ومكان وجود هذا المركز ثانياً.

وعليه وقبل كل شيء، نرى من الملحّ أن نشير بداية، ولو بصورة موجزة وسريعة، إلى مدى ما تعرض له التاريخ الانساني عامة، والتاريخ العربي خاصة، من التشويه والتزوير على أيدي التيار الآخر والذي أخذ مظاهر وأشكالاً، واتبع طرقاً وأساليب عديدة منذ الزمن القديم وحتى اليوم يمكن أن نجملها بمايلي:

1 . إتلاف أو إخفاء أو إضاعة المصادر التاريخية القديمة، نذكر منها:

- «تاريخ فينيقيا» الذي وضعه المؤرخ السوري سانخونياتن في حوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد. وقد وضعه في تسعة مجلدات، سطا عليه اليهودي المتنصر أوزيب ثم أخفاه. ولولا أن قدّم منه شذرات من أجل نقده والرد عليه لما وصلنا منه شيء. وكان فيلون الجبيلي قد نقله إلى الفينيقية الغربية كما تطورت إليه في اليونان مؤخراً في القرن الأول الميلادي.
- كتاب التاريخ لمؤلفه مانيثو. فُقد.
- كتاب التاريخ لمؤلفه برعوشا (بروسوس) البابلي. فُقد.
- كتاب في أصل اليونان وأنسابهم للمؤرخ السوري الكيليكي هيقاتو. فُقد.
- كتاب «دورة الأرض» لهيقاتو نفسه،الذي قسم فيه الأرض إلى قارات، وجعل

مصر ضمن آسيا، فُقد.

- كتاب التاريخ لأفريقانو، الرحالة والجغرافي والمؤرخ الفينيقي الليبي، الذي جعله تاريخاً للعالم من بدء الخليقة وحتى عام 221 م، جرياً على التقليد العربي في كتابة التاريخ، ضاع إلا نبذاً مضمنة في تاريخ أوزيب.
- كان النبلاء السوريون الذين نزحوا إلى أسبارطة واستقروا فيها يحملون معهم كتباً هي «توني دورو»[1] (أي أخبار السلف). فقدت أيضاً. (والكلمتان عربيتان قديمتان. ففي القاموس السرياني نجد: توني = روايات، أخبار، ودورو = الذرية، السلالة، العشيرة، العائلة، السلف...).
- وكتب قدموس المؤرخ السوري تاريخ بلدته «ميليثا» في كيليكيا، وفُقد.
- وكتب الفينيقي يوجايون تاريخاً لجزيرة ساموس الفينيقية، وفُقد.
- أما تاريخ هيرودوت، وهو أيضاً سوري من «هلِكْ أرنو» في كيليكيا التي يقول هو نفسه عنها «إنها فينيقية»[2] فقد أخضع لعمليات «تحقيق!» كثيرة خرج بنتيجتها مزوراً في معظمه، وهذا ما أكده كثير من الباحثين في الغرب، ومنهم بيير روسي[3]، كما خرج هيرودوت نفسه في النتيجة «إغريقيا»!

2 . لقد خضع التاريخ القديم إلى عمليات مسخ وتزوير لا حدود لهما على أيدي رجال الدين في أوروبا القرون الوسطى يلخص جورج هرنشو بعض أسبابها ومظاهرها كمايلي:

«لقد كان لتنصر قسطنطين 306 - 337 م، وظهور الكنيسة المسيحية على الوثنية الرومانية في حدود القرن الرابع الميلادي أثر عميق في فن التاريخ. فقد تحول إلى أيدي القساوسة والرهبان. وبقي فيهم طوال العصر الوسيط، أي زهاء ألف سنة من الزمان. وكان من جراء ذلك أن غدا التاريخ خاضعاً للاّهوت، مسخَّراً له، وأنه أصبح تعليماً في الواقع، وهو مالم يكنه قط من قبل، وأنه فقد كل صفة علمية كان يتمتع بها، وأصبح لا يكترث بحال بما هو حق وواقع أو

(1) فاستيل دي كولانج، المدينة العتيقة، ترجمة عباس بيومي بك ـ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1950 ، ص204 .

(2) هيرودوت، الكتاب السابع، الفصل التاسع.

(3) روسي، المرجع السابق، ص226 .

محتمل الوقوع، وأنه غدا مشحوناً بأخبار الخوارق والكرامات، غير معني إلا بما له صلة بالدين، وأنه فقد حاسة النظر إلى الأشياء موضوعة في مواضعها، فوضع العبرانيين في صدر «دراما» الزمان، وردّ دول العالم القديم إلى المؤخرة أو إلى الجانبين. وجملة القول: إن تحول التاريخ إلى رجال الدين كان معناه محو التاريخ الصحيح من الوجود محواً تاماً دام ألف عام..

«ولربما كان التقدم الملحوظ في تاريخ العهد الأخير من العصور الوسطى ناشئاً إلى حد بعيد عن تأثير الحضارة العربية التي شملت العالم الإسلامي في ذلك الزمان. لقد تماسّت النصرانية والإسلام في الأرض المقدسة وما يجاورها، وفي صقلية وجنوب إيطاليا وفي الأندلس. ولم يأت هذا التماس بحال من الأحوال عدائياً لا في جملته ولا في الأساس الذي قام عليه..

«أما الصليبيون فقد خرجوا من ديارهم لقتال العرب المسلمين، فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة، لقد بهت أشباه الهمج من المقاتلين الصليبيين عندما رأوا «الكفّار» الذين كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم، ذوي حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحاناً لا تصحّ معه المقارنة بينهما. ففي مجال التاريخ الذي نحن بصدد الكلام عنه، وحده، نجد المسعودي العربي يعرض في كتابه «مروج الذهب» عرض خبير ماهر تاريخ واثنوجرافيا غرب آسيا وشمال افريقيا وشرق أوروبا. ونجد ابن خلكان الدمشقي يصنف معجماً في التراجم التاريخية جديراً بأن يقرن بتراجم فلوطارخ. ثم نجد شيخ المؤرخين العرب عبد الرحمن ابن خلدون التونسي فقد كتب فيما كتب مقدمة لتاريخ عام بلغت في سعة الإحاطة وصحة النظر وعمق الفلسفة ما جعلها مصداقاً لما قاله الأستاذ (فلنت) في حق ذلك العالم العربي الكبير من أنه «واضع علم التاريخ».. «ولقد انتقل أثر هذه الثقافة العربية إلى أوروبا عن طريق مدارس الأندلس وجنوب ايطاليا، فكان من العوامل القوية في انتهاء العصور الوسطى وانبثاق فجر العصور الحديثة»[1].

(1) جورج هرنشو، فصل من كتاب: Outline of Modern Knoledge

ترجمة عبد الحميد العبادي تحت اسم «علم التاريخ» ص25 – 28.

3 . أما الأسلوب الثالث الذي اتبعته أوروبا في تزوير التاريخ العربي، فهو السيطرة على كثير من المخطوطات العربية بعد خروج العرب من أسبانيا، وإخضاعها لعملية «إعادة نسخ» إجبارية تزويرية على أيدي خطاطين عرب أرغمتهم على القيام بهذا العمل الرهيب. لقد استخدم أحد مثقفينا العرب السوريين، هو الكاتب وليد الحجار، إحدى الوثائق التي تفضح تلك العملية التزويرية في روايته التاريخية الجميلة «رحلة النيلوفر أو آخر الأمويين». وكنا نود لو أفادنا عن مصدرها. لكن ما يهمنا هنا ليس دراسة تلك الوثيقة لتبرهن لنا على وجود التزوير في تاريخنا، فهذا أمر بات مفضوحاً ولا يحتاج إلى برهان، وإنما نحن نوردها هنا فقط لنقل الصدى الذي أحدثه هذا التزوير لدى أحد مثقفينا الواعين. تقول الوثيقة حرفياً مايلي:

«اعلم ياأخي أني عبد مأمور لا حول له ولا قوة، وأني ماعدت إلى طليطلة من فاس إلا بأمر من الملك فيليب، نحمل إليه كتباً من خزانة السلطان. إن القادر الذي لا يعجزه شيء قد شاء أن ينكشف أمر صاحبي وخليلي، فأذاقه فيليب من السم الفاتك الذي أتيناه به من فاس حسب طلبه. وإني لا محال هالك بالسم نفسه إن عاجلاً أو آجلاً، ولن اترك حراً طليقاً لأذيع خبر النسّاخ المائة والخمسين الذين أنا منهم، نعمل ليلاً نهاراً في إعادة كتابة مالدينا من مخطوطات عربية. ولعل السلطان، أدام الله عزه، هو الذي امر بالقضاء علينا بعد أن علمنا ما أجراه النسّاخ من تعديل على مخطوطات كتاب «العبر» الذي حملناه معنا من خزانته، والذي لا يحمل في الأصل كلمة «بربر» في عنوانه. اعلم ياأخي أن هذه شهادتي قبل أن أموت. وإني أقسم بالله العظيم وبالقرآن الكريم أني رايت النسّاخ «الموريسكاس» يعيدون نسخ كتاب «العبر» وغيره، فيبدلون كل ذكر لكلمة «أعرابي» بكلمة «عربي» في كتاب ابن خلدون، ويضيفون إليه فصولاً بكاملها في مدح البربر حسب مشيئة السلطان، وبذم العرب حسب ما بنفوس أصحاب الدير، ويحذفون فصولاً بكاملها في ذكر مآثر العرب مما كتبه ابن خلدون، اعلم ياأخي أن السمّ الذي أتينا به من فاس سيستر هذه الحقيقة إلى الأبد على أهل الدنيا قاطبة، واعلم أن هذه الورقة هي شهادتي أمام ربي يوم الحشر، وأن هذا الفهرس الذي أدفن شهادتي فيه هو واحد من أربعة

اعلم يا أخي أبو عبد مأمور
لا حول له ولا قوة وأبو مأمور
إلى طليطلة من فاس لا بأمر من
الملك فيليب ليجلب له كتبا من
خزانة السلطان. إن القدر الذي
لا يعجزه شيء قد شاء أن
ينكشف أمر صاحبي وخليلي
فأما أنا فهو فيليب [illegible] الثاني
الذي أتيناه من فاس حسب
طلبه وأبو لا محالة هالك
بقبض السم أو عاجلا أو آجلا
ولو أنزل [illegible] طليطلة لأنه يجب
غير النساخ الأئمة والنحسين
الذين إمنهم نعمل في السر
ليلا ونهارا. في إعادة كتابة
ما أنجز من مخطوطات عربية
ونعل السلطان أيد الله عزه
هو الذي أمر بالقضاء علينا بعد
أن وضعنا على مشيئته في تحويل
مخطوطات كتاب العبر الذي
حملناه معنا إلى هذا الدير من خزانته
والذي لا يحمل في الأصل كلمة
بربر في عنوانه. واعلم يا أخي
أن هذه شهادتي قبل أن أموت
وإني أقسم بالله العظيم والقرآن
الكريم أني رأيت النساخ المريسكيين
يجدون كتابة كتاب العبر ويجرو
فيبدلون كل ذكر لكلمة
أعرابي في كتاب ابن خلدون
بكلمة بربري ويضيفون
فصولا كاملة في مدح البربر
حسب مشيئة السلطان وذم
العرب حسب ما يقوله أصحاب
الدير ويحذفون فصولا بكاملها
في ذكر مآثر العرب مما كتبه
ابن خلدون واعلم يا أخي أن السم

الذي أتيناه من فاس [illegible]
للحقيقة إلى الأبد عن أهل الدنيا
قاطبة واعلم أن هذه الورقة
هي شهادتي أمام ربي يوم الحشر
وأن هذا الفهرس الذي أدفن شهادتي
فيه أنا هو واحد من أربعة فهارس
ضمنتها أسماء ما جرى التعديل
عليه من كتب. وأن ما يظن
المسلمون أنها أصول مخطوطة في
خزائنهم إنما هي نسخ زورت بخط
يماثل خط وتوافق أصولها.
وأنا ومن معي من المريسكيين الإسبان
أنا الذي أكتم إسلامي وعروبتي. قد
ساعدت في هذا العمل الكريه أسوة
بمن حولي من مسلمين. غلبوا على
أمرهم. نعمل سوية مع [illegible]
جميعا في خدمة الإسكوريال
والملك فيليب الثالث الأغبى الذي
طردنا جميعا من الأندلس. [illegible] أسعى
من أجل ذلك في تصحيح هذا الضرر من
هذا الدير. سأضع بعضا من الصفحة
هذه علَّه يظفر بها حتى أصل
إليه أو يصل أحد من المؤمنين. [illegible]
هذه شهادتي يوم الدين. والآن أشهد
أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله

فهارس تضم أسماء ما جرى التعديل والتبديل عليه من كتب. وإن جميع ما يظن المسلمون انها أصول محفوظة في خزاناتهم إنما هي نسخ زوّرت بخط يماثل خط وتواقيع اصحابها، وانا ومن معي من «الموريسكاس» الإسبان، انا الذي اكتم إسلامي وعروبتي، قد ساعدت في هذا العمل الكريه، أسوة بمن حولي من مسلمين غلبوا على امرهم، نعمل سوية مع مولدين ويهود، جميعنا في خدمة الاسكوريال والملك فيليب المأفون الذي قرّر طردنا جميعاً من الأندلس، ربي اجعل من لدنك قوة تخرج هذا الفهرس من هذا الدير. سأقذف به من الفتحة هذه علّه يبقى سليماً حتى أصل إليه أو ينقذه أحد من المؤمنين. ربي هذه شهادتي يوم الدين. والآن اشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ووليه ورسوله».

ثم يضيف الكاتب: «هكذا تحوّل كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر» بمسحة قلم، وأصبح ما نعرفه اليوم بـ «مقدمة ابن خلدون» التي تحتوي صفحات في هجاء العرب. لقد زورت أربع نسخ من كتاب العبر، إحداها عادت إلى مكتبة البلاط في فاس، والثانية وجّهت إلى جامع القرويين في تونس، أما النسختان الأخيرتان فلقد دُسّتا في دار الكتب في القاهرة، افلا يتساءل المرء لماذا لم تنشر المقدمة في باريس إلا عام 1841؟ وفي بيروت عام 1879 ؟ وأخيراً في مصر عام 1868 ؟ أي بعد ان اتيحت لمستشرقي نابليون خلال احتلاله لمصر فرصة دسّ نسختين مزورتين عنها في دار الكتب في القاهرة؟ هل هنالك من يتساءل عن أصل نسخة جامع القرويين؟ إذن فليعلم السائل أن واضع الفهرس لمكتبة ذلك الجامع ليس عربياً، بل هو «ألفرد بل» وأن من ساعده وأيّده في جرد محتويات تلك المكتبة لم يكن إلا رجل يدعى «ليفي بروفونساك» وهو يهودي الأُصل...

«وهل أسهل من تقليد خط وتوقيع انسان مات منذ قرون، وما من شاهد على ماكتب؟ لا. لن يطلب من ناسخ عربي القيام بتلك المهمة كي لا يذيع خبرها فيبطل أثرها. ماذا يفعل؟ يبعث إلى ملك قشتالة الاسباني رسولاً بهذا الأمر، فيرد الملك عليه برسولين، من رعاياه الاسبان الموريسكاس يحسنون قراءة وكتابة العربية فيعودون إلى اسبانيا، لا بكتاب العبر فحسب، بل بصناديق مرصوصة من ثمين ما تحتويه الخزانة الملكية المغربية، تنقل إلى اسبانيا بقصد الاستعارة، وما من هدف ظاهر لذلك، سوى نسخ تلك المخطوطات

وإعادتها سالمة إلى خزانتها وصاحبها..

«لكن الذي عاد إلى أوطانه من تلك الكنوز ليس نفس الذي بارحها منها. لقد بدّل العنوان! «كتاب العبر» أصبح «كتاب العبر في أيام العرب والعجم والبربر». ثم إن مخطوط «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر» الذي عاد إلى فاس ليس مخطوط «كتاب العبر» نفسه الذي ذهب منها! إن ابن خلدون الفخور بأصله العربي لم يكتب العبر لتمجيد العجم والبربر، أو للحط من أصله العربي، كما تعلّم القبول بهذا التفسير جميع فقهاء اللغة العربية اليوم في جمود أذهانهم، وبلاهتهم المعهودة»[1].

إن عملية التزوير التي تعرض لها التراث العربي كبيرة إلى درجة لا يمكن تصورها. ولقد انتبه اليوم في الغرب إلى ذاك الذي حدث عبر القرون كثير من الباحثين الموضوعيين، فصرخوا صرخاتهم المدوية من أجل تصحيح ما أحدثته تلك الجريمة من موروثات تزري بالعقل وبالانسان. ولقد شمل التزوير كل التراث العربي القديم في اليونان وإيطاليا، حتى الفلاسفة، وعلى راسهم أرسطو. يقول بيير روسي: «لقد كان أرسطو المعاد النظر فيه و«المصحّح» من قبل الجامعة قد جُرّد من ثقافته الآسيوية، وعزل عن مجتمعه الخاص، ثم وضعت صورته كمادة زخرفية في مدخل معبد الأفكار التراثية. إنه لأرسطو مزيّف، وإن واحداً من المسؤولين (النابغين) عن هذا التزوير لم يكن سوى توماس الاكويني»[2] .... «إننا نلمس سجلاً يحمل أفدح انواع التزوير والتخريب، وليس هناك اصعب من تصحيح مسلّمات في مسيرتنا العقلية جمّدت حصينة منيعة ضد الحقائق»[3].

وحينما انتبه العرب في عهد الخليفة المأمون إلى حقيقة ضياع تراثهم القديم لجأوا إلى العرب السريان من أجل نقل التراث العربي الفينيقي والسرياني الذي صار يدعي «إغريقيا» إلى العربية العرباء، العربية الفصحى. والأمر كان من اليسر بحيث لم يكن يتطلب اكثر من معرفة الأحرف الفينيقية (التي هي

---

(1) وليد الحجار، رحلة النيلوفر او آخر الأمويين، مطبعة الكاتب العربي، 1984 ، ص434 – 438 .

(2) روسي، المرجع السابق، ص136 .

(3) المرجع نفسه، ص66 .

اليونانية) لتصبح اللغة المقروءة هي العربية السريانية نفسها. هل كان صدفة أن الخليفة المأمون اعتمد العرب السريان تحديداً لإنجاز مشروعه؟ لقد انكب العرب في تلك الفترة على تجميع الذخائر القديمة من الكتب، وصاروا يشترطون على الأسير أن يطلق سراحه لقاء «كيس» من الكتب. وما أن تمت عملية النقل إلى العربية العرباء (الفصحى) حتى هتف المأمون بعبارته الشهيرة «هذه بضاعتنا رُدّت إلينا».

ثم كان العرب هم الوحيدين بعد ذلك، الذين تابعوا مسيرة ذلك التراث العربي القديم، فطوروه وأبدعوا حضارتهم الرائعة في شتى مجالات العلوم. وإن هذا لا يمكن أن يكون مجرد صدفة!

أما اليوم فيمكننا أن نصنف المؤرخين والباحثين ضمن الفئات التالية:

أ . مجموعة الباحثين الموضوعيين الذين دأبوا على توخي العلمية والموضوعية مستندين على معطيات علم الآثار، فأخضعوا الوثائق الآثارية إلى الدراسة العلمية على ضوء العلوم المساعدة الأخرى لعلم التاريخ، وتوصلوا إلى النتائج البعيدة عن أي تعصب عرقي أو سياسي أو ديني. نذكر منهم: فيكتور برنار، جوزيف كامبل، بيير روسي، جان غومليه، سيغرد هونيكه، وآخرين كثيرين، يزداد عددهم من عام إلى عام في كل انحاء البلدان الغربية.

لقد توصل هؤلاء الباحثون إلى أن الوطن العربي القديم هو المهد الأول للانسان وللحضارة. فأعلنوا صراحة في كل كتاباتهم أن الانسان العربي هو المعلم الأول للبشر، كما أن فريقاً منهم شنّ حملة على ظاهرة التزوير والمزورين التي خضع لها التاريخ البشري عبر العصور، وعلى ظاهرة التعصب الطاغية اليوم في معظم جامعات الغرب ضد العرب والحضارة العربية. ويقف في طليعة هؤلاء الباحث الفرنسي الشهير بيير روسي الذي فنّد عمليات التزوير في التاريخ المعمّم اليوم في الجامعات والمعاهد وأعلن: «إننا باختصار، في جهل مطبق، جهل علمي متفق عليه»[1]، و«إذا ما أبعدنا عنا الهوى»... وإذا ما انعمنا الفكر كي نرى بوضوح، وليس من أجل أن نكتفي بالأفكار المتوارثة. وإذا كنا عازمين

---

(1) روسي، المرجع السابق، ص18 .

على الأ نستعير شيئاً من احلامنا، فيجب علينا عندئذ ان نعرّف العروبة كما هي ـ الثقافة الوحيدة للشرق، وان نشرع في إبراز أنوار هذه الثقافة بإعادة النظر فيما كانوا قد علّمونا إياه.. ولن نصل إلى ذلك إلا بشرط إبعاد النظرة غير المناسبة والجزئية للشرق التي تلقيناها عن اساتذتنا»[1].

ب . مجموعة من المؤرخين تتذبذب بين العلم والنقل، بين الموضوعية والتزوير. إنها متناقضة دائماً فيما تكتب. فنراها ما ان تضع أيديها على الحقائق حتى تعلنها صريحة، لكنها لا تتردد في الوقت نفسه، في أن تسرد أقوالاً أخرى تسوقها «كحقائق» مناقضة للأولى دونما برهان.

إن أفضل من يمثل هذه الفئة: ول ديورانت، وجيمس بريستد. إن ول ديورانت، مثلاً، حينما يتحدث عن المشرق العربي القديم تحت اسم «الشرق الأدنى» يعترف بأنه هو الذي أعطى اوروبا وأمريكا حضارتهما. وأن كريت واليونان لم يكونا غير محطتين في الدرب مرت الحضارة العربية القديمة (من بابل ومصر) بواسطتهما، وعن طريقهما إلى أوروبا وأمريكا.

يقول ول ديورانت:

«لقد انقضى منذ بداية التاريخ المكتوب إلى الآن مالا يقلّ عن ستة آلاف عام. وفي خلال نصف هذا العهد كان «الشرق الأدنى» مركز الشؤون البشرية التي وصل إلينا علمها. وإذا ذكرنا هذا اللفظ المبهم في هذا الكتاب فإننا نقصد به جميع بلاد آسيا الجنوبية الغربية الممتدة جنوب الروسيا والبحر الأسود، وغرب الهند وأفغانستان، وسنطلق هذا الاسم أيضاً ـ وأن خرجنا في هذا على مقتضيات الدقة ـ على مصر، لأن هذه البلاد كانت شديدة الاتصال بهذا الجزء من العالم..

«على هذا المسرح غير الدقيق التحديد، الآهل بالسكان وبالثقافات نشأت الزراعة، والتجارة، والخيل المستأنسة، والمركبات، وسُكّت النقود، وكتبت خطابات الاعتماد، ونشأت الحرف والصناعات والشرائع، والحكومات، وعلم الرياضيات، والطب، وطرق صرف المياه، والهندسة، والفلك، والتقويم،

---

(1) المرجع نفسه، ص34 – 35 .

والساعات، وصوّرت دائرة البروج، وعرفت حروف الهجاء، والكتابة، واخترع الورق والحبر، وألّفت الكتب، وشيدت المدارس والمكتبات، ونشأت الآداب والموسيقى، والنحت الدقيق الجميل، ونشأت عقيدة التوحيد، ووحدة الزواج، واستخدمت أدوات التجميل، والحلي، وعرف النرد والداما، وفرضت ضريبة الدخل، واستخدمت المرضعات، وشربت الخمور... عرفت هذه الأشياء كلها، واستمدّت منها أوروبا وأمريكا ثقافتهما على مدى القرون عن طريق كريت واليونان والرومان. وقصارى القول: إن «الآريين» لم يشيدوا صرح الحضارة، بل أخذوها عن بابل ومصر، وإن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاءً لأن ما ورثوه منها كان أكثر مما ابتدعوه، وكانوا الوارث المدلّل المتلاف لذخير من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين. فإذا درسنا الشرق الأدنى وعظمنا شأنه فإنّا بذلك نعترف بما علينا من ديْن لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوروبية والأمريكية، وهو دين كان يجب أن يؤدّى من زمان بعيد»[1].

لكنه ما أن يبدأ الحديث عن اليونان حتى يبدي أسفه لأن «الطرواديين» اعترضوا طريقهم في التوسع رغم اعترافه بتفوق الطراوديين سمواً خلقياً وحضارة. لكن أسفه ينطلق من اعتبار الطرفين أوروبيين (أو هندو أوروبيين)، فما كان على الطرواديين أن يعترضوا طريق الشعب «اليوناني» العظيم في التوسع صوب آسيا، لأن حضارته تصير «فجأة» «أرقى من كل الحضارات».

لنقرأ: «والصورة التي تطالعنا في الألياذا عن فريام وبيته هي صورة العظمة والعطف الأبوي.. والطرواديون في جملتهم، كما يصورهم أعداؤهم، يبدون في نظرنا أقل خداعاً، وأكثر وفاء، وأحسن تهذيباً من اليونان الذين غلبوهم على أمرهم. ولقد أحسّ الفاتحون أنفسهم بهذا التفوق في أواخر أيامهم..»

لكن: «لقد كان من دواعي الأسف أن يعترض هذا الشعب طريق بلاد اليونان المتوسعة، التي جاءت، رغم عيوبها الكثيرة، إلى هذا الاقليم وإلى غيره من أقاليم البحر المتوسط في آخر الأمر بحضارة أرقى من كل الحضارات التي

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، الكتاب الأول، الباب السابع، ص9 .

عرفها من قبل»[1] .

وهكذا نرى أن ديورانت ينسى فجأة ما كان قد قرره وكتبه، إذ ما أن تدب في أوصاله «الحمية» الغربية الجاهلية حتى تتحول عشيرة الآخيين السورية التي كانت أول من نزح إلى بلاد المورة هي «اليونان» وهي «أوروبا» لأنها أرادت أن تتوسع في آسيا و«دمّرت» طروادة الآسيوية، أفلا يعني هذا أنهم من جنس «هندو أوروبي» متفوق، مقاتل، جدير بنا أن نفسح الطريق أمامه ليتوسع في آسيا؟

ج . مجموعة المؤرخين الذين سخروا كتابة التاريخ لنزعاتهم القومية أو السياسية التعصبية الضيقة، أو لانتماءاتهم أو ولاءاتهم الصهيونية المكشوفة والتي افتضح أمرها بأنها لم تترك شيئاً ما في التاريخ حقيقياً دونما تزوير.

وينضوي ضمن هذه الفئة كثير من كتبة التاريخ القديم في البلدان الغربية ومعظم، إن لم نقل كل، كتبة التاريخ القديم في ما كان يدعى سابقاً بـ «البلدان الاشتراكية» لأسباب كثيرة من أهمها سيطرة الصهيونية على كتاباتهم، عن وعي أم عن غير وعي، فالنتيجة في الحالين سواء.

كيف نظر هذا الفريق إلى موضوع «المركز»، على سبيل المثال، والذي هو محور مواضيع بحثنا واهتمامنا في هذا الكتاب؟

لقد ركزوا على ظاهرة التشابه في المعطيات الحضارية في مناطق مختلفة من العالم. لقد جعلوا منها ظاهرة مجردة قائمة بذاتها، فجردوا، بذلك، التاريخ من كونه علماً، إذ أنهم ألغوا الحامل الزمني للحدث التاريخي، أو للظاهرة، الذي من شأنه وحده أن يقررّ عامل الأسبقية في الزمن بين ظاهرتين متشابهتين في مكانين مختلفين. ثم «فلسفوا» ظاهرة التشابه معزولة عن مقدماتها ومسبباتها. ومن بين أوضح من يمثل هذا التيار الكاتب «السوفييتي سابقاً» أ. كوندراتوف.

لنقرأ بعض ما يكتبه كوندراتوف بخصوص المركز:

«ويجد العلماء تشابهاً كبيراً في الفن المعماري، والفن التعبيري، والكتابة، عند

---

(1) المرجع نفسه، ص72 – 73 .

هنود قبائل «مايي» مع آثار الحضارة في مصر القديمة، وكمبوديا القرون الوسطى [لاحظ إسقاط عامل الزمن في التاريخ!] وغيرها من البلدان البعيدة كل البعد عن أمريكا الوسطى [لاحظ محاولة الايحاء بكون امريكا ربما هي المركز]. وتوجد الكلمات المتشابهة بالصوت والمعنى في مختلف لغات العالم، وتحنيط الأجسام الميتة لم يكن مقتصراً على بلاد الأهرام، بل نجده عند قبائل الأزتيك في أمريكا الجنوبية، وعند الهوانجي في جزر الكاريبي، وعند سكان خليج توريسون الذي يفصل بين استراليا وغينيا الجديدة. واستعمل سكان الهندستان والمصريون القدامى، وسكان استراليا الأصليون البمرنغ (خشبة تستخدم كالقوس لرمي الأشياء). وكانت الأفعى مقدسة لدى السكاندينافيين الشقر، والدرويديين السمر، والسومريين ذوي الشعر الأسود، واليهود القدامى، والهنود الحمر في وسط أمريكا، ويمكن مواصلة هذه القائمة.. ألا يدلّ هذا على أن الحضارات القديمة قد نبعت من مركز واحد؟.. وإذا كان الأمر كذلك، فأين هو؟ في أي مكان من هذا الكوكب يجب أن يكون المركز «إكس» مهد الحضارة الانسانية»[1] .

إن مثل هذا «الخلط» الذي يعتبره هو عرضاً للظاهرة الواحدة يخفي تحته القصد غير السليم. فمن أجل تغييب العامل الزمني في التاريخ الذي يحدّد الأسبقية الزمنية في الوجود عمد إلى خلط الشعوب الحديثة بالقديمة، بل وذكرها قبلها كما فعل بالنسبة للسكندينافيين الذين ذكرهم قبل الدرويديين والسومريين، لا لشيء إلا ليبعد القارىء عن الخطوة الأولى في الدرب الصحيح. لكنه مادام يقرّر أن مثل هذه الظاهرة للتشابه تؤكد وجود مركز «إكس» كمهد للحضارة الانسانية، فلابدّ أن يبحث عن هذا المركز. أما كيف بحث، وكيف توصل إلى ذلك، فهذا شأن آخر. لنتابع:

«في حينه طرحت فرضية تقول إن مصر القديمة هي مهد حضارتنا. أما علماء الآشوريات فقد اثبتوا ان بلاد الرافدين هي موطن الانجازات الأساسية

---

(1) 1. كوندراتوف، الطوفان العظيم بين الواقع والأساطير. دار وهران، ترجمة الدكتور عدنان عاكف حمودي، الطبعة الأولى، دمشق، 1987 .

للحضـــارة الانســـانيـة. وادعت بـلاد العجـائب ـ الهند ـ احقيتهـا بلقب «أم الحضــارة». وطـرحت فرضيات تقـول إن حضـــارات العـالـم الجديد أقدم من حضـارات العالم القديم، وأن امريكا، وبالذات منطقة الآند، هي مهد حضـارتنـا. ولكن لم تنل أي من هذه الفرضيات اعتراف الجميع، اترى يجب أن نبحث عن المـركز «إكس» ليس في الأرض بل في قـاع المحيط؟ أترى يجب أن نبحث عن منبع حضـارتنـا في قـارة غريقة، وليس في القارات الموجودة حالياً؟

«لقد صـاغ هذه الفكـرة بـروعة الشـاعر والعالم فـاليري بروسـوف في مقالة عنوانها «اسـاتذة المعلمين»، فحواهـا أن وحدة البدايات هذه، والتي تكمن في أسـاس الحضـارات المتنوعة جداً، والمتباعدة عن بعضهـا البعض، أي حضـارات «القـدم المبكـر» ـــ الحضــارة المصريـة، والبـابليـة، والايجيـة، والأتـروسيـة، والهندية القديمة، وحضـارة شعب المايي، ويمكن ايضـاً إضـافة حضـارات جزر المحيط الهـادي، وشعـوب أمريكا الجنوبية ـــ لا يمكن تفسيرهـا على الإطلاق بكونهـا نتيجة النقل المجرد من شعب إلى آخر، وعن طريق التـاثيرات المتبـادلة، او التقليد. علينـا أن نبحث، في اسـاس أقدم الحضـارات الانسـانية، عن تأثير واحد مـا، والذي يستطيع أن يفسر لنـا بصدق سرّ ذلك التشابه العجيب بينهـا. يجب البحث خـارج نطاق «القدم المبكر» عن «إكس» مـا، عن عالم حضــاري لا يزال مجهولاً للعلم، والذي أعطى الدفعة الأولى لتطور جميع الحضـارات التي نعـرفهـا. لقد كـان المصريـون، والبـابليـون، والايجيون، والايليون، والرومان معلمينـا، معلّمي حضـــارتنـا المعـاصرة، فمن كـان معلـم هؤلاء؟ من هـم الذين يستحقـون اللقب الخطير «أســاتذة المعلمين»؟ العرف يجيب عن هذا السؤال: «الاطلانتيد»[1].

ليس عسيراً على القارىء الحصيف أن يلاحظ ويستنبط الأمور التـالية:

1) لقد أصرَّ الكاتب في البداية على عرض ظاهرة التشابه في شكلها المجرد.

2) لقد تعمّد حذف عـامل الزمن الذي لا وجود لعلم التـاريخ بدونه.

3) إنـه لـم يحـاول البحث عن المـركز «إكس» من خـلال معطيات علوم الوثـائق

---

(1) كوندراتوف، المرجع السـابق، ص87 - 89 .

والآثار واللغات، ولا من خلال معطيات أي علم آخر، بل ساق عربته بقارئه إلى بيت «صديقه» دون أن ينسى أن يكيل له عبارات الثناء والتمجيد الكاذب حتى يكون لكلامه وقع ذو أثر.

4) لقد خلط بين المصريين والبابليين والرومان كمعلمين أوائل، في الوقت الذي صار معروفاً أن الحضارة الزراعية السورية تمتد إلى عشرة آلاف عام قبل الميلاد مشهودة آثارياً، وأن الرومان لم يبرزوا على الساحة إلا بعد الميلاد، وبجهود الأباطرة السوريين أنفسهم.

5) ولما تبيّن للعالم كله أن الوطن العربي هو المهد الأول للانسان وللحضارة على هذا الكوكب صار لابدّ من البحث خارج الأرض، تحت المياه، عن «أساتذة المعلمين»، فهؤلاء المعلمون ـ كما أظهرت نتائج علوم الأرض والانسان ـ عرب، فلابد من إلغاء النتيجة، والبحث عمّا هو أبعد عن «أساتذة» لهؤلاء المعلمين! أين؟ ليس على الأرض، لأن الأرض تثبت نتائج لصالح العرب. ينبغي البحث تحت ماء المحيط، في الغرب، حيث «يُعتقد» أن ليس ثمة ما هو عربي. وهل هذا المركز الجديد القابع تحت ماء المحيط يمكن أن يكون هو المعلم؟ بالتأكيد. ما الدليل؟ ـ العرف!

6) إن الكاتب «الزاحف» تحت الماء لم ينس أن يدخل «اليهود» كواحد من الشعوب القديمة، متغافلاً ـ كعالم (!) ـ عن الحقيقة التي لم ينكرها أي عالم، ماركسياً كان أم أفلاطونياً، أرضياً أم سماوياً، زاحفاً أم طائراً، وهي أن اليهودية دين وليست شعباً أو أمة.

7) لقد وقع في سطرين اثنين في تناقض لا يقع فيه انسان يقف منتصباً على ساقين ويرى بعينين: فبعد أن كال المديح لـ «الشاعر العالم فاليري بروسوف» الذي «صاغ تلك الفكرة بروعة الشاعر» وأكد أن «تلك الحضارات المتنوعة والمتباعدة.. لا يمكن تفسيرها على الإطلاق بكونها نتيجة النقل من شعب إلى آخر وعن طريق التأثيرات....» نراه بعد هذا مباشرة يقول «إن علينا أن نبحث في أساس أقدم الحضارات عن تأثير واحد ما، والذي يستطيع أن يفسر لنا بصدق سرّ ذلك التشابه العجيب بينها، يجب البحث خارج نطاق «القدم المبكر» عن «إكس» ما، عن عالم حضاري ما يزال مجهولاً للعلم».. وهنا بيت القصيد!

فالتشابه ـ كما قرّر صديقه العالم ـ لا يعني وجود مركز ما مارس التأثير على الآخرين، ومع هذا يجب البحث عن مركز مارس هذا التأثير! مركز خارج «القدم المبكر»!

ومن أجل أن تكون الصورة كاملة الوضوح بالنسبة لقارئنا الذي يمارس عليه أولئك «الأدعياء» ـ لا العلماء ـ كل هذه الضروب من «السخافات» التي يسمونها «علماً»، فإننا سوف نتابعه إلى آخر الشوط لتتكشف لنا الأرضية التعصبية التي ينطلقون منها دونما أي قناع.

لقد قفز كوندراتوف إلى «عالم» آخر معروف بـ «شطحاته» التخيلية التعصبية، لكن هذه المرة من.. امريكا، إنه المدعو أغناطوس دونيلي، لقد ساق كوندراتوف قارئه إلى دونيلي ليعرّفه على أقواله، كعالم، دون أن يجشم نفسه عناء التعليق على كلمة مما يقول.

ودونيلي هذا وضع كتاباً حول الأمل المنشود في القارة الغرقى، والذي قد ينقذ تلك الفئة من «المؤرخين» و«الباحثين» من مأزق الاعتراف بالحقائق التي أخذت تقدمها المكتشفات الآثارية في الأرض العربية، وتؤكد أن العربي هو المعلم الأول للبشرية، فدعا كتابه «الأطلنتيد ما قبل الطوفان» وذلك في عام 1882 . وقد أعيدت طباعته أكثر من عشرين مرة. ويقول عنه كوندراتوف: «حاول دونيلي فيه أن يثبت بأن البشرية مدينة بمنجزاتها الثقافية، وفنها المعماري، ونصبها التذكارية، والكتابة... الخ، إلى سكان الأطلانطيد... واعترف دونيلي بأن أحداً لم يوفق حتى الآن في العثور على اثر واحد، على ذرة غبار واحدة، بوسعها أن تقول لنا شيئاً عن تلك القارة الغريقة. ولو قدّر لأحد أن يعثر بالفعل على عمارة واحدة، تمثال واحد، أو لوحة واحدة مدونة بخط الأطلانطيد، فإن ذلك سيذهل البشرية بأسرها لا محال. إن لقية كهذه ستكون أثمن من كل ذهب البيرو وآثار مصر، وأثمن من كل الكتب الطينية في المكتبات العظيمة لبلاد ما بين النهرين»[1] .

هذا هو «علم» دونيلي الذي يقود كوندراتوف قارئه إليه! إن لقية واحدة يمكن أن

---

(1) المرجع نفسه، ص88 – 90 .

يعثر عليها من أطلانطيد ستكون أغلى من كل ما قدمته مصر وبابل! هذه هي «الموضوعية» التي يكتب بها تاريخنا في الخارج! ولكن ما الذي جعل كوندراتوف يتوجه إليه ويعتمد عليه ما دام هذا يقرّ بأن ليس ثمة ذرة غبار واحدة من ذلك «المركز» المجهول؟ إنه «العرف» كما سبق أن أخبرنا!

ج ـ أما الفئة الثالثة التي يمكن أن نلحقها بتلك المجموعات فهي فئة «أساتذة» التاريخ في الجامعات العربية، الذين يعمدون ـ في معظمهم ـ إلى نقل ما يكتبه الآخرون دون أن يجهدوا أنفسهم في البحث فيما ينقلونه. فيضعون أسماءهم على ما نقلوه، ويدرسونه لطلابهم في الجامعات العربية، ممّا يضطرهم إلى تبني كل كلمة فيه والدفاع عنها، فيحققون بذلك للآخرين كسباً مضاعفاً: فهم، أولاً، مضطرون لتبنّيه والدفاع عنه أمام طلابهم لأنه «يسوِّق» بأسمائهم، وهم، ثانياً، يكرسونه، ويرسخونه في عقول الناشئة جيلاً بعد جيل، فيقدمون بذلك خدمة للآخرين لم يكونوا يحلمون بها، كما يشكلون بذلك خطراً عظيماً على التاريخ العربي، وعقبة حقيقية أمام محاولات تصحيحه أو كتابته.

ولابدّ هنا من أن نميز بعضاً من هؤلاء الأساتذة النقلة، الذين ما يلبثون أن يحسّوا بفداحة ما ينقلون، وببعده عن العلم، وبكونه مشبعاً بروح التعصب لا الموضوعية، فيعبرون عن «ثورتهم» دون أن يفعلوا شيئاً على صعيد البحث أو التصحيح. وكمثال على هؤلاء نذكر الدكتور محمد كامل عياد، الذي ما أن فرغ من «كتابة» الجزء الأول من كتابه «تاريخ اليونان» حتى تملكه ذلك الشعور الذي انفجر في كلمات حادة غاضبة في آخر مؤلفه حيث كتب يقول: «من المؤلم أن ما نجده لدى معظم المؤرخين الغربيين في مخالفة ظاهرة للحقيقة عند تفسير الحوادث التاريخية، أو تأويلها، أو التعليق عليها، بل عند عرضها، ليس ناشئاً عن جهل أو خطأ في الاجتهاد، وإنما هو، في الغالب، تزوير مقصود يرمي إلى أهداف سياسية استعمارية. ولا غرابة إذا رأينا رجال السياسة الغربيين مافتئوا يردّدون في خطبهم وبياناتهم عبارة «الدفاع عن الحرية والحضارة» عند شنّ الحروب على الأمم الشرقية كلما قامت تطالب باستقلالها وتحاول الخلاص من المستعمرين الأجانب. لا غرابة في ذلك، لأن هؤلاء الساسة ليسوا سوى تلامذة أولئك الأساتذة المؤرخين، أو ربما كان الأمر على العكس: فليس

بالأساتذة العلماء سوى خدم مأجورين وعبيد مطيعين للساسة الحكام»[1] .

ومن مظاهر النقل البشعة التي دأب عليها «الأساتذة» العرب، أو أولئك الذين يطلقون على أنفسهم لقب «باحث في التاريخ» ما يقومون بنقله عن الأجانب من «ترجمات» لكثير من النصوص الوثائقية العربية القديمة، بكتاباتها المختلفة المسمارية أو الفينيقية أو غيرها، فتخرج إلينا تلك النصوص لا تمتّ إلى العربية القديمة ولا الحديثة، بل ولا لأية لغة أخرى في هذا العالم، دون أن تستثير فيهم وقفة تأمل أو انتباه واحدة.

ومن الأمثلة التي نسوقها هنا للقارىء ترجمة لأحد النصوص الفينيقية المكتشفة في «قره تيفيه» والتي عثر عليها على الرقيم الخاص بتمثال الملك.

ونحن هنا سوف نعرض للقارىء صورة النص بأحرفه الفينيقية، وما يقابلها بالكتابة العربية الحديثة، ثم ترجمة بعض أسطر النص كما هي منشورة ومتداولة، وموجودة في كتاب «النصوص الفينيقية في قره تيبيه» والذي وضع على غلافه «منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الآثارية، تحقيق وبحث كميل أفرام البستاني، بيروت 1985 ».

إننا، إذن، أمام نصوص سورية قديمة، ترجمها المستشرقون إلى لغاتهم، ونقلها النقلة العرب حروفاً من الأصل، وترجمات عن الترجمات الاستشراقية، قام بتحقيقها وبحثها احد «الأساتذة» وصارت إلى التدريس في إحدى جامعاتنا العربية.

ولابدّ هنا من ان ننبّه القارىء إلى ان قدامى السوريين لم يكونوا يتركون فاصلاً بين الكلمة والأخرى معتمدين بداهة على ان أياً منهم كان لمجرد أن ينظر إلى النص فإنه يميز كلماته أين تبدأ كل منها وأين تنتهي، لكن التقطيع الذي أحدثه المستشرقون ليفصلوا بين حدود الكلمة عن الأخرى قلب الكلمات، وجعلنا أمام نص آخر لا يمتّ إلى حقيقة ما دونه قدامى السوريين بصلة، وفوق هذا فقد قدموا لنا بذلك نصاً جديداً باللغة العربية لا يمت بصلة حتى إلى اللغة العربية نفسها.

---

(1) محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، الجزء 1 ، دار الفكر، دمشق، 1985 ، ص373 .

رقيم تمثال الملك ـ الظهر، بالأحرف العربية الفينيقية

لمومص! ترمش وعد مبأي وبمعقمم
اش كن لفدم تشرتعم اش يشتنع اد
م للكت درك وبيمتي الك اشرت تك
لخمي دل فلكم بعبر بعل وبعبر
٥ الم وكن بكل يمتي شبع ومنعم
وشبت نعمت ونحت لب لدننيم
ولكل عمق ادن وبن الك هقرت ز
وشم ازتودي كبعل ورشف صفرم
شلحن لبنت وبنتي الك بعبر ب
١٠ عل وبعبر رشف صفرم بشبع وبمنع
م وبشبت نعمت وبنحت لب لكني
مشمر لعمق ادن ولبت مفش كبيمت
ي كن لارص عمق ادن شبع ومنعم وبل كن
مت مل بيمتي لدننيم وبن الك هـ
١٥ قرت ز وشت الك شم ازتودي ويشب
الك هالم ز بعل كرنتريش وبزك
بعل كرنتريش ايت ازتود بحي
يم وبشلم وبعز ادر عل كل ملك
لتتي بعل كرنتريش لازتود
٢٠ ارك يمم ورب شنت ورشات نعمت

النص منقولاً إلى ما يقابله بالأحرف العربية

الفٌ لَمْ. وهذا كان بأيامي بكل
حدٍّ عمق ادن من منبثق الشمس
وحتى مغربها، وبالمقامات التي كانت
قبلاً شائعة التي فيها يشتع الأدم في سلوك
٥ الدرب. وبأيامي انا أسستُ تكأً لخير
اهل الفلاك بعير بعل والآلهة
وكان بكل ايامي شبع ومنعم وسيات
نعمات ونياح لبّ للدننيين ولكل عمـ
ـق ادن. وبنيت انا القرية هذه وجعلت (قا)
١٠ انا اسم ازتودي لأن بعل ورشف
صفرم ارسلاني البناء فبنيتُها انا بـ
بعير بعل وبعير رشف صفرم بـ
شبع ونعم وسبات نعمات ونياح
لبّ لتكون حرساً لعمق ادن وليـ
١٥ ـت مفش، لأن بأيامي كان لأرض عمق أ
دن شبع ومنعم، وما كان امرات للدننيين
حكي بأيامي. وبنيتُ انا القرية هذه، جعلتُ (قا)
انا اسم ازتودي، الفتُ انا فيها
بعل كرنتريش. وسار ذبحٌ لكل

ترجمة النص كما وردت في كتاب «النصوص الفينيقية المكتشفة في قرة تبيه»

والآن لنقرأ النص في ترجمته العربية كما هو موجود في الصفحة 113 من الكتاب المذكور:

«من منبثق الشمس وحتى مغربها وبالمقامات

التي كانت قبلاً شائعة التي فيها يشتع الاد

م في سلوك الدرب. وبأيامي أنا أسست تكأً

لخير ذوي الفلاك بعير بعل وبعير

الآلهة. وكان بكل أيامي شبع ومنعم

وسيات نعمات ونياح لب للدننيين

ولكل عمق أدن....»[1].

نكتفي بهذا القدر، ونسأل: هل فهمتم شيئاً؟

---

(1) النصوص الفينيقية في قره تبيه، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الأثرية، تحقيق وبحث كميل أفرام البستاني، بيروت، 1985، ص113.

ومن أجل أن تتكشف للقارىء فداحة «النقل» الذي «أدمن» عليه «أساتذتنا» بعد ان عطلوا عقولهم، فإننا سوف نقطع له الكلمات كما هي في الحقيقة، وليكن ذلك من منتصف السطر الثالث، أي من كلمة «و ب ي م ت ي»:

«.. و ب ي م ت ي ا ن ك ا ش ت ت ك ل
ح د ي د ل ف ل ك م ب ع ب ر ب ع ل و ب ع ب ر
ال م و ك ن ب ك ل ي م ت ي ش ب ع و م ن ع م
وش ب ت ن ع م ت و ن ح ت ل ب ل د ن ن ي م
ول ك ل ع م ق ادن»

وترجمتها الحرفية هي كمايلي:
وبخليجي (أو بحيرتي) أنا أكرم (أقيم المآدب والولائم) كل
أحد (كل من) ينتشل زورقاً (أو سفينة أو فلكاً) في مضيق البعل
(مضيق البوسفور حالياً) وبمضيق إيل (مضيق الدردنيل حالياً)
وكان بكل مياهي (خليجي) سبع موانىء
والسبت للتراتيل ولراحة القلب للدانانيين
ولكل سهل أدنه».

ولتعريف القارىء ببعض كلمات النص الأساسية التي لا يفهمها تلقائياً نوضح الكلمات التالية:

وبيمتي: «يمتا» هي مؤنث اسم يم وتعني البحيرة، المياه ضمن نطاق معين، الخليج. وليس معناها «بأيامي» كما هي مترجمة. لأن الواو في كلمة «يوم» العربية القديمة والحديثة حرف ساكن وليس ليناً صوتياً، وبالتالي فقد كان يكتب ويجمع يوموتي.

وإن كلمات أشتت كل حد ليست «أسَستُ تكأً لخير» وإنما «أشتت» هي في القاموس السرياني من «أشتي» أي أولم، أقيم مآدب الشراب والطعام، و«كل حد» كل واحد.

وكلمة «يدل» من الفعل «دلا» في القاموس السرياني، انتشل، خلّص، انقذ، استسقى، أخرج الماء من البئر، ومنها جاءت كلمة «دلو» فيما بعد.

وكلمة «فلكم» هي الفلك، والميم نهاية اسم المفرد هنا وليست للجمع.
و«بعبر بعل، وبعبر إيل» أي بمضيق بعل وبمضيق إيل، ونلاحظ كيف أن قدامى السوريين كانوا يطلقون أسماء أربابهم على المضائق والأنهار والمواقع، فنهر الدانوب كان نهر عشتار، وعمق أدن الذي هو سهل أدنه اليوم دعي بـ «سهل أدن» الذي هو أدونيس.
أما «شبعو» فهي سبعٌ، و«منعم» جمع «منعا» وهي بالقاموس السرياني تعني الميناء، المرفأ، وقد تحولت العين إلى حرف صوتي كما في اللهجة المندائية والفينيقية وصارت «مينا» و«شبت» هو السبت، و«نعمت» تعني أنغام، تراتيل، و«نحت» تعني راحة، و«ناحوت» تعني الاستراحة و«نوح» المرتاح، المتوفى، السعيد، القديس. و«منيح» التي ما نزال نستخدمها في لغتنا اليومية الدارجة تعني مرتاح، مبسوط، سعيد، وقرية «النيحة» تعني الراحة.
و«لب» تعني قلب.
والدادانيون عشيرة سورية كانت تسكن منطقة المضائق قبل عشائر الدردانيين السورية الأخرى التي دعي مضيق الدردنيل باسمها و«عمق» تعني السهل المنخفض بين جبال.
فما الذي حققه وبحثه الأستاذ كميل أفرام البستاني إذن؟
ثم أفلا يُرثى لأجيالنا التي يجري تلقينها مثل هذه الشعوذات الاستشراقية التي يدعونها ترجمات لنصوص ولوثائق فينيقية!
وكان من بعض أبواب التزوير والتغييب المقصود للحضارة السورية ما لجأ إليه المزورون من اختراع لتسميات حديثة جيوبوليتيكية، أسقطوها على تاريخنا القديم، ثم ما لبث النقلة العرب أن التزموا بها أكثر من غيرهم. من هذه التسميات: الشرق، الشرق الأدنى، آسيا، آسيا الصغرى، وغيرها.
أما التزوير الأكبر والأهم الذي جرى فيه تغييب اسم سوريا من التاريخ القديم فهو ما قامت به الأوساط الانكليزية الاستعمارية مع الصهيونية تحت قناع ما دعي بـ «جغرافية الكتاب المقدس، والأرض المقدسة» و«قاموس الكتاب المقدس». وذلك بأن عمدت إلى إلغاء أي ذكر للعرب عامة، وللسوريين خاصة، من تاريخ المنطقة الممتدة من الفرات إلى النيل، وملأتها بالعشائر البدوية

العربية التوراتية، بعد أن نقلتها من مضارب خيامها في بقعة جد ضيقة من برية عسير في شبه جزيرة العرب إلى ساحة سوريا الغربية، ونفخت تلك العشائر لتجعل منها أقواماً وشعوباً ودولاً مزعومة بعد أن كانت حدودها ـ كما هي في التوراة ـ مضرب الخيام، والحقل، والمغارة، وشجرة البطم أو البلوطات، وعين الماء..

لقد تحدثنا عن هذا مفصلاً، وخصصنا له كتابنا الثاني «العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود»[1]، وليس ثمة داع للعودة إليه مرة أخرى.

«كلكم لآدم وآدم من تراب»

إن في هذا القول الجميل لمحمد النبي العربي تلخيصاً لعملية نشوء الانسان ولوحدة التاريخ الانساني، المنطلقة من وحدة «المركز» الذي ضخّ الانسان والحضارة إلى كل الأنحاء.

وإن إثبات هذه الحقيقة ليس من شأنه أن يضيء التاريخ الانساني على هذه الأرض فحسب، بل ويكرس الوحدة الانسانية، وأخوة الانسان للانسان، ويلغي التعصب الذي هو عنوان البناء الحضاري الراهن، والمسيطر على كتابة التاريخ. لقد سقطت لدى كل العلماء الجادين اليوم فرضية النشوء المتوازي للثقافات على أرضية التشابه في الظروف والشروط. لقد أسقطها عاملان أساسيان: السبق في الزمن، أولاً، وعامل اللغة الذي لا يقدر أن يماري فيه أحد ثانياً.

إذ من المعلوم أن وجود ظاهرتين حضاريتين متشابهتين أو متماثلتين في مكانين وزمانين مختلفين قد يسمح بالاعتقاد إمّا بانتقال الظاهرة أو بالنشوء الذاتي المستقل لكل منهما، لكن وجود اللغة الواحدة في مكانين وزمانين مختلفين لا يكون إلا بانتقال الناس الذين يتكلمون هذه اللغة ويفرضونها على غيرهم في مكان آخر وزمان آخر نتيجة لتفوقهم الحضاري وبصورة أساسية

---

(1) من أجل التفاصيل راجع كتابنا المذكور.

حقيقية راسخة، أو العسكري بصورة ثانوية آنية وطارئة.

ولهذا، ولفرط وجود هذه الظواهر، فقد صارت مسألة «المركز» إحدى المسائل المهمة والملحّة أمام كل المؤرخين والباحثين اليوم، ما لبثت كل التيارات الفكرية المعاصرة أن انخرطت فيها، كما رأينا سابقاً، وبدأت تخوض غمارها، ومنها التيارات التزويرية التعصبية التي، وإن كانت ما تزال تؤلف الأكثرية، لكنها هي الأضعف والأقصر عمراً، إذ هي لا تقف على اساس ولا على اية أرض ثابتة.

ونحن هنا، في تناولنا لهذه المسألة الهامة، نعتمد المنهجية التالية:

1 . البحث في كل هذه المعايير التي من شأنها أن تحدّد «المركز»، بدءاً من البيئة وما تتضمنه من شروط الجغرافيا والمناخ، ومروراً باللغة، وانتهاءً بالآثار.

2 . دراسة معطيات المكتشفات الآثارية والوثائق المدونة دراسة علمية موضوعية تاريخية ومنطقية، بالإضافة إلى اعتماد كل ما يمكن ان تقدمه كل العلوم المساعدة الأخرى لعلم التاريخ.

3 . النظرة الشمولية لعلم التاريخ التي تجسّد نشاطات الانسان العلمية والدينية في وحدة مترابطة ارتباطاً عضوياً لا ينفصل ولا يتجزأ. إن العلم والدين، كما أكدت كل مصادر التراث العربي خاصة، والانساني عامة، هما وجهان لعملية واحدة ليسا متعارضين أو متناقضين، بل يكمل أحدهما الآخر، ويلتقيان في النقطة الواحدة.

4 . إننا ننطلق في كل هذا من إيماننا الراسخ بوحدة التاريخ الانساني على الأرض. وإن هذا من شأنه أن يسلّط الضوء على كل العمليات الإقسارية أو التعصبية في كتابة التاريخ ويسقطها. وبهذا فإن كتابتنا موجهة إلى كل انسان وكل أمة، لأن الكتابة العلمية الموضوعية للتاريخ الانساني هي التي من شأنها أن توحد الانسانية وتضيء لها درب مسيرتها الحضارية بأنوار القيم الانسانية النبيلة التي كاد التعصب أن يحيلها إلى سراديب ومتاهات مظلمة تخبىء في منعطفاتها المصطنعة أخطاراً حقيقية تهدد الوجود الانساني كله بشراً وحضارة.



الحلقة الثانية

المعايير العلمية لتحديد المركز

قبل أن نتحدث عن المعايير العلمية التي من شأنها أن تحدّد المركز الأول للانسان وحضارته على الأرض نودّ أن ننبّه إلى النقاط التالية:

1 . إن المقصود بالانسان هنا هو الانسان العاقل الأول وتجمعاته الأولى. وقد حدّد العلماء مواصفاته من خلال ما اكتشف له من هياكل عظمية ومن خلال الأدوات التي صنعها واستخدمها. وقد عثر عليها العلماء بكثرة، وبصورة متواصلة دونما انقطاع، في كل أنحاء سوريا الطبيعية: مغارة الأميرة، وكسار عقيل، ومغارة أنطلياس (في لبنان)، ووادي اسكفتا في يبرود، ومغارة الكبارا (في القطر العربي السوري)، ومغارة شانيدار (في العراق) وغيرها.

2 . ونحن سوف نرى كيف أن مصادر التراث العربي القديم بمجموعها حدّدت لنا مكان وجود الانسان الأول بصورة دقيقة ومحددة في جبال السراة من شبه جزيرة العرب. إن هذا ــ وكما سوف يتأكد لنا من خلال الفصول اللاحقة ــ لن يحدث تناقضاً، خاصة وأن تلك المنطقة ما تزال «بكراً» ولم تمتد إليها يد الاستكشاف الآثاري بعد. وإن السوريين في الأصل هم «سرن» التي هي جمع «سر» في العربية القديمة وتعني السيد، العالي، المرتفع، وهي «السراة» في عربية اليوم. وإن «سرن» العربية القديمة، كانت تكتب بدون أحرف صوتية يقابلها فيما بعد «سريان» و«سوريون»، الذين هم أبناء «سر» وسكان «سرت» في العربية القديمة التي هي أرض «سرت» السيدة، العالية، السرّة، المركز.

3 . لقد أكدت مصادر التراث العربية القديمة أن الأرض الجنة التي خلق فيها آدم الانسان العاقل الأول هي في إحدى مغاور جبال السراة حيث منبع الأنهار. وكانت لغته فيها العربية. ثم لما طرد منها إلى ما حولها من جبال السراة، وعاش بالكدح، وتكاثرت ذريته، هبطت لغة ذريته إلى لهجة من العربية هي لهجة «سرن» (السريانية). وهذا ما أكدته الأحاديث النبوية الشريفة. وبناء على هذا فإن العربية هي لغة آدم الأصل التي عُلّمها في الجنة، وإن السريانية هي

العربية الجبلية التي تكلمها أبناء آدم بعد هبوطه من الأرض الجنة، وهي، بالتالي، أقدم اللهجات العربية القديمة، والتي انتشرت مع انتشار العرب

السوريين حتى عمّت ـ كما سوف نرى ـ جميع أرجاء العالم القديم.
بعد هذه الملاحظات التمهيدية ننتقل إلى المعايير العلمية التي هي وحدها التي يمكن أن يستدل بها على وجود المركز.

المعيار الأول: الجغرافيا والمناخ

في القرن التاسع عشر شاع جدل واسع بين العلماء حول العصور الجليدية التي مرت بها الكرة الأرضية. لقد وقفت فئات عريضة من العلماء ضد فكرة العصور الجليدية، واعتبرتها مجرد فرضية، كغيرها من الفرضيات الكثيرة التي أطلقت بكثافة في ذلك القرن دون اساس، لكن عمليات المتابعة في البحث ما لبثت أن كشفت صحة هذه النظرة، وأصبح العلماء اليوم يجمعون على أن الأرض في عمرها الطويل كانت تمرّ بفترات متعاقبة من العصور الجليدية يفصل بينها عصور دافئة، يمتد كل منها مابين 60 إلى 120 ألف عام.
لقد اكتشفت آثار العصور الجليدية في مختلف مناطق الكرة الأرضية. وتعلّم الجيولوجيون بسرعة كيف يميزون بين عصر جليدي وآخر: فالعصر الجليدي الذي انتهى قبل ملياري سنة توجد آثاره بالقرب من بحيرة هورون في أمريكا الشمالية. واكتشفت آثار العصر الجليدي الذي حلّ قبل 650 – 600 مليون سنة في شمال وشرق جبال الأورال. وجليد غوندوانا شمل قارات نصف الكرة الجنوبي والهند وجنوب شبه جزيرة العرب وغطى معظم مناطق نصف الكرة الشمالي.
وفي آخر عصر جليدي مرت به الكرة الأرضية، والذي يجمع العلماء على أن نهايته كانت في حوالي 14000 ق.م وأعقبه عصرنا الدفيء الحالي كان يغطي بطبقة جليدية سميكة، وبسماكة مئات الأمتار، أمريكا الشمالية وغرب أوروبا مثل الجزر البريطانية، والأراضي المنخفضة، وفنلندا، والدانمارك، ومنطقة الألب أواسط فرنسا. وكانت روسيا مركز الاشعاع الجليدي في شرق أوروبا حيث وصلت المجلدات لتغطي اوكرانيا والدانوب، وشمال ووسط الأورال،

وجبال تايمير، وسيبيريا، وزحفت مجلدات عملاقة من جبال جوكوتكا وجماكاتكا وآسيا الوسطى. وظهرت المجلدات في جبال استراليا والتشيلي ونيوزيلندا. وبقي شريط من اليابسة يمتد ما بين آسيا وأمريكا بعرض حوالي 1500 ك م من الشمال إلى الجنوب يعرف باسم شريط «بيرنفيا»، عبره انتقلت الحيوانات والصيادون الأوائل من آسيا إلى «العالم الجديد».

ولم تكن مياه البحار والمحيطات بمثل ما هي عليه اليوم من الارتفاع إذ بلغت مناسيب ارتفاعها مابين 14000 ق.م وحتى 4000 ق.م من 120 – 200 متراً. وهكذا فقد كانت الأرض السورية متصلة بشبه جزيرة المورة (اليونان حالياً) برصيف بري من الجبال الصغيرة هي التي تحولت اليوم إلى جزر.

إن هذه اللوحة التي تحدّد مساحات انتشار الجليد هي ما يردّده العلماء اليوم، وهي التي أتاحت تفسير كثير من الظواهر للمؤرخين، وأزالت الإشكال وحسمت الجدل حول كثير منها، فبناء على هذه الحقائق تكشفت الحقيقة التاريخية للعرب السومريين الذين طال الأخذ والشد والرد بين العلماء والمؤرخين المزورين المتعصبين الذين ظلوا إلى زمن قريب يرفضون الاعتراف بالهوية العربية للسومريين إلى أن تأكد أخيراً أنه نتيجة لذوبان جليد المرحلة الجليدية العظمى الأخيرة تحركت كميات ضخمة من المياه يزيد وزنها وزن سلسلة جبال القفقاز بعشرات المرات، فارتفعت مناسيب مياه البحار والمحيطات، كان من نتيجتها أن تقدمت مياه بحر العرب شمالاً تقدماً تدريجياً لتغمر المنخفض اللحقي الخصيب الذي يحتل الآن قاع الخليج العربي دافعة أمامها بسكانه العرب الأوائل دفعاً تدريجياً إلى جنوب العراق في «سومر» وإلى شواطىء الهند الغربية. إن هذا هو ما أكدته المكتشفات الآثارية، كما أكدته أبحاث سفينة الميتيور الألمانية في قاع الخليج، ثم جاك لابيري أكبر علماء المناخ في أوروبا اليوم، وجوريس زارينز الباحث الآثاري الأمريكي الشهير وغيرهم[1].

---

(1) راجع كتابنا المذكور سابقاً «العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود» و : مجلة الصفر، عدد أغسطس/آب 1987 ، تصدر عن شركة انترسبايس للنشر بالتعاون مع المركز العربي للدراسات الدولية.

ولن نتوقف هنا عند الخلاف الكثير الشعب بين العلماء لدى تفسير ظاهرة العصور الجليدية والدفيئة المتعاقبة التي تمرّ بها الأرض وأسبابها. إلا أن ما نريد قوله في هذا الشأن هو انهم جميعاً ينطلقون من أسباب ضمن نطاق الأرض وحدها وغطائها الجوي. ونحن، في ذلك، لا يخامرنا الشك في أن مثل هذه الظاهرة الكبرى المتكررة في أحقاب مديدة لابدّ وأن تكون النظرة إليها منطلقة من أساسها الكوني. فالأرض جرم صغير في المجموعة الشمسية، التي هي جزء زهيد من طرف أحد أذرع مجرتنا «درب التبانة»، والتي هي جزء من ملايين المجرات العملاقة، التي هي جزء من هذا الكون. وإن مثل هذه الظاهرة التعاقبية التي تعتبر ظاهرة عملاقة بالنسبة إلى الأرض لا يمكن أن يكون منشؤها ارضياً كتكاثف ثاني اكسيد الكربون او غيره. إن أول ما ينبغي أن يخطر إلى الذهن هو أن هذه الظاهرة ترتبط بإحدى الدورات الفلكية البعيدة لأحد الأجرام العملاقة، أو لمجموعة منها، التي يمكن أن تحدث مثل هذا التأثير، ليس على الأرض فقط، بل وعلى كواكب مجموعتنا الشمسية الأخرى ايضاً.
ولربما تتاح للانسان الحالي، إذا ما استمر في الوجود إلى عصر الانقلاب الجليدي القادم، أن يلاحظ ويدرس مثل هذه الظاهرة التي لا تتكرر إلا بعد عشرات الآلاف من السنين.
لكن كل ما يهمنا هنا هو الصورة التي ترسمها ظاهرة العصور الجليدية على الأرض وما ينجم عنها من تأثيرات تخص عملية نشوء الحيوان، ثم الانسان مكاناً وزماناً وانتشاراً وثقافة وحضارة.
فبعد أن تحدّدت مواقع انتشار الجليد في كل عصر جليدي تمكن العلماء من تحديد البقعة التي ظلت في منأى عن طغيان الجليد. إنها البقعة الممتدة من وسط شبه جزيرة العرب لتشمل سوريا الطبيعية كلها، والبحر الأبيض المتوسط بشاطئيه الشمالي والجنوبي، مروراً بجنوب فرنسا وجنوب بريطانيا، وصولاً إلى الشواطىء الأمريكية الوسطى وأعلى الجنوبية. وقد أطلق على هذا الشريط اسم «الحزام الحي» أو «الحيوي» أي الصالح للحياة.
وبناء على هذا فقد توجهت أنظار العلماء الجادين للبحث عن المركز الأول للانسان العاقل ولحضارته ضمن هذا «الحزام» تحديداً وليس خارجه.

ويسهل على كل من يمعن الفكر قليلاً أن يتبين أنه مع انحسار الجليد التدريجي عند بداية كل عصر دفيء، سواء نحو القطب الشمالي أو نحو القطب الجنوبي، فإنه سوف ينحسر عن أرض جديدة، ينتشر إليها الانسان من «المركز» شمالاً أو جنوباً، وليس العكس، حاملاً معه لغته، أو أدواته، أو ثقافته، التي تختلف جميعاً من عصر إلى عصر.

ثم حينما يبدأ عصر جليدي آخر بالزحف والتقدم ليحتل تلك المساحات من جديد، فإن هذا سوف يدفع بالانسان إلى الانحسار والتراجع التدريجي مرة أخرى نحو المركز، وبإمكاننا أن نتبين الصورة التالية بالنسبة إلى هذه الظاهرة:

هناك انسان «المركز» وحواليه الذي لم يلحق الأراضي التي كان قد انحسر عنها الجليد، ولم يضطر للتراجع، بالتالي، نحو المركز حين عودة الجليد إلى الزحف والتقدم من جديد. إن هذا يرتب نتائج أخرى هي الحفاظ على وحدة اللغة، من جهة، والملامح النفسية والبيولوجية والثقافية من جهة أخرى، بالإضافة إلى بروز ظاهرة ثالثة لا تقل أهمية، هي ظاهرة التواصل التاريخي للتجمعات البشرية ثقافياً وسكانيا. أي أننا نجد هذا التواصل في تطوره التدريجي الطبيعي دونما انقطاع في المركز وحواليه، بينما نجد هذه الظاهرة الثقافية أو تلك، في المناطق التي خضعت لزحف الجليد وتراجعه، توجد في فترة ثم تنقطع عن الظهور في فترة تاريخية لاحقة أمداً طويلاً.

اما الانسان الذي ابتعد عن المركز عند انحسار الجليد، ولمدة عشرات الآلاف من السنين، فإنه، في تراجعه وتقدمه، إما أن يكون وجوده قريباً نسبياً من المركز، أو في موقع متوسط، أو أن يتكيف عند حدود الجليد، وفي كل الحالات سوف يبتعد عبر هذه الأحقاب الطويلة بلغته الشفوية، التي قد تتطور عبر الأجيال الطويلة إلى «لغات» ولهجات متباينة لأسباب وظروف كثيرة لا داعي للتفصيل فيها الآن، كما قد يتطور نفسياً وبيولوجياً بما تفرضه ظروف وشروط مكان وجوده الجغرافية والمناخية والحياتية الأخرى، ممّا يخلق لديه نزعات واتجاهات للتعامل مع الوسط، تختلف بهذا القدر أو ذاك عن منطقة المركز وما يحيط به، حيث تتوفر الشروط لتعامل مستقر متطور في منحى ثابت

في المتباعدة النفسي، واللغوي، والبيولوجي، وصولاً إلى أدوات العمل، ممّا أفضى في النتيجة إلى وجود الظاهرة التي دعيت «ثقافة».

إنّ هذا عينه هو ما سوف نلمسه من خلال المكتشفات الآثارية للانسان القديم في كل المواقع، وهو ما قصّر الباحثون في الغرب عن تفسير أسبابه وفهمه حتى اليوم.

المعيار الثاني: الآثار

إن استعراضاً سريعاً لما تقوله المكتشفات الآثارية لانسان ما قبل التاريخ سوف يضعنا مباشرة أمام تفاصيل تلك الاستنتاجات الدقيقة التي أشرنا إليها، ومن أهمها الأسبقية في الزمن والوجود التطوري التدريجي المتواصل في المركز والمناطق المحيطة به بالنسبة إلى الوجود المتأخر وفي شكله المتقطع في المناطق النائية الأخرى.

يقول الدكتور سلطان محيسن في كتابه «عصور ما قبل التاريخ»:

«لقد أثبتت الدراسات وجود خصوصية ثقافية مستقلة (في سوريا) قد تلتقي في خطوطها العامة مع الموستيري الأوروبي، لكنها تحتفظ لنفسها بالكثير من الصفات الخاصة، وعلى رأسها الاستخدام المتلازم والكثيف للتقنيتين اللفلوازية والموستيرية لدرجة يصبح معها اللفلوازي هنا ثقافة وليس تقنية كما كان الحال في أوروبا.

وهكذا، مقابل الثقافات الموستيرية (المتقطعة) المتعددة في أوروبا والعالم سادت في المشرق العربي القديم ثقافة واحدة «اللفلوازية الموستيرية المشرقية» وجدت آثارها وبغزارة في كل المناطق في فلسطين وسوريا ولبنان والعراق حيث اكتشفت ونقبت مواقع أصبح لها شهرة عالمية مثل يبرود، وبئر الهمل، وجرف العجلة، والدوارة في سوريا، وشانيدار في العراق، والمسلوخة في لبنان، ومغائر جبال الكرمل في فلسطين.. أعطى بعض هذه المواقع، إضافة إلى البقايا الأثرية الغنية، هياكل عظمية نياندرتالية هي الأولى من نوعها، تحمل صفات فيزيولوجية متطورة نحو الانسان العاقل كالقامة الطويلة والدماغ

الكبير والذقن البارزة، مما يدل على أن صانعي ثقافة الباليوليث الأوسط المشرقي هم الذين تطوروا نحو الانسان العاقل الجد المباشر لنا، في حين انقرض النياندرتال الأوروبي فيزيولوجياً وحضارياً ولأسباب لازالت غائبة عنا.

لقد اعتبرت مغارة الطابون في جبال الكرمل بفلسطين الموقع الأفضل الذي أظهر تطور تصنيع الأدوات الحجرية على امتداد هذا العصر، ونقبت هذه المغارة منذ الثلاثينات، ثم أعيد تنقيبها في السبعينات، وحددت عدة سويات أثرية، الدنيا منها تعود إلى الباليوليث(*) الأدنى، تعلوها ثلاث سويات من الباليوليث الأوسط، سميت (C.B.D) أقدمها السوية (D) وفيها وجدت الأدوات اللفلوازية الموستيرية الطويلة التي ضمت المقاحف والحراب، وهي تمثل المرحلة الأولى والأقدم في أدوات النياندرتال. وفي السوية التي تليها (C) عثر على الأدوات العريضة والقصيرة ذات الشكل البيضوي. أما في السوية العليا والأخيرة والأحدث زمناً (B) فقد ظهرت الأدوات ذات الشكل المثلثي والقاعدة العريضة. وقد اعتبرت هذه الأنواع الثلاثة المتتالية من الأدوات الحجرية النموذج العام الذي تطورت حسبه الأدوات الحجرية في المنطقة في هذا العصر»[1].

فنحن نلاحظ كيف دلّت المكتشفات الآثارية على القدم والتواصل في سوريا، وعلى الانقطاع في أوروبا أو المناطق الأخرى.

أما في مرحلة الثقافة التي أطلق عليها العلماء اسم «الأورينياسية» فقد «اكتمل معها الظهور الحقيقي لثقافات الانسان العاقل في الباليوليث الأعلى، وتؤرخ على 30 – 25 ألف سنة خلت. تدل مواقعها أنها وصلت إلى فرنسا من الخارج،

(*) كلما دعت الحاجة إلى وضع اصطلاح جديد يلجأ العلماء في الغرب إلى ما يدعونه بـ «اللغة الاغريقية»، اما الحقيقة فهي ـ كما سوف يتبين لاحقاً ـ إن ما دعي بالاغريقية لم تكن غير العربية القديمة بلهجتيها السريانية الشرقية والفينيقية الغربية، وهذا المصطلح مؤلف من كلمتين عربيتين قديمتين هما: باليوث بالي، قديم، وليطيو = مشحوذ، مطروق مسنّن. وقد تحولت الطاء إلى ثاء في بلاد اليونان فيما بعد.

(1) محيسن، المرجع السابق، ص146 – 148.

ولم تتطور من ثقافات محلية.. حيث لم يعثر فيها على آثار تشبه تلك الثقافات»[1].

«إن الثقافة الأورينياسية واسعة الإنتشار في آسيا وأوروبا. وإن التشابه بين مواقعها الباكرة في سوريا (يبرود) ولبنان (كسار عقيل) وفلسطين (مغارة الأميرة) ومواقعها الأحدث في فرنسا يجعلنا نعتقد أن الأورينياسي قد انتقل من المشرق العربي القديم إلى أوروبا»[2].

ثم «إن الظهور الأول للانسان العاقل كان في منطقة المشرق العربي. وقد جاء هذا الانسان نتيجة تطور فيزيولوجي وحضاري بطيء ومحلي أصيل، وفي وقت أبكر من اوروبا بحوالي خمسة آلاف عام»[3].

أما في القارة الأمريكية «فقد عثر على آثار بقايا عظام حيوانات أرخت كلها على حوالي 38 الف سنة ق.م (ثم حدث انقطاع). ولكن مواقع تعود إلى حوالي 18 الف قبل الميلاد في وادي أوهايو وفي جبال الأنديز تدل على وجود أكيد للانسان في هذه المناطق. ثم حصل انقطاع في استيطان القارة الأمريكية استمر حتى مطلع الألف العاشر قبل الميلاد. بعد ذلك سكنت هذه القارة بشكل واضح وبلا انقطاع»[4].

لقد استمرت آثار الانسان العاقل في سوريا دون انقطاع. فكان أول من رسم وصنع الأدوات، والتماثيل النسائية للأم السورية الكبرى عشتار، والدمى، وأول من صنع الفخار، وبنى البيوت، ودجن الحيوان والنبات، وعمر القرى والمدن، وصنع الزجاج، واستخدم المعدن، ووضع الأبجدية، وأحدث الثورة الزراعية... وغير ذلك من الأمور الثقافية والحضارية التي حقق فيها السبق المبكر بعدة آلاف من السنين على أية منطقة أخرى من العالم. وهذا ما سوف نلحظه تباعاً في هذا الكتاب.

أما في المناطق الأخرى، فإلى جانب التأخر وظاهرة الانقطاع المفاجيء، ثمة

---

(1) المرجع نفسه، ص164 .

(2) المرجع نفسه، ص166 .

(3) المرجع نفسه، ص168 .

(4) المرجع نفسه، ص175 – 176 .

ظاهرة أخرى اعترضت الباحثين وهي «مشكلة الاختلاف بين ثقافات البليوليث. فكثيراً ما نصادف جماعات بشرية عاشت في الزمان والمكان نفسهما، ومع ذلك استخدمت كل من هذه الجماعات أدوات حجرية اختلفت عن بعضها جداً. ونحن كثيراً ما نتساءل لماذا صنع هؤلاء هذا النوع من الحراب بينما استعمل جيرانهم حراباً أخرى لقتل الحيوان نفسه. أو لماذا استخدم هؤلاء الصوان وجيرانهم البازلت أو العظام. وهكذا تصبح الأسئلة أكثر إلحاحاً مع دخولنا في العصر الانتقالي الأول بين مجتمعات الهوموأركتوس والنياندرتال. عندما تعايشت أنماط ثقافية عديدة ومختلفة في مناطق جغرافية واحدة وفي عصر واحد. وكنا نتساءل هل سبب تباين هذه الأنماط يعود إلى واقع جغرافي ومناخي جديد حاولت فيه كل جماعة التكيف وعلى طريقتها الخاصة أم أن ذلك مردّه إلى اختلاف عرقي بين الناس. وتتكرر الأسئلة نفسها في عصر النياندرتال. فنلاحظ في منطقة ضيقة واحدة مثل جنوب غرب فرنسا (الدردون) تعايش جماعات عديدة ومختلفة لا نعلم فيما إذا كانت تجسد ثقافة واحدة أم عدة ثقافات.. ويسود الآن تفسيران لهذا الواقع: «الأول ويمثله الانتروبولوجيون وعلى رأسهم الأمريكي لويس بينفورد.. يعتبرون أن تعدد وظائف المواقع الممثلة لهذه الثقافات أدى إلى التباين في طبيعة النشاط الاقتصادي.. والتفسير الثاني يمثله علماء الآثار، وعلى رأسهم فرنسوا بورد، الذين يعيدون ذلك التباين إلى اختلاف الجماعات واستقلالها الثقافي وحتى الجغرافي»[1].

أما الحقيقة، فهي، من وجهة نظرنا، بإعادة تلك الظاهرة إلى الظاهرة الأعم والأكبر، وهي ظاهرة انحسار الجليد أو تقدمه، وتحرك تلك الجماعات، ونسبة هذا التحرك تقدماً خلف الجليد المنحسر، وتراجعاً أمام زحف الجليد المتقدم. وهذا ما كنا قد اشرنا إليه، وهو وحده القادر على تفسير هذه الظاهرة، وظاهرة الانقطاع، في وجود الانسان وحضارته، أحقاباً متعاقبة قد تمتد إلى عشرات الآلاف من السنين.

---

(1) سلطان محيسن، المرجع السابق، ص189 – 190 .

لقد استمر وجود الانسان العاقل في سوريا إذن دونما انقطاع، وتدل الآثار المكتشفة حتى الآن على الخط التواصلي المستمر لثقافته في تطورها التصاعدي مما حقق سبقاً في الزمن بالنسبة لكل المواقع الأخرى في العالم، كما اكدت وحدة المنطقة السكانية والثقافية منذ أقدم العصور.

يقول جاك كوفان «إن الجدول البياني لنتائج تحليل غبار الطلع في بحيرة زيربار في جبال زاغروس يفيد بأن الحرارة بدأت تدب في طقس بلاد المشرق في أواخر حقبة البليوستوسين، أي بين 14000 و11000 سنة قبل الميلاد. وقد رافق ذلك أن تحولت البوادي الباردة، التي كانت تغطيها أشجار الأرتيميسيا، تدريجياً إلى مغارات معشبة تكتنفها أشجار الفستق والبلوط، مما يقيم الدليل على قيام مناخ حار ورطب. وفي هذا الوقت بالذات خرجت الحبوب البرية من ملاجئها الطبيعية التي كانت تحتمي بها طيلة الحقبات الباردة، كي تنتشر في الأطراف الجبلية لسوريا.

تتوافق الفترة الواقعة بين 14000 و12000 سنة قبل الميلاد في سوريا ــ من الناحية الزمنية ــ مع صناعات أواخر العصر الحجري القديم التي أعقبت أواخر حقبة الأورانيسيان، وتعرف تلك الفترة باسم الكيباريان(*)، وهي تتميز بكثرة الأدوات الصوانية الصغيرة الحجم، أو بهيمنة نصال السكاكين المطروقة وغير المطروقة فضلاً عن المثاقب الدقيقة والقطع المثلثة. ويعثر الأثريون على هذه الأنواع في مختلف أرجاء سوريا مثل النقب ولبنان وضفاف الفرات.

«يعقب تلك المرحلة في حوالي 12000 ق.م. في كل من فلسطين ولبنان مرحلة جديدة من الصناعة الصوانية الدقيقة، وقد تميزت بهيمنة الأدوات التي تأخذ الشكل المستطيل القريب من شبه المنحرف، يطلق العالم روست على هذه المرحلة اسم «الغاليتيان» أو «الكيباريان الهندسي» كما يسميه باريوسف».

«في معظم الملاجيء الطبيعية التي جرى التنقيب الأثري فيها حتى الآن نجد أن صناعاتها الصوانية تتم بدون انقطاع حلقة العصر الحجري القديم، وهذا يتجلى في مواقع مثل: الكبارة، والواد، وكسار عقيل. كما وجدت الصناعات

(*) نسبة إلى مغارة كيبارة في سوريا.

المذكورة أعلاه في خارج المغاور وفي موقع عين جويف في غور الأردن، حيث تم الكشف عن بقايا كوخ مشيد في داخل حفرة مستديرة يذكرنا بالبيوت المستديرة التي نشأت في الحقبة النطوفية».

«تجدر الإشارة إلى انه تم العثور في تلك المواقع، وخاصة عين جويف والعون، على أدوات، كان يعتقد بأنها لم تظهر للوجود قبل الحقبة النطوفية، مثل أدوات السحق والجرش (رَحَى، مدق، هاون) ونصال المناجل، وإن دل هذا الأمر على شيء فإنما يدل على أن إنتاج الغذاء الذاتي قد عرفه الانسان ـ على الأقل ـ في مناطق نمو الحبوب البرية بنفس القدر الذي عرفه فيما بعد انسان الحقبة النطوفية..

«يرى الباحث الأثري باريوسف أن الحضارة النطوفية هي حضارة فلسطينية بحتة لأن القسم الأعظم من خصائص تلك الحضارة يتجلى في الشواهد المكتشفة في فلسطين.. لكن وجهة النظر هذه تضعضعت أمام سيل الاكتشافات الأخيرة في كل من لبنان وسوريا، حيث تم العثور، بجانب تلك الأدوات، على أدوات أخرى للسحق والطحن في موقع الطيبة بحوران، وفي سعيدة بلبنان، وفي جعيتا بلبنان، وفي وادي الفرات، يضاف إلى ذلك أننا واجهنا في موقعي أبي هريرة والمريبط على الفرات الأوسط وجود عمائر من صنع الانسان، إلى جانب أدوات مشهورة من قبل وكانت مألوفة في الحقبة النطوفية، مثل الأدوات مزدوجة الرأس.. وبذلك بدأ التاريخ يسجل بعض الأدلة على قيام تطور متشابه جداً للحضارة النطوفية في كل من فلسطين، ومنطقة الفرات، في أعقاب مرور مشترك بمرحلة الكيباريان. وكذلك تأكدت الآن النظرية التي طرحها كل من أور وكوبلاند وأورانش والقائلة بأن بوتقة حضارية وحيدة امتدت خلال هذه الحقبة من النيل إلى الفرات»[1] .

وهكذا اتضح للعلماء، ومن خلال المكتشفات الآثارية، أن سوريا الطبيعية عرفت في مرحلتين زمنيتين متتاليتين تحسناً في المناخ الذي أصبح ماطراً

---

(1) جاك كوفان، القرى الأولى في سوريا وفلسطين، ترجمه إلى العربية تحت عنوان «الوحدة الحضارية في بلاد الشام» قاسم طوير، دار المجد، دمشق، 1984 ، ص17 - 21 .

ودافئاً مما سمح بظهور الحبوب البرية، وبخاصة القمح والشعير.. وساعد على ظهور قرى المزارعين الأولى في العالم.

«لقد اثبتت مكتشفات «المريبط» في القطر العربي السوري أن سكان هذه القرية هم اول من مارس هذه الزراعة، حيث أتت الحبوب المزروعة في السوية الثالثة التي أرّخها الكربون المشع على 7700 سنة قبل الميلاد، وهذا اقدم تاريخ للزراعة معروف حتى الآن في العالم كله»[1].

«ويدل العثور على مناجل مصنوعة من الصوان في النطوف (في الوسط السوري) شمال غربي مدينة القدس، وهي أقدم ما وجد من مناجل حتى يومنا هذا، على أن الانسان كان يتعاطى في هذه المنطقة نوعاً من الأعمال الزراعية. وقد وجد في كهف من كهوف جبل الكرمل أحواض لها حافات كأجران لدق الحبوب، ولم نعثر على الأعمال الزراعية القديمة عند أي شعب من الشعوب القديمة باستثناء السكان في الشمال السوري المعاصرين للشعب الذي كان في النطوف..

«إن هذه الحقائق تشير إلى أن هذه المنطقة كانت المهد الأول، حيث راح الانسان يربي الماشية ويزرع الحبوب متعمداً، زيادة الطعام. ويرجح العلماء أن يكون المهاجرون من سوريا قد أدخلوا زراعة القمح وزراعة الكرمة إلى مصر.. وعلماء اللغة يثبتون لنا صحة دعوانا في أن الهلال الخصيب كان المهد الأول، عن طريق انتقال المفردات اللغوية مع سير الحضارة. فإن اللفظة المصرية التي تعني القمح هي (قمحو Gmho)، واللفظة التي تعني الكرمة وهي (كرمو Karmu) هما كلمتان مقتبستان من اللسان السومري ـ البابلي، وهما اللفظتان المستعملتان في العربية حتى اليوم»[2].

«وفي الوقت الذي كان الانسان الصياد في غربي أوروبا ما يزال في العصر الحجري القديم كان انسان الشرق الأدنى يتقدم بخطوات سريعة في سلّم المدنية، كان يتقدم في اساليب الزراعة وفي تربية الماشية.. ويصنع الخزف،

---

(1) محيسن، المرجع السابق، ص237 .

(2) فيليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، الدار المتحدة للنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1982 ، ص38 .

ويطور النسيج، ويستخدم المعادن في صنع آلات وأدوات اكثر فعالية واحسن استعمالاً في أغراضه واعماله، بكلام آخر كان انسان الشرق الأدنى في هذه الفترة يمهد السبيل لعصر التعدين ولعصر الكتابة والتدوين»[1]

«وإن المجتمعات الزراعية النيوليثية في سوريا كانت السباقة في اختراع الأواني الفخارية التي انتجتها بشكل منظم ودقيق وعلى نطاق واسع، دل عليه الانتشار الكبير لهذه الأواني في موقع تل اسود.. وهي تؤرخ بالألف السابع قبل الميلاد.. ومن هذه المنطقة انتقلت تلك الصناعة شرقاً إلى الرافدين، وغرباً إلى الأناضول وسواحل المتوسط[2].

ثم «إن معظم المدن الساحلية التي نعرفها (جبيل، مرسين، تل الجديدة، وغيرها) قد اسست في عصر يتوافق مع بدايات تقنية الفخار، أو حوالي منتصف الألف السادس قبل الميلاد. وقد عرفت هذه المدن صقل الحجر، واستخدمت الزراعة بالكامل، كما أن العمارة ذات البيوت المستطيلة والأرضيات الملبّسة قد حافظت على قرابة حضارية مع حضارة ما قبل الفخار في أريحا ومنهاتا»[3].

ولقد حافظت هذه المواقع على وحدة ثقافية مدهشة انعكست مباشرة على وحدة العقيدة الدينية التي لم تشهد أي انقطاع من مرحلة إلى أخرى فبقيت العقائد الدينية بلا تغيير، وأما المواقع التي أعطت وثائق هامة فهي جبيل، ومنهاتا، وشارها جولان (سيدة جولان) ورأس شمرا (أوجاريت)، ومرسين على الشاطيء السوري الكيليكي، وتل الرماد في الداخل السوري[4].

أما عن الآثار القديمة التي ارتبطت بالأم السورية الكبرى عشتار، وهي عقيدة الخصب الزراعية، فلقد «وجد كونتنسون في السوية الأولى في تل الرماد على تمثالين: واحد من الكلس الطري، والآخر من الطين المجفف، وكلا التمثالين

---

(1) المرجع نفسه، 39 .

(2) محيسن، المرجع السابق، ص280 .

(3) جاك كوفان، ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام، ترجمة سلطان محيسن، دار دمشق، 1988 ، الطبعة الأولى، ص78 .

(4) المرجع نفسه، ص84 .

يجسدان نساء مختزلات.. إن هذه التماثيل تعكس نمطاً خاصاً إلى درجة كافية برأس شمرا، هذا النوع من الاختزال الذي يترك الرأس ضامراً، وغالباً ما يتجاهل إبراز الصدر ليبرز الورك قبل كل شيء»[1].

الأم السورية الكبرى. تل اسود قرب دمشق. الألف السابع قبل الميلاد



الأم السورية الكبرى. تل المريبط على الفرات. الألف السابع قبل الميلاد





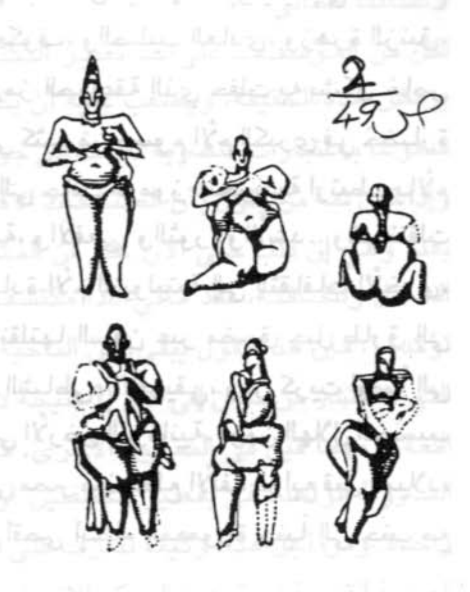
صورة من الشمال السوري تمثل الأم الكبرى والطفل الإلهي. الألف السادس قبل الميلاد

(1) المرجع نفسه، ص85 .

«إن التماثيل الجالسة في إطار مثلث يرتكز على قاعدته، أو الصيغة المخروطية للرأس تدل على نفس الموضوع الهندسي المفضل للإلهة في سوريا.. إن التماثيل التي تعكسه هي الأكثر عدداً، وهي الأكثر اكتمالاً.. إن تفرد مناطق سوريا، قياسياً إلى الأناضول، يقوم على تطوير خاص للإلهة سواء في التماثيل الحجرية أو الطينية»[1].



عشتار البابلية
ممسكة بثدييها رمز الخصب والنماء،
الألف الثالث قبل الميلاد



تماثيل للأم السورية الكبرى
والطفل الإلهي تموز في الشمال السوري.
الألف السادس قبل الميلاد

«ومنذ مطلع الألف الثامن كانت قد ظهرت الوضعية التي كانت قد غدت كلاسيكية فيما بعد، وهي وضعية عشتار الممسكة بثدييها العاريين، والتي سنجدها خلال الفترات اللاحقة لدى كل ثقافات الشرق القديم تقريباً كرمز لخصب الإلهة الأم. ولقد أعطتنا التنقيبات الأثرية في مواقع الألف الثامن والألف السابع الكثير من هذه التماثيل، كما هو الأمر في أريحا، ومنهاتا، والبيضا، ووادي فلاحة،

(1) المرجع نفسه، ص122 - 123.

والخيام، وتل أسود، وتل الرماد، وتل المريبط، وشتال هيوك.. وهذا يدل على أن عبادات الشرق القديم في تلك الفترة إنما كانت تنويعات على أرضية مشتركة، هذه الأرضية المشتركة هي ما نعنيه بمصطلح «الديانة المركزية».. وخلال العصر النيوليتي نضجت في سوريا الرموز التشكيلية الخاصة بالأم الكبرى.. وهي الرموز التي انتقلت معها بانتقال ديانتها النيوليتية إلى الأصقاع الأخرى. من تلك الرموز: الصليب المعكوف، والصليب العادي، وزهرة الزنبق، وشقائق النعمان، والفاس المزدوج رمز الصاعقة الذي حفلت به بشكل خاص حضارة تل حلف والذي سوف نراه في كثير من رسوم الأم الكبرى في حضارة كريت ومطلع الحضارة الإغريقية.. وإلى جانب الرموز التجريدية ارتبطت بالأم الكبرى رموز حيوانية أهمها: الحمامة، والأفعى، والثور، والأسد.. وقد انتقلت مجموعة هذه الرموز مع انتقال عبادة الأم النيوليتية إلى الثقافات الأخرى، فانتقلت أولاً إلى كريت، ومن هناك نقلتها السفن عبر مضيق جبل طارق إلى الجزر البريطانية، وجنوباً على طول الشاطىء الأفريقي، ومن كريت أيضاً إلى «مكيني» وهي أول مدينة متحضرة على الأرض اليونانية.. ومن الهلال الخصيب وصلت مجموعة الرموز هذه ايضاً إلى مصر منذ مطلع الألف الرابع قبل الميلاد، وكذلك اتجهت شرقاً نحو آسيا حتى اقصى أنحاء المعمورة جنباً إلى جنب مع ديانة عشتار»[1].

اما رب الخصب السوري فكان يرمز له بالثور وبالفأس المزدوجة رمز الصاعقة والانتصار على قوى الشر والدمار والهمجية. وكان يدعى «حدد» أو «إيل» أو «البعل» أو «مردوك». «ولقد واصل الرب «الثور» السوري الذي هو «بعل» أو «إيل» أو «حدد» رحلته إلى الأناضول، وقبرص، وكريت، إلى أن حط رحاله عند حواف العالم القديم وشواطئه، حيث حافظ على اسمه السامي «ثور». في الثقافة السكاندينافية القديمة كان الإله ثور ابناً للأم ـ الأرض، ورباً للصاعقة والعاصفة والمطر والطبيعة»[2].

---

(1) Joseph Campbell, Primitive Mythology, p. 143.

(2) Shapiro, Hendricks, ADictionary of Mythology, pp. 56, 192 .

مما تقدم يمكننا أن نخلص إلى القول بأن وجود الانسان العاقل في المشرق العربي كان السابق في الوجود لأي انسان عاقل آخر في أية بقعة اخرى من العالم. وقد دلّت مكتشفاته الآثارية انه وحده الذي وجد وتطور وأبدع في موطنه الأصلي دونما انقطاع، بعكس ما اكتشف من آثار له في أية بقعة أخرى، وأن الوطن العربي القديم هو الموطن الأول لهذا الانسان الذي هو الجد الكبير لانساننا الحالي.

لكن من المؤسف ـ على حد تعبير الدكتور سلطان محيسن ـ «أن هناك من يرفض هذه الحقيقة، ويصعب عليه أن يكون اصله من المشرق العربي القديم، مدفوعاً باعتبارات عنصرية لا تمتّ إلى جوهر البحث العلمي النزيه بصلة»[1] .

وإذا كان ثمة من يقول بأن المكتشفات الآثارية لم تفرغ من قول كلمتها النهائية بعد، وهي إن دلّت حتى الآن على أن المشرق العربي هو المهد الأول للانسان العاقل ولثقافته، فقد تأتي غداً مكتشفات جديدة قد تغيّر هذه المقولة أو تؤكدها، فإن هذا القول يبقى، من الناحية المنطقية، له ما يبرره، غير أن اللغة التي لا تنتشر من مكان إلى آخر إلا نتيجة لانتشار السكان انفسهم أصحاب هذه اللغة، ومهما قيل في المعايير الأخرى، فإنه يستحيل أن يقال إن الظروف أو الشروط الواحدة في بقعتين مختلفتين أو متباعدتين يمكن أن ينتج عنها لغة واحدة. ومن أجل هذا، وكيما نتعرف على الدور الحاسم الذي لعبته وتلعبه اللغة العربية القديمة في تحديد المركز الانساني ـ الحضاري الأول، كان لابدّ من أن نتعرف على هذه اللغة، بنية وكلاماً ولهجات وإبدالات صوتية، حتى تتاح لنا فرصة التعرف على الدرب الذي سلكته في مسيرتها الانتشارية الموجية من المركز إلى كافة الانحاء.

المعيار الثالث: اللغة

«المركز» واللغة العربية القديمة

يجمع المؤرخون اليوم على أن علم الألسنيات هو أصلح الأشياء لمعرفة

---

(1) سلطان محيسن، المرجع السابق، ص61 .

الأصول السكانية والأعراق، ومركز نشوء الحضارة الذي منه انتقل الإشعاع إلى غيره من الأنحاء. فاللغة هي وحدها القادرة على تحديد الهوية القومية لهذا الشعب أو ذاك. لكنه لكي تتمكن اللغة من الاضطلاع بهذا الدور لابدّ لها من أن تعيش عملية ما يسمى بالتواصل التاريخي. وعملية التواصل التاريخي هذه تتحدد بالنقاط التالية:

1 . إن عملية التواصل التاريخي للّغة لا تنفصل عن عملية التواصل التاريخي للشعب الذي يتكلم هذه اللغة.

2 . إن اية ظاهرة احتلال او استعمار يقع على هذا الشعب أو ذاك، ويفرض عليه لغة ما لمرحلة زمنية معينة، تبقى ظاهرة طارئة مؤقتة، ويبقى التواصل اللغوي القديم المستمر بعد جلاء المحتل هو الذي يحدّد الهوية القومية بصرف النظر عن طول او قصر المدة التي فرضت فيها قسراً لغة غريبة أخرى.

3 . لما كانت اللغة تلازم الانسان منذ أن بدأ العيش في جماعة وتتطور معه حاملة كل هواجسه وفكره ومعاناته وإبداعاته، فهي بالتالي، وحدها التي تحمل ملامحه النفسية والثقافية والحضارية، وتحدّد بالتالي، هويته القومية.

وبالإضافة إلى هذا لابد من التذكير بالأمور الأساسية التالية:

أ ــ إن اللغة شيء والكتابة شيء آخر. فاللغة تنشأ مع الانسان منذ بدء حياته في جماعة، وتتطور معه. أما الكتابة فاختراع واعٍ أملته ضرورة التطور الاجتماعي في مرحلة لاحقة ومتأخرة كثيراً، قد تكون بعدعشرات الآلاف من السنين من عمر تطور اللغة المحكية. وهي توضع بشكل علامات قد تتبدل وتتطور مع تطور اللغة او في معزل عنها. وقد تبتكر عدة كتابات في آن واحد للّغة الواحدة كما حصل مع اللغة العربية، وقد تنتقل اللغة الواحدة من كتابة إلى أخرى كما حصل مع اللغة التركية.

ب ــ ينبغي ألاّ يغيب عن البال ان ما دعي بالكتابة التصويرية أو «الهيروغليفية»(*) التي تصوّر فكرة مالا صوتاً، والكتابة المقطعية اللاصقة التي

(*) إن كلمة «هيروجليفية» هي عربية قديمة تعني الرسم أو التصوير أو النقش بالقلم على لوح الطين اليابس. وهي مؤلفة من كلمتين «اوري» = رسم، نقش، زخرفة، زينة، تصوير؛ و«جليفو» = لوح =

تضع رموزاً وعلامات لمقاطع كثيرة يجري الاتفاق عليها فيما بين واضعيها، وهما المرحلتان الأوليان من مراحل اختراع الكتابة ما قبل الأبجدية الحرفية، لا تبين هوية هذه اللغة أو تلك لأنها لا تصور أصواتها، بل تبقى نوعاً من «الشيفرة» التي تستخدم ضمن أطر جدّ ضيقة كدائرة الحكام ورجال المعبد في التاريخ القديم.

ج ــ إن الكتابة الأبجدية الحرفية وحدها، أي الكتابة التي تحلّل الكلمة إلى أصوات وترسم علامات لكل صوت، هي وحدها التي تكشف لنا حقيقة هذه اللغة المحكية وهويتها.

أما ما قبل الكتابة الحرفية فإن الأسماء المحفوظة منذ القدم للمدن والأرباب والمواقع الجغرافية وللمتميزين من الأفراد هي افضل ما يمكن أن يميز انتماء أصحابها اللغوي والقومي.

د ــ إن اللغة تعيش في لهجات قليلة أو كثيرة، أساسية وفرعية، وتبقى اللهجات ضمن حدود تسمياتها، ولا يصحّ أن يطلق عليها اسم «اللغة» فهي جميعها، مهما تعددت وتباينت، تبقى منتمية إلى لغة واحدة هي اللغة الأم، وعلم تاريخ اللغة هو الذي يحفظ لها هويتها سواء في القواميس أو في كتب فقه اللغة الأخرى.

إن تحديد هوية لغة الانسان الأول في تجمعاته الأولى ــ سواء في مرحلة ما قبل الكتابة أو ما بعدها ــ يجب أن يتم على ضوء هذه الحقائق. فالكتابة الأولى كشفت لنا هوية اللغة التي ظلت يتناقلها الناس شفوياً عبر عدة آلاف من السنين. وإن الدراسة العلمية الموضوعية ــ كما سنرى من خلال مجموع الكتاب ــ سوف تبيّن أن اللغة العربية هي لغة الانسان الأول في تجمعاته الأولى. لكن هذا لا يمكن إيضاحه والكشف عنه إلا على ضوء علم اللغات، الذي يتيح لنا مجال التعرف على حقيقة بنية اللغة، ومفرداتها، وتاريخها، والابدالات اللفظية التي طرأت على بعض أصواتها عبر مراحل تاريخية متعاقبة ومن مكان

\= الطين اليابس، وهي بالعربية اليوم «الجلف» = لوح الطين اليابس. وليست كلمة أغريقية تعني الكتابة المقدسة كما افترض وزعم المؤرخون في الغرب.

إلى آخر، مما يكشف لنا الطريق أو الطرق التي سلكتها هذه اللغة خلال عملية انتشـارها من المركز إلى شتى الجهات الأخرى. وسنكتفي في هذه الحلقة بإيضاح بعض هذه النقاط وبعض الأمثلة الجوهرية، لأن التفاصيل سوف نلتقي بها في مجموع بحوث هذا الكتاب.

وقبل أن نشرع بتطبيق هذه المبادىء على اللغة العربية في تواصلها التاريخي عبر الأحقاب المديدة منذ الزمن الموغل في القدم وحتى اليوم نعود إلى التذكير هنا بأن أفدح عملية تزوير لغوي على صعيد التاريخ البشري كله يتجلّى في تلك البدعة التي ابتدعها خيال اللغويين الألمان في مطلع هذا القرن والتي قسموا بموجبها اللغات كما قسموا الأجناس إلى سامية وهندو جرمانية (أو هندو أوروبية) لأغراض سياسية استعمارية مكشوفة، ثم جعلوا اللغة العربية، بموجب هذا التقسيم إحدى ما دعوه بـ «اللغات السامية». وكنا قد ناقشنا هذا الزعم من خلال خطوطه العريضة واسقطناه في كتابنا «العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود»، ونحن هنا، ومن خلال علم اللغة نفسه، سوف نكشف للقارىء العربي والأوروبي على السواء مدى خطل وبطلان هذا الزعم الذي لم يقم على أساس.

اللغة العربية والأبجدية الحرفية

قلنا إن الأبجدية الحرفية التي تحلّل الكلمة إلى أصوات وترسم لكل صوت علامة هي وحدها التي تكشف لنا هوية اللغة المحكية. ولما كان العرب الأقدمون هم أول من وضع أبجدية في التاريخ (وهي: أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت)، اثنان وعشرون حرفاً واثنتان وعشرون علامة، وذلك منذ منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، كما تبين آخر الدراسات الحديثة، فقد تكشفت لنا حقيقة وهوية لغتهم المحكية منذ ذلك الزمن الموغل في القدم، وذلك قبل أن يوجد «سام بن نوح» نفسه بعدة مئات، إن لم يكن بعدة آلاف من السنين. تلك اللغة التي صورتها الكتابة كانت هي اللغة العربية المحكية بلهجاتها المختلفة.

ولقد تمّ تصوير أصوات الكلمة بأحد شكلين: إما برسم صورة لشيء يدل عليه،

وهذا ما أخذ به أبناء وادي النيل (فالصوت «آ» مثلاً كانوا يرسمون صقراً ليدلّ عليه) أو برسم علامة إسفينية مستخدمين القلم المقطوع بشكل مثلث مائل للرسم على لوح الطين قبل شيّه، وكانوا قد استخدموا هذه الطريقة من قبل لرسم علامات المقاطع اللاصقة، ثم جاءت الحروف الفينيقية بعلاماتها المختصرة البسيطة والساحرة، والتي انطلقوا بها من الشواطىء السورية عبر المتوسط ليغطوا بها «اليونان» وإيطاليا، وإسبانيا، وكل أصقاع أوروبا، والجزر، وشواطىء البحر الأسود، وصولاً إلى الشواطىء الأمريكية.

يقول المؤرخ الألماني هنري بريستد في كتابه «العصور القديمة»: «ولم تكن الملابس وفن الزخرفة والتزويق والأساليب الصناعية العملية الأشياء الوحيدة التي جاء بها الفينيقيون إلى بلاد اليونان، بل كان هنالك شيء أثمن من كل مصنوعات الشرق أخذه اليونان عن الفينيقيين وهو حروف الهجاء، وهي أهم ما وصل إلى أوروبا من خارجها، وكان الفينيقيون قد هجروا منذ زمن بعيد استعمال آجر بابل في الكتابة لأنهم كانوا (في الألف الثاني قبل الميلاد) قد استوردوا كميات كبيرة من ورق البردي المصري، واخترعوا أسلوباً للكتابة خاصاً بهم، استعملوا فيه اثنين وعشرين حرفاً. ولم يكن في هذا الأسلوب علامات للمقاطع، بل كانت كل علامة تمثل حرفاً واحداً صامتاً. فكان الفينيقيون أول شعب ابتكر أسلوباً للكتابة ليس فيه إلا العلامات الهجائية أي حروفاً حقيقية.. ورتب الفينيقيون حروفهم على أسلوب موافق بحيث تألف من الاثنين وعشرين حرفاً مجموعة حروف خالدة سهلة التعلم. ولو لم يسمِّ كل حرف منها باسمه لما كان حفظها ممكناً، لقد سمّوا الحرف الأول في أبجديتهم «ألفا» بما معناه في لغتهم «ثور» وسمّوا الحرف الثاني «بيتا» بما معناه «بيت» لأن الكلمة الفينيقية «بيت» تبدأ بحرف الباء الذي هو الثاني في ترتيب الحروف الأبجدية، وهكذا إلى الآخر. وكان أولاد التجار الفينيقيين إذا تعلموا حروفهم الهجائية وسئلوا أن يسردوها قالوا: ألفا، بيتا...الخ. وكما حمل الآراميون (وهم السريان) الحروف الآرامية شرقاً إلى آسيا حتى الهند كذلك حملها الفينيقيون عبر البحر المتوسط إلى أوروبا. وكان اليونان الذين رأيناهم قبلاً يزدحمون حول السفن الفينيقية يشاهدون بأيدي الفينيقيين قطعاً من الورق الأصفر

عليها علامات غريبة سوداء. ومع أن تلك القطع لم تكن سوى قوائم تجارية وأوراق لا غنى للتاجر عنها فقد رابهم أمرها باديء ذي بدء، وحسبوها رموزاً غامضة تنذر بخطر قريب. وقد ظل أكابر البلاد أحقاباً طوالاً أميين. كانوا ينظرون إلى الكتابة نظرة المرتاب الحذر، ولم يبدأوا بتعلم الكتابة إلا بعد 700 عام قبل الميلاد[1].. وكان أولاد اليونان في تعلمهم القراءة يسمّون الحروف بنفس الأسماء التي كان يسميها بها الفينيقيون. ولما كان اليونان يجهلون معاني تلك الأسماء الغريبة فقد حرّفوا لفظها قليلاً، وصار يقرأها أولادهم بحسب ترتيبها الفينيقي المعلوم ألفا، بيتا.. الخ.. التي منها جاءت اللفظة الأوروبية Alphabet ، وهي أثر باقٍ من الديْن العظيم المدين به الغرب للشرق، ولاسيما للفينيقيين الذي نفحوه بعطية لا تثمنّ هي الكتابة بالحروف الهجائية التي وصلت إيطاليا من بلاد اليونان ثم امتدت إلى سائر جهات أوروبا.

والحقيقة التي لا مراء فيها هي أن حروف هجاء بلاد الغرب والشرق متسلسلة من حروف الهجاء الفينيقية، وجاء إلى أوروبا، لأول مرة، مع حروف الهجاء القلم والحبر والورق، وجاء مع الورق اسمه الشرقي «بابيرو» وهو اسم الورق الذي يكتبون عليه في مصر أيضاً.. ثم استعمل اليونان لفظة «بيبلوس» اسم المدينة الفينيقية التي جاءهم منها.. وسمّوا ما كتبوه عليها «بيبليا»، ومنها اخذت أوروبا لفظة «بايبل» التي معناها «الكتاب»[2] .

إن في هذا القول اعترافاً صريحاً ودليلاً أكيداً على أن الذين قدموا إلى شبه جزيرة المورة، ونقلوا معهم لغتهم وكتابتهم لم يكونوا أي شعب آخر في «آسيا» أو «الشرق» غير السوريين (أو الفينيقيين إن شئت). ولقد علّموا العالم لغتهم وكتابتها غرباً وشرقاً، لقد كانوا هم المعلمين.

بيد أننا نرى وجوب التوقف قليلاً عند شرح بعض معاني الكلمات العربية التي اعتاد المؤرخون في الغرب أن يشرحوها ضمن حدود فهمهم لهذه اللغة. ففي الحقيقة إن الاسم الشرقي لكلمة الورق «بابيرو» هي من الكلمة العربية القديمة

---

(1) جيمس هنري بريستد، العصور القديمة، ترجمة داود قربان، مؤسسة عز الدين، بيروت 1983 ، ص294 .

(2) المرجع نفسه، ص295 .

«فِفرو» وتعني أصول البردي، قرطاس، ففريو = برديّ، قرطاسيٌ، ورقيّ. ولما كـان العـرب الأقدمـون يلفظـون الفـاء في كثيـر من الأحيـان كصـوت P ــ كمـا سـوف نـرى لاحقاً ــ فقد كانوا يلفظونها Papero ، ومنها جاءت الكلمة الأوروبية Paper = ورق.

أما كلمة «بابل» التي يقول إنها من اسم المدينة «بيبلوس» (أي جبيل) فالحقيقة هي غير ذلك. إن كلمة «بابيبل» العربية القديمة مركبة من كلمتين هما «بابا» أو «بابيتا» وتعني الآية، المعجزة، سطور الكتاب، و«إيل» هو الرب. فيكون المعنى آيات الله، كتابه، معجزته، وهو الاسم الذي أطلقوه على كتبهم المقدسة، كما أن اسـم عاصمـة الدولـة «بابل» يعني آيـة الله أو معجـزتـه وليس «بـاب الله» كمـا يفسـرونهـا اليـوم. ومـازالت لغتنـا العربية تحتفظ لنـا بهذا المعنى حتى اليوم. فنحن نجد في «محيط المحيط» مثلاً، أن «البابة» و«البابية» تعني الآية، المعجزة، سطـور الكتـاب. وقد انتقلت الكلمة إلى اللغات الأوروبية والسـلافية، وصـارت بالروسية، مثلاً، كلمة Bibleoteka تعني مكتبة.

ثم إن هؤلاء السوريين الذين انتقلوا إلى شبه جزيرة المورة حاملين معهم لغتهم وأبجديتهم، ديانتهم وتقاليدهـم ومظاهـر حضـارتهم الرفيعة، ظلوا هـم وحدهـم الذين يقرأون ويكتبـون حتى القرون الثلاثة الأولى قبل الميلاد. ولقد حـافظت اللغة العربية القديمة على وجودهـا هنـاك لفظاً وكتابة طيلة تلك الفترة. ثم لما بدأ السكان الأصليون المتخلفون تعلم هذه اللغة وجدوا صعوبة بالغة في نطق بعض الأصـوات، وخـاصـة الأصـوات الحلقية التي تحفل بها اللغة العربية. إن أحرف «أبجد» مثلاً التي هي: ألفا (= ثور)، بيتا (= بيت)، جاما (= جمل)، دلتا (= بـاب الخيمة، شكل المثلث) بقيت على حالها. وإن أحرف «كلمن» بقيت هـي الأخرى كما هـي، وانتقلت بتسلسلها نفسه إلى اللغات الأوروبية k,l,m,n، وإن احرف «قرشت» صـارت Q,r,s,t .. أما أحرف «حطي»، مثلاً، فقد كانت حيطا (= حـائط)، طيتـا (= حيّة)، يدو (= يد)، فقد تحولت الحاء في «حيطا» إلى حرف صـائت لصعوبة نطق الحاق فصـارت «إيتا»، وتحولت في مرحلة متأخرة «الطاء» إلى «ثاء» وصـار اسمها «ثيتا».. أما «الياء» واسمه «يدو» (أي يد) فقد صـارت تلفظ باللاتينية «يوت» jot ، وهـي تحريف عن «يد».

اللغة العربية القديمة واللهجات

لقد تميزت في لغتنا العربية القديمة ثلاث لهجات رئيسية هي السريانية في الشرق، والأمورية (وهي الفينيقية) في الغرب، والعرباء (اي النقية أو الشديدة العروبة) في جوف شبه جزيرة العرب.

إن هذه اللغة بلهجاتها الرئيسية الثلاث كانت تستوعب كل الفروع السكانية العربية. ولو اردنا ان نضرب مثالاً في آرام بن سام وأولاده مثلاً لوجدنا ان آرام وآباءه، وهم فرع رعوي بدوي من فروع العروبة، كانوا يقطنون المنطقة الشرقية من برية شبه جزيرة العرب، أي في منطقة اللهجة السريانية، ولهذا فقد كانت لغتهم هي العربية بلهجتها السريانية. وكذلك الأمر مع إبراهيم العربي الآرامي. لكن حينما انتقل ابنه اسماعيل إلى منطقة اللهجة العاربة او العرباء وتزوج من بني جرهم واستقر بين ظهرانيهم تحول هو وابناؤه من بعده إلى اللهجة العاربة ولهذا فقد دعي أمثال هؤلاء بالعرب المستعربة. ثم بقيت لغتهم هي العربية العرباء في مستقرهم الجديد وظهر من فروعه محمد بن عبد الله . ولنتوقف قليلاً عند بعض اهم الفروقات بين تلك اللهجات للّغة العربية الواحدة.

1 ـ إن في الأمور الأساسية المميزة للفظ الأسماء في تلك اللهجات ان العاربة أو العرباء كانت تضيف التنوين إلى نهاية الأسماء دون أن تكتبه، بينما السريانية تضيف الصوت «و» والفينيقية الصوت «ا»: إن كلمة «بيت» هي «بيتٌ» baeton في العرباء، و«بيتو» baeto في السريانية، و«بيتا» baeta في الفينيقية. وعلاوة على هذا فإن بعض اللهجات الفرعية في الفينيقية كانت تلطف صوت «الكاف» إلى «خاء». فكلمة «كيتون» وتعني ثوب الكتان أو القطن، وهو الثوب الفينيقي القصير الشهير، كانوا يلفظونه «خيتون».

2 ـ وثمة فارق جوهري آخر هو أن العرباء اضافت ستة اصوات إلى الأبجدية لفظاً وكتابة هي «ثخذ» و«ضظغ» بعد «قرشت».

ولقد كانت السريانية الشرقية والفينيقية الغربية تلفظان الثاء تاءً في بعض الأحيان، والدال ذالاً، لكن اياً منهما لم تكن تستخدم أو تلفظ الضاد، فدعيت العرباء، فيما بعد وبناء على هذا، بلغة الضاد تمييزاً لها عن شقيقتيها، ودعيتا

بالعجميتين، أي الصعبتين على الفهم. وبناء على ذلك فقد صارت كل المدونات في العربية القديمة فيما بعد تدعى بالأعجمية. ثم إن اللغة العربية القديمة، بلهجتيها السريانية والفينيقية، لم تكن تخضع للقواعد المعقدة والمتطورة التي تطورت إليها العرباء، إذ أن الاسم كان يبقى على حاله في كل حالات الإعراب. فظلت بعيدة عن الصرف الذي تطورت به العرباء، مثال «الجملُ يرعى العشب» هي بالسريانية «جملو روعي عسبو»، وبالفينيقية «جملا روعي عسبا» أو «غملا روعي عسبا» إذ كان الفينيقيون يلطفون «الجيم» أحياناً إلى صوت «الغين» في اللفظ. لهذا فقد دعيت كل الأسماء العربية القديمة ممنوعة من الصرف، والمانع العَلَمية والعُجمة.

وهكذا فإن ارواد، صور، دمشق، تدمر، حمص، حماه، حلب، حمورابي، هانيبعل، عشتار، حدد، آدم، هابيل، قابيل، اسماعيل، هاجر، إبراهيم، طالوت، يوسف، يعقوب، معدّ، عكّ، زينب، بلقيس.. الخ.. بقيت أعجمية، أي عربية سريانية أو فينيقية لا تخضع لقواعد الصرف والإعراب. ولو نظرنا في «محيط المحيط» حول معنى كلمة «أعجمي» لوجدنا: «أعجَمَ» الكتاب أزال عجمته وإبهامه بوضع النقط والحركات والاعراب. وأعجم الكلام ذهب به إلى العجمة إي خلاف أعربه. والعُجمة والعِجمة عدم الإفصاح في الكلام وكون الكلمة في غير أوضاع العربية كإسماعيل ولوط. والأعجم من لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان من العرب».

ولما كان الفرس قديماً يتكلمون العربية السريانية وليس لديهم أي لغة أخرى وهم من فرع سام بن نوح ومساكنهم في المنطقة الشرقية أي منطقة اللهجة السريانية، فقد دعوا بالعجم، خاصة وأنهم أقرب العرب العجم إلى منطقة العربية العرباء.

إن العرب هم أول من وضع القواميس للغتهم، وكان الغرض من وضع القواميس في البداية هو تمييز الكلام العربي بين لهجاته، أي تمييز العربية العرباء عن العربية الأعجمية (السريانية والفينيقية) وخاصة بعد أن ظهر أمر العربية العرباء في قريش بظهور محمد الذي هو ابن هذه اللهجة، ثم عمّمت عن طريق القرآن الكريم لتحلّ محلّ شقيقتيها السريانية والفينيقية في كل مناطق انتشار

العرب من الخليج العربي شرقاً إلى شواطىء الأطلسي غرباً. فلقد أخذ واضعو هذه القواميس يميزون في الكلام مابين ما هو عربي معرب (عربية القرآن الكريم) وبين ما هو أعجمي غير معرب، أي سرياني وفينيقي، ودعيت القواميس لهذا بالمعاجم. ثم إنه مع تقدم الزمن، ونتيجة لإهمال العرب للغتهم العربية القديمة، ولتعاليهم على التراث العربي القديم الذي عدّوه وثنياً، فقد أخذ الاهتمام بذلك التراث ينحسر شيئاً فشيئاً، فأهمل العرب لغتهم العربية القديمة بلهجتيها الشرقية والغربية، ونتيجة لهذا الاهمال فقد عم الجهل بها مع تقدم الزمن إلى أن صار ينظر إلى ذلك التراث العظيم الرائع اليوم وكأنما هو تراث أجنبي، وصار واضعو القواميس في العصور المتأخرة يعرّفون تلك الكلمات العربية القديمة بأنها يونانية أو فارسية معرّبة، وهذا خطأ فادح صار من الواجب اليوم تلافيه وتصحيحه.

إن العربية بلهجتها الشرقية (السريانية) هي التي يطلق عليها الباحثون اليوم اسم الأكادية، ويطلق عليها التوراتيون اسم الآرامية. و«الأكادية» هي العربية السريانية التي تشمل السومرية، والأكادية، والبابلية، والآشورية، وما دعي بالكلدانية[1] . «ولربما منذ العهد السومري، وعلى أقل تقدير في عصر حمورابي، كانوا ينسجون الأساطير ويدونونها، وقد توالى الكتبة أجيالاً بعد أجيال ولقرون عدة على نسخ هذه الأساطير دون أن يخشوا تحريفاً أو تحويراً.. ولم تعرف اللغة الأكادية إلا تغييرات طفيفة جداً على مدى ثلاثة آلاف سنة تقريباً.. وتشير بعض الآثار التي عثر عليها مؤخراً في بلاد مابين النهرين إلى أن البدء باستعمال الكتابة الأكادية يعود إلى النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد.. وهي لغة سامية الأصل تمتاز امتيازاً عظيماً بليونة قواعد صرفها، وبوضوحها وبمقدرتها على التعبير وتأدية مختلف انواع الفكر مهما كانت دقيقة، وأعني اللغة الأكادية التي لم تكن اللغة الآشورية إلا هي أو شكلاً من أشكالها. ولقد انتشرت هذه اللغة لتعمّ مختلف مناطق آسيا العليا تقريباً،

---

(1) فيليب حتي، تاريخ سوريا، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، 1982، الجزء الأول، ص182 .

وغدت (تحت اسم الآرامية) تحت الحكم الفارسي لغة الإدارة الفارسية، وأضحت من ثمّ أساس الوحدة السياسية»[1] . ويضيف المؤلف «وقد استمرت هذه الآرامية في عهد الاسكندر شأنها في عهد الفرس»[2] .

ولابد هنا من الإشارة إلى الخطأ الفادح الذي يوقع فيه المؤرخون في الغرب انفسهم لا لشيء إلا لمجرد الالتزام بالتسميات التي اخترعوها وزوروها للهروب من ذكر كلمة «العرب». فلقد أشار المؤلف إلى أن المكتشفات أكدت أن البدء بكتابة هذه اللغة يعود إلى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، وهذا يعني انها وجدت كلغة محكية قبل ذلك التاريخ أيضاً بآلاف السنين، ثم إنهم هم الذين اجمعوا على أن زمن نوح يعود إلى حوالي 3000 ق.م أي الزمن الذي حدّدوه ــ على حد زعمهم ــ بدقة، وبالتالي فإن زمن سام بن نوح هو نفس زمن أبيه، وإن تأسيس «أجادا» كعاصمة لدولة سرجون يرجعونه إلى حوالي 2500 ق.م فكيف تكون هذه اللغة الموجودة والمدونة منذ الألف الرابع قبل الميلاد «سامية» قبل أن يولد «سام» و«اكادية» قبل أن توجد أكاد (التي هي أجادا)!

المهم من خلال اقوال أندريه إيمار اعترافه بأن هذه اللغة هي السومرية وهي الأكادية، وهي لغة حمورابي (أي البابلية)، وهي الآشورية، وهي الآرامية، وقد عمّت أعالي آسيا كما عمّت غيرها، و«آسيا الصغرى» ضمن هذه المنطقة المقصودة. لكن عروبة هؤلاء لم تعد بحاجة إلى إثبات لدى كل الباحثين الموضوعيين في العالم[3].

أما العربية الفينيقية فهي لغة اليونان وايطاليا القديمة، إذ أن العرب السوريين هم أول من استوطنها وشاد فيها المدن ونقل إليها أسباب الحضارة. ويكفي شاهداً على عروبة هذه اللغة أن اباطرة روما من الفينيقيين (مثل سبتيمو

---

(1) اندريه إيمار، تاريخ الحضارات العام، الجزء ١، ترجمة فريد داغر، وفؤاد أموريحان ــ دار عويدات، بيروت ــ باريس 1986، الطبعة الثانية، ص512 – 514 .

(2) المرجع نفسه.

(3) انظر: اشتور، التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للشرق الأوسط في العصور الوسطى. ص17 .

سفيرو)[1]، ومن السوريين (مثل فيليب العربي) أصرّوا على أن تكون كلمة «العربي» هي اللقب الذي كانوا يتخذونه لأنفسهم وهم على كرسي روما الامبراطورية.

إن هذه اللغة بلهجتيها السريانية والفينيقية هي التي كانوا يتكلمونها بالفطرة في كل مناطق انتشارهم سواء كانوا أميين أو متعلمين، وهي التي دعيت «الكيني». وكلمة «كيني» هي عربية قديمة، وفي القاموس السرياني تعني: الكيان، الفطرة، الطبيعة، الجوهر، الغريزة. وكانت «اتيكا» (عتيقة) من أولى البقاع التي نزلها الفينيقيون واستخرجوا منها الفضة. يقول أندريه إيمار: «إن اللغة الأتيكية لم تكن سوى أعظم لهجات الثقافة سحراً في العالم اليوناني، وهي الـ «كيني»، وهي الإيونية أوسع اللهجات انتشاراً في الشرق منذ زمن بعيد». ويضيف: «ولابدّ من القول إن لغة التوراة السبعنية ولغة الأناجيل عملياً هما الـ «كيني» نفسها»[2].

وإذا ما أردنا أن نقترب أكثر من هذه اللغة العربية القديمة لوجدنا أن الكلام العربي بأقسامه الثلاثة (الاسم والفعل والحرف) هو نفسه، إن أحرف الجر، على سبيل المثال، هي نفسها، وإن لجميع مفرداتنا اليوم أصولها في العربية القديمة. فلو اننا أخذنا فعل «كتبَ» مثلاً في القاموس السرياني لوجدنا: كَتِبْ = كتبَ، خطّ، سجّل، قيّد، ألّف، انشأ، حفر، نحت، نقش الكتابة، امر، حكم، قضى، عيّن. كاتوب = كاتب، مقيّد، مسجّل، منشيء، الخ. كتيبتو = كتابة، خط، إمضاء.. مكتبنوتا = كتابة، تسجيل، مكتب = قلم، مرقم. كتابو = كتاب، رسالة.. كتابويو: كتبيّ، بيّاع الكتب. كتيبة إيدو = خط يد، قلم، إمضاء، صكّ، وثيقة، الخ.

لكنه ينبغي أن نضع في حسباننا التطور في القواعد الذي خضعت له العربية العرباء فيما بعد، وطبيعة الابدالات التي سادت بين لهجات العربية القديمة من جهة، وبينها جميعاً وبين العربية الحديثة من جهة أخرى. ومن أجل أن تصبح

---

(1) جان بابليون، امبراطورات سوريات، تاريخ فترة التأثير السوري في الامبراطورية الرومانية، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر، دمشق 1987 ، الطبعة الأولى، ص16 – 17 .

(2) المرجع نفسه، ص513 – 514

الصورة أكثر وضوحاً نرى أن نتوقف قليلاً عند بعض أهم الابدالات.

اللغة العربية القديمة والابدالات

إن أهم الابدالات في اللغة العربية القديمة ما كان ناجماً عن إضافة العرباء للأصوات الستة «ثخذ، ضظغ» في الكتابة، ولصوت «الضاد» لفظاً وكتابة، إذ انهم كانوا يلفظون الثاء والذال والخاء والغين احياناً دون كتابتها فيكتبون «الدال» ويلفظونه «دالاً» و«ذالاً» ويكتبون «التاء» ويلفظونها «تاء» و«ثاء» كما سوف نرى. أما «الضاد» فقد دخل جديداً لفظاً وكتابة، وما من أحد حتى اليوم يستطيع تحديد زمن بدء هذه الإضافة. ونظراً لأهمية هذه الظاهرة فقد رأينا التوقف عندها قليلاً.

بينما كانت اللهجتان السريانية والفينيقية تستعيضان عن هذه الأصوات المضافة ببعض الأصوات الأخرى المنحصرة ما بين «ابجد» إلى «قرشت» نرى العرباء وقد اشتقت اصواتاً جديدة من الأصوات الأساسية القديمة نفسها، وميزتها كتابة بعلامات جديدة. لنوضح ذلك ببعض الأمثلة:

1 . لما كان صوت الضاد لا وجود له لفظاً أو كتابة في العربية القديمة فقد كانت تقوم مقامه الأصوات التالية:

آ ـ كان يستعاض عنه بصوت العين، وهي الحالة الغالبة، مثل: أرضُ ـ هي «أرعو» بالسريانية و«أرعا» بالفينيقية.

بيضةٌ ـ هي «بيعتو» بالسريانية و«بيعتا» بالفينيقية، وتلفظ أحياناً «بيعو» و«بيعا»، (وحتى الآن في قرى الساحل السوري تستخدم الأم هذه اللفظة لطفلها حينما تريد إطعامه بيضاً إذ تقول له مرغبة «بع ـ بع» أي بيض، بيض، وهي مستمرة منذ الزمن الفينيقي).

فعل «رضي» ـ وهو «رعي» بالسريانية والفينيقية.

ب ـ كان يستعاض عن الضاد أحياناً بالطاء، مثل:

ظلٌ ـ هي طِلو: أيضاً ـ هي أيطا. فعل «ضاع» ـ هو «طاع».

جـ ـ كان يستعاض عن الضاد بالهمزة، مثل:

ضلعٌ ــ هي إلعو.
د ــ كان يستعاض عن الضاد بالصاد، مثل:
ضفدع ــ هي «صفدعو» و«صفدعا» (وما تزال كلمة «صفدعا» هي المستخدمة في اللغة اليومية الدارجة في الساحل السوري اللبناني حتى اليوم).
هـ ــ كان يستعاض عن الضاد بالدال، مثل:
روضــة ــ هي رودا؛ ترويض ــ هي «روديو» (ومنها كلمة Rodeo = ترويض الجياد بالانكليزية) و«مردوتا».
2 . أما صوت «الخاء» فقد اشتق أساساً وفي معظم الحالات من «الحاء» العربية القديمة، مثل:
اخ ــ هي «أحو» . خالٌ ــ هي «حالو».
كما انه اشتق في بعض الكلمات من «الجيم» القديمة، مثل:
خنَوصٌ (ولد الخنزير) ــ هي جنوصو.
ولقد كان الفينيقيون يلطفون أحياناً صوت «الكاف» فيلفظونه «خاء» دون أن يكتبوها، مثل: «كيتون» (ثوب الكتان) كانوا يلفظونها «خيتون»؛ «اسكيلو» (معلم) كانوا يلفظونها «اسخيلو» وهو اسم الكاتب السوري في اليونان.
3 . كانت «التاء» تلفظ «ثاء»، في كثير من الحالات السريانية والفينيقية وتبقى كتابتها «تاء»، وخاصة مع تاء التأنيث المفرد والجمع، مثل «طليتا» (= الطلية، الصغيرة من كل شيء، الفتاة، صغيرة الظبي، أو النعجة، أو الذئبة..)، كانت تلفظ «طليثا»، وهي الكلمة التي استخدمها السيد المسيح عند إحيائه الفتاة الميتة إذ قال لها عبارته الشهيرة «طليثا قومي» أي أيتها الفتاة الصغيرة قومي من الموت، ونقلها تلاميذه كما هي.
أما الابدالات الأخرى بين العربية القديمة والحديثة فنقف عند بعض أهمها:

1 . الابدال بين السين والشين وبالعكس:

إن معظم «الشينات» في العربية القديمة السريانية والفينيقية كانت سينا» في العرباء ثم استمرت فيها إلى عربيتنا الحديثة، كما أن معظم «السينات» صارت «شيناً»، أمثلة:
في السريانية والفينيقية «شبعْ» صارت «سبع»، «حمش» صارت «خمس»،

«جاموشو» صارت «جاموس»، «شبح» صارت «سبَحَ»، «شولطانو» صارت «سلطان» «شوقو» صارت «سوقٌ»...

كما أن «ساطانو» صارت «شيطانٌ»، «سعرو» صارت «شعرٌ»، «سطر» صارت «شطر»...

2 . الابدال بين «الهمزة» و«العين»:

وهذا الابدال شائع في العربية منذ القديم وحتى اليوم:

«أل»و«عل» = السيد العلي؛ «آزر» و«عزر» = أعان، ساعد؛ ولقد اختفت العين فيما بعد في اللفظ لدى السوريين في بلاد اليونان وإيطاليا وتحولت إلى حرف صائت نتيجة لطول مخالطتهم السكان الأصليين الذين لم يتمكنوا من نطق هذا الصوت الحلقي.

3 . الابدال بين الهمزة والهاء بين القديمة والحديثة وبالعكس:

مثال: «إزبرو» هي «هِزَبرٌ» (أسد)، «هيمونو» هي «إيمان».

4 . الابدال ما بين «الفاء»و«الباء»:

لمّا كان صوت «الفاء» في اللهجتين السريانية والفينيقية يلفظ «P» في كثير من الكلمات، فقد تحول في العربية الحديثة إلى حرف «باء» واستمر كما هو في اللغات الأوروبية في معظم الحالات، أو تحول إلى «b» في بعضها مثل:

«صافونو» أو «سافونو» كانت تلفظ «صابونو» صارت «صابونٌ»، بينما صارت بالفرنسية Sapon وبالإنكليزية Soap .

«فيطارو» (طبيب الخيل) كانت تلفظ «بيطارو» صارت «بيطارٌ».

أما «فايا» و«فيبا» (تعني الجميلة أو الجميل) فإن الاسم منها فيوتا (جَمال) ويجمع على «فيوتي» فقد صارت بالإنكليزية «بيوتي» beauty أي تحول «الفاء» إلى «باء» وليس إلى P .

بعد هذه الأمثلة على بعض الابدالات في اللغة العربية القديمة والحديثة ننتقل الآن إلى رصد بعض الظواهر اللفظية التي سجلتها اللغة العربية القديمة وزالت من الحديثة، لكن بعضها بقي حياً في لغتنا اليومية الدارجة حتى اليوم.

1 . إن كثيراً من الكلمات التي ثانيها حرف «النون» تبقى محافظة على معناها سواء كانت بالنون أو بدونها، أمثلة:

«غَزو» و«عنزو» = عنز، ماعز..

«جزو» و«جنزو» = كنز.

«أجيليو» و«أنجيليو» = إنجيل، وحي.

«أوجي» و«انجي» = أنجي (أنقذ). ومنهما جاء الاسم العربي «أوجين» (= ناجي) وانيجين (= ناجي)، وانتقل كغيره من الأسماء العربية القديمة إلى أوروبا كلها. وطريف أن نشير هنا إلى أنه قد تكون الصدفة وحدها جعلت الشاعر الروسي الشهير بوشكين يضع اسماً لمسرحيته الشعرية الشهيرة «إفجيني انيجين» (اوجين انيجين) وهو اسم بطل المسرحية المشتق من صيغتي هذا الفعل العربي الواحد، اي ان اسم البطل هو (ناجي ناجي).

«جبارو» و«جنبارو» = جبارٌ.

«بت» و«بنت» = بنت.

«عتيقا» و«عنتيقا» = عتيق وعتيقة. وهم الاسم الذي أطلقه الفينيقيون على منطقة في الشاطىء التونسي ثم على منطقة في شبه جزيرة المورة حيث شادوا فيما بعد أثينا.

وقد انتقلت الكلمة إلى اللغات الأوروبية بصيغتها الثانية وصارت Antique = عتيق، قديم، أثري، (أنتيكا). و«دَصو» و«دنصو» = رقصٌ وانتقلت بصيغتها الثانية إلى اللغات الأوروبية فصارت dance = رقصٌ.

«حزيرو» و«حنزيرو» = خنزير. وكلمة «حزرو» هي التي أطلقها السوريون الأوائل على القبائل الرحل حول بحر قزوين، وهي في القاموس السرياني «حزرو» وتعني راعي الخنازير وصاحبها، القذر، النتن، النهم، الشبق..ثم سمّي بحر قزوين باسمهم «بحر الخزر». وهذا يحلّ إشكالات الحيرة التي وقع فيها د.م. دنلوب في كتابه «تاريخ يهود الخزر» حيث كتب يقول: «ومن جهة أخرى إن اشتقاق اسم «الخزر» ومعناه غامض تماماً. ويقال عادة إنه مشتق من جذر الفعل التركي «قز» ويعني يتبدى ويتجول وبهذا يكون الخزر هم البدو»[1].

---

(1) د.م. دنلوب، «تاريخ يهود الخزر». ترجمة د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1987 ، الطبعة الأولى، ص19 .

مفـاحـو = منفـاخ ؛ مَجَلـو = منجلٌ ؛ أفـو = أنفٌ ؛ عدمـا = عنـدمـا ؛ حطّـا وحطتا = حنطة ...

2 . حينما يدخل «أل» التعريف علىَ الكلمات التي تبدأ بصوت ينطق من الشفاه، كالـ «فاء» و«الباء»، كان يستعاض عن لام التعريف بصوت مناسب شفوي اللفظ هو «الميم» مثل:

«بوبو» تصبح مع أداة التعريف امبوبو.

«أفو» (= أنف، وجه) تصبح مع أداة التعريف «أمفو».

وقد استمرت هذه الظاهرة في لغتنا العربية الدارجة حتى اليوم، فنحن نقول «مبارحة» بدلاً من «البارحة».

3 . هناك ظاهرة لفظ الأسماء المؤنثة المنتهية بتاء التأنيث كأن تلفظ بدون التاء مثل «حيرت» و«حيرتا» (= الحرة، الشريفة، الكريمة، السيدة، البطلة، بنت الأصل، بنت النسب)

كانوا يلفظونها «حيرا»؛ أو بقلب «التاء» إلى «ياء» في اللفظ، مثل: «طهيمتا» (المطهمة، الشريفة، الأصيلة) هي التي صارت في اليونان (تيما) و(تيمي).

وهذه الظاهرة مازالت حية في لغتنا الدارجة حتى اليوم، فنحن نقول «فاطما» و«فاطمي» بدلاً من فاطمة. يستثني من هذه الظاهرة كل الأسماء التي يسبق فيها تاء التأنيث صوت حلقي كالقاف والخاء. فنحن لا نقول في لغتنا الدارجة «شفيقي»، و«زليخي»...

ظواهر أخرى:

1 . هناك كمية كبيرة من الكلمات العربية القديمة التي لا حصر لها ما نزال نستخدمها في حياتنا اليومية كما هي حتى اليوم، وهي كل الأدوات والأسماء، وخاصة أسماء الفاعل، التي على وزن فاعول، مثل: شاتول، ساموك، داقور، عامود، حاصود، ناطور، كاسوحة، داروس.. وكل أجزاء المحراث القديم: الكابوسة، الركبة، النير، القدة، الشرع، الشلف، المسّاس.. وكل أدوات القطاف مثل: السلّة، القرطل، المرواط، المعقالة، العاشوفة.. وكل ما يتعلق بصناعة الرغيف وما يحيط بها من الفلاحة إلى أن يصبح القمح رغيفاً..

2 . هناك كلمات يظنها البعض مقحمة على العربية، منها:

أ . ما ورد في القرآن الكريم مثل: فردوس، صراط، قسطاس، خوخ، رمان.. الخ. بينما هي في الحقيقة عربية صميمة. إن كلمة «فردوس»، مثلاً، هي في العربية القديمة من الفعل «فربِسْ» = غرس جنة أو روضة أو بستاناً. ومن العربية القديمة السريانية والفينيقية انتقلت الكلمة إلى الفرس واليونان ثم إلى باقي لغات أوروبا فصارت Paradise = فردوس، أو فراديس.

ب . وكلمات علمية هي جميعها من العربية القديمة مثل: «أطوم» وتعني الشيء الزهيد، التافه، الصغير، الدقيق، المصَمت، الذرة، صارت باللاتينية أتوم atom. «مروستان» = مشفى للأمراض العقلية؛ إلقتراً = المصباح، القنديل صارت إلكترا وهي «قترا» + أل التعريف. ومنها اشتقوا الاسم الكترون حيث الواو والنون للتصغير في العربية القديمة مثل: زيد ـ زيدون، سعد ـ سعدون، جدع ـ جدعون... موتور (محرّك) من الفعل العربي القديم «أوثور» = أثار، حرّك، فرْيس (وتلفظ بْريسْ) وتعني فرشْ، نشرّ، إذاعة، إعلانْ، فضحٌ ، وقد اختيرت الكلمة لتطلق على الصحافة ظناً أن الأصل إغريقي كالعادة، وتعبر عن وظيفة الصحافة.

ج . هناك ظاهرة الأسماء العالمية المتداولة للأشخاص، والتي ليس لها أي معنى بأية لغة في العالم إلا في العربية القديمة. ومعظمها من أسماء عهود عقيدة الخصب العربية السورية، مثل:

جورج = المغري، الجذاب، المثير.. ومؤنثه «جورجيت» و«جورجينا»، وهذه الصيغة في التأنيث تنفرد بها اللغة العربية دون غيرها. إن تاء التأنيث العربية هي التي انتقلت إلى اليونان وإيطاليا واسبانيا ثم إلى بقية الأصقاع الأخرى. أوديت = مديحة؛ جوليا، جولييت، جوليانا = السنية، البهية، الجميلة، الواضحة، البشوش، البصيرة، العارفة، كاشفة السر، صاحبة الوحي أو الإلهام؛ ناتاليا = وهيبة، وهي من الفعل العربي السرياني أو الفينيقي نتلْ = وهب، أعطى بسخاء ، ريجينيا = المغرية، المثيرة، المهيجة، ومن مشتقاتها ريجان للمذكر، وأرجو = إغراء، إثارة، ومارجو = مغرية، مثيرة، ورجّة = رغبة، شوق، هيجان، اغتلام.. الخ.

«ليزا» (هي في الأصل «لْحيزا») وتعني البصيرة، الشهيرة، الجميلة، الممتازة،

النبية، الحكيمة، الحاذقة، الماهرة.. وقد اختفت الحاء في اليونانية المتأخرة: «ميثرا = المكثرة، المثرية، المخصبة.. وهي من فعل «يثرْ» في العربية القديمة و«أثرى» في العربية الحديثة؛

ماري، مريم، ماريا، مرتا : كلها تعني السيدة، الربة؛

روزا = الوردة. وهي في العربية القديمة من الفعل روزْ = أورد، أزهر. ومنها كانت تسمية «نيروز» وتعني ربة الإزهار وهو عيد الربة عشتار حين تقيم «تموز» أو «أدونيس» في بداية الربيع وتجدّد الزهر والإخصاب في الطبيعة في ديانة الخصب العربية السورية القديمة. ومثلها «نينورتا»، إذ أن «نورتا» تعني الزهرة، وهي النورة في العربية الحديثة.

د . هناك ظاهرة الكلمات العربية القديمة التي مازلنا نستخدمها في حياتنا اليومية كما هي دونما تغيير، ونعتبرها عامية او تحريفاً عن الفصحى، مثل: مَيْ = ماء؛ سُفرة = سفرة، خوان، بساط تحت الطعام؛ زْميتي = صقيع، جليد ومن الكلمة جاء «التزمت» و«متزمّت» اي جامد، متجمّد ومنغلق. هيك = هكذا، وهي من العربية القديمة إيك = مثل، نظير، ند. وميكاً = مثيل، نظير، ومنها ميكائيل = نظير الرب في العربية القديمة؛ كفتة = مهروسة، ممروسة.. الخ.

التحولات الصوتية من اللغة العربية القديمة إلى اليونان وايطاليا فاللغات الأوروبية الحديثة

سبق ان ذكرنا ان اللغة العربية القديمة بلهجتيها السريانية والفينيقية كانت هي لغة الكتابة والحضارة والإدارة في كل الأصقاع التي انتشر فيها العرب السوريون. ثم لما تطورت إلى ما دعي باليونانية الوسطى ثم اللاتنية فقد اختفى كثير من الأصوات الحلقية لفظاً وكتابة، وتحولت في معظمها إلى أحرف صائتة. فبينما نجد في العربية القديمة والحديثة جميع الأصوات الحلقية: ق ، ك ، ح ، خ ، ج ، غ ، هـ ، ع ، احتفظت كل منها بصوت حلقي واحد أو بصوتين، وتحول الباقي إلى أحرف صائتة، أو حلّ محلّها بعض الأصوات المركبة مثل إكس X ، يو U ، ودابليو W .. الخ.

إن أكبر مثال على ذلك حرف «الحاء» واسمه بالعربية السريانية والفينيقية

«حيطا» (= حائط) الذي تحول لفظه في اليونانية الوسطى والحديثة إلى «إيتا». فتحول بذلك من «حاء» إلى صوت الهمزة، وباختفائه ضاعت معالم كثير من الكلمات العربية مع احتفاظها بمعانيها الأصلية أو القريبة منها. إن هذا هو ما جعل اللغويين الأوروبيين حديثاً يحارون كثيراً، وهم يدورون حول معاني تلك الكلمات وجذورها الاشتقاقية دونما نتيجة، فيضعون الافتراضات ويبنون عليها أسس علم اللغات الأوروبية القائم على الظن والتخمين، واعتبروا الكلام الذي وصلهم بصيغته «الاغريقية» أو «اللاتينية» هو الأصل غافلين عن عمليات التحوير الصوتية التي تمت من العربية القديمة.

إن اسم «حيرا» التي هي زوجة «زيو» يعني في العربية القديمة: الحرّة، البطلة، الشريفة، السيدة، بنت الأصل، بنت النسب، الكريمة.. تحول في اليونانية المتأخرة إلى «إيرا» وبالإنكليزية إلى «هيرا». ومن مذكر الكلمة «حيرو» (= السيد، البطل، الحر، الشريف..) جاءت الكلمة الإنكليزية Hero = البطل، والكلمة الألمانية Her = السيد. وبالفرنسية Hero أيضاً = البطل.

وإن «حورا» العربية القديمة (= الحوراء، الحورية، البيضاء، الجميلة) صارت باليونانية «أورا» واحتفظت بالمعاني كلها.

وإن «حوليص» (= البطل، الشجاع، المقدام، القوي، الباسل، العاقل، المخلِّص)، وهو بطل الأوديسّا، صارت «أوليس».

وإن «محوزا» (العشيقة، المعشوقة، المحبوبة، الملهمة، وهي من الفعل «حوزي»، صارت «موزا» بعد ان اختفت «الحاء»، ويترجمونها في الغرب: ربة الشعر، الملهمة.

وإن «مجلس الشورى» المؤلف من مجموعة من زعماء الأسر أو العشائر السورية النبيلة، الذي كان يتزعم الفصل في الخصومات، ويتولّى دراسة شؤون التجمع أو القرية أو المدينة، كان اسمه بالعربية الفينيقية «أورحو فقحو». وفي القاموس السرياني أو الفينيقي نجد أن «أورحو» تعني: المجلس، التقليد، السنة، المذهب، الطريقة، و«فقحو» تعني: الرأي، المشورة، الشورى. وقد صارت باليونانية المتأخرة تكتب وتلفظ Areo Fagos «أريو فاجوس»، لاختفاء «الحاء» في الكلمتين وتحول القاف الذي كان يلفظ أحياناً كالقاف

البدوية أو كالجيم المصرية إلى g أي إلى «الجيم» الفينيقية أو السريانية، ويقولون كان يقصد بها مجلس الشورى، لكن دون أن يعرف أحد في الغرب كله كيف تعني هذه الصيغة «أريو فاجو» مجلس الشورى.

وإن «زرحا» بالعربية القديمة تعني: الفجر، الشروق، الإصباح؛ و«زرحو» و«زريح» اسم عربي قديم يعني: الفجر، الصباح؛ وفي القاموس «محيط المحيط» نجد زرحَ = فجرَ، صدغ، شجّ، وسمّي الفجر فجراً لأنه يفجر الليل بضوئه ويصدعه. وقد تحولت الكلمة الفينيقية «زرحا» (= الفجر، الاصباح) إلى «زَرْيا» في اليونانية المتأخرة لاختفاء «الحاء»، ومنها انتقلت إلى اللغات السلافية حتى وصلت إلى الروسية الحديثة إذ نجد في الروسية اليوم Zaria = الفجر، الإصباح.

وإن «دُنحو» في السريانية والفينيقية تعني: الفجر، الشروق، الظهور، و«عيد الدُنح» حتى اليوم هو عيد الظهور، وقد صارت الكلمة في اليونانية المتأخرة «دونو» أو «دون» لاختفاء «الحاء»، ومنها انتقلت إلى ايطاليا فاللغات الأوروبية الحديثة، وصارت بالإنكليزية «دون» dawn = الفجر.

وإن اسم «حنّة» (= الزوجة، السيدة، القرينة) صار «آنا» Anna ...

ومثلما حدث لحرف «الحاء» حدث أيضاً لحرف «العين»: إن «إنياس» (عنيا) الكاهن الطروادي الذي رحل بمن تبقى من عشيرة الطرواديين بعد هزيمتهم على يد الآخيين؛ وكتب «فرجيل» ملحمته الشهيرة التي دعاها باسمه «انيادا» هو بالعربية السريانية أو الفينيقية «عنيا» ويعني: الكاهن، المرتلّ، المهتم، المجيب للنداء، المنجد، المستجاب دعاؤه. و«إنيادا» أصلها «عنياثا». وإن الذي استقبلهم على أرض جزيرة «ديلوس» هو أيضاً «عنيا» أي الكاهن. يقول فرجيل: «ولما نزلوا هناك للصلاة (على ارض ديلوس) لقيهم «أنياس» كاهن الأرض وحاكمها.. ثم دعوا للإله قائلين: نتوسل إليك يا إلهي أن تمنحنا موطناً نأوي إليه»[1] .

وفي «الأوديسا» نجد أن جماعة أوديسيوس جذبهم سكان الشاطىء الشرقي

---

(1) فرجيل، الأنيادا، ترجمة عنبرة سلام الخالدي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 1980 ، ص40 – 41 .

للمتوسط وهم يأكلون ثمراً لديهم شهياً وحلواً كالشهد حتى كادوا ينسونه ويتخلون عنه، ودعوا أولئك السكان بـ «لوطو فاجوس» ويقول الباحثون في الغرب: إنها تعني أكَلَة اللوطس»[1]! ومن المعروف «أن اللوطس نبات يزهر ولا يثمر، وهو لا يؤكل، ومع هذا وكعادتهم أبداً فلم يكن المنطق ليعتمد أساساً في بحوثهم، فاعتبروا التسمية إغريقية، وخمّنوا معناها ثم عمّموه.

أما الحقيقة فالتسمية عربية فينيقية مؤلفة من كلمتين: «لعوطي» من الفعل العربي القديم والحديث «لعط» أي أكل بنهم طعاماً ذا عصير أو ماء. وقد اختفت «العين» في اليونانية المتأخرة وصارت «لوطي» وتعني اللاعطين، الآكلين بنهم، يقول شابيرو وهندريكس مؤلفا «معجم الميثولوجيا»: «لوطو فاجوس تعني أكلة اللوتس، وهم سكان جزيرة الشاطىء الشمالي لأفريقيا الذين عاشوا على ثمار اللوتس. وبما أن اللوتس يجعل الناس تنسى موطنها فقد حاد أوديسيوس عن بلاد أكلة اللوتس.. ويعرفون أيضاً باسم اللوطو فاجي (وهو شكل يوناني لاسمهم)[2]. فتأملوا هذه الشعوذة!

والكلمة الثانية هي «فَقوس» وتعني في القاموس السرياني: الفقّوس، البطيخ الشامي. وما تزال الكلمة مستخدمة حتى اليوم. ويكون معنى التسمية «أكَلة البطيخ الشامي» لا أكلة اللوطس! وفي هذا دليل آخر على أن الطرواديين وجماعة «أوديسيوس» هم أيضاً فينيقيون، ولغتهم هي العربية الفينيقية، وهذا ما أكده أيضاً «فيكتور برنار» في كتابه «الأوديسا والفينيقيون»، وسيكون لنا مع هذا الموضوع وقفة مطولة في مكان آخر.

أما حرف «القاف» فقد تحول إمّا إلى حرف «الكاف» مثل «قريت» صارت «كريت»، أو إلى حرف «g» للتشابه في اللفظ، مثل: «فقحو» (التوري) صارت «فاجوس» لاختفاء الحاء؛ «فقوّس» (الفقوس، البطيخ الشامي) صارت «فاجوس» أيضاً.

الابدالات الصوتية من العربية القديمة إلى اللاتينية

أما التغيرات التي طرأت على العربيةَ القديمة بعد أن كتبت باللاتينية فيمكن أن

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، المجلد السادس ص114 .

(2) شابيرو وهندريكس، معجم الأساطير، ص156 .

نضيف إليها ـ علاوة على ما ذكرنا ـ الظاهرات التالية:

1 . إن حرف «الجيم» في العربية القديمة، والذي كان يلفظ كالجيم المصرية اليوم، قد اختفى في اللاتينية، واستعيض عنه بالحرف «C»، إذ من المعروف أن حروف «أبجد» العربية (أ ، ب ، ج ، د) صارت باللاتينية (d,c,b,a) إذ أن اللاتينية أسقطت الـ «G» كما أسقطت غيره من الأصوات الحلقية دون أن تحتفظ بأي منها. مثال:

«جفرو» (وتعني الظفر، المخلب، وهو اسم الجزيرة «قبرص») كان يلفظ بالعربية القديمة Gypro لأن «الفاء» كانت تلفظ «P» والدليل ان القصيدة المعروفة بـ «القبرصية» كتبت Gypria. غير أن الأصوات الحلقية إذا ما وقعت في اللاتينية قبل: y,e,i تلفظ «C» أو tc . امثلة:

GYPRO (قبرص) صارت Cypros؛ «فينيقيا» صارت باللاتينية فينيسيا؛ «هِرَقِلْ» صارت باللاتينية هرتسِل أو هرتزل، «صقلية» صارت باللاتينية سيتسيليا»؛ «كِركو» وتعني بالعربية السريانية او الفينيقية: الدائرة، الحلقة، المرسح، المسرح، صارت باللاتينية «تسيركو» وانتقلت إلى الروسية Tcirk وإلى اللغات الأوروبية Circus ومنها الكلمات المشتقة الأخرى مثل Circle = دائري..

2 . إن «التاء» التي كانت تلفظ أحياناً «ثاء» وخاصة مع تاء التأنيث وجمع المؤنث، فقد تحولت في اللاتينية من «ث» th إلى «d» وذلك لقرب مناطق اللفظ بين الثاء والدال والذال.

امثلة: «إلياثا» صارت «إليادا»؛ «حمينيثي» (صاحبات الحمية والنخوة والغيرة على العرض والشرف) صارت «إيمينيدي» [لتحول الحاء (حيطا) إلى «إ» (إيتا) والثاء إلى d]، وصاروا يترجمونها ربات الانتقام؛ «نهيراتي» (النيّرات، البهيات، السنيات، الجميلات) صارت «نيرادي»؛ «برموثا» (برالموت) صارت «برمودا»؛ «ميثيسينا» (طب، علاج، دواء، قابل للعلاج) صارت «ميديسينا» ومنها medicine = طب، دواء في اللغات الأوروبية الحديثة. والكلمة هي من الفعل العربي القديم إيسي = آسى (أي عالج، داوى، طبّب)، تْإيسي = تآسي (أي تعالج، تداوى، تطبّب، متإيسيو = متآسٍ (أي متعالج، متداو، متطبب، متإيسينو (وبالفينيقية متإيسينا) = قابل للعلاج، طب، دواء...

إن علماء اللغات في الغرب اليوم يحومون ويدورون حول الكلمات العربية القديمة التي يعتبرونها «إغريقية» في محاولات عقيمة من أجل استنباط معانيها الحقيقية من خلال استخداماتها دون الرجوع إلى أصلها العربي القديم، فيبقون في حيرة الدائر حول الشيء دون الولوج إليه أو الاقتراب منه.
فلو أننا عدنا إلى الكلمة العربية القديمة «حيرو» التي تعني: الحرّ، البطل، السيد، الشريف، الأصيل، الجواد، حر الضمير، المترفع عن الصغائر، كريم النسب، الشجاع، ذو المروءة.. والتي ما تزال كلمة «الحرّ» العربية تؤدي كل هذه المعاني حينما نلصقها بإنسان ما، ما يزال علماء اللغات في الغرب يقفون أمامها حائرين عند محاولة تحديد مدلولها في مايدعونه بـ «اللغة الإغريقية» القديمة، ومثلها الاسم المشتق منها «حرية» التي هي بالعربية القديمة «حريتا»، وصارت باليونانية المتأخرة «إريتا» ويترجمونها بـ «الفضيلة». لنسمع قليلاً إلى الانكليزي «كيتو» في كتابه «الإغريق» وهو يحاول الوصول إلى معنى الكلمة من خلال استخداماتها دون أن يدرك حقيقتها العربية القديمة، وبالتالي دون الرجوع بها إلى الأصل. يقول «كيتو» حرفياً مايلي:

«إن ما كانوا يدعونه «إريتا» وهي كلمة إغريقية أخرى تعتبر نموذجاً لغيرها، عندما نصادفها عند أفلاطون نترجمها «الفضيلة» ويضيع منا بذلك كل أثر لتذوقها. فالفضيلة في اللغة الانكليزية الحديثة، على الأقل، كلمة أخلاقية محضة.

أما «إريتا» فإنها تستخدم دون اكتراث في كل النواحي، وتعني مجرد «الامتياز»، ويمكن أن يتحدد معناها بطبيعة الحال من سياق الكلام. فـ «الإريتا» بالنسبة لحصان السباق هي السرعة.. وإذا استعملت في سياق الكلام عامة عن رجل فإنها تشير إلى الامتياز الأخلاقي أو العملي.. إن «أخيل»، مثلاً، هو أروع المحاربين وأسرع العدائين وأنبل الناس نفساً. ويخبرنا «هوميروس» كيف تلقى «أخيل» العلم. فقد عهد به أبوه منذ طفولته إلى الفينيقي العجوز وعهد إليه بتربيته وتهذيبه ليكون مؤلفاً للخطب وقائماً بروائع الأعمال.
وقد حاول البطل الإغريقي أن يجمع في ذاته الفضائل التي قسمها عصر البطولة

مـابين الفرسـان ورجـال الدين»[1] .

وهكذا فإننا نلاحظ من خلال هذا القول كيف يتقرّى «كيتو» معاني هذه الكلمة العربية الأصيلة الواحد بعد الآخر من خلال استخداماتها، مبدياً انبهاراً أمام غنى اللفظة الواحدة التي يعتبرها اغريقية بمدلولاتها. هذا من ناحية.

ومن نـاحيـة اخرى فإن الأدب والأسـاطير تمثل الجانب الهام من التراث الذي خلفه اولئك الذين صاروا يدعون اليوم بـ «الإغريق». وإن أحداً لن يتمكن من فهم تلك الأسـاطير نصاً وروحاً إذا لم ينطلق من حقيقتها العربية السورية مع أن دراسة تلك الأسـاطير تؤلف القسم الرئيسي من الجزء الثاني من هذا الكتاب، غير اننا نجد أن من المفيد هنا، ما دمنا ضمن إطار الحديث عن أهمية اللغة كعلم مسـاعد في البحث التاريخي وتحديد الهوية القومية للسكان والحضارات، أن نقدم مثالاً عن دور اللغة في فهم تلك الأسـاطير، من جانب، ومثالاً لما سوف نفعله في دراساتنا المقبلة، من جانب آخر.

الأساطير السورية في بلاد اليونان تتحدى علماء اللغات

إننا سوف نكتشف، ولأول مرة في التاريخ، بعد أن ضيّعت الحقيقة على أيدي معظم الباحثين المتعصبين في الغرب، عن السر العظيم الذي تركه لنا الأجداد السـوريون القدامى في أسـاطيرهم الجميلة التي صارت تدعى اليوم «إغريقية».

إن مفتاح السر في كل تلك الأسـاطير هو أن جميع أسمـاء أبطالها إنما هي ألقاب اشتقت من واقع أحداث القصـة نفسهـا. وبغيـر الرجـوع إلى العـربية القديمة بلهجيتها السريانية أو الفينيقية يستحيل فهم مدلولاتها.

لنـأخذ الآن مثـالاً قصـة «أريثوزا والفيو» ولننتبه جيداً إلى الأفعال والصيغ الواردة في القصة التي تحكي مجمل الأحداث والحالات النفسية. تقول القصة الأسطورة التي تروى على لسان «اريثوزا» نفسها مايلي:

«.. كنت عائدة من الغابة مرهقة وسط قيظ ضاعف من وطأة الإجهاد الذي نال مني. فأويت إلى جدول هادىء كدت لصفاء مياهه أن اعدّ حبات الحصى التي بقاعه. وتظلل ضفافه المنحدرة أشجار الصفصاف الفضية التي ترتوي من

(1) هـ.د. كيتو، الاغريق، ترجمة عبد الرزاق يسري. دار الفكر العربي، 1962 ، ص24 - 25 .

مياهه. واقتربت من الجدول، وغمست قدميّ في مجراه، ثم ساقيّ حتى ركبتيّ. ولم اقنع بذلك، بل خلعت ثيابي وعلقتها على شجرة صفصاف متطامنة، والقيت بجسدي العاري في الماء.. وبينما كنت أسبح فيه دائرةً ملتوية.. احسست بزمجرة وسط البركة القت الرعب في نفسي. فقفزت إلى أقرب مكان على الشاطىء، وعندئذ صاح «الفيو»: إلى أين تسرعين بالهرب؟ وقد هربت عارية إذ كانت ثيابي معلقة على الضفة الأخرى.. ولقد ضاعف عريي من إغرائه، فأصرّ على اغتصابي. وكنت أعدو فيسرع في العدو ورائي، وكأني حمامة تنطلق مرتجفة بين يدي صقر يقترب منها رويداً رويداً. ومع ذلك ظللت أعدو وأنا ارتعد. وكانت الشمس ورائي، فرايت ظلاً طويلاً يمتد أمام قدميّ، فحسبت الخوف هو الذي صوّر لي ذلك.. لكنه كان يلهث بشدة جعلت أنفاسه تحرّك خصلات شعري، حتى إذا أدركني التعب ناديت صائحة: أدركيني بعونك يا «ديانا». فغلفتني بغمامة كثيفة القت بها عليّ.. وتوقف حائراً لا يدري أين اختفيت، وصاح بي منادياً.. ياللرعدة التي اعترتني ساعتها!.. وانبثق العرق البارد يغطي اطرافي ويكسو جسدي كله بقطرات لازوردية.. فنزع عنه صورته البشرية وعاد إلى صورته السائلة «نهر الفويو» لتمتزج مياهه بقطراتي التي صارت نبعاً تحت أشجار الصفصاف الوارفة»[1].

إن «أريثوزا» بصيغتها الحالية ليس لها أي مدلول بأية لغة من لغات العالم، وبدون إرجاعها إلى أصلها العربي الفينيقي يستحيل فهم مدلولها.

إن «أريثوزا» هي في الأصل العربي الفينيقي «عريت عوزا» وتعني العارية الشموس. وليس هذا فحسب. فنحن لو نظرنا إلى الفعل العربي القديم «عري» Aré في القاموس السرياني، مثلاً، لوجدنا انه يتضمن جميع الأفعال والحالات التي تحكي أحداث القصة وتؤلف نسيجها، وهذه المعاني هي كمايلي:

عَرِيَ = عريَ، تعرّى، ارتعد ، أخذته الرعدة، اعتز، ابى، منع، صدّ، ضعف، اعتُري، أخذته حمّى باردة، تجلّل بالغيوم.. شيء لا يصدّق! إن هذا كله هو ما

---

(1) من قصة: «اريثوزا والفيو» عند «اوفيد» في كتابه «مسخ الكائنات» ترجمه الدكتور ثروت عكاشة إلى العربية.

حدث لـ «أريثوزا» جملة وتفصيلاً وقد تضمنه فعل عربي واحد. ومن الفعل جاءت «عَرِيتْ» اي العارية وكل معاني الفعل التي سردناها. أما «عوزا» فتعني العزيزة، المنيعة، الصعبة، العسرة، الشموس، الرفّاسة، التي ترفض الفحل..

ومن الواضح أن حرف «العين» سقط من الكلمتين في اليونانية وتحول إلى «همزة» وهذا شائع حتى في العربية القديمة منها والحديثة. وإن «أرثوز» في لواء الإسكندرونة، و«عرطوز» قرب دمشق ليستا إلا تجسيدين لتلك القصة العربية السورية القديمة، والطريف في الأمر أن «عريت» و«عريط» في العربية القديمة، و«العارية» و«العرياط» و«العرياطة» في العربية الحديثة لها معنى واحد هو: العارية، المتجردة.. وتقال للمرأة كما تقال للفرس العارية من السرج.

أما «ألفويو» اسم النهر فهو من الكلمة العربية القديمة «حلفا» وتعني شجر الحلفا، الصفصاف، الغرب، كما تعني الظالم، المغتصب. إن هذا هو ما ينطبق على اسم النهر «حلفويو» (النسبة من «حلفا») أي نهر الصفصاف لأنه «يظلله الصفصاف الفضي ويرتوي من مياهه»، وهو حينما تمثل في صورة رجل يطارد «اريثوزا» ليغتصبها عنوة كان «حلفو» أي الظالم، المغتصب.

وهناك ظاهرة أخرى لابدّ من الإشارة إليها، وهي أن العرب الأقدمين في سوريا ووادي النيل، كانوا يضيفون الصوت «سين» إلى نهايات أو بدايات أسماء المتميزين من الآباء الذين نالوا مجداً سماوياً وصاروا أرباباً أو أشباه أرباب مثل: أدوني ــ أدونيس؛ سميرام ــ سميراميس؛ إيزي ــ إيزيس؛ أوزيري ــ أوزيريس؛ فونيق ــ اسفونيق؛ الكندر (وهو شجرة البخور) ــ الإسكندر،.. الخ. وقد انتقل هذا التقليد إلى الفرس واليونان لكنهم صاروا يضيفونه إلى كل الأسماء دونما تمييز. ولقد انتبه إلى ذلك هيرودوت فكتب يقول: «وهناك شيء غريب آخر لم يلاحظه الفرس أنفسهم، ولكنه لم يفتني: تنتهي جميع الأسماء الدالة على بعض الميزات الجسدية أو الروحية بالحرف نفسه ــ الحرف الذي يسميه الدوريون كذلك «سين» Sin .. لكنهم استخدموه في كل أسمائهم، ومن يرغب التحقق من هذا يجد أن جميع الأسماء الفارسية بغير استثناء تنتهي بهذا الحرف»[1].

---

(1) أ.ج. إيفانز، هيرودوت، ص62 .

وإنه لمثير للعجب فعلاً أن ننظر إلى بعض الباحثين في الغرب وقد أخذتهم «الحمية الأوروبية» يغوصون عميقاً في «سراديب» اللغة التي دعوها «إغريقية» ثم يخرجون والعرق يتصبب من جباههم وفي يدهم «كسرة» صغيرة ربما تكون هي المعجزة التي سوف تؤكد لهم «غربية» الحضارة اليونانية، لكنهم ما أن يخرجوا من الأنفاق إلى ظهر الأرض حتى يجدوا زملاء لهم آخرين يجلسون بانتظارهم، وقد ارتسمت على وجوههم إمارات الخيبة: فليس فقط كل ما في اليونان وايطاليا القديمة عربياً سورياً، بل إن العلماء اللغويين أكدوا أن لغة الحضارة في جزر الأطلسي هي أيضاً عربية سورية، وليس هذا فحسب، فالآثار والكتابة العربية الفينيقية اكتشفت في القارة الأمريكية من شمالها إلى وسطها وجنوبها.

يقول أونفروا دي تورون في كتابه «الفينيقيون في جزيرة هايتي وعلى القارة الأمريكية».

«إن سكان هايتي الأصليين أخبروا المرسلين الأسبان الذين آموا العالم الجديد، بعد اكتشاف كريستوف كولومبس، أنه منذ قرون كثيرة أتى بحارة من جهة البحر الشرقية، واحتلوا الجزيرة، واستوطنوها مدة طويلة. ثم غدرهم مرة جيش الكاريب، فانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً، وأبادهم، لكنه أبقى نساءهم أحياء.

فالأوروبيون الذين سمعوا هذه الرواية افترضوا أن البحارة الذين دخلوا الجزيرة من الناحية الشرقية هم فينيقيون من صور أو صيدا أو قرطاجة، لكنهم لم يبحثوا وينقبوا كفاية للتثبت من حقيقة هذا الخبر بسبب انشغالهم بأشياء كثيرة».

«أخذ اونفروا دي تورون نقطة انطلاق لأبحاثه من هذا التقليد الموروث، وسعى للتعمق في تقاليد شعوب أميركا الأصليين، ومن كارايب وتوني وغيرهم. وركز اهتمامه على نقطة معينة: إبقاء النساء الآتيات من البحر على قيد الحياة بعد تلك الغارة التي شنها الكارايب على الرجال الغرباء. وافترض أنه في حال صدق هذا الخبر لابدّ أن تؤثر لغتهن على لغة السكان الأصليين».

ثم يقول أونفروا: «إن نجاحي كان كاملاً لأن لغة التينو Taino أي اللغة الشريفة

المقدسة في جزيرة هايتي في جزيرة هايتي هي مشتقة من اللغة الفينيقية، بل هي لهجة فينيقية. وحتى كلمة «تنينا» Tanina نفسها هي مؤنث تنين أي الحية المفترسة».

«استنتج ذلك بعد أن قام بدراسة لغوية لمئة كلمة من لغة «تينو» الهيتية المذكورة، وبيّن أن هذه المئة كلمة من أصل فينيقي، وهي ربع الكلمات المعروفة في لغة الكاريب هذه، لأن المعجم الذي وضعه ريموند بريتون، وهو أكبر معجم للغة التينو حتى أيام أونفروا دي تورون، وربما حتى أيامنا، لا يحتوي على أكثر من أربعمائة كلمة.

«كما أنه شرح التقليد المذكور سابقاً على النحو الآتي: إن فينيقيين (سوريين) ثم فينيقيين قرطاجيين استوطنوا هذه الجزيرة واستولوا عليها مدة طويلة إلى أن ضعفوا جداً وقلّ عددهم لأجل بعثاتهم إلى سائر أنحاء القارة الأمريكية. حينئذ غدرهم جيش الكاريب كما ذكر آنفاً».

وعن صيغة الجمع في لغة التينو يقول الكاتب «إنها كصيغة الجمع عند الفينيقيين..».

«ثم إن سكان جزيرة هايتي الأصليين كانوا يعبدون الشمس باسم «شمين» وشمينيوم.. ويقول الفيكونت أونفردا دي تورون إنهم أخذوا عبادتهم عن الفينيقيين، وشيمون هو إله الشمس الذي يسمونه أحياناً بعل شمون وجمعه شمونيم.

وفي فصل آخر من كتابه يتكلم أونفروا عن أسماء القبائل والأماكن الجغرافية في غوايانا البرازيلية وخاصة أسماء الأنهر والتلال التي، حسب قوله، هي أسماء فينيقية، وتبرهن على أن الفينيقيين سكنوا البرازيل التي يوجد فيها معظم أسماء القرى أسماء كنعانية[1] .

وهناك عالم آخر نمساوي تكلم عن تأثير اللغة الفينيقية على لغة شعب البرازيل الأصلي وهو لودوفيكو شونهاغن، أستاذ التاريخ واللغة في جامعات النمسا،

---

(1) O. De Touron, Les Pheniciens à Ile d'Haiti et sur le Continent Americain, Louvain 1887 – 89 .

ودعي لزيارة البرازيل ودرس آثارها علّه يجد حلاً لما غمض من تاريخها. لبّى الطلب عام 1911 ، فسافر إلى هناك وانكبّ على البحث والتنقيب خاصة في ولايتي مارانيون وبياوي. فشاهد في أنحاء شتى من البرازيل كتابات وآثاراً قال إنها فينيقية[1] .

ولقد كتب مقالات عدة في بعض المجلات، منها مجلة «الشرق» الصادرة باللغة العربية في مدينة ســان باولو، وألقى محاضرات عن وصول الفينيقيين إلى البرازيل وأعمالهم، ثم وضع كتاباً عنوانه «تاريخ البرازيل القديم Antiga Historia Al Brasil ضمّنه دراسات وافية عن الآثار الفينيقية التي وجدها هناك.

ومما قاله في دراسة له في مجلة «الشرق»: «توجد إلى الآن آثار مدينة في أعالي نهر بارنا هيبا اسمها «فورترويا»[*] أي أهل طروادة التي كانت فينيقية»[2] .

النص الفينيقي المكتشف على صخرة «بارايبا» في البرازيل. يعود إلى بداية الألف الأول قبل الميلاد. اي إلى ما يقرب من 2500 عام قبل كريستوف كولومبوس

---

(1) إميل إده، الفينيقيون واكتشاف أمريكا، دار النهار للنشر، بيروت، ص21 – 22 .

(*) «فورترويا» تسمية سورية قديمة تعني سلالة طروادة، وهي من فرا = نسل، أثمر. و«تروي» تعني المعلمين وهو الاسم الذي أطلقه السوريون على المدينة في شمال سوريا.

(2) مجلة «الشرق» سان باولو، 15 أيلول 1928 .

ولقد صار ثابتاً اليوم لدى العلماء الموضوعيين أن «اطلانتا» الغارقة غرب مضيق جبل طارق في المحيط الأطلسي كانت جزيرة سورية (أو فينيقية) اسماً، وسكاناً وحضارة. وهذا ما شقّ على الباحث الآثاري الألماني هنريخ شليمان الذي اكتشف موقع طروادة إعلانه أو التصريح به. لقد توفي شليمان الأب سنة 1890 ، فقام بعده حفيده بول شليمان فكتب مقالاً في جريدة «هارست» Hearst سنة 1912 قال فيه إن جده الذي كان كثير الاهتمام لمدة طويلة في موضوع اطلنتا ترك قبل موته بوقت قصير مغلفاً مختوماً كتب عليه: «ليفتح هذا المغلف من أحد أفراد العائلة الذي سوف يكرس حياته للبحث طبقاً لما هو مبين في الرسالة».

وذكر بول أن جده، قبل أن يموت بساعة تقريباً، أعطاه ملحقاً للرسالة المختومة، ولكن هذا الملحق كان غير مختوم، وقد حوى هذا الملحق تعليمات تقول: «اكسر رأس المزهرية التي على شكل البومة، وافحص المحتويات فهي تخص أطلنتا». وقال بول إنه لم يفتح الرسالة المختومة التي أودعت في أحد المصارف الفرنسية حتى عام 1906 . وعندما فتح المزهرية علم أن جده قد وجد أثناء التنقيب عن طروادة مزهرية مصنوعة من البرونز تحتوي على بعض اقراص من الطين المجفف، وأشياء معدنية، وبعض القطع النقدية المعدنية، وعدداً من العظام المتحجرة. ووجد كتابة على المزهرية باللغة الفينيقية معناها «من الملك قرونوس ملك أطلنتا».

اللغة العربية القديمة والمصطلحات الحديثة

إن علماء اللغات المحدثين في الغرب الذين يجهلون، أو يتجاهلون، حقيقة كون العربية القديمة هي لغة اليونان وإيطاليا القديمة، يعمدون عند وضع اصطلاحاتهم الحديثة إلى ما يدعونه بـ «اللغة الاغريقية». فيبحثون فيها عن اصول لجذور الكلمات ذات المدلول الذي يريدون، ثم يصوغون منها على الطريقة الأوروبية الحديثة المصطلحات التي يودون صياغتها. وفوق هذا فهم يضعون في كثير من الأحيان معاني ظنية افتراضية للكلمات العربية القديمة التي يحسبونها «إغريقية».

إن كلمة «فيلوسوفي» مثلاً، يحسبونها «إغريقية» ويقولون إنها مؤلفة من كلمتين: فيلو = أحب، وسوفي = الحكمة. أما الحقيقة فالكلمتان عربيتان قديمتان: فيلو، وتعني: الابن، المريد، المتعلم، الطالب، الراغب، الباحث، وقد استمرت في العربية الحديثة إلى اليوم، إذ أن فعل «فلا» يعني: ربّى، علّم، تبنّى.. أما الكلمة الثانية فهي «صوفي» وهي اسم الفاعل في العربية القديمة من «صفا» أي الصافي، والمعنى الاجمالي هو طالب الصفاء، الباحث عن الصفاء الروحي.. الخ.

وإن كان المعنى كما يزعمون فإن «فيلولوجيا» التي يترجمونها اللغوي، عالم اللغات كان ينبغي أن يترجموها: أحب اللغة.

والحقيقة إن «لوجيو» هي الصفة العربية القديمة من «لوجو» التي تعني اللغة، و«ملاجو» أداة الكلام، اللسان. فمعناها المجمل: الباحث اللغوي. لكنهم، فوق هذا، افترضوا أن «لوجيا» تعني «العلم» فأخذوا يصوغون منها مصطلحاتهم الحديثة الكثيرة، مثل جيولوجيا = علم الأرض، فيزيولوجيا = علم فيزياء الجسد أو وظائفه.. إلى آخر ما هنالك من المصطلحات المحدثة الكثيرة التي يمكن من أجل إيضاح حقيقة أصولها العربية القديمة أن تتطلب منا وضع كتاب مستقل.

بعد أن تحدثنا عن المعايير الأساسية التي من شأنها وحدها أن تدلنا على وجود «المركز» للإنسان الأول في تجمعاته الأولى ولثقافته، وتحدّد لنا مكان وجوده، وهي: الشروط الطبيعية الملائمة، الآثار المكتشفة، اللغة، التواصل التاريخي، وتعرفنا على أهم ملامح لغة «المركز» في تطورها، صار في إمكاننا الآن أن ننتقل إلى مرحلة ما بعد ظهور الكتابة. لقد وفرت لنا هذه المرحلة مصادر غزيرة هي الوثائق المدونة بدءاً من الأسطورة وانتهاء بكتاب التاريخ الموضوع على أساس منهجي ومدروس.

ولما كان الإنسان العربي هو واضع أول أبجدية في تاريخ البشر، فقد كان، بالتالي هو أول من كتب ودوّن، وكان أول كتاب وضعه في التاريخ هو الأسطورة. فما هو مدى العلاقة بين الأسطورة والتاريخ؟ وإلى أي مدى تنبئنا تلك الأساطير العربية القديمة عن «المركز»؟



الحلقة الثالثة

التحديد الأولي للمركز على ضوء الوثائق الكتابية



الأسطورة كمصدر للتاريخ

لا مراء في أن أول من اخترع الكتابة هو أول من كتب وقرأ وعلّم. ولما كان العرب الأقدمون أول من ابدع الكتابة والأبجدية، فهم أول من كتب ودوّن الأساطير والتراتيل، وسجّل الأحداث والتقاويم، وصنف الكتب والمكتبات، وظلوا أصحاب هذا الفضل على البشرية طيلة الستة الآلاف عام الماضية، فاشتهرت في تاريخ البشرية مكتباتهم وحدهم حتى عصر النهضة الأوروبية الحديث: فمن مكتبة ماري، وأوجاريت، وإيبلا (الألف الثالث قبل الميلاد)، إلى مكتبة آشور بانيبال، فمكتبة قرطاجة، وصور، وفرغام، والاسكندرية، ومكتبة انطاكية، إلى مكتبة بغداد، ومكتبات دمشق، والحكمة في الأندلس.. ولقد ظلت أوروبا لا تملك غير ما ورثته عن العرب في شتى أنواع العلوم لتدرسه في جامعاتها حتى القرن الثامن عشر بعد المسيح، رغم ما لقيته تلك المكتبات العربية، التي كانت تمثل خلاصة الفكر العربي الذي هو خلاصة الحضارة البشرية على هذا الكوكب، من تدمير، وحرق، وإغراق، وسرقة، وتشويه، وتزوير، على أيدي الهمج الطالعين من قاع العصر الحجري، والمحيطين بالوطن العربي من الشمال والغرب على مرّ عصور التاريخ.

وإن أول كتاب وضعه العرب في التاريخ هو الأسطورة. والكلمة تعني حرفياً: الكتاب المسطور، المسجّل، المدوّن، السجلّ.. وهي على وزن «أنشودة». فالأسطورة، إذن، هي كتاب التاريخ. وهي في العربية القديمة والحديثة من الفعل «سطر» ويعني كتب في سطور مرتبة، وفي القاموس السرياني نجد: سطر = سطرَ، كتب، زخرف، صنع، وزع، قسم، زين، رتب. وُسِطِرا = Wcetera إلى آخره، إلى آخر ما هنالك من سطور أو من كتابة في سطور. وهذه الكلمة العربية القديمة هي التي ذهبت مع العرب السوريين إلى بلاد اليونان وايطاليا، ثم إلى اللغات الأوروبية الحديثة، فصارت et cetera أي الخ، وهلمجراً. إذ أن واو العطف العربية صارت et باللاتينية وبقيت كلمة «سِطِرا» cetera كما هي إلى اليوم.

ومع العرب السوريين انتقلت كلمة «أسطورة» إلى شبه جزيرة المورة (اليونان

فيمـا بعـد) وايطـاليـا، ثـم إلى اللغـات الأوروبيـة الحديثـة، فهي عند اليونـان Istora[1] ، وفي الانكليزية History ، وفي الفرنسية L'histoire ، وفي الروسية Istoria ، وهي جميعاً تعني كتاب التاريخ.

ولابدّ هنا من التمييز بين الأسطورة والخرافة، سيّما وأن كثيراً من الناس صار يخلط بين الاثنتين. إن الاسطورة سجلّ حقيقي لأحداث تاريخية معينة، خضعت في كثير من الأحيان لمحسّنات في اللغة والأسلوب والخيال الشاعري، مع الاحتفاظ الأكيد بالمادة التاريخية المراد تدوينها، وتخضع للبحث والتمحيص قبل أن تُعتمد وتُحفظ في المعابد كجزء أساسي من التراث، ينهض بأدوار تعليمية وتربوية ودينية. أما الخرافة، على الطرف المقابل، فهي حكاية شعبية من صنع الخيال، تتفاوت في مستوياتها الذوقية والفكرية من بيئة متخلفة إلى أخرى أكثر تمدناً، يتناقلها الناس عبر الأجيال، فيضيفون إليها أو ينقصون منها إلى أن تخرج في النهاية إنتاجاً شعبياً شفوياً في معظمه، يحمل نكهة الجماعة الشعبية وذوقها عبر جيل واحد، ثم عبر الأجيال المتعاقبة. وقد تعكس مادة تاريخية ما، وقد تبقى بعيدة، لكنها، مع هذا، تبقى تعكس، بهذا القدر أو ذاك، طريقة مستوى تفكير وإبداع هذا الشعب او ذاك، ونظرته إلى كثير من جوانب الحياة والواقع والظواهر المحيطة، كما تعكس جانباً من حياته النفسية والثقافية والروحية.

الاسطورة نسيج، سداه المادة التاريخية ولحمته الخيال والاستعارة والمحسّنات الأخرى، التي من شأنها أن تلعب دوراً ثلاثياً يجعلها مشوقة، سهلة الحفظ، وقريبة من أفهام العامة من الناس. ولقد كانت الاستعارة تلعب دوراً مهماً في صياغة لغة الاسطورة التي تروي الأحداث التاريخية، سواء اكانت طبيعية أم من صنع البشر. إن البركان، على سبيل المثال، الذي يندفع بعشرات الفوهات اللامعة القاذفة باللهب وبالدخان والحمم، التي ما تلبث أن تسيل كاللعاب وتتلوى مكتسحة في طريقها كل مظاهر الحياة، صوّرته الاسطورة العربية القديمة في هيئة وحش خرافي، مثل ثعبان هائل له عشرات

---

(1) محمد كامل عياد، المرجع السابق، ص144 .

العيون اللامعة، ينفث من رؤوسه وأشداقه النار والدخان، مطلقاً زمجرة مخيفة. إنه التنين ـ الثعبان.
ولما كانت السماء تطلق البروق وتهزم بالرعد، وترمي صواعقها على رؤوس الجبال، ثم تسقط السحب ما تحمله من المطر، فقد صورت الأسطورة هذه الظاهرة، بأسلوب شاعري جميل وكأنما معركة بين حدد رب الصواعق والغيوم والمطر (أو مردوك) رب الخير والنعيم والحياة، وبين التنين رمز الشر والدمار والموت، ما أن تنتهي بانتصار قوة الخير وإخماد أنفاس الثعبان وإطفاء نيران عيونه وأشداقه حتى تحبسه عميقاً تحت الجبال يئن ويزفر ويدخّن دون أن يستطيع الافلات مرة أخرى.
إن عقل المؤرخين الغربيين المعاصرين هو الذي تخلف عن فهم الاسطورة وليس الشعب الذي سجّلها بلغته الشاعرية الجميلة منذ ستة آلاف عام.
لقد انتقلت هذه الأسطورة الجميلة مع السوريين إلى كافة مواقع انتشارهم. ولما كانت البراكين تخلف سراديب ومغاور في الجبال تتحول إلى مأوى للثعابين والوحوش وإنسان الكهف المتوحش، فقد صار تقليداً لدى العرب السوريين أن يطلقوا على سكان الكهوف المتوحشين في كل مكان من مناطق انتشارهم فيما بعد اسم «أبناء التنين أو الثعبان». وإن كل قصص الكفاح ضد «التنين» التي دوّنوها فيما بعد في مناطق الإنتشار كانت، في الحقيقة، صراعاً ضد سكان الكهوف من الهمج آكلي لحوم البشر، الذين كانوا يعيقون عملية التحضير وانتشار الزراعة والاستقرار في القرى أو المدن.
إن هذا عينه هو ما صورته قصة قدموس السوري وصراعه ضد «أبناء التنين» سكان الكهف، حيث عين الماء، عند مباشرته ببناء مدينته طيبة، أول مدينة في بلاد اليونان، وهو مالم يفهمه السكان الأصليون فيما بعد، فتعلقوا من القصة بالاستعارات، محوّلين بذلك الأسطورة إلى خرافة، ممّا جعل فيلون الجبيلي السوري (القرن الأول الميلادي) بعد حوالي ألفي عام من زمن بناء طيبة يكتب قائلاً: «لقد ألفت آذاننا منذ سنواتنا الباكرة سماع مروياتهم الكاذبة، ونفوسنا التي تشربت هذه الأباطيل منذ قرون تحفظ هذه الخرافات المصطنعة كأنها كنز ثمين.. وقد جاء الزمن فقوّى تأليفهم، وجعل هذا التزوير قوي الركائز تقريباً

إلى درجة تظهر معها الحقيقة وكأنها هذيان، وتظهر المرويات الصبيانية مكان الحقيقة»[1].

وفي مكان آخر يقول حول حقيقة هذه التسميات ـ الاستعارات: «ولا نقوم بهذا التمييز بدون اساس، بل لإقامة المبدأ الحقيقي الذي عليه يتم احتقار هذه الأسماء المستعارة المستعملة للأشياء. وهذا ما جهله الإغريق واخذوه على وجه آخر بعد ان ضللتهم أخطاء الترجمة»[2].

والغريب أن المؤرخين في الغرب لم يرتقوا، في معظمهم، عن مستوى فهم «الإغريق» المتخلف لتلك الأساطير العربية القديمة، سواء ما كان منها داخل الوطن العربي القديم أو خارجه.

لقد صدمت مضامين تلك الأساطير إنسان الغرب المتعصب فيما بعد، حينما اكتشف في آداب السوريين واساطيرهم في اليونان سجلات كاملة وحقيقية لأنساب اليونانيين والتي تعيدهم إلى ارباب (أي سادة) نبلاء سوريين، فضيعوا أو اتلفوا معظم كتب التاريخ والأنساب التي سجلها هيقاتو وهيسيود الكيليكيان السوريان، وغيرهما، بحجة أنها «خرافات» لا يعتمد عليها تجعل هؤلاء أبناء «آلهة»، وقد فهموا الكلمات الدالة على «رب» (التي كان يستخدمها السوريون بمعنى «سيد») بمعنى «إله». إن هذا هو ما اشار إليه أيضاً فيلون الجبيلي إذ كتب يقول: «إنه لمن الضروري الإعلان سلفاً، وبكل صراحة، ومن أجل المعرفة الجزئية لجميع ماتلا ذلك، أن أقدم الناس، وبخاصة الفينيقيين والمصريين، الذين كانوا كمرشدين لجميع الناس الآخرين، كانوا يرون أن الأرباب الكبار هم اولئك الذي حققوا اكتشافات لمساعدة وجودنا، أو الذين عمّوا الخير، مهما تكن طبيعته، بين الشعوب. وقد دعي هؤلاء «محسنين» بسبب اعمال الخير الكثيرة التي يدين لهم الناس بها»[3].

ونحن لو استعرضنا بعضاً من الأساطير العربية القديمة لوجدنا أنها جميعاً

---

(1) يوسف الحوراني، نظرية التكوين الفينيقية وآثارها في حضارة الاغريق، دار النهار، بيروت 1970 ، ص100 .

(2) المرجع نفسه، ص52 .

(3) المرجع نفسه، ص37 – 39 .

حكت لنا أحداثاً تاريخية أكدتها المكتشفات الآثارية فيما بعد.

إن أسطورة الطوفان المكتشفة مع ملحمة جلجامش في ألواح أوروك أكدتها علوم الآثار والجيوفيزياء في المكان والزمان. وإن ملحمة جلجامش ظلت ينظر إليها كقصة من نسج الخيال إلى أن عثر على قائمة بأسماء ملوك أوروك، وكان جلجامش واحداً منهم.

وإن أسطورة الأميرة السورية أوروبا التي اختطفها النبيل زيو ابن قرونو إلى جزيرة قبرص ثم إلى كريت، وهناك تزوجها وأنجب منها رادامنتا ومينا، وكان من «مينا» ابن أوروبا سلالة الملوك السوريين الذين حكموا كريت وسيطروا من خلالها على تجارة بحر إيجه، فدعي عصرهم بالعصر المينوي، وحضارتهم بالمينوية، بقيت هذه الأسطورة ينظر إليها مثلما خرافة نتيجة لفهم الاغريق بأن زيو هو إله، وقد تقمص شخصية ثور، إلى أن أكدت المكتشفات الآثارية في كريت واقعيتها.

ويقول «كيتو» في كتابه «الإغريق»: «ولقد تأيدت الأساطير أحياناً إلى درجة لا يكاد يصدقها العقل، وقصة «المينوتور»[*] شاهدة على ذلك»[1].

وإن أسطورة قدموس السوري شقيق اوروبا الذي ذهب للبحث عن شقيقته بأمر أبيه إلى شبه جزيرة المورة، ثم بنى هناك مدينته التي دعاها «طيبة» وقلعتها المسماة باسمه «قدميا» بقيت ينظر إليها كخرافة إلى أن اكتشفت آثار طيبة وقلعة «قدميا» السورية الفينيقية.

وإن ملحمة الإلياذا التي صورت حرب طروادة ضد قبيلة الآخيين المهاجرين في الأصل من الشمال السوري، ظل ينظر إليها كقصة من إبداع خيال هوميروس[*] إلى أن جاء «شليمان» ونقّب وعثر على طروادة، ثم على سبع

(*) «مينوتور» كلمة عربية قديمة تعني سلالة الثور. إذ «مينا» تعني السلالة، الذرية، و«تور» تعني «ثور». وقصته سوف نتعرض لها في حينها.

(1) هـ.د. كيتو، المرجع السابق، ص15 .

(2) «هوميرو» في الأصل العربي القديم «أوميرو» وتعني الراوي، الشاعر والهاء للتعريف. وهي في القاموس السرياني من الفعل «إمرْ» = قال، حكى، أخبر، قصّ، روى، وصف، مدح، أنشد، وعظ.. إمر من لبه = قال عن ظهر قلبه، ارتجل. والإلياذا هي من الملاحم الشعبية العربية القديمة التي جرت =

طروادات نضدت إحداها فوق الأخرى. والأمثلة أكثر من أن نتابعها أو نستطرد معها.

إن ما تحدثت عنه الأساطير القديمة كان يعكس أحداثاً تاريخية حقيقية، على الباحث أو المؤرخ وحده أن يعرف كيف يستنبط منها المادة التاريخية.

«المركز» في التراث العربي القديم

اجمعت مصادر التراث العربي القديم والتي تدعى بـ «الأساطير» على أن الجبل الأول الذي برز من المحيط البدئي شهد نشوء الحياة لأول مرة على ظهر الأرض. ولقد ألصقت به تسميات كثيرة، لكنها، في معظمها، حملت مضموناً واحداً هو «الجبل البركاني» الأول.

الجبل «المركز» في الوثائق السومرية:

إنه جبل «كور»، والكلمة في القاموس العربي السرياني تعني: نار السموم، سَموم، ريح حارة، نار مع دخان متلبد كثيف، النار والدخان.. وهي من الفعل كور ـ كويارا = أصعد، عبَّق، أخرج، لبَّد، قذف، حرَّ، حمي حرّه، تغيّظ، حنق، أقحل، أيبس... الخ.

وقد استمرت الكلمة في العربية الحديثة إذ نجد أن الكور هو مجمرة الحدّاد (ولهذا فقد ارتبط الجبل البركاني منذ القدم بربّ الحدادة أي ربّ حرفة الحدادة

= العادة العربية أن تنظم في معظمها شعراً، يرويها الرواة وينشدونها بمرافقة الربابة. وتبدأ دائماً بـ «قال الراوي ياسادة ياكرام» أو «قال الشاعر» وقد فهم الغرب من هذه الكلمة (الراوي، الشاعر، التي هي «هوميرو» في العربية القديمة) اسماً لشاعر حقيقي. وهذا مما أوقعهم في تناقض في الزمن الذي وجد فيه «هوميروس»، كما أن لغة «الألياذة» تضم مختلف اللهجات مابين القرنين الثاني عشر والتاسع قبل الميلاد باعتراف الباحثين جميعاً، مما جعل الكثيرين منهم يعتقدون جازمين بأن شخصية مؤلف الإلياذة مجهولة وأن من دعيُ بـ «هوميروس» إنما هو مؤلف وهمي.

والحقيقة هي أنها، مثلها مثل كل الملاحم العربية الأخرى، كانت تنشد وتغني على الربابة من جيل إلى جيل، لتتحول إلى جزء من التراث الشعبي الشعري الذي لم يكن يمتلكه شعب من الشعوب في ذلك الزمن باستثناء العرب السوريين. وملحمة جلجامش شاهد على ذلك واقدم من الإلياذا بآلاف السنين.

كما سوف نرى لاحقاً في سوريا وبلاد اليونان)، وقد استخدم القرآن الكريم الكلمة في سورة «التكوير»، إذ ابتدأت بالآية: ﴿ إذا الشمس كوّرت ﴾ أي أظلمت وادلهمت وتلبدت بالدخان وذهب ضوؤها. وقيل إن «الجن» خلقت من طبع نار «الكور» أي من نار السموم البركانية التي تسود عالم الكواكب قبل تبردها.

ولما كان هذا البركان الأول «الكور» قد انبثق من أعماق المحيط البدئي بعد تكون المحيطات ليقذف بحممه، مكوناً جبلاً عالياً من الحمم والحجارة والنار والدخان، فقد صار يدعى بـ «جبل السماء والأرض» كما أنهم كانوا يصورونه ثقباً هائلاً يصل مابين سطح الأرض، وبين «البحر الأول»[1] أطلقوا عليه اسم «الهوّة» «الهاوية»، «الجحيم».. وقد استخدم القرآن الكريم لفظة «الهاوية» في عدة مواضع كإحدى تسميات نار الجحيم. وفي «محيط المحيط» نجد أن «الهاوية» من أسماء جهنم والجحيم في القواميس كل نار شديدة في مهواة. وقد دعي «كور» أيضاً بـ «التنين»[2] ، والكلمة عربية قديمة ـ حديثة تعني قاذف الدخان المتلبد الكثيف، والتنّ هو الدخان.

وكما سبق أن ذكرنا فقد صوروا الظاهرة الطبيعية المتمثلة في السحاب الذي يقذف بالصواعق والأمطار من السماء، والبركان الذي يزأر ويقذف بالحمم واللهب والدخان من الأرض، بمعركة بين رب السماء رمز الخير، و«التنين» المدمّر رمز الشر، كانت تنتهي دائماً بانتصار الخير على الشر في استعارات أدبية رائعة. وكانوا يستخدمون في الأساطير التي تصف ذلك الصراع مرة «كور» ومرة أخرى «التنين». ومرة ثالثة كلمة «أساق». وهذه الكلمة الأخيرة هي من الفعل العربي القديم (في القاموس السرياني) أسِقْ = قذف، نفث، أخرج، بصق، وهكذا فإن «أساق» تعني القاذف، النافث، باصق اللهب والدخان.

وقد افترضها الدارسون الغربيون كتسمية لإحدى الأرواح الشريرة دون أن يفهموا معناها اللغوي. يقول كريمر: «أما الرواية الثانية عن موضوع قتل

---

(1) صموئيل كريمر، من ألواح سومر، مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بالقاهرة، ترجمة طه باقر، ص261 .

(2) المرجع نفسه، ص282 .

«التنين» فتؤلف جزءاً من قصيدة قوامها أكثر من ستمائة سطر.. والشرير المسمّى في القصة ليس «كور» بل شيطان من شياطين الأمراض والعلل اسمه «أسَج» Asag وكان مسكنه في «كور» أي في العالم الأسفل»[1] . إن هذا يعكس مرة أخرى خطأ الافتراضات العشوائية والعجز عن الارتقاء إلى المستوى التصويري الابداعي لأولئك العرب الأقدمين وليس العكس.

وبعد ان خمد ذلك البركان وتمّ «الانتصار عليه» وتكوّن الجبل الغني بكل العناصر المعدنية المخصبة للتربة، صار، من جهة، «الأرض المعدّة لاستقبال الحياة»، كما انه، من جهة أخرى، بقي ثقبه النافث في عمق الجبل متصلاً بمياه المحيط البدئي، مما جعله في أحقاب لاحقة «يفور بالمياه» في زمن الطوفان. وهي الظاهرة التي عبر عنها القرآن الكريم فيما بعد بـ «فوران التنور»: ﴿ حتى إذا فار التنور وقلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك ﴾[2] . يقول كريمر: «ولكن حلت في بلاد سومر بعد القضاء على «اسَق» Asag كارثة دهياء. فقد ارتفعت إلى سطح الأرض المياه الأولى العميقة المحبوسة في «كور» وكان من شدتها أن المياه العذبة لم تصل إلى الحقول والبساتين»[3] . وهذا هو ما أكدته كل المصادر العربية فيما بعد.

وهكذا نرى أن البركان الأول الذي انبثق من المحيط البدئي مكوناً جبلاً فوق سطح الأرض دعي «كور» وبالفينيقية «كورا» فصارت الكلمة مرادفة للجبل، وقد انتقلت إلى بلاد اليونان مع انتشار العرب السوريين، ثم إلى بقية أصقاع أوروبا، وصارت بالروسية اليوم gora = الجبل، كما انه دعي «كوراساق» أي البركان القاذف، النافث. وبعد خموده وتبرده، مع مرور احقاب أخرى، وظهور الحياة النباتية عليه، تولته الأم السورية الكبرى بالإخصاب، ودعيت في تلك المرحلة بـ «نين كوراساق»، أي سيدة (ربة) الجبل النافث، ويترجم كريمر هذه

---

(1) المرجع نفسه، ص286 - 287 .

(2) سورة هود 40 .

(3) صموئيل كريمر، المرجع نفسه، ص287 .

التسمية بـ «السيدة المعظمة»[1] . وهو الذي دعي في بلاد وادي النيل في هذه المرحلة تحديداً بـ «التل المزدهر الذي ظهر في أول العصور»[2] . وإن هذا الـ «كور» ليس جبلاً واحداً، بل شكّل سبعة جبال متميزة في موقع واحد سوف نمرّ على ذكرها لاحقاً.

ومن أسمائه الأخرى في الوثائق العربية السومرية: جبل الأرباب (أو الآلهة)، جبل الشروق، أو الذي تشرق منه (أو عليه) الشمس، جبل السماء والأرض[3] ، وجبل أرض الأحياء، أو أرض الخلود... الخ.

وقد ذكرت أسماء جباله (قممه) مفصلة في «آداب الرحلات» السومرية إلى «أرض الأحياء» أو «أرض الخلود».

ففي رحلة «لوجال ـ بندا» إلى «أرض الأحياء» (وهو الجد الأكبر للملك جلجامش)، نجد أنه «أخذ سلاحه وعبر الجبال السبعة التي تربط بلاد «أنشان» من أولها إلى نهايتها.. حتى وصل إلى جبل «حرم» أو «حرمون» (وتعني في القاموس السرياني الثعبان) وهنا يقع لوجال بندا صريع المرض».

وكلمة «انشان» تعني الانسان، آدم.

وفي رحلة «جلجامش» إلى «أرض الأحياء» أو «دار الخلود» نجد أنه:

«أخيراً، وصل جلجامش إلى «ماشو»،
الجبال العظيمة التي سمع عنها الكثير،
الجبال التي تحرس شمس الشروق والغروب،
قمتاها ترتفعان مثل جدار السماء،
وجذورها تغوص عميقاً حتى العالم السفلي»

إن كلمة «ماشو» هي في الأصل «ماشوح» (وقد اختفت الحاء كما في اللهجة المندائية لهجة بلاد غامد نفسها) و«ماشوح» تعني: أول النبت، النشوء، وهي

---

(1) المرجع نفسه، ص183 .

(2) ادولف إرمان، ديانة مصر القديمة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ترجمة الدكتورين عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري، ص72 .

(3) صموئيل كريمر، المرجع السابق، ص169 .

من الفعل «أشوح» في القاموس السرياني، وتعني أنبت، أطلع، أزهر، أخرج، أنشأ. «شووحو» = أول النبت، ماشوحنوت = أول النبت، أول النشوء، وهذه التسمية هي التي انتقلت إلى عرب وادي النيل وصارت «التل المزدهر الذي ظهر في أول العصور» والتي سبق أن ذكرناها آنفاً. وهو ما نقل تحت اسم «شو».
وكلمة «ماشو» تعني أيضاً في العربية القديمة: المتساوي، المتوازي، ذا القمتين، أو التوأمين. ومن هنا فقد كان من بين الأسماء الأخرى المتميزة التي أطلقها العرب القدامى على هذا الجبل اسم «قرونو» (هو الذي صار في بلاد اليونان كرونوس) ويعني: الأقرن، المتصل الحاجبين، ذا القمتين أو القرنين، لأن القرن جانب الجبل. وهو الذي أعطي في الآداب السومرية مغارة «شروبك» التي تعني سرّة الخصب، أو سيدة الخصب، أو مركز «بك» التي تعني العظمة والخصب، وهي «بكة».

«قرونو» = جبل «شدا» في السراة

ومن الأسماء التي أطلقها العرب السومريون على هذا الجبل اسم «شدا» أو «شدْ» أي السدة، العرش، كما تعني: السيد، القاذف، الرامي، الراشق. والكلمة في القاموس السرياني من الفعل شدا = رمى، رشق، قذف، طرح... الخ. و«شدت» تعني السدّة، العرش، الكرسي (وقد انتقلت هذه الكلمة إلى اللغات الأوروبية فصارت بالانكليزية Sit بعد إدغام الدال مع التاء، وبالروسية Sidet = جلس).
وهو نفسه الذي دعاه عرب وادي النيل المنقذ «شد» الذي يحمل السماء، «وهذا التعبير كانوا يعنون به الذي يحمل أرباب السماء. وكانو يتصورونه أميراً شاباً يقتل وهو في مركبته الأسود»[1].
إنه جبل «شدا» في بلاد غامد من جبال السراة في شبه جزيرة العرب الذي مازال محتفظاً باسمه الخالد حتى اليوم، وليس في الوطن العربي كله جبل آخر يحمل هذا الاسم غيره. وفوق هذا فإن هذا الجبل مازال يحمل كثيراً من المواصفات التي اقترنت بأرباب الخصب، وبالمغاور، وبالأرض الجنة، وبالرياحين،

(1) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص346 .

والمحلّ الآمن، و«بالرماية» لكل من يحاول سبر ما في جوفه

وعن هذا الجبل كتب علي بن صالح السلوك الزهراني يقول: «جبل شدا جبل عظيم، يزرع فيه الحنطة، والشعير، والبن، والموز، والخوخ، والرمان، والتفاح، والبرتقال، إلى جانب ما يغطيه من أشجار العرعر (أو الصنوبر) والزيتون البري، والحنّاء، وأنواع الرياحين. وبأعلى قمة هذا الجبل من جهته الشرقية، وتسمّى «قمة المصلّى»، حجر مثلث الشكل تحمله ثلاثة أحجار كبيرة كالأثافي، وهو باتجاه القبلة، ويتسع لإمام ومأمومين اثنين فقط، يسمّونه مصلّى ابراهيم، لا يستطيع الوقوف عليه أو الصلاة فوقه إلا من كان متعوداً. وأبلغوني بأن هذا المصلّى الحجري كان يفد إليه يمنيون، وأنهم كانوا لا يمرّون بالقرى، بل يتجهون إليه، ويبقون عند هذا المصلّى أياماً (يتعبدون الله) ويعودون إلى بلادهم. والطريق إلى القمة من الصعوبة بمكان. وهو اعلى مكان في تهامة وسراة غامد وزهران بعد مرتفعات دوس وبيضان»[1] .

ولاشك في أن في أوصاف هذا الجبل عدة أمور يجب التوقف عندها:

1 . فهذا الجبل مقدس عند العرب الأقدمين في سوريا ووادي النيل.

2 . وقد دعي بهذا الاسم منذ ذلك الزمن الموغل في القدم وحتى اليوم.

3 . واسمه يتضمن معاني السدّة والعرش، كما يتضمن معاني الحماية (القذاف، الرماية، الرشق).

4 . وهو الجبل الأقرن ذو القمتين.

5 . وعليه جميع أنواع أشجار الفواكه المذكورة في الجنّة.

6 . بل حوى منها ماهو يتناقض مع ارتفاعه الشاهق كالبرتقال.

7 . وتنبت عليه الأشجار طيبة الرائحة وجميع انواع الرياحين.

8 . وكذلك أشجار الصنوبر والزيتون البري منذ القدم وحتى اليوم، وهما الشجرتان اللتان اقترنتا بعشتار ربة الجبل.

9 . وعلى قمته تشكيل من الأحجار المثلثة وهي ثلاثة تحمل حجراً رابعاً. إنها رمز للأرباب الثلاثة ولرب الأرباب، ثم للملائكة الثلاثة ورئيسهم ميكائيل. وإن

---

(1) علي بن صالح السلوك الزهراني، «المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران».

تسمية الناس لها بـ «مصلّى إبراهيم» ليس إلا تحريفاً عن العربية القديمة عن الكلمة «بهرام» الذي يعني النور. وهذا التشكيل الهرمي للحجارة هو تجسيد لحجر الـ «بن» على الجبل الأول عند بدء الخليقة، عند ميلاد النور، كما أنها تمثيل للوحدة العددية التي ترمز إلى الخلق: ثلاثة أحرف تؤلف كلمة، وثلاث حلقات من الحموض الأمينية... الخ. (وهذا ما سوف نراه لاحقاً وبالتفصيل).

10 . إن الناس كانوا يفدون إليه ويحجون إليه في القديم، ويسلكون طرقاً سرية. وإن ذلك المكان كان ترميزاً للكعبة الأولى وليس مصلّى لثلاثة أشخاص.

11 . إن من الأشجار التي اشتهر بها وتنبت عليه بصورة طبيعية منذ القدم شجرة البن. وإن تسمية هذه الشجرة مقترنة بحجر الـ «بن» الذي هو حجر الكعبة الأولى أو الصخرة المقدسة (كما سوف نرى لاحقاً) لممّا يلفت النظر إلى أصل هذه التسمية. ويقول حمد الجاسر إن أجود أنواع البن هو البن البري الذي ينبت في جبل شدا الواقع في السفوح الغربية من السراة في تهامة، والذي يبدو شامخاً مشمخراً عندما يطل المرء من إحدى مرتفعات السراة نحو الغرب[1] .

ويقول: وهما شدوان (مثنى شدا، أحدهما لغامد والآخر لزهران) »[2].

أما التسمية الأخرى لهذه الشجرة فكانت «كوفي» وهي جمع كافا في العربية القديمة وتعني الصخرة، حجر اللازورد. إنها، مرة أخرى، مرتبطة بالصخرة المقدسة، بحجر البن، بالكعبة. وهذه الكلمة العربية القديمة هي التي انتقلت إلى اللغات الأخرى إلى هذا اليوم. أما كلمة «قهوة» فكان العرب يطلقونها على اللبن الخالص أو الخمر الخالصة. ويروى أنهم في البداية كانوا يخفون أمر شرب البن عن جيرانهم من الفرس محتفظين بأمرها سراً، معتقدين أنها تقوّي وتنشط (ومن معاني البن القوة)، فكانوا حينما يسألون عن الذي يشربونه يقولون «قهوة»، أي خمر، والفرس ما كانوا يشربون غير الماء في عهدهم القديم. ومن الكلمة «كافا» أي الصخرة المقدسة جاء اسم الجبل الآخر: جبل قاف.

---

(1) حمد الجاسر، في سراة غامد وزهران، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض 1991، ص20.

(2) المرجع نفسه، ص165.

وجبل شدا جبل كبير وعظيم جداً، مليء بالمغاور العميقة وتسكنها الأسود والنمور المفترسة. ولقد اقترنت عشتار بالأسد، وفي جبلها، كان يروى، مأسدة عظيمة، فكانت مروضة للأسود، قلّ أن وجدت لها صورة إلا وهي راكبة على ظهر اسد واقفة أو يحيط بها أسدان على جبل العرعر أو الصنوبر. أما أدونيس فقد اقترن بالنمر، وكثيراً ما صوّر ممتطياً ظهر نمر، وقد دعيت قمتا جبل شدا منذ القدم وإلى اليوم بـ «التحيتين».

يقول علي بن صالح السلوك الزهراني:

«التَحْيتَيْنْ قمتان في جبل شدا الأعلى تشرفان على وادي بُحر، وتكونان مع قمتي المصلّى والقارة ثلاثة رؤوس لجبل شدا الأعلى، وفي مغاور القمتين تعيش النمور المفترسة»[1].

أما الكلمة فهي عربية قديمة أصلها «تَحْيدين» وتعني القمتين، والواحدة منهما «حيدا» الذي هو جبل عشتار، والكلمة تعني في القاموس السرياني: العروس، العذراء، المثيلة للرب، النظيرة، الاتحاد، الاقتران، الزواج، العرس، الزوج. وانتقلت الكلمة مع العرب السوريين إلى شتى الأنحاء وصارت تُلفظ «إيدا». واشتهر في كل مكان بأشجار الصنوبر حتى دعي «صنوبر حيدا». وما تزال اللغة العربية تحتفظ بهذا المعنى إلى اليوم. ففي «محيط المحيط» نجد أن الحيد المثل والنظير، ومن الجبل مكان شاخص كأنه جناح، وكل نتوء في قرن أو جبل. وقد اقترن اسم الجبل بالمغارة المقدسة التي في جوفه فدعي جبل «حيدا حورا»، وكلمة «حورا» في القاموس السرياني تعني المغارة. ومثلها «حوراشليم» (أوراشليم) أي مغارة الرهبان أو المتعبدين [وقد تحدثنا عنها مفصلاً في كتابنا الثاني]. ويضيف قاموس «محيط المحيط» أن «حيد حور» جبل باليمن فيه كهف يتعلمون فيه السحر. ولاشك أن هذا الجبل ليس إلا استنساخاً للجبل المقدس الأول في المركز ثم جرى الابدال الشائع بين الدال والتاء، وصارت القمتان تدعيان «تحيتين» في العربية القديمة إذ التاء تحلّ أحياناً محلّ الدال كأداة تعريف، مثل «تدمر» تعني الآية، الأعجوبة، والتاء فيها للتعريف،

---

(1) علي بن صالح السلوك الزهراني، المرجع السابق.

والكلمة من «دمز» في العربية القديمة وتعني أعجب، أدهش.. ولما كانت العربية تكتب بدون تنقيط إلى ما بعد فجر الإسلام، فقد صار الناس يقرأون هذه الكلمة العربيــة القديمــة، وأعني «تحيتين»، والتي كـانت تكتب بدون نقط، بأشكال مختلفة، وقد أضــافوا نقطـاً اعتباطية لأنهم لم يكونوا يعرفون للكلمة معنى ليقراوها بصورة صحيحة، فكتبت وقرئت:

تجنتين، وتنجنتين، وتَنَجْتين.. الخ، وهما قمتا جبل.

امـا ان يدعى هذا «الحرم» بـ«مصلّى ابراهيـم» فلسنا نشك، كما قلنا، في أن التسمية ليست إلاّ تحريفـاً للكلمة العربية القديمة «بهرام» التي تعني «النور». ولقد جرى التحريف في ترجمة هذه الكلمة في التراث المندائي كله، إذ نراها تترجم دائماً، وأينما وجدت، إلى كلمة «إبراهيم» حين نقلها إلى اللغات الأخرى.

ففي دعاء مندائي (صابئي) نقرأ:

«انت ابو الأثيريين وعماد الأنوار

وجفنة الحياة والشجرة الكبرى

التي منها الشفاء.

ياعليماً بالقلوب وكاشفاً للبصائر

وعارفاً بما في احلك حلك الظلام

عيوني متطلعة إليك، وشفاهي

تسبّحك وتباركك[1]».

لنلاحظ ان الله هو «عماد الأنوار».

وعند رسم التعميد بالماء يُقرأ هذا الدعاء:

«انا فلان فلانا حبيت بمصبوتا

بهرام ربا بر رورببي مصبوتي

تناطري وتسق لريش، اشما

اد هي واشما مندا اد هي مدكر إلاي»

---

(1) ناجية مراني، مفاهيم صابئية مندائية، تاريخ، دين، لغة، شركة التايمز للطبع والنشر، بغداد، 1981 ص40.

وترجمتها الحرفية هي:
«أنا فلان بن فلانة اصطبغت بصبغة النور الكبير ابن القدرة. صبغتي تحرسني وتسمو بي إلى المجد
اسم الحيّ واسم المخلّص الحيّ مذكور عليّ»
لكن المترجمين نقلوها كما يلي:
«أنا فلان بن فلانة اصطبغت بصبغة إبراهيم الكبير...»[1]!
ومن المعلوم أن المندائيين أقدم من ابراهيم، وهم يأخذون بما أنزل على شيث وعلى إدريس الذي هو قبل إبراهيم بألفي سنة أو أكثر، علماً أنه ليس ثمة «إبراهيم الكبير» ولا «الصغير» في التاريخ، وأن «إبراهيم» المعروف لم يكن صاحب عماد أو «صبغة» لا بالماء ولا بغيره، هذا علاوة على أن كلمة «بهرام» في القاموس السرياني أو الفينيقي لا تحتاج إلى اجتهاد فهي تعني «النور».
أما حمد الجاسر فيصف جبل «شدا» في كتابه «رحلة في سراة غامد وزهران» بأنه جبل ذو قمتين شديدتي الارتفاع هما شدا الأسفل وشدا الأعلى.
وإن هذه الجبال هي «جبال الأرز» أو «اللبان» (الكندر، البخور، الصنوبر، العرعر)، التي وصلها جلجامش في رحلته إلى أرض الخلود. وهذه الشجرة ارتبطت بالجبل منذ أول بدء الحياة النباتية عليه. فصارت رمزاً لبدء الخليقة كما صار هو رمزاً لها، لأنه الموضع الذي وقفت عليه «القوة الخالقة» حينما لم تجد مكاناً آخر، وهذا تعبير استعاري ليكنّى به عن طغيان المحيط البدئي عند ارتفاع الجبل البركاني الأول. وسوف نرى أن العيد الكبير لدى العرب الأقدمين كان الاحتفال ببدء الخليقة على جبل يمثل الجبل الأول، وبإحضار شجرة الصنوبر التي هي شجرة عشتار (الأم الكبرى ربة جبل البركان نين كوراساق) تمثيلاً للشجرة الأولى على ذلك الجبل. فدعي الجبل لهذا باسم آخر. وهو «جبل حيدا» أي جبل الاتحاد، الاقتران، العروس، العرس، المهرجان، الاحتفال، العيد.
وسنرى في فصول لاحقة كيف يخبىء هذا الجبل (أو الجبال) المعبد الأقصى حيث يتلقى العباد وحي الآلهة، وحيث اللوح المحفوظ والقوى (أو الأرباب)

---

(1) المرجع نفسه، ص108 .

السبعة التي تقدر المصائر للبشر، وحيث أن الرب الحارس الرامي بقوسه «شدا» يجنّب تلك البقعة المقدسة أيّ شرّ حتى يوم القيامة. ويؤكد العلماء اليوم أن الصنوبريات وأشجار العرعر كانت تؤلف الغابات الأولى على الأرض.

إن تلك الجبال هي التي صارت تسمى «موطن الأرباب» بعد أن أخمدت فيها نيران البراكين، وزودت بالماء العذب، وازدهرت بالحياة بوفرة، فقرر «رب الأرباب» أن يجعل فيها مكاناً مطهراً آمناً ليقيم فيه «الروح» الموكل إليه تدبير أمر الأرض.

ولقد دعا العرب الأقدمون في وادي النيل «القوة» التي بدأت الخلق الأول في الماء، وصعدت إلى حجر الـ «بن بن» فوق جبل الدخان أو البركان باسم «فْتاح» أي الفاتح، الذي بدأ الخلق، الفاطر. فالكهنة في «منف» كانوا يقولون إن الأرض الطافية «تا ـ تنن» هي موطن الرب «فتاح» نفسه[1]. وواضح هنا أن «تا ـ تنن» هي أرض التنين، الدخان والنار، البركان. إنه «التنين» الذي استخدمه أشقاؤهم السوريون للتعبير عن البركان. وهو المقصود في الآية القرآنية ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً، ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها، وبارك فيها، وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾[2]. فجبل الدخان، أو الجبل البركاني هو الأرض التي بارك الله فيها، أي الأرض المقدسة.

ومن أسمائه أيضاً في وادي النيل «قم ـ أتف» وتعني دخان التنور. إن «قم» في القاموس السرياني تعني: دخن، احترق. و«أتف»، «تف»، «تفيا»، «تْفي» تعني: الأثفية، التنور، الموقد، الفرن، النافث، القانف، الباصق. وهي جبل البركان. ويترجمها المؤرخون «المخترعون» في الغرب «ذلك الذي أكمل زمانه»[3]. ومن أسمائه أيضاً عند عرب وادي النيل «جبل صحصح» أي جبل الشروق. والكلمة في القاموس السرياني من الفعل «صح» ويعني: ضحي، أشرق، شعشع، شع،

---

(1) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص103.

(2) سورة «فصّلت» 9 - 12.

(3) إرمان، المرجع السابق، ص109.

لمـع، صـوّر، مثّل، شخّص، شبّـه، نسـخ.. والفعل العربي الحديث هو «ضـح» و«ضحي»، إذ كانت الصـاد أو الدال تحلّ محل الضـاد في كثير من الكلمات في العربية القديمة التي كانت أبجديتها تنتهي عند «قرشت». وفي «محيط المحيط» نجد: ضحي ضحـاءً عرف وانكشف بعد أن كـان في سـتر، وضحيت الشمس برزت، والضحوة طلوع الشمس. وهذا الاسـم للجبل كان يرمز إلى ظهور القوة الخالقة وتجليها عليه، على حجر الـ «بن بن» التي هي الكعبة، فملأت بضوئها أرجـاء الأرض ثـم ارتفعت. ولذلك فإنـه «كـان أول ما عنيت به تعاليم المدينة المقدسة في وادي النيل هو تـاريخ بدء الخليقة فقالوا: عندما كان الرب الشمس في المياه الأبدية «نون» قبل أن تتكون السماء والأرض، وقبل أن تخلق الدودة أو العلقة، لم يجد مكاناً يقف فيه، فوقف فوق التل، ثم صعد فوق حجر الـ «بن بن» في مدينة الشمس»[1].

التحديد الأولي للمركز على ضوء المؤلفات التاريخية

في مصادر التاريخ العربي الكلاسيكية نجد أن هذا الجبل هو الذي وجد به آدم ثم ضلّ وأخرج من عالم الخلود إلى عالم الموت والفناء، ودعي جبل «بد». ولما كـانت العـربيـة القديمة تكتب بدون أحرف صـوتية، فقد كان الاسـم يلفظ «بودي»[2] ويكتب «بد» والكلمـة في القـامـوس السـريـاني تعني الضـلال، الهـلاك، الفنـاء، المـوت، وهي في العـربيـة القديمـة من فعل «بَدَ» وفي العربية الحديثة من فعل «باد». وكـانت تضـاف إليها هـاء التعريف فتصبح «هبودي» وهو أحد الجبال البركانية الأولى في الأرض المقدسـة وسط جبالّ السراة عند «بني سـار» كان ينبع منـه وادي «أبيدة» الذي مـا يزال على الخـارطـة حتى اليـوم. يقول حمد الجاسر: «أبيدة، لها شـهرة كبيرة في كتب الأدب والتاريخ إلى عهد قريب. ومن المعروف أن كثيراً من قبائل العرب يسهلون الهمزة، وقد يحذفونها. ومن هنا

(1) المرجع نفسه، ص103 – 104.

(2) تاريخ الطبري، الجزء الأول، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، ص81 – 85.

نشأ اسم «بيدة»..

وكانت بيدة (ابيدة القديمة) من اهم القرى الواقعة في وادي أبيدة، غير أن اسماء حديثة طغت عليها حتى أزالتها«[1].

وسوف نرى كيف أن هذا الاسم نقله معهم العرب من منطقة الأرض المقدسة إلى جنوب العراق منذ الألف السادس قبل الميلاد فبنوا المدينة هناك ودعوها «ابيدا» تيمناً بالجبل المقدس، ثم نقلها العرب السوريون إلى شواطىء البحر الأسود واليونان وايطاليا ووادي النيل، إذ صارت «أبيدو» في وادي النيل موطن أوزيريس والمدينة المقدسة.

كما كان يطلق عليه اسم «نود» او «ند»، أو «نودي» ومع إضافة هاء التعريف كان يكتب جبل «هند». وكلمة «نودي» في العربية السريانية تعني الجبل، النتوء، السرّة، البركان، النبع المتفجر من الجبل.. وهي من الفعل ندا ـ نوديا = تفجر، ارتفع، تصاعد الدخان او البخار أو نحوه.. ومرة أخرى تدل التسمية على السرّة، المركز، والجبل البركاني ومن اسمائه، أو أسماء أحد جباله، ايضاً «التنور». وكلمة «التنور» هي مركبة في العربية القديمة من كلمتين تن = الدخان، ونور = نار، فالتنور هو البركان، الموقد، بيت النار الذي يطلع الدخان والنار. «فنظر آدم حين أهبط على الجبل إلى قضيب من حديد نابت على الجبل.. «ثم ضرب التنور.. وهو الذي ورثه نوح، وهو الذي فار بالعذاب بالهند«[2].

والـ «هند» هي جبل نودي إذ الهاء للتعريف كما سبق أن أوضحنا. ومن «تن» جاءت كلمة «تنين» و«تن» بالعربية الفينيقية هي «اتنا» وهو الاسم الذي أطلقه العرب الفينيقيون على الجبل البركاني في صقلية (جبل اتنا). وتؤكد المصادر العربية أن هذه الفوهة الباردة (التنور سابقاً) تفجرت بالمياه زمن الطوفان، وهذا ما كانت قد أكدته المصادر العربية السومرية من ذي قبل كما اثبتنا سابقاً.

وقد كان من أسماء هذا الجبل البركاني ايضاً جبل «القوط». والكلمة في

---

(1) حمد الجاسر، المرجع السابق، ص22 .

(2) تاريخ الطبري، المرجع السابق، ص85 .

القاموس السرياني هي من الفعل قوِطْ = غرق، أهوى، غاض، نشف، والقوطة في العربية القديمة والحديثة كل إناء ذو فتحة مخروطية، القفة، الجلّة الكبيرة، وهي بالتالي مرادفة لـ «تنورة» و«تنور». يقول الطبري في تاريخه: «فلما دخل (نوح) وحمل معه من حمل تحرّك ينابيع القوط الأكبر وفتحت أبواب السماء كما قال الله لنبيه ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدِر ﴾[1].

ومن الأسماء التي أطلقت على الجبل المركز اسم «جبل قاف». ويؤكد التراث العربي أنه الجبل الذي يخفي تحته «المحلّة الآمنة» التي خلق فيها آدم الإنسان ويحيط بها، ثم سكنتها الملائكة، الموكلة بتدبير أمر الأرض من السماء. وفي «محيط المحيط»، على سبيل المثال، نجد: القاف جبل محيط بالأرض، أو من زمرّد، قيل وما من بلد إلا وفيه عرق منه، وعليه ملك إذا أراد الله أن يهلك قوماً أمره فحرّك، فخسف بهم، وهو اسم للقرآن.

ولقد اقترن هذا الاسم بالقرآن في سورة دعيت باسمه هي سورة «ق» ﴿ قاف ﴾: ﴿ ق. والقرآن المجيد ﴾. كما أن هذا الاسم بقي حياً في الذاكرة الشعبية العربية بما يحمله من مواصفات متميزة ورهبة، ممّا كان لابدّ من أن يجد له انعكاساً في أعظم تراث شعبي على الأرض، التراث الشعبي العربي، وعلى الأخص «ألف ليلة وليلة».

لقد سجلت لنا قصص «ألف ليلة وليلة» صورة ذلك الجبل المركز كما هي محفوظة في الذاكرة العربية منذ آلاف السنين. ومثلت لنا صورة «البركان» بالثعبان أو الحية العظيمة التي حبسها الملائكة تحت الجبل إلى يوم القيامة.

لنقرأ بعض ما جاء في هذا المؤلف الشعبي العربي الذي يصف لنا رحلة يهودي اسمه «بلوقيا» بعد أن ساح في حب محمد رسول الله ﷺ، فتاه في تلك المنطقة، وقادته قدماه إلى جبل «قاف»: «فلما سمع بلوقيا منهم ذلك الكلام تعجب وسار من عندهم ليلاً ونهاراً حتى وصل إلى جبل قاف. فطلع فوقه، فرأى ملكاً عظيماً وهو جالس يسبّح الله تعالى ويقدسه ويصلي على محمد. ورأى ذلك الملك في

---

(1) المرجع نفسه، ص127.

قبضٍ وبسطٍ أو طيّ ونشر. فبينما هو في هذا الأمر إذ أقبل عليه بلوقيا وسلّم عليه.. (ثم حكى له حكايته).. فلما فرغ بلوقيا من حكايته سأل الملك وقال له: من انت؟ وما هذا الجبل؟.. فقال له: اعلم يابلوقيا أن هذا جبل قاف المحيط بالدنيا، وكل أرض خلقها الله في الدنيا فقبضتها في يدي.. واعلم أن يدي قابضة بعروق الأرض. فقال بلوقيا للملك: هل خلق الله في جبل قاف أرضاً غير هذه الأرض التي أنت فيها؟ قال الملك: نعم، خلق الله أرضاً بيضاء مثل الفضة، وما يعلم قدر اتساعها إلا الله سبحانه وتعالى، وسكنها ملائكة اكلهم وشربهم التسبيح والتقديس والإكثار من الصلاة على محمد. وفي كل ليلة جمعة يأتون إلى هذا الجبل.. ثم إن بلوقيا سأل الملك وقال له: هل خلق الله جبالاً خلف جبل قاف؟ فقال الملك: نعم، خلف جبل قاف جبل قدره مسيرة خمسمائة عام.. وهو الذي منع حر جهنم عن الدنيا.. ثم إن بلوقيا سأل الملك وقال له: أي شيء خلق الله تحت البحر الذي فيه الحوت؟ فقال له الملك: خلق الله تحت البحر هواء عظيماً، وخلق الله تحت الهواء ناراً، وخلق تحت النار حية عظيمة اسمها «فلق».. وقد ادخل الله جهنم في بطنها، وقال لها: احفظي جهنم إلى يوم القيامة، فإذا جاء يوم القيامة.. يأمر الله تعالى جهنم أن تفتح أبوابها فتفتحها، ويطير منها شرر كبار اكبر من الجبال...»[1] إن في ما أوردناه تفاصيل واضحة للصورة ذاتها التي سجلتها لنا مصادر التراث العربي القديم في سوريا ووادي النيل عن الجبل المركز، وعن البحر البدئي وعن الجبال البركانية التي تقذف بالنار من الأرض، وقد دعيت «فلق»، والفلق، والفالق، والفلقان هو البركان الذي انتقل إلى اللغات الأوروبية مع السوريين القدماء وصار Vulkan . وكيف أن الرب حبس البركان تحت الجبل كما فعل «مردوك» أو «أنجي» أو غيرهما إلى يوم القيامة.

ومن الأسمـاء التي أطلقت على ذاك الجبل الأقرن ذي القمتين «الدهنج» يقول الطبري: «أما أهل التوراة فإنهم قالوا أهبط آدم بالهند على جبل يقال له «واسم» عند واد يقال له بهيل بين الدهنج والمندل.. قالوا وأهبطت حواء بجدة»[2] .

---

(1) «الف ليلة وليلة»، المجلد الثالث، ص49 – 51 .

(2) تاريخ الطبري، الجزء 1 ، ص81 .

وكنا قد شرحنا معنى «هند» في العربية القديمة، والتي أطلق العرب الأقدمون الاسم على بلاد الهند الحالية تيمناً بالجبل المركز. أما «جدة» فهي «جودا» أو «جودي» أي البركان أيضاً. وهي في القاموس السرياني من الفعل «جد» أي اتقد، اشتعل، وهو الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح بعد الطوفان وذكره القرآن الكريم بلفظه «الجودي» ﴿ سورة هود ﴾ والجبل الأقرن (قرونو) ذو القمتين هو جبل «شدا» أعلى جبال السراة الذي تحدثنا عنه سابقاً. وقد دعي جبل قرنيت (قرنيط حالياً) الذي هو من جبال السراة جنوب الطائف بهذا الاسم استنساخاً للأصل، وهو ايضاً ذو قمتين[1].

أما كلمة «الدهنج» فهي تعني الجبل ذا القمتين أو الجمل ذا السنامين (انظر قاموس «محيط المحيط»). و«بهيل» في القاموس السرياني تعني الأمان، كما تعني نوعاً من الشجر، وإن «محيط المحيط» يحدّد هذا الشجر بأنه كبير كالنبق والعرعر، وهذا ما تشتهر به جبال غامد المغطاة تقريباً بهذه الأنواع من الشجر تحديداً. والمندل أجود العود، وهو شجر عطر اشتهرت به المنطقة أيضاً.

ويقول الطبري أيضاً: «فازدلفت حواء إليه ولذلك سمّي (الموضع) المزدلفة». والمزدلفة في القاموس تعني الأرض المستوية بين جبلين (أي بين القمتين).

الجبل المركز وموقعه الجغرافي:

رأينا كيف أن الجبل البركاني الأول الذي شهد عملية النشأة الأولى للحياة وتقدس عند العرب الأقدمين، هو نفسه في سوريا القديمة (بما فيها جزيرة العرب) وبلاد وادي النيل. إنه الجبل الذي دعاه قدماء السوريين والمصريين «أرض الأرباب»، «أرض الأحياء»، «أرض الخلود»، «مقر الأبرار»، «جبل الشروق»، «الجبل الذي تطلع عليه الشمس»، «الجبل الذي تشرق منه الشمس» (على وادي النيل).. الخ.

ومن أجل تحديد موقعَ ذلك الجبل المقدس لابدّ من أن نهتدي، أولاً، سمتياً، كما أخبرتنا الوثائق القديمة، ثم من خلال المواصفات المحّددة المكانية التي ذكرتها

---

(1) حمد الجاسر، المرجع السابق، ص365 .

تلك الوثائق.

فمن حيث الاتجاهات فهي عند العربي القديم منذ وجوده على النحو التالي: كان يفترض، أو يعتقد، أن جبال السراة في شبه جزيرة العرب هي مركز الأرض وسرّتها، واسمها نفسه يعني البروز والسرّة. ولما كان العربي يقدّس الشمس منذ القدم فقد دأب على جعل معابده تتجه دائماً إلى الشرق (إلى الشمس)، وكان يقف كل صباح بوجهه إلى الشمس لتحيتها عند طلوعها. واعتقد أن جبال «جامد» (أرض المخلّص، غامد الآن) هي المركز. وبناء عليه فإن من يقف في «جامد» ووجهه إلى الشرق، يكون قد وقف في السرّة، المركز، وكل ما على يمينه دعاه «اليمن» أي اليمين أو الجنوب، وكل ما على شماله دعي «الشام» أي الشمال. وهكذا بقيت كلمة «الشام» تعني الشمال. ففي قاموس «محيط المحيط» نجد: شاءم به مشاءمة أخذ به ذات الشمال، يقال شائم بأصحابك على الأمر أي خذ بهم ذات الشمال. وتشأم الرجل أخذ نحو شماله، وتشاءم القوم تياسروا أي أخذوا إلى جهة اليسار. الشأم بلاد عن يسار القبلة سميت به لذلك. الشأمة ضد اليمنة. المشأمة نقيض الميمنة. ومن سورة الواقعة: ﴿ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة﴾ قيل.. الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم والذين يؤتونها بشمائلهم.

إن هذا يدلنا مبدئياً على أن «القبلة»، أو المركز المقدس، عند العرب الأقدمين كانت في منتصف السراة بين اليمن والشام، وهي على جبل، الجبل البركاني الأول الذي تشرق منه الشمس على عرب وادي النيل. لقد عرفنا الآن أن «المركز» المقدس هو في جبل عال وسط جبال السراة. هناك «أرض الآلهة» التي تستقبل الشمس أولاً قبل أن تظهر بكاملها فوق البحر (الأحمر) ووادي النيل.

«وأما أنوارك الساطعة فلا يمكن أن يطالها القول. إن أراضي الآلهة وأراضي البونت (مضيق باب المندب) الشرقية ينبغي لها أن ترى قبل أن ينكشف جزؤك المختفي. وحيداً ومن تلقاء نفسك تكشف نفسك حينما تجيء إلى الوجود فوق نو (البحر)»[1].

---

(1) السير ولس بدج، الديانة المصرية، ترجمها يوسف سامي اليوسف تحت اسم «الديانة الفرعونية» دار المجد، دمشق، ص74 - 75.

إن «أرض الآلهة» بالنسبة لسكان وادي النيل، هي إذن في الشرق.. وشرق البحر الأحمر.

وفي رحلة جلجامش إلى ارض الخلود نراه يتجه غرباً، ويقطع الصحاري، إلى ان وصل إلى جبل «ماشو» (ماشوح) «الذي يرقب الشمس في صعودها وهبوطها كل يوم، والذي تناطح ذراه حدود السماء، وتمتد جذوره عميقاً إلى العالم الأسفل» (اللوح التاسع) وهو مؤلف من سبعة جبال.

مرة أخرى نحن أمام جبال عالية من جبال السراة.

ولو اقتربنا اكثر مستفيدين من تفاصيل جغرافية اكثر قدمتها لنا المصادر العربية القديمة لوجدنا:

أن الرب المخلِّص «أنجي» يؤمّن المياه العذبة لتلك البقعة، ويملأ منها نهري الدجلة والفرات، ثم يقصد النهر الكبير ويقرر نظامه ويعيّن على شؤونه ربة اسمها «سرّارا»[1] .

إن هذا الكلام يؤكد لنا أن الدجلة والفرات المقصودين هما نهران ينبعان من الأرض المقدسة، وكذلك سرّارا. وإذا علمنا ان وادي الفرات مازال حتى اليوم على الخارطة، وينبع من جبال غامد فعلاً، وهو يدعى أحياناً «الثرات» (بالثاء) للابدال الشائع في العربية بين الثاء والفاء (مثل ثغَرَ ـ فغَر، ثار ـ فار، فغا ـ ثغا، فمّ ـ ثم، وبالعامية تمُّ)، وإن وادي سرّارا مازال هو الآخر من الوديان الكبيرة جنوب شرق بلاد غامد، اتضح لنا الموقع الحقيقي للأرض المقدسة: إنه عند منابع الأنهار في جزيرة العرب. وهذا عينه ما اكدته المصادر العربية القديمة. لنتابع:

● إن أرض الخلود هي كما حددها الأرباب لرجل الطوفان، عند «فم الأنهار» على الجبل، أي عند منابعها حيث تخرج المياه.

«ما كنت قبل اليوم إلا رجلاً فانياً

ولكنك منذ الآن ستغدو وزوجك مثلنا (خالدين)

---

(1) أورد هذا صموئيل كريمر في الصفحة 181 من كتابه «من الواح سومر» لكنه وقع في اخطاء فادحة عند تفسيره للأسماء والمواقع.

وفي القاصي البعيد عند فم الأنهار ستبعيشان
ثم أخذوني وأسكنوني في البعيد حيث فم الأنهار»[1].

والمندائيون (نسبة إلى جبل «منداء» أو «ميداء» = جامد) هم أقرب الناس أصولاً إلى المنطقة ـ المركز منذ البدء، إذ أن كل مصادرهم تشير إلى انهم نزحوا من جنوبي بلاد غامد شرقاً إلى منطقة حرّان الآرامية على وادي الفرات شرق غامد (وليست حرّان على الفرات شمال سوريا)، ومنها شرقاً إلى جنوب العراق. وبناء على هذا فقد كان الجبل المقدس، المركز، يليهم مباشرة إلى الشمال. لهذا فقد كانوا حينما يتوجهون في الصلاة كانوا يتوجهون إلى الأعلى والشمال مما حدا ببعض الدارسين إلى الافتراض بأنهم يتوجهون إلى نجم القطب. ولما كانت عقيدتهم باطنية فهم لم يفصحوا عن قبلتهم. والصابئة المندائيون الذين يطلقون على الماء اسم «أردن» إشارة إلى التعميد الأصيل بمياه «اردن» (جمع «رديا» في القاموس السرياني، وتعني الماء، الجدول، ماء التطهير) «يرددون في الوقت نفسه ذكر الفرات، ويسمونه الفرات النوراني، أو فرات النور (فراش زيوا). وهناك ترتيلة يرددها العروس أثناء مراسم الزواج، إذ يعلن بعد أن يشرب الماء المقدس دينياً، بأن نفسه قد عظمت لأنه شرب من ماء الفرات:

«صغير أنا بين الملائكة الأثيريين،
طفل أنا بين النورانيين،
ومع ذلك،
فقد أصبحت عظيماً،
ونفسي كبرت،
لأني شربت من ثغر الفرات»[2].

وفي الحقيقة ليس في إمكان احد أن يتطهر بماء نهر «الأردن» في سوريا الغربية، ويشرب من ثغر الفرات في شرقيها إلا إذا كانا في مكان واحد. وكما شرحنا معنى «يردن» أو «أردن» (ماء التطهير) وهو في الجبل المقدس حيث

---

(1) ملحمة جلجامش، اللوح الحادي عشر.

(2) مرّاني، المرجع السابق، ص 64 – 65.

منبع الأنهار فإننا سوف نرى أن تلك «الأنهار» المقصودة هي التي تنبع من مغارة في الجبل المقدس لتكون الأنهار التي تسقي «جنة عدن» شرقي الجبل، أو جنة تلمو (دلمون). وقد أطلق العرب أسماءها (المقدسة) على عدة أنهار فيما بعد في مناطق انتشارهم كما سوف نرى.

لنقترب، إذن، أكثر من أرض الفردوس. يقول صموئيل كريمر: «هناك من الدلالة المقنعة على أن الفردوس المذكور في التوراة، والمنعوت فيها بأنه «بستان» غرس في الناحية الشرقية من «عدن» والموضع الذي تنبع من مياهه الأنهار الأربعة التي من ضمنها دجلة والفرات، يرجح أن يكون مطابقاً في الأصل لموضع «دلمون» مكان الفردوس السومري»[1].

أما المصادر السورية الأخرى التي دعيت كنعانية فهي أيضاً من المنطقة نفسها وليست من غرب سوريا. لأن موطن الكنعانيين هو بلاد غامد في شرق السراة، وقد درسنا ذلك مفصلاً في كتابنا الثاني «العرب والساميون والعبرانيون وبنو اسرائيل واليهود». وإن الوثائق المكتشفة في «أوغاريت» على الساحل السوري ليست إلا نصوصاً تعليمية، كما تتحدث هي عن نفسها، تصدر عن الكهنة في المركز المقدس، وينقلها الكتبة والمعلمون في كل الأصقاع العربية لتعليم الأولاد، كما حدث مع نصوص التوراة والانجيل والقرآن فيما بعد التي صدرت من منطقة واحدة هي شبه جزيرة العرب، ثم نسخت بخطوط أيدي الناسخين ليقوم المعلمون والشيوخ بتعليمها للأولاد في دور العبادة أو الكتاتيب في كل مكان من أرض العرب المترامية.

لقد أكدت تلك النصوص في مواضع كثيرة أن «جنة عدن»[*]، أو حقول إيل هي فعلاً عند منابع الأنهار وليست في أي مكان آخر:

«وضربت عناة بقدميها

فزلزلت الأرض، وأدارت وجهها إلى

---

(1) كريمر، المرجع السابق، ص242 .

(*) كلمة «عدن» في العربية القديمة تعني الخصب كما تعني النعيم. وهي من الفعل عَدِنَ = نعِمَ، فنَق، رفَه، متّع، دلّل، اخصب.. ومعدونا = متنعّم، متفنق، مخصب، ومنها كان الاسم معدونا (مادونا) بعد اختفاء العين. معدونوتا = تنعّم، تفنّق، لذة، خصب.

منبع الأنهار [أفقانهرن، أفقا = نبع]
ومن منبع الأنهار دخلت حقول إيل»
(من لوحة موت كيريت)
إن «إيل» هو كبير الآلهة عند الكنعانيين، وهو آنو (أوحانو) عند العرب السومريين، لذلك كان الجبل المقدس الذي تنبع منه الأنهار يدعى «جبل آنو».
وهو كذلك عند عرب وادي النيل:
«لكم التجلّة، يامن أنتم الآلهة النجميون في آنو، والكائنات السماوية في حوراعبا (مغادرة الخصب)»[1].
و«آنو» هو سيد الجبل، «والفرات» هو وزيره، ورب بيت الماء (الذي تخرج منه الأنهار) ومساعده من أجل إخصاب أرض الجنة:
«ولسبعة أيام لم تهب ريح الجنوب على البلاد،
نادى آنو على وزيره الفرات:
لماذا لم تهب ريح الجنوب على البلاد هذه الأيام السبعة؟

أجابه وزيره الفرات:
إن أدابا بن إيا قد كسر جناحها» (ملحمة جلجامش، اللوح الأول).
وواضح أن الريح الجنوبية الممطرة هي التي تختصّ بها شبه جزيرة العرب، لأنها تأتي من بحر العرب والمحيط الهندي.
وحينما تحرك البركان (في جبل البركان، جبل الشروق، جبل الآلهة، جبل آنو، المركز) أخرج الماء المالح وخلطه بمياه الدجلة (هدقلة = النخلة) ثم بدّد المياه كلها بحيث أجدبت الأرض. فلجأ «ننورتا» إلى سد فوهة الكور (البركان) بالحجارة مما منع مياه الـ «كور» من أن ترتفع مرة ثانية إلى سطح الأرض. ثم جمع الماء وأجراه في «هدقلة» (الدجلة) الذي أصبح قادراً على أن يروي الحقول بفيضه[2].

---

(1) السير وليس بدج، المرجع السابق، ص104 .

(2) كريمر، المرجع السابق، ص288 .

الجبل المقدس ومغارة الخصب

أجمعت المصادر العربية القديمة على أن الجبل المقدس يخبيء في داخله مغارة فجّر «أنجي» (المخلّص) منها ينابيع الماء العذب، فشكلت الأنهار التي تخرج من «الجنة» (في المغارة) لتروي حقول إيل أو جنة عدن (شرقي الجبل). وقد دعوا تلك المغارة «حورانينا» (أي مغارة السيدة، الماء، الأم الوالدة). ويؤكد ل.ديلابورت في كتابه «ميسوفوطاميا» [ميسو ومصعو = وسط، بين، مركز؛ فوطامي = الخصب، المخصبون، الأنهار وهي من العربية القديمة السريانية أو الفينيقية يعتبرونها اليوم إغريقية خطأ، ويترجمونها بين النهرين] أن «نينا» هي السيدة العذراء، هي عشتار. ولقد قدس العرب الأقدمون في سوريا ووادي النيل تلك المغارة ذات الينابيع، وقرنوها بالخصب وبربة الخصب، وببدء الخليقة على الأرض. وكانت تتفجر منها ستة أنهار ثلاثة تتجه إلى الشرق لتروي جنة عدن، وثلاثة إلى الغرب. وكانوا يمثلونها بالسيدة العذراء (عشتار) تحمل بين يديها إناء تتدفق منه المياه على ثوبها المخطط والمرمّز برموز تلك الأنهار، وتتخللها سمكات في خطوط المياه، ولقد عثر لها في آثار مدينة ماري السورية على عدة تماثيل أطلق عليها «ربة الينبوع» أو «أورنينا». أما «أورنينا» فهي «حورانينا» بعد أن اختفت «الحاء» في اللفظ وتعني مغارة السيدة، كهف العذراء، مغارة الماء. وما تزال تسمية «كهف العذراء» تطلق على كل كهف يتدفق منه الماء في شتى أرجاء سوريا الطبيعية إلى اليوم. ولقد حوّل العرب السوريون نبع السيدة هذا إلى شعار مقدس ورمز، مثلوه بإناء هو جرة السيدة التي تمثل خصبها، يتدفق منه مجريان رئيسيان يضم كل منهما ثلاثة مجارٍ أو أنهار. كما عثر في حفائر ماري على لوح ظهر فيه نقش لزمري ليم آخر ملوك ماري مع ربتين تحمل كل منهما بيدها نفس الإناء الفوّار (عين الماء). وقد فسّره الدارسون خطأ بأنه رمز لنهري الدجلة والفرات، مفترضين أن العرب الأقدمين كانوا يعتقدون أنهما ينبعان من منبع واحد[1] .

ذكرنا كيف أن العرب الأقدمين وضعوا في أساطيرهم «الصراع» ما بين «تهامة»

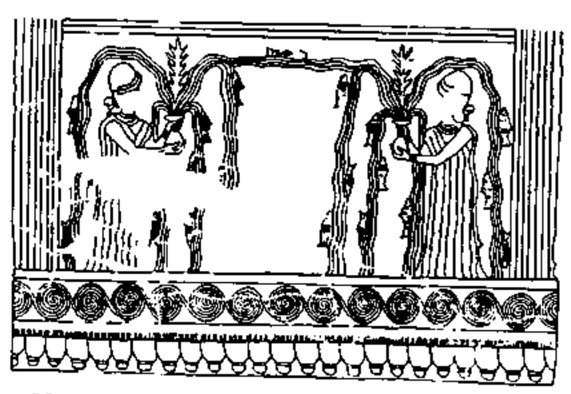
---

(1) أحمد سوسة، مفصل العرب واليهود في التاريخ، الطبعة الخامسة، ص157 .



كاس الربة عشتار الذي يمثل مغارة الربة
حيث منبع الأنهار في الأرض المقدسة في غامد.
وقد صار رمزاً للخصب والحب والسلام
عند قدامى العرب السوريين

(اللجة، الماء المالح، وفي محيط المحيط «تهمة» = خبث الريح، والزهومة، والركودة، وهوة الماء، والأرض المتصوبة إلى البحر). والماء العذب الذي اطلقوا عليه اسم «افصيو» (اي المخلِّص، وكانوا يلفظون الفاء P، فصارت تكتب اليوم أبسو[*]). وقد مثلوا الماء العذب تصويراً بمجموعة كبيرة من النوافير في اسفل الجبل تؤلف من فوقها حوض «افصيو» تحت الجبال الذي ما يلبث أن يتفجر ينابيع وعيون ماء غزيرة من مغاور في الجبل أهمها «حورانينا» (مغارة السيدة) ويوزع ماء «حيا» (الحياة، البعث، المخلِّص، المقيم من الموت، المحيي) شرقاً وغرباً في مجموعة الأنهار التي توزع الري والخصب والنماء.



ينابيع كهف السيدة العذراء ربة المغارة «حورانينا». مشهد من لوحة جدارية كبيرة في القاعة رقم 106 من قصر زمري ليم في ماري. الألف الثالث قبل الميلاد

(*) ومن الكلمة العربية القديمة جاءت peace = السلام، النجاة، الخلاص.

وقد أصبح ذلك الموضع في الجبال منذ العهود السحيقة مسكناً لأرباب الخصب «عند فم الأنهار»، كما صار يدعى: المقام، المزار، المعبد المقدس، المعبد الأقصى، و«الحجور» أي الغرفة، الممنوعة، المحجورة، كرة الأرض، الدائرة، المركز [انظر القاموس السرياني].

لقد جاء في النصوص العربية السومرية عن تلك المغارة «حورا»:

«لقد اتى إلى «حورا» إلى المزار

«أنجي» ملك «أفصيو» يقرر مصيره قائلاً:

أيتها «المدينة» الموفورة الزاد، العميمة المياه، القائمة كالثور

القوي الثابت،

أنت منصة خير البلاد، أنت خضراء كالجبل.

أنت غابة الكافور ذات الظلال الوارفة.

أيتها «المدينة» التي قدّر مصائرها «أنجي»

يا «حورا»، أيها المزار، عساك أن ترتفع إلى عنان السماء»[1].

ويجدر بنا أن ننبه إلى أن «حورا» كتبت «أورا» و«أور» لاختفاء «الحاء» وهكذا نقلها النقلة العرب إلى العربية. كما أن كلمة «المدينة» تطلق على أي مكان للاستقرار سواء في مغارة أو خيمة أو بيت أو مجموعة بيوت، وكذلك القرية.

إن هذا المعبد الأقصى المقدس إليه كان يحجّ العرب الأقدمون:

«الجبل العظيم، الأب إنليل

قد أقام عرشه على منصة الحوجور

المعبد الذي لا تردّ ولا تبدل نواميسه المقدسة مثل السماء. إن

نواميسه المقدسة

كنواميس «أفصيو» ما من أحد يستطيع إدراكها

وقلبه «قلب المعبد» الأقصى، إنه سرّ خفي كسمت السماء

الحوجور بيت حجر اللازورد المسكن السامي الذي يبعث الرعب في القلوب

إن رهبته وخشيته لتضاهيان السماء،

---

(1) كريمر، المرجع السابق، ص180 - 181.

وظله منتشر على جميع الأقاليم،
وتساميه يبلغ قلب السماء.
الأسياد والأمراء كلهم يأخذون إلى هناك
الهدايا والقرابين المقدسة،
ويقيمون الصلاة هناك ويتلون الأدعية والتضرعات»[(1)] .
إن في «المغارة» المقدسة في أعلى الجبل، إذن، «نبعين أساسيين منهما ينبع نهر الفرات ويخرج نهر «قترا» الذي هو أحد أسماء الدجلة [«قترا» في القاموس السرياني تعني: باب يكون في الدجلة، المصباح...] فماذا تقول التوراة، وهي، في معظمها، استنساخ للتراث العربي القديم؟
فكما كان «المعبد الأقصى» الذي هو «قدس الأقداس» القديم أو العتيق في كهف في راس الجبل نجده في «سفرحزقيال» كذلك:
«هذه شريعة البيت الذي على رأس الجبل. إن جميع تخومه على محيطه هي قدس أقداس»[(2)] .
وكما كان باب بيت المقدس العتيق يتجه إلى الشرق كذلك نجده في التوراة: «ورجع بي إلى باب المقدس الخارجي المتجه نحو الشرق، وكان مغلقاً»[(3)] .
وكما تنبع من المعبد الأقصى في المغارة ينابيع المياه وتخرج إلى الشرق كذلك نجد في «أورشليم» التوراتية: «ورجع بي إلى مدخل البيت فإذا بمياه تخرج من تحت عتبة البيت نحو الشرق لأن وجه البيت نحو الشرق، والمياه تنزل من تحت من جانب البيت الأيمن من جنوب المذبح»[(4)] .
وكما تنبع من البيت العتيق في المغارة مياه «حيا» (المحيي، المخلِّص) وتتوزع قسم منها إلى الشرق وقسم إلى الغرب مكونة ثلاثة أنهار تنحدر شرقاً وثلاثة غرباً، فإننا نجد الشيء ذاته بالنسبة لـ «أورشليم» التوراتية: «ومنها تخرج

(1) كريمر، المرجع السابق، ص76 .

(2) حزقيال 12 : 43 .

(3) نبوءة حزقيال 1: 44 .

(4) نبوءة حزقيال: 1: 47 .

ينابيع مياه حية نصفها يتجه إلى البحر الشرقي ونصفها إلى البحر الغربي»[1] . وقد نقلت «مياه حيا» في الترجمة العربية إلى «مياه حية».
ولسنا بحاجة هنا إلى الإشارة إلى انه من المستحيل ان تكون مدينة «القدس» هي أورشليم التوراتية المغارة في رأس الجبل التي تنبع منها هذه الأنهار ومنها نهر الفرات. علماً ان «أورشليم» هي «حوارشليم» اي مغارة المتعبدين، لأن «شليم» في القاموس السرياني هي جمع «شليو» = المتعبد، الناسك، المعتزل..[2].

وقد أكدت لنا التوراة أن «مطلق كلمة نهر، أو موصوفاً بالكبير، في كل اسفار الكتاب المقدس إنما المقصود بها نهر الفرات» (انظر شروحات الكتاب المقدس، قسم نبوءة إرميا، طبعة دار المشرق، 1876).

الجبل المركز والكعبة:

لو تحرّينا معاني كلمة «الكعبة» في «محيط المحيط» لوجدنا: كعبت الجارية نهد ثديها فهي كَعاب وكاعب. وكعب الثدي نهد. وكعّب الشيء ربّعه. الكَعاب الناهد، والعظمان الناشزان فوق القدم، والعظم (وهو مكعّب) يكعب به جمع كعوب وكعاب، والشرف والمجد الذي به ثبات الإنسان وقوامه. والكُعْب الثدي. والكَعبة الغرفة، وكل بيت مربّع والبيت الحرام بمكة، قيل سميت به لنتوئها وقيل لتربيعها. وذو الكعبات بيت كان لربيعة كانوا يطوفون به. والكُعبة عذرة الجارية، والمكعّب في اصطلاح اهل المساحة جسم تعليمي يحيط به ستة مربعات.

إن الكلمة ضمّت المعاني المتوخاة: العُذرة التي ترمز إلى النفس الطاهرة، والنتوء أو النهود الذي يرمز إلى الشرف والسمو، والتربيع، والتنوير رمزين للثبات والقداسة. ومن المعروف أن العرب استنسخوا هذه «البنية» او «الكعبة» في كل مناطق انتشارهم من قلب شبه جزيرة العرب، حيث الكعبة الأولى، إلى

---

(1) نبوءة زكريا: 8 : 14 .

(2 لمزيد من الشرح والتفاصيل حول هذه المواضيع راجع كتابنا «العرب والساميون والعبرانيون وبنو اسرائيل واليهود».

اليمن (اليمين) جنوباً، والشام (الشمال) في مكة شمالاً، إلى بلاد اليونان فيما بعد.

وإن الاسم الذي عبرّ به العرب الأقدمون عن موضع هذه «البنية» (الكعبة) كان تجسيداً لاقتران الـ «با» (الروح) بـ «كا» (النفس) فسمّوه «بكّا» أو «بكة». إنه الموضع الذي استخدمته القوة الخالقة لأول مرة حينما أنجزت عملية الخلق على الأرض ثم عرجت منه إلى السماء.

إن الكهنة من العرب الأقدمين في وادي النيل، كانوا يستخدمون هذه الكلمة عند الاشارة إلى الخالق الذي عرج منها إلى السماء.

يقول أدولف إرمان: «إن القارىء ليرى أن الكاهن (الساحر) يحتفظ لنفسه هنا بالاسم المكنون (لله الخالق) ولا يخبرنا به. وإن الأمر ربما جرى على خلاف ذلك في مصدر قديم جداً يضمن للميت استخدام معراج السماء: «تعال يامكّت، اقبل يابكّت، تعال باسمك الذي تذكره الآلهة. وربما كان المقصود هنا أن الآلهة لا تسمّي المعراج موكّت كما يفعل البشر، وإنما تسميه بكّت»[1].

وكلمة «بك» في العربية القديمة تعني المجد، العظمة، الخصب. ومنها كانت تسمية البيت (الحرم) في سوريا الغربية الذي دعي «بعل بك»، تيمناً بأول بيت وضع على الجبل البركاني الأول الذي شهد عملية خلق آدم الانسان.

ولقد جاء القرآن الكريم ليؤكد لنا هذه الحقيقة في الآية: ﴿ إن أول بيت وضع للناس للّذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾[2].

إن القرآن بلغته الدقيقة المعجزة استخدم كلمة «وُضع» أي من فوق، ولم يرفع من أسفل. واستخدم «بكة» ولم يستخدم «مكة» علماً أن «مكة» هي التي كانت معروفة في ارض نزول القرآن.

وكنا قد شرحنا معنى كلمة «اورشليم» وقلنا إنها في أصلها العربي «حوارشليم» أي مغارة المتعبدين. وقد صارت رمزاً واستنساخاً في التوراة والإنجيل للبيت الأول الذي وضع بأمر السماء على الأرض، ثم رمزاً لنزول

---

(1) إرمان، المرجع السابق، ص338 ؛ و: متون الأهرام، 995 .

(2) سورة آل عمران 97 .

الروح القدس. ففي رؤيا يوحنا نقرأ: «من يغلب فسأجعله عموداً في هيكل إلهي ولا يعود يخرج إلى خارج، واكتب عليه اسم إلهي واسم مدينة إلهي أورشليم الجديدة النازلة من السماء»[1]. و : «ذهب بي بالروح إلى جبل عظيم عالٍ وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله. لها مجد الله ولمعانها شبه أكرم حجر، كحجر يشب بلوري»[2].

وحينما أوحى إلى موسى ببناء بيت الرب كُشف له عن مثاله في الجبل، عن البيت الذي هو من وضع السماء فصار مثالاً لبناء بيوت الله منذ الزمن العربي الموغل في القدم، وهذه البيوت هي التي دعاها بولس «شبه السماويات»: «الذين يخدمون شبه السماويات وظلها كما أوحي إلى موسى وهو مزمع أن يصنع المسكن لأنه قال انظر أن تصنع كل شيء حسب المثال الذي أظهر لك في الجبل»[3].

وكما شهد هذا البيت الحرام (أي المحمي والمحرّم دخوله) أول الخلق، فإنه سوف يشهد ــ كما يؤكد التراث العربي ــ نهايته.

تؤكد جميع مصادر التاريخ العربي القديم أن الجبل المركز هو في سُرّة جبال السراة (السَرة) من جزيرة العرب، وهو الذي شهد أول عملية الخلق للنبات والحيوان على الأرض، كما انه أول من استقبل خلق الانسان العاقل. وأن آدم الانسان العاقل الأول خلق في الأرض الجنة في المركز، وهناك نشأت كل العلوم على الأرض. وإن اللغة العربية سماوية مقدسة كما ان العلم العربي كوني مقدس بدءاً من علم اللغة، ومروراً بالأرقام العربية، وعلم الحساب، والفلك، والدين، إلى علم العمارة الذي نشأ كونياً يمثل السماوات السبع والمركز، كما يمثل قبة السماء والبيت والأركان والأعمدة والتيجان والحوض المائي البدئي، والجبل المركز وسطه (هذا ما تمثله النافورة او الحوض في البيت العربي منذ البدء وحتى اليوم) وعلم الأبراج، والتوقيت والزمن.

---

(1) رؤيا يوحنا 3:12 .

(2) رؤيا يوحنا 21 : 9 - 11 .

(3) رسالة بولس إلى العبرانيين 5 : 8 .

وذكرت هذه المصادر أن الزمن الذي أبدعه العقل العربي بتقسيماته الفلكية هو الزمن الذي عُمل به عند بدء الخلق. وهذا ما اكده القرآن الكريم: ﴿ إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ﴾[1].

وان الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، وفي اليوم السابع ازدانت الأرض وعيّدت فرحاً بخلق الانسان. وهكذا فقد جعل يوم السبت الذي هو اليوم السابع يوم العيد عند قدامى السوريين حيث صار الجبل الأول المزدان بمهرجان العيد يدعى بـ «جبل حيداء أي جبل العيد، أو الاحتفال، أو المهرجان، أو العرس، أو الاقتران.

يقول فردريك ديليتش: «أما البابليون فكانوا يرتاحون في يوم السبت لمصالحة الآلهة بعدم القيام بأي عمل. وقد عثر في الحفريات على تقويم خاص بالأعياد والأيام المخصصة لتقديم القرابين وعليه إشارة إلى اليوم السابع، والرابع عشر، والواحد والعشرين، والثامن والعشرين على أنها أيام لا يأكل فيها «راعي الشعب العظيم» لحماً مشوياً، ولا يبدل ثيابه، ولا يقدم قرباناً، ولا يركب الملك عربته، ولا تنطق الكاهنة أو الساحر بتنبؤ، وحتى الطبيب لا يضع يده على مريض. باختصار إنها الأيام التي لا يقوم فيها بأي عمل. لذلك لا يمكن الشك في أننا ندين براحة يوم السبت أو يوم الأحد في النهاية لهذا الشعب المتحضر»[2].

وعند عرب وادي النيل الأقدمين فإن الاستراحة يوم السبت لم تشمل الأحياء فقط، بل وأولئك الذين يلقون العذاب بعد الموت. ففي أحد النصوص المكتشفة الذي هو عبارة عن حديث لميت مع القديس: يسأله القديس عما إذا كان قد استمتع بأية راحة أو بأية برهنة بغير عذاب، فأجاب صاحب المومياء:

«نعم، ياأبتي، فالشفقة تحلّ على المعذبين كل يوم سبت وأحد. وحالما ينتهي يوم الأحد يلقى بنا في العذاب الذي نستحق بحيث ننسى السنين التي عشناها

---

(1) سورة التوبة: 36 .

(2) فريدريك ديليتش، بابل والكتاب المقدس، ترجمة إيرينا داود، العربي للطباعة والنشر، دمشق 1987 ، ص34 .

في العالم»[1].

وإن العرب الأقدمين عرفوا نسبية الزمن بين الأجرام السماوية والأرض قبل أن يتحدث عنها إينشتاين ويثبتها بالبرهان العلمي بآلاف السنين. فقد دونوا لنا في وثائقهم أن القوة الخالقة تأتي كل يوم إلى الجبل المقدس وتعرج منه. لكن ذلك اليوم هو يوم سماوي، ومقداره ألف سنة من زمننا على الأرض، فليله خمسمائة عام ونهاره خمسمائة عام. وإن تلك القوة الخالقة تأتي بهيئة طائر سماوي مقدس دعوه «الفينيق» (أي السيد المنعمّ، المتفنق)، وتقدس في سوريا كما تقدس في وادي النيل.

«نفر» إحدى مغاور الجبل المقدسة

كثيراً ما حدث الخلط بين أسماء المواقع المقدسة في الجبل المركز، من قمم أو مغاور أو وديان، وبين مثيلاتها التي حملت أسماءها تيمناً بالبقعة المقدسة. فبينما نرى كيف أن العرب الأقدميين أطلقوا على الوديان الكبرى في الوطن العربي الكبير منذ الزمن الموغل في القدم أسماء الدجلة، والفرات، والنيل، وبردى، وسيحان، وجيحان، وهي الوديان التي تنبثق من المغارة المقدسة في الجبل المقدس لتروي جنة عدن ، نراهم قد أطلقوا أيضاً أسماء المغاور المقدسة في الجبل المركز على مدنهم الأولى أيضاً، مثل حورا (أور)، أبيدا، نفر، أرك، حوراشليم (مغارة النسّاك أو المتعبدين)، طيبة.. الخ.

ونظراً للجهل بالتاريخ العربي القديم وباللغة العربية القديمة فقد شكّل هذا الخلط بين الأسماء والمواقع تناقضات وإرباكات لا حصر لها، مما انعكس، في المحصلة، تزويراً حقيقياً في التاريخ.

ومن بين هذه المواقع التي جرى الخلط فيما بينها كانت خارطة المغارة المقدسة في المنطقة المقدسة «نفر» التي حسبها المؤرخون والباحثون

---

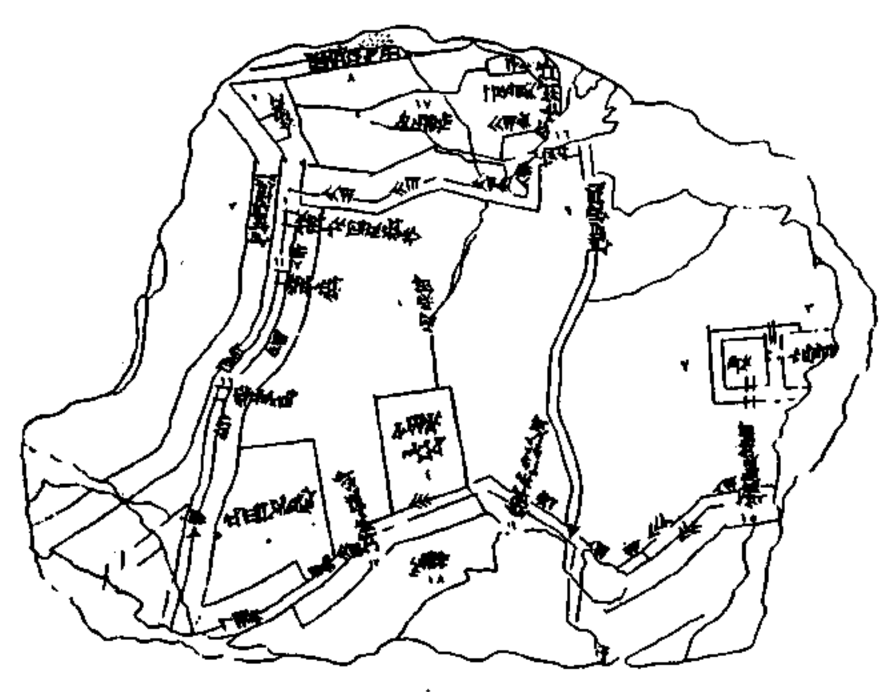
(1) السير ولس بدج، المرجع السابق، ص148 .

الآثاريون خارطة لمدينة «نفر» في جنوب العراق.

خارطة «نفر»، أو مسالك العالم الآخر:

يقول صموئيل كريمر: «ولعل أهم وثيقة في «مجموعة هلبرشت» ليست من التآليف الأدبية السومرية على الإطلاق، وإنما هي خارطة، وهي أقدم خارطة في التاريخ، لقد رسمت تلك الخارطة على لوح محفوظ جيداً، وكبير الحجم، إذ يقيس في حالته الراهنة (21×18)سم».

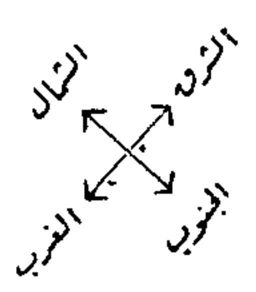
لقد عثر على اللوح الذي رسمت فيه هذه الخارطة في التنقيبات التي اجرتها في «نفر» في خريف عام 1899 جامعة بنسلفانيا. وقد وجد في جرة من الفخار مع



عدد آخر من ألواح الطين المكتوبة، التي تتراوح في تواريخها من 2300 إلى 600 ق.م فهذه الجرة، بالاستناد إلى محتوياتها، كانت، كما وصفها المنقبون، متحفاً حقيقياً صغيراً. وفي عام 1903 نشر هرمان هلبرشت صورة صغيرة لذلك اللوح في كتابه المسمى «التنقيبات في بلاد التوراة». ولكن تلك الصورة لم تكن واضحة، فكانت عديمة الجدوى تقريباً في صلاحيتها لترجمة الوثيقة وتفسيرها.

(وقد حاول ذلك جملة باحثين). وظل ذلك اللوح مطموراً في مجموعة ألواح هلبرشت حيث لم يستنسخ وينشر طوال هذه السنين الكثيرة. ولكن تمّ الآن استنساخه استنساخاً متقناً دقيقاً من جانب الدكتور «إينزبزنهاردت» تحت إرشادي وستظهر الدراسة الناتجة التي قمنا بها مشتركين في المجلة العلمية لجامعة (فردريك شيلر)[1].

إن لغة الخارطة مكتوبة بالمسمارية المقطعية السومرية وبالأكادية واللغة هي العربية القديمة أي السريانية. وهي موجهة إلى الشمال الغربي والجنوب الشرقي بزاوية تقرب من 45 درجة على الشكل التالي:



وقد دوّن في وسط الخارطة اسم «نفر» (رقم 1)، وكتبت بالعلامات المسمارية القديمة «إنليل جي» أي إنليل المعظم. أما شروحاتها التي قام بها صموئيل كريمر فهي خاطئة كلها، إذ انطلق، كغيره، من أن الخارطة هي لمدينة «نيبور»

---

(1) كريمر، المرجع السابق، 395 ، 398 - 399 .

(نفر) التي أقامها العبيديون (أسلاف السومريين) في جنوب العراق، بينما هي خارطة للمدينة المغارة «نفر» حيث مقر الأبرار، ومجموعة المسالك والبوابات التي تقود إلى «الهاوية».

أما ما ظهر على الخارطة فهو:

1 . «إيقور» (رقم 2) وتعني: الوقور، الجليل، المهيب، المجيد، وهو معبد سيد (رب) الجبل الأول.

2 . «جي أور» وتعني سيد المغارة، إذ أن «جي» تعني في القاموس السرياني: العظيم، الجبار، المجيد، الجليل، السني، البهي، المتلألىء، المزهر.. و«أور» هي «حورا» أي المغارة.

(ولم يشرح كريمر معنى التسمية).

3 . بناء باسم «انيجينا» (رقم 4) ويعني الاسم المنجيّ، المخلّص. والكلمة من الفعل العربي القديم «أوجي» و«أنجي» (بالنون وبدونها) ويعني خلّص، نجّى، ومنه كان الاسم «أوجين» و«أونيجين» أي الناجي، الخالص. [يقول عنه كريمر إنه نوع من بناء مسوّر غير معروف الماهية].

4 . وفي موضع بعيد عند زاوية التقاء النهرين (الفرات ونن بردو) في الشمال الغربي يوجد ما يسمّى «شماك» (رقم 6) وتلفظ الكلمة أحياناً «اشماخ» إذ يلطف الكاف في اللفظ أحياناً إلى «خاء» كما عند الفينيقيين. وكلمة «اشماك» أو «سماك» في العربية القديمة تعني: المتكأ، العرش، الصف. ومثلها مسماك = متكأ، مسند، عرش، وبيت مسماك = متكأ، عرش [ويترجمه كريمر البيت الرفيع].

5 . وفي الزاوية الجنوبية الغربية توجد مساحة كبيرة كتب عليها كيريس حورو kiris hauru (رقم 5). فإن كان نقل الحروف صحيحاً عن المسمارية فإن كلمة «كِرِش» في العربية القديمة تعني: رحم، كِرش، جوف، قلب، بطن و«حورو» = المغارة [وقد ترجمها كريمر «بستان أو حديقة قلب المدينة أو الحديقة المركزية»] والحقيقة إن الكلمة التي تعني البستان أو الحديقة أو الحقل المزروع هي «قوريس» وليست «كيريس»، ثم إن الكلمة إما أن تكون «كرش» أي «قلب» أو «قوريس» أي بستان.

فكيف جمع الكلمتين في كلمة واحدة! ولما كان الموقع المقصود هو في زاوية من المغارة وليس في «قلبها» فإننا نرجح أن تكون الكلمة في الأصل هي «قوريس» أي بستان، وعليه فإن المكان هو «بستان المغارة» وهو الفردوس.

6 - ومن الشمال الغربي إلى الجنوب الغربي يمتد نهر عريض دعي «بورانن» Buranun وهو في العربية القديمة «بُحرانو» والكلمة تعني المحنة، التجربة، يوم الدينونة. وهو النهر الذي على الأرواح الطيبة أن تعبره إلى الفردوس بواسطة زورق ملاح النهر أو تهلك فيه، (رقم 7). [وقد ترجمه كريمر على أنه «الفرات». والحقيقة إن الفرات في العراق لا ينبع من الجنوب الغربي ويتجه إلى الشمال الغربي ليشكل زاوية أو نقطة التقاء مع نهر يدعى «ننبردو» كما سوف نرى!].

7 - وفي الجهة الشمالية يجري نهر دعي «ننبردو» (رقم 8). ويعني سيدة الوفرة، والاكثار، والتناسل، والتنوع. إذ «نينا» تعني السيدة، الربة، وبردو = الاكثار، الوفرة، وهو النهر الذي شهد عملية التكاثر الأولى للنسل البشري في مقر الأرباب، مما أدّى إلى عملية الطرد من الفردوس الإلهي إلى الأرض. تقول الأسطورة: إن العجوز أم ننليل اعتزمت أن تجمع بين (إنليل) وابنتها (ننليل) «وفي الوقت الذي لم يكن فيه الانسان قد خلق بعد، ويوم كانت مدينة «نفر» مأهولة بالأرباب فقط، كان فتاها (أي فتى نفر) هو الرب إنليل. فقالت السيدة لابنتها:

«في المجرى الصافي أيتها المرأة، اغتسلي في المجرى الصافي، تمشي يا ننليل على شاطىء نهر نن بردو»، فإن ذا العينين المشرقتين، إن السيد ذا العينين النيرتين «الجبل العظيم»، الأب إنليل، ذا العينين الجميلتين سيراك، إن الراعي... الذي يقدر المصائر، ذا العينين الجميلتين سيراك، وسيعانقك (؟) وسيقبلك».

فاتبعت ننليل نصائح أمها، لكنها تصدّه في البداية. فاحتال عليها، وحملها في زورق في النهر واغتصبها، فتحمل منه بالرب «سين». وعندها غضب الأرباب لهذه الفعلة، فأمسكوا بالرب إنليل ونفوه من مقر الأرباب إلى الأرض (العالم الأسفل الفاني) وتبعته امرأته. وفي الزورق عند المعابر على النهر الذي يخرج من أرض الجنة إلى العالم الأسفل «يتقمص» ثلاث شخصيات مختلفة ويتصل

بها، فتتجنب منه ثلاثة من سادة العالم الأسفل الأرضي[1].
إن هذا يؤكد أن الأحداث جرت في مقر الأرباب، في مغارة الجبل المقدس في «نفر» المغارة، وليس في «نفر» المدينة في جنوب العراق المسماة باسمها تيمناً، إذ أن الانسان العاقل لم يكن قد وجد بعد، وإن نهر «نن بردو» هو في باطن المغارة، ثم يلتقي مع نهر «بُحران» عند الطرف الشمالي الغربي ليخرجا إلى البر مكونين وادي الفرات في جبل غامد.
8. وفي وسط المغارة يجري نهر آخر من الشمال إلى الجنوب، وكأنما هو نهر تحت الجبال يظهر في المغارة ويختفي من طرفيه تحت الجبال في الشمال والجنوب، دعي «إد شا أورو» (رقم 9). وهو بالسريانية «أحدثا حورا» أي حاجز المغارة، المانع، القابض، الآخذ.... الخ. [يترجمها كريمر نهر قلب المدينة، ويدعى الآن شط النيل].
وقد رسمت على الخارطة بوابات، أو أبواب، للمغارة. ففي الحد الغربي رسمت ثلاثة أبواب:
الباب الأول، المسمّى «كاجال موسوكّاتيم» Kagal Musukkatim (رقم 10). ويعني الباب الوهمي، الكاذب. والكلمة في القاموس السرياني هي جمع «موشوكوتا» وتعني: الكاذب، الباطل، الوهمي، المجازي، عبثاً... و«موشوكايت» عبثاً، باطلاً، كذباً. [يترجمها كريمر: باب الأنجاس من الناحية الجنسية. ويقول: «لقد أشار عليّ بهذا المعنى الأستاذ آدم فلكنشتاين»!].
الباب الثاني المسمّى «كاجال ماك» (رقم 11). وتعني حرفياً: الباب الحقير، كما تعني باب «من هنا»، «هاهوذا». وهي من الكلمة العربية القديمة ماك = حقير، واطيء، منخفض، وماك = من هنا. والفعل مك = حقر، نقص، كان دون، التصق، نزّل، خفض، طأطأ. وهذا يعني أنها بوابة صعبة تضطر السالك أن يطأطيء وينخفض ويلتصق بالأرض، ويزحف، لكنها البوابة الحقيقية. [ويترجمها كريمر «البوابة السامية»!].
والباب الثالث المسّمى «كاجال جولا» Kagal Gula (رقم 12). ويعني الباب

---

(1) كريمر، المرجع السابق، ص164 – 166.

الدوّار، الذي يلتف على نفسه. والكلمة في القاموس السرياني من «جول» = جال، دار، التف على نفسه، نفى، أبعد، طرح، نبذ. [يترجمها كريمر «البوابة العظيمة»!].

وفي الركن الشرقي نجد أيضاً ثلاث بوابات:

البوابة الأولى وتدعى «كاجال نانّا» Kagal Nanna (رقم 13)،، أي بوابة الربة.

البوابة الثانية، «كاجال أرك» أي بوابة الحجر المقدس، الأصل، المبدأ، الأساس، الشرف، حجر البناء، وباسمها دعيت مدينة «أوروك» العبيدية في جنوب العراق، ثم دعيت البلاد «العراق» فيما بعد باسمها.

والبوابة الثالثة هي بوابة «كاجال أجيبي أوريشه» kagal Igibi Urishe (رقم 15)، وتعني بوابة هيكل المغارة. إذ أن «جيبي» = هيكل، و«حورا» = المغارة، و«حورشا» = مذبح. [وقد ترجمها كريمر «أي البوابة المواجهة لأور وهي مدينة أور الكلدانيين الوارد ذكرها في التوراة»!].

أما الحد الشمالي فليس فيه سوى بوابة واحدة، وهي البوابة المسمّاة «كاجال نرجال» Kagal Nergal (رقم 16). و«نرجال» أحد أرباب العالم السفلي الذي لعب دوراً مهماً في أسطورة «نزول أنانا إلى العالم السفلي». و«نرجال» تعني النار الدائرة، الفائرة، المتموجة. وتصوّر الخارطة مساحة كبيرة عريضة تغطي الجانب الشمالي تقريباً، هي منطقة النار (نرجال). وتكون، بالنسبة للداخل من الباب الصحيح، إلى يساره، والحديقة أو الفردوس إلى يمينه.

ثم ظهر على الخارطة في القسم الشمالي منطقة عريضة كتب عليها «حيريتم» (رقم 17) والكلمة في القاموس السرياني «حيريتو» وتعني: الخندق، الحفرة، الجب، الهاوية، شاطىء البحر. [يترجمها كريمر بمعنى «الخندق» وهو صحيح].

ويوجد على الحد الجنوبي، وبصورة موازية، خندق، أو هاوية أخرى شديدة الاتساع (رقم 18) كتبت عليها كلمة «حيريتّم» نفسها.

يقول كريمر: «ومن الأمور المهمة التي تلاحظ في هذه الخارطة التفاصيل التي بينت فيها القياسات والأبعاد. إذ انها على ما أخبرني مساعدي الدكتور «ادموند جوردن»، بعد درسه الدقيق، قد رسمت، في الأغلب، بموجب مقياس معين. أما القياس المستعمل في الخارطة فيحتمل كثيراً انه وحدة القياس

المسمّى «جار» Gar على الرغم من أن ذلك لم يذكر كتابة في الخارطة. وكان الـ «جار» يحتوي على 12 ذراعاً ومقداره زهاء 20 قدماً»[1].

وعلى هذا فإن الأبعاد المسجّلة على الخارطة هي:

رقم 14 : قدره في الخارطة 30 جار (وقد كتب الرقم 30 بثلاث عشرات) أي نحو 600 قدم. وهو عرض موضع «أنيجينا».

رقم 9 : الذي دوّن عرضه بمقدار 4 جار (وقد عبر عن الرقم 4 بثلاث وحدات مرسومة إلى الأعلى ووحدة أسفلها) أي نحو 80 قدماً. وهو عرض الماء الحاجز من الدخول.

وبينت المسافة بين «الباب الكاذب» والباب الصحيح «من هنا»، أي ما بين رقم 10 و 11 بمقدار 16 جار، أي نحو 320 قدماً، في حين أن المسافة بين البوابة الصحيحية (رقم 11) وبوابة التيه أو البوابة الدوارة (رقم 12) ــ التي هي أكبر بثلاث مرات ــ قد ذكرت بوجه مضبوط بمقدار 47 جار، أي نحو 940 قدماً.

إن هذه الأبعاد من شأنها أن تؤكد لنا مرة أخرى أن التي أمامنا ليست خارطة لمدينة من مدن العراق القديم، حتى أنها لا تنسجم مع خارطة لمغارة. فالأبعاد المقدرة بالـ «جار» كما افترض الشارح، لا يمكن أن تكون صحيحة حتى بالنسبة لمغارة من مغاور الجبال في بلاد غامد من شبه جزيرة العرب، التي تتسع الواحدة منها لبلد بكامله. وسنرى بعض اوصاف تلك المغاور الخاصة بأرض «الأحياء» الخالدين من خلال ما وصلنا من أخبارها عن طريق أولئك الذين جربوا الوصول إليها.

إن هذا الوصف المفصل لمغارة «نفر» يعيد إلى ذاكرتنا ما سبق أن رأيناه عند عرب وادي النيل في «كتاب العالم الأسفل» من وصف لعالم ما بعد الموت، للمغاور التي تسكنها الأرواح، لـ «الشبكة المعقدة من المسالك في مملكة الأموات»، للطرق المؤدية إلى بستان المغارة، لبحر (أو نهر) المغارة الذي يفصل طريق البر عن طريق الماء، للطرق الملتوية التي تؤدي إما إلى النار أو إلى التيه والدوران..

---

(1) المرجع نفسه، ص399 .

وهي نفسها التي توجه إليها عرب وادي النيل باسمها «نفر» موطن أوزيريس أو أرض الأبرار. وقد دون اسم نفر في وسط الخارطة (الرقم 1).
إن هذه الخارطة كانت تدّرس في المدارس السورية في الزمن السومري والبابلي. تقول الدكتورة إيفلين كلنيكل ـ براندت: «كانت الجغرافيا لا تتعدى كونها علماً مساعداً غير قائم بذاته. وكانت بعض مبادئها الأولية تدرس في المدارس، حيث تؤكد وتنظر الصورة الدينية للعالم والتي يتصورها السومريون والبابليون. كانت الأرض انعكاساً للسماء كما جاء في علم اللاهوت، وكان على الجغرافيا أن تبرهن ذلك. كانت الأرض بالنسبة للبابليين أشبه بقرص دائري يحيطه النهر المرّ مع ثماني جزر. وكانت بابل تقع على مركز الأرض. وبالاضافة إلى هذا كانوا يملكون خرائط غير عملية للمدن والأنهار والجبال. وهذه الخرائط، بالدرجة الأولى، لاهوتية تصور نظراتهم إلى العالم والكون»[1]. إن هذا القول يؤيد وجهة نظرنا ويؤكدها فيما يتعلق بتلك الخارطة.

ومن الأسماء التي أطلقت على هذه الدار في كل من سوريا ووادي النيل «دار الغرب» أو «بيت الغرب». ويفسرونها بأنها تعني جهة الغرب. والحقيقة إن اللغة العربية القديمة كانت أبجديتها تنتهي عند «قرشت»، فكانت العين تحل محلّ الغين. والكلمة هي «عربا» وتعني في القاموس السرياني: الغرب، كما تعني الغروب، الغياب، الأفول، الموت. وبالتالي فالتعبير «بيت الغرب» ليس صحيحاً، فهو «بيت عربا» في العربية القديمة، أي «بيت الغروب، الموت، الأفول» في العربية الحديثة، وفعل عرب = غرب، غاب، مات، افل...[2].
يقول أندريه إيمار: «يعيش الموتى، إذن، في الغرب، بوجه خاص. و«الغرب» هو مملكة أوزيريس تحت الأرض... ومن العبث هنا أن نرى الدقة والتلاحم في جغرافية ما وراء الأرض. فهي تلجأ إلى عبارات غامضة ومتناقضة أحياناً

---

(1) ايفلين كلنيكل ـ براندت، «رحلة إلى بابل القديمة»، دار الجليل، دمشق، الطبعة الأولى 1984، ص168.

(2) انظر القاموس السرياني.

كـ «حقل القصب» و«حقل إيلو» الذي جعل منه اليونان «حقول إيليزيه» »[1].
الحقيقة أن عدم الدقة والتلاحم ناجم عن عدم فهم المؤرخين في الغرب لحقيقة التسميات باللغة العربية القديمة. إن تفسيرهم الخاطىء وافتراضاتهم المتهورة أحدثت كل تلك الارباكات والتناقضات في فهم النصوص العربية القديمة.
ولقد ذكرت لنا المصادر أخبار عدة محاولات للوصول إلى تلك البقعة المقدسة، كانت جميعاً ترتد دون أن تصل إلى الغاية المرجوة هي: رحلة لوجال بندا، والملك جلجامش، والاسكندر ذي القرنين (وهو ليس الاسكندر المكدوني)، وحايد بن سالوم...
أما لوجال بندا فلم يتمكن من الوصول إلى «حيرتا» (المغارة)، بل داهمته الأوجاع والأسقام عند جبل «حرم» (الثعبان)، ثم قضى زمناً على صيد الوحوش البرية في تلك البلاد الجبلية دون أن يحقق شيئاً من غرضه[2].
وإن ما وصل إلينا من خلال الألواح التي دونت عليها نصوص رحلة الملك جلجامش إلى «أرض الخلود» تضعنا في صورة تلك الجبال ومغاورها أو سراديبها الموصلة إلى «أرض الأحياء» إلى حدّ ما.
«تكلم الرجل العقرب مجيباً جلجامش:
لم يفعل ابن امرأة قط ما تسأل.
ولم يدخل أحد الفانين أبداً هذا الجبل.
فطوله اثنا عشر فرسخاً من الظلام.
ليس فيه نور، بل الظلمة تعصر القلب.
من شروق الشمس حتى مغربها لا ترى النور».
وتؤكد لنا الرواية أن جلجامش لم يسمع النصيحة، بل دخل بوابة جبل ماشو، وسار في الظلام الدامس اثني عشر فرسخاً في اثنتي عشرة ساعة، من مشرق الشمس إلى مغيبها، دون أن يرى بصيص نور، حتى ألفى نفسه في بقعة الضوء، حيث كان هناك بستان الآلهة. ثم لم يتمكن من مقابلة أحد غير

---

(1) ايمار، المرجع السابق، ص104 .
(2) كريمر، المرجع السابق، ص346 .

«الشخص»، الذي يفهم من سياق الرواية، أنه مثل له دور رجل الطوفان ليرضي طموح جلجامش إلى الخلود بواسطة نبتة سرعان ما يفقدها أثناء عودته، بعد أن سلطت عليها حية وابتلعتها.

لكن المهم في الرواية هنا تصويرها للمسافة التي يمكن أن تقطع في «سراديب» ذلك الجبل والبالغة 12 فرسخاً، أي زهاء 36 ميلاً، وهذا لا ينطبق على تقدير المسافة بالـ «جار» حتى مع المغارة.

أما الاسكندر ذو القرنين فهو رجل من اليمن، كان من رجال التوحيد المرموقين في التاريخ العربي، تحدّث عنه القرآن الكريم. لكن تزويراً كبيراً جرى على أيدي المحققين والمزورين حينما خلطوا بينه وبين الاسكندر المكدوني في كل كتب التاريخ العربي. وقد سمّي بـ «ذي القرنين» لبلوغه الجبل الأقرن ذا القمتين.

يقول ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» : «فلما فرغ من أمر السدّ دخل الظلمات... فلما دخل الظلمات أخذ معه اربعمائة رجل من أصحابه يطلب عين الخلد. فسار فيها ثمانية عشر يوماً، ثم خرج ولم يظفر بها»[1].

أما كتاب «أخبار الزمان» للمسعودي الذي اعتبر أهم كتاب في التاريخ حتى عصره فقد أخفيت مخطوطاته ونسخه على أيدي المستشرقين[2]. لكن الموجز منه الذي نشرته دار الأندلس تذكر شيئاً من أخبار حايد بن سالوم الذي ذهب إلى تلك المنطقة بحثاً عن منابع نيل مصر (التي في شبه جزيرة العرب). فدلّه رجل اسمه عمران وقال له: «سر كما أنت على هذا البحر (النهر الكبير)، فإنك تصل إلى موضع فيه دابة ترى أولها ولا ترى آخرها، فلا يهولنك أمرها، فاركبها فإنها دابة معادية للشمس... فإذا ركبتها فسر راجعاً عليها حتى تنتهي إلى النيل فانزل عنها... ولما بلغ أرض الذهب رأى الماء ينحدر ليستقر في قبة ثم يخرج ويفرّق على الأنهار الأربعة. وأما ما يخرج من الثلاثة فيغيض في الأرض، وواحد يشق على وجه الأرض وهو النيل. فشرب منه واستراح ليصعد وأهوى إلى السور ليصعد، فأتاه ملك، وقال له يا حايد مكانك! فقد

---

(1) الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1983 . الجزء الأول ص162 .

(2) انظر المسعودي: «أخبار الزمان» دار الأندلس، بيروت، ص9 – 10 .

«الشخص»، الذي يفهم من سياق الرواية، أنه مثل له دور رجل الطوفان ليرضي طموح جلجامش إلى الخلود بواسطة نبتة سرعان ما يفقدها أثناء عودته، بعد أن سلطت عليها حية وابتلعتها.

لكن المهم في الرواية هنا تصويرها للمسافة التي يمكن أن تقطع في «سراديب» ذلك الجبل والبالغة 12 فرسخاً، اي زهاء 36 ميلاً، وهذا لا ينطبق على تقدير المسافة بالـ «جار» حتى مع المغارة.

أما الاسكندر ذو القرنين فهو رجل من اليمن، كان من رجال التوحيد المرموقين في التاريخ العربي، تحدّث عنه القرآن الكريم. لكن تزويراً كبيراً جرى على أيدي المحققين والمزورين حينما خلطوا بينه وبين الاسكندر المكدوني في كل كتب التاريخ العربي. وقد سمّي بـ «ذي القرنين» لبلوغه الجبل الأقرن ذا القمتين.

يقول ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» : «فلما فرغ من أمر السدّ دخل الظلمات... فلما دخل الظلمات أخذ معه اربعمائة رجل من أصحابه يطلب عين الخلد. فسار فيها ثمانية عشر يوماً، ثم خرج ولم يظفر بها»[1].

أما كتاب «أخبار الزمان» للمسعودي الذي اعتبر أهم كتاب في التاريخ حتى عصره فقد أخفيت مخطوطاته ونسخه على أيدي المستشرقين[2]. لكن الموجز منه الذي نشرته دار الأندلس تذكر شيئاً من أخبار حايد بن سالوم الذي ذهب إلى تلك المنطقة بحثاً عن منابع نيل مصر (التي في شبه جزيرة العرب). فدلّه رجل اسمه عمران وقال له: «سر كما انت على هذا البحر (النهر الكبير)، فإنك تصل إلى موضع فيه دابة ترى أولها ولا ترى آخرها، فلا يهولنك أمرها، فاركبها فإنها دابة معادية للشمس... فإذا ركبتها فسر راجعاً عليها حتى تنتهي إلى النيل فانزل عنها... ولما بلغ ارض الذهب رأى الماء ينحدر ليستقر في قبة ثم يخرج ويفرّق على الأنهار الأربعة. وأما ما يخرج من الثلاثة فيغيض في الأرض، وواحد يشق على وجه الأرض وهو النيل. فشرب منه واستراح ليصعد وأهوى إلى السور ليصعد، فأتاه ملك، وقال له يا حايد مكانك! فقد

---

(1) الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1983 . الجزء الأول ص162 .

(2) أنظر المسعودي: «اخبار الزمان» دار الأندلس، بيروت، ص9 – 10 .

انتهى إليك علم هذا النيل وهذه الجنة، والماء ينزل من الجنة... قال إني أريد أن أنظر إلى ما في الجنة، قال لن تستطيع دخولها.. قال فأي شيء هذا الذي أراه؟. قال هذا الفلك الذي تدور فيه الشمس والقمر وهو شبه الرحى... فقال ما هذه الثلاثة التي تفيض في الأرض؟ قال أحدها الفرات والثاني سيحان والثالث جيحان»[1].

ومن الواضح أن النيل المقصود هنا هو أحد الأنهار التي تنبع من مغارة الجبل المركز وتروي جنة عدن في شبه جزيرة العرب، والذي دعي النيل الافريقي تيمناً به. أما نهر سيحان فهو الذي يخرج من جبل سيحان في بلاد غامد وزهران «يمتد من الشرق مغرباً فوق وادي برحرح ووادي تربة، ويعتبر الحد الفاصل بين بني مالك وبلاد زهران.. وفوق هذا الجبل ثلاث قرى إحداها سيحان»[2]. وإن هذه «الدابة المعادية للشمس» والتي يركبها كواسطة نقل تحت الأرض، تنكرنا بقطار الأنفاق اليوم، إذ هي تمشي مسرعة في السرداب المظلم أو النفق تحت الجبال، وهذا هو المقصود به هنا بعبارة «معادية للشمس». وهذا عينه هو ما تحدثت عنه وثائق عرب وادي النيل القدامى.

يؤكد لنا «كتاب العالم السفلي» في مصر القديمة هذا التصور عينه. فهو، بعد أن يحدثنا عن شبكة المسالك الصعبة والبوابات الكثيرة الخادعة والمائية والنارية، يقسم المسير في نلك العالم إلى اثنتي عشرة ساعة في الظلام الدامس كما ورد في ملحمة جلجامش تماماً.

يقول أدولف إرمان: «وينقسم العالم السفلي ـ وفقاً لما جاء في «كتالب العالم السفلي» الذي يسمى عادة إمدوات[*] ـ إلى اثني عشر قسماً بما يوافق ساعات الليل الاثنتي عشرة. وتسمّى هذه الأقسام (الحقول) أو (المغاور). وهي آهلة بالآلهة والأرواح والموتى. وفي كل منها عادة مدينة يتولى السيادة فيها أحد الآلهة... وينتقل رب الشمس من إحدى هذه المغاور إلى الأخرى... أما الساعتان الرابعة والخامسة فتقودانا إلى منطقة غريبة إلى «السراديب أو

---

(1) المرجع نفسه، ص244 – 245 .

(2) الجاسر، المرجع السابق، ص60 .

(*) الكلمة في الأصل (إمتوت) أي عالم الأموات.

مغارات الغرب السرية»[*] حيث يسكن الإله العظيم القديم للموتى.. وحيث يسود الظلام... وهذه المنطقة صحراء رملية لا ماء فيها وتسكنها الثعابين، بحيث لابد لسفينة رع نفسها أن تستحيل ثعباناً لتجرّ خلال سرداب هو الطريق الذي دخلت منه جثة سكر، أسفل الكثيب الذي دفن فيه سكر... وفي الساعة السادسة تجد سفينة الشمس مرة أخرى مجرى من الماء وهي في هذا الحقل غير بعيدة عن جثة أوزيريس»[1]. قد يكون بعض قدامى المصريين ربطوا الرحلة في المغاور إلى العالم الآخر مع (رحلة الشمس في الجانب الآخر من الكرة الأرضية حيث كانوا يتصورون أنه في ظلام دائم». على أية حال إن ربط الرحلة إلى المغارة في الجبل برحلة رع لا يجعلنا نجزم بأن قدامى العرب المصريين إنما كانوا يعنون فعلاً رحلة الشمس ولم يعرفوا شيئاً عن المغارة. ذلك أن قبر أوزيريس ليس في الجانب الآخر من الأرض كما دلت وثائقهم نفسها، بل في جزيرة العرب، وتحديداً ــ كما مرّ معنا ــ في مغارة «نفر» نفسها. ولقد ذكروا تفاصيل أخرى كثيرة تؤكد أن المقصود في الأصل كان «المغارة» وليس الجانب الآخر من الأرض الذي يعمّه الظلام في الليل. لقد ذكروا العينين للماء في فردوس المغارة عين اللبن، وعين العسل. واستعار الكهنة مرة أخرى لفظة «حورا» أو «حور» (المغارة) إلى «حُر» أو «حورس» الرب الصقر، فقالوا: «إن الخمر عين حورس الخضراء واللبن عين حورس البيضاء»[2]. إن مثل هذه التفاصيل، مهما جرى تمويهها او ترميزها على ايدي الكتّاب أو الكهنة، تبقي امراً مؤكداً وعلى غاية من الأهمية، الا وهو وحدة الفكر والمركز في التراث العربي السوري والمصري منذ الزمن الموغل في القدم وحتى اليوم.
ثم إننا لو انتقلنا إلى ما تقوله التورراة حول الأرض الجنة وأنهارها لوجدنا: «وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً. ووضع هناك آدم الذي جبله. وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل. وشجرة الحياة في

(*) هي «عربا» وتعني الأفول، الموت.

(1) إرمان، المرجع السابق، ص264 – 266 .

(2) ادولف إرمان، المرجع السابق، ص197 .

وسط الجنة وشجرةِ معرفة الخير والشر. وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة. ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس. واسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب. وذهب تلك الأرض جيد. هناك المقل وحجر الجزع. واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش. واسم النهر الثالث حداقل وهو الجاري شرقي آشور، والنهر الرابع الفرات»[1].
وهذه الأنهار تنبع من بيت المقدس حيث العرش الذي يرمز إلى القوة الخالقة التي وقفت على حجر الـ «بن بن» على الجبل البركاني الأول، وهو الذي يذكره القرآن الكريم فيما بعد (ثم استوى على الجبل وهو دخان). ففي التوراة نقرأ في «حزقيال» ما يلي: «ثم ذهب بي إلى الباب. الباب المتجه نحو الشرق. وإذا بمجد إله إسرائيل جاء من طريق الشرق وصوته كصوت مياه كثيرة والأرض أضاءت من مجده.. فحملني روح وأتى بي إلى الدار الداخلية وإذا بمجد الرب قد ملأ البيت. وسمعته يكلمني من البيت، وكأن رجل واقفاً عندي. وقال لي يا ابن آدم هذا مكان كرسيي ومكان باطن قدميّ»[2]. «ثم أرجعني إلى مدخل البيت وإذا بمياه تخرج من تحت عتبة البيت نحو المشرق لأن وجه البيت نحو المشرق والمياه نازلة من تحت جانب البيت الأيمن عن جنوب المذبح... وقال لي هذه المياه خارجة إلى الدائرة الشرقية وتنزل إلى العربة وتذهب إلى البحر... ويكون أن كل نفس حية تدب حيثما يأتي النهران تحيا ويكون السمك كثيراً جداً لأن هذه المياه تأتي إلى هناك فتشفى ويحيا كل ما يأتي النهر إليه... وعلى النهر ينبت على شاطئه من هنا ومن هناك كل شجر للأكل لا يذبل ورقه ولا ينقطع ثمره. كل شهر يبكّر لأن مياهه خارجة من المقدس ويكون ثمره للأكل وورقه للدواء»[3].
وإذا ما علمنا «أن مطلق كلمة نهر أو موصوفاً بالكبير في كل نصوص الكتاب المقدس يُقصد بهما نهر الفرات» فإن هذا النهر الذي يخرج من بيت المقدس هو نهر الفرات في بلاد غامد من جزيرة العرب. وهو يخرج إلى «عربتْ» أي إلى برية العرب (الصحراء) إلى الدار الفانية وليس إلى البحر الميت الذي أطلقوا

(1) سفر التكوين 2 : 8 – 14 .
(2) حزقيال 43 : 3،2،1 .
(3) حزقيال 47 : 12،2،1 .

عليه «بحر عربة» في التزوير، والبحر الميت لا يشفي ولا يُحيي ولا ترى فيه الأسماك لأنه على العكس يقتل كل ذي نفس حية لشدة ملوحته، هذا بالإضافة إلى أنه لا يخرج لا نهر الفرات ولا غيره من مدينة القدس في جنوب سوريا ليتجه إلى المشرق ثم إلى البحر[1].

ولقد أكد تلامذة السيد المسيح على المدينة المقدسة في المغارة المقدسة حيث منابع نهر الفرات. ففي «رؤيا يوحنا» نقرأ: «ثم بوّق الملاك السادس فسمعت صوتاً واحداً من أربعة قرون مذبح الذهب الذي أمام الله قائلاً للملاك السادس الذي معه البوق: فكّ الأربعة الملائكة المقيّدين عند النهر العظيم الفرات»[2]

أما القرآن الكريم فلقد أضاف تفصيلاً جديداً حول جغرافية الأرض المقدسة حينما ذكر لنا أن موسى كان في «وادي طوى» تحديداً من الأرض المباركة حينما تجلّى له الرب في نار العليقة المشتعلة على جبل العلّيق (طوروسيني).

وإن «وادي طوى» هو الذي يرفد وادي كارا الذي يرفد بدوره وادي الفرات شرق بلاد غامد قرب العقيق من شبه جزيرة العرب، وليس في الوطن العربي كلّه أي واد آخر يحمل هذا الاسم غيره رغم ظاهرة تكرّر الأسماء الجغرافية ولاسيّما المقدسة منها، وهو ما يزال على خارطة المنطقة حتى يومنا هذا.

الجبل «المركز» في مناطق الانتشار

ولقد حمل العرب السوريون معهم تراثهم المقدس، ونشروا أسماء المناطق العربية المقدسة في شتى مواقع انتشارهم.

ففي بلاد اليونان فتش السوريون، كعادتهم عن الجبل الذي يمكن أن يتشابه في بعض مواصفاته مع الجبل الأول المركز، الذي شهد الخليقة والنور لأول مرة على الأرض، وسكنته الآلهة، وكان لابدّ من إقامة الاحتفالات الدينية عنده، وخاصة عيد المهرجان الكبير الذي هو عيد بدء الخليقة، ولما كانت المسافات

---

(1) من أجل مزيد من التفاصيل راجع كتابنا الثاني «العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود».

(2) رؤيا يوحنّا: 9 : 13, 14 .

الشاسعة تزداد شساعة كلما أوغل أولئك السوريون المولعون في المغامرات والأسفار في الانتشار، فتنأى بهم عن بقاعهم المركزية المقدسة، فكان لابدّ من خلق البدائل بالتمثيل. لقد عثروا في بلاد اليونان على منطقة دعوها «فوقي» (أي الفوقية، الفوقانية، التي فوق، أعلى) Phocis على جبل تتوفّر فيه تلك الصفات التي تجعله جديراً بالقيام بدور البدل للجبل المقدس في تراثهم العربي القديم، إنها تمثيل لجبال «السراة».

فقد وجدوا أن الجبل بركاني، كان ما يزال الدخان ينبعث من بعض جوانبه، فأطلقوا عليه الاسم التقليدي لجبل البركان الأول، (الموقد، أو الفرن، أو التنور) ـ كما سبق أن رأينا ـ ودعوه «جبل فُرنا» و«فُرنا» بالعربية الفينيقية تعني الفرن، التنور، الموقد، وهو كناية عن البركان. فصار اسم الجبل حتى هذا اليوم جبل «فُرناس».

ولما كان الجبل المقدس في التراث العربي القديم مركزاً للعابدين وللأرباب ولتلقي الوحي، فقد أقام السوريون في سفح ذلك الجبل مركزاً لتلقي الوحي والعرافة والنبوءات دعوه «ديلفي».

وإذا علمنا أن «د» كانت تدخل في العربية القديمة (السريانية والفينيقية) على الأسماء للتعريف أو للاضافة، فإن «يلفي» تعني العرّاف، الحكيم، النبي، البصير، المخبر، المعلّم.. وهي في القاموس السرياني هكذا: يلِف = علم، عرف، فهم، علمّ، اخبر، عرّف، دلّ، فقّه، درب. يلوف = متعلم، تلميذ؛ يليف: عالم، عرّاف، علامة، حكيم، نبي... الخ.

وإن الجبل المقدس في التراث العربي هو الجبل البركاني الأول الذي ظهر فوق سطح الأرض بمثابة المركز أو السرة، وإن الكلمة العربية القديمة للبركان هي «فلقو» و«فلقانو» وهي من الفعل العربي القديم (في السريانية والفينيقية) «فلق» و«فلج» وكان منها فلاقو = المعول، الفأس الذي شق به إنليل قشرة «البيضة» (الأرض) ليخرج الكائنات ومن كلمة «فلقانو» جاءت الكلمة في اللغات الأوروبية Vulkan = بركان. وفي قاموس «محيط المحيط» نجد ن «فَلَق» الله الصبح أي شقّه ليكشف الظلام. وفي سورة «الأنعام» «فالق الحب والنوى» أي خالقه أو شاقه بإخراج الورق منه. والفالقة المطمئن من الأرض بين ربوتين. (وهذا ما يذكرنا

بالجبل ذي القمتين أو القرنين). والفلَق الصبح أو الفجر أو الخلق كله (لنلاحظ ارتباط الفلق أو الشق أو البركان بعملية الخلق). وفي سورة الفَلَق ﴿ قل أعوذ برب الفلَق ﴾ قيل هو الصبح وقيل جهنم أو نار البراكين، وقيل هو الخلق كله. والفلَق أيضاً جهنم أوجبٌ فيها والمطمئن من الأرض بين ربوتين (لاحظ وجود جهنم في النفق البركاني الذي أسج الجبل البركاني نفسه، وهي نفسها الهاوية).

إن ارتباط كلمة «الفلق» بالبركان، وبعملية الخلق، وبالضوء الذي شعّ في كل الأرجاء عند بدء الخليقة، وبالمركز، وبجهنم، وبالجبل ذي القرنين جعلت كلمة «فولقو» أو «فولقانو» (الفالق) العربية القديمة تتخذ منحيين في المعنى في بلاد اليونان: الأول، فولقان Vulcan (البركان)، والثاني «فولق» Pholos (القطب، المركز)، والتي انتقلت إلى كل اللغات الأوروبية الأخرى فيما بعد لتصبح Polus (القطب، المحور، المركز) إذ أن العرب الأقدمين كانوا يلفظون الفاء P في كثير من الأحيان.

ولما كانت القوة الخالقة قد اعتمدت الترميز 4^3 في عملية الخلق أي الوحدة الخلقية المثلثة ذات الأربعة ابعاد، فقد كان الشكل المثلثي الهرمي هو التعبير عنها. إنها الحجر المقدس، حجر البناء الـ «بن بن» وهي التي صارت ترمز إليها فيما بعد «الصخرة المقدسة» التي تبنى عليها بيوت الله المقدسة، وهي مربعة القاعدة. إنها الكعبة. وبناء على هذا فقد كان لابدّ من نقل هذه «الشيفرة» إلى مواقع انتشارهم الجديدة في شبه جزيرة المورة بصورة من الصور.

يقول ول ديورانت في مؤلفه «قصة الحضارة»: «بعد أن يغادر الإنسان قيرونيا مدينة فلوطرخ يصعد وهو يعرض حياته للخطر فوق اثني عشر ميلاً، يلتقي عند آخرها بـ «فوقي» Phocis ، ثم يصل عند سفح جبل فرناس نفسه إلى دلفي مدينة اليونان المقدسة.. وعند منعطف في الطريق يلتقي السائح بنبع كستاليا Castalia في خانق بين الصخور العمودية.. ومن فوقها قمتا فرناس التوأمتان حيث سكنت ربات الشعر.. ولم يكن هؤلاء اليونان يشكون في أن من تحت هذه الصخور إلهاً رهيباً. وكثيراً ما زلزلت الأرض في هذا المكان وقذفت الرعب في قلوب الفرس النهابين، ومن بعدهم بمائة عام في قلوب الفوقيين النهابين، وبعد

مائة عام أخرى في قلوب الغاليين النهابين. وكانت الزلازل في اعتقاد اليونان من فعل الإله يحمي بها قراره. وكان العبّاد المتدينون يؤمون هذا المكان من أقدم الأزمنة التي تتحدث عنها التواريخ اليونانية ليجدوا في الرياح التي تهب بين الأخاديد، أو الغازات التي تنبعث من باطن الأرض، صوت إلههم وإرادته، وكانت الصخرة العظيمة التي تكاد تسدّ الفتحة التي تنبعث منها الغازات وسط بلاد اليونان كلها، ومن ثم كانت، في اعتقاد الأهلين، هي سرة العالم أو أمفالوسه Omphalos كما كانوا هم يسمّونها. وقد شادوا فوق هذه السرّة مذابحهم لـ «جيا» أمهم الأرض في الأيام القديمة، ثم لأفولو (ابولو)[*] مالكها الأرهر فيما بعد. وكانت تحرس الأخدود في الزمن القديم أفعى رهيبة فتصد عنه الرجال حتى قتلها أبولو بسهم وأصبح هو أبولو البيوثيين الذي يعبد في هذا الضريح..

وفي وسطها كلها شيد ملهى مواجه لجبل فرناس ليذكر الناس أن التمثيل كان في اليونان أصلاً من أصول الدين. وكان يعلو فوق هذه كلها ملعب يمارس فيه اليونان أحب الشعائر إليهم وهي عبادة الصحة والشجاعة والجمال والشباب.

وفي وسعنا أن نتخيل منظر هذا المكان في عيد أبولو، فنصور لأنفسنا الحجاج المتحمسين يزحمون الطريق الموصل إلى المدينة المقدسة»[1].

لابدّ لنا من التوقف قليلاً عند بعض أهم النقاط التي وردت في هذا النص:

1. فمن جهة شرح معاني الأسماء الواردة، كنا قد شرحنا معنى «فرناس» (الفرن والتنور، والسين إضافة إلى نهايات الأسماء)، و«فوقي» (الفوقية) و«فالوس» التي هي تحوير عن «فالقو»، وقد أضيف «الميم» في أولها لابتدائها بصوت شفوي هو الفاء. وكنا في حديثنا عن اللغة قد شرحنا كيف أن العرب الأقدمين (السريان والفينيقيين) كانوا يضيفون في تعريف الأسماء المبتدئة بصوت شفوي كالفاء والباء الصوت «ام» لمناسبته.

أما الاسم «كستاليا» فهو في العربية القديمة «قسطاليا» ويعني جرة الربة. وقد

(*) أبولو. هي بالفينيقية اف إيلو = وجه الله. الله مجسداً.

(1) ديو رانت، المرجع السابق، المجلد 5 – 6، حياة اليونان، ص193 – 195.

كانت مغارة الربة عشتار، التي هي الأم الكبرى والسيدة العذراء، مقترنة دائماً بوجود عين الماء تتفجر من أعماقها. فصورها العرب الأقدمون بصورة «عذراء» تحمل جرّة عند سرّتها (دلالة على المركز) تتدفق منها المياه. ودعيت «حورانينا» أي مغارة الربة. وفي القاموس السرياني نجد «قسطا» تعني الكوز، الجرة، و«آليا» تعني الربة. وما نزال حتى اليوم نستخدم كلمة «قسطل» للدلالة على عين الماء الجارية، من حوض جوفي يمثل جرة الربة، أما صاحب «محيط المحيط» فيقول: القسطل عند المولدين أنبوب من الخزف أو غيره يجري فيه الماء. والحقيقة إن ما اعتدنا على تسميته بالأعجمي والمولّد في الكلام لم يكن غير العربية القديمة السريانية والفينيقية غير المعربة، أي التي لم تخضع لحركات الاعراب التي تطورت إليها وفيها العربية العرباء فيما بعد، وكنا قد شرحنا ذلك قبلاً.

ولقد انتشرت تسمية «جبل المغارة» مع العرب السوريين بصيغ مختلفة. ففي ايطاليا أيضاً نجد أنهم أطلقوا على الجبل الذي وجدوا فيه تمثيلاً للجبل المركز اسم «طورشيلو»[1]. والتسمية عربية قديمة، إن «طورو» (بالسريانية) و«طورا» (بالفينيقة) تعني الجبل. و«شيلو» في القاموس السرياني تعني المغارة. فالتسمية تعني جبل المغارة. والعالم الفيزيائي «طوروشيلي» اكتسب كنيته نسبة إلى ذلك الجبل.

لقد كنا قد تحدثنا مفصلاً عن مغارة السيدة (حوارنينا) في كتابنا الثاني، وذكرنا كيف أن تلك المغارة هي سرّة الأرض في الجبل المركز التي تتدفق منها المياه مكونة أنهار الخصب التي تروي جنة عدن.

يقول جوزيف كامبل: «وخلال العصر النيوليتي نضجت في سوريا الرموز التشكيلية الخاصة بالأم الكبرى.. ومنها انتقلت إلى الثقافات الأخرى، فانتقلت أولاً إلى كريت، ومن هناك نقلتها السفن عبر مضيق جبل طارق شمالاً حتى الجزر البريطانية وجنوباً على طول الشاطىء الأفريقي. ومن كريت أيضاً إلى

---

(1) روسّي، المرجع السابق، ص256 .

مكيناي(*) وهي أول مدينة متحضرة على أرض اليونان. ومن موكيناي تخللت الثقافتين اليونانية والرومانية. ومن الهلال الخصيب وصلت مجموعة الرموز هذه إلى مصر منذ مطلع الألف الرابع قبل الميلاد، وكذلك اتجهت شرقاً نحو آسيا حتى اقصى بقاع المعمورة جنباً إلى جنب مع الديانة العشتارية»(1).

ويقول نيومان: «ومنذ أن تعلم الإنسان النيوليتي (في سوريا) صناعة الجرار الفخارية انضم الإناء الفخاري إلى جملة رموز الأم الكبرى.. والسرّة هنا ذات قيمة رمزية كبيرة، لأن سرّة عشتار هي مركز الكون، ومعبدها هو سرّة الأرض»(2).

2 . نلاحظ الاعتقاد لدى الأهلين بأن المكان محروس بقوى خفية تحرّك الزلازل والبراكين. إن هذه الصورة عينها هي التي صوّرتها لنا الأساطير العربية السورية القديمة، وانتقلت مع السوريين إلى بلاد المورة. فعندما وصل جلجامش إلى جبال «ماشو» تصفها لنا الأسطورة على النحو التالي:

«قمتاها ترتفعان مثل جدار السماء،
وجذورها تغوص عميقاً حتى العالم السفلي،
على بوابتها تقف العقارب للحراسة،
نصف العقرب إنسان ونصفه الآخر تنين،
عظمتها تثير الرعب،
ونظرتها تبعث الموت في البشر» (من ملحمة جلجامش).

وقد دعي (الوحش البركاني) في ملحمة جلجامش «حواوا» أي الحية، الثعبان، شيء شبيه بالحية [انظر القاموس السرياني].

«لقد عيّن إنليل حواوا لحراستها وسلّحه بسبعة ألوان من الرعب،

(*) الكلمة عربية فينيقية تعني الحذائين، صانعي الأحذية، وهي من الكلمة موقو = حذاء. وقد تحولت القاف في اللاتينية إلى C لوقوعها قبل Y فصارت مسّينا. «ساو» بالفينيقية والسريانية تعني أحذى، ألبس حذاء، و«مسيني» صانعو الأحذية. ومنها Shoe الانكليزية التي تعني حذاء، وأحذى.

(1) Joseph Campbell, Primitive Mythology, P. 143 .

(2) Erich Neumann, The Great Mother P. 120, 163 - 164 .

رهيب لكل ذي لحم هو حواوا،
عندما يزأر يكون صوته كهدير العاصفة،
انفاسه النار وأنيابه الموت بعينه»
وهي الحية، أو «الفلق» (أي البركان) تحت جبل قاف في «ألف ليلة وليلة».
3 . لقد جسد العرب القدماء حجر الأساس الذي حطت عليه القوة الخالقة أو الصخرة المقدسة، أو الكعبة، في هيئة حجر مقدس أُحضر من السماء، واتخذوه في كل مكان من مواقع انتشارهم ليمثلوا فيه الجبل المركز ومغارة السيدة أو الكعبة أو «التيمن» (القبلة). ففي معبد الشمس بالكرنك في وادي النيل تجلّى هذا التقليد، وصار أهم شيء في المعبد هو حجر «بن بن» الذي يمثل الصخرة التي طلعت عليها الشمس قديماً»[1].
ولقد كان في معبد الشمس في حمص حجر مقدس كان لابدّ من وجوده. وحينما امتلك السوريون زمام الحكم في روما لعدة أجيال متعاقبة نقلوا ذلك الحجر من حمص إلى روما وأرغموا السكان الأصليين على تقديسه هناك لأن الرب الشمس قد انتقل إلى هناك[2] . وحينما زوّرت جغرافيا الأحداث التوراتية لأول مرة في عهد قسطنطين البيزنطي كان لابد من «إيجاد» صخرة لتحمل صفة التمثيل للأصل والقداسة. وحينما انتقلت الكعبة التي هي «كابا» أو «كابتا» في العربية القديمة (وتعني الصخرة، حجر اللازورد، القاعدة، المركز) فقد جيء إليها بالحجر الأسود.
4 . أما أبولو الذي وصف دائماً بالـ «أزهر»، المضيء، المشع، رامي السهام، فليس إلا تمثيلاً للقوة الخالقة التي خرجت من الماء، وأضاءت الكون حينما حطت على الحجر، الصخرة، الكعبة في الجبل، فتماوهت مع الشمس في تلك اللحظة، وصارت في وادي النيل «رع» نفسه، وفي سوريا «شمش»، ثم طارت من على الصخرة أو حجر الـ «بن بن» فتمثلت في التراث العربي القديم كله في هيئة شمس مجنحة انتشرت في كل أرجاء الوطن العربي القديم وكريت وإيطاليا

---

(1) ادولف إرمان، المرجع السابق، ص131 .
(2) جان بابليون، المرجع السابق، ص16 .



آشور، وقد تقمص نسر الخصب (حدد)



اهورافردا صار تجسيداً لنسر الخصب السوري (حدد)

واليونان وبقية أصقاع أوروبا، وشرقاً إلى الهند. أما صيغة الاسم العربية الفينيقية فهي «أفوإيلو» وتعني وجه الرب. والفاء كانت تلفظ P .

ثم إن الاسم الآخر للجبل الذي حمله العرب السوريون معهم إلى كل مناطق انتشارهم فهو جبل «حيدا». وكنا قد شرحنا معنى الكلمة.

ففي كريت: «كان لكريت جبل مقدس ذو ينابيع يسمَى جبل إيدا»[1] . وفيه كهف يدعى كهف كوماري[2] . «وكوماري» في القاموس السرياني تعني الكهنة، المخصبين، جمع كومارو. وكومرتا = كاهنة، ناسكة. فيكون معنى اسم الكهف كهف النسّاك أو المتعبدين، إنه الاسم نفسه، الذي أطلق على المغارة بجوار الجبل المركز المقدس، فدعيت «حوارشليم» (أورشليم) أي مغارة المتعبدين، وهي في بلاد غامد من جبال السراة في شبه جزيرة العرب.

ولقد صار ثابتاً اليوم لدى كل الباحثين المنصفين أن كريت القديمة سورية (أوفينيقية) بمجملها. يقول ول ديورانت: «كان اليونان يسمون الكريتيين الفونيقيين»[3] .

ولقد نقل السوريون إلى كريت ـ كما إلى غيرها ـ كل رموزهم المقدسة. «فقد قدس الكريتيون الجبال والمغارات والعدد 3»[4] .

وإذا ما علمنا ـ ومن خلال الانيادا نفسها ـ أن أسرة فريام الطروادية تنتهي إلى جدهم دردانوا الذي جاء من فينيقيي كريت وينتسب بدوره إلى طفقير الصوري، عرفنا وحدة الشعب والثقافة والتقاليد.

وكان الكاهن عنيا (إنياس الطروادي «يسير في سفينة في المقدمة وعلى مرنحتها نقش أسدان فوقهما صورة ربة إيدا»[5] .

وفي طروادة السورية كان جبل إيدا في سهل إليون هو الجبل المقدس الذي تقام عنده المهرجانات والأعياد[6] .

وحين مرّ «عنيا» الكاهن بجماعته من قرطاجة إلى صقلية وايطاليا لقيته في الطريق حوريات قلن لهم «نحن صنوبرات إيدا»[7] .

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، المجلد 5 - 6 ، ص71 .

(2) المرجع نفسه، ص35 .

(3) المرجع نفسه، ص20 .

(4) المرجع نفسه، ص28 .

(5) فرجيل، الأنيادا، ص208 .

(6) المرجع نفسه، ص208 .

(7) المرجع نفسه، ص209 .

ومن المعلوم أن الربة السورية عشتار هي المقصودة، فقلّما وجدت مصورة إلا ومعها أسدان، وهي عشتار الجبل، وشجرتها شجرة الصنوبر التي هي شجرة عيدها.

ومن أسماء جبل البركان أيضاً في مناطق انتشار السوريين «انقيلادو» ويعني: زفير الجحيم. والتسمية عربية فينيقية مؤلّفة من كلمتين «انقي» = النافث، الزافر، الأنّان، المتأوه، المتوجع، وهي في القاموس السرياني من الفعل انقْ = انّ، زفر، توجّع، تقلّب من الألم. انقوي = أنّان، كثير الآنين والزفير. و«آدو» هي «عديو» = جب، هاوية. ذهبت عن طريق اليونان إلى اللغات الأخرى، فهي بالروسية ad = جحيم، هاوية.

لقد أطلق الفينيقيون هذه التسمية على جبل «اتنا» (التن = الدخان) في صقلية الذي كانت هذه حاله. فهو ما أن تخمد ثورته حتى يبقى يحشرج في أعماق الأرض تحت جبله البركاني وكأنما مغلول يتلوّى في سجنه من الألم. ففي إنيادة فرجيل نقرأ عن «عنيا» الكاهن الطروادي وجماعته:

«هنالك القوا مراسيهم في ميناء حُمي من هبوب الرياح المختلفة. ولكن «أتنا» كان يزمجر الليل بطوله زمجرة هائلة، ويقذف سحباً من الدخان الزفتي وحمماً حارة كالنيران، ويقول الناس بأن «انقي لادوس» الجبار يجثم تحت هذا الجبل. وهو يُصلي بصواعق جوبيتر فيخرج منه هذا اللهب. وحينما كان ينالُه التعب ينقلب من الجانب الواحد إلى الجانب الآخر. كانت أرض القلانس الثلاث تصاب بهزة ترجها رجاً. واضطجعوا تلك الليلة بطولها يعروهم الخوف الشديد، ولا يعلمون لهذا الصخب سبباً»[1].

إن هذا الوصف يضعنا مرة أخرى، أمام فهم السكان الأصليين للتسميات العربية القديمة فهماً خرافياً. إنهم كانوا ـ كما قالوا فيلون الجبيلي ـ يأخذون الجانب الخرافي فقط.

---

(1) المرجع نفسه، ص54 – 55.



الحلقة الرابعة

«المركز» وعقيدة التوحيد



لقد درجت أجيالنا على اعتبار كل ما صدر عن الباحثين في الغرب، حتى من نظريات متهورة ومرتجلة «علماً»، لاسيما تلك القائلة بأن العبادة تطورت من الأشياء والظواهر المحيطة بالإنسان، إلى عبادة النجوم والكواكب، إلى العبادة التوحيدية لإله خالق واحد مجرد منزّه عن كل شيء. ودرج الباحثون جميعاً على ترداد تلك المقولة الخاطئة التي فحواها أن العرب الأقدمين في سوريا ووادي النيل، كانوا يعبدون آلافاً مؤلفة من الآلهة جمعت الحيوان والإنسان، الشجر والحجر، الآباء، والأجداد، الشمس والقمر والنجوم، الماء والنار، والسحاب... وأن الإنسان لم يعرف التوحيد إلا مع موسى.. إن هذه النظرة قائمة في أساسها على جهل عميق بالتراث العربي، ويدحضها ليس فقط تراثنا الفكري والديني المدوّن والمعروف، بل وجميع المكتشفات الآثارية في كل من سوريا القديمة ووادي النيل.

1 . **في سوريا:**

وتسمية «سوريا» هي التسمية الحقيقية التاريخية التي كانت معروفة ومتداولة لكل البلاد الممتدة من البحر الأعلى (الأسود) إلى البحر الأسفل (بحر العرب) منذ الألف الثاني قبل الميلاد على الأقل.

وقد أشرنا من قبل إلى ما أورده هيرودوت وغيره بهذا الشأن، وحسبنا هنا أن نضيف لأولئك الذين ما زالوا ملتزمين بأوامر المؤسسات الاستشراقية المغرضة والاستعمارية بإزالة اسم «سوريا» من التاريخ ليملأوا المنطقة بعشائر بدوية من التوراة، أن أناشيد التسبيحات التي عثر عليها في قبر الكاهن «آي» في مدينة أخناتون (تل العمارنة حالياً) في وادي النيل ذكرت «سوريا» وحدها لتدل بها على آسيا[1]، ولم تستخدم أي اسم آخر من الأسماء التي أقحمت قسرا على تاريخ المنطقة وجغرافيتها.

إن التراث العربي الديني، الذي هو أقدم تراث على هذا الكوكب، يؤكد بمجمله على أن عقيدة التوحيد هي الأصل، وقد بدأت مع أول إنسان عاقل الذي هو آدم

---

(1) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص129 .

(الإنسـان العـاقل الأول)، ثم استمرت في أجيال كثيرة قبل آخر آدم (من البن والجن وغيرهمـا)، ثم في ولد آدم الرسول مروراً بها بيل، وشيث، وادريس (الذي هو تحوت، وهرمس، وأخنوخ) ونوح، وسام، وهود، وصالح، قبل أن تصل إلى إبراهيم العربي الآرامي وإلى ذريته من بعده بآلاف السنين.

لقد اكد القرآن الكريم هذه الحقيقة التراثية العربية، وهي أن التوحيد هو دين الفطرة التي فطر عليها الإنسـان منذ آدم الإنسان الأول: ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفـاً فطـرة الله التي فَطَـرَ النـاسَ عليهـا، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيّم، ولكنّ اكثر النـاس لا يعلمون ﴾[1]. ولقد اكدتها كتب التراث والتاريخ، ثم جاءت المكتشفات الآثارية لتسقط أخيراً كل ما بقي من ذرائع لنكران هذه الحقيقة.

المندائيون والتوحيد:

ذكرنـا في كتـابنـا السـابق (العرب والسـاميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهـود) أن الأرض المقدسـة التي وجد فيهـا آدم، وأول بيت وضـع للناس، وعاش فيهـا أبنـاء آدم، ومغـارة السيدة العذراء عشتار (حوارنينا)، ومغارة المتعبدين (حوراشليم = أورشليم)، وحيث رست سفينة نوح، وحيث جنة عدن، وأنهـارهـا التي تخـرج من مغـارة بيت المقدس في أعلى الجبل، ومنهـا وادي الفرات، وحيث وادي طوى، وطور سينـا (جبل العليقة)... إنهـا جميعاً في بلاد غامد من جبال السـراة في شبه جزيرة العرب، وذكرنـا أن «غـامد» هي تسمية عربية قديمة «جاميدا» أي أرض الخلاص، السلام، النجاة، المعرفة، لأن «ميدا» و«مندا» تعني كل هذه المعـاني بالاضـافة إلى أنها تعني المخلّص، المنقِذ أيضاً.

ولقـد دعي «المندائيـون» بهذا الاسـم نسبـة إليهـا، وقد كـانـوا يجـاورون بيت المقدس هنـاك حيث ينبـع نهـر الفـرات (يكتب أحيـانـاً «الثرات»). وظلـوا هم الـوحيدين الذين يزعمـون أنهم اقتبسوا تعاليمهم التوحيدية من الكتاب الذي أنزل على آدم الرسول والذي اسمه الكنز (وبالعربية القديمة جنزا =كنز) وهو الـذي أخفي في المغـارة المقدسـة ودعي كنـز المغـارة (جنـزيـرا)(*) وأصلهـا

---

(1) سورة الروم 30.

(*) جنزيرا: مركبة من كلمتين عربيتين قديميتين: جنز = كنز، و«حيرا» = السيدة، الربة، والمغارة.

«جنزحيرا» لكن صوتي الحاء والعين كانا يختفيان في السريانية القديمة التي تكلم بها وحافظ عليها المندائيون حتى اليوم.
إن جنوب بلاد غامد من جبال السراة هو الموطن الأصلي لأولئك المندائيين، ممّا جعلهم يتوجهون في صلواتهم إلى الشمال العالي حيث بيت المقدس في المغارة المقدسة منبع الأنهار التي تروي جنة عدن ومن بينها الفرات. ثم إنهم اضطروا في حقب من حقب التاريخ إلى النزوح شرقاً عند ضفاف الفرات (الثرات) ورنيا عند حرّان الآرامية شرق غامد (وليست حرّان على الفرات في الشمال السوري)، ومن هناك تابعوا الرحيل شرقاً إلى جنوب العراق الحالي حيث ما زالوا إلى اليوم.
ومن الأسماء التي ألصقت بهم «الصابئة» وهي من الكلمات العربية القديمة «صبع» = صبغ، تعمدّ بالماء، اغتسل، تطهر، وهي بالمندائية التي تحذف العين لفظاً وكتابة «صبا» لأن التعميد أو التطهير بمياه الرب الحي «حيا» في المغارة المقدّسة هي من طقوسهم الأساسية ويدعونها «يردن» أو «أردن» جمع يردا = أو «رديا» ماء التطهير. وقد تحدثنا عنها مفصلاً في كتابنا (العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود) وهذا التعميد أو «الصبغة» هو الذي عرض له القرآن الكريم، وجعل الإيمان بالله الواحد هو «الصبغة» أو «العماد» الوحيد.
وتجدر الإشارة هنا إلى أن الصابئة أو المندائيين لا يمتون بصلة عقائدية إلى «الحرّانيين» الذين كانوا في حرّان في شمال سوريا زمن المأمون، والذين انتحلوا اسم «الصابئة» وقاية. تقول الرواية: «إن المأمون اجتاز في آخر أيامه بديار مضر (يريد شمال سوريا لغزو الروم) فتلقاه الناس يدعون له وفيهم جماعة من الحرانيين، وكان زيّهم إذ ذاك لبس الأقبية، وشعورهم طويلة بوفرات.. فأنكر المأمون زيّهم، وقال لهم: من أنتم من الذمة؟ فقالوا: نحن الحرانية. فأل: أنصارى أنتم؟ قالوا: لا. قال: فيهود أنتم؟ قالوا: لا. قال: فمجوس أنتم؟ قالوا: لا. قال لهم: افلكم كتاب أم نبي؟ فجمجموا في القول. فقال لهم: فأنتم إذن الزنادقة عبدة الأوثان.
وتستطرد الحكاية فتقول إن المأمون خيّرهم بين أن ينتحلوا دين الإسلام أو ديناً من الأديان التي ذكرها الله في كتابه وإلا قتلهم عن آخرهم. ولذلك عمد

هؤلاء القوم إلى شيخ لهم من أهل حران فقيه فقال لهم: لقد وجدت لكم شيئاً تنجون به وتسلمون من القتل، إذا رجع المأمون من سفره فقولوا له: نحن الصابئون، فهذا اسم دين قد ذكره الله جلّ اسمه في القرآن، فانتحلوه، فأنتم تنجون به. وانتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت، لأنه لم يكن بحرّان ونواحيها قوم يسمّون بالصائبة»[1] .

إن في هذا تأكيداً على أن الصابئة هم غير الحرّانيين، فالصابئة ذكرهم القرآن الكريم، وهؤلاء انتحلوا الاسم زمن المأمون.

ويتحدث الفيلسوف العربي «الكندي» عن الصابئة الكلدانيين (والكلدانيون هم سكان بابلون على الفرات في شبه جزيرة العرب لا في العراق) بأنهم أهل توحيد حقيقي لا يشك فيه. وممّا أورده عنهم «أنه نظر في كتاب يقرّ به هؤلاء القوم، وهو مقالات في التوحيد، على غاية من التقانة في التوحيد، لا يجد الفيلسوف إذا أتعب نفسه مندوحة عنها والقول بها»[2] .

ولقد ذكرهم القرآن الكريم جنباً إلى جنب مع أصحاب الكتاب في عدة مواضع: ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[3] . ويعلق الدكتور جواد علي على هذا قائلاً: إن ورود الصابئة في الآيات الشريفة وبالشكل الذي رأيناه ليدل على أن القرآن الكريم يعتبرهم من الفئات المؤمنة بالله واليوم الآخر، مثلهم في ذلك مثل اليهود والنصارى[4] .

والصابئة المندائيون اتبعوا تعاليم آدم وشيث وإدريس في التوحيد والعبادة. لقد ورد في افتتاحية كتابهم الكبير الذي يدعى «سيدرا آدم» (أي باب آدم) أو «كنزا ربا» (الكنز الكبير):

---

(1) الفهرست لابن النديم، ص445 وما بعدها. و : ناجية مراني، المرجع السابق، ص83 .

(2) الفهرست لابن النديم، ص442 – 445 .

(3) سورة المائدة 69.

(4) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، الجزء 6 ، ص701 – 704 .

في الليل.

...

لا تسجدوا للشيطان الرجيم ولا
تهبوه حبكم، إذ من يسجد
للشيطان يكن مصيره النار

...

ولا تأكلوا ولا تشربوا من هياكل
الكواكب والأبراج فكلها دنس
ومكر.

...

لا تسبّحوا للكواكب والأبراج
ولا تسبّحوا للشمس والقمر
المنورين هذا العالم فإنه هو
الذي وهبهما النور
هذا هو الصوت الأقدم الذي
وهبناه آدم أبا البشر. فسجد
وسبح لملك الأنوار العلي
الله، ربنا تعالى، سبحانه ملك الأنوار
العلّي»[1].

ولقد ذكر الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» أن الصابئة الأولى الذين قالوا بأديمون وهرمس، وهما شيث وإدريس لم يقولوا بغيرهما من الأنبياء»[2].

---

(1) من افتتاحية كتاب آدم أو الكنز الكبير، مكتبة المتحف العراقي، بغداد، رقم 1440؛ و: ناجية مراني، المرجع السابق، ص11 - 23؛ والكتاب مترجم إلى الألمانية تحت اسم «جنزا» (الكنز) انظر: M. lidzbarski, Ginza, der Schatz Oder das grosse Buch der Maudaer, Gottingen, 1925, 5 - 30.

(2) الملل والنحل للشهرستاني، المجلد الأول، ص230 - 231.

وإذا علمنا أن إدريس عاش في حوالي الألف الرابع قبل الميلاد، تبيّن لنا مدى قدم عقيدة التوحيد في الأرض العربية.

إن هذا الإله الواحد «الذي لا يُرى ولا يُحدّ» هو الذي كان قدماء السوريين يتوجهون إليه حينما يرتلون في المعابد «مزامير التوبة» (من زمرا = نشيد، ترتيلة) فيصفونه بالإله الخفيّ، المخبوء، المحجوب، مقرّين بعجزهم عن معرفته قائلين:

«إلهي، إن آثامي كثيرة وذنوبي فظيعة
أيها الإله الذي أعرفه أو الذي لست أعرفه إن آثامي
كثيرة وذنوبي فظيعة»[1].

2 . في وادي النيل:

لقد أطلق عرب وادي النيل على الإله الواحد اسم «من» أو «معن» أي «المعنى» (إذ كانت تكتب الكلمات بدون صوتيات. وقد قرأها الدارسون مانا، مينا، مون، مونا، آمون). والكلمة في لغة «جامد» المندائية العربية القديمة التي تكلم بها إدريس والتي هي إحدى لهجات العربية السريانية القديمة هي «مانا» وتعني «المعنى»[1] . وقد انتقلت الكلمة عبر اليونان وايطاليا إلى اللغات الأوروبية الحديثة، فصارت بالانكليزية mean = يعني، وmeaning = معنى...

إن «نشيد آمين» ـ كما يسمّيه ديلابورت، أو «نشيد آمون» كما هو عند معظم الدارسين، يلقي الكثير من الضوء على تصور العرب القدامى لفكرة الإله الواحد.

يقول أدولف إرمان في كتابه «ديانة مصر القديمة»: «ولم يسمَّ آمون بـ «الخفي» لغير ما سبب. فهو كائن مليء بالأسرار.. تجهل حتى الأرباب مظهره الحقيقي.. وصورته ليست منتشرة في الكتب، وهو محجوب بالأسرار حتى لا يستطاع الكشف عن بهائه وروعته. وهو كبير حتى لا يستطاع تكوين فكرة عن ماهيته، وهو قوي حتى لا يستطاع معرفته وإدراكه.. وكل ما نستطيع فهمه من «نشيد آمون» هذا اللاهوت الشعري قد يلخص فيما يلي:

«إن آمون هو أصل كل شيء. إنه وجد في البدء وليس هناك إله آخر ظهر قبله.

---

(1) انظر: ناجية مراني، المرجع السابق، معجم المفردات المندائية، ص235 .

ولم يكن معه إله آخر ليشير إليه بصورته. لم تكن له أم تمنحه اسمه، ولا أب ليكون أصلاً له، وليقول له: ها أناذا. إن كل شيء آخر صدر عنه»[1] .

إن هذه الصورة الطافحة بتوحيد أمون (المعنى) لا تختلف في مضمونها عمّا ورد في القرآن الكريم من عبارات التوحيد لله في سورة الإخلاص: ﴿ قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾.

وحينما صوّروه رسموا مركزاً ضمن دائرة[2] ، أي أنهم كانوا يرون أنه مركز الكون كله ⊙ . أما السموات السبع فلكل منها طبيعتها ومرتبتها حسب قربها أو بعدها من المركز أمون (المعنى). هو خلقها وهي تحفّ به بقدرته وتدبيره، ليست جزءاً منه، ولا محررة من قدرته وهيمنته، الأولى صدرت عنه نوراً محضاً لا كالأنوار، والثانية صدرت عن الأول وهي ضياء، أما الثالثة فذات طبيعة نارية، أي أن نورها صادر من النار. وكلمة «نور» العربية القديمة تعني النار، وهذا النور الناري هو الذي يسري في الكون وينتشر، ويخضع للتحول، بينما نور آمون مستقر لطيف لا يسري في الكائنات، وهو أزلي دائم، لكنه فوق الإحساس ولا يمكن إدراكه بالعقل المجرد.

وكما كان السوريون ينادونه بـ «الإله الخفي، المخبوء» كان أشقاؤهم في وادي النيل يتوجهون إليه باسم «حافي» Hapi (إذ العرب الأُقدمون كانوا يلفظون الفاء في كثير من الأحيان P) ويعني: الخفيّ، المخبوء، (كما أن «حابي» بالباء تعني الخبيء، المخبوء، الخفي أيضاً).

وفي ترنيمة أخرى كانت محبوبة في عصر السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة نجد «حابي» يُنادى بوصفه «الواحد». ويقال إنه خلق نفسه بنفسه. لقد جمع الدكتور بروغ H. Brugsch عدداً من الصفات المنسوبة إلى الإله، وذلك في نصوص تنتمي إلى الأحقاب كلها، جاء فيها:

«إن الله واحد ووحيد، وما من إله آخر معه، إن الله واحد، وهو الواحد الذي خلق الأشياء طراً.

---

(1) ادولف ايرمان، المرجع السابق، ص152 – 153 .

(2) المرجع نفسه، 131 .

إن الله روح، روح مخبوء، روح الأرواح..

إن الله من البدء، ولقد كان منذ البدء، لقد وجد منذ القدم، ولقد كان عندما لم يكن لشيء كينونة. لقد وجد عندما لم يوجد شيء آخر. وما يوجد قد خلقه هو بعدما جاء إلى الكينونة. إنه والد البدايات.

إن الله هو الواحد الأبدي، إنه أبدي وغير محدود، وهو يدوم إلى أبد الدهر، ولقد دام طوال أزمان لا تحصى، ولسوف يدوم طوال الأبدية كلها.

إن الله هو الكائن المخبوء، وما من أحد قد عرف صورته، وما من أحد قد استطاع أن يجد له مثيلاً، وهو خفي عن الأرباب والبشر، وهو محجوب عن مخلوقاته.

الله هو الحقيقة.. وهو ينفذ الحقيقة في الكون كله.

لقد خلق الله الكون، وخالق كل ما يكون: إنه خالق جميع ما في هذا العالم، جميع ما كان وجميع ما يكون... إنه خالق السماوات والأرض والأعماق والمياه والجبال.. فما يتخيله فؤاده يصير على الفور، وحين يكون قد تكلم فإن كلمته تتحقق، وإنها سوف تدوم إلى الأبد»[1] .

ويعلّق المؤلف بصدد ذلك قائلاً: «ومن هذه الصفات نملك أن ندرك أن الأفكار والمعتقدات المصرية فيما يتعلق بالله إنما كانت، في الغالب، هي عين الأفكار والمعتقدات عند العبرانيين والمسلمين في عصور لاحقة»[2] .

إن هذا الإله الواحد، الذي هو، رب آدم وشيث وإدريس، رب السموات والأرض، الخفي المخبوء الذي لا تدركه الحواس ولا العقول، دعاه المندائيون ملك الأنوار، ورب النور، واعتقد العرب الأقدمون في سوريا ومصر أن النور الذي صدر عنه هو النور المحض وليس كالأنوار.. ومن أجل تمييزه عن النور الناري الذي تعجّ به السماوات بصورة أقرب إلى الإدراك أطلقوا عليه اسم «قمر الكون». فصاروا يتوجهون إليه في سوريا باسم «سين» أي القمر. ولم يكونوا يقصدون به القمر التابع للأرض بل عالم النور المحض الذي خلق الشمس

---

(1) المرجع نفسه، ص61 - 62 .

(2) المرجع نفسه.

والزهرة وغيرهما.

وكان المقصود بالزهرة عالم الضياء الصادر عن النور المحض، وبالشمس عالم النور الناري. ومما يؤكد ذلك هو ان الأكاديين والبابليين كانوا يعرفون تماماً أن هذا القمر لا يمكن ان يخلق الشمس أو الزهرة، فهو صغير تابع للأرض، ويستمد نوره من الشمس، والأرض تتبع الشمس، ومن هنا فقد كانوا اول من درس الأبراج ودورات الفلك وظاهرتي الخسوف والكسوف.

إن «سين» عند قدامى السوريين كان، في الأصل، قمراً رمزياً يمثل النور الإلهي المحض، نور الله للكون كله، نور السموات والأرض الذي يبقى فوق قدرة الإحساس وتصور العقل البشري. إنه الصورة الذهنية للنور الإلهي المختلف في جوهره عن كل مخلوقاته من شموس أو غيرها. لكن مثل هذا التصور كان عسيراً على إدراك العامة وقطاعات كبيرة من الناس، فسرعان ما تمت عملية الخلط بين الصورة القمرية «سين» لنور الله الواحد الكلي المحض، وبين القمر التابع للأرض، كما أن عالم الضياء الذي كان يمثل في الأصل الدرجة الثانية الصادرة عن النور المحض، والذي أطلق عليه العرب الأقدمون اسم «زوهرا» (وتعني الكلمة ضياء، تلألؤ، إشراق) جرى الخلط أو التمثيل بينه وبين كوكب الزهرة، وإن «الشمس المقصودة في الديانة لم تكن هذه الشمس بل عالم النور الناري. وإن كلمة «شمش» في العربية القديمة تعني الشمس وحرارتها وأشعتها وضياءها كما تعني السّراج، وإن عبارة «بيت شمشا» تعني المشرق الذي تطلع منه الشمس كما تعني المسرجة.

وفي وادي النيل نجد ان الفكر الديني كان يواكب الفكر الديني في سوريا، والمصدر، كما سوف نرى لاحقاً، واحد. فنحن نجد في النصوص الدينية القديمة في وادي النيل ان الإله «آمين» (المعنى) سرعان ما الصقت به صورته الجديدة: «إنه يوم كان لم يكن ثمة غيره.. إنه القرص وأمير النور والتألق.. وعندما صاغ هذا الإله المقدس نفسه فإن السموات والأرض قد صنعت من قلبه (أو من عقله).. إنه قرص القمر، ومنه تنتشر الجمالات في السموات والأرض.. يأتي الآلهة من فمه.. وبه تخلق الأشياء الكائنة.. إنه الكائن الذي لا يمكن ان يعرف»...

«إنه لا يمكن تمثيله في الحجر، وإنه لا يمكن أن يُرى في الصور المنحوتة.. فلا وجود لمسكن يمكنه أن يحتويه، وليس بوسعك أن تدرك صورته في قلبك»[1].

إن عبارات النص تتحدث بكل وضوح عن «قمر» كوني خلق السموات والأرض بما فيها، بالطبع، من شمس أو قمر، كما أنه خلق الأرباب بكلمات من فمه، وتنتشر جمالاته في السماوات والأرض وليس في سماء واحدة. وفوق هذا وذلك إنه الكائن الذي كان منذ البدء ولا شيء معه، وهو «الكائن الذي لا يمكن أن يعرف». إنه، بكلمة، الصورة العقلية للإله «آمون» أو «آمين» أو «أمانا» (المعنى).. إنه ليس هذا القمر.

لكن هذا التعبير المجرد الذهني بكلمة «القمر» ما لبث أن اختلط لدى عامة الناس مع «القمر» التابع للأرض منذ الزمن القديم وحتى اليوم. إلى هذا يشير البابا أنوست الثالث في بعض كتاباته حول العلاقة بين مريم العذراء والقمر حيث يقول:

«إلى القمر يجب أن يرفع رأسه ذلك الغارق في الخطايا. لقد غاب عنه النهار، ولم تعد له تشرق الشمس. ولكن ها هو القمر عند الأفق. فليتوجه إلى مريم التي يجد عندها الآلاف في كل يوم طريق الخلاص»[2]. وفي فرنسا ما يزال الفلاحون في كثير من أنحائها يدعون القمر باسم «السيدة العذراء»[3].

إن هذه الصيغة الذهنية التي توصل إليها العرب الأقدمون في سوريا ووادي النيل للتمييز بين النور الذي لا يدرك، الصادر عن ذات الله الواحد الأحد، وبين النور الناري المدرَك، والمنبعث من مخلوقاته لينتشر مدركاً في باقي السموات، هي نفسها التي عبّر عنها القرآن الكريم ببلاغة وإيجاز ﴿ وجعلنا القمر فيهن نوراً وجعلنا الشمس سراجاً ﴾. إن كلمة «سراج» التي استخدمت في الطرف المقابل لكلمة «نور» أغنت عن كثير من الشرح أو التفصيل. فالسراج كل نار مضيئة بدءاً من الفتيلة المشتعلة بالزيت وصولاً إلى اكبر شمس في السموات،

---

(1) السير ولس بدج، المرجع السابق، ص60.

(2) M. Ester Harding, Woman's Mysteries, Harper and Row, NewYork, pp. 99 – 100.

(3) Robert Briffault, the Mothers, NewYork 1977, p. 378

وإن نور السراج ناري، وبالتالي فهو نور كاذب حار وليس نوراً محضاً. وإن فعل «سرّج» يعني أيضاً كذب، والسرّاج هو صانع السُرج وهو الكذاب. وغني عن البيان أن النور أعلى رتبة من النار بكل ما يصدر عنها، وهذا بالتأكيد لا ينطبق على القمر التابع للأرض الذي يستمد نوره من الشمس ذات النور الناري، إن نوره أدنى مرتبة حتى من نور الشمس، أضف إلى ذلك أن القمر المعني جُعل «فيهن» أي في السماوات كلها، وليس في سمائنا الدنيا فقط. ونوره نور محض عصي على الإدراك وليست النار مصدره.

إن هذه الصورة المبهرة لنور الله المختلف عن كل الأنوار تعبر عنه أجمل تعبير الآيات التالية من سورة (النور): ﴿ الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب درّيٌّ يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾[1].

لقد نقلت هذه الآية التمثيلية لنا الفكرة ببلاغة معجزة. فالله نور السموات والأرض، وهو نور محض، مصدره نور، وضوؤه نور، يضيء دون أن تمسسه نار، وهو لا يحدّه مكان ولا يظهر في الشرق ولا في الغرب (كما هي الحال مع الشمس أو القمر أو غيرهما)، وهو محجوب عن الإدراك عبرّت عن ذلك المشكاة.. ولا يهتدي إليه إلا من شاء له الله.

وهذا النور لا يطيق حمله الكائنات يوم القيامة إلا من شاء الله ورحم من مخلوقاته: ﴿ ونُفخ في الصور فصَعِقَ من في السموات، ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يُظلمون ﴾[2].

إن هذا كله يؤكد بطلان مزاعم كل المؤرخين في الغرب الذين جعلوا عبادة

---

(1) سورة النور 35 .

(2) سورة الزمر 68 – 69 .

«آمون» في وادي النيل شركية لا توحيدية، وأن مصر وادي النيل لم تعرف التوحيد إلا في عهد قصير هو عهد اخناتون. إن العكس هو الصحيح. فأخناتون تحوّل من عبادة آمون (المعنى) الواحد الأحد العصي على الإدراك كما سبق ورأينا، إلى عبادة قرص الشمس المرئي والمدرك في السماء الدنيا، تماماً كما هي الحال لدى عامة الناس في كل من سوريا ووادي النيل. وكل الأناشيد التي نظمها هي تمجيد قرص الشمس الظاهر.

أما التزوير الآخر الذي يعبر عن جهل مريع بالتاريخ العربي فهو زعمهم بأن موسى قبس فكرة التوحيد عن أخناتون في مصر وادي النيل. وكنّا قد فندنا هذه الأكذوبة في كتابنا «العرب والساميون والعبرانيون وبنو اسرائيل واليهود» بصورة مفصلة، وبينّا كيف ان موسى نشأ وربّي في قرية مصريم في بلاد غامد من جبال السراة في شبه جزيرة العرب، في رعاية السيدة آسية بنت مزاحم امرأة فرعون (زعيم عشيرة المصريين)، وإن شبه جزيرة العرب لم تعرف انقطاعاً في عقيدة التوحيد منذ آدم الإنسان الأول وحتى اليوم.



الحلقة الخامسة

«المركز» والخلق

الخلق بـ «الكلمة»

مثلما حرص العرب الأقدمون في سوريا ووادي النيل على الاعتقاد بوحدانية الإله وأحديته، بمعنويته وباطنيته، وبكونه فوق الإدراك، فقد حرصوا على جعله منزهاً عن الشرك مع أي من مخلوقاته منطلقين من انه هو هو ذاته، وان كل شيء ممّا خلق هو غيره، ومن هنا فقد فهموا وجوده مهيمناً على كل مخلوقاته وليس سارياً أو منتشراً فيها، وبالتالي فهي ليست جزءاً منه، لأنه واحد صمد لا يتبعض ولا ينتشر فلو كانت مخلوقاته جزءاً منه لتعدّد وتبعّض وتحوّل، ولطرأ عليه مثل ما يطرأ عليها. فكما أن نوره ليس كالنور المدرك الساري في الكون، فإن خلقه ليس جزءاً منه وليس من طبيعته. إنه يصدر عنه بالقدرة، بالأمر، لكنه غيره، ومن هذا المنطلق فلم يجد العرب الأقدمون ما يعبرون به عن هذه العقيدة التوحيدية منذ القدم مثل الخلق بـ «الكلمة»، فقالوا إن الخلق هو الكلمة. فكما أن الكلمة تصدر عن المتكلم وليست هو، وكما ان الكلمة، أو اللغة عموماً، هي التجسيد المادي للفكرة، وهي دائماً أدنى منها واقلّ غنى بما لا يقاس، فكذلك الخلق غير الخالق.

ففي سوريا وضع السومريون والأكاديون مبدأ صار عقيدة سائدة في جميع الشرق الأدنى، وهو مبدأ القوة الخالقة للكلمة الإلهية. فبموجب هذا المبدأ كان كل ما ينبغي للإله الخالق أن يفعله هو أن يقول «الكلمة» وينطق بالاسم، اسم الشيء المراد خلقه»[1] . ويقول كريمر أيضاً: «وإذا ما ذكر السومريون طريقة الخلق على الإطلاق فإن قوامها «كلمة» الإله و«أمره» ولا اكثر من ذلك»[2].

وعند المندائيين نجد ترتيلة تقرأ عند التعميد او الصباغة بالماء الحي «أردن» تتحدث عن الأمر أو الكلمة التي كانت بها الحياة:

«باسم الحي

وباسم معرفة الحي

وباسم الوجود الأزلي الذي سبق الماء

---

(1) صموئيل كريمر، المرجع السابق، ص156

(2) المرجع نفسه، ص179 .

وكان قبل الضوء والنور
ذلك الذي نطق فكانت كلمات
والكلمات كانت كروماً
وكانت الحياة الأولى»[1].
والله «هو الخالق الأعظم الذي بكلمته وأمره خلقت المخلوقات (وكل منذام بميمرا هوا)»[2].
أما عند عرب وادي النيل فقد كانت عملية الخلق تتم أيضاً بالكلمة كما هو واضح من خلال النصوص التي أوردناها: «فما يتخيله فؤاده يصير على الفور، وحين يكون قد تكلم فإن كلمته تتحقق..» و«منه تنتشر الجمالات في السماء والأرض.. يأتي الأرباب من فمه..» وفي مكان آخر نجد: «ولقد خلق كل شيء حي بوساطة الكلمة التي خلقت كل قوى الحياة، وكل ما يؤكل، وكل ما يحبه أو يكرهه الإنسان»[3].
هذا الفكر العربي القديم حول الإله الخالق وعملية الخلق هو الذي انتقل فيما بعد مع الفلاسفة السوريين إلى بلاد اليونان نتيجة للإنقلاب الفارسي في القرن السادس قبل الميلاد (كما سوف نرى ذلك مفصلاً في كتاب لاحق)، فتابعوا هذه الفكرة عبر مدارسهم الفلسفية التي أسسوها في أثينا كالرواقية والمشائية وغيرها مستخدمين اللفظة العربية الصميمة «لوجو» Logos التي تعني «الكلمة»، وهي من الفعل العربي القديم (السرياني والفينيقي) «لجا» = لغا، لهج، نطق، تكلم، لوجو = كلمة، نطق، لغة؛ ملاجو = آلة التكلم، لسان. «فكان الـ «لوجوس» ذروة أبحاث مفكري الإغريق عن الحقيقة الباطنة»[4].
وفي المزامير، التي كانت أناشيد ترتل في المعابد السورية في معظمها قبل أن يلصقها كتاب أسفار التوراة بداود، نجد: «بكلمة الرب صنعت السماوات.. إنه

---

(1) ناجية مراني، المرجع السابق، ص69 – 70.
(2) المرجع نفسه، ص91.
(3) أدولف إيرمان، المرجع السابق، ص106.
(4) هـ.د. كيتو، المرجع السابق، ص254.

قال فكان، وأمر فوُجد»[1] .

وفي الإنجيل: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان لدى الله».

وفي القرآن الكريم نجد ﴿ وإن قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾[2] .

الخلق في التراث العربي القديم:

أما مضمون عملية الخلق في التراث العربي فلا مندوحة من الوقوف عنده لإيضاح بعض ما غاب منه، وللكشف عن حقيقته التاريخية كما هي في كتب التراث منذ العصور الموغلة في القدم وحتى اليوم.

ومن أجل هذا لابد من أن نبدأ بشرح المضمون اللغوي العربي لكلمة «الخلق» لنتبين مدى ملاءمتها لمضمون العملية كما وصلنا من خلال التراث.

إن كلمة «خلق» في القواميس هي كمايلي: خلق الأديم يخلقه خلقاً قدّره وخرزه قبل أن يقطعه فإذا قطعه قيل فراه. وخلق الشيء أوجده وابدعه على غير مثال سبق. وخلق الشيء ملّسه وليّنه. والكلام وغيره صنعه والعود سوّاه. الخالق صانع الأديم ونحوه، والخالق في صفاته تعالى هو المبدع للشيء المبتكر على غير مثال سبق.

ونظرية الخلق أو التكوين أو النشوء عند العرب الأقدمين يمكن أن نقسمها إلى أربع مراحل أو أقسام: نشوء الكون، نشوء الأرض والسماء، نشوء الحياة، خلق الإنسان.

أما ما يتعلق بنشوء الكون فإن ما وصلنا لا يتجاوز بضع شذرات مما بقي من كتاب «تاريخ فينيقيا» للمؤرخ السوري سانخونياتن الذي نقلها بدوره عن النظرية الكونية لتحوت[*] الذي هو إدريس واسمه النجمي هرمس أو عطارد.

---

(1) المزمور 33 : 9،6 .

(2) سورة النحل: 40 .

(*) تحوت: تعني في العربية القديمة، المقرر، المصحح، المثبت، وإدريس (وإدريش) الكثير الدرس والتمحيص، أما هرميس فهي في العربية القديمة، النجم، عطارد. وكان يلقب بهذا اللقب كل من أتقن فن الكتابة والدرس مثل نبو (عطارد) عند الأكاديين كاتب الأرباب. أما أخنوك فهو لقبه الآخر ويعني الذي حنكته الخبرة والتجربة والحياة، أي الحكيم.

يقول فيلون الجبيلي نقلاً عن سانخونياتن:

«هذه الأمور وجدت مكتوبة في النظرية الكونية لتأوت، وبالاستناد إلى مذكراته المعتمدة على الحدس والمبادئ» كاعتمادها على الذكاء الثاقب استشفها سانخونياتن وأعلنها»[1].

ويقول أيضاً: «إن اللاهوتيين الحديثين قد أتلفوا كل أثر للأمور التي حدثت عن أصول الأشياء، وذلك باختراع الاستعارات في الأساطير لغاية جعلها تتناسب مع حركات الكون. وعلى هذا النسق أنشأوا طقوس الأسرار (المساتير Mysteres) ونشروا، هكذا، ظلمة كثيفة فوق جميع هذه الأشياء. بحيث لم يعد من السهل تمييز ما حدث بالواقع. ولكن هذا (سانخونياتن) كان اكتشف في المعابد الكتابات المقدسة للأمونيين[*] حيث كانت محفوظة هناك، وقلائل هم الذين كانوا يعرفونها، وهو انكب على دراستها في جميع ما تحتويه، ثم قام بهذا المشروع فأنجز خطته بإقصاء القصص المبنية على العناصر والاستعارات حتى وصل إلى الذي حدث في الأزمنة التي أعقبت الكهنة»[2].

فماذا جاء في تلك النظرية؟

إن ما وصلنا منها ليس إلا نبذاً من تلخيص أوزيب اليهودي الحاقد على ذلك التراث. ومع هذا فإن في مقدورنا أن نستشف ملامح تلك النظرية العربية القديمة في التكوين والخلق، يقول أوزيب عن سانخونياتن:

---

(1) يوسف الحوراني، المرجع السابق، ص48.

(*) الأمونيون هم عبدة آمون (المعنى) وهي ديانة توحيدية انتقلت من شبه جزيرة العرب إلى وادي النيل. وقد اعتبره المصريون «رب البلاد الأجنبية الشرقية».. وكان حامياً لطرق القوافل التجارية من غزوات البدو الأعراب، وهو تفوح منه رائحة الطيب الزكية التي اشتهرت بها بلاد العرب منذ القدم. وهكذا اصبح هذا الإله رباً للبلاد الشرقية صاحب اللازورد والكحل والخضاب (الحنّاء) وسيد البلاد الأجنبية طراً (ادولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ص43) «وكان عطره الذكي من بلاد البخور (اي بلاد العرب) (المرجع نفسه، ص64). وقد ترجمت الكلمة تحت اسم «العمونيون» من قبل يوسف الحوراني وهذا خطأ، فالعمونيون عشيرة توراتية ابناءُ عمون بن لوط ليس لهم أي ذكر خارج مدونات التوراة، وعمون ومؤاب في التوراة ابنا لوط من بناته اللاتي ضاجعن اباهن سفاحاً في المغارة، حسب التوراة، ولم يكن لهم معابد ولم ينقل عنهم اي علم.

(2) يوسف الحوراني، المرجع نفسه.

«هو يفترض أن هناك ريحاً معتمة عاصفة، أو هبة هواء مظلم، وخواء موحلاً جهنمياً كان بلا نهاية في زمن كأنه امتداد، لما هذه الريح ـ حسب قوله ـ وقعت في حب مبادئها الخاصة حيث حصل اجتماع، قران، دعي هذا التقارب «الرغبة». هكذا كان مبدأ خلق جميع الأشياء. ولم يكن لهذه الريح معرفة بما أنتجت»[1].

من خلال هذه العبارات القليلة يمكننا أن نستخلص مايلي:

1 . إن العقل العربي حينما وضع مثل هذا التصور لا يمكن أن يوصف بالبدائي أو الخرافي أو السطحي. إنه تصور ينم عن مقدرة عقلية هائلة على التصور والتجريد والخروج من الواقع المحيط إلى الكون بجرأة العلماء وحدهم للوصول إلى تصور عقلي لنشوء الكون.

2 . إن النظرية العربية القديمة التي جعلت بداية الكون سحابة معتمة كانت بلا نهاية في زمن كأنه لا نهائي أيضاً، بدأت حركتها بالدوران حول نفسها بفعل ريح معتمة عاصفة هي النظرية التي اطلع عليها الفيلسوف الألماني «كانت» وتبناها لنفسه علماً أن النسخة اليونانية مترجمة إلى الفرنسية وإلى الألمانية. وما زال يأخذ بها الكثير من العلماء المعاصرين.

3 . إن التعابير الواردة هي من أدق التعابير العلمية والفلسفية. فالخروج من المكان والزمان الأرضيين للتعبير عن مكان بلا نهاية، وزمان كأنه امتداد، أي بلا نهاية، هما تعبيران وضعهما الفكر العربي منذ عهد تحوت، أي منذ الألف الرابع قبل الميلاد على الأقل، في حين أن الزمان غير الأرضي يعتبر أحد مباحث علماء العصر الحديث.

4 . إن تلك السحابة (المادة الكونية) تحركت بفعل الريح حركة زوبعية، فحصل فرز بين عناصرها واستقطاب وتجاذب، عبر عن ذلك في الوقوع في حب المبادىء الخاصة، ونتيجة لانفراز هذه العناصر، ثم اتحادها بنسب متفاوتة، نتيجة لعملية طبيعية داخلية خاصة بالمادة الجامدة، هي أشبه ما تكون بالغريزة في الأحياء، أطلق عليها مجازاً اسم «الرغبة». وبفعل تلك الرغبة حدثت

---

(1) المرجع السابق، ص41 – 44 .

عملية التجاذب والاتحاد (القران) لتتكون في المحصلة كل الأشياء والأجرام الكونية.

إن هذه الحركة الكونية عبر عنها السوريون الأقدمون بالزوبعة الرباعية، وجعلوها رمزاً للرغبة الكونية الأولى في الاخصاب وخلق الأشياء. والطريف في الأمر ان صور مجرتنا (درب التبانة) التي تلتقط اليوم بواسطة سفن الفضاء التي اختصت بالرحلات البعيدة في مجال الكون ترينا كيف ان تلك الحركة الزوبعية الرباعية عينها هي المسيطرة على حركة هذه المجرة التي تقع مجموعتنا الشمسية عند طرف احد أذرعها الأربعة.

5 . إن هذا الكلام المختصر البسيط يرينا، رغم ضآلته، ملامح نظرية في الكون لا تقلّ علمية عمّا يتوصل إليه العلماء اليوم. إن هذا القول، الذي اجتزأه أوزيب منفصلاً عمّا قبله أو بعده من مقترحات أو أقوال أخرى متممات له أو مفسّرات، يبقى حاملاً كثيراً من عناصر الفكرة الأساسية. ونحن إذا ما أضفنا إليه بعض العناصر الأخرى، التي سبق أن مررنا على ذكرها، حول فكرة الإله الواحد وطبيعته النورانية المحضة، وخلقه الذي صدر عنه بـ «الكلمة»، يصير في إمكاننا رسم الصورة الكلية كما كانت في الذهن العربي القديم: الإله الواحد مركز هذا الكون كله الذي يحفّ به في هيئة سبع سماوات. وهو من طبيعة نورانية خالصة فوق إدراك مخلوقاته، يحيط به نوره الذاتي الذي ليس كالأنوار المعروفة في هذا الكون، خلق كل شيء بالكلمة فكان غيره، وهو مهيمن على كل مخلوقاته ومدبر لها. وهو الذي خلق الضياء أو الشمس الكونية (أو النور الناري) التي صدرت عنها السماوات الأخرى حتى سمائنا الدنيا بما فيها من مجرات وشموس وكواكب وأقمار وأرض وأجرام أخرى..

6 . أمّا كلمات سانخونياتن القليلة المنقولة هنا فهي، كما هو واضح، تتحدث عن تكون سمائنا، عالمنا نحن، أرضنا. لقد تحدث قدامى السوريين عن حركة المجرة الزوبعية ورسموها زوبعة ممتلئة البطن ذات أربعة أذرع، وأرضنا ـ كما اثبت العلم اليوم ـ واقعة عند طرف أحد هذه الأذرع. وقول سانخونياتن ـ كما هو منقول ـ فيه مزيج ـ رغم قلته ـ من كل شيء، لكنه، على الأغلب، يميل، في معظمه، إلى الحديث عن تكوّن ارضنا ثم نشوء الحياة على الأرض كما

سوف نرى لاحقاً. لهذا فسوف نؤجل الحديث هنا عن «الوقوع في حب المبادىء الخاصة حيث حصل اجتماع قران، دعي هذا التقارب الرغبة» إلى موضع آخر حينما سوف نتحدث عن نشوء الحياة.

إن هذا التصور الكوني الذي أبدعه لنا العقل العربي القديم، بصرف النظر عن مدى ما يتمتع به من الصحة، يبقى متفوقاً من كل جوانبه العقلية والمنطقية والتخيلية على كل النظريات التي ما انفك يطلع بها العلماء حتى وقتنا الحاضر، كما أنه يبقى أكثر انسجاماً مع كل ما تقدمه العلوم الطبيعية حتى الآن من مكتشفات ومعطيات، وهذا ما سوف نلمسه لاحقاً عند كل موضوع من مواضيع هذا الكتاب.

إن فكرة الشمس الكونية، أو النور الناري، الذي يملأ هذا الكون المادي، يقف في الدرجة الأسمى من السماوات المادية كما صنفها العقل العربي القديم، إذ يأتي بعدها في الترتيب الهابط: الهواء، ثم الماء، ثم التراب. وهي جميعاً من العالم المادي المظلم المركّب. يقول إدريس (الذي هو هرمس أو تحوت) في «زجر النفس»: «يانفس قد كنت وأنت في عالم الوحدة غنية مبصرة عالمة، تبصرين العوالم كلها منضدة بين يديك، وهي كلها صافية نيرة مضيئة، وفي أسفلها عالم الكون والفساد أسود مظلم، وهو يلوح منها كما يلوح الحجر الأسود في الماء الصافي»[1].

إننا كلما أوغلنا نحو الأسفل كلما انحط العالم وازداد تركيباً وظلاماً وفناء، وكلما أوغلنا صعوداً كلما اقتربنا من الجوهر والبسيط والنيّر والخالد. ومن هنا كانت عبارة «العالم الأسفل» تعني عند العرب الأقدمين عالم الفناء بعامة، وليس الميتين وحدهم كما يفسّرها الباحثون اليوم، لأن كل ما هو مركب مصيره إلى التحوّل فالفناء.

يقول إدريس (هرمس): «يانفس، أفليس كل ما يكون من التراب كالحجارة وغيرها يرجع منحلاً إلى التراب الذي هو أصله ونبعه. حتى أنه لو أخذ أحد

---

(1) أحمد غسان سبانو، هرمس الحكيم بين الألوهية والنبوة، ص75 [تجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الكتاب جمع ما يعزى إلى إدريس أصولاً وما ينسب إليه زعماً من شعوذات العامة عبر العصور].

جزءاً من الأرض فعلا به عن وجه الأرض، ثم خلّى سبيله، لعاد مسرعاً بحركته الطبيعية إلى عنصره وأصله. وكذلك كل المياه تراها أبداً متحركة بالطبع ذاهبةً إلى عنصرها الأعظم.. وكذلك كل شيء مما سوى ذلك كصعود النار إلى العلو راجعة إلى عنصرها، وكصعود الهواء علواً راجعاً.. فإذا كانت هذه الأشياء التي ليس لها عقل ولا تمييز، وإنما حركتها حركة هيام وطبع، به يتحرك كل واحد منها إلى حيث شرفه وعزّه وقوته، ويأبى الغربة والبعد عن وطنه ومحله، فما بالك يانفس وأنت ذات العقل والتمييز تأبين الرجوع إلى وطنك وعنصرك الذي فيه شرفك وعزّك؟»[1].

إن هذا التصور الذي جعل العالم يتدرج في تركيبه المادي من الجوهر البسيط إلى المركب، فالاعقد تركيباً هو ما ينسجم فعلاً مع معطيات علم الطبيعة.

يقول هويمارفون ديتفورت: «إن أول العناصر (الهيدروجين) كان قد بقي مستقراً دون اي تغيير، وكان تاريخ الكون، بالتالي، قد اقتصر إلى الأبد على التغيرات الميكانيكية لغيوم الهيدروجين، التي تملأ الكون بكامله، التي لن تتعدى تجمعه بتأثير وزنه، توهجه كما يحصل في النجوم بتأثير ضغطه الداخلي المتزايد، واخيراً اندفاعه في دورات أبدية لا نهاية لها. علينا أن نتذكر بهذه المناسبة، أن كل شيء بدأ بالهيدروجين. لكن هذا الهيدروجين كان يحتوي إمكانات لا حصر لها.. كان الزمان وكان المكان، وكانت قوانين الطبيعة. إنها الحقيقة المدهشة لهذا الكون المدهش ان هذه الشروط كانت كافية لجعل الهيدروجين يخضع إلى عملية تحول مستمرة نتج عنها عبر الزمان كل ما نراه حولنا اليوم بما في ذلك وجودنا ذاته. إن أعظم وأدهش اكتشاف قام به العلم حتى الآن يكمن في هذه الجملة الرائعة المتواضعة حول شروط الانطلاق – الهيدروجين زائد الزمان زائد المكان زائد القوانين الطبيعية – كما أن أعظم وأدهش أسرار الكون هو أن يكون البدء ممكناً بهذه الشروط، إن تاريخ الكون هو تاريخ تطور هذا الذي كان في البدء، لذلك أصبحت علوم الطبيعة ممكنة، لأن كل ما حصل منذئذ نتج عن اللعبة المتبادلة القائمة منذ بدء الزمن بين

---

(1) المرجع نفسه، ص47.

الهيدروجين وكل النواتج المتعددة لتحولاته بتأثير قوانين الطبيعة عبر الزمان وفي المكان.. كيف يمكن لذرة الهيدروجين، التي تبدو بسيطة التركيب، هذه الإمكانيات التي تجعلها تحتوي العالم بكامله؟ هذه أسئلة لا تستطيع العلوم الطبيعية الإجابة عنها. إنها لا تستطيع الإجابة عنها بقدر مالا نستطيع نحن معرفة ما كنا نشعر به قبل ولادتنا. بذلك تنتفي ذرة الهيدروجين والقوانين الطبيعية أن تكون موضوعاً لعلوم الطبيعة، إنها إشارة واضحة، عندما ننظر إليها بدون أحكام مسبقة، إلى أن لعالمنا منشأ لا يمكن أن يكون فيه ذاته. فمن ناحية التسلسل الزمني كانت أول نتيجة للخواص المدهشة لذرة الهيدروجين هي نشوء مالا يقل عن 91 عنصراً آخر أثقل وأعقد تركيباً. نستطيع هنا أن نخرج من اعتبارنا العناصر الثقيلة جداً اللامستقرة التي نشأت مرحلياً ولعمر قصير. لقد حصلت عملية نشوء هذه العناصر في مركز الشموس الأولى التي نشأت من الغيوم الهيدروجينية البدئية. تشكلت العناصر الثقيلة شيئاً فشيئاً في داخل هذه الشموس ثم انتشرت ثانية في الفضاء على هيئة غبار كوني نتيجة انفجارات هائلة في الشموس ذاتها، بعد مرحلة طويلة من التطور تشكلت من هذا الغبار، الذي كان يحتوي جميع العناصر الموجودة اليوم، المنظومات الكوكبية، أي شموس تدور حولها أجرام متبردة أصغر منها..

عندما نفترض هذا الوجود المسبق للهيدروجين بماله من خواص مذهلة، ونضيف إليه قوانين الطبيعة، يبدو كل التطور اللاحق، بمجرد توفر الزمان والمكان بدرجة كافية، حتمياً لابدّ منه. لذلك فإن «الأعجوبة» تكمن في شروط الإنطلاق، أما التطور ذاته فهو «طبيعي» جداً»[1].

إن الهيدروجين الذي هو أبسط عنصر في هذا الكون هو «الآجرة» الذي قامت به عمارة الكون المادي كله. وإن «سماءه» هي «الشمس الكونية» الأولى كما عبرّ عنها العقل العربي القديم، وهي «مركز الشموس الأولى» في تعابير علماء

---

(1) هو يمارفون ديتفورت، «تاريخ النشوء» ترجمة محمود كبيبو، دار الحوار، اللاذقية، الطبعة الأولى 1990، ص83 – 85.

الطبيعة المعاصرين اليوم* . حتى أن شمسنا، التي هي جزء صغير من مجرتنا «تتألف بنسبة تزيد عن النصف من الهيدروجين، وتصل إلى 98 بالمئة من العنصرين الخفيفين الهيدروجين والهيليوم، ويبقى 2 بالمئة فقط في إجمالي كتلتها لجميع العناصر الأخرى»[1].

أما ما يتعلق بنشوء أو تكوّن الأرض وسمائها (غلافها الجوي) في المرحلة السابقة لنشوء الحياة عليها فقد توفرت لنا من خلال المكتشفات الآثارية جملة من الوثائق التي تقدم لنا، في مجملها، صورة شبه متكاملة للنشوء كما رسمها لنا الفكر العربي القديم. فلو اننا عدنا إلى قول سانخونياتن الذي نقله عن تحوت واعتمدناه حديثاً عن تكوّن الأرض ونشوء الحياة، وهذا ما نرجحّه، وسبق أن المحنا إلى ذلك، فإننا نجد أنفسنا أمام الصورة التالية:

«كانت هناك ريح معتمة عاصفة، أو عصف هواء مظلم، وخواء موحل جهنمي كان بلا نهاية في زمن كأنه امتداد».

بمثل هذه الكلمات القليلة ترتسم الصورة: كتلة هائلة من الطين أو الوحل الجهنمي، أي الوحل البركاني الساخن والملتهب يمور تحت عصف الرياح في ظلام دامس. إن في هذا القول عنصرين رئيسيين: تركيب سطح الأرض الذي تختلط به مقذوفات البراكين السائلة بالطين أو التراب، والغلاف الجوي السميك لا يسمح لنور الشمس بأن ينفذ منه فيبقى الظلام الدامس هو الذي يغلف الأرض التي تعبث بها رياح عاصفة.

وفي الآداب العربية السومرية نجد الصورة نفسها تقريباً. يقول صموئيل كريمر في كتابه «من ألواح سومر» بهذا الصدد مايلي: «ورأوا الأرض على هيئة «قرص» منبسط، وأن السماء فراغ مغطى من الأعلى ومن الأسفل بسطح صلب ولكن لا يعرف بوجه التأكيد مادة ذلك الجسم السماوي الذي إذا جاز لنا أن نقيس قد يشبه القصدير. وميزّوا عنصراً بين السماء والأرض دعوه «ليل»..

(*) نود الإشارة هنا إلى ان هو يمارفون دينفورت عالم الماني وضع عدة مؤلفات في علم الطبيعة والكون منها «تاريخ النشوء» من وجهة نظر علوم الطبيعة المادية البحتة.

(1) المرجع نفسه، ص51 .

.. واستنتجوا وجود ما يمكن تسميته بالبحر الأول.. ورأوا في ذلك البحر الأول السبب الأول.. وفيه تولدت السماء والأرض»[1].

«وفي لوح يصف البحر الأول بأنه «نموّ» اي الأم التي ولدت السماء والأرض. وبموجب ذلك تصور السومريون السماء والأرض على انهما من خلق البحر الأول»[2].

أما التعبير السومري عن البراكين فكانت ـ كما رأينا ـ سابقاً ـ كلمة «كور» التي تعني جبل البركان.

ونلاحظ في ملحمة الخلق البابلية المدعوة «اينوما ايليش» (حينما في الأعالي) وصفاً لحالة الأرض حينما كانت سادرة في ظلام كثيف، والمياه من فوقها محمولة على جناح الهواء أو الريح: «لقد قطع مردوك جثة تهامت (اللجة، المحيط البدئي) إلى قسمين كما يقسم المحار، واثبت قسماً إلى الأعلى كان منه الجو (أو السماء)[3] «ويعتمد كتب أخبار الخلق اليونانية على النص البابلي «إينوما إيليش». ويمكن التعرف على أصل أسماء الآلهة البابلية المحوّرة في اللغة اليونانية بسهولة. ويطابق تسلسل أسمائها تماماً الأصل البابلي. وملخص قصة الخلق عند بروسوس (البابلي) أن الربة مورتا (البحر، الماء المرّ المالح) كانت تتحكم بعالم الظلمة والماء، التي كانت تعشش فيهما كائنات خرافية [تعبيراً عن البركان، التنين]، يقوم الإله «بل» بقتلها وتشكيل السماء والأرض من جسدها ليخلق من (دماء) الرأس البشر والحيوانات»[4].

وفي الوثائق المكتشفة في وادي النيل تنضاف عناصر أخرى إلى الصورة لتجعلها أكثر كمالاً ووضوحاً. لقد «اعتقد المصري ان الأرض كان أول ما ظهر على سطح ذلك الخضم القديم الذي سمّوه «نون» وكان هذا المكان بمثابة بدء العالم. فهو التل الموغل في القدم.. وفوق هذا التل القديم ظهرت المعالم الأولى

---

(1) صموئيل كريمر، المرجع السابق، ص152 – 153 .

(2) المرجع نفسه، ص161 .

(3) س.هـ.هوك، ديانة بابل وآشور، ص110 .

(4) د. اذزارد، م.هـ.بوب، ف. رولينغ، قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين في الحضارة السورية، ترجمة محمد وحيد خياطة، مكتبة سومر، حلب، 1988 الطبعة الأولى، ص81.

للحياة.. لقد كان العالم الذي برز من المحيط الأزلي مضطرباً إذ لم تكن السماء قد انفصلت عن الأرض. لكن قبل هذا كانت إلهة السماء «نوت» مستلقية فوق زوجها إله الأرض «جب»، ولكن «شو» إله الهواء زَج بنفسه بينهما ورفع السماء إلى أعلى.. ونشب قتال عنيف في كل مكان في السماء وفوق الأرض كان النصر فيه إلى جانب إله الشمس»[1].



صورة تمثل نوت (الماء المحيط) محمولاً في الجو. يمنعها شو (نيران البراكين) من الوصول إلى الأرض المتلهفة إلى الماء

إن «نون» كان يعني في العربية القديمة الماء، ثم السمكة رمز الماء، ثم صار يعني اليوم في العربية الحديثة الحوت، وهو رمز الماء الكثير أيضاً. وإن «نوت» هي مؤنثه، فكيف صارت ربة للسماء؟ وهل الماء كان في السماء؟ هذا ما تجيب عنه الصورة التي تجعل «نوت» الأنثى مقوسة جسمها فوق الأرض وعلى ظهرها قاربان للدلالة على أنها الماء في السماء، وقد انتصب من تحتها «شو» الأسود للدلالة على الخواء المظلم، لأن أشعة الشمس لا تنفذ إلى الأرض من الماء المحمول على الريح في السماء. مما تقدم نخلص إلى التالي:

الأرض والسماء كانتا متصلتين، والأرض أمواج بركانية نارية موحلة، والماء في الجو محمول على رياح معتمة عاصفة يحجب ضوء الشمس. البراكين تزأر على سطح الأرض وتبرز بروؤسها المخيفة لتبصق لهيبها الموحل اللامع في الظلام، والريح تقصف بصواعقها من الجو، وذاك كان المقصود بالمعركة

---

(1) ادولف إرمان، المرجع السابق 72 - 74 .

الرهيبة في النصوص التي كتبت بأسلوب أدبي وتصوير شاعري، وكانت نتيجة المعركة انتصار الشمس. فما الذي حصل حتى انتصرت الشمس ووصلت بضوئها إلى الأرض؟ وقبل ان نحاول الإجابة عن السؤال لنستعرض ما أورده لنا القرآن الكريم حول خلق الأرض والسماء.

1 . ﴿ بديع السموات والأرض أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة. خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ (الأنعام : 10).

2 . ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ﴾ (هود: 1).

3 . ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ (إبراهيم: 32).

4 . ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي افلا يؤمنون ﴾ (الأنبياء 30).

5 . ﴿ قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ (فصلت: 9 – 11).

6 . ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ (فصلت: 12).

إن كلمة «بديع» في الآية الأولى هي من فعل «بدع» وهي في القاموس أي أنشأ واخترع لا على مثال، واستنبط. والإبداع عند الحكماء إيجاد شيء غير مسبوق بالعدم. فالإبداع والخلق والإنشاء تعني أمراً واحداً هو إيجاد شيء غير مسبوق بالعدم. ولهذا فقد استخدم القرآن الكريم هذه الألفاظ في مواضع شتّى بمعنى الخلق: ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون، فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (الحجر: 29). فالخلق هو من شيء سابق لا على مثال الشيء المخلوق، وليس من عدم. ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (المؤمنون: 12 – 14) إن الخلق

والانشاء إذن لا من عدم.
وفي الآية الثانية، حينما خلق الله السموات والأرض كان عرشه على الماء. والعرش اسم السيادة أو الربوبية أو قوة الله المدبّرة. وهذا يدلنا على أن مفتاح عملية الخلق كان في ذلك الماء على الأرض.
وفي الآية الثالثة نجد انه خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به الثمرات. لقد أطلق التدبير الإلهي الماء من محبسه في السماء لينزل على الأرض ولتبدأ عملية الحياة. والمقصود هنا العملية البدئية وليست العملية التي صارت مكرورة على مر الأعوام..
والدليل أنه جاء في موضع آخر: ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ (الرعد: 14). إنها العملية البدئية قبل أن يكون على الأرض مياه متجمعة، وقبل أن تصل إليها حرارة الشمس وضوْوها فتعمل على تبخيرها ثم تعود فتنزل مطراً على الأرض.
وفي الآية الرابعة توضيح كامل لكل العملية: لقد كانت السماء والأرض متصلتين (رتقاً) ففتقتهما إرادة الله فنزل الماء على الأرض لتبدأ عملية خلق الحياة ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ ثم تكونت من فوقها السموات (الأجواء) السبع.
وبالإضافة إلى هذا كله فحينما خلق الله الأرض جعل فيها الجبال بارزة من فوقها، وهذه الجبال هي الجبال البركانية المنبثقة من أعماق الأرض. فالجبال البركانية وحدها هي التي يمكن أن توصف بـ «الرواسي» وهي التي تقذف بالدخان إلى الجو «ثم استوى إلى السماء وهي دخان» وهذه الجبال نفسها هي التي شهدت الحياة النباتية والحيوانية الأولى فوق الأرض «قدرنا فيها أقواتها». وهذا ما أكده الفكر العربي القديم ، وكان هذا المكان بمثابة بدء العالم، فهو التل الموغل في القدم، أو كما قالوا: « التل المزدهر» الذي ظهر في أول العصور.. وفوق هذا الجبل القديم ظهرت المعالم الأولى للحياة إذ سكنت فيه الضفادع والثعابين وهي من الكائنات التي تتفق مع ما يغمر هذا المكان من ظلام ورطوبة، وسميت هذه الكائنات بأسماء استمدت من طبيعة هذا المكان: الليل، الظلام، الاختفاء، الأنسياب، وغير ذلك، وكان عددها ثمانية، لذلك دعي

المكان «شمون» أي ثمانية»[1] . وبعد خلق النبات ثم الحيوان يتكرر ذكر العدد «ثمانية» في كل منهما. فعلى «التل المزدهر» الذي هو الأرض المباركة «خلقت الربة «نين كوراساق» ثمانية أنواع من النبات تنمو وتزدهر»[2]. ثم ثمانية أنواع من الحيوان. ولقد استمرت هذه الفكرة التراثية حتى فجر الإسلام، فنحن نقرأ في القرآن الكريم: ﴿ خلقكم من نفس واحدة، ثم جعل منها زوجها، وانزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾[3] وفي سوريا يخاطب السيد السيدة «نين ماح» (السيدة المحيية، الخالقة) قائلاً:

«أيتها السيدة لأجل أن تأتي إلى «كور» (جبل البركان، التنور)

يا «نين ماح» لأنك من اجلي عزمت على دخول تلك الأرض الجهنمية

ولأنك لم تخشي هول المعركة المحدقة بي،

من أجل ذلك سأدعو «التل» الذي كدسته، أنا البطل،

وأسمّيه باسم «حورساق» (حور = ثقب، نقب، ساق = نافث، قاذف) لتكوني ملكته.

ثم يبارك السيد «كورساق» (الثقب النافث، جبل البركان) لكي ينتج جميع أشكال الأعشاب والنباتات والعسل وصنوف الأشجار المتنوعة، وينتج الذهب والفضة والبرونز والماشية والغنم وجميع ذوات الأربع. وبعد أن أسبغ بركته على الجبل التفت إلى الأحجار فلعن تلك الأحجار التي اتخذت موقف العداء إزاءه في حربه»[4].

أليس هذا هو عين ما أكده القرآن الكريم في الآية الخامسة: ﴿ وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها ﴾. إن هذا الجبل وما يحيط به سيبقى هو «الأرض المقدسة» و«الأرض المباركة» و«الأرض التي باركنا حولها» منذ تلك البداية وإلى الآن، وإلى الأبد، كما سوف نرى في أمكنة لاحقة.

ولما كان علي بن أبي طالب باب مدينة علم الرسول، فكان أفضل من عبرّ عن

---

(1) أدولف ارمان، المرجع السابق، ص72 .

(2) كريمر، المرجع السابق، ص241 .

(3) سورة الزمر: 6 .

(4) صموئيل كريمر، المرجع السابق، ص152 – 153 .

علمه بنفثه البليغة المتميزة، لنستعرض بعضاً من كلام علي في الخالق وعن خلق السموات والأرض.

قال علي:

«كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة. وغير كل شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده. أنشأ الخلق إنشاء، وابتداه ابتداء، بلا روية أجالها، ولا تجربة استفادها.. أحال الأشياء لأوقاتها، ولام بين مختلفاتها، وغرّز غرائزها، وألزمها أشباحها. عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها.

ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء وشقَّ الأرجاء وسكائك الهواء. فأجرى فيها ماء متلاطماً تياره، متراكماً زخاّره، حمله على متن الريح العاصفة، والزعزع القاصفة. فأمرها بردّه، وسلّطها على شدّه، وقرنَها إلى حدّه. الهواء من تحتها فتيق، والماء من فوقها دفيق. ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبَّها، وأدام مُرَبَّها، واعصف مجراها، وابعد منشاها، فأمرها بتصفيق الماء الزخّار، وإثارة موج البحار. فمخضته مخض السّقاء، وعصفت به عصفها بالفضاء. تردّ أوله إلى آخره، وساجيه إلى مائره، حتى عبّ عبابُه، ورمى بالزبد ركامُه، فرفعه في هواء منفتق، وجوّ منهفق، فسوّى منه سبع سماوات، جعل سلفاهن موجاً مكفوفاً، وعلياهن سقفاً محفوظاً»[1].

إن قوله «أمرها بردّه» أي بمنع الماء من الهبوط. وقوله «قرنها إلى حدّه» أي جعلها مكاناً له حاملاً له؛ «اعتقم مهبها» أي جعل هبوبها عقيماً لا تلقح؛ «وأدام مُرَبَّها» أي ملازمتها له لأن ارب بالمكان مثل ألب به أي لازمه.

إن الصورة واضحة كل الوضوح: فتق الأجواء دليل على أنها كانت والأرض «رتقاً» قبل ذلك. والأجواء المحيطة بالأرض هي سماؤها. والماء المتلاطم تياره لم يكن على سطح الأرض بل محمولاً في الجو على متن الريح العاصفة والزعزع القاصفة. إن هذا يذكرنا بالجو المظلم الذي لا تنقطع رعوده

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، دار الهدى الوطنية، بيروت، المجلد 1، ص25 – 27.

وصواعقه والتي شبهتها الكتابات القديمة بالمعركة، وذلك لأن «المحيط المائي» كان محمولاً فوق الأرض على متن الرياح ويمنع نور الشمس من النفوذ إلى الأرض.

إن الصورة واحدة في التراث العربي.

وبعد أن استعرضنا صور خلق السماء والأرض في تراثنا العربي منذ أقدم حديث على الأرض مدوّن وحتى فجر الإسلام، نرى أن من المفيد الآن أن نلتفت إلى ما يقوله علم الطبيعة المعاصر.

«إن الكوكب الذي نعيش عليه اليوم كان في مراحل وجوده الأولى مجرد كرة فضفاضة ضعيفة التماسك بحجم يفوق حجمه الحالي عدة مرات. لكن تزايد وزنه جعله يتجمع أكثر وأكثر ويصبح بالتالي أكثف وأكثف. كما أن تزايد الضغط تسبب في نفس الوقت بتسخينه شيئاً فشيئاً بصورة متواصلة، ودعمت عملية التسخين هذه بتفكك العناصر المشعة التي كان يحتويها أنئذ الخليط الفوضوي اللامتجانس من الكتل المادية المختلفة.. عندما سخنت المادة المكونة للكوكب الناشيء أكثر وأكثر، حتى أصبحت أخيراً في الداخل سائلاً متأججاً، بدأت الجاذبية بفصل وتصنيف العناصر المختلفة التي تحتويها الكرة العملاقة تبعاً لوزنها. بهذه الطريقة يتوضح سبب كون نواة الأرض مؤلفة من معادن ثقيلة لكن ليس فقط في الداخل وإنما أيضاً في جميع الطبقات الأخرى.

وإن التراكيب الجيولوجية القائمة تشير، من ناحية أخرى، إلى أن الطبقات الخارجية للأرض يجب أن تكون أيضاً قد سخنت مؤقتاً على الأقل إلى درجة أصبحت معها في حالة لينة شبه سائلة نستطيع تشبيهها بالكتل المنطلقة لتوها من أعماق بركان هائج.

يصبح الأمر مثيراً عندما يتضح لنا اليوم أن كل عامل من هذه العوامل كان حقاً ذا أهمية حاسمة في عملية التطور اللاحقة: بعد عن الشمس قدره 150 مليون كم، حجم جعل ـ بسبب الحرارة الناتجة منه ـ نشوء نواة معدنية للأرض ممكناً، كمية من العناصر المشعة ساهمت في عملية التسخين تماماً بالمقدار الذي جعل أجزاء الأرض العليا تنصهر مشكلة السطح المتماسك والمترابط. لكن هذا التسخين كان تحت المستوى الذي لو وصل إليه لأدى إلى تفكك الروابط

الكيميائية المتشكلة والعودة بها إلى مكوناتها الأولية الدنيا.. لم نعد نهتم اليوم بالنشاط البركاني إلا من وجهة نظر سياحية أو ككوارث نسمع عنها في نشرات الأخبار. لذلك قد يتفاجأ البعض عندما يعلم أن الأرض لم تكن ابداً لتستطيع تطوير وحمل الحياة مالم تكن بركانية منذ البدء.

إن ما تبصقه هذه «الجبال الباصقة للنار» هو ليس فقط كتلاً من المواد البركانية الملتهبة، وإنما، بالإضافة إلى ذلك، آنذاك كما اليوم، كميات كبيرة من بخار الماء، بالإضافة إلى الآزوت وغاز الفحم والهيدروجين والميتان والأمونياك. بكلمات أخرى: كانت البراكين هي الفوهات التي تعرّق ـ بكل المعنى الحرفي لهذه الكلمة ـ كوكبنا عبرها العناصر الخفيفة المحبوسة في القشرة الأرضية، والتي أصبح السطح الآخذ في التبرد يحتاجها بصورة ملحّة. لولا البراكين لما حصلت الأرض أبداً على غلاف جوي من العناصر الغازية الخفيفة، ولما وجدت ـ من ثمّ ـ المحيطات والبحار.

إن كميات المواد التي نقلتها البراكين من داخل الأرض إلى خارجها اكبر مما يتصور معظم الناس. يقدر الجيولوجيون عدد البراكين النشطة في الوقت الحاضر بحوالي 500 بركان تدفع سنوياً إلى سطح الأرض كمية من الصخور يزيد حجمها عن 3 كيلو متر مكعب. بذلك تكون خلال الأربعة إلى الأربعة والنصف مليار سنة، التي مرت منذ تصلب القشرة الأرضية، قد خرجت كمية هائلة يعادل حجمها حجم جميع القارات، أما الإنتاج الغازي للبراكين فلا يقل عن ذلك. وبما أن هذا الإنتاج يتألف بنسبة 97 بالمئة من بخار الماء الذي هطل فيما بعد عبر الزمن ليتجمع في منخفضات الأرض فلا تبقى أية صعوبة لتصور نشوء المحيطات عن هذه الآلية..

ولو بقيت جميع المياه الموجودة اليوم على سطح الأرض على الحالة البخارية التي كانت عليها في تلك الحقبة العابرة لكان ضغط الهواء على الأرض يبلغ 300 ضغط جوي أي 300 ضعف عما هو عليه اليوم.. وعندما نحاول وصف الحالة التي كان عليها سطح الأرض في هذه المرحلة نحصل على صورة كابوسية: غلاف جوي كثيف بدرجة لا تصدق، لا تسمح نسبة بخار الماء العالية فيه لأي شعاع من ضوء الشمس باختراقه. لعشرات الآلاف من السنين استمرت

الانفجارات بين الغيوم بلا انقطاع وبقوة لا نستطيع تصورها اليوم. يضاف إلى ذلك حرارة تزيد عن مائة درجة، وسطح للأرض محاط ببخار الماء المخيم فوقه. كان المصدر الوحيد للضوء هو البرق الناتج عن عواصف رعدية تصمّ الآذان ولا تهدأ أبداً. إن رائد الفضاء الذي سيجد أمامه كوكباً تسود فيه مثل هذه الشروط سيكون في منتهى الحكمة عندما ينعطف راجعاً من حيث أتى. إنه لن يتجنب الهبوط على مثل هذا الجرم السماوي وحسب، بل وسيشطب اسمه بالتأكيد من قائمة الكواكب التي يتوقع أنها قابلة للحياة. بالرغم من كل ذلك كانت هذه الحالة فعلاً حالة الكوكب الذي نشأت عليه الحياة.

«إذا ما عدنا الآن إلى السياق التاريخي والقينا نظرة على الغلاف الجوي الذي أنتجته الأرض بعيد ولادتها سيلفت انتباهنا أن هذا الغلاف لم يكن يحتوي الأكسجين. إن بخار الماء، الهيدروجين بحالته الغازية، الآزوت، ثاني اوكسيد الفحم، الميتان، الأمونياك، ولربما أيضاً ثاني أكسيد الكبريت، هذه هي الغازات التي انطلقت من أعماق الأرض الملتهبة لتشكل أول غلاف هوائي لكوكبنا ولم يكن يوجد فيها الأكسجين الحرّ.

«إن جواً بهذا التركيب لايبدو لنا اليوم مميتاً وحسب، بل ومعادياً للحياة بصورة مطلقة.. لكن تاريخ الحياة ليس هو كما كانت العلوم تعتقد حتى وقت قصير.. إن الحالة الحاضرة للأرض بكل جزئياتها هي نتيجة لتطور كانت تجري فيه منذ البدء عمليات تأثير وتأثر متبادلة ومتواصلة بين الحياة والوسط الأرضي المحيط بها.. إن كل عملية تشترط الأخرى تؤثر عليها وتتأثر بها.. وستصادفنا في مجرى سردنا التاريخي مؤثرات تفتح أعيننا على ان للظاهرة التي نسميها «حياة» قدرة على التكيف تفوق تصوراتنا»[1] .

أما كيف وقف الماء فوق الأرض وحجب عنها نور الشمس لعشرات الآلاف من السنين، ثم كيف انهمر ليملأ البحار والمحيطات، هذا ما تجيبنا عنه أحدث إنجازات العلوم الطبيعية:

«إن هذه العملية التي استمرت عشرات الآلاف من السنين ستبدو لكثير من الناس

---

(1) هويمارفون ديتفورت، المرجع السابق، ص52 - 55 .

حدثاً دراميـاً مثيراً، لأن بخـار المـاء عندمـا بدأ بالتكثف ومن ثمّ بالهطول على شكل قطرات، كانت درجة حرارة القشرة الأرضية لم تزل تنوف عن 100 درجة بقدر كبير. لذلك عندما بدأ المطر آنذاك بالسقوط لأول مرة في تاريخ الأرض، لم تتبلل الأرض من هذا المطر، لأن القطرات المتسـاقطة كانت تتحول ثانية فور ملامستها سطح الأرض، كما لو لامست صفيحة حامية، إلى بخـار مـاء يرتفع مجدداً نحو الأعلى.

بهذه الطريقة راحت الحرارة الموجودة في القشرة الأرضية تنتقل إلى الطبقـات العليـا من الغـلاف الجوي بصـورة أسـرع وأكثر فعالية وتنتشـر من هنـاك في الفضـاء، وهكذا نرى أن كوكبنا قد سرّع بمسـاعدة بخـار المـاء المتسـرب من البراكين، هذه المرحلة من تاريخه وعجّل بالتالي عملية تبرده..

لقد تم قبل عدة سنوات اكتشـاف حقيقة لم يكن يتوقعها أحد، وهي أن الغلاف الجوي الأرضي الحـالي لم يكن في الأصل كمـا هو عليه الآن. وهكذا أدت التأملات والبحوث اللاحقة إلى حقيقة نشوء الغلاف الجوي بواسطة البراكين بالطريقة التي شرحناهـا مفصلاً.. ولقد جـاء الجواب أيضاً من دراسة الفلزات القديمة جداً في باطن الأرض. لقد تمكن الجيولوجيون من التأكد من وجود آثار الحت على هذه الفلزات. لقد وجدت إذن في أعمـاق الأرض دلائل لاشك في صحتها تشير إلى أن العينـات المدروسة قد تعرضت زمنـاً طويلاً جداً إلى التأثيرات المناخية السـائدة على سطح الأرض. رغم ذلك لم تطرأ على هذه الفلزات، التي غـارت في باطن الأرض قبل 2 – 3 مليار سنة بسبب عمليات الانطواء الجـارية في القشرة الأرضيـة، وبقيت هنـاك على أعمـاق كبيـرة بمعـزل عن الهـواء، أيـة تغيـرات كيميـائية من النوع الذي يجب أن يحصل ضمن الشروط المشابهة السـائدة حاليـاً في الغـلاف الجـوي الأرضي بسبب مـا يحتـويـه من الأكسجين. لقد كان، مثلاً، أوكسيد الحديد الذي تحتـويـه هذه الفلـزات، التي كانت في الأصل على سطح الأرض، ثنائي القيمة، أمـا اليوم فإن أول مـا يحصل في العمليات المنـاخية هو تحول مثل هذه الرابطة إلى أوكسيد حديد ثلاثي القيمة. كذلك كان الأمر بالنسبة

لبعض الروابط الأخرى من المعادن التي تحتوي الحديد والكبريت...»[1].

نعود إلى الموضوع: «بعد ذلك كان تبرد القشرة الأرضية قد تقدم إلى درجة أن الماء المتساقط من الجو المشبع ببخار الماء لم يكن يتبخر ثانية فوراً. بل بدأ يتجمع ويشكل المحيطات الأولى. بعدما حصل ذلك وجب أن يكون منظر الأرض قبل 4,5 مليار سنة يشبه بخطوطه العريضة الصورة التي يبدو عليها كوكبنا اليوم عند النظر إليه من مسافة بعيدة، أي يشبه تقريباً الصور التي تبثها لنا عنه الأقمار الصناعية. كان الجو آنئذ قد اصبح صافياً وشفافاً. كانت توجد غيوم على سماء زرقاء. كان للمحيطات والقارات تقريباً نفس الاتساع الذي لها اليوم. لكن اليابسة كانت موزعة على سطح الأرض بصورة تختلف بالتأكيد عما نراه اليوم على الخرائط المسطحة والكروية، أي أن التحرك القاري لم يكن قد بدأ بعد. كما أن الحياة لم تكن قد وجدت. كانت اليابسة تتألف بمعظمها من كتل بركانية متبردة وهي صخور عارية من الغرانيت والبازلت. كانت الرياح والأمطار قد بدأت لتوها بأعمال الحت والتفتيت التي حولت سطح الأرض الصخري شيئاً فشيئاً إلى غبار ورمل. اما الغلاف الجوي فكان، كما بَرْهنّا، يفتقد الأكسجين[2].

من كل ما تقدم نخلص إلى النتائج الأساسية التالية:

1 . إن الأساطير العربية القديمة ليست خرافات، كما قد يتوهم الكثير منا اليوم، وإنما هي أول كتب في التاريخ، وضعها مؤلفون علماء ثقاة في عصرهم بأسلوب أدبي، مستخدمين الاستعارات القصصية لتقريب المضامين من أذهان العامة. وقد أخذت منجزات العلوم التطبيقية والآثارية تثبت صحة المعلومات التي قدمتها عاماً بعد عام. وإن الباحثين والدارسين هم الذين يسيئون فهم تلك الأساطير منطلقين من قناعات سلفية تعصبية هزيلة، وافتراضات ومنطلقات مغلوطة قائمة في أساسها على التقليل من شأن الوطن العربي القديم، ومن دوره الحضاري الريادي كأول معلّم للإنسانية.

---

(1) المرجع نفسه، ص55 .

(2) المرجع نفسه، ص57 .

2 . إن الدراسة العلمية الموضوعية المتأنية للتراث العربي سوف تبيّن عظمة هذا التراث على كافة الأصعدة من جهة، كما تبيّن تواصله التاريخي المستمر عبر الزمن منذ آلاف السنين قبل الميلاد وحتى اليوم.

3 . إن هذا التراث قد تميز منذ بدايته بذلك الائتلاف الرائع والمدهش بين النظرتين العلمية والدينية إلى الله والكون والحياة والإنسان، بحيث تمكن العقل العربي، بصورة متفردة، من أن يوائم بين خط القيم والمثل، وبين العلم والتقدم العلمي بصورة تأخذ باللب، وتفتقدها اليوم كل حضارات الشعوب المعاصرة.

4 . لقد اثبتت معطيات هذا التراث الموغل في القدم، والمتواصل عبر الزمن دونما انقطاع، أن الفكر العربي عرف التوحيد منذ البداية، وأن التوحيد كان هو الأصل الذي بقي مستمراً، وأن كل التفرعات الأخرى التي ابتعدت عنه، أو تدنّت في كل المراحل التاريخية، لم تكن إلا انعكاساً لمستويات مدارك وأفهام الناس ضمن هذه المرحلة أو تلك، ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى، ممّا يضع كل النظريات الغربية الحديثة حول نشوء الدين موضع الشك ويتطلب إعادة النظر من الجذور.



الحلقة السادسة

«المركز» ونشوء الحياة



نشوء الحياة في الماء:

اجمعت كل مصادر التراث العربي القديم على أن الحياة على الأرض نشأت أو بدأت في الماء.

ففي التراث العربي السومري نجد أن الماء الذي يدعى مرة «مي» ومرة «يمو» ومرة «نين يمو» وأحياناً «نينا» أي ربة الماء، السيدة، الأم الكبرى، أو «نينتا» وتعني الشيء نفسه، وأحياناً «نين ماح» أي الربة المحيية أو الخالقة، هي السبب أو العلّة الأولى في نشوء الكائنات. يقول صموئيل كريمر: «فأولاً استنتجوا وجود ما يمكن تسميته بـ «البحر الأول» وهناك من الدلائل المستنتجة ما يشير إلى انهم رأوا في ذلك «البحر الأول» على أنه «السبب الأول» و«المحرك الأول» فلم يسألوا أنفسهم أي شيء كان في الوجود قبل «البحر» في الزمان والمكان.. وقد أعقب انفصال السماء عن الأرض وخلق الأجرام النيرة أن جاءت إلى الوجود الحياة النباتية والحيوانية والبشرية»[1].

ولقد اعتاد الشعراء العرب الأقدمون من سومريين واكاديين، وبابليين، أن يبدأوا أساطيرهم أو أشعار ملاحمهم بمقدمات عن أصل الكون والأشياء مما لا علاقة له علاقة مباشرة بالقطعة أو النص الأدبي أو الملحمة بوجه عام:

«وبعد أن أبعدت السماء عن الأرض،

وبعد أن فصلت الأرض عن السماء،

وبعد أن عيّن اسم الانسان (خلق الانسان)...»

وكانت «الماء» بأسمائها المختلفة: نينا، مي، مايا، نينتا.... الخ هي «أم جميع الأشياء الحية»[2] . «وأن «نموّ» كما كان اسمها يكتب بالعلامة التصويرية التي تعبر عن كلمة «ألبحر الأول» هي الأم التي ولدت السماء والأرض»[3].

أما عند عرب وادي النيل فإننا نجد الشيء نفسه، «لقد اعتقد المصري ان الأرض أيضاً قد برزت من الماء، وتصور أن مكاناً عالياً من الأرض كان اول ما ظهر

---

(1) صموئيل كريمر، المرجع السابق، ص153 .

(2) المرجع نفسه، ص183 .

(3) المرجع نفسه، ص161 .

على سطح ذلك الخضم القديم الذي يسمونه «نون»، وكان هذا المكان بمثابة بدء العالم، فهو التل الموغل في القدم أو كما قالوا: التل المزدهر الذي ظهر في أول العصور، وحددوا مكانه في مواقع مختلفة.. وكان هنالك شيء آخر فوق هذا التل الطمي شيء يتناسب مع طبيعة هذا العالم الطيني المجدب، هذا الشيء هو بيضة طائر مائي خرجت منها إوزة استحال بخروجها الظلام الدامس إلى نهار واضح، فهي الشمس التي طارت صائحة، ومن أجل ذلك سميت «الصائحة الكبيرة» فوق سطح الماء. فكان ذلك بمثابة الضوء الأول والصوت الأول الذي أضاء الظلام الدامس وانطلق في ذلك الصمت الأزلي الذي خيّم فوق العالم»[1].

و«عندما كان رب الشمس «أتوم» في المياه الأبدية «نون» قبل أن تتكون السماء والأرض، وقبل أن تخلق الدودة والعلقة، لم يجد مكاناً ما يقف فيه، فوقف فوق تل، ثم صعد فوق حجر الـ «بن بن» في مدينة الشمس»[2]، وإن هذا الماء البدئي كان يسميه قدامى العرب المصريين باسم «مات» أيضاً. وهذه الكلمة في العربية القديمة السريانية والفينيقية تعني «الرّحم»، والرحم هو مستودع الخلق والولادة، فعبروا عن الماء الأول الذي احتضن أولى بذور الخلق والحياة وأنشأها بكلمة «الرحم» أي مستودع الخلق. ومن الكلمة جاءت كلمة «أم» في كل لغات العالم فيما بعد من الهند شرقاً إلى الأطلسي غرباً عن طريق العرب السوريين فصارت Mother, Mater أي الأم الوالدة، الرحم، وبالروسية الحديثة Matka = الرحم، وMat = الأم. وقد نقل الدارسون الغربيون هذه الكلمة من النصوص العربية القديمة السورية والمصرية بصيغة «موت» خطأ لأن الكلمة كانت تكتب في العربية القديمة «مَتْ» أي بدون أحرف صوتية. يقول أدولف إرمان:

«وكان من أكثر الأمور إثارة مطاردة الإلهة «موت» زوجة آمون. فلقد شاء سوء الحظ أن يكتب بنفس الطريقة التي كانت تكتب بها كلمة «أم» وحينئذ فلم يبق شيء أمام من يريد إظهار بغضه لإلهة طيبة سوى أن يكتب كلمة «أم» بطريقة

---

(1) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص72 – 73 .

(2) المرجع نفسه، ص103 – 104 .

أخرى»[1] .

إن الكلمة، كما سبق أن بيّنا، هي «مات» وليست «موت» وهي فعلاً تعني بالعربية القديمة: الأم، الرحم، الوالدة.

أما المؤرخ السوري سانخونياتن فيقول: «... هكذا كان مبدأ خلق جميع الأشياء. ولم يكن لهذه الريح معرفة بما أنتجت ومن هذه المساكنة للريح وجدت «مات» وتلك كانت البذرة الوحيدة للخلق وأساس جميع الأشياء. منها جاءت الحيوانات ولكن بدون حساسية، وهذه بدورها ولدت الحيوانات العاقلة المدعوة «شوف شمين» يعني مراقبة السموات. كان لـ «مات» شكل بيضة عندما تكوّن: غدا مضيئاً فأنتج الشمس والقمر والنجوم والمجموعات الكبرى للنجوم»[2] .

إن الفكر واحد، والصورة التعبيرية هي عينها، وقبل أن نتسرّع ونفهم هذه «الاستعارات» بشكلها الظاهر كما دأب الباحثون حتى اليوم، علينا أن نمعن النظر كثيراً في هذه الصيغ التعبيرية لنجلو مضامينها. وقبل كل شيء لابدّ من ملاحظة الخطأ نفسه في نقل كلمة «مَتْ» (الرحم، الأم) التي نقلت «موت»، واقترانها في سوريا ووادي النيل بـ «البيضة الكونية» مبدأ خلق جميع الأشياء، أي التي حملت بذور الكائنات التي ظهرت إلى الوجود فيما بعد.

ولابدّ من الاشارة هنا إلى أن فكرة الخلق من الماء هي فكرة رئيسية عربية أصولية متواصلة منذ بدء الزمن العربي الموغل في القدم وحتى اليوم. ولقد اشار القرآن الكريم إلى ذلك في اكثر من موضع ﴿ أولم يرَ الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾[3].

كما أنه يجدر بنا هنا ألاّ ننسى أن هذه النصوص التراثية القديمة التي وصلتنا إنما وصلتنا مجتزأة موجزة ومبتورة وتجميعية على أيدي كثيرين. وبإمكاننا،

---

(3) المرجع نفسه، ص132 .

(2) يوسف الحوراني، المرجع السابق، ص44 - 45 .

(3) سورة الأنبياء 30 .

بشيء من التروي والتفكير، أن نفرز من بينها ما يتعلق بخلق الكون ككل عمّا هو متعلق بخلق الأرض وسمائها (غلافها الجوي) وكائناتها. كما انه لابدّ من الوقوف عند الصيغ الأدبية التشبيهية والاستعارية في تلك النصوص.

على ضوء هذا، ومن خلال هذه النصوص، كيف فهم إنساننا العربي القديم عملية الخلق، وكيف تمت ـ في رأيه ـ عملية الخلق من الماء؟.

لقد اجمعت مصادر التراث العربي القديم في سوريا ووادي النيل على أن سطح الأرض في تلك الحقبة الموغلة في القدم، قبل نشوء الحياة (أي قبل حوالي أربعة مليارات سنة) مرّت في مرحلة توفرت لها شروط معينة لا تتكرر من الحرارة والرطوبة والضغط والظلام (أو النور) والتركيبة الذاتية والمحيطة ممّا جعله يغدو حوضاً هائلاً لعدد لا حصر له من بذور الحياة الأولى، إنها «بيضة كونية» تحتوي على عدد هائل من البذور المتكونة في ذلك المحيط البدئي، أتيح لها لاحقاً، وبفعل شروط أخرى ملائمة أن «تفقس» لتنتج عدداً لا حصر له من المخلوقات الحية، كل منها ينتمي إلى بيضة تكونت تاريخياً بصورة مختلفة عن الأخرى. وبالتالي، ومنذ أن «فقست» تلك البيوض، وعبر مليارات السنين، هلك بعض أنواعها، وتكيف بعضها الآخر، إلى أن وصلت إلى ما هي عليه الآن محافظة كل منها على «شجرتها» المختلفة عن الأخرى، ودون أن تتطور جميعاً من «جذع واحد» أي بعكس ما افترضه داروين.

إن في أحد فصول بردية «نسي امسو Nesi Amsa» المحفوظة في المتحف البريطاني وفي الجزء الثالث منها تحديداً، نجد نسختين لهذا الفصل الذي يصف خلق جميع الأشياء الكائنة. والمتكلم هو الرب «نبرشتر» وهو يقول: «لقد أنشأت نشوء الناشئات، لقد أنشأت نفسي على هيئة نشوءات «حفيرا» Khepera ، وهي ما قد نشأت في بداية الأزمان طراً.

لقد نشأت مع نشوءات حفيرا، لقد نشأت بنشوء النشوءات، اي انني طورت نفسي من المادة الأولى التي صنعتها بيدي، وطورت نفسي من المادة الأولى... أنا جرثومة المادة الأولى، لقد نسجت إرادتي كلياً في هذه الأرض، وانتشرت في الخارج وملأتها، وقويتها بيدي، وكنت وحيداً، إذ ما من شيء كان قد جاء بعد. لم أكن قد فصلت عن نفسي اياً من شو أو تفنوت. ولقد نطقت اسمي، بوصفه

كلمة القوة، من فمي الخاص، وعلى الفور أنشأت نفسي. لقد أنشأت نفسي على هيئة حفيرا، لقد طورت نفسي من المادة الأولى التي أنشأت حشوداً من النشوءات منذ بداية الزمن، ما من شيء قد كان على هذه الأرض حينئذ. فلقد صنعت كل شيء، ولم يكن ثمة من يشتغل معي في ذلك الزمن. ولقد اجترحت النشوءات طراً يومذاك بواسطة تلك النفس التي صنعتها ثمتئذ، والتي كانت قد ظلت عاطلة في الهاوية المائية. ويومئذ ماوجدت مكاناً أقف عليه، ولكنني كنت قوياً في قلبي، فصنعت قاعدة لنفسي، وصنعت كل ما قد صنع. كنت وحيداً. عملت أساساً لقلبي (أو إرادتي)، وخلقت حشوداً من الأشياء أنشأت أنفسها كما فعلت نشوءات حفيرا، وجاءت ذرياتها إلى الكينونة من نشوءات ولاداتها، ثم إنني قد فصلت عن نفسي كلاً من الإلهين شو وتفنوت»[1].

ولقد دعي ذلك «الأساس» في الخلق في نصوص لاحقة بـ «حجري الأساس «بن بن» ثم أخذ قدامى المصريين يطلقون على أهم حجرين للأساس في بناء المعابد لرب الشمس اسم «بن بن»: ويقول أدولف إرمان: «وفي معبد الشمس الجديد بالكرنك نرى أهم شيء فيه هو حجر «بن بن» الذي يمثل الصخرة التي وقف عليها الرب «الشمس قديماً». وفي مدينة منف أقيم معبد لـ «رع» ذو طابع خاص، إذ لم يكن في هذا المعبد صورة لهذا الإله، بل حوى قطعة من الحجر مقدسة تسمى «بن بن» توضع في فناء مكشوف. واعتقدوا أن الشمس يجب أن ترسل أشعتها الأولى على هذا الحجر»[2].

إن هذا تأكيد على ارتباط حجري الأساس «بن بن» بالقوة الخالقة التي لم يجرؤوا على تصويرها، لنتوقف قليلاً عند هذا النص المذهل. وقبل كل شيء لابد من شرح معنى الاسمين الواردين «حفيرا» و«نبرشتر».

إن كلمة «حفيرا» هي في العربية القديمة، أي في السريانية والفينيقية، الحفرة، الهاوية، الماء، الظلمة، وهي «الحافرة» في العربية الحديثة وتعني النشأة الأولى، الحالة الأولى. وقد استخدمها القرآن الكريم في سورة «النازعات»

---

(1) السير ولس بَدج، المرجع السابق، ص64 – 65 .

(2) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص131 ,31 .

﴿ يقولون إنّا لمردودون في الحافرة. أإذا كنّا عظاماً نخرة. قالوا تلك إذن كَرَّة خاسرة ﴾. أي في الحالة الأولى أو في أول أمرنا[1]. لكن السير ولس بدج يعلّق شارحاً: «وكلمة «النشوءات» في الهيروغليفية هي خبيرو Khepero ومعناها الحرفي هو «تدحرجات» Rollings»[2]. أما الحقيقة فالكلمة هي «حفيرو» والعرب الأقدمون كانوا يلفظون الفاء P في معظم الحالات، و«النشوءات» لا تعني «التدحرجات»!.

أما «نبرشتر» اسم الإله الذي يتحدث عن نفسه في النص فهو من «نبرشتا» في العربية السريانية والفينيقية وتعني، نبراس، مصباح، ضوء، سنى، بهاء، نور..... الخ، والإضافة «er» إلى نهايات الأسماء كانت في العربية القديمة تضاف للدلالة على صاحب الشيء أو فاعله، مثل قنبا = قنب؛ وقنبر = صانع حبال القنب، بازيقو = بازي، باشق؛ بازيقار = الصائد بالبازي.... الخ، ومن العربية القديمة الفينيقية انتقلت إلى اليونان وإيطاليا ثم إلى اللغات الأوروبية الحديثة.

إن «نبرشتر» هو نفسه «نبروشا» في سوريا، وهو نفسه «إيا» أو «أنجي» (المخلّص، المنجّي)[3].

أما «شو» و«تفنوت» فقد كنا قد ذكرنا أن «شو» هو الجو، الظلام، الدخان الذي كان يحول بين الماء (نوت) والأرض، وقد جاء بسبب «تفنوت» التي ركّب اسمها من كلمتين «تف» وتعني الموقد، التنور، البركان، الفرن، الأثفية، الباصق اللهب، و«نوت» وهي الماء. وقد كانت البراكين ــ كما سبق أن ذكرنا ــ في تلك الحقبة تقذف بالنار وبخار الماء الذي يكوّن السماء المحمولة فوق «شو» دون أن يسمح لها بالهطول. وكانت «تفنوت» تصوّر «كلبوة تمزق أعداءها إرباً والنار تشعّ من عينيها وتخرج من فمها»[4]، وهي «الأخت التوأم لـ شو (لأنهما نتيجة

---

(1) انظر: «محيط المحيط» في «حفر».

(2) المرجع نفسه، ص69

(3) انظر: ادزارد، بوب، رولينغ. المرجع السابق، ص46 .

(4) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص78 .

لقذف البراكين) وكانت ترمز للرطوبة من جانب (بخار الماء المنبعث مع مقذوفات البركان) وللحرارة من جانب آخر (نار البراكين) »[1]، وهذا هو سبب اسمها المركب.

إن نظرة واحدة إلى عبارات النص تجعلنا نضع اليد على العناصر الأساسية التالية:

1. إن النشأة الأولى للحياة وجدت لأول مرة، ليس على سطح الأرض، بل في عمق المياه.

2. في تلك المياه وجدت «النفس» الأولى التي «كانت قد ظلت عاطلة في الهاوية المائية».

3. إن هذه «النفس» نشأت مع النشوءات الأولى «حفيرا» (الحافرة).

4. ولقد كوّن هذا «الإله المضيء» نفسه كجرثومة للمادة الأولى، ثم طور نفسه منها، وكان وحيداً، اي قبل ان توجد اية حياة اخرى.

5. لقد أنشأ نفسه على هيئة «حفيرا» (الحالة الأولى) اي بما يتلاءم معها للخلق والتطوير.

6. ثم طور نفسه، بعد أن تلاءم مع النشأة الأولى، «من المادة الأولى التي أنشأت حشوداً من النشوءات منذ بداية الزمن».

7. ثم صنع قاعدة لنفسه، او «أساساً لإرادته» (وكأنما صنع «نموذجاً» او «قالباً») وخلق، بناء عليه، حشوداً من الأشياء، صارت هي، وبناء على «النموذج»، تنشيء انفسها كما فعلت نشوءات النشأة الأولى (حفيرا).

8. ثم صارت ذرياتها تنشيء نفسها (بناء على النموذج الذي أودعه فيها وحفظته) بالولادات.

9. ثم إنه تركها، بعد أن سلّمها عملية الخلق بالولادة، وطار من الهاوية أو الماء البدئي ـ كما رأينا في نص سبق ـ وحطّ على التل، على حجر البن بن، وقد أضاء كالشمس، وأحدث صوتاً هو الذي ورد وصفه في نص سبق، ثم انطلق إلى أجواز السماء.

---

(1) السير ولس بدج، المرجع السابق، ص126 .

10. إن هذا ينسجم مع الفكر التراثي العربي منذ أن وجد، والذي يعتقد بوجود إله خالق واحد هو مركز هذا الكون كله، خلق بالكلمة كائنات نورانية أدنى منه وأعلى من الملائكة كثيراً ما دعيت بـ «رؤساء الملائكة» ودعيت في كثير من مدونات التراث «ميكائيل، إسرافيل، جبرائيل، عزرائيل» وهي مجاورة له، تعمل بمشيئته اعمالاً لا يقدر عليها غيرها. وهي ما دعيت في التراث العربي القديم السوري والمصري بـ «آلهة خالقة» و«آلهة غير خالقة». تنزل بأمره من السماء إلى الأرض، وتعرج إلى مواقعها في عالم النور، و«كان عرشه على الماء».

إن أحداً لديه إلمامة بسيطة بعلوم الطبيعة لا يسعه إلا أن يقف مشدوهاً أمام هذه العبقرية العربية القديمة التي تصف لنا عملية بدء الخلق على هذا الكوكب في المياه بنصوص عمرها أكثر من خمسة آلاف عام، وهي لا تقل دقة وعلمية، وفنية، عن اي نص آخر معاصر لنا في هذا الزمن.

وللتثبت من صحة ذلك، لنلتفت إلى أحدث ما توصلت إليه علوم الطبيعة في هذا الشأن، ولنقارن:

«إن تفسير شيء ما يعني علمياً دائماً إعادة هذا الشيء إلى أسبابه واشتقاقه من هذه الأسباب. لكن الأسباب تكون زمنياً دائماً، وبدون أن تدري، موجودة قبل النتائج التي ترتبت عليها أو نتجت منها. لذلك فإن لكل سبب نتيجة، لكن ما من قوة في الأرض تستطيع إحداث تأثير، ولو من أي نوع كان، بين النتيجة والسبب الذي نتجت عنه. إن الطريق يسير دائماً وحصراً من السبب إلى النتيجة. في الاتجاه المعاكس لا يوجد أي ترابط. هذا ما تقوله قواعد المنطق. لذلك فإن السبب لا يعرف شيئاً عن النتيجة التي سيحصل عليها(*).. كان تبرد القشرة الأرضية قد تقدم إلى درجة أن الماء المتساقط من الجو المشبع ببخار الماء لم يكن يتبخر ثانية فوراً، بل بدأ يتجمع ويشكل المحيطات الأولى... كان الجو آنئذٍ قد اصبح صافياً شفافاً.. أما الغلاف الجوي فكان، كما برهنّا، يفتقد الأوكسجين. لكن هذا لم يكن أساسياً بالنسبة لقدرة المتكونات العضوية الأولى

(*) إن هذا يذكرنا بقول سانخونياتن الذي سبق ان أوردناه: «هكذا كان مبدأ خلق جميع الأشياء. ولم يكن لهذه الريح معرفة بما انتجت».

على الحياة وحسب، بل كان، على الأرجح، السبب الذي جعل نشوءها ممكناً فعلاً، لأن الأوكسجين هو أكثر العناصر الجوية فعالية لحجب الأشعة فوق البنفسجية القادمة من الشمس. تعتبر هذه الأشعة، ذات الموجات الأقصر من موجات الضوء المرئي، غنية بالطاقة بصورة خاصة. ولو لم تكن لتحجب اليوم بقسمها الأعظم عن سطح الأرض بواسطة الغلاف الجوي الذي يحتوي الأوكسجين لما تمكنّا من العيش هنا. إن القسم الصغير منها الذي يخترق الغلاف الجوي هو الذي يسبب لنا، كما هو معروف، الحرقة الشمسية المؤلمة التي تصيبنا عند التعرض لأشعة الشمس... وتعتبر الأشعة فوق البنفسجية بالنسبة لجميع الكائنات الحية خطيرة إلى درجة أنها تستعمل في غرف العمليات وفي المخابر الكيميائية للتعقيم، أي لقتل الكائنات العضوية البكتيرية الدقيقة. على العكس من ذلك، فقد كان هذا الجزء بالذات من الأشعة الشمسية ضرورياً في العصور الأرضية الأولى. إذ أنه كان المصدر الوحيد الذي يستطيع مدّ الروابط اللاعضوية الموجودة في الغلاف الجوي بالطاقة اللازمة لتلتحم مشكلة تلك الجزئيات الكبرى التي شكلت لاحقاً المادة الأولية للكائنات الحية.
بقول مختصر: كانت الأشعة فوق البنفسجية كمصدر للطاقة ضرورية لتشكل العناصر العضوية الأولى للحياة. لكن في اللحظة التي تشكلت فيها هذه العناصر توجّبَ حجب الأشعة فوق البنفسجية عنها وإلا أدت إلى تفكيكها ثانية فوراً. هذا مثال آخر يبيّن بوضوح كم كانت الظروف ضيقة ومعقدة في هذه المرحلة من التطور قبل نشوء الحياة الأولى على الأرض بزمن طويل...
كانت الأشعة فوق البنفسجية القادمة من الشمس تصل بدون عوائق تقريباً إلى سطح الأرض، وبالتالي إلى سطح المحيطات الأولى. أدت هذه الحالة فوراً إلى نتيجة مزدوجة: كانت جزئيات الميتان وغاز الفحم والأمونياك، بالإضافة إلى بعض الروابط الأخرى، التي تحتوي عناصر الفحم والآزوت والأوكسجين والموجودة في الغلاف الجوي قد تواجدت أيضاً وبصورة مركزة إلى حدّ ما في جميع المياه الراكدة، أي في المحيطات والبحار. وكانت قد وصلت إلى هناك بواسطة عمليات الخلط المتواصلة التي تسببها الرياح والأمواج بين طبقات الماء العليا والهواء الجاثم فوقها. كما أنه من الممكن أن يكون القسم الأعظم

منها قد خُلِّص من الغلاف الجوي بواسطة الأمطار الهائلة التي استمرت آلاف السنين خلال الحقبة الأسبق من تاريخ الأرض.

من المؤكد أن الأشعة فوق البنفسجية قد نفذت إلى عمق عدة أمتار في الماء الغني بهذه الجزئيات. لذلك تمّ تحريض الجزئيات المعنية في طبقة بهذا العمق لتتجمع مشكلة «قطع بناء» أكبر. لكن نفس الأشعة التي سببت نشوء هذه القطع قامت بتفكيكها بعيد نشوئها إلى مكوناتها الأولى. بذلك نتجت دورة متواصلة ومتكررة من الترابط والتفكك يجب أن تكون قد حصلت في الطبقات العليا لجميع المياه المتجمعة.

إن دورة من هذا النوع تعتبر مثالاً مدرسياً للدخول في طريق مغلق. بناء على المعارف العلمية المتوفرة اليوم يوجد سببان جعلا عملية التطور تتمكن من الخروج من هذه الدوامة. الأول، هو أن هذه الدورة، كما ذكرنا، حصلت فقط بالقرب من سطح الماء، أي في طبقة قد يصل عمقها إلى عشرة أمتار، ولم يتجاوز بأية حال الخمسة عشر متراً. في الأعماق الأكبر لم تعد الأشعة فوق البنفسجية تستطيع التأثير بقوة كبيرة لأن طبقات الماء التي فوقها بدأت تعمل كمصفاة واقية.

بذلك استطاع قسم من الجزئيات الأكبر المتشكلة بتأثير الأشعة فوق البنفسجية أن يحتمي دائماً في تلك الأعماق المائية الأكبر. بتعبير أدق كان يندفع باستمرار قسم منها بتأثير تحركات الماء الهائج إلى أعماق لا تصل إليها الأشعة القاتلة مبتعداً عن خطر التفكك. وبذلك بدأت هذه الجزئيات الكبيرة، الهامة جداً بالنسبة لعملية التطور اللاحق، تتجمع في الأعماق الأمينة لا مبالية بطبيعة الدورة لعملية نشوئها.

في نفس الوقت سببت الأشعة فوق البنفسجية عملية ثانية جعلت هذه الجزئيات لا تبقى منفية في الأعماق إلى الأبد. كانت طاقة هذه الأشعة القصيرة الموجة قوية إلى درجة أنها تستطيع تفكيك جزئيات الماء نفسها إلى مكوناتها الأولية. لذلك يجب أن يكون قد حصل على سطح محيطات وبحار الأرض الأولى ما يسميه العلماء التفكك بالضوء، أي تفكك الماء بتأثير الضوء: انشطرت الرابطة H_2O إلى هيدروجين حر وأوكسجين حر.

صعد الهيدروجين المتحرر، وهو أخف العناصر، عملياً بدون أية إعاقة نحو الأعلى عبر الغلاف الجوي وضاع أخيراً في الفضاء. اما الأوكسجين فقد بقي في الغلاف الجوي. لكن الأوكسجين، كما سبق وقلنا، هو مصفاة شديدة الفعالية ضد نفاذ الأشعة فوق البنفسجية. لذلك لم تستمر هذه العملية من التفكك بالضوء بصورة متواصلة.

ولم يحصل نوع من الدورة المتكررة، وإنما تدخّل ما يسمى قانون الكبح العكسي: كبحت العملية نفسها عندما بلغ الأوكسجين في الغلاف الجوي حداً معيناً، أي الحدّ الكافي لحجب الأشعة فوق البنفسجية، وبالتالي لوقف إنتاج الأوكسجين عن طريق تفكك الماء.

أدّت طبيعة التعيير الذاتي لهذه العملية إلى ان نسبة الأوكسجين الموجودة في الغلاف الجوي قد تحددت بدقة كبيرة على مقدار معين. عند نقطة محددة تماماً يتوقف إنتاج الأوكسجين، عندما ينخفض تركيزه تحت هذا المقدار (بواسطة عمليات تأكسد على سطح الأرض تسحب الأوكسجين من الجو) تتراجع فعالية التصفية للأشعة فوق البنفسجية، عندئذٍ تستطيع عملية التفكك الضوئي المتابعة، وتبقى مستمرة حتى يعود التركيز الأصلي إلى المستوى الذي كان عليه.

أطلق العلماء على هذا المثال النمونجي للتأثير المتعاكس اسم «مؤثر يوري» تكريماً للعالم الكيميائي الأمريكي هارولد يوري حامل جائزة نوبل والذي اكتشف هذه الخطوة الحاسمة في تطور الغلاف الجوي الأرضي..

كان مؤثر يوري إذن هو الذي أوقف تأثيرات الأشعة فوق البنفسجية على سطح الأرض، ابتداء من هذه اللحظة أصبحت الجزئيات المتشكلة في الماء، وقبل تفككها ثانية، في مأمن، أي أن مرحلة العملية الدورية المستمرة من التشكل والتفكك كانت قد انقضت.. ولقد حاول عالما الفيزياء الجيولوجية لويد بيركنر ولاوريستون مارشال في جامعتي دالاس وتكساس، قبل عدة سنوات ترجمة آلية مؤثر يوري إلى أرقام ملموسة ومحددة... كان بيركنر ومارشال هما أول من تنطح لمهمة حساب هذا المقدار المعقد بمساعدة الحواسب الالكترونية، حتى هما أنفسهما لم يتوقعا أية نتائج مثيرة، كانا يريدان معرفته وحسب. لكن

هذين العالمين أصبحا بعدئذٍ مؤسسي نظرية تطور الغلاف الجوي الذي أصبح اليوم معتمداً من أغلب العلماء، وقد قدم هذا الرقم مساعدة كبيرة لتطوير هذه النظرية الشاملة. لقد شكل نقطة انطلاق متينة للتأملات اللاحقة، وكان ذا أهمية عظمى لتدقيق وفحص التماسك الداخلي للمبنى الفكري بكامله.

بينت الحسابات ان مؤثر يوري قد ثبت تركيز الأوكسجين في الغلاف الجوي الأول عند النسبة 0,1 بالمئة، اي واحد على الف مما هو عليه اليوم. نستطيع أن نتصور كيف أن دقات قلبي الباحثين الأمريكيين قد تسارعت عندما قذف لهما حاسبهما أخيراً بهذه النتيجة. تشير النتيجة إلى أن تلك النسبة من الأوكسجين المنتج إلزامياً بمفعول مؤثر يوري شكلت مع الشروط الجوية الأخرى السائدة آنذاك مصفاة للأشعة فوق البنفسجية تؤمن أقوى وأفضل حماية ضد الموجات الموجودة في المجال بين 2600 و2800 أنغستروم. بذلك لم يعد هذا المقدار لا محدوداً. إنها أرقام يعرفها أي متخصص في الكيمياء العضوية أو الحيوية. إنه بالضبط المجال الذي تكون فيه البروتينات والحموض النووية (التي تخزن في نواة الخلية مخطط بناء الكائن الحي «الشيفرة الوراثية») على أكبر قدر من التحسس بالأشعة...

من المهم أن لا ننسى أن هذين «الحجرين»، [لاحظ كيف يستخدم العلماء اليوم الصيغة العربية القديمة نفسها، وهي «حجر الأساس» بن بن] أو المركبين البيولوجيين، اللذين لا غنى للحياة عنهما، لم يكونا قد وجدا بعد على الاطلاق في هذه اللحظة من تاريخ الأرض. لم تكن حتى أسلافهما قد وجدت بعد.. إن تركيبهما معقد وبنيتهما متميزة لدرجة أن تشكلهما بالصدفة ضعيف الاحتمال برقم فلكي. إنه عملياً غير ممكن... حقيقة لايمكن تفسير نشوء جزئية واحدة من جزئيات البروتين، بكل ما لها من وظائف بيولوجية ومن تركيب شديد التخصص والتميز، عن طريق التقاء الذرات المنفردة الكثيرة التي تتألف منها، صدفة، وأن تلتقي فوق ذلك جميعها صدفة بالتسلسل الصحيح، وباللحظة الصحيحة، وفي الموقع الصحيح، وبالمواصفات الكهربائية والميكانيكية الصحيحة...

هناك ثلاث إمكانات: تكمن الامكانية الأولى في الاكتفاء باعتبار أن كل ما حصل

حتى الآن قد حصل بمحض الصدفة... مهما كانت الاحتمالات الاحصائية ضد هذه الفرضية فإن حدثاً وحيداً لا يمكن نفيه مبدئياً عن طريق الاحصاء.

أما التفسير الثاني فيكمن في أن تاريخ نشوء الأرض بجميع جزئياته قد سار بالتحديد في الطريق الذي أدى بالضرورة إلى نشوء المركبات المعقدة اللازمة لتشكل العضوية الحية بتأثير تدخل مباشر لقوة فوق طبيعية.. اي أن هذا التحضير المدهش للشروط السائدة على سطح الأرض، والذي جعلها تلبي جميع احتياجات الحياة الناتجة لاحقاً، قد حصل لأن خالقاً قديراً يقف خارج الطبيعة كان يريد منذ البدء أن تنشأ الحياة على الأرض. ما من أحد، وحتى ولا اي عالم، يستطيع أن ينفي أن للإله القدرة على توجيه التطور في المجرى الذي يناسب إرادته.

أما التفسير الثالث فلا نحتاج فيه إلى تدخل فوق طبيعي «موجِّه» ولا إلى افتراض الصدفة غير المرضي الذي وإن كان نقضه ببرهان قاطع غير ممكن إلا أن احتماله يكاد يكون معدوماً. يقوم هذا التفسير بكل بساطة على الافتراض أن كل شيء، بما في ذلك هذه الحالة، قد حصل بالطريق الطبيعي: عندما مكن التطور على الأرض قبل 4 مليارات سنة من نشوء حالة هيأت أفضل الشروط المناسبة لتشكل البروتينات والحموض النووية. نشأ هذان المركبان في مجرى التطور اللاحق بكميات كبيرة. وعندما تطورت الحياة على الأرض في وقت لاحق فقد اعتمدت على هذين المركبين لسبب وحيد هو أنهما كانا النوعين الوحيدين من الجزئيات المعقدة، وبالتالي القادرة على التحول، والمتوفرة بكميات كافية»[1].

إن ما أوردناه حتى الآن يؤكد مقولة الفكر العربي القديم حول نشوء الحياة في الماء، بل تحت سطح الماء، ويفسّره علمياً. وفي الوقت الذي ينحو فيه علماء الطبيعة منحى اختيار احتمال الصدفة في تكوين الجزئيات المكونة الأولى للحياة، رأينا كيف أن الفكر العربي القديم يؤكد تدخل قوة فوق طبيعية (إلهية) في عملية الخلق عند كل مأزق أو منعطف حرج كان يبدو فيه الطريق أمام الطبيعة مسدوداً.

---

(1) هويمارفون ديتفورت، المرجع السابق، ص56 – 66.

احتمال «الصُدفة»
في نشوء الحياة بين العلم الطبيعي والدين

يقول هويمارفون ديتفورت: «كم هو مقدار الاحتمال لأن يصطف بالصدفة 20 حمضاً امينياً مختلفاً في سلسلة مؤلفة من 104 حلقات تماماً بالتسلسل الموجود لدى سيتوكروم سي؟ الجواب هو 1 إلى 20^{104}. إذا ترجمنا هذا الاحتمال إلى اللغة اليومية نقول: إنه غير ممكن. هذا هو الوجه الآخر للصدفة التي تستطيع أن تقدم لنا البرهان الملموس على القرابة القائمة بين كل ما يعيش على الأرض. لا يجوز الآن، بعد أن استخدمنا بسخاء هذه الطريقة في البرهان بما يخدم الغرض، أن نحس رغبتنا في السؤال عما إذا لم تكن هذه الدرجة من الاحتمال الضئيل تدحض كل ما حاولنا تعليله حتى الآن: الآلية الذاتية للتطور الجاري في الكون ونشوء الحياة الحاصل في إطار هذا التطور بطريقة طبيعية لا حياد عنها. لذلك نكرر دفعاً لأي التباس: إن احتمال نشوء سيتوكروم سي بالصدفة المحضة يبلغ حسابياً (فقط 1 من 20^{104}). هذا يعني انه لو نشأ في كل ثانية مرت منذ بدأ الكون حتى الآن انزيم جديد لما بلغ عدد جميع الأنزيمات الناتجة سوى 10^{17} انزيماً. وحتى لو كانت جميع الذرات الموجودة في الكون بكامله سلاسل أنزيمية، كل ذرة منها سلسلة أخرى بدون أي تكرار، لوجد في كامل الكون (فقط 10^{80} جزيئة سلسلية مختلفة). أما احتمال أن يوجد بينها جميعها جزيئة واحدة وحيدة من سيتوكروم سي فلن يكون حتى في هذه الحالة سوى 1 من 10^{24} (أي 1 من 1000 كفادريليون). من البديهي أن هذا الاحتمال الضئيل ينطبق مبدئياً على نشوء جميع الانزيمات الأخرى وأيضاً على الحموض النووية التي لا غنى للحياة عنها أيضاً.

إذا أخذنا هذه الحسابات، كما هي هنا، يبدو لنا لا مفرّ من الاستنتاج: إن الحياة إمّا أن تكون واقعة غير محتملة بدرجة قصوى، أي حالة استثنائية فريدة وجدت في كامل الكون مرة واحدة وحيدة هنا على الأرض، وهي بالنسبة لهذا الكون ظاهرة لا نموذجية على الاطلاق في كل جانب من جوانبها. أو أنه يوجد حقاً عوامل ما ميتافيزيقية استخرجت الحياة من مجال الصدفة المحضة.

كلا الاستنتاجين واسع الانتشار ويتم تكرارهما حتى الاشباع في المناقشات المختلفة.

هناك مثال شهير هو المجادل الذي لا يتخلف عن حضور أية محاضرة حول موضوع نشوء الحياة والذي يسأل المحاضر بلهجة مستهجنة: كم من الزمن يجب أن نخضّ 1000 تريليون ذرة معدنية لكي تنتج «بالصدفة» سيارة مرسيدس.... أو: كم من الزمن يحتاج قطيع مؤلف من 100 قرد لكي ينتج «بالصدفة» بالضرب العشوائي على 100 آلة كاتبة مقطعاً من مسرحية لشكسبير»[1].

وبعد هذا العرض الذي يقدمه هذا العالم الطبيعي يؤكد انه يرفض وجود أية قوى فوق طبيعية تدخلت من أجل نشوء الحياة. ولابدّ هنا من الإشارة إلى أن الاستنتاج الذي استنتجه اعتباطي دونما اساس حول أن الحياة نشأت «في كامل الكون على الأرض فقط». وسواء أكان الأمر بالصدفة أم بتدخل قوى فوق طبيعية، فإنه لا يؤدي إلى مثل هذا الاستنتاج الذي قال به بعض العلماء الطبيعيين. ثم يشرح وجهة نظره في عملية نشوء الحياة قائلاً: «في البدء كانت تاثيرات تحريضية متواضعة تكفي لسير عملية التطور. لم يكن المنافسون قد وجدوا بعد. ضمن هذه الظروف تكفي حسب معارفنا الحالية أنواع من الأنزيمات ذات 40 أو 50 حلقة فقط على شرط أن يكون بعض الحموض الأمينية فيها موجوداً على مواقع محدّدة تماماً. من الممكن إثبات هذا تجريبياً، مهما كان ضئيلاً التسارع الذي أعطى لتفاعلات كيميائية معينة مثل هذا التركيب فإنه كان يعني على كل حال سبقاً، مهما كان زهيداً، نتج عنه أوتوماتيكياً تكاثر هذا النوع من الجزيئات.

إذا ما انطلقنا من هذه الحالة الواقعية الوحيدة نتوصل إلى أرقام مختلفة تماماً. اصبحنا الآن دفعة واحدة أمام حالة يكفي فيها بضع ملايين من الحموض الأمينية القصيرة السلسلة لتهيئة الفرصة لنشوء انزيم أولي ولكل المشكلة من اساسها. أما بالنسبة لتشكل الحموض النووية التي تستخدم أيضاً كأمثلة

---

(1) ديتفورت، المرجع السابق، ص129 – 131 .

محببة لهذا النوع من تلاعب الأفكار الاحصائي، كانت القيود المفروضة على الطبيعة أقل. بالنسبة للأنزيمات لم تكن الطبيعة حرة تماماً في تصفيف حلقات السلسلة لأن الشكل الفراغي للجزيئة يؤدي بالضرورة إلى حصول تأثير كيميائي محدّد (وإن كان آنذاك لم يزل ضعيفاً). أما فيما يتعلق بتشفير الحموض النووية (د ن س) فإنه حتى هذا الشرط لم يكن موجوداً. هنا كانت الطبيعة، حسب معارفنا الحالية، حرّة في أن تعطي الأسس المختلفة وترتيب اصطفافها، أي كما هيأته الصدفة. لذلك فإن المحاججة الاحصائية لا تصلح هنا البتة ولا معنى لها»[1].

وإذا ما كان لنا أن نعلق على هذا القول قبل أن ننتقل إلى وجهة النظر الأخرى (الدينية) فإن القراءة العادية والمعمقة تضعنا أمام النقاط التالية:

1. من أجل نشوء الحياة لابد من تكوّن أنزيمات (للتحريض) ذات حلقات مصفوفة ومرتبة.

2. لابدّ من وجود (أو تكوّن) الحموض الأمينية المصفوفة والمرتبة بحلقات في سلاسل وموجودة على مواقع محدّدة من حلقات الأنزيمات.

3. لابدّ من تشكل الحموض النووية ببرامجها المصفوفة والمرتبة بدقة تامة، والمشفرة تشفيراً ترميزياً، مما سوف تجري عملية «ترجمته» لانتاج ما تتطلبه عملية الانتاج في الخلية.

4. إن كل هذه العمليات تخضع لنظام خاص محدّد ومرتب بدقة تامة وبأمانة تامة، واحدة بعد أخرى، دون أن يسمح «للفوضى» بالظهور.

5. إننا، بناء على هذا، إذا ما اعتمدنا مبدأ «الصدفة» في البدء، رغم احتمالاتها الضئيلة ـ كما سبق أن ذكر المؤلف نفسه ـ فإننا سوف نجد أنفسنا مضطرين إلى اعتمادها في كل المراحل اللاحقة التي هي أكثر تعقيداً وانضباطاً، وأقل حظاً في نسبة الظهور بين الاحتمالات ذات الأرقام الفلكية. وفوق هذا وذاك فإنه سوف يكون علينا أن نعتقد بأن المادة الجامدة كانت «عاقلة» منذ البداية حتى تتمكن من إنجاز كل تلك العمليات المسلسلة بمثل تلك الدقة المعجزة.

---

(1) المرجع نفسه.

اما وجهة النظر الأخرى التي تفترض تدخل قوى فوق طبيعية (إلهية) في عملية الخلق وتدحض مبدأ «الصدفة» تماماً فقد رأينا في مناقشة الشيخ نديم الجسر (مفتي طرابلس) للموضـوع مـا يفي بالغرض، وينمّ عن سعة اطلاع وثقافة، وإلمام بمنجزات الكثير من العلوم التطبيقية. يقول الشيخ نديم الجسر:

«إن المصـادفة تكون أحياناً ممكنة، وتكون احياناً في حكم المستحيلة عقلاً. فعليك، إذاً، أن تبدل صيغة السؤال وتقول ما هي قيمة المصادفة في ميزان العقل السليم؟.

خذ هذا اللوح، واغرز فيه إبرة، وضع في ثقبها إبرة ثانية وقل لي يا «حيران» إذا رأى إنسان عاقل هاتين الابرتين وسأل كيف ادخلت الثانية في ثقب الأولى، فأخبره إنسان معروف بالصدق أن الذي أدخلها رجل ماهر قذف بها من بعد عشرة أمتار، فاستطاع أن يدخلها في سمّ الإبرة الأولى. ثم اخبره إنسان آخر، معروف بالصدق أيضاً أن الذي القاها صبيّ صغير وُلد أعمى من بطن أمه، فوقعت في الثقب (بطريق المصادفة) فأي الخبرين يصدّق؟

● حيران: إنـه ولا ريب يميل إلى تصديق الخبر الأول، ولكنـه امـام صدق المخبرين يرى أن المصادفة ممكنة، فلا يجزم بترجيح احد الخبرين على الآخر.

● ● الشيخ: ولكن إذا رأى هذا الرجل إبرة ثالثة مغروزة في شق الثانية أيضاً فهل يبقى عدم الترجيح على حاله؟

● حيران: كلا، بل يتقوّى ترجيح «القصد» على «المصـادفة»، ولكنه على كل حال يبقى ترجيحاً ضعيفاً.

● ● الشيخ: ولكن إذا رأى الرجل أن هنالك عشر إبر، كل واحدة منها مغروزة في ثقب الأخرى التي تليها، فهل يبقى ترجيح فكرة القصد على ضعفه؟

● حيران: كلا، بل يتقوى عنده ترجيح «القصد» حتى تكاد فكرة «المصـادفة» أن تتلاشى.

● ● الشيخ: ولكن لو جاءه إنسان، من أولئك الذين يصدق فيهم قول القرآن ﴿ وكان الانسان اكثر شيء جدلا ﴾ وأخذ يجادله في معنى الاستحالة العقلية والاستحالة العادية، ويبرهن على أن «المصادفة» ليست مستحيلة لا عقلاً ولا عادة، ولكنها تكون احياناً مستبعدة، فإن صاحبنا العاقل لابدّ له أن يذعن.

• حيران: إن العقل يذعن، ولكن القلب يميل إلى ترجيح «القصد».

• • الشيخ: ولكن إذا ترقينا في تعقيد الأحجية، وقلنا إن الإبر العشر مرقمة بخطوط لكل منها رقم، من الواحد إلى العشرة، وقيل لنا في الخبر إن الصبي الأعمى اعطي كيساً فيه هذه الإبر ويلقيها: فتقع الأولى في شق المغروزة في اللوح، وتقع الثانية في الأولى، وتقع الثالثة في الثانية، والرابعة في الثالثة،.. وهكذا حتى أدخل الإبر العشر بعضها في بعض على ترتيب أرقامها، وأن ذلك قد حصل بطريق «المصادفة». وجاء ذلك الإنسان المجادل يحاول أن يبرهن عن ان إمكان المصادفة لم يزل موجوداً وغير مستحيل عقلاً، فماذا يكون موقف صاحبنا العاقل مع هذا المجادل؟

• حيران: لا ريب في أنه لا يصدقه، لأن «المصادفة» بهذا التتابع والتعاقب بعيدة جداً جداً، وإن لم تكن مستحيلة.

• • الشيخ: بل إنها في مجال الاعداد الكبيرة تصبح مستحيلة بداهة ياحيران.

• حيران: اعتقد ان هذه البداهة تأتينا ممّا جربناه في الحياة من ندرة تكرر المصادفات وتعاقبها.

• • الشيخ: كلا، ولكن هذه البداهة تعتمد في أعماق العقل الباطن على قانون عقلي رياضي لا يمكن الخروج عنه.

• حيران: ما هو هذا القانون يامولاي؟

• • الشيخ: إنه قانون المصادفة الذي يقول: «إن حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الامكانيات المتكافئة المتزاحمة». فكلما قلّ عدد الأشياء المتزاحمة ازداد حظ المصادفة من النجاح، وكلما كثر عددها قلّ حظ المصادفة. فإذا كان التزاحم بين شيئين اثنين متكافئين يكون حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد اثنين)، وإذا كان التزاحم بين عشرة يكون (واحد ضد عشرة) لأن كل واحد له فرصة للنجاح مماثلة لفرصة الآخر بدون أقل تفاضل طبعاً. وإلى هنا يكون الحظّ في النجاح قريباً من المتزاحمين حتى لو كانوا مئة أو ألفاً. ولكن متى تضخمت النسبة العددية تضخماً هائلاً يصبح حظ المصادفة في حكم العدم، بل المستحيل. ذلك لأنه إذا اتفق للصبي الأعمى أن

سحب اول مرة الرقم (1) قلنا إن حظ المصادفة للرقم (1) تغلب على الاعداد الأخرى المتزاحمة معه بنسبة (واحد ضد عشرة). واما إذا اتفق له أن سحب العددين (2,1) بالتتابع قلنا إن حظ المصادفة للعدد الثاني هو بنسبة (واحد ضد مئة)، لأن كلاً من العشرة يزاحم للرتبة الثانية ضد عشرة، فيصبح التزاحم بين مئة، وإذا اتفق ان سحب الصبي الأعمى الإبر الثلاث (3,2,1) على التوالي، قلنا إن حظ المصادفة بنسبة (واحد ضدّ الف) لأن كلاً من العشرة يزاحم ضد مئة.. وهكذا.. فإذا افترضنا أن الصبي سحب الإبر العشر على ترتيب أرقامها فإن حظ المصادفة يصبح بنسبة (واحد ضد عشرة مليارات).

يقول حيران بن الأحنف: وأخذت في الحساب فتبيّن في النهاية صدق كلام الشيخ فقلت له:

حقاً يامولاي إن حظ المصادفة يصبح بنسبة واحد ضد عشرة مليارات، ولكني، على وجود هذه النسبة البعيدة التفاوت، لا أزال أتصور أن المصادفة في سحب هذه الإبر العشر، على ترتيب أرقامها، ممكنة وغير مستحيلة.

● ● الشيخ: سأنقلك إلى ترتيب آخر في شكل آخر واعداد أكثر: لو فرض أنك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف مفرّقة في صناديقها، فجاءت هزّة أرضية قوية قلبت صناديق الحروف على بعضها وبعثرتها وخلطتها. ثم جاءك منضّد الحروف يخبرك انه قد تألف في اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعاني، فهل تكون تصدّق؟

● حيران: نعم أصدق.

● ● الشيخ: ولكن لو قال لك إن الكلمات العشر تؤلف جملة كاملة مفيدة فهل كنت تصدق؟

● حيران: أستبعد ذلك جداً كما استبعدته في مثال الإبر العشر، ولكن لا أراه مستحيلاً.

● ● الشيخ: ولكن لو اخبرك ان حروف المطبعة بكاملها كوّنت ـ عند اختلاطها ـ بالمصادفة، كتاباً كاملاً من 500 صفحة ينطوي على قصيدة واحدة تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة متلائمة منسجمة بألفاظها وأوزانها وقوافيها ومعانيها ومغازيها، فهل كنت تصدق ذلك ياحيران؟

● حيران: أبداً لا أصدقه يامولاي.

● ● الشيخ: ولماذا لا تصدقه ياحيران؟

● حيران: لأني هنا اجد الاستحالة بديهية حقاً.

● ● الشيخ: ولماذا يا حيران؟

● حيران: لا أدري يامولاي. ولكني عندما أتصور أن الإبر العشر ألقيت على ترتيب أرقامها بالمصادفة لا أجد وجه الاستحالة واضحاً وبديهياً كما أجده في مثال الكتاب.

● ● الشيخ: السبب يرتكز على قانون المصادفة نفسه: فالتزاحم بين الإبر المرقمة يجري بين عشر إبر على عشرة ترتيبات، فيجعل حظ المصادفة بنسبة واحد إلى عشرة مليارات. وهذه النسبة على تفاوتها الكبير، ليست في العظم بحيث تحدث لك في عقلك تلك البداهة في إدراك الاستحالة. ولكن التزاحم بين حروف الكتاب يجري بين 500 ألف حرف على تكوين 125 ألف كلمة تقريباً بأشكال وترتيبات لا تعدّ ولا تحصى أبداً. وهذا ما يجعل حظ المصادفة بنسبة واحد ضد عدد هائل جداً جداً (إلى رقم فلكي).

«... هذا في كتاب المطبعة وكلماته المحدودة المعدودة يا حيران، فما قولك في كتاب الله الأعظم وكلماته التي يقول عنها جلّت قدرته ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ ويقول ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾.

● حيران: هل يعني مولاي بكتاب الله القرآن وما فيه من كلمات؟

● ● الشيخ: أرجو أن يكون فهمك للقرآن أسمى من هذا وأعمق ياحيران. فكلمات القرآن التي بين دفتي المصحف محدودة معدودة.. فلا يعقل أن تحتاج كتابتها إلى مداد ينفد فيه ماء البحار ولا إلى أقلام تنفد بها أشجار الأرض.. كلا ياحيران. وإنما عنيت بكتاب الله هذا العالم كله، وعنيت بكلمات الله، كما أراد الله كل ما في ملكوت السموات والأرض (من شيء) محسوس من عالم الخلق أو معقول من عالم الأمر. وكيف تنفد كلمات ربي، ياحيران، وكل ذرة من مياه البحار وأشجار الأرض هي من كلمات ربي؟ بل كل ما في الكون من ذرات

وعناصر ونظم وقوانين ونواميس، ونسب وروابط وعلائق، وأقدار وأحجام وأوزان، ومُدد وأوقات وأزمات، وصور وأشكال وألوان، وحركات وسكنات وأوضاع، وأجناس وأصناف وأنواع، كلها من كلمات ربي...»[1].

وفي مكان آخر يدعو الشيخ تلميذه للتفكر في السموات وفي خلق الله وفي «مواقع النجوم» التي لا يمكن أن تكون «صدفة» والتي قيل عنها في القرآن الكريم ﴿ ولا اقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسَمٌ، لو تعلمون، عظيم ﴾. ونحن هنا سوف نورد الحديث لغرضين: الأول، لما لمواقع النجوم من ارتباط بمسألة «القصد» أو «المصادفة»؛ والثاني، لما لها من ارتباط بالنظام «السبعي» (3,4) الذي كثيراً ما اشارت إليه مصادر التراث العربي في خلق الله.

يقول الشيخ، بعد أن يتحدث عن الحجم الهائل والعدد الهائل والبعد الهائل والعمق الهائل للكون والمجرات والسدم والمجموعات وعن أحجام كواكب مجموعتنا الشمسية: «.. هذا في ترتيب أحجامها. وأما بعدها عن الشمس فالكواكب تأتي على ترتيب آخر: فأقربها عطارد الذي يبلغ متوسط بعده عن الشمس 36 مليون ميل، ثم الزهرة ومتوسط بعدها 67 مليوناً، فالأرض ومتوسط بعدها 93 مليوناً، فالمريخ وبعده 142 مليوناً، فالمشتري وبعده 484 مليوناً؛ فزحل وبعده 787 مليوناً، فأورانوس 1782 مليوناً؛ ونبتون بعده عن الشمس 2792 مليوناً من الأميال وما نكرت لك هذه الأحجام والأبعاد لأعرفك بشيء أنت تعرفه، أو تستطيع أن تعثر عليه في أبسط كتب الفلك، وإنما ذكرتها لأعرفك بما تنطوي عليه هذه الأبعاد من نسب مقدّرة تدهش العقول: فقد كشف العلماء أن أبعاد هذه السيارات عن الشمس جارية على نسب مقدرة ومطردة تسير وفق 9 منازل : أولها (الصفر) ثم تليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد 3 ، ثم تتدرج متضاعفة (على أساس الثلاثة) هكذا: (3 – 6 – 12 – 24 – 48 – 96 – 192 – 384). فإذا أضيف إلى كل منها العدد (4). ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل ظهر مقدار بعد السيارة التي في منزلة العدد عن الشمس. أي إنه باضافة (4) إلى كل منزلة تصبح المنازل التسع هكذا (4 – 7 – 10 – 16 – 28 – 52 – 100 – 196 – 388).

---

(1) الشيخ نديم الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، دار الخلود، بيروت، الطبعة الثالثة، 1969 ص289 – 297 .

فإذا أخذنا أعداد المنازل هذه وضربنا كل عدد منها بتسعة ملايين يظهر لنا بعد السيارة التي هي في منزلة ذلك العدد عن الشمس، فعطارد مثلاً يبلغ متوسط بعده عن الشمس 36 مليون ميل كما سبق القول. وبما أن منزلته في البعد هي الأولى فيكون رقمها 4 . فإذا ضربنا 9×4 ملايين يكون حاصل الضرب 36 مليون ميل. وهكذا تسير النسبة في بعد كل سيّار عن الشمس مع فروقات مختلفة قليلة.

ولكنهم حاروا كيف تكون المنازل التي اكتشفوها في تفاوت الأبعاد تسع منازل في حين أن الكواكب المعروفة ثمانية. فقد وجدوا أن منزلة العدد 28 ليس فيها كوكب، بل يأتي بعد المريخ صاحب العدد 16 كوكب المشتري الذي هو صاحب العدد 52 . فما هو السر في هذا الفراغ؟ إمّا أن تكون النسبة التي اكتشفوها غير مطردة، وإمّا أن يكون هنالك كوكب غير منظور في مرتبة العدد 28 على بعد 252 مليون ميل عن الشمس، أي بين المريخ والمشتري.

ومن عجائب النظام الباهر أنهم وجدوا أخيراً في هذا الفراغ الشيء الذي قدّروا أنه لابدّ من وجوده، ولكنهم لم يجدوه كوكباً كبيراً بل كويكبات صغيرة كثيرة(*) تدور كلها في الفراغ المذكور الذي بين المريخ والمشتري، أي في نفس المنزلة التي حسبوها من قبل فارغة.

فهل هذا التناسب في مواقع النجوم وأقدارها، ومواقع الكواكب وأبعادها كله أثر من آثار «المصادفة» العمياء ياحيران؟»[1].

ونحن نقول: إن هذه النسبة المنتظمة في بعد تلك الكواكب عن الشمس لا يمكن أن تأتي أيضاً نتيجة لمصادفة عمياء، بل هي تدبير مقدّر. ولا تنفي فرضية «الصدفة» في عملية الخلق فقط، وإنما تجهز نهائياً على نظرية النشوء عن انفجار كوني! إن أي انفجار كوني شامل لا يمكن أن يوزع شظاياه بمثل هذا

(*) بعد أن اكتشفت تلك المجموعة الكثيرة من الكويكبات الصغيرة في ذلك الموقع ظهر كثير من الفرضيات في الغرب، من بينها أن ذلك الكوكب ربما كانت نهايته على أثر تفجير حضاري على أيدي سكانه لأنه ــ كما ذكروا ــ يتمتع موقعه بمزايا قد تجعله ربما أحد الكواكب التي كانت مأهولة بمخلوقات حضارية راقية (المؤلف).

(1) المرجع نفسه، ص307 – 309 .

الترتيب المتسلسل المقدّر بصرف النظر عن حجم الكوكب، والقائم في أساسه على سلسلة من الحلقات الثلاثية وعلى اساس هو الـ 4 الذي هو عماد كل بناء، فكانت الكعبة كبناء مربع رمزاً لهذا البناء الكوني العظيم، فالعدد 4 يمثل أركان العرش كما يمثل المركز.

وقلنا فيما سبق إن الفكر العربي القديم ميز في هذا الكون بين عالمين: المادة والروح، وأن الله الواحد الأحد هو الأزلي الدائم، وهو الخالق، يخلق الأشياء طراً بأمره، بكلمته، ويهيمن بقدرته على كل مخلوقاته.

وذكرنا كيف أن الأساطير العربية القديمة وصفت لنا عملية خلق الأرض والسموات، فأخبرتنا كيف ان الأرض ظلت دهراً طويلاً في ظلام دامس بسبب وقوف الماء في الجو محمولاً على متن الريح فحجب عنها اشعة الشمس، وبقيت بين قصف الصواعق والرعود من فوق، وانفجارات نيران البراكين من تحت. إن هذا هو ما حكته لنا الأساطير العربية القديمة من سورية ومصرية بغاية الدقة والاتقان، وإن هذا هو ما قالته الأساطير العربية السومرية والبابلية، وقد صورت واقع الأمر كما لو كان معركة بين السماء والأرض، حينما كان الماء هو الذي يشكل السماء المخيمة فوق الأرض، ينحني بلهفة (كما تنحني «نوت» في الصورة التي خلفها لنا عرب وادي النيل الأقدمون). كانت هذه السماء جزءاً من الأرض ومتصلة بها، إذ ما تكاد قطرات الماء تصل إلى الأرض حتى تصعد متبخرة في اللحظة نفسها، وكأنما تسقط على صفيحة حامية. وهذه الصورة هي التي أكدها لنا القرآن الكريم في عبارة معجزة ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي افلا يؤمنون ﴾ (الأنبياء 30). وهي الصورة عينها التي فصّلها علي بن أبي طالب في كلامه البليغ، وبقيت الأجيال حائرة زمناً طويلاً أمام مثل تلك الأقوال وتلك الصور إلى أن أثبت أخيراً العلم الطبيعي الحديث صحتها ودقتها وعلميتها.

والآن، ومن أجل استكمال عملية شرح تفاصيل العملية في الفكر العربي القديم لنتابع العرض والشرح مع ما توصل إليه علم الطبيعة المعاصر، ولنقارن:

ذكرنا أن التراث العربي القديم راى في الكون بنياناً (سباعياً) مؤلفاً من سبع سماوات تدور جميعاً حول مركز واحد. وهذا البنيان يشمل الكون كما يشمل

اصغر جزء منه. وقد اكتشف ان الكترونات الذرة تدور حول النواة في سبع «مدارات»، وانه، كما توجد في كل سماء مجراتها، كذلك في كل مدار في الذرة توجد «سحابات» لم تكتشف مضامينها بعد. وفوق هذا وذاك فقد رتب الفكر العربي بنية الكون ترتيباً روحياً، إلى جانب ترتيبه المادي، انطلاقاً من الإيمان بوجود الخالق الذي يملأ هذا الكون بأفعاله، ويهيمن عليه ويدّبره. فإذا كانت السموات سبعاً فإن أربعاً منها تمثل هذا الكون المادي وهي: التراب والماء والهواء والنار، ثم يأتي فوقها عالم النفس، ثم عالم العقل المحض، ثم عالم الروح المحض. وهذه الأشياء الثلاثة ليست من هيولى هذا العالم المادي. يقول هرمس (إدريس) في «زجر النفس»: «يانفس تيقني ما أنا باسطه لك وممثله. فإني اختبرت هذا العالم وبحثت عنه فوجدت هيولاه على جهة ابتداء لا على معنى اختيار. فكل ما لطف وشرف امتاز إلى العلو. وكل ما تكاثف وخشن امتاز إلى أسفل. ثم وجدت الحركة الفلكية تقسم هيولى هذا العالم إلى أربعة أصول وهي النار والهواء والماء والأرض. وإني اعتبرت هذه الأركان الأربعة في حركاتها ومعانيها فوجدتها تتحرك بالطبع حركة هيام وموت لا حركة عقل وحياة. وإني وجدت أشياء كائنة من هذه الأركان ذات حياة ونطق وعقل. فعجبت كيف تكون الأشياء الميتة أصولاً للأشياء الحية العاقلة. ثم قلت لعل هذه الأركان إذا امتزجت في بدن الحيوان الناطق أحدثت فيها حياة وعقلاً. ولكن كيف يسوغ في العقل أن يمتزج الميت بالميت فينتج منهما حي. أو يمتزج جهل بجهل فيكون منهما عقل، فدفعتني الضرورة حينئذ إلى ان أقول: إن هذا الشيء الحي العاقل هو شيء ليس في هيولى هذا العالم، أعني عالم الكون والفساد، بل من أشياء طارئة عليه غريبة عنه، واردة إليه، وصادرة عنه»[1].

وإن هذه البنية «السباعية» تهيمن على كل «خلق» بصيغة من الصيغ. ومن هنا كان للعدد 7 قيمة خاصة في التراث العربي. فالسموات الكونية سبع، وسماوات كل سماء وكل أرض سبع أيضاً. والمعابد الأولى كانت تمثيلاً للسماوات السبع التي تحفّ بعرش الرب الخالق. وإن العدد 7 هو وحدة «خَلْقية» أساسية، ودعاها

---

(1) احمد غسان سبانو، المرجع السابق، ص65.

العرب الأقدمون «مناثا» وهي بالسريانية والفينيقية تعني: وحدة، جزء، حصة، وهي من الفعل «منا» = عدّ، حسب، أحصى. وقد اعتبرت هذه «الوحدة» تعبيراً عن «الكلمة» الإلهية التي تعني «الخلق». وهي المصطلح الذي نقله الفلاسفة السوريون فيما بعد إلى بلاد اليونان وايطاليا ودعيت «مُنادا» لأن (الثاء) تحولت هناك إلى (د). وقد تلقفها افلاطون وفيثاغورث وفيلون الاسكندري وغيرهم.

وصارت هي نفسها الـ «لوجو» Logos أي الكلمة الخالقة. يقول فيلون الإسكندري: «إن الله أنشأ بواسطة الكلمة وحدات لا تنقسم لأن الكلمة ليست عنده اهتزاز الهواء، كما انها ليست تختلط بشيء آخر، ولكنها ليست جسمية، ولا تختلف عن الوحدة»[1]. وهناك ارتباط بين اللوجو (الكلمة) والعدد سبعة «فالعالم المعقول مركب من سبعة حدود»[2].

ولما كان العرب الأقدمون يعتقدون أن عملية خلق الانسان الأول تمت على أرضهم، فإن أول لغة كانت هي لغتهم، وأنها لغة سماوية مقدسة، ذات بنية رياضية ومنطقية، فلكية وكونية. وأن العدد 7 يكمن في أعماقها مع كل عملية خلق لها صلة مباشرة بقوى السماء الأولى. ولما كان هذا الكون مؤلفاً من أصوله الأربعة، ومن النفس والعقل الصادرين عن روح هذا الكون المطلق الذي هو الله، فإن العدد سبعة مؤلف في أساسه من ثلاثة حدود لا يمكن استبدالها بغيرها هما 1 + 2 + 4 أي أن كل عملية خلق هي عبارة عن ترميز كلامي وعددي يترجم في الواقع مخلوقاً تختلف بنيته النفسية والروحية والمادية باختلاف ترميزه، وإن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة في العالم التي اقترنت حروفها منذ البداية (أي منذ أن وضعت) بنظام عددي فلكي، وهو ما يعرف بحساب الجّمل. وقد أوغل كثير من المفكرين العرب في فلسفة العدد حتى ابتعد كثير منهم عن المطلوب، ولم يكن فيثاغورث الفينيقي سوى واحد من أولئك.

وكي نقرب الصورة من ذهن القارىء اكثر نورد له بعضاً من الأمثلة القريبة. لقد أكد القرآن الكريم أن الخلق يتم بالكلمة «كن»: ﴿ إنما قولنا إذا أردناه أن

---

(1) إميل بريهييه، الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الاسكندري، ص130 .

(2) المرجع نفسه، ص131 .

نقول له كن فيكون ﴾ (النحل: 40).
ونحن لو جمعنا القيمة العددية لكلمة «كن» وجدنا: ك = 20 ، النون = 50 فالمجموع هو 70 ، وإذا ما جمعنا الحدّين السبعة والصفر كان الناتج 7 .
ولما كانت الكلمة هي الأمر أيضاً، فلو جمعنا القيمة العددية لكلمة «أمر» وجدنا:
أ= 1 ، م= 40 ، ر= 200 أي 1 24 ، وهي 7 = 2 + 4 + 1 .
ولما كانت الروح مقترنة دائماً بالروح الكلي لهذا العالم، بالأمر، بالقدرة الإلهية ﴿ وأوحينا في كل سماء أمرها ﴾، أي روحها المدبّر، فإن كلمة «روح» هي:
ر= 200 ، و= 6 ، ح= 8 فيكون المجموع 214 = 4 + 2 + 1 = 7 .
ولما كان «البيت المعمور» في القرآن الكريم هو تمثيل العالم الروحاني لخلق الإله، وكلمة «بيت» صارت في التراث العربي تمثيلاً للكون كله، للعمارة الكونية، ومركزاً للتوجه الروحي إلى المركز في السماء السابعة، وهو المقصود في «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين» وهو الذي تقدس في وادي النيل تحت اسم «بيتو» (وكتب أحياناً بوتو) فهو أيضاً خاضع لنظام السبعة الخلقية: الباء= 2 ، الياء= 10 ، التاء= 400 فيكون الناتج 412 أي 2 + 1 + 4 = 7 ...
ولو هبطنا إلى أول خلق في الماء، كما في بردية «نسي امسو» (وتعني كائن المستنقع أو الماء) لوجدنا أن «بن» هي عبارة عن ب = 2 ، ن = 50 فيكون الناتج 52 أي2 + 5 = 7 .
وإن كلمة نون الذي هو البحر الأول هي ن= 50 و= 6 ، ن= 50 فالمجموع 106 أي 7 = 1 + 6 .
تلكم كانت بعض الأمثلة على البنية الرياضية الكونية والروحية للّغة العربية التي تفردت بها وحدها بين جميع لغات الأرض.
ولنعد الآن إلى نص بردية نسي امسو(*) وما يقوله علم الطبيعة الحديث.
يقول علماء الطبيعة اليوم: «لقد أصبح اليوم أصل النظام السائد في هذا العالم

(*) «نسي أمسو» في العربية القديمة تعني معجزة الماء الآسن. وهي من نيسي = آية، معجزة، وامسو= ماء أسن، رطوبة، نتانة، فساد.. الخ.

الجزيئي معروفاً أيضاً، إنه يكمن في نواة الخلية. هنا يتخزن مخطط بناء الخلية ووظائفها بكل تفاصيله. علينا أن لا نتصور وكأنه يوجد هنا مخطط للخلية وتفاصيلها إذ لا يوجد في أي مكان من نواة الخلية ما يمكن ان يكون مثلاً صورة للخلية الحقيقية مصغرة إلى مقياس الجزيئة. ثم ماذا ستكون الفائدة لو وجدت مثل هذه الصورة؟ كيف كان يجب أن يكون المفعول البيولوجي لمخطط بهذا المعنى الحرفي للكلمة، وكيف ستكون ترجمته إلى واقع ممكنة؟
في الحقيقة إننا نجد أمامنا هنا مرّة أخرى مخططاً بصيغة رموز، أي بصيغة إشارات تعني أشياء لا تتطابق معها ذاتها. هنا، في نواة الخلية حلّت الطبيعة أيضاً هذه المسألة التجريدية بأن خزنت المعلومات اللازمة بواسطة الاصطفاف، أي بالتسلسل الذي تتخذه الوحدات الأصغر. يحصل ذلك إذن وفق نفس المبدأ الذي نستخدمه نحن في عالمنا، ذي المقاييس الأكبر بأرقام فلكية، وبمساعدة وعينا القادر على التجريد، لتخزين الكلمات والمفاهيم بواسطة الكتابة.
أيضاً بواسطة الكتابة، في نصوص هذا الكتاب مثلاً، يتم تخزين المعلومات ذات التنوع اللامحدود تقريباً بمساعدة عدد محدود من الاشارات (22 حرفاً مثلاً) بشكل أن تسلسلاً معيناً للحرف (= كلمات) يعني مفاهيم محدّدة. هنا أيضاً لا تتطابق الاشارات والمعنى بل إن علاقتها ببعض هي نتيجة لصدفة تاريخية تطورية طويلة، ليس هناك أي تشابه بين الحرف أ والصوت الذي نطلقه حين قراءته، أي الصوت الذي يرتبط به، لهذا السبب يتوجب علينا تعلّم معناه بعناية في المدرسة. كذلك تسلسل الحروف (ط ب ي ع ة) لا يشترك بأي شيء مع المفهوم الذي نخزنه بهذا التسلسل..
إن عدد الإمكانات المتوفرة لترميز نفس المفهوم وفق مبدأ تسلسل معين لخمسة وعشرين حرفاً هو من الناحية المبدئية كبير بدرجة فلكية.
لنعد الآن بعد هذا الخروج القصير عن الموضوع (الذي سندرك أهميته لاحقاً) إلى نواة الخلية التي تحتوي مخطط بناء الخلية، كما تعلمنا جميعاً في المدرسة فإن هذا المخطط، أو مجمل الخصائص الوراثية للخلية، مخزن في الجينات (المورّثات) التي تتجمع في نواة الخلية مشكلة الكروموزومات (الصبغيات

الوراثية) التي يمكن رؤيتها بالمجهر تحت شروط معينة.
لقد حقق علماء البيولوجيا الجزيئية إنجازاً مذهلاً بأن عرفوا الشكل الذي يسجل فيه مخطط البناء في هذا الجزء من الخلية، هنا وجدوا أيضاً مرة أخرى إشارات يحتوي اصطفافها أو تسلسلها على معلومات حول جميع مكونات وخصائص الخلية. لكن هنا لم تكن الحموض الأمينية هي التي تشكل الحلقات كما هو الأمر خارج النواة لتشكيل الأنزيمات، بل إن التي تشكل الحلقات هنا هي وحدات جزيئية أخرى هي (النواتيات) ذات المحتوى الأسسي، يطلق الكيميائيون على الجزيئة السلسلية التي تتألف حلقاتها من مثل هذه النواتيات تسمية الحموض النووية.

هنا في جزيئات الحموض النووية في نواة الخلية يُختزن مخطط بناء الخلية بصيغة ما يسمّى الشيفرة الوراثية، إن جزيئات التخزين هي بالتحديد الدقيق حموض نووية ريبية منقوصة الأكسجين دن س (يشذ عن ذلك بعض الفيروسات).
تستخدم الأسس الموجودة في الحلقات النووية كحروف. إذا ما فكرنا بالعدد الهائل لأشكال الحياة نفاجأ للوهلة الأولى بالعدد الضئيل للأسس: إنها فقط اربعة أسس مختلفة ترمّز الطبيعة بواسطتها خصائص ومظهر جميع اشكال الحياة التي وجدت على الأرض في كل تاريخها الماضي والتي ستوجد عليها في كل تاريخها المستقبلي.

لكن عدد الحموض الأمينية التي تشكل قطع بناء اية خلية حية هو ايضاً فقط عشرون حمضاً، غير أن إنتاجها يمكن توجيهه بواسطة تعليمات مركبة من اربعة حروف فقط (طبعاً بترتيبها الكيفي مع جواز تكرار الحرف) عندما نضع في اعتبارنا أننا نستطيع أن نشكل من 4 حروف مالا يقل عن 64 كلمة مؤلفة من 3 حروف. [لاحظ الأساس 4 والحلقة او الكلمة 3]. لقد سلكت الطبيعة بالضبط هذا الطريق، حيث تستخدم دائماً 3أسس (تشفير ثلاثي، أي كل شيفرة تتألف من ثلاث إشارات). لتشفير واحد من الحموض الأمينية العشرين التي تشكل قطع البناء اللازمة. لكن بما أنه من الممكن بواسطة 4 أسس مختلفة تشكيل ليس فقط

20 وإنمـا 64 شيفـرة ثلاثية مختلفة يبقى لدى الطبيعة عملياً 44 شيفرة ثلاثية فـائضـة.

إنه حقاً لمثير أن نعرف مـاذا فعلت الطبيعة بهذا الفـائض: لقد استخدمت 41 منها لتشفير حموض امينية معينة تشفيراً مزدوجاً، أي تشفيرها مرتين، وأحياناً ثـلاث مـرات.. سيصيبنـا الذهول إذا مـا علمنـا أن الطبيعـة قد استخدمت هذه الإمكـانيـة انطـلاقـاً من المبدأ القـائل: المدروز مرتين يكون أمتن، إذ ان علمـاء البيولوجيا الجزيئية لاحظوا أن التشفير المضـاعف يتركز بصورة خـاصة على الحمـوض الأمينية ذات الأهمية البيولوجية المتميزة [يمكن ان نلاحظ بسهولة كيف أننا إمّا أمـام طبيعة واعية (عاقلة) وهذا مـا ثبت دحضه علمياً، وإمـا نحن أمام تدخل قوة من الخـارج].

مـاذا بشـأن الشيفرات الثلاثية الثلاثة المتبقية؟ إنها تستخدم للتنقيط (لوضع نقطـة بين جملتين) تمـامـاً وحرفياً! إننـا نجدهـا في جزيئات د ن س السلسلية الطويلة جداً دائمـاً في المواضع التي تنتهي عندهـا تعليمات بنـاء جسم بروتيني مـا، أنزيم مـا، وتبدأ تعليمات بنـاء بروتين آخر. بفضل هذا التنقيط تستطيع جزيئة د ن س واحدة تتكون سلسلتها من عدة ملايين من الشيفرات الثلاثية أن تحتـوي مخططـات بنـاء عدد كبير من الجسيمـات الأمينيـة المختلفـة دون أن تتداخل التعليمات المختلفة مع بعضها البعض.. [مرة أخرى نحن أمام ظاهرة تلغي مبدأ الصدفة].

إن الحمـوض النـوويـة د ن س تحدّد تحديداً كـاملاً بواسطة الشيفرات الثلاثية الأسسيـة الممكنـة البالغة 64 شيفرة ليس فقط بنـاء الخلية وإنمـا أيضـاً مجمل وظائفها ونشـاطاتها.

نستطيع أن نتبين على ضـوء العملية الحسـابية التـاليـة مـاهي الاحتمـالات المختلفة الممكنة عند استخدام كتابة مؤلفة من 4 حروف فقط: تتيح 4 حروف (أسس) استـخدام 64 شيفـرة ثـلاثيـة مختلفـة، بهذا العدد يمكن تشفير جميع الحموض الأمينية العشرين مرة واحدة على الأقل، وتشفير الهام منها لزيـادة الأمـان أكثر من مرة، لنفترض الآن أن الأنزيم الذي ستنتجه الحموض النووية د ن س من هذه الحمـوض الأمينيـة العشـرين يحتـوي على 100 حلقـة (حمض

اميني)، عندئذ يتوفر لخواص الأنزيم، ضمن الشروط التي شرحناها، عدد من الامكانات المختلفة يفوق في كبره الأرقام الفلكية مراراً عديدة، من السهل البرهنة على ذلك: عندما تتوفر الإمكانية لترتيب عشرين حمضاً امينياً مختلفاً ترتيباً كيفياً (حيث يكون تكرار استخدام نفس الحموض مسموحاً) في مئة موقع، فإننا نحصل، حسب قواعد الرياضيات الحسابية، على عدد من الإمكانات المختلفة قدره 20^{100} ، اي اننا نستطيع، بكلمات أخرى، ضمن الشروط المذكورة انتاج 20^{100} من الأنزيمات ذات التسلسلات الحمض ـ امينية المختلفة، وبالتالي ذات الخصائص البيولوجية المختلفة.

إن 20^{100} هو عدد يحتوي 130 صفراً. لا يوجد حتى اسم لهذا العدد الهائل الذي يفوق كل تصور..

على هذا الأساس لا توجد إذن أية صعوبات في ان نتصور انه من الممكن، ضمن الظروف المتوفرة، تخزين الاستعدادات الوراثية والخصائص، والوظائف والتركيب لجميع الكائنات الحية التي وجدت على الأرض في كل ماضيها الطويل أو التي ستوجد في المستقبل اللاحق كله لهذا الكوكب، دون أن تتعرض عملية التطور لأية قيود في عملية الاختيار أو تجد أي تضييق في الاحتمالات الممكنة.

بهذه الطريقة تملي الحموض النووية (د ن س) لنواة الخلية بواسطة فقط 64 كلمة تشفير ثلاثية مختلفة، أو شيفرة ثلاثية، شكل ووظيفة الخلية المنفردة، وتحدد فوق ذلك بالنسبة للكائن الحي المتعدد الخلايا مخطط بناء عضويته بكاملها..

«وعلاوة على هذا كله فلقد تمكن العلماء في العقد الأخير بواسطة تكنيك رفيع للتحليل الكيميائي من التعرف بشكل ملموس على الصفوف التي تشكلها الحموض الأمينية في سلسلة انزيم معين.. ولقد درس الأنزيم سيتوكروم سي وحلّل جيداً بالطريقة الجديدة لدى معظم الحيوانات. وسيتوكروم سي هو إنزيم تنفسي يكمن تأثيره النوعي في انه يتوسط لانتقال الأوكسجين الذي يحمله الدم إلى داخل الخلية، يتألف هذا الإنزيم لدى جميع الكائنات الحية تقريباً من 104 حلقات (يوجد في بعض الحالات الشاذة عدد من الحلقات الاضافية).. ونتيجة التحليل والدراسة تأكدت فرضية واحدة هي أن «اللغة» التي تكتب بها الشيفرة

الوراثية هي نفسها لدى جميع أشكال الحياة. أي أن الشيفرة الثلاثية الأسسية التي تستخدم لتوفير حمض أميني معين «تعني» نفس هذا الحمض في كامل نطاق الطبيعة الحية، سواء تعلّق الأمر بالبكتريات أو الزهور أو الأسماك أو الإنسان»[1].

«نود هنا فقط أن نُشدّد على الحقيقة بأنه من بين جميع الحموض الأمينية الممكنة كيميائياً والتي يمكن تحضيرها مخبرياً يوجد عشرون حمضاً فقط ذات أهمية بيولوجية. جميع الملايين الكثيرة من البروتينات المختلفة التي نجدها عند البشر والحيوانات والنباتات (باستثناء بعض الحالات الشاذة القليلة جداً) تتكون من هذه المجموعة العشرينية من الحموض الأمينية.

كما أن جميع الفروق القائمة بين مختلف أنواع البروتينات، التي تترتب عليها أيضاً جميع الفروق في خواصها البيولوجية، تتعلق فقط وحصراً بالتسلسل الذي تتخذه هذه الحلقات العشرون من الحموض الأمينية (أي بطريقة الصف) في بنية الجزيئات السلسلية (على شكل سلسلة) لهذا البروتين أو ذاك»[2].

إن نظرة مقارنة بسيطة بين ما توصل إليه العلم الطبيعي اليوم حول عملية نشوء الحياة وتسلسلها يعيد إلى الذاكرة فوراً صيغة الخلق في التراث العربي القديم المرتبط باللغة العربية المبنية في أساسها على هذه العلاقة الترميزية.

وإن وجود عدد جدّ محدود من الحموض الأمينية (20 حمضاً أمينياً فقط) التي تؤلف جميع أشكال الحياة على الأرض بموجب طريقة التسلسل في الصف الذي تتبعه، فتتحدد بذلك مصائر كل ما سوف يكون بناء على ذلك الصف، هو ما تحدث عنه التراث العربي القديم في زمن عقيدة الخصب، فجعل عشتار موكلة بهذه المهمة، فدعيت، بموجب ذلك (الربة النسّاجة، الصافّة، التي تنسج خيط المصير أو القدر)[3]. كما أن هذه المقولة العلمية التي أنجزتها العلوم الطبيعية تجعلنا نتوقف أمام عظمة التعابير القرآنية وأمام دقتها، حيث نجد أن القرآن

---

(1) انظر: هويمارفون ديتفورت، المرجع السابق، ص114 - 124 .

(2) المرجع نفسه، ص87 .

(3) Erich Neumann, The Great Mather, PP. 226 - 232 .

الكريم الذي اناط هذه العملية بالملائكة التي تقوم بإذن ربها بعملية الصف هذه، فدعاها تحديداً بـ «الصافات» ﴿ سورة الصافات ﴾ . وقد أجمع المفسرون على ان «الصافات» هي الملائكة، لكنهم لم يفهموا المقصود بعملية الصف هذه.

إن هذا العدد المحدود من الحموض الأمينية، الذي حسب تسلسل صفّه، يتحكم بكل صنوف الحياة على الأرض، يذكرنا بـ «ديسك» الحاسوب الذي يعطينا، بناء على طريقة الصف، عدداً لا نهائياً من الاحتمالات القائمة. فإذا كان هذا الذي صنعه الإنسان يقدم مثل هذه المعطيات الكبيرة، فكيف بنا ونحن امام خلق الذي خلق الإنسان نفسه، وزوده بهذا العقل وبقليل من العلم! ثم أوليس تعبير «اللوح المحفوظ» الذي يتردد في تراثنا العربي عبر آلاف السنين هو «المثال» الرباني الذي توصل عقل الإنسان إلى تقليد «خلقه» ولو بصورة مقزمة! ومع أن الفارق بين الاثنين هو كالفارق بين الخالق والمخلوق، إلا انه يتيح لنا فرصة الاستدلال على فكرة «إحاطة» الخالق بكل شيء، وقد «وسع علمه كل شيء» و«هو بكل شيء محيط». وإن إقرار علماء الطبيعة بأنه «على هذا الأساس لا توجد إذن اية صعوبات في أن نتصور أنه من الممكن ضمن الظروف المتوفرة تخزين الاستعدادات الوراثية، والخصائص، والوظائف، والتركيب لجميع الكائنات الحية التي وجدت أو التي ستوجد في المستقبل اللاحق كله لهذا الكوكب دون أن تتعرض عملية التطور لأية قيود في عملية الاختيار أو تجد أي تضييق في الاحتمالات الممكنة. ـ كما سبق أن مرّ معنا ـ. نعود فنقول: إن إقرارهم بهذه الحقيقة العلمية يجعل العقل اكثر إقراراً بالحقيقة القرآنية: ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى، وما تغيض الأرحام، وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار ﴾ (الرعد : 8).

إن هذا هو الذي جعل الاعتقاد السائد عند العرب الأقدمين أن الله، وقبل أن يبدأ خلقه الحياة على الأرض، خلق القلم منذ ان كان عرشه على الماء. يقول الطبري في تاريخه: «قال ابو جعفر.. قال حدثنا عبد الرحمن حدثنا سنان عن أبي هاشم عن مجاهد قال قلت لابن عباس إن ناساً يكذّبون بالقدر فقال إنهم يكذبون بكتاب الله، لآخذن بشعر أحدهم فلأنفضنّ به. إن الله تعالى ذكره، كان على عرشه قبل ان يخلق شيئاً فكان أول ما خلق الله القلم، فجرى بما هو كائن

إلى يوم القيامة وإنما يجري الناس على أمر قد فُرغ منه»[1]. وإن هذا القول حول القدر المرسوم منذ البداية ينبغي ألاّ يفهم منه كما يفهم الجبرية، بل كما يفهم منه علماء الطبيعة اليوم بعد أن توصلوا إلى اكتشاف هذه الحقيقية.

أما كلمة «القلم» التي استخدمها القرآن الكريم والتي يؤكّد التراث العربي أنها كانت أول الخلق فليس المقصود بها هذه الأداة البسيطة للكتابة، وإنما علم تفصيل تلك المخططات، بأسسها، وتركيبها، واحتمالاتها، لكل أنواع الحياة على الأرض إلى يوم القيامة. إنه بلغة عصرنا اليوم «تخزين المعلومات في برامج» يختلف الواحد عن الآخر بطريقة تسلسل «الصف». وإن عملية تعليم الانسان ـ من قبل الرب بما دعي بـ «الوحي» ليس إلا عملية دخول ببرنامج مصفوف، أي بـ «قلم» على قلب الانسان (العقل + الروح)، كما سوف نرى لاحقاً. وإن هذا هو المقصود بعبارة التعليم بالقلم التي استخدمها القرآن الكريم في سورة «اقرأ» حيث وردت بالصيغة التالية ﴿ اقرأ وربك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علم الانسان مالم يعلم ﴾.

ثم إن النواة بأحماضها النووية الأربعة التي هي الأسس الأربعة، بشكل من الأشكال، تمثل المركز أو العرش بأركانه الأربعة، أو بقواه الأربع، التي يعبر عنها أحياناً بـ «الأرباب» وأحياناً أخرى برؤساء الملائكة. إن هذا هو ما أطلق عليه قدامى العرب السومريين اسم «مي». يقول كريمر: «لقد أطلقوا على ذلك الأساس أو السبب أو المبدأ (في الخلق) الكلمة السومرية «مي» التي لا يزال معناها المضبوط غير معروف، ولكنها تعني بوجه عام مجموعة من القواعد والنواميس المنظمة المخصصة لكل ظاهرة أو ما هية كونية وكل ظاهرة عمرانية، من أجل ان تجعلها تسير وتعمل إلى الأبد بمقتضى الخطط التي وضعها الآلهة الذين أوجدوا تلك الظواهر.. إن الأدباء السومريين لم يجعلوا من تصوراتهم وآرائهم الفلسفية وعقائدهم الكونية واللاهوتية باباً من أبواب الأدب يمكن مضاهاته بالرسالة أو المقالة المنمقة، ولهذا يصبح الباحث المحدث مضطراً إلى التنقيب عن هذه الآراء والعقائد في جملة أساطير متنوعة

---

(1) تاريخ الطبري، الجزء 1 ، ص33 .

مختلفة.. إن اغفال التمييز بين مؤلف الأسطورة السومري وبين الفيلسوف قد شوّش الأمر على بعض الباحثين في الفكر الشرقي في العصور القديمة.. والذي لاشك فيه انه، في يوم ما من المستقبل، ستبدو نقائص علماء عصرنا وفلاسفته، والقيود التي تقيدهم واضحة جلية.. إن المفكر السومري كان على يقين من أن آراءه كانت مطلقة الصحة، وأنه كان يعلم علم اليقين كيف خلق الكون، وكيف يسير ويعمل»[1] .



الصليب الزوبعة رمز الخصب، وقد اكد على النظام الرباعي في المركز، والصف الثلاثي الحامل لنظام الأزواج. سمارة، الألف الرابع قبل الميلاد.

ونحن إذا ما تأملنا وحدة الخلق الربانية (مانثالا، أو ماندالا) كما صوّرها وفهمها قدامى العرب السوريين منذ الألف الخامس قبل الميلاد، وجدنا كيف أن المركز عبارة عن مربع (يوحي بالأسس الأربعة، أو بالأرباب أو الملائكة الأربعة) يتصل به منظومات بنائية ثلاثية (كرمز للتشكيل الثلاثي لحلقات السلسلة أو الحموض الأمينية)، لينتج عنها مباشرة الكائن الحي الذي مثلوه بوعل، أو غزال ذي قرنين، هما تعبير عن السلسلتين، أو النظامين اللذين يؤلفان قوام وجوده الحيوي، إنهما سلسلتا الـ DNA اللتان تحملان واقعه الحيوي ومستقبله عن طريق الصبغيات أو الجينات المصفوفة في تينك السلسلتين. «لقد كان انسان الثقافة النيوليتية في سوريا منذ الألف الخامس قبل الميلاد أول من ابتكر لأول مرة الشكل الزخرفي الذي عرف فيما بعد باسم الماندالا.. وقد استعملت الماندالا على الدوام، ولدى جميع الثقافات فيما بعد في الرسوم الدينية»[2]. فهذه القوى الأربع الملازمة لعرش الرب تمثلها الأسس

(1) كريمر، المرجع السابق، ص157 – 159 .

(2) J. Campbell, Primitive Mythology, P. 232 .

الأربـع من الحمـوض النـووية في النـواة. وإن الحمـوض الأمينية العشـرين، الأسـاسية التي تشكل منها تلك القوى (الأسس) الأربع، حلقاتٍ ثلاثية في سلاسل تختلف مضامينها باختلاف اصطفاف حلقاتها هي بمثابة أحرف اللغة العربية التي تتشكل منها الكلمات الثلاثية. فالأبجدية العربية التي منذ أن وجدت، كـانت تتـألف من 22 حرفاً (من ابجد حتى قرشت) تستخدم الصيغة الثلاثية (اي من ثلاثة أحرف) عند صياغة كلماتها. وإذا كان 20 حمضاً امينياً هو المستخدم فقط لإنشاء كل المادة الحية، باستثناء بعض الحالات النادرة، فإن عشرين حرفاً من الأبجدية (في علم الحروف) هي المستخدمة في عملية خلق الكائنات، ويبقى اثنان للكلمة (الأمر): كُنْ. وفي الفكر التراثي العربي إن قصة الخلق محصورة بين الكاف والنون. وفي ترتيب الأبجدية العربية منذ ان وجدت نجد أن الكاف والنون هما في «كلمن»، وان ما بينهما هما اللام والميم. فـإذا مـا جمعنـا القيمـة العددية للحرفين اللام والميم نجد 30 + 40 = 70 ، أي 7 + 0 = 7 . التي هي وحدة الخلق الرمزية بأمر الروح.

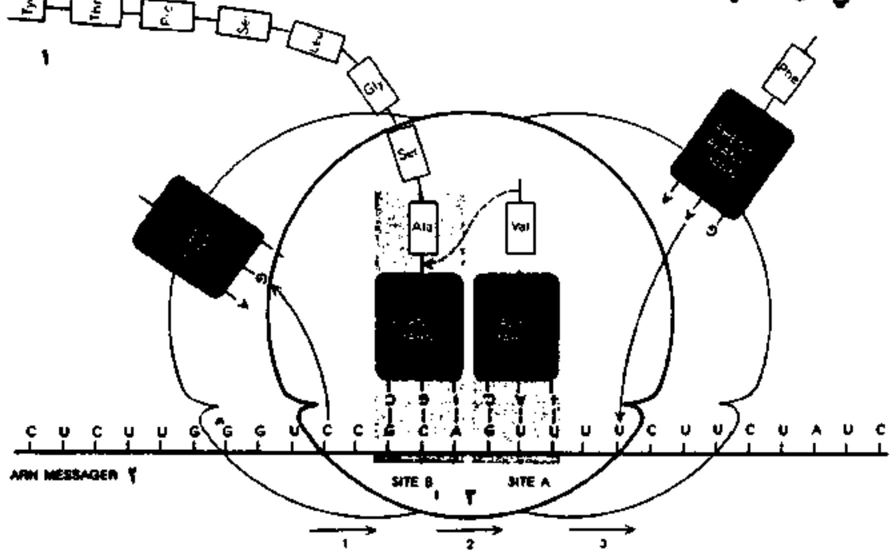
وإذا كانت أول خلية حية قد تمّ خلقها في عمق المياه، ودعيت في بردية «نيسي امسو» حجري الأساس «بن بن» فإنها كانت بحاجة إلى استخلاص الأوكسجين من الماء لتكون «نفساً» حية بالفعل، اي تتنفس. إن هذا ينطبق على سيتروكروم سي الذي هـو «إنـزيـم تنفسي يكمن تـأثيره النـوعي في أنـه يتـوسط لانتقـال الأوكسجين الذي يحمله إلى داخل الخلية.. والذي يتألف من 104 حلقات لدى جميع الكائنات الحية»[1]. وإننا إذا ما جمعنا القيمة العددية لـ «بن بن» لوجدنا: ب=2 ، ن=50 أي 52 ، بن بن= 52 + 52 = 104 . هل هذا أيضاً مجرد صدفة! ولكن لماذا تكررت كلمة «بن» (التي صـارت شيفرة وترميزاً اكثر مما هي اسم لمخلوق) مرتين، وكأنما هي نسختان لبرنامج واحد؟ هذا ما سوف يكشفه لنا علم الطبيعة نفسه.

لقد كشف علماء الطبيعة اليوم ــ كما سبق أن بيّنا ــ ان الحموض النووية (في النـواة) تشتمل على أربعـة أنمـاط فقط من الأسس الآزوتيـة، بينمـا تتـألف

---

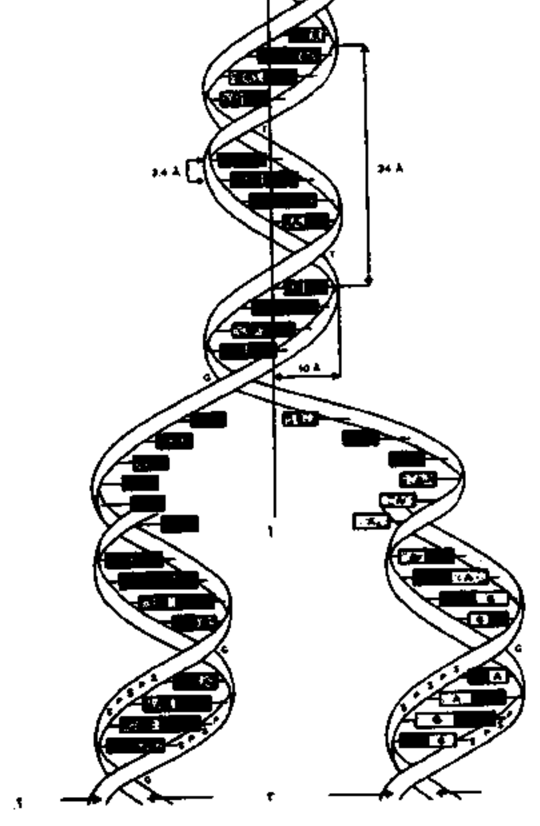
(1) ديتفورث، المرجع نفسه، 121.

البروتينات (في الخلية) من عشرين نمطاً من الحموض الأمينية. كما تمّ الكشف عن جزيئة دعيت RNA الرسول تطابق تماماً تركيب وترتيب هذه الأسس في جزيئة الـ DNA في النواة. ويتم تركيب الرسول بتماس مع الـ DNA بعملية النسخ. فتتكون سلسلتان من الـ DNA ما تلبثان أن تنفصلا عن بعضهما. يذهب الرسول المؤلف من احدى سلسلتي الـ DNA ومن شريط RNA الرسول إلى خارج النواة حيث يكون في انتظاره ما يدعى بـ «الجسيمات الريبية» والتي هي بمثابة المعمل، وهي عبارة عن جزيئين أحدهما أصغر من الآخر. يدخل الشريط الرسول بنسخته بينهما وينزلق الجسم الريبي على طول شريط RNA الرسول. وفي كل مرحلة يتثبت مقابل كل رامزة جزئية أمينية بواسطة «مقابل الرامزة». وترتبط الحموض الأمينية بعضها مع بعض مع تقدم الجسيم الريبي على طول RNA الرسول حتى انتهاء تركيب السلسلة. وهذه هي عملية ترجمة للرسالة. وعندما ينتهي اجتياز شريط RNA الرسول تكون قد انتهت عملية تركيب السلسلة المتعددة فتتحرر. وإذا تألف البروتين من سلاسل عديدة فإن هذه السلاسل لا تلبث أن تتحد، وبهذا تنتهي عملية تركيب البروتين حجر الأساس في كل الأحياء.



شكل يوضح طريقة تحرك الجسيم الريبي على طول RNA الرسول لإتمام عملية الترجمة:
1 . السلسلة المركبة 2 . الـ RNA الرسول المترجم. 3 . الجسيم الريبي.

ولما كان RNA الرسول يقوم بعمله في ربط الحموض الأمينية في سوية الجسيمات الريبية التي تجتازه، فإن توضع هذه الحموض الأمينية يتم وفقاً لترتيب محدد. وإن ربط أي حمض أميني لا يتم إلا عندما تكون ثلاثيته الموافقة في موضعها على الجسم الريبي، ولقد أثبتت جميع التحريات أن ربط الحموض الأمينية يتمّ عن طريق RNA الناقل الذي يحمل من جهة الحمض الأميني، ويحمل من جهة أخرى «مقابل الرامزة» الثلاثية الموافقة لـ «الرامزة» Codon (أي الشيفرة) بشريط RNA الرسول، وتتوضع في العروة الوسطى في RNA الرسول.



تخطيط يوضح بنية جزيء الـ (DNA) المؤلف من سلسلتين ملتفتين بشكل حلزوني، وتوضح توضع الأسس الأربعة، والأبعاد بين كل اساس وآخر 3,4، وبين كل قمة وقمة 34 انغستروم. (لاحظ تكرر ارتباط الرقمين 4,3).

وهكذا تتم عملية تركيب البروتينات وفقاً للمعلومات المرتبة في جزيئة الـ DNA، وينقل هذه المعلومات RNA الرسول بكل أمانة. وهكذا: لدينا برنامج مرمّز ومصفوف في النواة، ينقله الرسول في هيئة شريط إلى المعمل (الجسيمات الريبية) خارج النواة، يثبّت هناك، وتنزلق عليه الجسيمة الريبية مركّبة مقابل كل رمز في حلقاته الثلاثية ما يقابلها، وكأنما عملية فك الشيفرة أو ترجمتها بكل أمانة. إن هذا «الشريط» الرسول هو بمثابة البرنامج، أو القالب، أو النموذج الذي يمكن استنساخه إلى مالا نهاية.
إننا قد نصاب بالدهشة أمام صيغ علم الطبيعة المعاصر التي تكاد تكون شرحاً للمصطلح العربي القديم «بن بن» الذي يوحي فوراً بنسختين لبرنامج مرمّز مجموع حلقاته 104 بالضبط! إن هذا الشريط الرسول هو «القوة» التي تحدثت عن نفسها في بردية «نيسي امسو» بأنها أنشأت نفسها من المادة البدئية الأولى، وصنعت «أساساً لإرادتها» (فكأنما الحديث يدور عن الحمض النووي الأساس) و«خلقت حشوداً من الأشياء أنشأت نفسها، كما نشوءات إله حفيرا، وجاءت ذرياتها إلى الكينونة في نشوءات ولاداتها» (وكأنما نحن أمام إمكانية استنساخ البرنامج النووي بين الجسيمين الريبيين إلى مالا نهاية).
رأينا كيف أن «النفس» الأولى أو بدء النشوء كان في الماء. وأن القوة الخالقة التي دعاها العرب الأقدمون في وادي النيل (افتاح)، أي الفاتح، ما أن انجزت عملية الخلق الأولى في الماء حتى خرجت إلى الصخرة المقدسة (حجر البن) فوق الجبل الأول الذي بَرَز من الماء، وهناك تمت عملية الخلق الثانية، خلق النبات والحيوان على ذلك الجبل البركاني الأول بعد أن خمد. وعلاوة على ما ذكرنا حول الـ «بن بن» فإنه لابدّ من التوقف عند هذه الكلمة الساحرة من حيث مضمونها اللغوي ايضاً.

إن هذين الحرفين الباء والنون، يتضمنان معاني عملية الخلق والنشوء كلها. فالباء هي الروح، والنون هي الماء الأول. ومن اقتران الباء بالنون تم اخصاب الماء الأول بالحياة الأولى. فكما أن الماء الأول كان يمثل النفس «العذراء» الدائمة الخصوبة، الرحم الأول، فإن «افتاح» (الفاتح) كان فاتح رحمها ليضع فيها البذرة الأولى للحياة. يقول أدولف إرمان: «فكر المصريون في الروح

وكانوا يسمونها (با)، وقد تصوروها في مختلف الأشكال. وهي إذ كانت تترك الجسد وتنفلت عند الموت فقد تخيلوها عادة كأنها طائر»[1].

وكما كانت «بن» هي «حجر الأساس» في كل عملية عمارة أو بناء أو خلق عند العرب الأقدمين، فإن أول خلق في الماء كان «بن بن» وأول «عمارة» على الأرض كان «بن بن» بما يتضمنه هذا المقطع من معاني التأسيس والصف والترتيب. إن «افْتاح» هو الفاتح لـ «مات» (= الرحم، الأم) ومخصب الـ «النون» (= الماء البدئي)، وهو «رع» «الذي يتألق فيما بعد في بيت حجر الـ Ben Ben وهو يعبر السماء بسلام»[2].

ومن هنا فقد كان هذا المقطع اللغوي العربي مفعماً بمضامين يصعب حصرها، ويقف مثالاً شاهداً آخر على عبقرية هذه اللغة التي اعتقد العرب منذ نشوئهم أنها لغة كونية مقدسة أهبطت من السماء مع خلق أول إنسان عاقل على الأرض.

فبينما نحن نجد في القاموس السرياني أن «بني» تعني: بنى، ألّف، أنبت النبات أو اللحم، قدّم مثالاً؛ و«بوني» تعريس، بناء، اقتران، تل، جبل؛ و«بنيتا» ــ نصبة، تمثال بصورة امرأة تعبد، هيكل، بيت العبادة، ومنها «بنيثو» و«بنيثون» ــ أي الكعبة أو بيت الربة (وهي التي ذهبت مع العرب السوريين إلى بلاد اليونان لتعني بيت الربة الكعبة، ثم بيت الله). فإنه لا يمكننا إلا أن نتوقف قليلاً عند معاني الكلمة في العربية اليوم.

ففي «محيط المحيط» نجد: بنّ بالمكان أقام. والبنانة الروضة من الأرض أو الفردوس. والبُنّ القوة، وبُنّ على بُنّ أي قوة على قوة. وبنى البيت أقامه، وبعروسه جامعها وأخصبها وبَنَتِ القوسُ على الوتر لصقت به. وبنى الكلمة صاغها وألزمها البناء، وبنّى أكثر في البناء. وتبنّى صار كالبيت المبني. والبواني قوائم الناقة (وهي الأربع)، والبناء هو لمجموع المادة والهيئة. والبناية أي الشرف والعلو. والبنية هي الفِطرة. والبنية عند الحكماء عبارة عن

---

(1) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص237 .

(2) ادولف إرمان، المرجع نفسه، ص122 .

الجسم المركب على وجه يحصل منه مزاج وهو شرط للحياة، وعند جمهور المتكلمين عبارة عن مجموع جواهر فردة يقوم بها تأليف خاص لا يتصور قيام الحياة بأقل منها.

[لنتذكر معاً الـ «بن بن» وصيغة أساس الـ DNA وترتيبه للحموض الأمينية في حلقات ترتيباً خاصاً ومحدّداً] والبَنِيّة والبِنْية الكعبة قيل: قيل لها ذلك لمجدها وشرفها. والبنيّة الخضراء الفلَك. وأحرف المباني الأحرف الهجائية.

إن في مقطع «بن» من المعاني ما يجعله يحيط بكل ما أردنا شرحه من عملية الخلق والنشوء الأولى، إلى المثال أو البرنامج، إلى عملية الصف أو الترتيب بوجه خاص لا يتصور قيام الحياة بأقل منه، إلى الإخصاب، إلى الروح والمادة، إلى الأسس أو الأركان الأربعة، إلى الاقتران والالتصاق، إلى الفطرة والخلق، إلى الشرف والعلو، إلى نسختين أو وجهين ومن النفس الأولى أو الخلية الأولى في الماء، إلى البيت الأول على الجبل الذي هو الكعبة إلى أحرف اللغة!

وكما أن الباء (با) عند العرب الأقدمين هي الروح، فإن «نون» (أو «نن» أو «نين» أو «نينا» أو «نانا» أو «أنانا») هي النفس العذراء الطاهرة التي التصقت بها الروح وأخصبتها لتثمر الحياة. ومنذ أن تم ذلك الاقتران صارت النفس تدعى «كا» أي القرينة، العشيرة، الزوج المثيلة. وهذه النفس تحلّ في كل إنسان منذ مولده. «وما دامت هذه الـ «كا» معه، وما دام هو «رب الكا» وأنه «يغدو معها» فهو حيّ يرزق. ولئن كان أحد لا يستطيع رؤية هذه الكا، فالمعتقد أنها تشبه صاحبها تماماً. وقد ورد أنه عندما خلق إله الشمس في بداية نشأته المخلوقين الأولين فقد «وضع ذراعيه من ورائهما»، ففاضت عليهما الكا التي كانت له، ودبّت فيهما الحياة، ولابدّ أن وضع الذراعين على هذا النحو كان ذا صلة بمنح الكا. لأن الذراعين الممتدتين كانتا رمزاً للكا منذ اقدم الأزمان [لنتذكر معاً عملية نسخ البرنامج الذي ترسل به النواة بين الجسيمين الريبيين (الذراعين) اللذين يحتضنانه] فإذا مات الإنسان هجرته الكا، وكان يرجى منها أن تظل معنية بالجسد الذي سكنته أمداً طويلاً»[1].

---

(1) المرجع نفسه، ص236 .

وإذا كان اقتران الـ «با» (الروح) بالـ«كا» (النفس) ينتج الحياة أو الكائن الحيّ الأول، أساس بناء الكائنات الحية على الأرض فيما بعد، فإنه على الجبل صار تمثيلاً لأول بيت سكنته الروح على الأرض، إنه «بنيثا» في العربية القديمة، و«البنية» في العربية الحديثة، أي الكعبة. وهي «البانيثون Parnethon» التي نقلها السوريون إلى أثينا ثم روما. ومن الكلمة كان اللقب الشهير لعشتار «سارابنيثو»[1] أي «ربة الكعبة»[2].

وإن اقتران الـ «با» بالـ «كا» يعني اقتران الروح بالنفس لدى الإنسان. والناتج هو «بك» وتعني في القاموس السرياني: المخصب، العظيم، المتكبر، المتمجد، الجليل، المجيد، القاضي، الديك... الخ و«بكة» هي الكعبة حيث تتنزل الملائكة لتدبّر أمر الأرض وتعرج منها إلى السماء. ومقلوب الكلمة (أي الكاف + الباء) هي «كابا» أي الكعبة أيضاً. ولما كانت الأبجدية العربية هي الأبجدية الأولى في التاريخ البشري على الأرض، وقد عُلّمها آدم الإنسان الأول، فقد وجدت منذ البداية مقترنة بالسماء، وذات مضمون رقمي فلكي كوني، ولو أن مدوناتها لم تكتشف إلا منذ ستة آلاف عام، فقد كانت لغة شفوية تُحفظ، ويجري تناقلها بكل مضامينها الرقمية الفلكية الكونية قبل مرحلة التدوين لعشرات الآلاف من السنين.

لقد لاحظنا من ذي قبل كيف أن عدد أحرفها اثنان وعشرون حرفاً، تنتظم ثلاثة ثلاثة لتكون الكلمات، تماماً كما أن عدد الحموض الأمينية التي تشكل كل أشكال الحياة على الأرض هو عشرون أيضاً يضاف إليها اثنان يتألف منهما الرسول وهي تنتظم في شيفرات ثلاثية يتحدد بموجب هذا الصف نوع الكائن. وإن العدد «سبعة» هو الوحدة الخلقية التي دعاها العرب الأقدمون «منتا»، من السموات السبع إلى المدارات السبع في الذرة. وفوق هذا: فلو أننا جمعنا القيمة العددية لحرفي الباء والكاف لوجدنا ب =2، ك =20 لكان الناتج 22 أيضاً. وبناء على

---

(1) انظر: ادذارد، بوب، رولينغ، المرجع السابق، ص38 ـ و: ل. ديلابورت، ميسوفوطاميا (بلاد مابين النهرين)، ترجمة محرم كمال، المطبعة النموذجية، القاهرة، ص196.

(2) المرجع السابق، ص197.

هذا فقد تصور العرب الأقدمون ان دائرة الخلق (سواء بالقوة أو بالكلمة)، الشاملة لعالمي المادة والروح هي دائرة مساوية لاثنتين وعشرين وحدة، يُمثّل العدد 7 وحدة الخلق فيها، أو قطرها أو محورها، وبتقسيم العددين على بعضهما، اي 22+7 حصلوا على المثال في الخلق، كل خلق، ودعوه «فيليث»، وهي في القاموس السرياني تعني المثال، إذ أن لكل خلق مثاله الأول في «الكتاب» عند الخالق بوجوده المرمّز. ولما كان العرب الأقدمون يلفظون الفاء P فقد لفظت الكلمة «بيليث» واختصروها بحرفها الأول P الذي شكله بالفينيقية π، وهي الـ π (بي) التي تعادل 3,14 إلى هذا اليوم، أي ناتج تقسيم محيط الدائرة 22 على العدد 7 الممثل لوحدة الخلق، فكانوا اول من توصل إلى حساب كل ما يتعلق بالدائرة والأقواس اللذين اعتمدوهما في عمارتهم ذات المضمون السماوي الفلكي إلى اليوم، وبالكرة محيطاً ومساحة وحجماً، فكانوا أول من عمّر القباب، وبقيت مستخدمة بلفظها وكتابتها العربية الفينيقية في كل أنحاء العالم إلى اليوم π.

ومن المعلوم أن الخلق يبدأ بالمثال، النموذج، فآدم الإنسان الأول كان تجسيداً للمثال، كما هو مثال لكل إنسان فيما بعد. وليس كل ما يبدعه (يخلقه) الإنسان نفسه إلا تجسيداً للمثال، النموذج القائم في الذهن أولاً قبل أن يتحول إلى واقع ملموس.

إن هذا نفسه هو ايضاً ما عبر عنه العرب السوريون الأقدمون. يقول ديلابورت: «لم يستطع السومريون والأكاديون أن يتخيلوا كائناً ازلياً دون بدء. وكانوا يرون انه لم يكن هناك شيء كائن عند نشأة العالم، وأن في هذا اللاشيء كان يستطاع تمييز عنصرين من الرطوبة.. هذا ما تدل عليه «قصيدة الخليقة» ومطلعها:

«حين لم تكن السماء في الأعلى قد سميت بعد

ولم يكن للأرض من تحتها اسم،

اختلطت المياه في «أفصيو» الأول أبيهم

ومن تهامت الصاخبة أم الجميع، فصارت واحداً،

لم تكن الآجام والأغصان، ولم تكن غياض القصب قد رؤيت بعد،

حين لم يكن هناك إله له اسم،

حين لم يكن هناك قدر مرسوم،

....

ومن الزوج الأول خرج أولاً «لحما» و«لحما».

«وهما معبودان لم يكن الدور الذي لعباه ملحوظاً»[1].

والحقيقة إن ديلابورت لم يفهم شيئاً من هذا النص الذي لا يتحدث عن عدم وجود كائن أزلي، بل عن عملية بدء النشوء في الماء قبل أن يكون الجيل الأول البركاني، جبل السماء والأرض، وبالتالي قبل ظهور النبات، فالحيوان، فالانسان، ويرينا صورة عبقرية عن العملية نفسها: فكما عبّر أبناء وادي النيل عن النفس الأولى بصيغة «بن بن» أي بناءين متماثلين، أحدهما مرمّز والآخر نسخة أو ترجمة أمينة، وكلمة «بن» هي جذر كلمة «بناء» بكل مشتقاتها وتعني البناء والصف والترتيب، فإن هذا ما عبرّت عنه صيغة («لحما» و«لحما») بالضبط والدقة نفسها. ولو فتحنا القاموس السرياني لوجدنا أن كلمة «لحما» تعني حرفياً مايلي: منظم، مرتّب، ملائم، مطابق، موافق، صالح، مؤلف، مقترن، وهي من الفعل «لحم» ويعني: لحمَ، طبّق، وفّق، نظم، رتب، ألف، ضمّ، قرن، التحم، صلح، لاءم، ناسب، شاكل، ماثل، التصق، ائتلف، صفّ.. أوليست هذه هي العملية كلها بكلمة عربية واحدة؟

إنه تعبير عن عملية بدء النشوء في الحياة البدئية، نشوء أول خلية حية التي تسلّمت برنامجاً مرمزاً لتنسج على منواله حشوداً من النشوءات، ثم جاءت المرحلة الثانية، التي هي مرحلة التكاثر بالولادات، أي بعد أن قامت تلك «النفس» البدائية، الخلية، الخنثى، بعملية فصل أعضائها المخصبة عن الخصيبة، الذكر عن الأنثى، في مرحلة لاحقة. إنها تصور نشوء سلالة الأحياء في الماء، ثم من التلقيح بواسطة نطفة الذكر. وبغير هذا يصبح لا معنى لتلك النصوص العربية القديمة المدهشة. وإن هذا ليس «قسر» معطيات العلم الحديث وتطبيقها على النصوص العربية القديمة، كما قد يبدو الأمر لأول وهلة، كما أنه

---

(1) ل. ديلابورت، المرجع السابق، ص166 – 167 .

ليس عملية تدليل على عبقرية إنساننا العربي القديم فقط، إنه، بكل بساطة، دليل آخر على صحة وواقعية ظاهرة التعليم عن طريق الوحي. وهذا ماسوف نتوقف عنده في مكان آخر.

ثم أليست هذه العملية هي نفسها التي يلخصها لنا القرآن الكريم فيما بعد في عدة آيات من سور مختلفة: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾[1].

ثم إن الصورة التي نقلها لنا التراث العربي القديم عن تلك المرحلة السحيقة من زمن النشوء، وقبل أن تتكون أول خلية حية في الماء، والتي تحدثت عن الماء المحيط المحمول على الريح في الجو، فكان يعمّ الأرض ظلام دامس تخترقه بصورة رهيبة ومتواصلة تفجرات البراكين من تحت، وقصف الصواعق المتلاحقة من الجو، وكأنما معركة رهيبة تعجز الكلمات عن وصفها والخيال عن ملاحقتها، كل ذلك هو الذي عاد علم الطبيعة ليؤكده اليوم.

وكما جعلت الأساطير العربية القديمة الإله الخالق يقصف البراكين المدمرة بصواعقه ورعوده وبروقه، وصوّروه يقف مستلاً في يمينه البروق والصواعق في تلك المرحلة من النشوء، فإننا نجد أن العلم الحديث جاء ليكرّس الدور الأساسي للبروق والصواعق في عملية النشوء الأولى للخلية الحية في الماء، لنقرأ:

«كان علماء كبار ذوو شهرة في الكيمياء العضوية قد حاولوا تحضير المكونات البيولوجية الأساسية بشتى الطرق التي تفوق إحداها الأخرى في التعقيد والتشابك. أما (الطالب) ستانلي ميلر فقد سلك طريقاً مختلفاً تماماً. قام أولاً بتأمين المواد التي قيل له إنها كانت موجودة في الغلاف الجوي الأول، اي انه أخذ الميثان والأمونياك فقط.. خلطهما مع الماء، ثم وضع المحلول في إناء زجاجي مغلق. وقرر عند اختياره لمصدر الطاقة اللازمة لإحداث التفاعل أن يقلد الحالة الأصلية تماماً بقدر ما هو ممكن.. ما هي مصادر الطاقة الطبيعية الموجودة على الأرض آنذاك؟ أول ما يخطر على البال هو الأشعة فوق

---

(1) سورة «المؤمنون 12».

البنفسجية القادمة من الشمس، وتفريغ الشحنات الكهربائية (البرق والصواعق) الذي كان شديداً جداً ومتواصلاً آنذاك. وقرر ميلر أن يستخدم الثاني، تفريغ الشحنات. لذلك وصل وعاءه الزجاجي بخط للتوتر العالي، وأمّن ما يلزم لتفريغ شحنات كهربائية قوية مسلطة على المحلول الذي يحتويه الوعاء. بعد ذلك ترك التجربة تعمل لحالها وذهب إلى النوم.. لقد أدت النتيجة إلى أجرأ التوقعات: لقد أدّت الطاقة المحضرة بإحداث برق اصطناعي إلى تشكل ثلاثة من أهم الحموض الأمينية دفعة واحدة خلال 24 ساعة فقط»[1].

إن صيغة العملية والشروط المحيطة هي واحدة في الأساطير العربية القديمة، وكما يتحدث عنها علم الطبيعة الحديث.

«البيضة الكونية»

تقول مصادر التراث العربي القديم إن هذه الحالة التي عاشتها الأرض في تلك الحقبة التاريخية البعيدة، والتي حددها العلم الحديث بنحو أربعة مليارات من السنين ويزيد، والتي ذكرناها سابقاً، عاصرت نشوء بذور الحياة الأولى في الماء، وكانت الأرض والسماء مثل «بيضة» هائلة، وبدأت بذور الحياة الأولى في الماء تتعرض للضوء والحرارة المنبعثة من القمر الذي تصفه الأساطير العربية القديمة وقد «انفلت» أو «طار» من الأرض محدثاً دوياً كونياً وضياء لا مثيل لهما، ودعوه «الطائر الموقوق». فكان القمر أول «مخصب» للحياة على الأرض قبل أن يتبرد. إن هذا هو ما أكده القرآن الكريم أيضاً ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ أي أن القمر كان مصدراً للنور الحارّ ثم انطفأ.

وفي المرحلة الثانية لما تساقط المطر المحمول في الجو وأخذ بالتجمع على سطح الأرض (بفعل تبرّد سطحها) أشرقت الشمس على الأرض والنجوم بعد أن ظلت محجوبة عنها (بسماء الماء المحمول) دهراً طويلاً، وبدأت الأشعة فوق البنفسجية تفكك ذرات الماء إلى هيدروجين وأوكسجين ليصعدا إلى الجو لأول

---

(1) هويمارفون ديتفورت، المرجع السابق، ص86 - 87 .

مرة. فتلاشى الهيدروجين الخفيف في الفضاء الكوني، واخذ الأوكسجين يشكل «سماء» جديدة فوق الأرض ويعمل كمصفاة للأشعة فوق النفسجية من جديد، مما سمح لعملية تكون البذور الجديدة في الطين هذه المرة، على سطح الأرض، وليس في الماء.

يقول سانخونياتن: «لما هذه الريح وقعت في حب مبادئها الخاصة حصل اجتماع، قران، دعي هذا التقارب «الرغبة» هكذا مبدأ خلق جميع الأشياء. ولم يكن لهذه الريح معرفة بما انتجت. ومن هذه المساكنة للريح وجد «مات»، وتلك كانت البذرة الوحيدة للخلق وأساس جميع الأشياء. منها جاءت الحيوانات ولكن بدون حساسية، وهذه بدورها ولدت الحيوانات المدعوة شوف شمين. كان لـ «مات» شكل بيضة عندما تكوّن. غداً مضيئاً. فظهر الشمس والقمر والنجوم والمجموعات الكبرى للنجوم»[1].

وقبل أي شيء لا بدّ من شرح بعض الكلمات المستخدمة:

إن «مات» تعني في القاموس السرياني: الرحم، الأم. وهي الكلمة التي سبق لنا شرحها.

اما «شوف شمين» فتعني حرفياً زواحف الأعالي التي هي السراة، الجبال، وفي القاموس السرياني نجد: شف= زحف، دبّ، انسلّ، تحرك، راقب، رصد، و«شمين» تعني الخصب كما تعني الأعالي. و«شموين» تعني السماء كما تعني الجبل وكل شيء عالٍ. وفي العربية اليوم يقال لكل ما هو مرتفع سماء.

وإن مما يؤكد وحدة الأصل واللغة في سوريا ووادي النيل هو أن هذا «الرحم» الأول، البيضة الأولى، كان يسمّى عند عرب وادي النيل ايضاً «مَتْ» وهذا ما كنا قد مررنا على ذكره من قبل، و«اعتبرت «مت» سيدة الأعالي (شمين)، وقد عبدت في طيبة، واسمها يعني الأم»[2]. «وكان هناك شيء آخر فوق هذا التل الطميّ، شيء يتناسب مع طبيعة هذا العالم الطيني المجدب، هذا الشيء هو بيضة طائر مائي خرجت منها إوزة استحال بخروجها الظلام الدامس إلى نهار واضح»[3].

---

(1) يوسف الحوراني، المرجع السابق.

(2) ادولف إرمان، المرجع السابق، ص38 .

(3) المرجع نفسه، 72 – 73 .

إننـا، مـرة أخـرى، أمـام لوحة ميلاد القمر من «رحم» الأرض الأم. إن «الطائر المضيء» الذي أفرزته تلك «البيضة الكونية» من رحمها، بقي مرتبطاً بها، تابعاً لهـا، يدور حـولها، و«يخصبها». وهو الذي أطلق عليه عرب وادي النيل اسـم «رع» ويعني في القاموس السرياني: الراعي، الرقيب، الممتّع، المسرّ، المفرح، العقل. والكلمة من الفعل «رعي» كما تعني أيضاً: الفالق، وهي من الفعل «رع» = فلق، كسـر، فقس (البيضـة). ومنذ أن «انطفـأ» القمـر وتبرّد الحقت الكلمـة بالشمس.

إن «القمـر» كـان القـوة المخصبـة الذكريـة الأولى التي أفرزتهـا الأم الكبـرى، الأرض، من رحمهـا، ومن هنـا ارتبط القمر بخصب المرأة وبدورتها الشهرية منذ البدء (وسنتحدث عن هذا في حينـه)، ومن هنـا أيضـاً ارتبط عند قدامى المصريين في المرحلة الأولى بالجعل الذي يدحرج كتلة الطين أو الروث المليئة بالبيوض تحت اشعة الشمس من أجل تدفئتها ونضجها وتفقيسها. فكان الجعل عند قدامى المصريين رمزاً للنشأة الأولى «حفيرا» (الحافرة) ورمزاً للقيامة[1].

هكذا هي النظرة العربية القديمة للنشوء كما هي في مصـادرنـا القديمة. لقد عبرت هذه الكـائنـات دهراً عمـره مليـارات السنين أنتجت كل صنـوف النبات والحيوان والبشر بصورتهم البهائمية. وكل منها خرج من «بيضته» التي تكونت تاريخياً ببنية أبسط أو أكثر تعقيداً، تختلف في بنيتها عن بيضة أخرى انشـأت كـائنـاً آخر. ولقد مـرت جميعاً (مثلها مثل أمها الأرض) في ظروف «الخنثى» النفس الواحدة. ثم جاءت مرحلة أفرزت من نفسها الذكر المخصب، فاستقل فيها التذكير عن التأنيث ليلتقيا ويتحدا عند عملية الاخصـاب. ثم جاء الانسان العاقل. فهل كان مجيئه نتيجة حتمية لتطور طبيعي خضـع له الكائن البشري الذي كان قبله، أم أنه جاء نتيجة لتدخل قوى علوية؟

---

(1) السير ولس بدج، المرجع السابق، ص99 .





الحلقة السابعة

«المركز» وقصة خلق آدم الانسان

خلق «آدم» الانسان العاقل:

يؤكد سانخونياتن ـ كما رأينا ـ أن الحيوانات العاقلة تولدت من الحيوانات غير العاقلة. إنها جملة واحدة ابتسرها أوزيب مما كتبه سانخونياتن دون أن نعلم شيئاً عن الكيفية التي عرض بها سانخونياتن فكرته أو توصل إليها.

وبالرجوع إلى الأساطير العربية القديمة السومرية والآكادية نجد أن «القوة» الخالقة وجدت في بلاد «ثلمون»(*) أرضاً معدّة للحياة، كانت لا تعرف المرض ولا الموت، ولكن، مع هذا، كان ينقصها الماء العذب اللازم للحياة، حياة الحيوان والنبات. ولذلك نجد الرب «انجي» = (المنجّي، المخلّص، المنقذ) يأمر الشمس بأن تملأها بالمياه العذبة.

وهكذا تحولت «ثلمون» إلى حديقة إلهية خضراء.. وفي هذا الفردوس الإلهي جعلت الإلهة «نين كورساق» (ربة البركان النافث) ثمانية أنواع من النباتات تنمو وتزدهر(1).

إننا نجد في هذا القول عبارة واحدة تلخص عملية ربما دامت ملايين السنين: «الرب انجي يأمر الشمس بأن تملأها بالمياه العذبة» إنها ـ في ظاهرها القريب ـ تدعو إلى الدهشة: كيف يطلب من الشمس تحديداً أن تملأ المنطقة بالمياه العذبة؟ لكننا ما أن نعود إلى المرحلة المقصودة من عمر الأرض، بعدما هبطت الأمطار المحمولة واستقرت على سطح الأرض لتحوله إلى محيط الماء المالح، ويبرز وسطها الجبل البركاني الأول مثل كتلة هائلة من الزبد والدخان، حتى ندرك أن الماء العذب كان في تلك المرحلة معدوماً. ثم إن في المرحلة الأولى من تسلط الشمس على الماء دون أية طبقة واقية في الجوّ من الأشعة فوق البنفسجية لم تكن الشمس «تبخرّ» الماء، بل كانت «تفككه» بفعل تلك الأشعة

(*) «ثلمون» هي الأرض الجنة الأولى على الجبل الأول، الذي برز من وسط الماء. وحينما تقدمت مياه بحر العرب مرتفعة مائتي متر بفعل ذوبان الجليد وغمرت منطقة الخليج العربي الموطن الاول للعرب السومريين برزت الجزيرة (البحرين) وسط المياه كما برزت ثلمون الأولى وسط المحيط البدئي فدعيت باسمها «ثلمون» وهي في القاموس السرياني تعني زبد البحر.

(1) صموئيل كريمر، المرجع السابق، ص241.

القوية إلى عناصره الأولى، ثم ما أن استقر الأكسجين الناجم عن التفكيك جاعلاً من نفسه مصفاة لتلك الأشعة حتى صار فعل «الشمس» ذا طابع آخر: أنه تبخير الماء، ثم تكثيفه وإنزاله ماء عذباً على الجبل الأول الخامد، فيتخزن فيه، ويتفجر منه ينابيع مياه عذبة. إن هذا هو المقصود بالدور الذي لعبته الشمس تحديداً في توفير المياه العذبة على الأرض.

وإن هذا عينه، وأعني عملية خلق ثمانية أنواع على الجبل الأول من قبل «القوة» الخالقة التي دعاها السوريون «ربة الجبل النافث» (نين كورا ساق)، هو الذي انتقل إلى عرب وادي النيل ليؤكد وحدة الشعب والفكر والعقيدة.

يقول أدولف إرمان «لقد تصوروا أن مكاناً عالياً من الأرض كان أول ما ظهر على سطح ذلك الخضم القديم الذي سمّوه «نون»، وكان هذا المكان بمثابة بدء العالم. فهو التل الموغل في القدم، أو كما قالوا: التل المزدهر الذي ظهر في أول العصور.. وفوق هذا التل القديم ظهرت المعالم الأولى للحياة.. وكان عددها ثمانية، ومدينة «شمون» تحمل الاسم، فـ «شمون» يعني الثمانية»[1].

وإن اسم الربة «ربة الجبل النافث» هو ما نقله العرب السوريون معهم شرقاً إلى الهند. يقول جوزيف كامبل حول «ربة الجبل النافث» (نين كورا ساق):

«إن معابد تل العبيد وخفاجة وعقير، كغيرها من معابد بلاد الرافدين الأخرى التي بنيت عند أعتاب عصر الكتابة،ـ كانت مكرّسة للربة «أنانا» أو للربة «نين كورا ساق»، وهما من الأشكال الأولى للأم الكبرى للعصور التاريخية. وقد انتقل تصميم هذه المعابد الجنسي إلى الهند مع انتقال الزراعة إليها في وقت متأخر جداً عن اكتشافها في سوريا.. وإلى اليوم لانزال نستمع إلى تراتيل «نين كورا ساق» تتلى في معابد الأم الهندية الكبرى: «أنت الوجود الأول، أنت أم العالم ومبدأه، أنت أم المخلوقات كلها، أنت خالقة الأرباب، الخالق براهما والحافظ فيشنا وشيفا الرهيب كلهم من صنع يديك. أنت مسيّرة العالم». وإلى اليوم ما تزال طائفة هندية مجهولة الأصل تعبد الأم الكبرى تحت اسم «أثورجوت» ولكنها تكرّر في صلواتها كلمة غامضة دون أن تعرف معناها هي

---

(1) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص72 .

كلمة «نين كوراشاق» المحوّرة عن اسم الأم الكبرى لحضارة الرافدين «نين كورا ساق»[1].

فالخلق كان على الجبل الأول، التل المزدهر، في الأعالي، في المركز، في «السراة» التي تعني الأعالي كما تعني السرّة والمركز وأرض الأرباب، أي السادة.

أما قصة خلق الإنسان بالمعنى الحقيقي فثمة اجماع في التراث العربي كله على الأمرين التاليين:

1 . حين خلق «الإنسان» كان ثمة بشر بهائميون يسرحون على ظهر الأرض، يدبّون كالبهائم على اربع، ويلتقطون القوت، ويشربون الماء بأفواههم. وهم الذين تطوروا عن «البذرة» البشرية الأولى التي تكونت في الطين لا في الماء.

2 . بتدخل من «القوة الخالقة» جرت عملية «تطوير» أو «تخليق» لذلك الكائن البشري، بمنحه العقل ونفخة من «الروح» الخالق، فاعتدل، واستقام، وصار مهيئاً للعمل والخلق والابداع ليكون خليفة «الروح» أو «القوة الخالقة» على الأرض، يدّبر امرها بإذنه وبطاعته.

لنستعرض الآن قصة خلق الإنسان كما حفظت لنا في التراث العربي القديم من مصادرها المتعددة:

آ. «المندائيون» وقصة خلق الانسان:

يعتقد المندائيون ان كائنات نورانية هي «أوثيريا» (أي أثيرية، سماوية) أكبر من الملائكة وليست آلهة، انهمكت في عملية الخلق بأمر «رب الأرباب» (مارْ ذ ربييوتا: مار = سيد، رب، والدال للتعريف والاضافة في العربية القديمة، و«ربييوتا = الربوبية).

أحدهم هو «افتاح إيل» (أي الفاتح، وهو «فتاح» نفسه الذي تقدس عند عرب وادي النيل، والذي بدأ عملية الخلق في الماء وعلى الأرض).

وكان الخالق غير الناجح للإنسان، إذ يفشل في جعل آدم يقف منتصباً، لأن

---

(1) Joseph Campbell, Oriental Mythology, pp. 37 – 39

مخلوقه كان مادياً بالكامل (أي لم يزوّد بنفخة من الروح الإلهي). لذلك فقد أحضرت «روح» من عالم الأنوار هي التي جعلت آدم كاملاً، فهي لم تسبب في انتصابه وحسب، بل وفي وضعيته كشخص موحى إليه هو وزوجته «هوا» (حواء). تعلّم آدم ان يحرّر نفسه وروحه كي تعود إلى عالم الأنوار تاركة الجسد المادي خلفها.

و«روها» (اي الروح) هي كيان غامض يدور بين الجسد والنفس. ويعتقد المندائيون بوجود آدمَيْن: احدهما سرّي سماوي، والآخر أرضي ظاهر. ويقولون: لقد هبط إلى هذا العالم 360 كائناً أثيرياً كان على رأسهم «مارا ذ ربيبوتا»، ومنهم هيجل زيو (ظاهر النور أو التجلي النوراني، إذ أن «زيو» في القاموس السرياني تعني: شعاع، نور، ضياء...)، وأباتر راما (أي الروح او الفاطر العلي)، و«يحيى» (أي المحيي، المخلّص)، و«بهرام زيو» (النور المضيء، إذ «بهرام» في القاموس السرياني تعني النور «زيو» المضيء، وافتاح إيل، وأنثى هي «سيمات هيا» (وتعني منشئة الحياة. إذ ان «سيمات» هي في القاموس السرياني من الفعل «سيما» ويعني: سام، رسم، زرع، صيّر، أنشأ، ألّف، اسّس، شيّد، بنى، قدّر، حتم، كنز، ادّخر، احتوى...). وكانوا يقومون بأعمال إلهية، وليسوا آلهة، كما انهم ليسوا بشراً، وليسوا ملائكة..

ويقول المندائيون: الله علّة الكائنات، وهو الوجود الحي بذاته، الأزلي، اسماؤه عديدة، منها: «مارهي[*]» (الرب الحيّ)، و«ملك راماذ نهورا» (الملك رب النور)، انزل «افتاح إيل» إلى الأرض، فخلق آدم على صورته من الطين، وخلق حواء معه. واحلّ الروح المقدسة في آدم وزوجته، ثم علّم الملائكة آدم كل شيء.

وهكذا نلاحظ أن آدم الإنسان خلق بتدخل القوة الخالقة، ونفخ فيه من «روح» القوة الخالقة، وهذه «الروح» التي زوّد بها آدم هي التي جعلته خلقاً سوياً

(*) اللهجة المندائية لهجة عربية قديمة سريانية وفينيقية، يقولون إنها اللغة التي تكلم بها أدم منذ أن اهبط من الأرض الجنة. يلفظون الحاء هاء، ولا يلفظون العين. وما تبقى فهي سريانية أو فينيقية نفسها. وقد انتشرت هذه اللهجة من جبال السراة مع ابناء حام بن نوح إلى سواحل بحر العرب وافريقيا. وما تزال لهجة الحبشة محافظة على كثير من مظاهر هذه اللهجة: إن اللقب «هيلا سيلاسي» هو «حيلا ثلاثي» أي القوة المثلثة، و«هيلامريم» (حيلا مريم = قوة مريم، أو الربة أو السيدة).

وشخصاً يوحى إليه». فالروح مرتبطة منذ البداية بعملية «الوحي» أي إنها واسطة للاتصال مع العالم النوراني. ومع الكائنات التي هبطت من السماء كان ثمة أنثى هي المسؤولة عن الحياة حفظاً، وإنشاء، وتقديراً، واحتواء... الخ، وأن تلك القوى «علّمته» مباشرة.

ب ـ العرب السومريون وخلق آدم الانسان

أما خلق آدم الإنسان عند العرب السومريين فقد وصل إلينا على النحو التالي:
لقد عثر على النص الذي يروي قصة خلق الإنسان منقوشاً على لوحين مكررين لنص واحد، جاء أحدهما من مدينة «نفر» وهو في متحف جامعة بنسلفانيا، والآخر موجود في متحف اللوفر حيث حصلوا عليه من تجار الآثار.
وقد قام صموئيل كريمر بترتيب محتويات الأسطورة ويقول بهذا الصدد: «لقد تمكنت من أن أهيء ترجمة للأسطورة، أولية على الأقل، على الرغم من أن النص ظل على ما كان عليه من صعوبة وغموض ونقصان»[1].
تبدأ القصيدة بما يمكن أن يكون وصفاً للمصاعب التي كان يلاقيها الأرباب في الحصول على قوتهم، لاسيما بعد أن جاءت الربات إلى الوجود. فكان الأرباب يتذمرون ويتشكون، ولكن «أنجي» الذي كان يتوقع منه أن يخف لنجدتهم بصفته رب الحكمة، ظلّ مضطجعاً في مياه «العمق» غير مكترث لشكاتهم. ثم نجد أن أمه الربة التي تمثل «البحر الأول» (وهي الأم الأولى التي ولدت جميع الأرباب) تأتي بدموع الأرباب إلى «أنجي» (المخلّص) وتخاطبه قائلة:
«يابني قم من فراشك ومن... واعمل ما هو حكيم لائق،
اصنع عبيداً للأرباب، وعساهم يضاعفون من عددهم(؟)».
فتدبر الرب «أنجي» الأمر، وقاد جميع الصناع المهرة اللائقين، وقال لأمه «نمو» (نين يمو = ربة الماء) ربة البحر الأول:
«ياأماه، إن المخلوق الذي نطقت باسمه موجود،
فاربطي عليه صورة الآلهة (؟)،

(1) صموئيل كريمر، المرجع السابق 148 .

اعجني لب الطين الموجود فوق «مياه العمق»،
واجعلي «الصانعين المهرة» يكثفون الطين،
وعليك أنت أن توجدي له الأعضاء والجوارح،
وستعمل «نن ماح» [سيدة الاحياء والبعث والخلاص] من فوق يدك،
وستقوم بجانبك ربة (الولادة).. في أثناء صنعك،
ياأماه، قدّري مصيره [أي مصير المخلوق الجديد]،
وسترتبط «نن ماح» عليه صورة الآلهة (؟)،
إنه الإنسان....»[1] .

من عبارات هذا النص يمكننا الاستنتاج بسهولة:

1 . إن الذي قام بعملية خلق الإنسان مباشرة ليس الإله الواحد، وإنما قوى أخرى تأتمر بأمره، وقادرة على أن تنجز العملية، وهذا يذكرنا بالنظرة المندائية، إنهما نظرة تراثية واحدة.

2 . إن العبارة التي يجيب بها «أنجي» أمّه (الربة المحيية) حول المخلوق الواجب إخراجه إلى الوجود بأنه كان موجوداً «ياأماه، إن المخلوق الذي نطقت باسمه موجود» يؤكد لنا، من وجهة النظر العربية القديمة، أن البشر البهائمين، أي الذين كانوا يعيشون عيش الحيوانات والبهائم، كانوا موجودين عند خلق «الإنسان».

3 . إن عملية خلق «الإنسان» الجديد تمّت من «لب الطين» (أي الطين الحر الخالص، الجوهر). وأنه عجن حتى كثف وصار قابلاً لأن يتماسك، أي الطين اللازب.

4 . وبإمكاننا أن نخمن أن الربة «نن ماح» سوف «تنفخ» فيه روح الحياة لأن اسمها يدل عليها. إن «ماح» تعني المحيي، الباعث من الموت، المقيم، وهي من الفعل «حيا» = أحيا، بعث من الموت، أقام، خلّص، نجّى.. لأنها سوف «تعمل من فوق يد «نيمو» (ربة الماء) أثناء صنعه من الطين.

5 . إن هذا المخلوق الجديد سوف يحمل صورة الأرباب الذين جبلوه وصنعوه.

---

(1) المرجع نفسه، ص199 .

ولقد اعتقد العرب الأقدمون أن تلك «القوى» التي خلقت الإنسان على الأرض هي «أرباب» أي سادة قدموا إلى الأرض، بعضهم يتمتع بالقدرة على أن يخلق كائنات ويمنحها الروح، والبعض الآخر محروم من هذه المقدرة.

إننا نرى أن «نن ماح» بعد أن فرغت من عملية خلق الإنسان حاول «انجي» أن يقلدها ويخلق بعض الخلق هو أيضاً، إلا أنه في كل ما حاول صنعه كان يحصل على مخلوق ناقص، فالتجأ إلى «نن ماح» لتساعد مخلوقه الناقص العاجز. وحاولت «نن ماح» أن تساعد ذلك المخلوق، لكنها لم تفلح، لقد كلمته ولكنه عجز عن الإجابة، وقد مت له الخبز ليأكل ولكنه لم يمد يده لتناوله، وكان عاجزاً عن أن يجلس أو يقوم او يثني ركبتيه، ويعقب ذلك محادثة طويلة بين «أنجي» و«نن ماح» (ولكن الألواح ناقصة في الأجزاء الخاصة بهذا الموضوع بحيث يتعذر استخلاص معنى واضح منها)[1]. إن هذا يذكرنا بـ «افتاح إيل» (الفاتح الرب) عند المندائيين الذي يفشل في جعل آدم ينتصب على قائمتيه، لقد ظل مخلوقاً بهائمياً لا ينطق ولا ينتصب بقامته قبل أن يمنح العقل و«نفخة الروح».

ج – عرب وادي النيل وخلق آدم الانسان:

وعند عرب وادي النيل نجد أن خلق، الإنسان هو من الطين ايضاً. وقد أطلقوا على «الرب» الذي أنجز مهمة خلق الإنسان من الطين لقب «الخزّاف الأول»: «إن الله هو أبو الآلهة، وأبو آباء الآلهة طراً. جعل كلمته مسموعة، فجاءت الأرباب إلى الكينونة، وظهر الأرباب إلى الوجود بعدما تكلم فمه. ولقد صاغ بني الانسان وشكّل الأرباب. ألا إنه المعلم العظيم، الخزاف الأول الذي أخرج الأرباب والبشر من بين يديه، وصاغ الأرباب والبشر على طاولة الخزاف»[2].

د. في التوارة:

وفي التوراة نجد أن الأرض بعد أن أخرجت «ذوات أنفس حية كجنسها: بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها.. قال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل

---

(1) صموئيل كريمر، المرجع السابق، ص200 – 201 .

(2) السير ولس بدج، المرجع السابق، ص63 .

الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسـان على صورته»[1].

و: «هذه مبـادىء السموات والأرض حين خلقت. يـوم عمل الرب الإله الأرض والسموات كل شجر البرية لم يكن بعد في الأرض، وكل عشب البرية لم ينبت بعد، لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض، ولا كان إنسان ليعمل الأرض. ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي وجه الأرض. وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ في انفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية»[2].

ونلاحظ بكل جلاء كيف أن كتبة التوراة نقلوا لنا تلك الأفكار نفسها التي كانت متداولة في التراث العربي حول عملية الخلق. فعند خلق السموات والأرض لم يكن قد خلق أي شكل من أشكال الحياة على الأرض، لأن الأرض كانت خالية من المياه، وقد رأينا كيف ان الماء كان محمولاً في الجو على متن الريح في احدى مراحل تشكل الأرض:

«فالرب الإلـه لم يكن قد امطر على الأرض»، هكذا نرى الشيء ذاته. ثم جاءت مـرحلة نـزول المـاء على الأرض، ثم تبخّـره ونـزولـه مـاء عذباً قبل أن يخلق الإنسان، الذي «جبله الرب من التراب ونفخ في انفه نسمة حياة، فصار نفساً حية».

إن هذه الصـورة التي نقلها لنا كهنة التوراة هي صورة من الفهم متخلفة عن الحقيقـة التـراثيـة العـربيـة القديمـة كمـا هي عند قدامى العرب السـوريين والمصريين. فالجبل من الطين لم يكن يعني غير الخلق من الطين. لأن فعل «جبل» في العربية القديمة (السريانية والفينيقية) يعني فطر وخلق، و«جابول» الفاطر، الخـالق، وإن «النفخـة» لم يكن يقصد بهـا نسمـة الحيـاة، أي انـه كـان جامداً كالتمثال فلما نفخ «في أنفه» دبّت فيه الحياة. إن هذا فهم بدوي متخلف يعبرّ عن المستوى الفكري عند كهنة عشيرة بني اسرائيل الذين كانوا جميعاً من البدو رعاة الأغنـام. أمـا الآخرون من سـومريين وأكاديين ومندائيين والقدامى من

---

(1) تكوين 1 : 24 – 27 .

(2) تكوين 2 : 4 – 8 .

سكان وادي النيل فقد بيّنوا لنا أن النفخة هي نفخة الروح وليست نفخة النفس، فالنفس هي التي تعني الحياة والتنفس، وقد كان البشري البهائمي موجوداً، حياً، يتنفس، أما الروح فشأن آخر، وهي التي جعلت من هذا المخلوق الجديد إنساناً لا بشراً بهائمياً، وهذا مالم يفهمه كهنة التوراة من التراث العربي. فاعتقدوا أن الرب صنع تمثالاً من الطين ثم نفخ فيه نسمة الحياة، وهذا ما صار شائعاً عند كل الفئات العامية أو الجاهلة من شعوب الأرض قاطبة.

إن تلك النظرة التراثية العربية القديمة (الانبات من بذرة من الطين) هي التي انتقلت فيما بعد مع العرب السوريين إلى مناطق انتشارهم في بلاد اليونان وإيطاليا، فانعكست في الأساطير السورية التي صارت تدعى «إغريقية»، وهي التي نقلها وعبر عنها بأسلوبه الخاص الكاتب السوري ـ الروماني «أوفيد» في كتابه «مسخ الكائنات» حينما كتب يقول:

«ولم يكن قد ظهر بعد بين الكائنات من اتسم بطابع الآلهة وكان جديراً بأن يملك الذكاء الخارق الذي يتيح له أن يكون سيد سائر الخليقة. ثم كان أن خلق الإنسان. ولعل إله الكون هو الذي خلقه من بذرة مقدسة، أو لعلّ الأرض هي التي انطوت على بذرة من صلب السماء ساعة انسلخت من طبقات الأثير. ثم أتى بروميثيوس بن يافيثوس (يافث) فقبض قبضة من تراب وعجنها بماء الأمطار وسوّاها على صورة الآلهة المهيمنة على كل شيء، ولم يجعله على صورة الحيوان مخفوض الرأس، بل نصب قامته، وجعله مرفوع الراس يتطلع إلى السماء والنجوم. وهكذا تحولت الأرض من كتلة غير مميزة إلى أشكال لم تكن معروفة حتى ذلك الحين، هي أشكال البشر».

إنه الفكر السوري نفسه، لكنهم ـ أي اليونان والرومان ـ مالبثوا أن أناطوا عملية الخلق بأحد الأجداد العرب الذي نسَلَهم وينتمون إليه: إنه يافث بن نوح.

هـ- القرآن الكريم وخلق الإنسان:

أما القرآن الكريم فقد ذكر قصة خلق آدم الإنسان مجملة ومفصلة في آيات كثيرة:

﴿ ولقد خلقنا الإنســان من صلصــال من حمإٍ مسنون ﴾[1]، والصلصــال هو الطين الحرّ، أما الحمأ المسنون فهو الطين الذي تغيّر واسودّ من طول مجاورة الماء (بيضاوي).

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون. فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾[2].

تؤكد هذه الآية على خلق آدم من الطين المنتن، كما تؤكد على أن الله نفخ فيه من روحــه، ممــا جعل الإنســان يحمل في ذاتــه روحــاً سمــاويــاً يميزه عن بقيــة المخلوقات على الأرض.

﴿ ومن آياته أنه خلقكم من تراب. ثم إذا أنتم بشر منتشرون ﴾[3].

﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا. إنّا خلقناهم من طين لازب ﴾[4]، و«لازب» أي متماسك.

إن جميع هذه الآيات تؤكد أن الانسان خلق من الطين، كما سبق أن أكدت جميع مصادر التراث العربي القديم.

لكن لابد هنا من وقفة قصيرة لنتساءل: هل كان المقصود بكل هذه الشواهد أن القوة الخالقة جبلت هذا الإنسان من الطين كما يجبل التمثال، ثم بثت فيه نسمة الحيــاة والــروح؟ أم أن المقصــود بعمليــة الخلق من الطين الإشــارة إلى أن الإنســان، كجنس، بدأ خلقــه من الطين لا من المــاء، ثــم مرّت عمليــة الخلق و«التخليق» في أطوار كثيرة بدأت من الطين وانتهت بالإنسان، حيث تدخلت القوة الخالقة في أحد منعطفات الطبيعة الحرجة، وعند نهاية أحد الطرق المسدودة في التطور، التي كثيراً ما مرت بها وما تزال، لتحسم الأمر، ولتفتح طريقاً جديداً؟

ثم إذا كانت تلك المصادر نفسها تؤكد جميعاً ـ كما سبق أن رأينا ـ أن أول نشوء للحياة كان في الماء، وهذا ما أكدته علوم الطبيعة اليوم أيضاً، فلماذا

---

(1) سورة الحجر 26.

(2) سورة الحجر 28 – 29.

(3) سورة الروم 20.

(4) سورة الصافات 11.

تخلت هذه المصادر عن ذكر الماء عندما صار الأمر يتعلق بخلق الإنسان، وأصرت جميعاً على أن بدء عملية خلق الإنسان كان في الطين، وليس في الماء؟ فإذا كان المقصود بعملية الخلق من الطين بدء الخلق، فهل كان للطين بداية بعد الماء، وبالتالي هل كانت عملية بدء خلق الإنسان من الطين عملية لاحقة لنشوء الكائنات من الماء وليست مواكبة لها؟

ومن أجل الإجابة عن السؤال الأول: هل الإنسان جبل من الطين مباشرة أم أن بدء خلقه كان في الطين، لابدّ من أن نستعرض الصيغ التفصيلية، أو الأكثر تفصيلاً، التي أوردتها آيات القرآن الكريم حول عملية خلق الإنسان، علماً أن القرآن الكريم يكاد يكون المرجع الوحيد الذي أعطانا تفاصيل مهمة، أو خطوطاً عريضة، أو «نقاط علاّم» على طريق فهم الصيغة التراثية «للخلق من الطين».

إننا لو استعرضنا الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان سوف نجد أن صيغة «الخلق من الطين» لم تكن إلا إشارة إلى المصدر الذي نشأ فيه الإنسان. إنها صيغة اختصارية تعليمية أوجزت عشرات الملايين من السنين من تطور «البذرة» البشرية الأولى التي تكونت وخرجت من الطين، مما يضيق باستيعابها أفضل العقول فكيف بعامة البشر في ذلك الزمن وكل زمان. والشواهد على ذلك كثيرة في القرآن الكريم: ففي سورة نوح نقرأ: ﴿ الله أنبتكم من الأرض نباتاً، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾[1].

إن عملية «الانبات» من الأرض شيء، وعملية الجبْل من الطين شيء آخر. فالانبات يعني وجود البذرة كما يعني التطور. وهذه الصيغة تتناقض حتماً مع مفهوم الجبْل من الطين. إنها تحكي قصة تطور الإنسان من بذرة تكونت في الطين، ثم مرت بأحقاب وأطوار طويلة وكثيرة إلى أن بلغت مرحلة الإنسان ولقد كانت الأساطير العربية السورية القديمة قد اكدت هذا المعنى تحديداً. إن «أسطورة «انجي ونن ماح» تتحدث عن خلق البشر من الطين فوق مياه ابسو (افصيو = الخلاص، السلام) بواسطة الأم الربة «نيمو». وفي تصور روايات أخرى نبت

---

(1) سورة نوح 17 – 18.

البشر مثل العشب من الأرض بعد أن هشم إنليل قشرة الأرض بواسطة المعول، فاندفع البشر منها نحوه»[1].

إن في هذا القول اختصاراً للعملية، لكنه ذو دلالة كبيرة وعميقة، فالبشر جاؤوا من بيوض (بذور) تكونت في الطين لا في الماء، وقد خرجوا منها كما النبات من البذور، وإن فعل معول إنليل ليس إلا كناية عن تفقيس تلك البيوض.

وهذا عينه هو ما تفسره آية أخرى من سورة «نوح» نفسها: ﴿ وقد خلقكم أطوارا ﴾ (الآية: 14).

وفي سورة «النجم» نجد ﴿ إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾ (الآية: 33).

إن هذه الآية تؤكد ما جاء في الآية السابقة. فالانشاء من الأرض كالانبات منها. إنها تشير بكل وضوح إلى أن عملية خلق الإنسان مرت بمرحلتين، أو بطورين، رئيسيّين: الإنبات من الأرض او الطين، اي من بذرة تكونت تاريخياً في الطين، ثم تطورت إلى أن صار تكاثرها يتطلب الوجود الحتمي اللاحق للذكر والأنثى في مرحلة التطور، وهذه مرحلة عبرتها الكائنات الحية عبر ملايين السنين.

وإن هذا المعنى تؤكده آيات أخرى مثل ﴿ هو الذي خلقكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ﴾[2]. إن هذه الآية تشير إلى مصدر النشأة (التراب)، ثم تقفز بنا فوق ملايين السنين إلى أن صار التكاثر يتم بإخصاب الأنثى من نطفة الذكر وهو طور جديد. والآية هنا تفصّل في المرحلة الثانية التي هي أقرب إلى الفهم والإدراك وتتم ضمن زمن يكاد لا يذكر بالنسبة إلى الزمن الذي استغرقته عملية التطور من البذرة الواحدة (الخنثى) إلى ان تم فرز الذكر عن الأنثى.

وفي مكان آخر، وفي سورة «السجدة» تحديداً نقرأ: ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه. وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم

---

(1) ادزارد، بوب، رولينغ، المرجع السابق، ص78 .

(2) سورة غافر 67 .

سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾[1].

إن هذه الآية لم تترك شكاً لمرتاب: فالخلق بدأ من الطين، إشارة إلى البذرة الأولى التي أنتجت فيما بعد الكائن البشري. ثم مرّت بمرحلة فصل الذكر عن الأنثى في عملية التطور والتكاثر، فصار التكاثر بماء الذكر. وفي هذه المرحلة كان قد نتج البشر البهائميون الذين تحدثت عن وجودهم الأساطير العربية السومرية قبل «خلق» الانسان. ثم إن هذا الكائن البشري البهائمي هو الذي وقعت عليه عملية «الخلق» الجديد: لقد سوّاه ونفخ فيه من روحه. إن كلمة «سوّاه» أي قوّمه ونعّمه وملّسه، لا تترك لنا اي مجال للشك في أن المقصود هنا هو «تسوية» ذلك الكائن الذي يدب على أربع أو منحني الظهر، فجعله ينتصب مستوياً أو سواء. ثم نفخ فيه من روحه، وهي المنحة الخاصة التي ميز بها هذا الإنسان في عملية خلقه الجديد، فصار بها ممتازاً على سائر المخلوقات التي، إن كانت قد جعل لها السمع والأبصار، فلم يجعل لها الأفئدة أي العقول والبصائر. وثمة آية أخرى لابدّ من ذكرها قبل أن ننتقل إلى السؤال الثاني: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم انشأناه خلقاً آخر. فتبارك الله احسن الخالقين ﴾[2].

لقد غطّت هذه الآية كل ما يمكن أن يكون قد بقي من تساؤلات. فهي، اولاً، أوضحت بما لا يبقي أي مجال للشك أن الخلق هو دائماً من شيء، وأن كل طور يمرّ به الكائن الحي في مسيرة تطوره يسمّى خلقاً شرط أن يمتاز في طوره الجديد في أساس بنيته أو تكوينه. وهي، ثانياً، وبعد أن تمت عملية خلقه الجسدي ككائن حي، أصرّت على أن تصف الطور الجديد الذي بلغه ذلك الكائن بعبارة: ﴿ ثم انشأناه خلقاً آخر ﴾، والمقصود هنا بالتأكيد هو ﴿ ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه ﴾. إن هذا هو الخلق الجديد الذي صار به الإنسان إنساناً

---

(1) سورة السجدة 9 .

(2) سورة «المؤمنون» 12 - 14 .

بعد أحقاب عديدة من وجود البشري البهائمي. وإن هذا هو ما تؤكده آية أخرى ﴿ هو الذي خلقكم من طين. ثـم قضى أجـلاً. وأجلٌ مسمّى عنده، ثـم أنتـم تمترون ﴾[1].

تبين لنا أن الإنسان لم يُجبل من الطين، بل جاء نتيجة لعمليات خلق كثيرة وطويلة. إنه خلق أطواراً، ومن سلالة من طين، لقد صار الآن في مقدورنا الانتقال للاجابة عن السؤال الثاني: هل كان الخلق من الطين في مرحلة أخرى غير الخلق من الماء؟ نقول بالتأكيد نعم.

فلقد رأينا أن أول الكائنات الحية وجدت في الماء، وتحديداً تحت سطح الماء حينما مرت الأرض بظروف كانت مكشوفة أمام الأشعة فوق البنفسجية القاتلة والمدمرة للحياة حينما لم تكن الأرض قد تمكنت بعد من تشكيل غلافها الجوي الحامل للأوكسجين الذي هو أفضل مصفاة لتلك الأشعة القاتلة. ثم لما أخذت الأرض بالتبرد التدريجي واستقبلت الماء وبدأت حرارة الشمس القوية تفعل فعلها في تبخير مياه المحيطات بدأ بخار الماء يحمل معه الأكسجين من المحيطات، ثم بدأ «مؤثر يوري» الذي سبق أن شرحناه يفعل فعله والذي أدى إلى عملية «التعيير الذاتي» لكمية الأوكسجين في الغلاف الجوي، عندها ظهرت الحياة النباتية على الجبال البركانية الخامدة، فأسهمت في عملية التعيير الذاتي للأوكسجين في مرحلة لاحقة وبنسبة مختلفة، ممّا أمن الشروط الموضوعية لـ «بذور» الحيوان بمختلف أجناسه، ومنها الكائن البشري، لأن تتكون في الطين المنتن (الحمأ المسنون) الذي تغير لونه واسود وأنتن لطول مجاورته للماء، ثم، ومع توفر شروط معينة مرّت بها الأرض مرة، ولا يمكن تكرارها، «فقست» وخرجت تلك الكائنات ومنها الكائن البشري. لقد أثبت العلم الطبيعي صحة هذه النظرة، كما أن جميع مصادر التراث العربي القديم أكدّت على أن خلق الإنسان جاء في مرحلة متأخرة عن بقية الكائنات الحية التي بدأت خلقها في الماء بينما بدأ خلقه في الطين.

لقد اتضح الآن كيف أن التراث العربي يؤكد، كما أثبت العلم الحديث، أن خلق

---

(1) سورة الأنعام 1 – 2 .

«آدم» (الإنسـان الأول) كان من الطين، وفي مرحلة لاحقة تقدر بعشرات الملايين من السنين من خلق الكائنات الحية الأولى في الماء، إن هذا يبطل نظرية داروين التي تجعل من الإنسان ذروة تطور الكائنات الحية الأولى التي وجدت في الماء، وتثبت مرة أخرى أن داروين اطّلع على التراث العربي الذي جعل الماء بداية الكائنات الحية، لكنه، لنقص في الذكاء، وعجز في المخيلة، لم يستطع التقاط الجوهر في هذا التراث، ومواكبة أطوار الحياة كما عرضت مجملة في مجمل هذا التراث.

أما معنى كلمة «آدم» فهو الشبيه، المثيل، النظير. وهي من الجذر العربي القديم «دم» وتلفظ «دمو» باللهجة السريانية و«دما» باللهجة الفينيقية ويعني: الدم، الأصل، المثل، الند، المثيل، النظير، المثال، النموذج، الشخص، الطيف، الشبح.

ومن الكلمة جاءت «دمية» في العربية الحديثة وتعني مثيل الشيء، نظيره، استنساخه ولو بصورة مصغرة أو مقزمة. وقد جاءت التسمية من الاعتقاد العربي القديم بأن الرب (أي السيد السماوي وليس الإله الواحد) الذي تولى عملية خلق الإنسان الأول بإذن ربه، خلقه على مثاله أو على شاكلته، فسمّي «آدم» أي المثيل، الشخص. وقد انتقلت الكلمة مع العرب السوريين إلى بلاد اليونان وصار يفهم منها: الشخص والشبح، وتجمع بالفينيقية على «ديمي» أي الأشخاص. وإن كلمة «ديمو قراطو» التي صارت تفسر خطأ على أيدي الدارسين في الغرب بأنها تعني حكم الشعب، كانت تعني حرفياً «الشخص المسجّل» لأن قراط = سجّل، دوّن، كتب. وكان السوريون في بلاد اليونان لا يعترفون بحق المواطنية إلاّ لمن أقسم أبوه بأنه من السلالة من رابطة الدم الواحدة، فيصير إلى تدوين اسمه في السجل ويصبح مواطناً. وسنتكلم عن ذلك مفصلاً في حينه.

أما «حواء» فتعني الخصيبة، أو سيدة الخصب، أو الشديدة الخصوبة، وما تزال اللغة العربية تحتفظ بهذا المعنى حتى اليوم، فالأرض الحواء هي التي تضرب خضرتها إلى السمرة أو السواد لشدة خصوبتها، واحواوّت الأرض اشتدت خصوبتها. وتجمع مصادر التراث العربي على أن آدم وحواء خلقا من نفس واحدة، اي أنهما جاءا تمثيلاً لأحد أطوار الحياة. وتقول الأساطير العربية

القديمة إنها ولدت من «تي». و«تي» في العربية القديمة تعني الخصب. ومن هنا كان الحرف «ت» في العربية القديمة يعني الخصب ويرسم هكذا ✝ أي بشكل الصليب، والصليب في التراث العربي القديم هو رمز الخصيب[*]، والرَجِم، وكلمة «يتيتي» تعني الخصيبة، و«نفرتيتي» هي وردة الخصب، وهي وردة عشتار، وتعني ربة الوفرة والخصب. لكن كهنة التوراة وكتاب الأسفار فسروا كلمة «تي» بـ «الضلع» وسجّلوا أن حوّاء ولدت من ضلع آدم، وكرّسوا في عقول العامة هذا الفهم المتخلف الذي لا يمت إلى الحقيقة في التراث العربي القديم بأيلة صلة.

المغارة المقدسة شهدت خلق الإنسان:

لما كان جبل المغارة المقدسة في التراث العربي القديم موطن الأرباب، ولما كان هذا الجبل المقدس هو الجبل الأول الذي برز من المحيط البدئي، فقد شهد ـ كما سبق أن مرّ معنا ـ أول نشوء للحياة النباتية والحيوانية. فهبطت عليه الكائنات السماوية (أو الأثيرية) التي دعيت أرباباً، أو ملائكة، أو قوى مدبّرة بأمر الله، وخلقت هناك آدم الإنسان من طين المغارة، وزودته بنفخة من الروح الإلهية.

وكنا قد شرحنا معنى خلق آدم من الطين في التراث العربي القديم، على أنه جاء ثمرة تطور سلالة من الطين استغرق أحقاباً مديدة، فاختصرت العملية بعبارة «خلق من الطين» أو «جُبِلَ من الطين» لتمييزه عن بداية النشوءات من الماء وفي حقبة متأخرة عنها. إنه البشر البهائمي الذي «ربط به برنامج جديد متميز ومتطور» لينتج على منواله في تكاثره اللاحق، وقد منح القدرة العقلية والروحية على الخلق والابداع.

تقول الربة (الأم الكبرى) لـ «أنجي»:

«اعجني لبّ الطين الموجود فوق مياه «أفصيو»

واجعلي الصانعين المهرة يكثفون الطين،

(*) من اجل المزيد من التفاصيل راجع كتابنا الأول «تاريخ سوريا القديم، تصحيح وتحرير» دار المستقبل، دمشق 1986 .

وعليك انت أن توجدي له الحواس والجوارح

وستعمل «نن ماح» من فوقك يدك،

...

ياأماه قدري مصيره،

وستربط «نن ماح» عليه صورة الآلهة

إنه الإنسان...»[1].

إن «تقدير المصير» و«ربط صورة الآلهة» لا يمكن أن يفهما بلغة العصر إلا بالدخول على «روحه» بـ «برنامج» يحمل صفات جديدة عالية يتوارثها عبر طريقة صفّ جيناته الوراثية فتقدر مصيره المقبل المختلف عن البشر البهائميين الذين كانوا موجودين عند خلقه.

ويبدو أن قصص هذا التراث كانت قد جعلت آدم الإنسان الجديد متميزاً كواحد من السادة (الأرباب)، جرى تعليمه كل شيء، وجعلت إقامته في الجبل المركز ليدبّر أمر الأرض نيابة عن الأرباب بعد أن خلقوا له جنة توفّر فيها كل ما تشتهيه نفسه دونما حاجة إلى كدح. وأوصي ألا يسلك سبيل المعصية بما أُمِر به ونُهِي عنه، لكنه رُؤي أن يجرِّب فعصى، فأنزل من المكان الجنة ليكدح في الأرض ويتكاثر عليها ويتحول إلى إنسان فان، لكنه بقي متميزاً بما منح من عقل مبدع خالق. بينما بقي في الموضع الجنة أربعة من الأرباب (أو الملائكة) لتدبير أمور الخلق على الأرض إلى يوم القيامة.

هؤلاء الأربعة في التراث العربي السوري القديم اختلفت أسماؤهم بين مرحلة وأخرى.

ففي وادي النيل نجد:

1 . إن الأرباب الأربعة هم: رع، إيزيس، أوزيريس، حورس. تتغير أسماؤهم من مرحلة إلى أخرى، لكنها دائماً تعبرّ عن الشيء ذاته.

2 . كان الأرباب الأربعة الممثلون للأركان الرئيسية يرتبطون ارتباطاً أصيلاً بواحد من أشكال حورس، وكانوا يدعون أحياناً «أرواح حورس الأربع»، وهم

---

(1) صموئيل كريمر، المرجع السابق، ص199 .

من يعضدون السماء عند زواياها الأربع[1].

3 ـ كان قدماء المصريين يعتقدون أن هؤلاء الأرباب يسكنون حقول السلام عند الحوض الأعظم حيث شجرة الحياة. «ويظن بعض الدراسين أنها تقع إلى الشرق من مصر في مكان بعيد»[2]. وهناك في جبل الآلهة توجد المغارة المقدسة «بوطو» (بوطو في القاموس السرياني تعني الغار، المغارة، الثقب، الكهف) التي ولد فيها وتربّى حورس[3]، وهي «أكثر مهابط الوحي تمتعاً بثقة الناس»[4]، وفيها «الحوض العظيم» أو «البحيرة العظيمة» والمكان الذي نجم فيه «رع» منذ النشأة الأولى عندما كان المحيط لا يزال يحيط بالأرض، وكانت مكان مولد سائر الأرباب[5]. وفيها قبر الربة إيزيس، لأن الوثائق المصرية القديمة أكدت أن قبر إيزيس هو في بلاد العرب[6].

أما قبر أوزيريس فقد كان في الـ «أبيتون» (البيت، الحرم) الذي كان الكهنة يتمثلونه جبلاً به كهف غائر يقرّ فيه أوزيريس على هيئة نهرين يتفرعان من الحرم، ويحرسه ثعبان أو تنين»[7].

المغارة المقدسة ومياه التطهير الـ «أردن»

إن كلمة «أردن» هي في القاموس السرياني جمع «رديا» و«يردا» وتعني ورد، بركة، حوض، ركية، كما تعني محور الرحى، أي القطب، المركز الذي دعي «فالوس» Polus في بلاد اليونان. وكلمة «رديو» أيضاً في القاموس السرياني تعني: الماء، الينبوع، التطهير، التهذيب، التعليم، كما تعني المني، الزرع، الخصب.

تقول الروايات العربية السومرية إن الربة «أنانا» (عشتار) حينما اعتزمت أن

---

(1) السير ولس بدج، المرجع السابق، 139.

(2) المرجع نفسه، ص204 .

(3) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص204 .

(4) المرجع نفسه، ص326 .

(5) المرجع نفسه، 380 .

(6) المرجع نفسه، ص474 .

(7) المرجع نفسه، ص421 .

تزيد من خيرات مدينة أورك شدّت الرحال إلى «أرديو» حيث يسكن الرب «أنجي» سيد الحكمة والذي يقطن في مسكنه المائي في مياه الـ «أفصيو» (المخلص)[1].
وليس من شك في أن حوض «أرديو» الذي يتكرر ذكره في النصوص العربية القديمة العبيدية والسومرية والمندائية ليس إلا حوض التطهير في مياه «أنجي» المقدسة في المغارة. وقد استخدم من أجل التطهير والتعميد أو الوضوء منذ ذلك الزمن الموغل في القدم، ومروراً بزمن يوحنا المعمدان، ثم استمر في طقوس المسيحية حتى اليوم.
يقول ل.ديلابورت بصدد حديثه عن الديانة السومرية: «والاسم السامي لـ «إيا» (حيا) ثالث إله في الثالوث الأعظم معناه بيت الماء، أما اسمه السومري فهو «أنجي». وكانت مملكته الـ «أفصيو» هي المياه التي تحمل أرض المعبد وتحيط بها. وهو الذي أنقذ البشر من الهلاك زمن الطوفان، وكشف عن صناعات مختلفة للإنسان ومنح الذكاء للملوك، وساعد الكهنة على تأدية وظائفهم المقدسة، وخاصة في الطقوس التي يستعمل لممارستها ماء مقدساً يؤخذ من حوض «افصيو» في معبد أرديو»[2].
وهكذا يتضح أن المياه التي كان العرب الأقدمون، العبيديون والسومريون، يتخذونها مياهاً مقدسة للتعميد والتطهير هي مياه حوض «أفصيو» (المخلص) أو مياه «حيا» (المحيي، المنقذ، المخلص)، والتي هي في معبد «أرديو» التي تجمع على «يردن» أو «أردن»، وليست مياه نهر «الأردن» الذي سمّي بهذا الاسم تيمناً بالمياه المقدسة في البقعة المقدسة، كما دعي الفرات والدجلة والنيل بأسمائها تيمناً بالأنهار التي تنبع من مغارة الجبل المقدس نفسه.
وإن المندائيين الذين هم من تلك المنطقة نفسها، يستخدمون التسمية ذاتها عند الرسم بالماء. يقترب الشخص من الماء قائلاً:
بشميهون اد هي ربّي ابرخ يردنا اد مياهي
[بسم الحي ربّي أبارك يردن ماء الحياة (أو ماء حيا)][3]

---

(1) صموئيل كريمر، المرجع السابق، ص186 .

(2) ديلا بورت، المرجع السابق، ص169 .

(3) ناجية مرّاني، المرجع السابق، ص116 .

المخلوقات النارية في التراث العربي القديم:

ثمة نقطة أخرى لابدّ من التطرق إليها قبل أن ننتقل إلى موضوعنا التالي. وهي ان تراثنا العربي القديم يؤكد على أن مخلوقات «نارية» ليست من التراب أو الطين، جاءت وافدة أو طارئة إلى الأرض قبل آدم.

إن الأساطير العربية السومرية[1] تحدثنا أن 600 من هذه الكائنات السماوية انقسمت إلى قسمين: ثلاثمائة في السماء، وثلاثمائة هبط إلى الأرض، وكان منها المخلوق «اللّو» وكلمة «اللّو» تعني المخلوق الناري. (وما تزال هذه الكلمة مستخدمة في لغتنا اليومية الدارجة حينما ينبّه الطفل إلى عدم الاقتراب من النار بالقول له «اللّو» أي نار، لا تقرب). وتروي هذه الأساطير أن الإله خلقها من دم «قونجو» (الكلمة في القاموس السرياني تعني حارس الليل)، و«قونجو» كان حارس ووزير «تهامت» أي انه البركان الذي خرج من المحيط البدئي. لكن المكتشفات الآثارية لم تزودنا بتفاصيل أخرى حتى اليوم عن تلك الكائنات.

أما القرآن الكريم فقد نصّ في أكثر من سورة على وجود مخلوقات نارية تدعى «الجن»، كما خصص لها سورة بكاملها هي سورة «الجن». وأكد وجودهم في الأرض قبل آدم، وخلقهم من النار، وزعيمهم ورئيسهم هو إبليس الذي يتمتع بما تتمتع به الملائكة من قوة، لكن خلقه كان من النار لا من النور، وليس من الطين كما هو الأمر مع آدم فيما بعد. ويستشف من كل ما روي عنهم أنهم كائنات ذات طبع ناري عاشت في الأرض، ففسدت فيها وسفكت دماء الكائنات الحية وخاصة دماء البشر البهائميين أي قبل ان يخلق آدم. فأرسل الله لهم إبليس ذا الطبع الناري من الملائكة فقضى عليهم وشتّت شملهم، وصار سيداً على الأرض إلى أن قضى الله بأن يوكل تدبير الأمر على الأرض وإعمارها إلى مخلوق من طينة الأرض نفسها يزوده بالقدرة على العمل والخلق والإبداع. فكان أن «سوّى» ذلك المخلوق البشري وزوده بالعقل «ونفخ فيه من روحه» فكان آدم الجديد. وسخرّ له كل شيء، وأمر الملائكة (أي القوى السماوية) بالسجود له، أي بطاعته وتنفيذ متطلباته في سبيل إنجاز مهمة تدبير الأمر على

---

(1) د. ادزارد، بوب، روليغ، المرجع السابق، ص80 .

الأرض، انطلاقاً من القاعدة الإلهية ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ وأنشأ له فردوساً على الأرض في مكان خلقه. لكن الأمر كبر على إبليس الذي كان، حتى ذلك الحين، سيد الأرض وخليفة الله عليها، فعصى الرب وأبى الخضوع لآدم. فتمثلت تلك المعصية بهيئة شجرة في الجنة، وهي شجرة سلالة العصيان إلى يوم القيامة، وجعل فيها كل شيء تحت تصرف آدم وزوجته، ونهاهما عن الاقتراب من تلك الشجرة (أي من العصيان)، لكن آدم اقترب من الشجرة وأكل منها، أي وقع في المعصية، فجرده ربه من قواه السماوية وجوهره الخالد، وطرده من الجنة ليعمل في الأرض بكدحه، وليتكاثر كبقية حيواناتها الفانية، تاركاً أمامه فرصة الرجوع عن طريق التوبة والعمل الصالح، وحكم عليه، كما حكم على إبليس، بالبقاء على الأرض إلى يوم القيامة حيث تبدل الأرض غير الأرض والسموات. لنستعرض الآن هذه الآيات:

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون. والجان خلقناه من قبل من نار السموم. وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون. فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾[1].

فالجن خلقوا من قبل أن يخلق آدم، وخلقهم من نار السموم لا من الطين. وإبليس واحد من الملائكة.

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك. قال إني أعلم مالا تعلمون ﴾[2].

إن في الآية دليلاً واضحاً على أن الذين كانوا قبل آدم فسدوا في الأرض وسفكوا فيها الدماء. وآدم هو الخليفة.

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه. افتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو. بئس للظالمين بدلا ﴾[3].

---

(1) سورة الحجر 26 – 31 . (2) سورة البقرة 31 . (3) سورة الكهف 50 .

إن إبليس في الآية واحد من الجن، خرج عن أمر ربه، فبقي على الأرض يتكاثر وبقيت ذريته.

﴿ قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً. يهدي إلى الرشد فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾[1].

إن المحصلة التي نخرج بها من هذه الآيات هي أن إبليس من الملائكة، وهو من الجن، والجن مخلوقة من النار، وقد حكم عليه هو وذريته، كما آدم وذريته فيما بعد، بالبقاء في الأرض، ومنها المؤمن بالله الواحد ومنها الكافر المشرك.

أما كلمة «الجنّ» فهي في العربية القديمة والحديثة تعني المخفي، المستور. وجنّ أخفى وحجب وحجز، ومنها جاءت كلمة «المجنّ» اي الحاجز، الساتر. وقيل إن سبب التسمية هو كونهم مخلوقات نارية مخفية لا تُرى بالعين، وقيل لأنهم حجبوا عن نعم الله وحجزوا عنها وعن رؤيته بعد أن كانوا يتمتعون بمجاورته.

إن هذا لا يخرج عن المضمون الأساسي للتراث العربي القديم الذي يعتقد بوجود كائنات في السماوات تتلاءم وشروط كل سماء. ولقد أكد القرآن الكريم هذا المعتقد في أكثر من موضع: ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالُهم بالغدوّ والآصال ﴾[2]. وكلمة «الأرض» هنا اسم جمع، وقد استخدمها القرآن الكريم مراراً كثيرة بمعنى المفرد والجمع.

ثم إن ما اوردناه حتى الآن يكشف لنا جانباً آخر في التراث العربي القديم، هو الاعتقاد بهبوط كائنات سماوية على الأرض دعيت أحياناً أرباباً (سادة) وفي معظم الأحيان كانت تدعى «ملائكة».

«الوافدون» من السماء في التراث العربي القديم:

بالإضافة إلى ما حدثنا به التراث العربي المندائي القديم حول هبوط «كائنات أثيرية» إن في إمكاننا أن نميّز، وبكل وضوح، في التراث العربي القديم، صنفين من «الوافدين» من السماء: الصنف الأول هو الملائكة وهي ـ في المعتقد

---

(1) سورة الجن 1 – 2 .

(2) سورة الرعد 15 .

الاجمالي، وبصورة من الصور ـ تمثيل لقوى الله الخفية الفاعلة في هذا الكون والمدبرة له بأمره. والكلمة هي من الفعل العربي القديم (في السريانية والفينيقية) لأَكْ = أرسل، بعث، أوفد. فالملاك هو الرسول، والملائكة هم المرسلون.

وهم ـ في مجمل التصور ـ قوى وأرواح ذات طبع نوراني عصي على أن تدركه الحواس، تصدر عن أمر الله وليست جزءاً منه. ولقد أكد القرآن الكريم على وجودها بهذا المعنى في عدة مواضع:

﴿ ما ننزّل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين ﴾[1] . ﴿ ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا انه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾[2]. ﴿ يسبّح له السموات والأرض ومن فيهنّ، وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[3] . ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾[4]. ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة او يأتي ربك او يأتي بعض آيات ربك. يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل او كسبت في إيمانها خيراً. قل انتظروا إنّا منتظرون ﴾[5].

ولسنا هنا بصدد تصنيف الملائكة حسب قربهم أو بعدهم من الخالق أو حسب ما يمثلونه من قوى، أو حسب مهامهم أو وظائفهم، فكتب التراث حافلة بهذا، ولا نجد ثمة داعياً للتوقف عنده. أما الصنف الآخر من «الوافدين» فهو من النوع المحسوس والموصوف في كتب التراث بدءاً من الأساطير العربية القديمة وصولاً إلى ما توارثته وتناقلته كتب الاخباريين والمؤرخين العرب كالطبري وابن الأثير وغيرهما.

لقد أكد العرب السومريون والأكاديون هبوط وافدين من السماء بمركبة. وفي

---

(1) سورة الحجر 8 .

(2) سورة النحل 2 .

(3) سورة الاسراء 44 .

(4) سورة الاسراء 95 .

(5) سورة الأنعام 158 .

المكان الذي هبطت فيه المركبة التي دعوها «كولما» حددوا الموقع من آثارها، وتلك الحدود لآثارها دعوها «تيمن» (وهي في القاموس السرياني والعربي الحديث تعني «القِبلة»)، وجعلوها منطقة مقدسة، يحجّون إليها،ويحتفلون عندها بأعيادهم بعد ان اقاموا على المكان معبداً أو هيكلاً دعي «حيجي كولما» (أي معبد العربة أو المركبة، إذ حيجي =مكان مقدس، حج، عيد، احتفال، معبد، و«كولما» في القاموس السرياني تعني العربة، العجلة، المركبة). ولقد انشأوا في الهيكل أيضاً مركبة تمثيلاً لها وزيّنوها بالذهب والأحجار الكريمة. وليس غريباً او مستبعداً أن يكون العرب الأقدمون الذين كانوا أول من اخترع العجلات والعربة قد افادوا ممّا شاهدوه، خاصة وقد صارت مجالات العلم الحديث ومنجزاته ترغمنا على أن نتعامل مع ذلك التراث العربي القديم بأقصى درجة من الاحترام والحذر والجدية. ولقد دعوا سيّد ذلك المعبد بـ «ماراعدا»[*] (أي الراعد، الصاعق، المخيف).

لقد جاء في أحد النصوص التي خلفها لنا نابونيد أحد الملوك البابليين مايلي:

«... وقادني قلبي إلى أن أعنى بمدن جميع الآلهة العظام، فمجدت سيدي لوجال مارادا (مارعدا) المحارب الصنديد والبطل الرائع الكامل القوة، الاعصار الذي لا يقاوم، الذي يغرق الأراضي المعادية ويقوض أرض الأعداء، الذي يسكن في معبده الـ «اي إيجي كالما» الذي كان قد أقامه ملك سابق ورفع رأسه، ولكن لم يحط الأسوار بحوائط تسندها ولم يدعم حائط الحراسة فقد كان هيكله مخرباً، وأحجار عتبة بابه غير متماسكة. فقد هدمتها وفحصت الـ«تيمن» (المكان، القبلة) القديم، وحددت أساسه على «تيمنه»، وأعدت بناء الأسوار، وقويت حائط الحراسة، وحدّثه، ورفعت قمته أعلى ما كانت..

«أي لوجال ماراعدا! أيها السيد العظيم والمحارب القوي!

حين تدخل فرحاً إلى معبدك، وحين تشهد كل الأعمال الطاهرة التي أتممتها.. الا فلتكرر كل يوم أمام مردوك ملك السماء والأرض ما يسعدني.. الا فلتُطلْ

(*) من الكلمة «ماراعدو» و«ماراعدون» جاء الاسم «مارادون» و«مارادونا» باللهجة الفينيقية بعد اختفاء العين في اللفظ.

أيام حياتي، الا فلأكلّلْ بذرية ضخمة.. الا فلتسحق أعدائي بذراعيك القويتين وتقضي على كل أعدائي...»[1].

وليست قصة طائر «الفينيق»، إذا ما أردنا التعمق في مدلولها وفك رموزها، سوى شاهد آخر على ذلك «الوافد» من السماء. لقد عاشت قصة هذا الطائر الرمز في شتى أصقاع الوطن العربي القديم، في سوريا ووادي النيل. كان هذا «الطائر» يأتي كل يوم من أيام السماء مرة، فيحط على حجر الـ «بن بن» في بلاد العرب. وكان يسمّى في بلاد وادي النيل «بنو» (بن)، وقد رمز به قدامى المصريين إلى الجبل العتيق الذي برز من «النون» (الماء البدئي) «فإذا هذا «الطائر» يتلألأ من فوقها فيملأ نوره الكون، ويخرج صوته فيكون بذلك أول صوت دوّى في الوجود ثم تكون «الكلمة». ويستمر المصريون القدامى في الربط بينه وبين الحجر «بن بن» ثم بينه وبين الهرم والعمود»[2].

وينقل لنا هيرودوت وصف المصريين لهذا «الطائر» فيقول:

وهناك طائر مقدس آخر يسمّى «الفونيق» لم أره إلا مصوراً. إذ أنه يزور البلاد فيما ندر، يزورها كل خمس مائة عام على حد قول أهل مدينة الشمس (هليوبوليس)[3]».

إن في ذلك بعض النقاط الهامة لا يمكن تجاوزها:

النقطة الأولى هي النسبية في الزمان بين الأرض وغيرها من الكواكب. هذه النقطة التي أكدها القرآن صراحة في الآية: ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون ﴾. وذاك اليوم الذي هو يوم هذا «الطائر» هو النهار الذي يتألف من خمس مائة عام. فاليوم هو النهار أيضاً. والنقطة الثانية هو ارتباطه بـ «حجر البن» على الجبل الأول الذي ظهر من المحيط البدئي. وكنا قد شرحنا معنى «بن» الترميزي والشيفروي. وقد ارتبط هنا ارتباطاً مادياً محسوساً أكثر بالقاعدة أو المنصة التي هبط عليها ذلك الطائر وانطلق منها. إن «بن» في اللغة (غير

---

(1) ل. ديلابورت، المرجع السابق، ص257 – 258 .

(2) انظر: هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، دار القلم، 1966 ، ص178 .

(3) المرجع نفسه.

الترميزية) هي حجر الأساس، الأساس، البناء، القاعدة، المنصة. ومن هذا الجذر كانت الكلمة العربية القديمة «بنيثا» وتعني القاعدة، المنصة، بيت الرب، الكعبة. ثم صارت الكلمة تطلق على بيت الأصنام أو الآلهة، وصارت تكتب Panitheon. وما تزال اللغة العربية تحفظ لنا هذه الكلمة إذ نجد في «محيط المحيط» أن البَنِيَة هي الكعبة. ومعلوم أن الكعبة في الأصل هي الكعب، القاعدة، المنصة، ثم هي بيت الله، ثم هي بيت الأصنام، ثم عادت، بعد الإسلام، بيت الله الحرام (وقد أعدنا الشرح هنا للتذكير أيضاً).

والنقطة الثالثة هي أن ذلك «الطائر» كما صورته الأسطورة لم يكن من لحم ودم، بل كان يتلألأ بالنور الذي أضاء الكون كله، كما أن صوته ملأ أرجاء المكان.

فهل كان لهذا الشيء استمرار في التراث العربي فيما بعد؟ نقول: بالتأكيد نعم. لقد أجمعت مصادر التاريخ العربي فيما بعد على أن الله أنزل جسماً كالياقوتة على موضع البيت (أي الكعبة وهي قاعدة مربعة) أضاءت بنورها كل الأرجاء، ثم بعد خلق آدم، علّموا آدم أن يجعل موضعها بيتاً مقدساً لله، وأن يحفّ به كما تحفّ الملائكة بعرش الرب في السماء السابعة، فبدأت العبادة طوافاً حول «الكعبة» حيث «وُضِعَ» أولُ بيت لعبادة الله على الأرض، وهو في «بكة»، ثم ارتفع ذلك الجسم (البيت، الياقوتة) ودعي في التراث العربي «البيت المرفوع» أي الذي ارتفع من «الكعبة» إلى السماء السابعة. وقد ارتفعت آخر مرة عند حادث الطوفان. يقول الطبري في تاريخه: «وأنزل الله تعالى ياقوتة من ياقوت الجنة، فكانت على موضع البيت... فلم يزل يطاف به حتى أنزل الله تعالى الطوفان، فرفعت تلك الياقوتة»[1].

* * *

والآن لابدّ لنا من أن نقف أمام نتيجة حتمية تبرز بنفسها من خلال كل ما تقدم. هذه النتيجة هي أن آدم الإنسان، كما أنه لم يأت بكامله من البشر البهائمي وإنما أكمل خلقه بتدخل قوى علوية منحته العقل والروح الخالق المبدع، فإن علمه المتميز أيضاً جاء منذ البداية «تعليماً» أكثر مما جاء كمحصلة خبرة

(1) تاريخ الطبري، الجزء 1 ، ص82 .

تراكمية عند اكمال خلقه. إن هذا فعلاً هو ما تؤكده كل مصادر التراث العربي القديم. فبصرف النظر عن الشواهد النصيّة، بدءاً من الأساطير القديمة وصولاً إلى ما أنبأنا به القرآن الكريم: ﴿ اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم. علم الإنسان مالم يعلم ﴾، و﴿ الرحمن، علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان ﴾. وكنا قد بيّنّا أن «القلم» المعني ليس أداة الكتابة كما يوحي المعنى القريب للكلمة، وإنما هو معناه الآخر، أي الصف، الترتيب، وبلغة عصرنا إنه «البرنامج» المصفوف أو المرتّب من العلم الرباني الذي تتلقاه الروح وحياً. وثمة أمور أخرى كثيرة في هذا التراث لا يسعنا إلا أن نتأمل فيها طويلاً في شيء من الانبهار.

إن وصف تلك الظواهر الطبيعية، سواء ما كان منها كونياً عاماً أو في نطاق الكرة الأرضية وجوّها المحيط بها، والتي يعود زمن بعضها إلى حوالي اربعة مليارات من السنين، اي قبل نشوء اول خلية في الماء، بمثل تلك التصاوير الدقيقة إلى حد الدهشة، والتي لم يكتشف حقيقتها علم الطبيعة إلاّ في العقود الأخيرة من قرننا العشرين، هي إمّا أن تكون وليدة فكر ليس لامكاناته حدود، أو أن تكون تعليماً من قوى فوق طبيعية لإنساننا القديم الذي هو الإنسان الأول على الأرض، وليس ثمة مَجال ثالث لافتراض آخر. إن وصف حركة الكون كله حول مركز، وتركيبه السباعي بدءاً من الكون كله إلى كل جرم فيه إلى أصغر ذرة في أجزائه، ووصف عملية نشوء الخلية الأولى في الماء، والمياه المحمولة فوق الريح في الجو، والظلام الدامس الذي كان يخيم على الأرض، وصعود الجبال البركانية من قلب الماء المحيط المالح، وظهور الحياة النباتية والحيوانية في الطين المسنون على الجبل البركاني الأول بعد تبرّده، إلى خلق الإنسان، إلى العدد سبعة وحدّيه الأربعة (هي الأسس) والثلاثة (هي حلقات الترميز) في عملية الخلق، إلى ارتباط الخلق بالكلمة وباللغة، إلى التزام أبجدية اللغة العربية بـ «شيفرة» الخلق العددية والرمزية، إلى دوران المجرات بشكل زوبعة، ومجرتنا بشكل زوبعة رباعية منتفخة البطن، والتي لم يكشفها العلم الحديث إلا مؤخراً بواسطة سفن ومخابر الفضاء.. إلى آخر ما هنالك من الظواهر المذهلة التي مررنا ـ أو قد نمر على ذكرها لاحقاً ـ.. كل ذلك يجعلنا

نقف مبهورين أمام عظمة هذا التراث العربي، من جانب، ويحفزنا إلى إعادة النظر في كل ما كتب وما قيل عنه حتى الآن من جانب آخر. كما إنه يفرض علينا واجب التعامل معه بأقصى درجات الاحترام والحذر والفهم العميق، لأنه يتأكد لنا يوماً بعد يوم أن أولئك الأجداد العظماء لم يخلفوا لنا شيئاً ما عادياً. إن كل ما دونوه، ورسموه، وصوروه، وفكروا به، واعتقدوه، إنما هو على غاية من الخطورة والعمق، ويعكس حقائق مذهلة، وعبقرية لا حدود لها في شتّى مجالات الفكر والعلم والفن والقيم الإنسانية الرفيعة.

اما الآن فقد صار في إمكاننا أن ننتقل إلى السؤال الثاني: متى تمّت عملية خلق الإنسان؟

الجبل المركز وعيد ميلاد النور:

من هذه الكلمة «صحي» أو «دحي» بمعنى «ضحي» كان عيد الضحوة عند العرب الأقدمين.

لقد كان ـ ومايزال ـ عيد الضحوة عند المندائيين في بلاد غامد قديماً، وفي جنوب العراق حديثاً، هو عيد رأس السنة، الكبير، ويسمونه الضحوة الكبرى (دهوا ربا)، «وهو ذكرى هبة الله تعالى الحياة أو النسمة، أو الكلمة، أو الأمر الذي كان به آدم الإنسان الأول الذي عمّر هو وأبناؤه الأرض وبناها لأول مرة (إدهوريشا بنيانا). ويقول المندائيون إن الملائكة الأثيريين قد صعدوا بهذه المناسبة للشكران. ولكن الروح الخبيثة (روها) أو الشيطان لم يصعد، بل بقي يبغي إفساد حياة الإنسان الذي اختاره الله ليعمر الدنيا»[1].

وعلى هذا الأساس أخذ العرب الأقدمون في كل من سوريا ووادي النيل بالاحتفال بعيد بدء الخليقة أو ميلاد النور في ليلة 24 - 25 كانون الأول من كل عام، حيث يكون الليل قد بلغ أوجه والنهار حضيضه، وبدأ صعود النهار، وهو ما يدعى بالانقلاب الشتوي. أما كيف تقرر ذلك اليوم يوماً لميلاد النور، فذلك شرحه:

---

(2) ناجية مرّاني، المرجع السابق، ص142.

لما وضعت القوة الخالقة بذرتها الطاهرة في الرحم الأول (للأم الأولى) حملت بها تسعة أشهر من أشهر الرب، ثم أخرجت مولودها الجديد إلى النور؛ ولما كان الزمن الأرضي يقسم السنة إلى اثني عشر شهراً على منوال التقسيم السماوي، فإن شهر كانون الأول هو الشهر التاسع اعتباراً من يوم راس السنة السوري القديم الذي يبدأ مع بداية الربيع في 24 آذار. وكان ذلك على التقويم الشمسي البابلي والمصري القديم.

أما العرب الذين اعتمدوا التقويم القمري فقد اعتبروا أن «يوم الفطرة»، اي يوم بدء الخليقة، ميلاد الإنسان الأول، هو بعد كمال الشهر التاسع الذي هو رمضان في الأشهر القمرية. فنهاية شهر رمضان هي بداية الخليقة أو الخلق أو الفَطر. والكلمة من فطَرَ اي طلع، وفطر الله الخلق خلقهم وابتدعهم، وفطر الأمر اخترعه وابتداه، وأنشأه، وفطر الصائم فِطراً وفَطراً أكل وشرب أو ابتدأ الأكل والشرب.. قال ابن عباس: كنت ما أدري ما هو فاطر السموات حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما أنا «فطرتها» أي أنا ابتدأتها (محيط المحيط).

أما كيف صحّ أن تكون نهاية شهر كانون الأول هو يوم عيد الفطرة أو بدء الخليقة، وهو الشهر التاسع في التقويم العربي الشمسي القديم، ونهاية شهر رمضان الذي هو الشهر التاسع في التقويم العربي القمري هو أيضاً عيد الفطرة وبدء الخليقة، ونحن نعلم أن ثمة اختلافاً وفروقات بين العامين الشمسي والقمري مما يجعل شهر رمضان متحركاً على مدار العام الشمسي فهذا ما سوف نعرضه حالاً:

في ملحمة «دانيال» العربية السورية المكتشفة في «أوجاريت» نقرأ:

«فليبتليك بعل بسبع سنين
ليبتليك راكب الغيوم بثماني سنين
لتحبس عنك الأمطار
لينقطع دفق النهار
وتحتجب خيرات صوت بعل».

في هذه الحالة ـ يقول جوردون ـ «إن دورة حياة بعل المؤلفة من ثماني سنين

هي نفسها الدورة اللازمة لوقوع ليلة القمر الكامل في أطول يوم أو أقصر يوم (نهار) من أيام السنة الشمسية، وتوافق التقويمين الشمسي والقمري»[1]. «وفي الفترات التاريخية كان القضاة الخمسة الذين يشكلون المجلس الأعلى للسيادة يختارون في كل ثماني سنوات ليلة صافية مظلمة لا قمر ينيرها، فيجلسون لمراقبة النجوم في صمت إلى طلوع الصباح. فإذا لاح لهم شهاب كان في ذلك إشارة لهم بأن الملك قد اقترف إثماً بحق الآلهة. عند ذلك يأمر المجلس بأن يلزم الملك بيته. تكفّ يده عن الحكم حتى تفصل في أمره نبوءة عرافة معبد دلفي، فإما أن يعاد إلى منصبه أو يرفع إلى العرش ملك جديد، وفي جزيرة كريت كان على الملك، بعد مرور ثماني سنوات من حكمه، أن يلجأ إلى الكهف في جبل حيدا المقدس (حيث ولد ابن العذراء زيوس) فيخلد إلى الصمت والتأمل، ويتلقى وحي الرب... هذه الدورة الزمنية المؤلفة من ثماني سنوات التي حدّدت في كل من كريت واليونان زمن تجديد الروح الإلهية ـ الملكية..

ربما كانت دورة فلكية مرتبطة بحركة الشمس والقمر في مداريهما، ففي كل ثماني سنوات يصادف وقوع ليلة البدر الكامل في أطول ليالي السنة أو أقصرها. وقد رأى الأقدمون في هذا التوافق نوعاً من الانسجام بين النظامين الفلكيين الرئيسيين اللذين يحدّدان نوعين من التقويم الزمني هما التقويم الشمسي والتقويم القمري، بعد أن يلتقي النظامان والتقويمان تبدأ في السماء دورة أخرى.. لذا وفي هذه الليلة بالذات يتوجب تجديد القوة الإلهية الملكية»[2].

والحقيقة إن الظاهرة عربية سورية قديمة كما بينت ملحمة دانيال، انتقلت كغيرها مع السوريين إلى كريت واليونان، كما انتقل اسم جبل حيدا حيث المغارة التي ولد فيها الطفل الإلهي. وإن جوردون لم يفهم المقصود بتلك الدورة الثمانية، وقد ربطها باقتران البدر الكامل مع أطول يوم أو أقصر يوم في السنة، واقعاً في تناقض بيّن، حينما ذكر أن أعضاء مجلس السيادة كانوا يخرجون في السنة الثامنة ويختارون ليلة صافية مظلمة لا قمر فيها ينيرها، فيجلسون

---

(1) C.H. Gordon, Ugurit, P. 26

(2) Ibid, PP. 325 – 326

لمراقبة النجوم في صمت إلى طلوع الصباح. إن هذا هو ما كانوا يفعلونه بالتأكيد. لكن كيف وفّق بين اختيارهم لليلة المظلمة التي لا قمر ينيرها وبين تفسيره باقتران تلك الليلة باكتمال البدر؟

اما الصحيح فهو أن العرب السوريين الذين وضعوا أول نظام فلكي في العالم هو النظام الستيني، اكتشفوا زمن الاعتدالين الخريفي والربيعي والانقلابين الشتوي والصيفي. وإن المسافة الزمنية بين كل منهما والذي يليه تسعون يوماً اي ثلاثة أشهر. ولما كان الفرق بين العام الشمسي والعام القمري هو 11,25 يوماً تقريباً فإن الفترة التي يستغرقها عيد الفطرة القمري الدوار بين يوم الاعتدال الربيعي 24 آذار ويوم 24 كانون الأول (عيد ميلاد النور) هو 90÷11,25 = 8 سنوات بالضبط والتحديد لينطبق معه في ليلة واحدة. وهكذا دواليك بين كل اعتدال وانقلاب يليه أو يسبقه.

ليلة القدر:

وإن الليلة التي كان قدماء السوريين حتى في مناطق انتشارهم يرصدونها عند تطابق التقويمين كل ثماني سنوات هي التي ولد فيها الطفل الإلهي أو الإنسان الأول، إنها بدء الخليقة. لقد كانوا مؤمنين بأن الحسابين الشمسي والقمري يتطابقان في تلك الليلة، لذلك فقد كانوا يلتمسونها كل ثماني سنوات، أي عند تطابق التقويمين، وهي التي دعيت فيما بعد بـ «ليلة القدر». ليلة تجديد القوة الإلهية.

لكن هل هذه الليلة «ليلة القدر» تأتي كل ثماني سنوات فعلاً كما كان يعتقد بعض قدامى السوريين؟ ليس ثمة ما ينبئنا عنها بشيء من الدلالة كالقرآن الكريم.

1 . ففي سورة «الرحمن» نجد ﴿ الرحمن، علّم القرآن. خلق الإنسان. علّمه البيان. الشمس والقمر بحسبان ﴾.

لقد دلّتنا هذه الآيات مباشرة على أول الطريق الصحيح: فعندما خلق الله الإنسان أخذ بالحسبان الشمس والقمر معاً، أي انطباق التقويمين الشمسي والقمري.

2 . ولما كان خلق الإنسان في نهاية الشهر التاسع الشمسي، وكانت أعياد رأس

السنة السورية تبدأ من 24 آذار وتبلغ ذروتها مابين 1 – 4 نيسان علمنا أن نهاية الشهر التاسع هو ليلة 24 – 25 كانون الأول. ولما كان شهر رمضان هو الشهر التاسع في التقويم القمري فإن نهايته هي الليلة الأخيرة الفاصلة بينه وبين الأول من شوال، وهي ليلة الفطر، أو الفطرة، أو الخلق، أو بدء الخليقة. إنها ليلة القدر.

3 . ولما كان الحساب في التقويم الشمسي ثابتاً على الفصول، أما القمري فدوّار لوجود الفرق 11,25 يوماً التي تقل في العالم القمري عن الشمسي، لهذا فقد نبهنا القرآن الكريم إلى أن عملية خلق الإنسان اختير لها توقيت أخذ فيه بعين الاعتبار عدم حدوث تناقض، وبكلمة أخرى لابد من تطابق بين نهاية الشهر التاسع الشمسي ونهاية الشهر التاسع القمري في اليوم الثابت الذي هو الشمسي. أي لابد أن ينطبق عيد الفطر الرمضاني مع عيد الفطرة الشمسي في ليلة 24 – 25 كانون الأول. وبهذا نكون قد حدّدنا ليلة القدر، خاصة وأن القرآن الكريم أكد لنا أن ﴿ عدة الشهور عند الله أثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ﴾[1].

4 . لما كان عدد أيام السنة الشمسية هو 365,25 يوماً تقريباً، وأن الفرق بين العام الشمسي والعام القمري هو 11,25 يوماً، فإن تطابق عيد الفطرة على الحسابين الشمسي والقمري يتم كل 32 عاماً مرة تقريباً، اي بتقسيم عدد أيام السنة على الفرق في الأيام في السنة الواحدة.

5 . ولكن هل يعني هذا أن «ليلة القدر»، التي هي ليلة بدء الخليقة، تمرّ كل اثنين وثلاثين عاماً مرة، أي كلما حدث التطابق في العيد على الحسابين الشمسي والقمري؟ إن مصادر التراث العربي القديم، كما سبق أن مرّ معنا، وكذلك القرآن الكريم أكدت أن «الروح» والأرباب، أو الملائكة تنزل كل يوم من أيام الرب الذي هو «كألف سنة مما تعدّون»، أي كل ألف سنة مرة. ولو أننا أمعنّا الفكر قليلاً في سورة «القدر» وفي معاني آياتها، وما تشير إليه بصورة تكاد تكون مباشرة لظهرت لنا ملامح هذا المعنى: ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر، وما أدراك ماليلة

---

(1) سورة التوبة 36 .

القدر. ليلة القدر خير من ألف شهر، تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر. سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾. فالقرآن يخبرنا هنا أن ليلة القدر خير من ألف شهر. فلماذا جاء هذا التحديد بالألف؟ هل كان مجرد صدفة، أم تعبيراً عن الكثرة فحسب كما يقرر بعض المفسرين الذين ارتاحوا لعدم تشغيل العقل؟ أم أنها فعلاً خير من ألف شهر بالدقة وبالتحديد، ودون زيادة أو نقصان؟ ثم ما هو هذا الشهر الذي هي خير من الف منه؟ هل هو أي شهر، أم هو شهر رمضان، أم ان كلمة «شهر» قصد بها المعنى اللغوي الصرف، أي الإظهار، كما افترض بعض المفسرين ايضاً؟

إن من الواضح تماماً ان المقصود بالشهر هنا هو شهر رمضان تحديداً. ففي شهر رمضان بدأ نزول القرآن. وهذا هو المفتاح الذي سلمتنا إياه السورة من أولها. إن «الهاء» في «أنزلناه» هي الضمير العائد للقرآن. وقد اكدت لنا آيات اخرى هذه الحقيقة ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ و﴿ إنّا أنزلنا في ليلة مباركة ﴾ فالقرآن بدأ تنزيله في رمضان وفي ليلة القدر منه تحديداً. ثم إنه يعطينا في سورة «القدر» تفصيلاً آخر:

ففي ليلة القدر تتنزل الملائكة والروح بإذن ربهم من السماء إلى الأرض. وإن تنزل الملائكة والروح يتم كل يوم من أيام الرب، أي كل ألف سنة مرة. وإن شهر رمضان يأتي مرة واحدة كل عام، أي إن التنزل يحدث كل ألف رمضان. من هنا نصل إلى المقصود بقوله تعالى: ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ لأنه كلما مرّ ألف رمضان (وفي هذه الألف رمضان لا تتنزل الملائكة والروح) تأتي ليلة القدر مرة واحدة تتنزل فيها الملائكة والروح. ولما كانت عملية بدء الخليقة (الفطرة) حدثت في ليلة القدر، أي بعد تمام الشهر التاسع الذي هو شهر رمضان، فإن المقصود بها الليلة الفاصلة بين آخر يوم من رمضان وبين الأول من شهر شوال. إنها ليلة الـ 29 أو الـ 31 لأنها الليلة الوتر (المفردة) الأخيرة من تمام الشهر.

ولهذا أمر الرسول الكريم أن تلتمس ليلة القدر في العشر الليالي الوتر الأخيرة من شهر رمضان.

«القيامة» أو «الساعة» في التراث العربي القديم:

إذا كان ميلاد محمد هو عام الفيل أي 570 م، وإذا كان بدء نزول القرآن حينما بلغ محمد الأربعين من العمر، كما تؤكد المصادر، فإن ليلة القدر التي تنزل فيها الروح والملائكة والقرآن هي إحدى ليالي رمضان حوالي عام 610 م. وقد كان يفترض تكرارها كل الف عام لولا أن القرآن الكريم اكد لنا أن تنزل الملائكة بعد محمد لن يحدث إلا من أجل الدينونة، أي عند قيام الساعة، وأن الزمن بين مبعث محمد وقيام الساعة هو زمن «فترة من الرسل» لن يبعث فيها أحد ﴿ وإذا الرسل اقّتت لأي يوم اجّلت. ليوم الفصل ﴾[1]. والرسل هنا هم الملائكة. ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً ﴾[2] ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك، ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴾[3].

وهكذا يؤكد لنا القرآن الكريم أن نزول الملائكة التالي هو من أجل يوم الفصل. وهذا اليوم مقدّر سلفاً وموّقت في علم الله وحده ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ يوم يستكمل فيه «آدم» الأخير خمسين ألف سنة. فتعرج الملائكة والروح الموكلة بتدبير الأمر بإذن ربها على الأرض. إنه زمن قيام الساعة التي قال فيها محمد ﷺ : «بعثتُ انا والساعة كهاتين. وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى»[4]، ويقصد أن أحدهما قد سبق الآخر بمقدار، وأن النسبة في هذا السبق، أي سبق مبعث محمد ليوم القيامة، ليست إلا كالنسبة في الزيادة مابين الاصبعين الوسطى والسبابة.

وإذا ما أردنا أن نقترب اكثر من هذه المعطيات التراثية التي ظلت واحدة وإن اختلف الناس في فهمها، ونجرّب التوصل إلى نتيجة من خلالها، حول الفترة التي حامت من حولها مصادر التراث جميعاً، فترة القيامة، سنجد أنفسنا نسلك طريقاً عبر النقاط والمحطات التراثية التالية:

---

(1) سورة المرسلات 11 - 13

(2) سورة فاطر 1 .

(3) سورة الأنعام 8 .

(4) تاريخ الطبري، الجزء 1 ، واخبار الزمان للمسعودي ص25 .

1 . أكدت جميع مصادر التراث أن عمر كل «آدم» وذريته على هذه الأرض هو سبعة أسابيع، أي تسعة وأربعون يوماً من أيام الرب[1].

2 . وأن كل يوم منها «كألف سنة مما تعدّون».

3 . وقبل القيامة ثمة يوم الفترة من الرسل الذي هو ألف سنة، فيكون المجموع خمسين ألف سنة.

4 . إن العرب من قوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، كانوا من العرب الذين مساكنهم في جوف شبه جزيرة العرب. ويعتمدون التقويم القمري في حساب السنين، وليس التقويم الشمسي كما في بابل والساحل السوري ووادي النيل. ولهذا فإن المقصود بـ «ممّا تعدّون» هو ألف سنة قمرية، لأن الخطاب كان موجهاً إليهم بالمباشرة. وإذا ما حوّلنا الألف السنة القمرية إلى سنين شمسية نجد أنها تعادل 970,873 سنة شمسية، إذ أن كل 300 سنة شمسية تعادل 309 سنة قمرية، ولما كان أهل الكهف في الزمان والمكان الذي يستخدم فيه التقويم الشمسي الذي وضعه قدامى السوريين واستخدمه البابليون وعرب وادي النيل، فقد ذكر لنا القرآن مدة لبثهم في كهفهم ﴿ ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ أي أنهم بقوا في كهفهم 300 سنة على الحساب الشمسي، ما يعادل 309 سنوات على الحساب القمري، حساب عرب مكة والمدينة زمن محمد.

5 . علمنا أن آخر مرة تنزل فيها الروح والملائكة في ليلة القدر كانت زمن محمد عند بدء نزول القرآن، أي حوالي 610 م.

6 . ولما كانت هذه العملية تحدث كل ألف سنة قمرية مرة (أي كل 970,873 سنة شمسية) فإننا إذا ما عدنا القهقرى في الزمن لنتقرى زمن التطابق والتنزل لحصلنا على الجدول التالي:

610 م، 360 ق.م، 1330 ق.م، 2300 ق.م، 3270 ق.م، 4240 ق.م، 5210 ق.م وهو زمن آدم الرسول.

وإن هذه الأعوام هي تقريبية (وليست تامة الدقة نتيجة للبواقي والكسور في الحساب). وإذا ما علمنا أن حوالي عام 1330 ق.م هو زمن موسى فعلاً، وأن

---

(1) أخبار الزمان للمسعودي، ص25 .

حوالي 3270 ق.م هو زمن نوح، وأن حوالي 4240 ق.م هو زمن إدريس، تبقى لدينا إشكالية حول زمن عيسى المسيح (مما سوف يضطرنا إلى مناقشتها بعد قليل)، فقد تبيَن، بناء على هذه «السُنّة» الألفية (على الحساب القمري) أن زمن السيد المسيح هو حوالي 360 قبل الميلاد المأخوذ به حاليا.

7 . أما بعد محمد فقد كان من المفترض أن يتكرر نزول الملائكة بعد ألف سنة قمرية جديدة (أي بعد 970,8 سنة شمسية). وذلك يكون حوالي 610 م + 970,8 = 1580,8 م. لكن المصادر اخبرتنا أن تنزل الملائكة لن يحدث في هذه المرة وإنما أجلت لليوم الذي يليها، وهو يوم الفصل (أي يوم القيامة)، الذي، بناء على هذا الحساب يكون في الفترة الواقعة حوالي 1580,8 + 970,8 = 2551,6 م، حيث يكون قد مرّ «أسبوع» آدم الرسول الذي وجد حوالي 5200 ق.م:

5200 ق.م + 2551,6 بعد الميلاد = 7751,6 سنة شمسية، أي ما يعادل 8000 سنة قمرية، أي أسبوع + يوم الفترة = 8 أيام من أيام الرب، وكل منها بألف سنة مما تعدون.

إن هذا هو ما تقوله مصادر التراث حول يوم القيامة أو الساعة. ونحن نستعرضها فقط لأنها فرضت نفسها كموضوع تراثي متواصل، ولا نحكم لها أو عليها بالصحة أو بالخطأ. فموضوع الساعة يبقى في علم الله وحده ﴿ لا يجلّيها لوقتها إلا هو ﴾ وكل ما يقال غير هذا يبقى ضرباً من الرجم بالغيب ليس من العلم في شيء. وكل ما يمكن استخلاصه ممّا استعرضناه من مصادر التراث هو أنها لم تعد بالبعيدة. وقد أكد هذه النتيجة القرآن الكريم: ﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها ﴾.

فكلمة «أخفيها» من الكلمات الضدّية في العربية، إذ تعني: أظهرُها لكن أكتمها. وهي في القاموس: أخفى الشيء أزال خفاءه أي غطاءه.

«القيامة» في الديانات السماوية الثلاث:

إذا كان عمر «آدمنا» بلغ قرابة أو زهاء 48 ألف سنة شمسية، كما يقول العلم الحديث، فإن هذا الزمن اقترب من ساعة النهاية التي دعتها كل الديانات: الساعة، أو القيامة، أو الدينونة، أو يوم الدين.

وفي هذا اليوم تتنزل الروح، أو القوى أو الملائكة لتدين عالم الأرض، فتنفتح فوهات جبل البركان الأول، وتسلّط السماء نارها ودخانها ليعمّ الأرض حريق يجهز على كل اثر للحياة فيها، ويتم نقل «الأبرار» إلى أرض جديدة وسماء جديدة. ولقد أورد القرآن الكريم مجموعة من الآيات التي تضيء كثيراً جوانب هذه المسألة يمكن أن نضعها ضمن الإطار التالي:

1 . ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ﴾[1].

2 . ﴿ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن. يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأنه أحاط بكل شيء علماً ﴾[2].

3 . ﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من وليّ ولا شفيع أفلا تتذكرون. يدّبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة ممّا تعدون. ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾[3].

4 . ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها. قل إنما علمها عند ربي لا يجلّيها لوقتها إلا هو. ثقلت في السماوات والأرض ولا تأتيكم إلا بغتة ﴾[4].

5 . ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين. يغشى الناس، هذا عذاب اليم ﴾[5].

6 . ﴿ سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. فاصبر صبراً جميلاً. إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ﴾[6].

---

(1) سورة هود 7 .

(2) سورة الطلاق 12 .

(3) سورة السجدة 4 – 9 .

(4) سورة الأعراف 187 .

(5) سورة الدخان 10 – 11 .

(6) سورة المعارج 1 – 6 .

7 . ﴿ فلا تحسبنّ الله مخلف وعده ورسله إن الله عزيز ذو انتقام. يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات. وبرز والله الواحد القهار ﴾[1]

8 . ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة. هذا يومكم الذي كنتم توعدون. يوم نطوي السماء كطيّ السجلّ للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده، وعداً علينا إنا كنّا فاعلين ﴾[2].

9 . ﴿ وإذا الرسل أقّتت لأي يوم أجّلت. ليوم الفصل ﴾[3].

وهكذا تتضح لنا الصورة من خلال هذه الآيات، علماً أنه ثمة الكثير من الآيات الأخرى التي تخبرنا عن الأرض منذ بداية الخلق وحتى انتهائه. والمهم هنا أن «الروح» يدبّر الأمر مابين السماء والأرض كل ألف سنة بالزمن الأرضي، وأن الملائكة الموكلين بالأرض سوف ينتظرون يوماً سماوياً مقداره خمسون ألف سنة من زمننا نحن، فيعرجون إلى السماء بعد دينونة الحياة على الأرض وتمام الدينونة.

أما في التوراة فقد نقل كتاب الأسفار هذه المعلومات بصورة تجعلنا نشك في انهم فهموا حقيقة نصها في الأصل في توراة موسى المفقودة. فجاءت على لسان الكهنة في هيئة أعياد وعطل تدوم سنوات لا معنى لها في صيغتها المنقولة. لقد جاء في الاصحاح الخامس والعشرين من سفر اللاويين:

«وكلّم الرب موسى في جبل سيناء قائلاً: كلّم بني إسرائيل وقل لهم متى أتيتم إلى الأرض التي أعطيكم تسبت الأرض سبتاً للرب. ست سنين تزرع حقلك وست سنين تقضب كرمك وتجمع غلتهما، وأما السنة السابعة ففيها يكون للأرض سبتُ عطلةٍ سبتاً للرب. لا تزرع حقلك ولا تقضب كرمك. زريع حصيدك لا تحصد وعنب كرمك المحول لا تقطف. سنة عطلة تكون للأرض...

وتعدّ لك سبعة سبوت سنين. سبع سنين سبع مرات. فتكون لك أيام السبعة السبوت السنوية تسعاً وأربعين سنة. ثم تعبرّ بوق الهتاف في الشهر السابع في عاشر الشهر في يوم الكفّارة تعبرّون البوق في جميع أرضكم. وتقدسون

---

(1) سورة ابراهيم 48 .

(2) سورة الأنبياء 103 – 104 .

(3) سورة المرسلات 11 – 12 .

السنة الخمسين وتنادون بالعتق في الأرض لجميع سكانها. تكون لكم يوبيلاً وترجعون كل إلى ملكه. وتعودون كل إلى عشيرته. يوبيلاً تكون لكم السنة الخمسون. لا تزرعوا ولا تحصدوا زريعها ولا تقطفوا كرمها المحول. إنها يوبيل مقدسة تكون لكم من الحقل تأكلون غلّتها.. حسب عدد السنين بعد اليوبيل تشتري من صاحبك، وحسب سني الغلة يبيعك»[1].

إن مضمون الكلام يكاد ينضح بالسبعة أسابيع التي مجموعها تسعٌ وأربعون ألف سنة، ثم بالسبت الأخير (ألف سنة)، فيصير المجموع خمسين ألف سنة هي عمر حياة الإنسان في عهد خلافة آدم الإنسان الحالي لله على الأرض. لكنّ الصيغة التي نقلت بها جاءت معَماة أو مرمزّة بصورة تجعل الناس يعتقدون انهم لا يزرعون ولا يحصدون لمدة سنة. إن هذا، على الأرجح، انعكاس لعدم وضوح الصورة من الأصل أكثر ممّا هي ترميز لأن مثل هذا الرمز يبقى لا معنى له.

أما في الإنجيل فإننا نجد في «رؤيا يوحنّا» الصورة أكثر وضوحاً:

«ورأيت ملاكاً نازلاً من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده. فقبض على التنيّن الحية القديمة الذي هو إبليس والشيطان، قيّده ألف سنة، وطرحه في الهاوية، وأغلق عليه وختم عليه كي لا يضلّ الأمم في مابعد حتى تتم الألف السنة. وبعد ذلك لابدّ أن يُحلَّ زماناً يسيراً»[2].

* «ثم بوّق الملاك السادس فسمعت صوتاً واحداً من أربعة قرون مذبح الذهب الذي أمام الله قائلاً للملاك السادس الذي معه البوق: فكّ الأربعة الملائكة المقيدين عند النهر العظيم الفرات، فانفكّ الأربعة الملائكة المعدّون للساعة واليوم والشهر والسنة»[2].

* «ثم جاء واحد من السبعة الملائكة الذين معهم السبعة الجامات وتكلم معي قائلاً لي: هلّم فأريك دينونة الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة»[3].

---

(1) لاويون 25 : 1 – 16 .

(2) رؤيا يوحنا 1 – 3 .

(3) رؤيا يوحنا 9 : 13 – 15 .

(4) رؤيا يوحنا 17 : 1 .

* «فحضر بي بالروح إلى بريّة فرأيت امرأة جالسة على وحش قرمزي.. له سبعة رؤوس وعشرة قرون»[1].

* «ثم قال لي الملاك: لماذا تعجبت. أنا أقول لك سرّ المرأة والوحش الحامل لها الذي له السبعة الرؤوس والعشرة القرون.. هنا الذهن الذي له حكمة. السبعة الرؤوس هي سبعة جبال عليها المرأة جالسة. وسبعة ملوك خمسة سقطوا وواحد موجود والآخر لم يأت بعد. ومتى أتى ينبغي أن يبقى قليلاً. والوحش الذي كان وليس الآن فهو ثامن، وهو من السبعة ويمضي إلى الهلاك. والعشرة القرون التي رأيت هي عشرة ملوك لم يأخذوا ملكاً بعد»[2].

إن الترميز هنا واضح: فالسبعة الرؤوس للجبل المركزي (والمذكورة منذ عهد سومر) هي السبعة أسابيع السماوية. والعشرة قرون هي عشر مئات من السنين أي ألف سنة (لأن كل قرن مائة سنة) فالسبعة أسابيع السماوية هي 1000x7x7 سنة = 49 ألف سنة بالزمن الأرضي. والألف سنة الباقية هي العشرة القرون التي ينبغي أن تضاف ليكمل الحساب إلى الخمسين ألف سنة، وهي التي عبرّ عنها (بأنها لم تأخذ ملكاً بعد) بصورة مرمزة، أي لا تتنزل فيها الملائكة. إنه «الثامن.. الذي يمضي إلى الهلاك».

* «والملاك الذي رأيته واقفاً على البحر وعلى الأرض رفع يده إلى السماء، وأقسم بالحيّ إلى أبد الآبدين الذي خلق السماء وما فيها والأرض وما فيها والبحر وما فيه أن لا يكون زمان بعد. بل في أيام صوت الملاك السابع حتى أزمع أن يبوّق ليتم أيضاً سرّ الله كما بشرّ عبيده الأنبياء»[3].

* «وأما السموات والأرض الكائنة الآن فهي مخزونة بتلك الكلمة عينها محفوظة للنار إلى يوم الدين وهلاك الناس الفجار. ولكن لا يَخفَ عليكم أيها الأحباء هذا الشيء الواحد أن يوماً واحداً عند الرب كألف سنة وألف سنة كيوم واحد. لا يتباطأ الرب عن وعده.. ولكن سيأتي كلص في الليل يوم الرب الذي فيه تزول

---

(1) رؤيا يوحنا 17 : 3 .

(2) رؤيا يوحنا 17 : 7 – 13 .

(3) رؤيا يوحنا 10 : 5 – 7 .

السموات بضجيج وتنحل العناصر محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها»[1]. إن في هذا كله تأكيداً واضحاً على وحدة النظرة في التراث العربي القديم كله إلى بدء الخلق ونهايته. إنه كما بدأ من الماء وبالماء، سينتهي بالنار، وتنحل العناصر إلى جواهرها البسيطة الأولى. إن هذا يوحي بحريق كوني يرجع كل العناصر التي تؤلف المركبات في الأرض إلى عناصرها الأولى التي كانت قبل أن يتوفر لها الغلاف الجوي من الأكسجين الحامي للحياة من أشعة الشمس فوق البنفسجية.

إنه كما لو أن طبقة الأوزون الحامية للحياة على الأرض سوف تزال أو تختفي، فتتعرض الأرض لتلك الأشعة التي سوف تقتل الحياة وتفكك الموجودات إلى عناصرها الأولى من جديد.

﴿ إليه مرجعكم جميعاً وعدَ الله حقاً. إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين أمنوا ﴾[2].

ولقد أكدت الوثائق العربية القديمة هذه النظرة ولاسيما في وادي النيل حيث كانوا يعتقدون أيضاً بنسبية الزمان الأرضي، وأن أرواح الموتى سوف تبقى بأعمالها منعمّة أو معذبة في الدار الآخرة الأرضية تنتظر الساعة، القيامة الأخيرة.

لقد أشار إلى ذلك أحد الملوك بعد أن بلغ سن الشيخوخة في وصيته لابنه يحذره فيها من القضاة الذين يفصلون في قضايا المظلومين. «وفوق هذا فقد أوصاه بألاّ يظن أنه لا يزال هناك أمد بعيد إلى أن تحين المحاكمة: «لا تثق بطول السنين. فإنهم ينظرون إلى أمد الحياة كأنها ساعة. وإن الإنسان ليبقى بعد الموت، وستكون أعماله إلى جانبه، وستدوم إلى الأبد حياة الإنسان في مملكة الموتى، وإنه لأحمق من لا يأبه بذلك، أما من يأتي إلى قضاة الموتى مبرأ من كل ذنب فسيكون مثل إله، ويسير حرّاً طليقاً كسادة الأبدية»[3] وفي أحد نصوص كتاب الموتى:

---

(1) رسالة بطرس الثانية 3 : 7 – 11 .

(2) سورة يونس 4 .

(3) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص256 .

«ماذا ينطقون عندما يشيدون بمدح الحياة على الأرض ويقللون من شأن مدينة الموتى. ماذا يفيد العمل ضد الأبدية على هذا النحو، وهي البلد الحقّ العادل الذي لا فزع فيه.. في هذا البلد الذي يخلو من الأعداء يستريح أهلنا جميعاً منذ العصور الأولى. وسيغدو إليه كل من سيكون هنا.. ما من أحد استطاع أن يبقى في مصر، وما من أحد لم يذهب إليه. إنه الزمن الذي يقضيه الإنسان على الأرض إنما هو طيف خيال فحسب»[1].

إن هذه الصورة بمجملها، هي التي انتقلت مع العرب السوريين إلى بلاد اليونان وإيطاليا. فنقلها الشاعر السوري ـ الروماني أوفيد (أوويد = التائب) في كتابه «التحولات» قائلاً:

«مغارة العالم الأسفل ذات الطرق الألف والأبواب المفتوحة في جميع الاتجاهات، تستقبل أرواح الموتى كما يستقبل البحر أنهار الأرض جميعاً. لا تضيق بشعب من الشعوب ولا تغصّ بزحمة الوافدين. هنا وهناك تروح الأطياف وتجيء بعدما تخلصت من الدم واللحم والعظام»[2]

ولابد من التوقف عند عبارات كهذه «فإنهم ينظرون إلى أمد الحياة كأنه ساعة» و«إن الزمن الذي يقضيه الإنسان على الأرض إنما هو طيف خيال فحسب». لقد أكد قدامى عرب وادي النيل من خلالها أن الناس يوم الدينونة يحسبون أنهم ما لبثوا في الحياة الدنيا غير ساعة. أليست هذه هي الصورة عينها التي يؤكدها الوحي لمحمد، وتتكرر في أكثر من موضع في القرآن الكريم؟ ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة، كذلك كانوا يؤفكون ﴾[3].

فما هو الوحي:

---

(1) المرجع نفسه، ص270 .

(2) أوفيد، مسخ الكائنات، ص150 .

(3) سورة الروم 55 .





الحلقة الثامنة

الوحي



مفهوم الوحي:

جاء في الحديث الشريف: «أنزل القرآن على سبعة احرف لكل منها ظهر وبطن ولكل بطن منها ظهر وبطن إلى سبعة أبطن»[1] .

إن في هذا القول وحده أروع تعبير عن عملية الوحي، وعن مفهوم الظاهر والباطن في آن معاً.

فالـ «حرف» في اللغة إمّا ما يتركب منه اللفظ ويسمّى حرف التهجي، وإمّا ان يعني الكلمة، وإمّا ان يعني الحدّ او الوجه، وإمّا أن يعني اللغة. والحرف في علم «الجفر» (وهو علم آل بيت محمد) هو بناء مفرد مستقل بالدلالة، وتسمّى دلالة الحروف دلالة اولية، ودلالة الكلمة دلالة ثانوية. (انظر: «محيط المحيط»).

فلو اخذنا كلمة «الحرف» بمدلولاتها الظاهرة القريبة، أي بمعنى حرف الهجاء، او الكلمة، أو اللغة، لهرب منا اي معنى حقيقي لهذا القول، ولوقفنا فيه على أمر متناقض عقلياً: إذ كيف يمكن ان ينزل القرآن على سبعة من حروف الهجاء وفي القرآن كل حروف الهجاء العربية؟ أم كيف ينزل على سبع كلمات وفيه آلاف الكلمات؟ أم كيف ينزل على سبع لغات والقرآن نزل عربياً وبلغة واحدة هي العربية؟ أم كيف يصحّ ان نفترض أن المقصود بها هو اللهجات أو القراءات، وما هو وجه الظاهر والباطن في كل لهجة؟ أمام هذا كان لابد من اللجوء إلى التعريف الآخر للحرف: إنه بناء مستقل الدلالة وتسمى دلالة الحروف دلالة أولية، ودلالة الكلمة دلالة ثانوية. ولنتوقف قليلاً عند هذا التعريف الذي يكشف لنا حقيقة على غاية من الأهمية، هي حقيقة الوحي.

إن القرآن هو، في حقيقته، علم إلهي تتلقاه الروح وتعيه بأمر ربها، وهذا ما يدعى بالوحي، وإن هذا العلم الرباني الموحى ليس لغة وكلمات عربية أو غير عربية، لأن الله منزه عن الكلام كالإنسان. وإن اقرب ما يمكن أن نعبرّ عنه بلغتنا اليوم هو أن نقول: إنه «برنامج» مبني، مرتب، ومصفوف، وهذا ما قصد به «بناء مفرد مستقل بالدلالة هي الدلالة الأولية». ثم ما أن تتلقاه الروح حتى تبدأ

---

(1) الجامع الصغير، الجزء 1 ، ص107 .

عملية «الترجمة» وذلك بأن تصطفّ مقابل «الأحرف»، الموحاة (التي هي صورة الوعي بترميزها السماوي) ما يناسبها من الكلمات المخزونة في العقل، فيخرج الوعي في ترجمته، أو نسخته الثانية كلاماً عربياً، وهذا ما دعي بـ «دلالة الكلمة، الدلالة الثانوية». فكيف تتم عملية الوحي؟

لقد لخصت لنا بعض آيات القرآن الكريم هذه العملية بإيجاز معجز. لنقرأ: ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين وإنه لفي زبر الأولين ﴾(1).

فالوحي علم رباني ﴿ تنزيل رب العالمين ﴾، نزل به الملاك الرسول (جبريل) على «قلب» محمد تحديداً، وليس على النفس، أو العقل، أو الروح، ليكون منذراً لقومه بلسانه العربي، علماً أن هذا «العلم» أوحي إلى أنبياء قبله وأنذروا به بالعربية السريانية لأنه موجود «في زبر الأولين».

فلو أننا أخذنا كلمة «القلب» من خلال معناها أو مدلولها الظاهر القريب، أي العضو من البدن الموكل بضخ الدم لما وقعنا على شيء. فكان لابد من الولوج عبر الظاهر إلى ما هو أعمق حيث نجد أن القلب في علم آل بيت محمد لطيفة ربانية ظاهرها العقل أو النفس وباطنها الروح، وهو أشرف الأعضاء لما فيه من العقل وسرعة الخواطر والتلون والتقلب في الأحوال، وهو أعظم الأشياء الموصوفة بالسعة من جانب الحق. ويسميه الحكماء النفس الناطقة والروح باطنه.

إن هذه الآيات تبيّن لنا بجلاء ما بعده جلاء كيف أن الوحي ينزل على القلب الذي باطنه الروح بواسطة الرسول الملاك بدلالته وصيغته الربانية الأولية. ثم ما أن يمرّ مابين الروح والعقل أو النفس الناطقة عند النبي حتى تبدأ عملية «ترجمته» بواسطة الكلام المناسب له من اللغة المحفوظة لدى العقل في الذاكرة، فيخرج كلاماً من الذي يتكلمه ويحفظه الموحى إليه (النبي)، مشابهاً، مماثلاً، مشاكلاً، لكنه، في حقيقته وجوهره ليس هو تماماً. إنه صورته اللغوية التي تمكننا قدراتنا من إدراكها والتعرف عليها. إنها دلالته الثانوية، دلالة الكلمة، فهي، في

---

(1) سورة الشعراء 192 – 196 .

حد قدراتنا ووعينا، هو، لكنه، في جوهره، غير هذا الكلام العربي الذي لا نقدر على ادراكه إلا من خلاله.

إن العلاقة فيما بينهما، رغم هذا التماثل، هي في نسبة العلاقة بين المادة والروح. ولقد عبر عن هذه العلاقة ابو حامد الغزالي بقوله: «جعلت الرحمة الإلهية عالم الشهادة على موازنة عالم الملكوت: فما من شيء من هذا العالم إلا وهو مثال لشيء من ذلك العالم. وربما كان الشيء الواحد مثالاً لأشياء من عالم الملكوت. وربما كان للشيء الواحد من عالم الملكوت أمثلة كثيرة من عالم الشهادة»[1].

إن هذه العملية، في مجملها، تذكرنا بالبرنامج الأساس الذي يحمله الرسول RNA من مركز النواة ليمر به بين وحدتي كل جسيم ريبي في عالم الخلية، لتتم عملية ترجمته عن طريق اصطفاف الحموض الأمينية المناسبة مقابل كل حلقة من حلقات البرنامج الأساس (المثال) المرمّزة، ولتخرج النسخة المماثلة المترجمة إلى اللغة الحيوية، لغة الحموض الأمينية، وقد مررنا على شرحها أنفاً.

فكما أن الرسول في الخلية الحية حمل برنامجاً مرمزاً مصفوفاً عن الـ DNA ليترجم بين وحدتي كل جسيم ريبي إلى سلسلة من الحموض الأمينية المناسبة ترجمة أمينة دقيقة لا يسمح فيها بالخطأ، وأن هذه الحموض الأمينية، في النتيجة والواقع، ليست حموضاً نووية، لكنها تعبير عنها «بلغتها» هي، فإن الرسول في عملية الوحي يلقي الوحي في قلب النبي بدلالته وصيغته الرمزية الأولية، ثم ما أن يمر بين الروح والعقل أو النفس الناطقة عند النبي حتى تتم عملية ترجمته بواسطة الكلام المناسب من اللغة المحفوظة في الذاكرة ترجمة امينة دقيقة، فيخرج إلينا في صيغته الكلامية بدلالته الثانوية، مشابهاً مماثلاً للدلالة الأولية، ويصعب إدراكه على العامة من الناس.

ومن هنا فقد كان الوحي «مثنى»: أي «برنامجا» إلهياً مرمزاً، هو المثال الأول أو الدلالة الأولية، أو البطن، ونسخة مماثلة مناسبة لها لكن في ترتيب كلامي،

---

(1) أبو حامد الغزالي، مشكاة الأنوار، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1964، ص67.

هي الدلالة الثانوية، أو الظهر، الذي ظهرت به، ولا تصحّ كما لا تتم، الواحدة بغير الأخرى، إذ لو بقي الوحي بمثاله الإلهي وبغير مماثله اللغوي الإنساني لما عرف به أحد، ومن هنا صار لنا أن نفهم تنزيل القرآن على أحرف لكل منها ظهر وبطن، فالبطن هو المثال، والظهر هو المثيل اللغوي. والظاهر والباطن متشابهان. ولما كان المثال يتصف بالكمال والثبات والديمومة، فإن الكلام أو اللغة، التي هي ظاهره أو صورته، تتصف بالمحدودية والعجز والتلوّن، ومن هنا كانت إشكالية الدلالة الثانوية التي هي دلالة الكلمة بما تحمله من المحدودية والعجز والتلوّن والاحتمال في الوقت الذي تكون فيه مقيدة بالترجمة الأمينة للرمز الذي تتلقاه الروح وتتوهج به وعياً كلياً محضاً أولياً منزهاً عن الكلمات. فمجال مناورة الكلمة ضيق إلى أدنى الحدود. وإن على الكلمة المناسبة أن تخرج هي لا غيرها من مستودع الذاكرة لتنقل ذلك الوعي الكلي إلى صعيد الكلمة التي تمثل حد إدراكنا له والتعرف عليه. إن هذا تحديداً هو ما يجعل أكثر الناس عاجزين عن التأويل ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ﴾[1]. ولنلاحظ كيف استخدم القرآن الكريم كلمة «تأويل» بدلاً من كلمة «تفسير» لأن التفسير هو شرح الكلمات من خلال معانيها في القواميس، أما التأويل فهو الارجاع إلى الدلالة الأولية، إنه الوعي الأولي الروحي كما وعاه النبي، وهو علم الأحرف كما هي في مثالها الإلهي، بينما دلالة الكلمات هي الدلالة الثانوية العاجزة، المحدودة، الملونة، المشكلة.

إن هذا التشابه بين المثال الأول والمثيل الثاني هو التعبير عن الوحي في شكليه المتلازمين: المثال الرباني الروحي، والمثيل الكلامي البشري. إنه مثنى، مثنى، إنه سبع مثاني التي هي الأحرف، التي هي الدلالات الأولية، والثانوية: ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربّهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل فما له من هاد ﴾[2].

---

(1) سورة آل عمران 7 .

(2) سورة الزمر 23 .

إن هذه السبعة الأحرف التي لكل منها ظهر وبطن (دلالة أولية ودلالة ثانوية) هي التي تنزل بها احسن الحديث عن العلم الرباني الذي يصعب إدراكه إلا على الراسخين في العلم. إنها السبع المثاني التي خُصَّ بها النبي محمد، وعلّمه الله بها من علمه المباشر، فأمره الاّ يطلب لنفسه فوقها مثاني (أزواجاً) أخرى خصّ بها أنبياء آخرين: ﴿ ولقد اتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم. لا تمدّن عينيك إلى ما متعنا به ازواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين ﴾[1].

وكما رأينا كيف ان الرسول يحمل البرنامج المرمز والمصفوف من النواة إلى الخلية ليمرّ بين الجسيمين الريبيين ثم يخرج سلسلة جديدة من الأحماض الأمينية التي هي ترجمة امينة ودقيقة لرسالة النواة، فإن الرسل، أو الملائكة، التي دعيت بـ «الصافات» في القرآن الكريم تنقل، أو تبث، تلك الرسالة المرمزة بدلالتها الأولية إلى «القلب»، فتمرّ ما بين الروح والعقل (أو النفس الناطقة) لتترجم حسب ترتيبها الأولي (دلالتها الأولية) ترجمة أمينة بما يناسبها من الكلام.

إن هذا الترتيب، أو الصف، في عملية الوحي هو ما تقوم به الملائكة (الرسل)، وهذا ما أكده الإنجيل أيضاً: «أخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه»[2].

إن الملائكة، بالنسبة لعملية الوحي، هي «الصافات» في القرآن والإنجيل.

اما ماذا تقول كتب التفسير حول «المثاني» لنقرأ معاً:

«قال مجاهد، يعني القرآن، كله متشابه مثاني. وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف. وقال الضحاك: مثاني، ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى. وقال عكرمة: ... تكون السورة فيه آية وفي السورة الأخرى آية تشبهها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مثاني، مردّد، ردّد موسى في القرآن وهود وصالح والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في اماكن كثيرة. وقال سعيد بن جبير: مثاني، أي القرآن يشبه بعضه بعضاً ويرد بعضه على بعض.

---

(1) سورة الحجر 87 – 88 .

(2) أعمال الرسل 7 : 53 .

وقال بعض العلماء ويروى عن سفيان بن عيينه معنى قوله تعالى ﴿ متشابهاً مثاني ﴾ إن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد، فهذان من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار وما أشبه هذا، فهذا من المثاني كقوله تعالى: ﴿ إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ﴾[1]. إن في مثل هذا «الخبط» مثالاً آخر على تعطيل العقل.

إن العلم الإلهي الموحى مثاني، بدءاً من علم التوحيد، إلى خلق السموات والأرض، وخلق الحياة في الماء، ثم النبات والحيوان، وخلق الإنسان، والجنة والنار والساعة هي أمثلة على العلم الرباني المجمل المتشابه الذي جهله العامة من الناس من عصر إلى عصر، وصعب عليهم إدراكه، ولو لم يعلمه الله وحياً لأنبيائه لما عرف الناس منه شيئاً ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾[2]. فحين خلق الله السموات والأرض وما بعد ذلك لم يكن الإنسان قد خلق بعد، وبالتالي ما كان له أن يعرف شيئاً من ذلك إلا وحياً.

ثم إن هذا «القلب» يمكن أن يدخل عليه أي برنامج آخر، وقد يقبله فيفسد نتاجه، وقد يصمد أمامه. وهنا التجربة أو الامتحان أو البلاء، الذي يخضع له الناس في هذه الحياة الدنيا، ولا يستثنى من ذلك الأنبياء والرسل الذين صنفهم القرآن الكريم إلى أولي عزم، وغير أولي عزم:

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان، ثم يُحكم الله آياته والله عليم حكيم. ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم، وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾[3].

ولنلاحظ أن القرآن الكريم استخدم كلمة «تمنّى» التي تعني رغب وقرأ. إنه اختصار لعملية التلقي والقبول والقراءة، أي تحويل المتلقّي إلى ما يماثله في

---

(1) تفسير ابن كثير، دار الأندلس، الطبعة الثانية، الجزء 6، ص 87 – 88.

(2) سورة الكهف 51.

(3) سورة الحجر 52.

الذهن من كلام، إنه تعبير عن عملية الوحي، التي قد يدخل عليها الشيطان ببرنامجه فيفسدها. وإن عبارة «ويحكم الله آياته» تذكرنا بعملية «الدرز» أكثر من مرة في النواة.

وفي مكان آخر نقرأ: ﴿ واتلُ عليهم نبأ الذي اتيناه آياتنا فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾[1].

وقيل إن... آدم، الإنسان العاقل الأول، هو المقصود بهذا القول. فالآيات التي أوتيها آدم وانسلخ عنها هي البرنامج الذي ربط إلى قلبه ليسمو به سيداً على الأرض تطيعه الملائكة، ولمّا انسلخ منها، أي من البرنامج المثال الذي هو الأصل، دخل عليه الشيطان ببرنامجه هو فهبط به إلى الحياة الحيوانية وتسلسل الذرية. فصار الشيطان بمثابة البرنامج الآخر الذي يدخل على «القلوب» فيصير قريناً للروح فيها. إن هذا هو جوهر وجوده، إذ بدون دخوله وتطفله على غيره يبقى وجوده، في حد ذاته، أو عدم وجوده سواء.

إن هذا الجانب من عالم الروح يذكّرنا بذلك الجانب من عالم الجسد، عالم الأحياء، إذ أن لكل مثيل في عالم المادة مثالاً في عالم الروح. وإن «الشيطان»، كوجود وكفعل في عالم الروح، شدّ ما يتشابه مع «الفيروس» في عالم الطبيعة.

«تتألف الفيروسات، هذه الكائنات الغريبة، فقط من خيط طويل لجزيئة سلسلية من حمض نووي ملفوفة ضمن كيس بروتيني كغلاف لها. أي أنها، بتعبير آخر، ليست سوى صبغية وراثية منعزلة (مستقلة) محاطة بغلاف واق. ليست جسماً! إنها من هذا المنظار التجريد الأقصى لما هو حي. وغير قادرة على فعل أي شيء، حرفياً أي شيء، آخر سوى التكاثر. غير أن وجودها مقتصر على هذا الغرض الوحيد بشكل أن بنيتها مختصرة إلى درجة أنها، كما هي بدون جسم، لا تمتلك حتى أعضاء خاصة لهذا الغرض. أما البنية لديها فهي نتوء معقوف على شكل كلاّب مثبتّ على غلافها. يمنحها هذا النتوء القدرة على الالتصاق بالخلايا الحية وثقب جدارها. عندما يحصل الثقب ينكمش الغلاف زارقاً

---

(1) سورة الأعراف 174 – 175.

الجزيئة التي يحتويها في جسد الخلية المغدورة.

«بهذا الإنجاز الواحد الوحيد يكون المحتوى الحياتي للفيروس قد تحقق، عندئذ تبدأ الخلية ذاتها بسحب هذه الصبغية المزروقة في جسدها إلى جهازها التكاثري، لكن هذا الجهاز لا يستطيع أن يميز بين صبغية واخرى، لذلك يبدأ، خاضعاً خضوعاً أعمى (وفي هذه الحالة انتحارياً) لبرنامجه الموروث، بانتاج الصبغية الفيروسية، متابعاً ذلك حتى تختنق الخلية المصابة وتتحلّ. وهذا يعطي الصبغيات الفيروسية الجديدة (التي تجهزها الخلية ايضاً، منفذة أوامر الصبغية الفيروسية ذاتها، بغلاف بروتيني وبكلاب للتعلق) الفرصة لأنها تهاجم الخلية التالية، وهكذا، وفي كل مرة لنفس الغرض الواحد الوحيد وهو التكاثر.

«مما لاشك فيه أن القدرة على التكاثر، على انتاج نماذج مطابقة للذات، هي من الخصائص النوعية للكائنات الحية، لكن الفيروسات اقتصرت على هذه الوظيفة الوحيدة بطريقة تجعلنا لا نستطيع اعتبارها حية. إنها لا تستطيع أن تتكاثر إلا بمساعدة خلية حية، لأنها اختصرت بنيتها إلى حد لا يفوقها فيه اي شيء آخر، وبطريقة ترغمها على استعارة الآلية اللازمة للتكاثر من خلية حية.. بما أن الفيروسات هي كائنات طفيلية تعتمد في وجودها على وجود خلايا حية لذلك لا يمكن أن تكون الشكل الأول للحياة.. لكنها تبقى مثالاً معبراً عن الصعوبة التي تواجهنا عندما نحاول تعريفاً يميز بدقة بين ما هو «ميت» وما هو «حي»[1].

إننا نرى في عالم الكائنات الحية كيف أن الفيروس عبارة عن «برنامج»، سلسلة مصفوفة من الحموض الأمينية ليس لها جسم ولا حياة ولا تكاثر إلا بالدخول على الخلايا لتحلّ محل برنامجها الطبيعي الذي تعيش وتتكاثر بموجبه هو. ثم ما أن تدخل حتى تبدأ الخلية بإنتاج البرنامج الفيروسي إذا لم تتغلب عليه حالاً وترفضه. فتصبح في حكم الميتة بالنسبة لجوهر وجودها الطبيعي الأصلي.

وكما أن الفيروس يدخل عالم الخلية الحية كبرنامج متطفل، فإن الشيطان

---

(1) هويمارفون ديتفورت، المرجع السابق، ص95 – 96 .

يدخل عالم الروح أو «القلب» كبرنامج متطفل، وعليه فإن عملية إنتاج الخير أو الشر في عالم الروح أو الجسد قائمة على نظام واحد هو نظام الزوجية: برنامج أولي أساس وبرنامج ثانوي. ثم الا تذكرنا «كلابة التعلق» لدى الفيروس بـ «قرن» الشيطان.

ولقد فصّل القرآن الكريم في هذه المسألة بصورة فريدة لما لها من ارتباط بعملية الخلق من جهة، وبالوحي من جهة اخرى، مما يجعلنا نعتقد جازمين بأن هذه الظاهرة هي إحدى مسائل العلم الإلهي التي انزلها الله وحياً «مثنى» على قلب محمد.

وإن نظرة واعية لظاهرة الأزواج في القرآن الكريم ترينا كيف انها جاءت متميزة إلى صنفين: ازواج متعلقة بعالم الحياة الطبيعية الخالصة، وازواج تتعلق بعالم الروح المحض. وبصورة يسهل معها التمييز لكل إنسان. فقد ورد الصنف الأول منها دائماً مقروناً بمؤشرات تدل عليه.

ففي آيات كهذه:

﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن انفسهم وممّا لا يعلمون ﴾[1].

﴿ ولكم نصف ما ترك ازواجكم إن لم يكن لهن ولد ﴾[2].

﴿ وانه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴾[3].

إن احداً لن يشك في أن المقصود بها هنا هو الذكر او الأنثى، لأن اياً منهما هو زوج للآخر، والمزاوجة هنا اساس التكاثر.

اما في مجال «القلب» او «الروح» فلا مجال للتفكير مطلقاً بأن المقصود بالأزواج ذكران وإناث.

فبعد الموت تفنى الأجساد بما تحمله من صفات وخصائص وأعضاء الذكورة والأنوثة، وتذهب النفوس او الأرواح التي بقيت حقيقتها سراً في علم الله وحده

---

(1) سورة يس 36 .

(2) سورة النساء 12 .

(3) سورة النجم 45 .

إلى الحساب. وإذا ما تتبعنا وتقصينا ما يذكره لنا تراثنا العربي عن هذه المرحلة نجد الأمور التالية:

إذا كانت الأرواح خيرة فإن هذا يعني أن «نسختها» أو «برنامجها» سوف يكون خالصاً متحرراً من اي «قرين» شيطاني ركبها في دار التجربة، فتذهب إلى «دار الأبرار» لتقترن بالنفس المثال، فيتم بذلك وجودها الزوجي العفيف الطاهر، وتنعم برحمة الله، فتحصل على كل ما تشتهيه خالدة في مقر الأبرار في النعيم إلى يوم القيامة، ولما كانت شهواتها هناك مقترنة بالنفس المثال النقية هي غير شهوات الجسد الفاني الذي كانت تسكنه في الحياة الدنيا الفانية وتغالبها أو تخضع لها، فإن أحداً لا يستطيع تصور ذلك النعيم كما هو. لنلاحظ معاً:

في سورة «الواقعة» يصف لنا القرآن الكريم احداث يوم القيامة والحساب الأخير حيث تأتي النفوس «أزواجاً»: ﴿ إذا وقعت الواقعة. ليس لوقعتها كاذبة. خافضة رافعة. إذا رجّت الأرض رجّاً، وبُسَّت الجبال بسّاً، فكانت هباء منبثاً، وكنتم أزواجاً ثلاثة. فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم. ثلّة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ (الواقعة 1 – 14).

إن القصد جد واضح: فالأزواج الثلاثة هم أصحاب الميمنة، (في النعيم)وأصحاب المشأمة (في النار) والسابقون (في أعلى درجات النعيم). وواضح ايضاً ان المقصود ليس هو كل إنسان وزوجته، أو كل إنسانة وزوجها، ضمن مفهوم الذكر والأنثى والتكاثر. بل إن النفس التي استسلمت لمقارنة الشيطان (برنامج الشر) سوف تأتي، هي وزوجها، إلى النار ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين. ولن ينفعكم اليوم إذ اظلَمتم انكم في العذاب مشتركون ﴾ (الزخرف: 36 – 42). ﴿ وقال قرينه هذا ما لديّ عتيد. ألقيا في جهنم كل كفّار عنيد، مناع للخير معتد مريب. الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد. وقال قرينه ربّنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد. قال لا تختصموا لدي وقد قدّمت بالوعيد ﴾ (ق 23 – 24). وهذا نفسه هو المقصود في

آية أخرى: ﴿ والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق ﴾ (القيامة 29 – 30) إن «الساق» هنا هي التعبير عن النفس حين تقترن بـ «قرينها»، «مثيلها»، «زوجها»، وليست العضو مابين الركبة ورسغ القدم. وفي سورة «الصافات: الآية 22» نقرأ ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون ﴾. فهل يعقل أن يُحشر الظالمون مع (زوجاتهم)؟ فأين إذن مثال السيدة آسيا بنت مزاحم زوجة فرعون المشرك الظالم التي قال الله تعالى فيها: ﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجّني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾ (التحريم: 11).

أما النفوس الخيّرة فهي تذهب خالصة مخلّصة من الحياة الدنيا بعد أن نجحت في التجربة، وفشل في أن يقارنها الشيطان، فيتم «تزويجها» بـ «مثالها» المنزه في دار النعيم لتحيا حياة منزهة عن الحياة الحيوانية في دار التجربة والفناء. لنقرأ في سورة «التكوير» ولنلاحظ:

﴿ إذا الشمس كورّت. وإذا النجوم انكدرت. وإذا الجبال سيّرت. وإذا العشار عطلّت. وإذا الوحوش حشرت. وإذا البحار سُجّرت. وإذا النفوس زُوّجت. وإذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت ﴾ إننا مرة أخرى أمام هذه الصورة الرهيبة المرعبة، نجد عبارة كهذه «وإذا النفوس زوّجت». إنه لن يبلغ السخف بنا حداً يجعلنا نتصور يوم القيامة الرهيب، إذ مياه البحار تغلي بالنيران، ويعم الكون المحيط بنا حريق كوني مرعب تتنك فيه الأرض بما عليها، ويكون هذا اليوم في الوقت نفسه حفل تزويج.. و«نكاح» بين النفوس. فالتزويج هنا لا علاقة له بعالم الجسد الفاني، وليس بين ذكور وإناث، وليس للتكاثر، كما هي عليه الحال في العالم الفاني.

من هنا كان لابدّ من الانتقال إلى المقصود بالتزويج في الجنة (مقر الأبرار، والنعيم) قبل القيامة، بعد أن أسيء فهمه عند شرائح واسعة من الناس، بل ومن بعض المفسرين.

إن القرآن الكريم حينما يقول لنا ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ (البقرة 25) لم يقصد أزواجاً من الذكور أو الإناث للجماع، وإنما تلك النفوس العفيفة البريئة النقية الطاهرة (كاللؤلؤ المكنون) والتي تصير النفوس

الخالصة من مقارنة الشيطان في دار البلاء جديرة بأن تساكنها وتقترن بها، كما كانت نفس آدم المثال قبل أن يدخل نفسه الشيطان ويضلّه ويهبط به إلى حياة العذاب الدنيا، دار التجربة. فنحن رأينا كيف أن الله لعن إبليس وذريته، ولم يلعن آدم وذريته.

واللعن في اللغة يعني الطرد والحرمان من رحمة الله إلى الخزي والعذاب، وفعل لعَن تعني طرد، عذب، أخزى، حرم من الرحمة. ومن هنا فقد حكم على إبليس وذريته بالحرمان من رحمة الله. أي من العودة إلى نعيمه إلى يوم الدين. ومع أنه أخرج هو وآدم من دار النعيم ومحلة الأمان إلى دار الحياة الفانية فقد تاب على آدم وترك له فرصة للعودة، إذا ما قاوم في الحياة الدنيا هو وذريته إغواء الشيطان ومقارنته، ليعود إلى مقارنة النفس الطاهرة في دار المقام خالداً فيها إلى يوم الدين. وإن كل الآيات التي تذكر «الأزواج» في الجنة لا تخرج عن هذا القصد: ﴿ لهم فيها أزواج مطهرّة وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾ (النساء: 57). وفي سورة (الزخرف آية 70) نقرأ ﴿ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحُبرون ﴾. فهل يعقل أن يكون المقصود بهذه الآية أن من يدخل الجنة سوف يدخل هو وزوجته أو هي وزوجها! ونحن نعلم أن كل نفس مسؤولة عمّا كسبت هي، وليس من احد بقادر أن يشفع لآخر حتى الأنبياء. ومثال نوح وامرأته وابنه، ولوط وامرأته واضح في القرآن الكريم.

شواهد على صحة ظاهرة «الوحي»:

هناك الكثير من الظواهر التي سجّلها وحفظها لنا التراث العربي منذ بدء الكتابة لأول مرة على هذا الكوكب على أيدي العرب الأقدمين، والتي تدل جميعها دلالة قاطعة على أن إنساننا العربي القديم حصل عليها، ليس عن طريق التجربة والمعرفة العقلية البحتة، وإنما بواسطة قوى خارجية عُلوية عن طريق ما دعي في التراث بـ «الوحي». ولقد أثبت علم الطبيعة المعاصر صحة مقولات هذا التراث في معظمها، ومازال يؤكد صحة بعضها الآخر يوماً بعد يوم.

ومن المعروف أن الإنسان العربي القديم لم يكن يملك جزءاً ولو يسيراً من المنجزات والوسائل التي قدمتها العلوم التطبيقية في عصرنا الراهن، والتي عن

طريق استخدامها اليوم، تمكن الإنسان من التعرف مؤخراً على أهم الحقائق العلمية والظواهر الطبيعية المحيطة. ومع هذا فإن ما تقدمه لنا مصادر هذا التراث من مقولات أضحت اليوم في صميم الانقلاب العلمي المذهل لهذا العصر لأمر يبعث على الاستغراب إلى حد الدهشة.

ومن ناحية أخرى، فنحن لو افترضنا أن ماقاله محمد، أو عيسى، أو موسى، أو غيرهم وما ردده عليّ بن أبي طالب عن قصة الخلق، إنما كان تواصلاً لما كان قد توصل إليه الأجداد العرب الأقدمون في سوريا ووادي النيل، وحفظته الذاكرة العربية شفاهياً أو كتابةً، فهذا التراث، إن كان قد انتقل كتابة، فإن هذه الكتابة لها بداية هي الألف الرابع قبل الميلاد، وإن كان انتقل شفاهياً وعن طريق الذاكرة، فإن عمر الإنسان العاقل ـ في تقدير العلم المعاصر ـ لا يتعدى عشرات الآلاف من السنين، وبالتالي فإن أية خبرة علمية ابداعية إنسانية معرفية تكاد تكون معدومة تماماً قبل وجود الإنسان العاقل، فكيف إذن نفسّر مقولات أولئك الآباء العرب عن كثير من الظواهر العلمية والطبيعية التي يعود زمنها إلى ملايين، وأحياناً إلى مليارات السنين قبل أن تتكون أول خلية حية على وجه الأرض، خاصة إذا ما علمنا ـ وكما سبق أن ذكرنا ـ أن العلم الحديث اثبت مؤخراً فقط صحة تلك المقولات، من جهة، وانه لم تكن تتوفر لذلك الإنسان العربي أية وسائل مادية تسهل عليه عملية المعرفة من جهة ثانية، وأن اولئك العرب الأقدمين لم يكونوا يضعون فرضيات، ثم يرجحون إحداها، كما هي عليه الحال اليوم، بل كانوا يصوغون المقولة الواحدة، كحقيقة مسلّم بها، ثم تستمر في تواصلها التاريخي عبر الزمن، بل عبر آلاف السنين دون ان تسقط أو تتغير، وإنما على العكس من هذا، كثيراً ما تبرز أو تتوهج كما هو حاصل الآن، من جهة ثالثة.

ونحن هنا سوف نختار من تلك الظواهر ـ الشواهد ما ينطبق عليه هذان الشرطان: استحالة التعرف على حقيقتها قديماً بالوسائل المادية المتوفرة، وتأكيدها وثبوت صحتها من قبل علم الطبيعة الحديث. من هذه الظواهر:

1 . وصف الأرض والجو المحيط بها قبل 4,5 مليار سنة، حينما كان الماء بحراً محيطاً بالأرض، محمولاً «على متن الريح العاصفة والزعزع القاصفة» ويحجب

أشعة الشمس عن الأرض المتفجرة بالبراكين الملتهبة، تاركاً إياها في ظلام دامس تخترقه البروق والصواعق من فوق، ونيران وحمم وهدير البراكين المتواصلة من تحت.

2 . هبوط الماء وتكون المحيطات والبحار لتعم سطح الأرض، ثم اندفاع الجبال البركانية الأولى من أعماق المياه البدئية.

3 . تكون «حجر» بناء الحياة الأولى (الخلية الحية الأولى) في عمق المياه وليس على السطح من الأحماض النووية الأربع التي هي الأسس والتي صارت رمزاً مقدساً لأساس كل بناء، وبناء عليه فقد تقدس ذلك «الحجر» في كل المعابد الدينية القديمة بدءاً من الكعبة (او الكعبات الثلاثة) إلى معبد الكرنك في وادي النيل، إلى معبد رب العرش في حمص ثم إلى معبد الشمس في روما بعد أن نقلت «الحجر» الامبراطورة السورية الحمصية جوليا دومنا من معبد حمص إلى هناك.

4 . تكون الحياة النباتية والحيوانية على الجبال البركانية الأولى بعد تبردها.

5 . خلق الإنسان من الطين الآسن المجاور للمياه على الجبال البركانية بعد أن مهد اكثرها، واستقرت يابسة بارزة فوق المياه.

6 . تصوير مجرتنا المسماة بـ «درب التبانة» في حركتها بشكل زوبعة رباعية منتفخة البطن.

7 . التأكيد بأن الكواكب والنجوم، ومنها الشمس والقمر والأرض، كروية، كل يسبح في فلك خاص به، بعضها يسبح في فلكه دائراً حول نفسه في آن معاً كالشمس والأرض.. وبعضها يدور في فلكه «معلقاً» كالقناديل[1] (أي دون أن يدور حول نفسه) كالقمر. وإن مقدار الدورة الواحدة 360 درجة.

يقول الطبري نقلاً عمّا حدّث به ابن عباس نقلاً عن رسول الله:

«... ثم خلق الله للشمس عجلة من ضوء نور العرش لها ثلاثمائة وستون عروة، ووكل بالشمس وعجلتها 360 ملكاً من الملائكة من أهل السماء.. وخلق القمر كما خلق للشمس مشارق ومغارب في قطري الأرض وكنفي السماء ثمانين

---

(1) تاريخ الطبري، الجزء 1 ، ص46 .

ومائة عين في المغرب طينة سوداء... وثمانين ومائة عين في المشرق مثل ذلك طينة سوداء تفور غلياً كغلي القدر إذا ما اشتدّ غليها»[1].

ونلاحظ كيف استخدم ابن عباس نقلاً عن الرسول كلمة «عجلة» أو «عروة» بدلاً من الدرجة. وفي الحقيقة إن كلمة «عجلة» هي الأقرب إلى أفهام ناس ذلك الزمن. ومع هذا فإن استخدام كلمة «عجلة» لم يتعدّ الحقيقة حتى من الناحية اللغوية، إذ نجد في قاموس «محيط المحيط» أن «العجلة» تعني أيضاً الدرجة، ودرجة النخل التي يصعد عليها جاني التمر إلى النقير.

هذا بالإضافة إلى ما توحي به كلمة «عجلة» من الحركة والدوران ممّا لا توحي بهما كلمة «درجة».

إن الحديث عن 180 عيناً في المشرق ومثلها في المغرب وإن إحدى المجموعتين تشكل جانباً من الطين الذي يغلي كغلي القدر، والثانية من طين أسود (أي مظلم فقط)، إنما هو حديث عن جانبي القمر الذي يؤلف كل منهما 180 درجة، أحدهما يواجه الشمس دائماً، فيسخن إلى درجة الغليان، والآخر لا يرى الشمس أبداً فيبقى بارداً معتماً لأن القمر لا يدور حول نفسه.

إننا نقف أمام هذه الصورة وكأننا أمام وصف علمي حديث لوجهي القمر المؤلفة مادته كما تتألف الأرض، من الطين، أي التراب.

8 . ثم يتابع ابن عباس حديثه نقلاً عن الرسول فيقول: «وخلق الله بحراً دون السماء مقدار ثلاث فراسخ، وهو موج مكفوف قائم في الهواء بأمر الله عزّ وجل.. وذلك البحر جارٍ في سرعة السهم، ثم انطلاقه في الهواء مستوياً كأنه حبل ممدود مابين المشرق والمغرب.. والذي نفس محمد بيده لو بدت الشمس من ذلك البحر لأحرقت كل شيء في الأرض حتى الصخور والحجارة»[2]. إنه ليس عسيراً على القارىء الحصيف أن يتجاوز ظاهر الكلمات المستخدمة في هذا القول ليصل إلى لب المضمون المراد توصيله.. إن عبارة «لو بدت منه الشمس» يجب الا تفهم بحرفيتها، لأن الشمس بادية على الدوام كل نهار، وليس

---

(1) تاريخ الطبري، الجزء 1 ، ص45 .

(2) المرجع نفسه.

المقصود بـ «الشمس» هنا قرصها أو حرارتها أو ضوءها فهي جميعاً غير محجوبة عنا. فما هو المحجوب من الشمس عنّا إذن؟ إنها أشعتها فوق البنفسجية التي لو وصلت إلينا دونما عائق في الجو فعلاً لأحرقت كل شيء على وجه الأرض، وهي التي تؤلف وحدها، من بين كل ما يصدر عن الشمس من أشعة أخرى، الحقيقة النارية للشمس. لكن ما الذي يحول دون وصولها؟ إنها طبقة الأكسجين في تركيبته الثنائية، وتركيبته الثلاثية التي هي الأوزون. إن طبقة الأكسجين أو الأوزون تؤلف «بحراً» غازياً ممدوداً بشكل أفقي فعلاً يعمل كمصفاة للشمس من الأشعة فوق البنفسجية. وبفقدان تلك المصفاة ستصل «الشمس» (الفوق البنفسجية) إلى الأرض لتحرق كل شيء. إن محمداً حينما يخاطب أهل زمانه بمثل هذه اللغة عن مثل هذه الحقيقة العلمية الكبرى كان يعلم أن الشمس بمفهومها العادي تبدو كل يوم وليست محجوبة بشيء، وأن الناس لا يرون في السماء أي «بحر» ممدود بشكل أفقي ويحجبها عن الأرض. إن في هذا مثالاً رائعاً عن عملية الوحي التي تلقى بصورة مرمّزة على القلب (الروح + العقل) فيترجمها العقل عن طريق الكلمات المخزونة في ذاكراته إلى اللغة، لغة محمد وقومه، ولم يكن في ذلك المخزون اللغوي شيء اسمه الأوزون، أو الأكسجين بعد.

إن مثل هذه الظواهر الشواهد التي نقلها الطبري وغيره من المؤرخين والاخباريين العرب عن الرسول أو بعض السلف هي التي جعلت الطبري نفسه يقول «وذلك غير مستدرك علمه بالاستنباط والاستخراج بالعقول»[1].

---

(1) المرجع نفسه، ص40 .



الحلقة التاسعة

«المركز» والثواب والعقاب

المغارة المقدسة والفردوس الأرضي:

لقد عيّن العرب السوريون القدامى موضع الجنة في الجبل المقدس، وأطلقوا عليها أسماء كهذه: جنة «تلمون» (دلمون)، و«الفردوس»، و«أرض الأحياء»، و«مقام أو دار الأبرار»، و«حقول إيل»، و«جنة عدن».. و«بستان أدونيس»..

يقول كريمر: وفي دلمون نفسها كان البابليون.. قد عينوا موضع «أرض الأحياء» التي كان يعيش فيها الخالدون منهم. وهناك من الدلالة المقنعة أيضاً على أن الفردوس المذكور في التوراة، والمنعوت فيها بأنه «بستان» غرس في الناحية الشرقية من «عدن»، والموضع الذي تنبع من مياهه أنهار الأرض الأربعة التي من ضمنها دجلة والفرات، يرجح أن يكون مطابقاً في الأصل لموضع «دلمون» مكان الفردوس السومري»[1].

وإن «جنة تلمون»، كما وصفها الأدب العربي السومري، هي أرض الخلود التي لا يوجد فيها مرض ولا موت ولا لغو[2]. وفيها مقر الأبرار كما أن «الهاوية» هي بجوارها. وإن هذه وتلك هي في كهوف الجبال. وإن الأرواح وحدها هي التي تذهب إلى هناك، ومن حاول دخول تلك الأمكنة «بجسده» يدخل إلى «المكان الذي لا عودة منه».

وكما أن هناك آدم الإنسان الأول، فإن هناك جنة الصفاء المطلق في العالم النوراني المحض والجنة الأرضية الموصوفة في كل مصادر التراث العربي القديم الديني وغيره. وكنا قد تحدثنا مفصلاً عن هذه المسألة في كتابنا الأول «تاريخ سوريا القديم، تصحيح وتحرير».

وإذا كانت الوثائق المكتشفة حتى الآن تمدنا بمعلومات جد قليلة عن فكرة الحساب بعد الموت في الأساطير السورية فإن عرب وادي النيل زودونا بوثائق تكفي لتكوين فكرة مجملة عن الموضوع.

أما الأسماء التي أطلقت على كهوف الجبل المقدسة حيث منبع الأنهار والنعيم والجحيم (أو الهاوية) فهي:

---

(1) صموئيل كريمر، المرجع السابق، ص242.

(2) المرجع نفسه، ص244 - 245

حـــورا: وتعني المغارة، وهي «حيرتا» أيضـاً أو «أرتأ» وتعني المغارة. وقد كتبت بأشكال شتى: «أورا»، «اور»، «إيرتا»، «ارتا». وهي التي قصدها لوجال بندا في رحلته إلى ارض الأحياء.

نفر: وتعني الوفرة، الخصب، وردة الخصب. وتلفظ نيبر Nepr، وهي المدينة ـ المغارة المركزية موطن الأرباب.

أورديو: حوض التطهير. وهو النهر المحيط بالصخرة المركز الذي يمثل الحجر الأساس الذي حمل القوة الخالقة. فصار رمزاً للمركز، السرّة، ربة الخصوبة عشتار بالدرجة الأولى، ولهذا فقد أخذ السوريون يبنون المعابد للربة عشتار على هذه الشاكلة: مركز بارز في الوسط يمثل السرّة محاط ببحيرة من المياه تمتلىء من ينابيع جارية حقيقية. وأوضح مثال لهذا التمثيل معبد الربة في عمريت قرب طرطوس على الساحل السوري دعيت باسمها.

أبيدو: ، أو «أبودو» وقد سميت باسم «بد» الجبل الذي لفظ بعدة أشكال «بودي»، «هبودي» إذ الهاء للتعريف، أبيدو.. الخ، وفيه ضريح اوزيريس. وإن جبل أبيدا، ووادي أبيدا، وبلدة أبيدا، من الأسماء البارزة في سراة زهران.

وقد أنشأ العرب الأقدمون مدناً حقيقية أطلقوا عليها هذه الأسماء المقدسة أو بعضها، في كل مواقع انتشارهم في كل من سوريا ووادي النيل واليونان، حيث نجد أن «نفر» و«أبيدو» في موقع واحد.

ففي ترتيلة عربية سومرية تبدأ بنشيد في تمجيد إنليل نقرأ:

«مدينة «نفر» ذات مظهر يبعث الخوف والرعب..
والضالون والأشرار والظالمون.. والنمامون،
والمتجبرون والناكثون للعهد، كل أولئك لا يقرّ شرهم
في المدينة،
والشبكة العظمى... لا يدع الأشرار والظالمين يفلتون من
شراكها.
نفر، هي المزار حيث يسكن «الأب»، «الجبل العظيم»،
منصة البركة والخير في معبد «إيقور» (الوقور، المهيب)،
الذي يعلو...»

الطود الشامخ، الموضع المطهر،
أميره «الجبل العظيم» إنليل، الأب «إنليل»،
قد أقام عرشه على منصة الـ «إيقور» [أو الحجور] المزار السامي،
المعبد الذي لا ترد ولا تبدل نواميسه المقدسة مثل السماء،
... ...
الـ «إيقور» بيت حجر اللازورد، المسكن السامي، الذي
يبعث الرعب في القلوب،
إن رهبته وخشيته لتضاهيان السماء،
وظله ينتشر على جميع الأقاليم،
وتساميه يبلغ قلب السماء»[1].

من الواضح أن «نفر» المقصودة هنا هي التي في مغارة الجبل المقدس، حيث «الشبكة» تفصل الأشرار عن مقر الأبرار.

أما عند عرب وادي النيل فإن المدينة المقدسة التي يتوجهون إليها هي، غالباً «نفر» نفسها حيث أوزيريس:

«لك المجد ياأوزيريس «حن نفر» (سيد نفر)، أيها الرب العظيم في «أبيدو»، يامالك الأبدية وسيد الديمومة»[2].

ووفقاً لما جاء في «كتاب العالم السفلي» الذي يسمّى عادة «إمدوت» (الخلاص، من ميدا = مخلِّص وإيد = ساعد، خلّص). فإن عالم ما بعد الموت ينقسم إلى «مغاور» آهلة بالأرواح والموتى والأرباب. وفي كل منها عادة مدينة يتولى السيادة فيها أحد الأرباب[3].

ذكرنا أن مصادر التاريخ العربي القديم جميعاً تؤكد أن مملكة الموتى، أو الدار الآخرة، لسكان الأرض هي في الأرض نفسها، في المركز، وقد دعيت في معظم الأحيان «دار القرار».

---

(1) صموئيل كريمر، المرجع السابق، ص175 – 176 .
(2) السير ولس بدج، المرجع السابق، ص155 .
(3) أدولف إرمان، المرجع السابق، 263 – 264 .

وإن هذه الدار تستقبل الأرواح فقط، ولا يمكن الوصول إليها بالجسد. أما الأرواح الخيرة فتنعم برحمة الله في تلك الدار، لها فيها ما تشتهي إلى يوم البعث أو القيامة. ومساكنها في تلك الدار في غرف متقابلة يعلو بعضها بعضاً. أما الصخرة، فهي تمثل السرّة، أو المركز، يحيط بها حوض من الماء، ترفرف من حوله أرواح الأبرار مع الملائكة قرب عرش الرب (السيد) الذي يمثل عرش الله في مركز الكون كله.

إن هذا التصور لدار النعيم هو المثال الذي استوحى منه العرب الأقدمون لبناء البيت العربي. وما تزال «البحرة» أو «الفسقية»[*] أو النافورة التي تتوسط الفناء الداخلي لكل بيت تمثيلاً لفكرة بدء الخليقة على الأرض عندما ارتفعت الصخرة أو الجبل الأول على سطح الماء فكان ثمة عرش الرب الخالق. ودأب العربي أن يجعل حول هذا الحوض جنة أو «جنينة» تمثيلاً للفردوس داخل البيت يجعل فيها أنواع الورود والرياحين والأشجار المثمرة والأطيار. وهناك يجتمع الشمل وتتنعّم الأسرة في كنف «رب البيت» الذي دعي تمثيلاً لرب البيت المقدس، وفي عهد عقيدة الخصب كثيراً ما صوّر هذا الحوض أو النافورة عرشاً للقوة الخالقة على الأرض التي تمثلوها، فيما بعد، في هيئة امرأة بارعة الجمال، هي الأم الكبرى، أو «عشتار» بأسمائها المختلفة، وصارت معابد عشتار في كل مناطق انتشار العرب السوريين عبارة عن حوض يرتفع في وسطه «الحرم» أو «الحجرة» أو «الغرفة» أو «قدس الأقداس»، يتغذى من ينبوعين يمثلان الـ «يردن» أي العينين الجاريتين، بمياه «حيا» (اي الخلاص، النجاة، الاحياء، البعث) أو مياه التطهير، أو «التعميد».

وقد درج العرب السوريون على تمثيل ذلك الحوض عند معابد الربة «عشتار». ففي كتابه «الإلهة السورية»[1] يقول الكاتب السوري لقيان السميساطي في وصف هذا الحوض مايلي:

(*) الفسقية من الكلمة العربية القديمة «فسقين» أي الحوض، البركة. وهي في القاموس السرياني هكذا. أما صاحب «محيط المحيط» فزعم انها لاتينية!

(1) لقيان السميساطي، الربة السورية، مجلة الحوليات الاثرية السورية، ترجمة عدنان بن ذريل.

«إن عمق البحيرة كبير جداً ولكني لم اسبره. ويقولون إنه يبلغ أكثر من مائتي براسة. وفي وسط البحيرة مذبح من مرمر، يظن للنظرة الأولى انه يسبح، يحمله الماء، وكثيرون يظنون ذلك، وأعتقد أن تحت هذا المذبح عموداً كبيراً يحمله، إنه مكلل بأكاليل من الزهر، ويحرق فيه البخور دون انقطاع، وعديدون الذين يجتازون البحيرة سباحة إليه يومياً ليقوموا هناك بالصلاة وتزيينه بالورود».

وإن أقدم نموذج لهذا «الحوض» ما يزال قائماً حتى اليوم في سوريا هو حوض معبد الربة في «أمريت» جنوب طرطوس. ولفظة «أمريت» تعني الربة أو مقام الربة أي «مرت» أو «ماريت» مؤنث «مار» الذي يعني السيد، الرب، وتكتب (وتلفظ أحياناً «عمريت» للابدال الشائع في العربية بين الهمزة والعين).

إن فكرة الـ «حوض» بقيت مستمرة في التراث العربي كله إلى اليوم. وليس «حوض الوضوء» الذي يعتبر جزءاً أساسياً في كل مسجد إلا تجسيداً لفكرة «الحوض» في البيت الأول الذي وضع على الأرض من السماء، وصار مهبطاً للوحي وللملائكة، وداراً للأرواح، ومعراجاً إلى السماء.

وقد انتشر هذا الطراز لعمارة البيت العربي مع انتشار العرب السوريين حتى شمل حوض المتوسط كله، من اليونان إلى إسبانيا مروراً بإيطاليا وصقلية وجنوب فرنسا وجميع جزر البحر الأبيض المتوسط دونما استثناء.

وفي حديث لرسول الله أخرجه الإمام احمد عن أبي سعيد الخدري كما أخرجه النسائي والترمذي عن جابر انه قال: «إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[1].

فكلمة «الحوض» استمرت في مضمونها الديني التراثي في الاسلام أيضاً.

اما القرآن الكريم فقد اورد لنا وصفاً للجنة الأرضية التي هي مقر الأبرار إلى اجل معدود، أي حتى يوم القيامة، يكاد يكون تأكيداً للصورة التي سبق أن تعرفنا عليها في التراث العربي القديم:

1 . ففيها أنهار اللبن والخمر والعسل كما وصفها العرب الأقدمون في كل من سوريا ووادي النيل:

---

(1) مسند الإمام أحمد، الجزء الثالث، ص17 ، وص26 . والجزء الخامس، ص182 – 189 .

﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وانهار من عسل مصفّى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ﴾ (محمد: 15).

2 . وفيها غرف من فوقها غرف وهو ما صار تقليداً في البيت العربي:

﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار. وعدَ الله لا يخلف الميعاد ﴾ (الزمر : 20).

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم اجر العاملين ﴾ (العنكبوت: 58)، و﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويُلقّون فيها تحية وسلاما ﴾ (الفرقان: 75).

و﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفي عليّين. وما ادراك ما عليّون. كتاب مرقوم يشهده المقربون. إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ (المطففون: 18 – 27).

3 . وفيها الملائكة ايضاً:

﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتهم فنعم عقبى الدار ﴾ (الرعد: 23 – 24).

4 . وهما جنتان، فيهما عينا ماء، وفواكه مختلفة:

﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان.. ذواتا افنان.. فيهما عينان تجريان.. فيهما من كل فاكهة زوجان.. من دونهما جنتان.. مدهامتان.. فيهما عينان نضاختان.. فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ (الرحمن: 46, 48, 50, 62, 64, 66, 68).

5 . وإن الجنة الأرضية تبقى داراً لنعيم الأرواح الخيرة إلى يوم القيامة، إذ تُبدل الأرض والسموات:

﴿ وأما الذين سُعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ (هود 107 – 108).

6 . أما يوم القيامة فهو مؤخر إلى اجل مسمّى:

﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود. وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ (هود 103 – 104).

7 . وهو سوف يقع عندما يتم عمر آدم الانسان خمسين ألف سنة، حينئذ تعرج الملائكة من الدار الآخرة مع ما خلص من الأرواح الطاهرة، وتُسلّم الأرض لحريق كوني:

﴿ سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. فاصبر صبراً جميلاً، إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً. يوم تكون السماء كالمهل، وتكون الجبال كالعهن ﴾ (المعارج 1 – 9).

8 . وفي ذلك اليوم، يوم ينفخ في الصور، يكتشف الناس أن النداء هو من مكان قريب، وأن الجنة ليست بعيدة:

﴿ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب. يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ﴾ (ق: 41 – 42).

﴿ وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد ﴾ (ق: 31).

إن هذا كله يؤكد وحدة النظرة التراثية للجنة الأرضية التي تتنزل فيها الأرباب أو الملائكة والروح، وشهدت خلق آدم الانسان العاقل الأول، ومنها يتدبّر أمر الأرض بإذن رب الأرباب، أو رب الملائكة، وفيها وضع «الميزان» للحساب وللدينونة (وإن «الميزان» في القاموس وفي علم الجفر هو صورة الحرف الذي هو الدلالة الأولية، أي العلم الرباني كما هو في الكتاب المبين، أو اللوح المحفوظ). وهي المحلّة الآمنة التي لا يوصل إليها إلا بالروح.

ومما يؤكد هذه النظرة ما قاله علي بن ابي طالب بهذا الصدد:

«... ثم أسكن سبحانه آدم داراً ارغد فيها عيشته، وآمن فيها محلّته، وحذّره إبليس وعداوته. فاغترّه عدوّه نفاسةً عليه بدار المقام ومرافقة الأبرار. فباع اليقين بشكّه، والعزيمة بوهنه. واستبدل بالجذل وجلاً، وبالاغترار ندماً.

ثم بسط الله سبحانه له في توبته، ولقّاه كلمة رحمته، ووعده المردّ إلى جنته، وأهبطه إلى دار البلية، وتناسل الذرية. واصطفى سبحانه من ولده انبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة امانتهم لمّا بدّل اكثر خلقه عهد الله اليهم، فجهلوا حقه، واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته. فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستادوهم

ميثاق فطرته، ويذكرّوهم منسيّ نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويُروهم الآيات المقدَّرة من سقف فوقهم مرفوع، ومهادٍ تحتهم موضوع، ومعايش تُحييهم، وآجال تفنيهم، وأوصاب تُهرمهم، وأحداث تتابع عليهم. ولم يُخْل سبحانه خلقه من نبي مرسل أو كتاب مُنزل، أو حجّة لازمة، أو محجّة قائمة. رسلٌ لا تقصّر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم، من سابق سُمّيَ له مَن بعَده، أو غابر عرَّفه مَنْ قبلَه.

على ذلك نُسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء، وخلفت الأبناء، إلى أن بعث الله سبحانه محمداً رسول الله صلّى الله عليه وآله لإنجاز عِدَتهِ، وتمام نبوّته، مأخوذاً على النبيين ميثاقُه، مشهورةً سماتهُ، كريماً ميلاده، وأهل الأرض يومئذ مللٌ متفرقة، وأهواء منتشرة، وطوائف متشتتة، بين مشبّه لله بخَلقه، أو ملحد في اسمه أو مشيرٍ إلى غيره. فهداهم به من الضلالة، وانقذهم بمكانه من الجهالة. ثم اختار سبحانه لمحمد صلى الله عليه وآله لقاءه، ورضي له ما عنده، وأكرمه عن دار الدنيا، ورغب به عن مقارنة البلوى. فقبضه إليه كريماً صلى الله عليه وآله، وخلّف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها إذ لم يتركوهم هَمَلاً بغير طريق واضح، ولا عَلَمٍ قائم، كتابَ ربكم مبيّناً حلاله وحرامه، وفرائضه وفضائله، وناسخه ومنسوخه، ورُخصه وعزائمه، وخاصّة وعامّة، وعبره وأمثاله، ومرسله ومحدوده، ومحكمه ومتشابهه، مفسراً مجمله، ومبيناً غوامضه بين مأخوذ ميثاق علمه، وموسَّعٍ على العباد في جهله، وبين مثبت في الكتاب فرضه، ومعلومٍ في السنة نسخه، وواجب في السنّة أخذهُ، ومرخَّصٍ في الكتاب تركُه، وبين واجبٍ بوقته، وزائل في مستقبله، ومباين بين محارمه من كبير أوعد عليه نيرانه، أو صغير أرصد له غفرانه، وبين مقبول في أدناه، موسّعٍ في اقصاه»[1].

إن في كلام علي حشداً من المسائل الهامة لابدّ من ان نقف على بعضها:

1 . إن جنة آدم، أو الدار «التي أرغد فيها عيشته، وآمن فيها محلّته، وحذّره إبليس وعداوته» هي في هذه الدنيا. وان إبليس كان سيداً فيها موكلاً إليه

---

(1) انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي. ص33 – 38.

أمرها فاغتر واستكبر، فجُعل آدم هو الخليفة على الأرض ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك. قال إني أعلم مالا تعلمون ﴾[1]، فجعل عيشه رغداً، ومحلّته آمنة لا يوصل إليها، وأمر الملائكة بإطاعته وتلبية رغائبه، فأطاعوا إلا إبليس استكبر وأبى «نفاسة عليه بدار المقام ومرافقة الأبرار». فضعف آدم، ولم يكن له عزم، فأهبط من تلك الدار إلى «دار البلية»، اي دار الاختبار والتجربة والامتحان، وتسلسل الذرية هو وإبليس ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم. قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (البقرة 36 – 38).

2 . إن عبارة «واصطفى سبحانه من ولده (ولد آدم) أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم» ربطت بين الوحي والميثاق. إن كلمة «ميثاق» العربية تعني العهد. إن هذا هو معناها المجمل. لكن الكلمة هي من الفعل «وثق» اي ربط بالمثيل، إنه الوحي، إنه المثنى. ولما كان إبليس هو في الأصل من الجن، اي من المخلوقات الخفية، وهو من الملائكة اصلاً، ثم تمردّ وعصى، فقد صار، مع احتفاظه بمقدرته، برنامجاً للشر، يمكن أن يدخل على ارواح الناس من ذرية آدم لتنسخ هذه الروح على منواله في هذه الحياة الدنيا، أي لتنتج شراً. وهذا هو مفهوم دار البلية، أو المحنة، او الامتحان إلى يوم البعث ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تُخرجون ﴾، و﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإمّا يأتينكم مني هدى، فمن اتبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى ﴾ (طه : 133). و﴿ قال فاخرج منها فإنك رجيم وإنّ عليك اللعنة إلى يوم الدين. قال ربّ فانظرني إلى يوم يبعثون. قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم. قال ربّ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلَصين ﴾ (الحجر: 40 – 43).

---

(1) سورة البقرة 31 .

أما موقع هذه «المحلة الآمنة» فكل الدلائل التراثية تشير إلى أنها تحت الجبل الأول، الجبل المركز في السراة من شبه جزيرة العرب.
وقد رجح كثير من فقهاء المسلمين كون الجنة الموصوفة في القرآن جنة أرضية إذ عصى فيها آدم ربه، وضلّ، وغوى، ووسوس له فيها الشيطان، وعوقب على خطيئته ومعصيته، وقد تحدث في هذا القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة في تفسيره وأفرد له مؤلفاً على حدة، ونقله عن أبي حنيفة، كما نقله محمد بن عمر الرازي بن خطيب الري في تفسيره عن أبي القاسم البلخي، ونقله القرطبي في تفسيره عن المعتزلة والقدرية، وقد استعرض الجدل حول هذه المسألة أبو محمد بن حزم الشهرستاني في «الملل والنحل». لقد سبق أن رأينا كيف أن التراث العربي القديم في كل من سوريا ووادي النيل جعل الجنة في الجبل الأول، جبل السماء والأرض، بأسمائه المختلفة، حيث «جُنّت» الأرض، أي أخرجت نباتها ونورها لأول مرة، فدعي ذلك الجبل بـ «التل المزدهر». وإذا كانت كلمة «الجنة» العربية تفيد معنى الظهور كما تفيد معنى الستر والاخفاء، فقد دلّت على الجنة الظاهرة والجنة الباطنة، وكلاهما في الأرض، في جبل السماء والأرض، الجبل البركاني الأول الذي صنع السماء الأولى «وهي دخان».
ولما كان محمد ﷺ قد أكد أن القرآن الكريم ظاهر وباطن، ويستحيل فهمه بغير ذلك، فقد صار من الواجب التوقف قليلاً عند «الظاهر والباطن» في القرآن الكريم للتعرف على الجنة والنار، وعلى الجزاء والعقاب.

الظاهر والباطن في مفهوم الجنة والنار:

إن ما درجت عليه العامة قروناً طويلة من اعتبار الجنة داراً لاشباع رغبات وغرائز حيوانية حتى لا يكاد يفعل المؤمن فيها شيئاً غير ممارسة الدور الحيواني الغرائزي، وعلى رأسها ما يتصورونه من جماع دائم مستديم لا يفتر للحور العين، فإن هذا يهبط بمستوى الفكر والعقل الإنساني إلى درك لا يصدق، كما يسيء إلى فلسفة الروح في القرآن الكريم إلى أقصى الدرجات، مما سهل على أعداء الإسلام مهمة الطعن فيه في أقدس مواضعه. ولقد أسهمت الأحاديث

الموضوعة على لسان الرسول الإسهام كله في هذا المضمار حتى صار المسلمون يعطلون عقولهم، ولا يتدبرون المعاني في آيات القرآن الكريم، بل يأخذون بما هو جاهز من تلك «الأحاديث» التي تقدّم ما قد أعدّ سلفاً لمثل تلك التفاسير.

لنقرأ في تفسير ابن كثير، الذي لا يختلف كثيراً عن باقي التفاسير، حول الجنة والحور العين:

«في حديث الصور الطويل المشهور أن رسول الله ﷺ يشفع للمؤمنين كلهم في دخول الجنة، فيقول الله تعالى قد شفعتك وأذنت لهم في دخولها. فكان رسول الله ﷺ يقول: والذي بعثني بالحق، ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم. فيدخل الرجل منهم على اثنتين وسبعين زوجة مما ينشيء الله، واثنتين من ولد آدم لهما فضل على من أنشأ الله بعبادتهما الله في الدنيا. يدخل على الأولى منهما في غرفة من ياقوتة على سرير من ذهب مكلل باللؤلؤ عليه سبعون زوجاً من سندس واستبرق، وإنه ليضع يديه بين كتفيها ثم ينظر إلى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها. وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك في قصبة الياقوت... فبينما هو عندها لا يملّها ولا تملّه، ولا يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء. ما يفتر ذَكَرُه، ولا يشتكي فرجُها، إلا أنه لا منًي ولا منية. فبينما هو كذلك إذ نودي: إنّا عرفنا أنك لا تَملّ ولا تُملّ، إلا أن لك أزواجاً غيرها، فيخرج، فيأتيهن واحدة واحدة، كلما جاء واحدة قالت: والله ما في الجنة شيء أحسن منك، وما في الجنة شيء أحب إليّ منك. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث عن دراج عن ابن حجيرة عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: أنَطَأ في[*] الجنة؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده دحماً دحماً[**]، فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكراً».

«وقال الطبراني: حدثنا إبراهيم بن جابر الفقيه البغدادي، حدثنا محمد بن عبد

(*) أنطأ: اي انجامع.

(**) دحماً دحماً: اي جماعاً شديداً عنيفاً.

الملك الدقيقي الواسطي، حدثنا معلّى بن عبد الرحمن الواسطي، حدثنا شريك عن عاصم الأحول عن أبي المتوكل عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً. وقال أبو داود الطيالسي: أخبرنا عمران عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء. قلت: يارسول الله، ويُطيق ذلك؟ قال يعطى قوة مائة. ورواه الترمذي من حديث أبي داود وقال: صحيح، غريب، وروى أبو القاسم الطبراني من حديث حسين بن علي الجعفي عن زائدة عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قيل يارسول الله، هل نصل إلى نسائنا في الجنة؟ قال: إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء»[1].

تصوروا معنا هذا العقل الذي ينضح بمثل هذا القول! المؤمن لا عمل له في الجنة سوى الجماع بجوار الملائكة، وبجوار رب العالمين! والحورية تؤكد له أن لا شيء في الجنة أطيب من جماعه! فالجنة، باختصار شديد، هي جماع! وبهذا تتلخص الغاية من خلق الإنسان، وتنزيل الشرائع، والإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله، والعمل الصالح في الحياة الدنيا، وإعمار الأرض.. بالوصول أخيراً إلى هذه الغاية، الجزاء: الجماع! «وهل جزاء الاحسان إلا الإحسان».

إن هذا «يبرّر» «أحاديث» أبي الدرداء وغيره! «فقد روى البغوي من حديث علي بن حجر عن اسماعيل بن جعفر عن محمد بن ابي حرملة مولى حويطب بن عبد العزى، عن عطاء بن يسار، عن أبي الدرداء انه سمع رسول الله ﷺ يقصّ على المنبر وهو يقول: ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق يارسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾، فقلت الثانية: وإن زنى وإن سرق يارسول الله؟ فقال: ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾، فقلت الثالثة: وإن زنى وإن سرق يارسول الله؟ فقال: وإن... رغم أنف أبي الدرداء»[2].

فتأملوا! فلماذا كان، إذن، جهاد رسول الله ومن معه، وهذا القرآن كله؟ اما كان

---

(1) تفسير ابن كثير، دار الأندلس، الطبعة الثانية، الجزء السادس، 1980 ص525 .

(2) تفسير ابن كثير، الجزء 6 ، ص501 .

يكفي أن يعلّم الرسول الناس عبارة واحدة: خافوا مقام ربكم، ثم افعلوا ما شئتم من زنى، وفسوق، وسرقة، وقتل، وفساد في الأرض؟ وكيف يستقيم كل هذا مع خوف مقام الرب علماً أن القرآن الكريم اكد في كل آياته على وجوب اقتران الإيمان بالعمل الصالح، فكانت دائماً تتردد عبارة ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ في كل السور تقريباً، ثم أولاً ينضح مثل هذا الحديث وغيره بأن أبا الدرداء يربأ بنفسه عن قبول هذا القول الذي ادّعاه للرسول، فأعاد السؤال ثلاثاً إلى أن أسكته الرسول «رغم أنفه»؟ ألم يضع أبو الدرداء نفسه وعلمه وقناعته فوق الرسول الذي يقول قولاً ـ في زعم أبي الدرداء ـ مناقضاً للقرآن الكريم!

إن ما ذكره القرآن الكريم عن «الحور العين» وما الحقه بها من أوصاف لا تتعدى تلك الصورة التي سبق أن ذكرناها آنفاً. فهي النفوس الكاملة، الطاهرة، المثال، العذراوات (أي التي لا تشوبها شائبة من معصية ولم تدنّس بشر). وقد أطلق القرآن لفظ «البكر» أي العذراء، على تلك النفس، الزوج، تعبيراً عن طهارتها. ونحن نستخدم في اللغة مع يرقة النحلة أو الفراشة في احدى مراحل أطوارها اسم «الحورية» أو «العذراء» دون أن نعني شيئاً جنسياً، فكيف بنا ونحن في عالم أرواح لا عالم أجساد، وبجوار عالم الملائكة. ففي سورة «الواقعة» نجد مثل هذا الوصف لتلك «الحور» ﴿ إنّا أنشأناهن إنشاء. فجعلناهن أبكاراً. عراباً أتراباً. لأصحاب اليمين ﴾ (الواقعة: 35 – 38).

إن الله يؤكد أنه أنشأها إنشاء، أي أوجدها وابتدأها وأبدعها، أتراباً، اي في زمن واحد. وهو زمن أخذه الميثاق من ذرية آدم منذ بدء النشأة ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى، شهدنا ﴾ (الأعراف: 172)، وذلك قبل أن يهبط آدم إلى عالم الفناء. إن تلك النفوس الأزواج، هي النفوس المثال الأولى، التي لم تهبط إلى الحياة الدنيا، حياة الحيوانية وتكاثر الذرية والفناء، حياة الجسد. وهي محفوظة إلى يوم الدينونة كاللؤلؤ المكنون وكأنما هي «مقصورات في الخيام» لم تدنّس بشر، تنتظر أقرانها التي سكنت الأجساد في الدار الفانية لتخلص عبر التجربة في دار البلية وتعود لتتحد بها أزواجاً طاهرة تنعم بكل ما تشتهي في ظلال ربها. وهي

مقدرة ومحفوظة في علم الله إلى يوم القيامة لا تزيد ولا تنقص: ﴿ الله يعلم ما تحمل كل انثى، وما تغيض الأرحام، وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار ﴾ (الرعد: 8).
ثم إن كلمة «حور» في اللغة هي جمع أحور وحوراء، كما أن كلمة «سود» هي جمع أسود وسوداء، و«خضر» جمع أخضر وخضراء.. ولم يستخدمها القرآن الكريم في المفرد مرة واحدة سمواً عن التصور الدنيوي ودرءاً للتفكير في الجنس. أما «عين» فهي جمع اعين كما أنها جمع عيناء، وتقال للمرأة أو للبقرة لتدل على سعة العينين. أما فيما عدا ذلك فهي تدل على التفرد في الحسن، وتقال للخلقة كما تقال للكلمة او المقالة أو الخير أو النعمة. والكلمة هي خلق الله ونعمته. وقد وصفت تلك «الكلمات» «المنشآت» بأنها «قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان» (الرحمن 56).
و«قاصرة الطرف» هي التي لا تنظر إلا إلى زوجها. إنها تنتظر – بناء على هذا – النفس الزوج المثيل التي في دار التجربة حتى تصفو وتعود للاتحاد بها عينها لا بسواها، إذ أن لكل نفس زوجها (مثالها) منذ بدء الخليقة. وقد استخدم القرآن تعبير «قاصرات الطرف» للتأكيد على أن كل نفس مخلوقة لقرينتها فقط، فكيف صحّ أن يفهم بعد هذا أن المؤمن ينتقل من واحدة إلى أخرى «لا يملّ ولا يُملّ»؟ ثم إن كلمة «الطمث» تعني افتضاض البكر كما تعني الدنس. والمقصود هنا، مرة أخرى، التأكيد على ان تلك النفوس المحفوظة لم يشبها دنس، فكيف أخذنا من الكلمة معناها القريب ليتحول اقتران النفس المثيل بالنفس المثال إلى عملية افتضاض بكارة!
اما «الولدان المخلّدون» الذين ذكرهم القرآن الكريم عند وصفه للجنة ووفرة النعيم فيها في سورة «الإنسان» فليس يليق بنا أن نفهم منها كما تفهمها شريحة واسعة من عامة المسلمين اليوم بقصد المتعة الحسية سواء بالنظر أو بغيره! إن هذا يعكس مدى العطالة التي أصابت العقل العربي وهيمنت عليه.
إن كلمة «ولدان» التي استخدمها القرآن بدقة محكمة ليست جمع ولد، كما قد يخطر لأول وهلة. بل هي في القاموس جمع وليد. والوليد في القاموس من الكلمات التي لها معنى قريب وآخر عميق، واحد على السطح وآخر في العمق.

فالمعنى القريب هو الطفل المولود او العبد. ولما كان يستحيل ان يكون في الجنة اطفال مولودون يطوفون بالقوارير «المقدرة تقديراً»، كما يستحيل أن يكون في الجنة سادة وعبيد، لأن هذا من شأنه ان يحدث لدينا تناقضاً عقلياً، فقد صار لابد لنا من الولوج إلى المعنى الآخر لكلمة «وليد» فنجد في القاموس ان الوليد هو الأمر العظيم، والعطاء دون طلب، والشيء الكثير. ويقال: هذا امر لا ينادى وليده اي عطاؤه. وفي الصحاح يقال اصله من جري الخيل، لأن الفرس إذا كان جواداً أعطى من غير أن يصاح به لاستزادته. ثم قيل ذلك لكل امر عظيم ولكل شيء كثير. إنها كناية عن نوال الشيء لمجرد اشتهائه دون طلب.
وإن اسم «الوليد» الذي كان يطلقه العرب على ابنائهم في زمن الفروسية لم يكن يقصد به غير هذا المعنى تحديداً، إذ أن احداً لا يمكن ان يطلق هذا الاسم على ابنه ليعني به «طفلاً مولوداً أو عبداً» في زمن كان الأب يرى في ابنه فارس القبيلة المقبل ويعتز بالتكني به منذ حداثته.
فكما أن «الحور العين» تعبير عن النفس المطمئنة الطاهرة وعن النعمة الواسعة بجوار الرب والملائكة، فإن «الولدان المخلدين» تعبير عن الشيء نفسه دون أن يكون في الأمر تنكير وتأنيث، ومتعة الروح، متحررة من الجسد، اسمى بكثير من متع الجسد. إن الكلمة تجسيد لـ «العطاء غير المجذوذ» «ولهم فيها ما يشتهون».
باختصار شديد نقول: إن كل الأوصاف التفصيلية التي أوردها القرآن الكريم لحياة النعيم في الآخرة ليست إلا تعبيراً عن الوفرة و«العطاء غير المجذوذ» بجوار رب العالمين. ولما كان معظم الناس الذين يتوجه إليهم الخطاب عاجزين عن إدراك فوق ما تتيحه لهم حواس الجسد، ويبقى ما عدا ذلك عصياً على الإدراك، فقد جاءت الصيغ تحتمل في ظاهرها متعة الجسد، لكنها في الوقت نفسه تحدث تناقضاً عقلياً، يدفع بذوي الأفهام النيرة إلى الغوص خلف المفردات والصيغ لاكتشاف كنهها والوصول إلى الجوهر المقصود. وكما ان القرآن نزل على سبعة احرف لكل منها ظهر وبطن، فإن نعم الله هي ايضاً منها الظاهر ومنها الباطن: ﴿ الم تر ان الله سخرّ لكم ما في السموات وما في الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ (لقمان: 20).

«المركز» والخطيئة الأولى:

لولا الخطيئة لما كان ثمة حساب. هذا أمر بديهي. أما موضوع الخطيئة الأولى فقد تكشف في مصادر التراث العربي القديم ضمن الخطوط التالية:

1 . لما قدّرت القوة الخالقة (او الروح، او الرب، أو رب الأرباب، أو رئيس الملائكة، حسب مختلف المصادر) خلق آدم الانسان الأول ليكون خليفتها على الأرض، والمدبر لأمرها، عمدت إلى الكائن البشري الذي كان موجوداً على الأرض، ويعيش عيشة البهائم، فزودته بالروح، أو بـ «القلب» (العقل + الروح) و«ربطت عليه صورة الآلهة» (أو الملائكة). وبكلمات أخرى من لغة عصرنا اليوم «برمجته» ليكون قادراً بالقيام بالدور الموكول إليه نيابة عنها. وخلقت له «جنة» أرضية، وجعلت محلّه آمناً، لا يوصل إليه إلا بالروح، وأمرت الملائكة بأن تطيعه وتلبي له كل احتياجاته. أما مهمته فتتلخص في كلمة «العبادة». والكلمة هي من الفعل العربي القديم «عبد» أي: اطاع، خدم، صنع، عمل، دبّر، ولّى، حكم، اخترع، أبدع، اشتغل. وهي باختصار: عبادة الله الواحد وإطاعته والخضوع له، وإعمار هذه الأرض بالعمل والابداع بما يرضي الله. وكما جعلت له العقل للتدبير على الأرض، (لأن المعرفة العقلية تتأتى مادتها الأولية عن طريق الحواس، فيجمعها العقل، ويرتبها، ويصنفها، ويستنتج منها، ويجرّد علاقات وأحكاماً يبني عليها أساس معرفته)، فقد جعلت له الروح أيضاً كواسطة للاتصال مع الملأ الأعلى.

2 . لقد احتج (الأرباب) في مصادر التراث القديمة، أو (الملائكة) في الكتب السماوية على الأمر، انطلاقاً من أن هذا الكائن الجديد المخلوق من الطين كبقية الحيوانات الأرضية، سوف يفسد في الأرض ويسفك الدماء لأن هذا طبع الحيوان. وهنا ينفرد القرآن الكريم مرة أخرى في التفصيل. فهو يبيّن لنا كيف ان الملائكة جميعاً أذعنوا راضين لأمر الرب بالطاعة لآدم إلا إبليس الذي كان واحداً من الملائكة قد أوكل إليه تدبير أمر الله بإذنه على الأرض من ذي قبل. فأبى أن يخضع بالطاعة لآدم ويسلّم الأمر له. وهذا ما قصده علي بن أبي طالب في قوله: «ثم أسكن سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشته، وآمن فيها محلّته،

وحذّره إبليس وعداوته. فاغترّه عدوّه نفاسة عليه بدار المقام ومرافقة الأبرار».

إن إبليس نتيجة لموقفه تعرض للعنة الرب، ومُسخ شيطاناً. قال ابن عباس: «وكان من حيّ من الملائكة يقال لهم الجن، وكانوا خزّان الجنان، وكان من أشرفهم ومن أكثرهم علماً، وكان من أولي الأجنحة الأربعة، فمسخه الله شيطاناً»[1]... ولقد توعّد إبليس آدم بأنه سوف يضلّه ويغويه هو وذريته إلا عباد الله المخلصين، وطلب من «الرب» أن يمهله «إلى يوم الوقت المعلوم»، فأمهله «الرب» لحكمة يعلمها هو.

3 . لما كان، وضمن هذا الظرف الجديد، قد نشأ تحدٍّ جديد ينذر بفشل آدم في مهمته منذ البداية، فقد قضت حكمة الرب أن يُمتحن آدم (الخليفة الجديد) في مدى مناعته ضد إبليس الذي رفض إطاعته منذ البدء، وتوعّده بإفساد أمره في مهمته، معتمداً على تركيبه البشري الطيني الذي سوف يشده إلى شهوات الجسد الفانية.

4 . لقد حذّر الرب آدم عداوة إبليس له، وإمكانية استغلاله نقطة ضعفه، وهي جسده البشري الطيني وشهوات هذا الجسد، فأعلمه ان له كل ما يبتغي في الجنة هو وزوجه دونما كدح، ماعدا «شجرة» قال لهما ﴿ لا تقربا هذه الشجرة ﴾.

5 . إن هذه «الشجرة» التي اختلفت أسماؤها (من مصدر لآخر في التراث العربي القديم، كانت، في المحصلة، وفي كل مصادر هذا التراث رمزاً لشهوات الجسد، التي يمكن، إن استسلم لها آدم أو مال إليها، أن تهبط به إلى الحياة الحيوانية، التي سوف لن تلبث أن تتغلب على حساب «برمجته» الروحية. ولقد دعيت هذه «الشجرة الرمز» في مصادر العرب الأقدمين في سوريا ووادي النيل بشجرة «فرصيا» أو «فروصيا». والكلمة في القاموس السرياني تعني الشهوانية الجسدية. وقد لقب أوزيريس في عهد عقيدة الخصب في وادي النيل بـ «سيد فرصيا»: «لك التجلة ياسيد شجرة فرصيا»[2]. ولما كان العرب الأقدمون

---

(1) أبو الفداء اسماعيل بن كثير، قصص الأنبياء، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص18 .

(2) السير ولس بدج، المرجع السابق، ص154 .

يلفظون «الفاء» في معظم الحالات (P). فقد كانت تلفظ «برصيا» أو «بروصيا»، وهي الصيغة التي انتقلت بها مع العرب السوريين إلى بلاد اليونان وأضيفت إليها أداة التعريف الميمية (أم) لأن أول صوت فيها شفوي (الفاء أو الباء، كما رأينا في بحث اللغة) وصارت «أمبروسيا». وقد فسّرت الكلمة في عدة مراحل من التاريخ بأنها: شجرة الحياة، شجرة المعصية، شجرة معرفة الخير والشر... الخ.



آدم وحواء وشجرة الحياة (أو المعصية) والحية رمز التسلل الشيطاني إلى القلب، على ختم سوري من العهدين السومري والبابلي

6 . ما أن مسخ إبليس إلى شيطان حتى دخل على «برنامج» آدم الروحي، أي تسلّل إليه خفية دون أن يُرى ﴿ يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾[2].. ورمز العرب الأقدمون لعملية التسلل هذه بـ «الحية»، فتمكن من إفساد برنامجه الروحي الذي هو تقوى الله ومخافته وإطاعته والامتثال لأمره، وغلّب فيه شهواته كبشر، وشدّه إلى غريزته من أجل التناسل، فأخرجوا جميعاً من الجنة إلى الحياة الدنيا (العالم السفلي) إلى العيشة الحيوانية وتكاثر الذرية (بعضهم لبعض عدو)، وبقي السادة الأرباب (في المصادر القديمة) أو «الملائكة» مع «الروح» في الكتب السماوية في دار الأبرار يدبّرون أمر الأرض بإذن ربهم إلى يوم القيامة ﴿ يوم تعرج الملائكة والروح ﴾ منها إلى السماء، بعد أن يتم الوقت المعلوم ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ممّا تعدّون ﴾ (المعارج 1 – 9).

الحساب:

أما الحساب وكيفيته في مصادر التاريخ العربي القديم فلم يصلنا منه الشيء الكثير. غير أن ما وصلنا من الوثائق القديمة الباقية لعرب وادي النيل تفيدنا

(2) سورة الأعراف 27 .

أنهم كانوا يعتقدون «بأن الجسم تسكنه صورة أخرى مصغّرة منه تسمّى (الكا)، كما تسكنه ايضاً روح تقيم فيه إقامة الطائر الذي يرفرف بين الأشجار تسمّى (البا) والروح والكا تبقيان بعد ظاهرة الموت»[1]، إن الـ «كا» في العربية القديمة والحديثة، التي يترجمونها عادة بـ «القرين»، تعني حرفياً الشبه، المثيل. وهي التي صارت «كاف» التشبيه في العربية اليوم. ومنها «ميكا» أي المثيل، المماثل، النظير و«ميكائيل» أي مثيل الرب، نظيره، ومنها «هيك» في العربية الدارجة أي هكذا.

«ولقد اعتقد المصري القديم أن لكل إنسان روحاً سمّاها «با»، تسكن الجسد مادام حياً، وتصوروها على هيئة طائر بعد الموت. وان هناك غير الـ «با» ما أسموه القرين أي «كا».. وكان موتهم يفسّر بأن... الـ «كا» قد هجرتهم، ويستقبل كل إنسان هذه الـ «كا» عند مولده، وذلك بأمر من الرب «رع». وما دامت معه هذه الـ «كا» وما دام هو «رب الكا» وأنه «يغدو معها» فهو حي يرزق. ولئن كان احد لا يستطيع رؤية هذه الكا، فالمعتقد انها تشبه صاحبها تماماً. وقد ورد انه عندما خلق الإله الشمس في بداية نشأته الأولى «إلهين»، وذلك بأن (أخرجهما من فيه، نطق بهما)، فقد وضع ذراعيه من ورائهما، ففاضت عليهما الكا التي كانت له، ودبّت فيهما الحياة، ولابدّ أن وضع الذراعين على هذا النحو كان ذا صلة بمنح الكا، لأن الذراعين الممتدتين كانتا رمزاً للكا منذ أقدم الأزمان. فإذا مات الإنسان هجرته الكا»[2].

إن هذا النص المأخوذ عن الوثيقة المصرية القديمة المدعوة بـ «متون الأهرام» يعتبر أقدم وثيقة مفصّلة عن القرين والروح في التاريخ، وهي تقدم لنا تصوراً مذهلاً عن «الأزواج» التي لم يكتشف سرّها إلا مؤخراً من قبل علم الطبيعة الحديث.

ولقد كنا قد اجرينا مقارنة بين هذه العملية الروحية وبين عمل المركز النووي في الخلايا الحية. وقلنا كيف أن ذراعي القوة الخالقة يمثلان وحدتي الجسيم

---

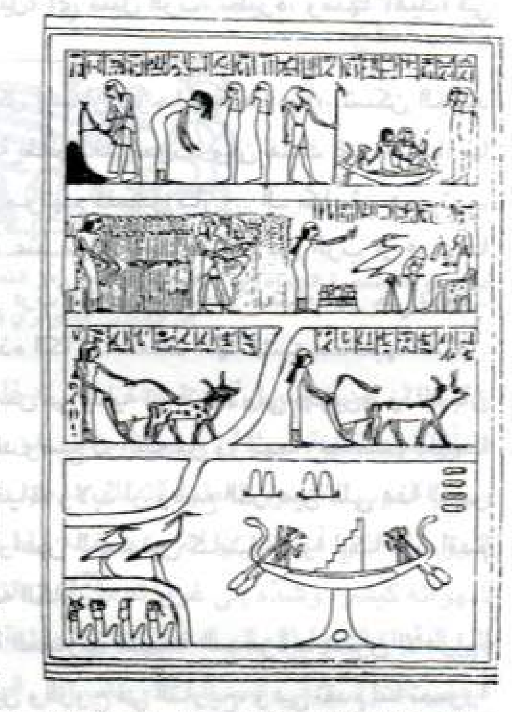
(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الأول، الجزء 1 ، ص162 .

(2) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص235,111 – 236 .

الريبي في الخلية التي تنسخ البرنامج المرسل من النواة مترجمة إياه إلى لغتها (الحموض الأمينية).

اما الحساب فيتم على الوجه التالي:

1 . تذهب النسخة المثيلة «الكا» وتمثل أمام الرب المحاسب، ليفاجأ الميت بأن أعماله مكومة هناك إلى جانبه «وإن الإنسان ليبقى بعد الموت وستكوّم أعماله إلى جانبه.. وإنه لأحمق من لا يأبه بذلك»[1].



صورة من بردية انحاي (الأموات) في عهد السلالة الثانية والعشرين تحكي قصة الحساب في التراث العربي كله بدقة بالغة، وهي من الأسفل إلى الأعلى كما يلي:

1. في المستطيل الأول من الأسفل ثاني الروح في هيئة طائرين، اي نظامها الزوجي المثال والمثيل او النفس والقرين، تقف امام الزورق الذي يحمل العقبات السبع. وهذا يعني أن على الروح ان تخوض امتحان عبور العقبات فإن لم تنجح عادت إلى الحياة الدنيا (العالم الأسفل) من جديد لتكدح كالبهائم او كالبشر.

2 . المستطيل الثاني يمثل العودة إلى الحياة الدنيا ونرى طريقها متصلاً بالمكان الذي جاءت منه الأرواح.

3 . اما إذا كانت النفس طيبة، ولم تقترن في حياتها الدنيا بقرين الشر فإنها تمثل كطائر فرد يتعرف على أعماله المكومة امامه. وهذا ما يمثله المستطيل الثالث.

4 . فإن اجتازت امتحان العقبات السبع اقترنت بمثالها في عالم الأبرار فتعود إلى نظامها الزوجي لكن في عالم الملائكة. وهذا ما تمثله الصورة في المستطيل الرابع الذي في الأعلى.

---

(1) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص256 .

2 . توزن أعمال الإنسان، أي تجري مقابلتها مع ما هو مسجّل لدى (الآلهة)، أي مع سجلّه هناك الذي يُرمز له بالريشة أداة الكتابة والتسجيل، فإمّا إلى دار الأبرار، او إلى دار العذاب. لكن التفصيل لعملية الحساب عند عرب وادي النيل هو ما وصلنا منهم مصوراً.

ثم إن هذه العملية بقيت ردحاً طويلاً من الزمن، دون التطرق إليها أو التفصيل فيها إلى أن جاءت واحدة من مواضيع العلم الرباني التي أنزلت وحياً على محمد في السبع المثاني، وجاءت من آيات الكتاب المفصّلة.

«الحساب» في القرآن الكريم:

1 . حينما خلق الله آدم «نفخ فيه من روحه» فتميز بهذه الروح عن باقي الكائنات على الأرض، فهي واسطة الاتصال مع الملأ الأعلى، كما أن العقل جعله لتدبير أموره الحياتية على الأرض.

إن هذا الفكر هو الذي عبّر عنه الفلاسفة السوريون في اليونان، وهو الذي تحدث به واشبعه بحثاً الفلاسفة العرب المسلمون الذين أجمعوا على أن العقل يستمد معرفته من الحواس. وإن هذا العقل الذي خلقه الله فينا هو قوة منظمة تستطيع تنظيم التنبهات الحسية وتحويلها إلى افكار كلية وأفكار مجردة. ولكن معرفة العقل المباشرة مقصورة على عالم الحس وليس في مقدوره أن يعرف، من طريق مباشر، العالم الذي فوق المحسوس ووراء الطبيعة، وإن كان في مقدوره، بالمقارنة والقياس، أن يستمد معرفة غير مباشرة لوجود الله، كما أنه يصعب عليه تصور الأمور غير المادية كالروح، وعاجز عن إدراك كثير من حقائق الحياة التي تبقى إلى الأبد عصية على اختباره الحسي أو المادي.

2 . حينما أخرج آدم من الجنة إلى الحياة الدنيا وعده ربه ألا يتركه مع ذريته بدون هدى بين فترة وأخرى. فبقيت الروح، التي لا يعلم سرها إلا الله وحده، هي واسطة التلقي من الملأ الأعلى عند اللزوم، لا يستخدمها إلا هو، متى شاء ومع من يشاء من عباده.

3 . إن «القلب» في القواميس هو وعاء أو لطيفة ربانية ظاهرها العقل وباطنها الروح. فالتلقي من «الروح» الأعلى يلقى على «القلب»، على الروح في القلب،

عنه». إنه ادق تعبير عن عملية «البث الذاتي» ودونما إرادة او وعي او تدخل من قبل صاحبه. وفوق هذا فإن كلمة «الطائر» تضعنا فوراً أمام صورة كائن ذي جناحين. ولقد رأينا من ذي قبل في عملية «الوحي» كيف أن الروح تتلقاه ببرنامجه المرمّز، والعقل يترجمه فوراً من خلال مخزونه اللغوي في الذاكرة بما يماثله لغة، وهذا هو معنى «المثنى» كما سبق أن شرحناها آنفاً. إنه نظام «الأزواج» في الوحي بدلالتيه الأولية (دلالة الحرف) والثانوية (دلالة الكلمة).

وقد صار حتمياً ومنطقياً الآن أن تتم عملية النقل العكسي لما سجّله العقل وحفظه في ذاكرته المخزونة لتنقله الروح تلقائياً بدلالته الأولية، إلى عالم الروح الأعلى أو الملأ الأعلى، بجناحيه العقلي والروحي. إنهما حرفان، نسختان، مثال ومثيل، متشابهان، مثنى، جناحان. فكل عمل قام به الإنسان في حياته سُجّل ونقل عبر هذا النظام الرباني، طائراً عنه بجناحين. ولو اننا اوغلنا عمقاً في مدلولات الكلمة، تطبيقاً لعلم الرسول العربي عن الوحي، ونظرنا في القاموس حول معنى كلمة «جناح» لوجدنا أن من معاني هذه الكلمة أيضاً: نفس الشيء، وكل ما جعلته في نظام، ومن الدرّ نظمٌ يُعرّض على شكل جناح. أليس هذا هو نفس ما تعرفنا عليه في عملية صف حلقات برنامج السلسلة، وهو في عالم المادة كما هو في عالم الروح! إذ تقوم الـ DNA في النواة بعملية «صف البرنامج» الأولي الأساس بحلقاته النووية المرمزة ليذهب إلى الخلية لتستنسخه وتترجمه بما يلائمه أو يفسره تماماً وبكل أمانة من حلقات مصفوفة من الحموض الأمينية. ثم أفلا يفضي بنا هذا ذاته إلى جوهر المقصود من التسمية التي أطلقها القرآن الكريم على الملائكة في أكثر من موضع: ﴿ والصافات صفاً ﴾ (سورة الصافات). وفوق كل هذا فلو اننا تأملنا بها من الناحية التصويرية الصرفة: أية صورة يمكن أن تعبرّ عن هذه المضامين كلها بمثل ما تعبّر به كلمة «الطائر» ذي الجناحين عن العمل «المبثوث» ببرنامجيه المتماثلين العقلي اللغوي والروحي الرمزي، والذي «يطير» تلقائياً بمجمله كما الحمام الزاجل الذي ألف مكاناً وعاد إليه. إن جناحيه هما مضمون كتابه. وهذا «الطائر» تحديداً هو المقصود في سورة «يس» ﴿ قالوا إنّا تطيرنا بكم، لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسّنكم منا عذاب

فيترجمه العقل إلى لغته المخزونة في الذاكرة، وهذا ما دعي بـ «الوحي»: ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ (الشعراء: 192 – 195). إن ما تتلقاه الروح من الملأ الأعلى عن طريق الوحي، يترجمه العقل ذو المعارف الدنيوية في هيئة لغة وكلمات من مخزونة في الذاكرة. كما أن كل مخزون العقل في نظامه الذاكري المسجّل من لحظة بداية حياته حتى انتهائها يمكن أن «تنسخه» الروح، و«تبثه» بومضة إلى الملأ الأعلى في أية لحظة دون علم صاحبه، لتستخدم هذه «النسخة» عند الحساب. وهذه هي عكس عملية الوحي في الاتجاه.

4 . إن هذا هو ما أكده القرآن الكريم في عدة آيات:

﴿ أم يحسبون أن لا نسمع سرّهم ونجواهم. بلى، ورسلنا يكتبون ﴾ (الزخرف : 80).

﴿ وما تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه. ولا يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ (يونس: 61).

إن اختيار كلمة «تفيضون» التي تعني الخوض في الشيء والسرعة والإبانة التلقائية دونما إرادة يعكس لنا جانباً من العملية.

﴿ إن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ (المدثر: 31).

5 . ولقد أكد القرآن الكريم أن هذه العملية تتم «في مكان ما قرب العنق، لصيق به».

﴿ وكل إنسان الزمناه طائره في عنقه، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك، كفى بنفسك اليوم حسيبا ﴾ (الإسراء 13 – 14).

وإن كلمة «طائر» التي استخدمها القرآن الكريم هي في غاية الإعجاز. ففي القاموس نجد أن كلمة «طائر» تعني كل ذي جناح من الحيوان، (وهذا هو المعنى الظاهر القريب)، كما تعني أيضاً: الدماغ، وعمل الانسان الذي قُلّده، وطار عنه من خير أو شر. فتأملوا معنا هذا الجمع للمعاني المقصودة كلها في كلمة عربية واحدة ــ «الطائر»! إنه: الدماغ، وعمل الانسان الذي قُلّده في عنقه، أي صار مسؤولاً عنه (وليس مطلق عمل)، والذي طار عنه، ثم لنتأمل في معنى «وطار

أليم. قالوا طائركم معكم ﴾ (يس: 18 – 19).

وجدير بالذكر هنا أن كلمة «طائر» هي عينها التي استخدمها العرب الأقدمون للتعبير عن الظاهرة نفسها منذ الزمن الموغل في القدم.

لقد كان عرب وادي النيل، مثلاً، يعتقدون أن الميت «يتحول إلى روح حية كانت تمثل حسب الطريقة القديمة على هيئة طائر»[1]، «وهي، إذ كانت تترك الجسد، وتنفلت منه عند الموت، فقد تخيلوها عادة كأنها طائر»[2]، «وإنه يحرك الذراعين كالإوزة، ويضرب بجناحيه كالطائر، أيها الناس إنه يطير من يطير هناك، وهذا يطير عنكم»[3].

إن هذا لممّا يدهش حقاً، إذ نحن نقف أمام الصورة ذاتها، والظاهرة ذاتها والتعبير ذاته!

إننا باختصار في هذه الآية «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه» أمام إعجازات، لا إعجاز واحد، في عبارة واحدة: إعجاز قرآني في اختيار كلمة «طائر» التي لو بحثنا قاموس اللغة العربية كله لما عثرنا فيه على كلمة أخرى تحمل جزءاً مما تحمله هذه الكلمة في هذا الموضع؛ وإعجاز تختص به اللغة العربية ذاتها وتنفرد به بين لغات العالم قاطبة. فنحن لو تعمدنا ترجمة هذه الكلمة بكل مضامينها المحمولة في سياق هذه الآية إلى أية لغة أخرى لتطلب الأمر منا صفحات من الكلام للتعبير عما عبرت عنه، وليس من كلمة أخرى في هذا العالم يمكن أن تنهض بالحمل. وإن هذا، في حدّ ذاته، يضعنا أمام عبقرية اللغة العربية ذاتها التي حقّ لأبنائها أن يعتبروها لغة سماوية مقدسة، وكأنما اعدّت منذ البدء لتكون جاهزة لاستقبال أمر السماء «الوحي»، وللتعبير بمقدرة تبلغ حدّ الإعجاز عن أدق أنواع العلوم.

إن مقدرة هذه اللغة من جهة، والإعجاز القرآني في اختيار الكلمة التي لابديل لها في اللغة من جهة أخرى، والتي يعجز البشر عن العثور على ما يمكن أن يعبر عن كل تلك العمليات بكلمة واحدة، هي التي تعيد إلى الذاكرة عملية التحدّي

---

(1) ادولف إرمان، المرجع السابق، ص142.

(2) المرجع نفسه، ص237.

(3) المرجع نفسه، ص239؛ و: «متون الأهرام» 461 – 463.

القرآني للإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله.

ومرة أخرى نقول: إن تلك الآية من القرآن الكريم استطاعت بمفردها أن تنقل لنا عملية تسجيل أعمال الإنسان، ومكان هذا التسجيل في أسفل الدماغ مما يلي العنق، وعملية بثّه ونقله عبر الروح ببرنامجه ذي النظامين العقلي والروحي إلى الملأ الأعلى، نقلاً لا يخضع لوعي وإرادة صاحبها، وأكدت لنا في الوقت نفسه، نظام البرنامجين المصفوفين، نظام الزوجية، المثنى، في عالم الروح، كما هو تماماً في عالم الجسد، الذي لم يتعرف عليه علم الطبيعة الحديث إلا في فترة متأخرة من هذا القرن، وفوق هذا كله فقد جاءت، بكلماتها المعدودة القليلة، كأجمل تعبير وأدق تجسيد لقول الرسول العربي «نزل القرآن على سبعة احرف لكل منها ظهر وبطن ولكل بطن منها ظهر وبطن..».

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (ق : 16 – 18).

مرة أخرى يتحدّد مكان العملية في الدماغ، بل في أسفل الدماغ مما يلي العنق، أو حبل الوريد. إن عملية «التسجيل والبث» تتم إذن في أسفل الدماغ، وهو أمنع موضع في الدماغ وفي الراس وفي جسم الإنسان ككل. وفي هذا الموقع تحديداً تقع أهم أجزاء دماغ الإنسان الذي مازال مجهولاً له في معظمه حتى اليوم. وقد عبرّ القرآن الكريم عن تلك العملية بوجود ملكين في تلك المنطقة من الدماغ يكتبان كل شيء حتى ما توسوس به النفس، إن هذا هو الحد الأقصى من الكلام الذي كان يمكن أن يقال للناس الذين يخاطبهم القرآن الكريم.

أما من الناحية التشريحية فإننا نجد في تلك المنطقة من الدماغ ما نعرفه بالعربية «الغدة النخامية» وقد جاورتها من فوق «الغدة الصنوبرية». فهل هما مركز التسجيل والترجمة والبث؟

أما «الغدة النخامية» فهي التي تقود جميع أعمال الغدد الأخرى ونشاطاتها في البدن. إنها القيادة الحيوية للبدن كله بكل إفرازاته وهرموناته التي تترجم رغبات «النفس» إلى عمل. وتوصف أيضا بأنها جهاز مركزي للاتصال، وباقي الغدد محطات. إن هذا هو، باختصار شديد، مجمل ما يعرف عن هذه الغدة.

ونحن إذا ما امعنّا النظر قليلاً في تسميتها العربية القديمة والحديثة نجد أنها من الفعل العربي القديم «نحم» (إذ كانت الحاء تحلّ محل الخاء قبل ظهورها) ويعني في القاموس السرياني: بعث، نشر، أحيا، أقام من الموت. نوحام = بعث، نشور، قيام من الموت، ومنها جاءت التسمية نوحاميتا النخامية = بعث، إحياء، نشور، قيامة. فهل يمكن أن تكون هذه الغدّة هي المقصودة بالعملية، وهل يمكن ان تكون من بين وظائفها بث نشاطات النفس والبدن عن طريق الروح إلى الملك الموكل بالحساب في الملأ الأعلى، إذ أن النفس ما أن تشتهي شيئاً أو تريده حتى يترجم حالاً إلى انفعال تترجمه الغدة النخامية عن طريق إصدار الأوامر إلى الغدد بإفراز الهرمونات المناسبة، أم أنها تحتفظ بالـ «ديسك» المسجّل ليوم البعث أو القيامة من الموت، كما يحتفظ «الصندوق الأسود» في الطائرة بعد تحطمّها بسجلّ تفصيلي لكل ما مرّ بها! أما الغدة الصنوبرية فما تزال وظائفها مجهولة حتى اليوم.

على أية حال إن مثل هذا الأمر يبقى ضمن إطار التصور أو الفرضية التي لا يستطيع العلم التطبيقي، ولن يستطيع، إثباتها أو نفيها. وجدير بنا هنا أيضاً أن نذكر بأن رب الخصب السوري «تموز» أو «أدونيس» الذي يموت في الصيف ويقوم من الموت (يبعث) في بداية الربيع، لُقِبَ بـ «النحمان» أي القائم من الموت، ثم جرى الإبدال الشائع بين الحاء والعين وصار يدعى «النعمان»، وهي تسمية شاعت خطأ في اللفظ وحلّت محل التسمية الأصل. وهذه الظاهرة في الابدال ما تزال شائعة في منطقة جبال السراة حتى اليوم.

6 . ثم إن هذا الذي تم تسجيله في الدماغ، وبُث تلقائياً (من وراء ظهر النفس ودون إرادة منها أو علم به) عن طريق الروح إلى الملك الموكل بالحساب في «المركز» تفاجأ النفس به هناك منشوراً أمامها:

﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق. إنا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ (الجاثية: 9).

﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ (يس: 65).

﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم

حسيبا ﴾ (الاسراء 13 – 14).
﴿ ووُضع الكتاب. فترى المجرمين مشفقين مما فيه، ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربك أحدا ﴾ (الكهف: 49).
إن «النفس» هي المسؤولة في التراث العربي. فهي إمّا أن تقاوم نزغات الشيطان، وتتمسك بحبل الروح متسامية عن شهوات الجسد ومفاسده، فتتخلص وترجع إلى ربها، وتدعى بالنفس المطمئنة، وهي التي توجه إليها القرآن الكريم بالخطاب دون غيرها: ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾.
ثم هنالك النفس اللوامة، وهي المتأرجحة، ولها نصيب في فرصة أخرى قبل أن يتقرر مصيرها.
ثم النفس الأمّارة بالسوء، وهي التي لم تقاوم نزغات الشيطان، فدخل عليها، و«قارنها» لتنتج بناء على «برنامجه» هو:
﴿ وقيضنا لهم قرناء، فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم، وحقّ عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس إنهم كانوا خاسرين ﴾ (فصّلت: 25).
﴿ قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أإنك لمن المصدقين؟.. إإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون؟ فاطلّع فرآه في سواء الجحيم. قال تالله إن كدتَ لتُردين. ولولا نعمة ربي لكنتُ من المحضَرين ﴾ (الصافات: 51 – 54).
وإن قوة دخول «برنامج» الشيطان على النفس الأمارة بالسوء طاغية لا تقاوم، وإن تعطيل القلب (العقل + الروح) يترك النفس مجالاً لسيطرة أهواء الجسد، ومجردة من اية مناعة لمقارنة الشيطان، حتى لتبدو للنفس نزعاتها كأنها هي الحقيقة، وليس من حقيقة فوقها. ولقد أخبرنا القرآن الكريم عن جدل وتخاصم تلك النفوس مع قرنائها عند الحساب: ﴿ قالوا: إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين. قالوا بل لم تكونوا مؤمنين، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين، فحقّ علينا قول ربنا إنّا لذائقون فأغويناكم إنّا كنّا غاوين. فإنهم يومئذٍ في العذاب مشتركون ﴾ (الصافات: 33 – 38).
إن «اليمين» هنا لا يعني جهة اليمين فحسب، كما يدلّ المعنى القريب الذي

يتبــادر إلى الـذهن تــواً، بل إن المعنى الآخر للكلمـة في القـامـوس هـو القـوة والسلطـان. والمقصــود في الآيـة أن تلك النفـوس أخذت تبـرّر سقـوطها بقوة الشيـاطين وبسلطـانهـا الذي لـم تقـو على مقـاومتـه، فأجـابتهـا قرنـاؤهـا من الشيـاطين: نحن لم يكن لنا سلطان عليك لو لم تكوني ضالّة مستعدة وجاهزة لتقبل طغياننا، إنّا حقاً طاغون، لكن ليس للنفوس المؤمنة.

* * *

وهكذا، ومن خلال ما استعرضناه حتى الآن من موضوعات من خلال ما قدمه لنا تراثنا العربي القديم، صار في إمكاننا أن نخلص إلى أهم النتائج المركزية كما هي في هذا التراث:

1 . إن أول عملية خلق الحياة على هذه الأرض بدأت في المـاء.

2 . إن عملية الخلق الأولى للنبات والحيوان بدأت في الجبل البركاني الأول الذي بزغ من المـاء البدئي بعد زمن مديد من تبرده.

3 . إن هذا الجبل بأسمائه المختلفة هو الذي شهد عملية الخلق الأولى للإنسان العاقل الأول.

4 . إن هذا الجبل هـو «المـركز» الذي شـعّ منـه «آدم» الإنســان العـاقل الأول وإنجازاته الحضـارية على الأرض.

5 . إن هذا الجبل المركز هو في غامد (جامد = أرض الخلاص أو السلام). من جبال السراة في شبه جزيرة العرب.

6 . إن في هذا الجبل «المركز» الجنة والنـار الأرضيتين، والحسـاب، وفيه الأرباب (أو الملائكة) والروح الموكل بتدبير الأمر على الأرض إلى يوم القيامة.

7 . إن التراث العربي يؤكد بمجمله على نقطة هي على غاية من الأهمية، وقد تقلب كل الفرضيات والنظريات الأخرى التي ظهرت في الغرب مؤخراً، وعممّت دونمـا دراســة معمقـة للتراث العربي القديم، رأسـاً على عقب، وهي أن فكرة التـوحيد ظهـرت مـع آدم الإنســان العاقل الأول. ومع أنها كانت تخبو أحقاباً وتتـوهـج أحيـانـاً، إلا أنها لم تنقطع عن الظهور في هذا التراث منذ آدم الأول وحتى اليوم. فـالتوحيد في التراث العربي هو دين الفطرة، التي فطر الله النـاس عليها منذ أن خلق آدم الإنسان.

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾، (الروم 30).

8 . إن التراث العربي يرفض اعتماد مبدأ «الصدفة» في عملية الخلق، ويجمع على تدخل قوة خالقة سماوية في عدة مراحل من الخلق على الأرض، كما يجمع على أن آدم الإنسان عُلّم التوحيد كمات عُلّم أشياء أخرى كثيرة غيره.

9 . إن مواضيع الخلق، والجنة والنار، والحساب، والجزاء والعقاب، والروح، والساعة.. هي، في التراث العربي كله، من مواضيع العلم الرباني نزل «الروح» ببعضها وحياً على بعض الأنبياء مجملة أو مفصلة، كالخلق والحساب، وبقي بعضها سراً في علم الله وحده كالروح. وهذا العلم لم يكن في مقدور أحد من البشر أن يعلمه إلا «وحياً» وبإذن الله: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم ﴾ (الشورى: 51)، ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش، يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾ (غافر: 15). ولولا العلم الذي علّمه الله لبعض عباده عن طريق «الوحي» لما عرف أحد من البشر شيئاً عن عملية الخلق الأولى قبل أن يخلق الإنسان بعدة مليارات من السنين ولا عملية خلق الإنسان نفسه ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم، وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ (الكهف 51).

10 . إن آخر ما توصلت إليه العلوم الطبيعية اليوم أخذت تؤكد الكثير من المواضيع المركزية في التراث العربي، ولاسيما خلق السموات والأرض، وأول خلية حية في الماء، وخلق النبات والحيوان من الطين على الجبل البركاني الأول، ثم خلق الإنسان، ونسبية الزمان بالنسبة للكواكب.

11 . إن الجبل «المركز»، كما كان مركزاً لإشعاع الإنسان العاقل الأول وانتشاره، فقد كان مركزاً لاشعاع وانتشار لغة ذلك الإنسان، وهي العربية القديمة، كما يؤكد علم اللغات القديمة والحديثة يوماً بعد يوم. وقد أخذت تكثر الأصوات في أوروبا اليوم التي تطالب بالعودة إلى دراسة اللغة العربية القديمة والحديثة من اجل التعرف على حقيقة نشوء اللغات الأوروبية وتطورها، وإن أوضح مثال على هذا التوجه اليوم ما أكده الباحث الفرنسي الشهير بيير روسّي.

12 . إن الغاية من خلق الإنسان، كما هي في التراث العربي، هي تدبير أمر هذا الكوكب وإعماره بما ينسجم مع الميزان الكوني الذي وضعه الله. ولما جُعل الإنسان كائناً يجمع بين الأرض والسماء، بين الجسد والروح، فقد كان لابدّ من التجربة ليحيا من حيا عن بيّنة، أي ليخلص بالروح.
وقد حُددت للعملية فترة زمنية هي يوم من أيام الرب مقداره خمسون الف سنة من الزمن الأرضي بدءاً من هبوط آدم إلى الحياة الدنيا.
13 . خلال هذه الفترة يتم خلاص المخلَصين الذين ثبت أن «الشيطان» لم يكن له عليهم من سلطان، فخرجوا من التجربة جديرين بما أراد الله لهم منذ البداية، كخلائف له على الأرض، بعد أن يكون قد استأصل دابر الشر منها.
14 . يومئذ ﴿ تبدّل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ (ابراهيم: 48)، و﴿ يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من اذن له الرحمن ﴾ (النبأ: 38)، ويرث «المخلَصون» الجنة والأرض ﴿ حتى إذا جاؤوها وفُتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم، طبتم، فادخلوها خالدين. وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾ (الزمر 73 – 74).

العقاب في التراث العربي القديم:

ذكرنا فيما سبق أن التراث العربي القديم أكد في مجمله على انه كان ثمة مخلوقات من البشر بهائمية، تعيش كما تعيش الأنعام، ومخلوقات من النار لكنهم فسدوا فيها وسفكوا الدماء، فأوكل بأمرها إبليس وهو من الملائكة، كما أنه مخلوق من النار، فاشترك مع الملائكة في الصنف ومع الجن في الجنس، فدبّر أمرها، وصار رئيساً للجن على الأرض. ثم جُعل آدم، وهو الإنسان العاقل الأول، خليفة الله على الأرض، واوكلت إليه مهمة التدبير بإذن ربه.

أطلق قدامى العرب السوريين على الكائن الجديد الذي صار رباً (سيداً) للبشر والذرية اسم «إلِيل» أو «إنليل». والكلمة في القاموس العربي القديم (السرياني) من الفعل «إلّل» ويعني هذب، ارشد، هدى، علّم، قاد، كما يعني جهل، حمق، ضلّ، فسق. وفي قاموس «محيط المحيط» نجد أن الإلّ هو الأصل

الجيد، والربوبية، والوحي، والأمان، والعهد، وآل الالأ اتبع الباطل والضلال، ضلّ، إن هذا الاسم هو تعبير عمّا حدث لآدم الإنسـان.
فحينما ضل وأخطأ في الجنة تخبرنـا الأسطورة السومرية «عندهـا فزع الأرباب وغضبوا لتلك الفعلة المنافية للأخلاق. فأمسكوا بالرب إنليل ونفوه من المدينة (الجنـة) إلى العالم الأسفل على الرغم من أنه كان ملك الآلهة»[1]. وبالطبع إن كلمة «الآلهة» المتداولة في الترجمات الأجنبية ليست دقيقة، إنها «الأرباب» (أي السادة أو الملائكة)، ثم تخبرنـا الأسطورة كيف ان إنليل يخرج مع ننليل (حواء) من الأرض الجنـة إلى العـالـم الأسفل (الحيـاة الدنيـا) ويتقمص ثـلاث مـرّات، ويجـامعهـا واضعـاً في رحمها، ثمرة الخطيئة، ويعلّق كريمر قائلاً: «إنهـا أول مثـال معروف عن التقمص»[2]. وتقول الأسطورة:

«فجامعها وقبّلها.
وبعد أن جامعها وقبّلها
زرع في رحمها
ثمرة الخطيئة»[3].

والعبـارة في الأصل هي مليـا مطعـايـا = ثمـرة الخطيئـة، (إذ ان «مليـا» في القاموس السرياني تعني خصب، ثمرة، تفاحة، من هنا جاء تعبير «تفاحة آدم»، و«مطعايا» هي من «طعي» وتعني: ضلّ، طغى، غوى، أخطأ، غفل، نسي).
ثم ينجبان ثلاثة من السادة ليعيشوا في الأرض بعيداً عن الجنة[4]. ثم إن إنليل صنـع المحـراث والفـأس وعلّـم استنبـات البذور والنبـاتـات والأشجـار من الأرض[5]. وكما دُعيت ذريته فيما بعد «ثمرة الخطيئة»، فقد دعيت الحياة الدنيا (العـالم الأسفل) «أرض الخـاطئين»، وهـي بـالعربية السـومرية «حـاطي» Hathi، وقد نُقلت مـع العرب السـوريين إلى بـلاد اليـونـان وإيطـاليـا، وصـارت تلفظ

---

(1) صموئيل كريمر، المرجع السابق، ص165.
(2) المرجع نفسه، ص167.
(3) المرجع نفسه، ص168.
(4) المرجع نفسه، ص165.
(5) المرجع نفسه، ص173.

«هـاذي»، و«هـادي» و«هـاديس». وقد ظن البـاحثـون، كعـادتهـم، أن التسميـة إغريقية، ويقولون: «ويعني اسمه الاغريقي «ايديس» الخفيّ، أو الذي لا يُرى. وتتحول «أديس» في النطق شيئاً فشيئاً إلى «هـاديس» على سنن بعض اللهجات، ويسمّى العالم السفلي (دار هـاديس)[1].

ولقد تقدست هذه الفأس في كل مناطق انتشـار العرب الأقدمين من سوريـا إلى وادي النيل، ثم جزيرة كريت وبلاد اليونـان وصـولاً إلى الأطلسي.

ففي بلاد وادي النيل قدسـهـا العرب المصريون كمـا قدسـوا علامتهـا التصـويريـة وقرنـوهـا بـالـرب (السيد) النـاظـر، الحـامي «نطـر»[2] Ntr وكـانت تكتب دون صوتيات وهـي تعني: النـاطور، الحـارس، الحـامي، كمـا تعني النـاظر، الرقيب لأن (الطاء) كـانت تحلّ في العربية القديمة محل (الظاء) التي لم يكن لهـا وجود بعد. وقد صـــار البـاحثـون الغـربيـون يفســرونهـا انطلاقـاً من لغـاتهـم الحديثـة بـ «المحـايد»!.

أمـا في كـريت فقد دعيت هذه الفـأس بـالـ «أبريزو». وهـي كلمـة عربيـة قديمـة نجدهـا في القـامـوس السـريـاني أبريزو = فـأس ذات رأس، بلطة ذات رأسين، حتى أنهـا شغلت حيزاً مركزياً من قصـر «مينا» في كنوسـوس ودعي بـاسمهـا القصـر، كمـا دعيت بـاسمهـا أهـم قـاعـاتـه.

وقد كـانت أحد شعـارات أو رموز الرب السوري القديم «حدد».

3 . أمـا الحسـاب ومـا يتبعه من جزاء وعقـاب فقد كـان يتم في «المركز» حيث جبل السمـاء والأرض، وحيث فردوس إيل (أو حقـول إيل كمـا يترجمهـا الغربيون) وجهنم، وحيث الروح (الرب) والسـادة الآخرون (الملائكة) الموكلون بتدبير أمر هذه الأرض.

فعند قدامى العرب السوريين نجد أن «الإنسـان يموت، وبينمـا يوضـع جسده في القبر تذهب روحه المنفصلة عنه إلى «البلد الذي لا عودة منه»... وعلى اللوح الثـاني عشر من ملحمة جلجامش نجد وصفاً دقيقاً جداً للعـالم الآخر البابلي. في

---

(1) ثروت عكاشة، الإغريق بين الأسطورة والإبداع، ص160 .

(2) السير ولس بدج، المرجع السابق، ص48 .

هذا النص نقرأ عن مكان خاص بالناس الأكثر تقى حيث «يضطجعون على الآرائك ويسقون من ماء طاهر»[1].

أما الأشقياء فإلى دار الآثمين «حاطي» (هاديس) حيث يقاسون ألوان العذاب.

إن هذا نفسه هو ما ذهب مع العرب الصوريين إلى بلاد اليونان.

أما عند عرب وادي النيل فإن أرواح الموتى تذهب إلى «حيراحابا» (مغارة السر، المغارة المخبوءة) حيث الأرباب النجميون أو الأثيريون[2]، في حنو (= المخدع، الغرفة، الحجرة). فالنفس التي تدعى الـ «كا» تمثل أمام الحساب، والذي نفذ الاثم والخطيئة يدعى «حاطي» (الخاطيء، الآثم) فيستمتع ببعض الرغبات[3]، في الحياة الدنيا (العالم السفلي). يقول أدولف إرمان «وأهم من هذا كله أن الميت سوف يبعث ثانية على نحو ما بعث أوزيريس للحياة من جديد، لا على شكل شبح خيالي، وإنما في بعث مجسّد»[4] وهذا هو أساس فكرة التناسخ في وادي النيل.

أما الأبرار فإلى الحوض العظيم في حقل السلام[5] الذي يدعى «سحت حورا» (سحت = حوض، بركة ماء، ماء التطهير، حورا = المغارة)، «ويظن بعض الدارسين أنها تقع إلى الشرق من مصر في مكان بعيد.. ومن المحتمل أن هذه الصورة تمثل «الجنة» أو هي تمثل حقول إيل»[6].

أما العقاب الذي تتعرض له الأرواح الخاطئة فقد دعي في التراث العربي القديم «حَاطي» (= دار الآثمين، الخاطئين) (وهو الذي صار «أديس» أو «هاديس» في اليونان ثم «أد» بالروسية)، أو «شيول» في التوراة، وهذه الكلمة عربية سريانية تعني جهنم. وكلمة «جهنم» عربية سريانية هي «جهنّا» أي العذاب، الجحيم.

وقد فهم هذا العقاب في التراث العربي القديم من الدارسين اليوم بأنه عذاب

---

(1) فريدريك ديليتش، المرجع السابق، ص44 .

(2) السير ولس بدج، المرجع السابق، ص104 .

(3) السير ولس بدج، المرجع السابق، ص194 .

(4) المرجع نفسه، ص204 .

(5) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص247 .

(6) المرجع نفسه، ص204 – 205 .

النار بعد ان فهم تعبير (العالم الأسفل) خطأ. والحقيقة هي لو أننا أمعنّا النظر قليلاً في معطيات هذا التراث لوجدنا أن المقصود بـ «العالم الأسفل» هو الحياة الدنيا على الأرض، أي الحياة الفانية، وهو نقيض حياة الخلد حيث مقر الأبرار بجوار الملائكة في مقرهم في جبل السماء والأرض. ولذلك فقد حدثت اختلاطات كثيرة في الترجمة بين «العالم الآخر» الذي تذهب إليه ارواح الموتى كل الموتى، وبين «العالم الأسفل» الذي تذهب إليه أرواح الخاطئين فقط. ومن هنا فقد كانت الحياة الدنيا على هذه الأرض في نظر العرب الأقدمين هي البرزخ الذي لابدّ أن يمرّ به الخاطئون قبل أن يتقرر مصيرهم إلى النعيم الخالد أو العذاب الخالد. وهذا الفكر كان هو الأساس والبداية لما دعي فيما بعد بفكرة التقمص وتناسخ الأرواح في التاريخ البشري.

التقمص وتناسخ الأرواح في التراث العربي:

إن إنليل ما أن تم اغواؤه في الجنة وأخطأ حتى تم طرده من رحمة الرب، من الجنة، ليهبط إلى العالم الأسفل ويحيا هو وزوجته بالكدح والتكاثر، وقد تقمّص ثلاث مرات. وإن هذه الحياة الدنيا هي المجال، أو البرزخ، الذي جعل له ليكفرّ عن خطيئته، ويعود بالروح إلى مقام الأبرار في النعيم الخالد الذي لا يبلى.

ولم تكن تلك القصة العربية السومرية التي اكتشفت على الألواح في مدينة «نفر» جنوب العراق، والتي جُعل لها عنوان (الانسان وربه) سوى تجسيد لهذا الفكر العربي القديم.

إن القصة باختصار تروي لنا ما تعرّض له أحد الصالحين من العذاب والمعاناة إلى درجة مفزعة، علماً أنه لم يفعل في حياته غير ما هو صالح. فأجرى حواراً طويلاً فلسفياً مع نفسه وربّه وضع المؤلف خلاصتها بالعبارات التالية:

«لقد قالوا ــ الحكماء البارعون ــ كلمة صدق وحق:
لم يولد لأم طفل بلا خطيئة،

إن الطفل البريء لم يكن في الوجود منذ القدم»[1].

وقد تحدث صموئيل كريمر عن تلك القصة مفصلاً في كتابه «من الواح سومر»، ودعاها «أول أيوب في التاريخ».

«وكان الحكماء السومريون يعتقدون، ويعلّمون تلك العقيدة، وهي أن مصائب الإنسان وكل ما يحلّ به من بلاء إنما هو نتيجة ذنوبه وخطاياه، وأنه لا يوجد إنسان بلا خطيئة. ودلّلوا على أنه لا توجد حالات تكون فيها المصائب والبلايا التي تقع على البشر غير عادلة وبدون استحقاق»[2].

وهو إذا ما تاب وأصلح في حياته الدنيا تعود روحه لتنعم برحمة الرب في دار الخلد، أو كما عبّر عرب وادي النيل «تلتحق بالأرباب النجميين.. وتشاهد رع في مقامه»[3]، أو تنحدر إلى المسوخية لتحلّ في البهائم إلى غير ما عودة، فتخلد في العذاب إلى يوم القيامة.

فنحن نجد كيف أن الهنود استخدموا الكلمة العربية السريانية «كارما» التي تعني القميص، الهيئة، الصورة، في عملية التقمص. ونرى في تعاليم بوذا «رأيت الكائنات الحية تمضي ثم تعود فتولد دنيئة أو سنية، خيرة أو شريرة، سعيدة أو شقية حسب ما يكون لها من «كارما». وفق ذلك القانون الشامل الذي بمقتضاه سيتلقى كل فعل خيرّ صوابه وكل فعل شرير عقابه في هذه الحياة أو في حياة تالية تتقمص فيها الروح جسداً آخر»[4].

ولقد انتقلت ـ كما سوف نرى ـ مع العرب السوريين شرقاً إلى الهند، وغرباً إلى اليونان حيث نجدها تبرز خاصة عند فيثاغورس فيما بعد.

وفي عقيدة الخصب العربية السورية كان ثمة مستويان من الفهم لعملية «العبور» إلى الدار الآخرة. المستوى الأول هو مستوى العامة من الناس الذين كانوا يتصورون نهراً وزورقاً وملاحاً فعليين، فمن سعد في الدار الآخرة عبر الزورق إلى بر الأمان حيث النعيم في انتظاره على الجانب الآخر. وقد وضعت

---

(1) صموئيل كريمر، المرجع السابق، ص212 – 213.

(2) المرجع نفسه، ص204 – 205.

(3) السير ولس بدج، المرجع السابق، ص223.

(4) ول ديدرانت، قصة الحضارة، الهند، ص78.

أدعية وتعاويذ كثيرة من قبل الكهنة في كل من سوريا ووادي النيل من أجل استرضاء صاحب الزورق وكسب عطفه. أما المستوى الآخر فهو الفهم السرّاني لعملية الخلاص، وقد انحصر في مجموعات من الخاصة الذين فهموا هذا الخلاص فهماً روحياً معرفياً، وجعلوا الوصول إلى هذه المعرفة صعباً لا يتيسر إلى لقلة قليلة من البشر من ذوي الكفاءات الروحية النادرة، والذين يسلكون إليها سبيلاً حافلاً بالاختبارات، وبقيت عملية «المعرفة» في حد ذاتها سرّية لا يُباح بها، ومن هنا جاءت تسميتها العربية القديمة «مستوري»، وهي جمع «مستور» أي السرّ. وانتقلت إلى اليونان وايطاليا تحت الاسم نفسه Mysterie أي المساتير أو الأسرار، وهي ما دعي بـ «ديانة الأسرار».

لقد لازمت هذه الديانة الربة السورية عشتار منذ البداية، لكنها بقيت منحصرة في فئة معينة من «النخبة» الجديرة بالوصول إلى المعرفة. ومن سوريا انتقلت إلى اليونان وايطاليا وبقية أرجاء العالم القديم. يقول بول شميث حول نشأة وأصول هذه العقيدة: «إن ما نعرفه عن ديانات الأسرار قليل جداً مقارنة بأهمية تلك الديانات في الحياة الروحية للحضارات الكبرى وانتشارها الواسع. وذلك يعود إلى الطبيعة السرية لتلك الديانات، وللتكتم الشديد الذي فرضته على نفسها. فهي، رغم كونها قد نشأت أصلاً في منطقة شرق المتوسط ومنها انتشرت إلى العالم اليوناني ـ الروماني، فإن جلّ معلوماتنا عنها مستقى من أشكالها الغربية...»[1]. ولقد دعيت في اليونان وايطاليا بأسرار إيلاسيس[*] (أي أسرار الربة). وإن هذه الأسرار «الايلاثية» في الغرب «تقدم لنا نموذجاً عن الأسرار العشتارية القديمة الصافية. وقد انحدرت الأسرار الديمترية (من «دي ميثرا» في العربية القديمة أي الربة المكثرة، ربة الكثرة والوفرة) من فترات موغلة في القدم سابقة على الحضارة الاغريقية... ففي نص يعود إلى مطلع القرن الرابع قبل الميلاد نقرأ: لقد وهبت الربة دي ميترا للبشرية شيئين عندما

---

(1) Paul Schmitt, Ancient Mysteries and Their Transformation, P.95

(*) كلمة «إيلاسيس» هي في الأصل «إيلاثا» أو «إيلاثي» في العربية الفينيقية وتعني الربة. وقد بيّنا كيف ان تاء التأنيث كانت تلفظ «ثاء» في السريانية والفينيقية، ثم تلفظ الثاء سيناً في العامية الدارجة كما هي الحال حتى اليوم مثل «ثعلب» و«سعلب»..

حلّت في إيـلاسيس (أي تجسّدهـا)، الأول نتـاج الحقل الذي انتقل بـالإنســان من مرتبة الحيوان، والثاني طقوس الأسرار التي جعلتنا ننظر بأمل إلى نهاية الحيـاة. إن معجزة نمو النبات من باطن الأرض وتناوب الدورة الزراعية بين الموت والحياة ليس إلا نموذجاً للمعجزة المقبلة، معجزة بعث الحياة بعد الموت ورفعها إلى العالم النوراني»[1].

«إن تمثيل الدراما الإلهية في طقوس الأسرار او تلاوتها من قبل المنشدين إنما يتخذ في هذه الطقوس دوراً مركزيـاً اسـاسيـاً في التحضير لتلقي الحقائق الكامنة وراء كل عمل من أعمال الربة الممثلة في الدراما، وإن ما تحاول الأسرار أن تنقلـه للمريد المشـارك هو أن الأسطورة، رغم شكلهـا الخـارجي كتتـابع لأحداث إلهية تروى في صيغة الماضي، فإنها حقيقة أزلية، وحاضر مستمر حي، لا يتحول أبداً إلى مـاضٍ ميت، وإن أحداثهـا تلك ليست إلا تعبيراً عن حقائق جوهرية من حقائق النفس والروح والوجود الكلي... فكما عاش ديونيسيوس ثلاث مرات في ثلاث مراحل، كذلك هي روح الإنسان التي تعيش هي أيضـاً ثلاث مرات متقمصة أجساداً منها البشري ومنها الحيواني. إنها تتقمص من أجل أن تتحرر من كثافة المادة وتترك الجسد راجعة إلى مصدرها في العالم العلوي بمعونة ديونيسيوس المخلص»[2].

إن «العبور» في ديانة الأسرار يعني العبور إلى المعرفة بالرب الخالق، ويمرّ خلاله المريد بمراحل بقي بعضها سراً حتى اليوم، وهي مـا دعي بـ «العقبات».

«وإن لكل مرحلة طقوسها الخاصة التي تؤمن عبوره إلى المرحلة التي تليها، وتعطيه معرفة جديدة، وتفتح قلبه وروحه على عوالم نورانية جديدة، والمعرفة هنـا ليست ذلك النـوع من المعـارف العقلية التي تقدمهـا المدارس الفلسفية لتلاميذها، بل هي معرفة نابعة من الداخل، وخبرة روحية ليس لها معادل من كلمات مرصوفة.. إن الأسرار ليست تعاليم دينية وعبادات، وطقوسها ليست غايات بل وسائل»[3].

---

(1) Walter Willi, the Meaning of Eleusinian Mysteric, P.14 – 15

(2) Walter Willi, The Orphic Mysteries, P.67

(3) Walter, The Meaning of Eleusinian Mysteries, P.14

هذا ما يقوله بعض الباحثين الغربيين عن فكرة التقمص وتناسخ الأرواح التي ظهرت في التراث العربي القديم، ثم انتشرت في كل الاتجاهات، واتخذت أشكالاً ومضامين تختلف بهذا القدر أو ذاك في الزمان والمكان، مما جعلها تشكل أحد المواضيع التراثية التي لا يمكن للباحث اغفالها، خاصة وأنها ارتبطت منذ البداية بموضوع تراثي مركزي هو موضوع الثواب والعقاب بعد الموت.

ولما كان موضوع الثواب والعقاب هو أحد المواضيع المركزية في القرآن الكريم أيضاً فقد اختلفت الآراء حول كيفية الثواب والعقاب معاً، كان من بينها من رأى أن العقاب هو في «المسخ» و«النسخ» في الخلق في الحياة الدنيا.

ولما كان القائلون بهذا يعتمدون على كثير من الآيات في القرآن الكريم فقد رأينا أن نستعرض وجهة النظر هذه أيضاً، كونها أحد مواضيع التراث المتصلة. ويمكن أن نلخّص ذلك في النقاط التالية:

آ. من الجانب المنطقي يقولون:

إن الله عادل ورحيم، وهو ربنا وخالقنا واللطيف بنا. وليس من معلول دونما علة. فكيف نُعلّل ولادة أختين شقيقتين، إحداهما ولدت، وولدت معها سعادتها في هذه الحياة الدنيا، اكان ذلك بما حباها الله، من رجاحة العقل، أو الذكاء، أو الجمال... بينما ولدت الأخرى ومعها تعاستها، علماً أن أياً منهما لم تفعل شيئاً بعد في هذه الحياة؟ فإما أن يكون الخلق من شأن الطبيعة وصدفها الغاشمة، وهذا مالا يقره أحد مؤمن بالله، وإما هو من شأن الله الخالق وحده. والخالق لا يكون إلا عادلاً. وبالتالي فإن حياة كل من الطفلتين ليست إلا قصاصاً من ذنوب ارتكبت في حياة سابقة.

اما أن يقال: لقد خلق الله الطفلتين تعيسة وسعيدة منذ الولادة ليختبرهما، فهذا قول مردود أيضاً على قاعدة العدل الإلهي نفسها. لأن العدل في الاختبار يتطلب العدل في الفرص المتكافئة. إن هذا هو ما يحاول أن يقوم به الإنسان نفسه، إذ أن العدل يفرض عليه حين إجراء اختبار لشخصين أو أكثر أن يوفر الشروط والفرص المتكافئة. فكيف بنا ونحن أمام فكرة العدل الإلهي الذي يسقط من الحساب أية فكرة للمقارنة بينه وبين عدل البشر.

ب. من الجانب القرآني:

● يحدثنا القرآن الكريم كيف ان إبليس حينما رفض الانصياع لأمر الرب بالخضوع لآدم، لعنه الرب ﴿ قال فاخرج منها إنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾ (الحجر: 34 – 35).

وكلمة «رجيم» هي في القاموس الملعون المطرود، ورجمَ لعنَ وطرد. وكلمة «اللعنة» هي من لعنَ أي طرد، حرم من النعمة، اخزى. فاللعنة هي الطرد من رحمة الرب. وإذا ما علمنا أن إبليس كان من الملائكة ويتمتع بكل ما يتمتع به واحد من الملائكة فإننا نرى انه منذ أن حلّت عليه لعنة الرب «مُسخ» إلى «شيطان» ليمثل الشر في الحياة الدنيا، ولم يستخدم القرآن الكريم كلمة «إبليس» إلا عندما كان واحداً من الملائكة، ثم ما أن حلّت عليه اللعنة، اي الطرد من رحمة الله، حتى صار يذكر باسم الشيطان فقط.

وصارت كل الممارسات الشريرة مقرونة بالشيطان. والآيات اكثر من أن تحصى.

اما آدم فقد أخرج من الجنة دون أن يلعنه الله. فهبط به إلى الحياة الدنيا مفسحاً امامه مجالاً للتوبة هو وذريته، مذكراً إياهم بين فترة وأخرى عن طريق الأنبياء والرسل، ليرجع من يرجع، وليحق على الآخرين العذاب ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم. قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينكم منّي هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (البقرة 37 – 38).

● أما أن تكون «اللعنة» تعني «المسخ» فقد أكد ذلك القرآن الكريم في حديثه عن بعض اليهود وقد ذكرها مرّة بالمباشرة، واخرى بالتهديد، وثالثة كنّى عنها بـ «طمس الوجوه». لنقرأ:

﴿ ياأيها الذين اوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردّها على أدبارها، أو نلعنهم كما نلعن أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا ﴾ (النساء: 47).

إن الله هنا يهدّدهم باللعن الذي لعن به أصحاب السبت، وبطمس الوجوه وردّها إلى الأدبار، فكيف كانت حقيقة لعنته لأصحاب السبت؟

﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ (البقرة: 65).
إن التهديد باللعن من قبل الله سبحانه هو، إذاً، ودونما شك، تهديد بالمسخ، وإن من تصيبه لعنة الله يهبط إلى المسوخية ﴿ قل هل انبئكم بشرٍ من ذلك مثوبةً عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت اولئك شر مكاناً واضلّ عن سواء السبيل ﴾ (المائدة: 60).
والله سبحانه يستخدم «المسخ» كتهديد في عدة مواضع ﴿ اليوم نختم على افواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون. ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنّى يبصرون. ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون. ومن نعمّره ننكّسه في الخلق أفلا يعقلون ﴾ (يس: 65 – 68).
وقد قال سبحانه ﴿ لمسخناهم على مكانتهم ﴾ ولم يقل «في مكانهم» والمقصود بالمكانة المرتبة والمنزلة من المسوخية التي يستحقونها.
إن التهديد بالمسخ واضح، وهو الخلود في العذاب إلى يوم الدين. إذ لا أمل فيه بالرجوع منه ﴿ فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون ﴾. واما قوله: ﴿ ومن نعمرّه ننكسه في الخلق ﴾ فليس المقصود فيه إطالة العمر في الحياة الواحدة. لأن المخاطبين ليسوا شباباً فقط، بل هم الأشرار عامة ومنهم الشاب ومنهم من هو شيخ على حافة القبر. بل المقصود هنا من نمدّ له في الفرصة، ومن نتيُح له المجال في الحياة كبشر مرة أخرى، أي في «القميص» البشري، «ننكسه في الخلق»، أي نردّه على أعقابه مرة اخرى، وهذه بعض رحمته التي يخصّ بها بعضاً من عباده. إن هذا عينه هو ما المح به إلى الرسول الكريم حينما خاطبه ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا. إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ﴾ (الاسراء 74 – 75).
أما «الفائزون» في امتحانهم في هذه الحياة الدنيا التي هي دار البلية أو التجربة أو الامتحان أو البرزخ، فإنهم ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ (الدخان: 56).
واما «الخاسرون» فهم الذين يهبطون إلى العذاب في المسوخية دونما رجعة،

لأنهم استنفدوا الفرصة وحقّ عليهم العذاب إلى يوم القيامة ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال ربّ ارجعون، لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت. كلا، إنها كلمة هو قائلها، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾[1].

وواضح هنا كيف أن «الخاسر» يطلب إرجاعه مرة أخرى إلى الحياة البشرية التي تركها لعلّه يعمل صالحاً فيما ترك، اي في الحياة البشرية، لكنها «برزخ» لا يعود إليه من تركه وهبط منه، إلى يوم البعث. والبرزخ هو الحاجز بين الشيئين، فإما إلى النعيم الخالد وإما إلى العذاب الخالد.

ومن «يعمّر» في الحياة البشرية تتاح له فرص أخرى كي يخلص إما إلى النعيم الخالد أو إلى العذاب الخالد. لنقرأ في سورة الواقعة ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون. ونحن اقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون. فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين. فأمّا إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم. وإمّا إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصليه جحيم. إن هذا لهو حق اليقين ﴾[2].

إن هذه الآية توضح لنا المصير الذي ينتظر الإنسان عند موته. فإن كان من المقربين إلى جنة النعيم، وإن كان من المكذبين الضالين فإلى الجحيم، وإن لم يكن قد أدين بأعماله وحق عليه القول، ولم يتحول إلى الشر الخالص وكان صادقاً في توبته قبل موته «ترجعونها» أي تحيون حياتكم البشرية كرّة أخرى.

وفي مكان آخر نقرأ: ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل.. أو لم نعمرّكم؟ ما يتذكر فيه من تذكر. وجاءكم النذير. فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾[3]، إن «التعمير» هنا مرة أخرى لا يعني طول العمر في الحياة الواحدة، إذ ليس بالضرورة أن يعيش الكفار طويلاً، و«التعمير» هنا جاء رداً على طلب العودة إلى الحياة وبتكرارها، فكأنما يقول لهم: لقد أحييناكم اكثر من مرة وبقيتم على ضلالكم فذوقوا..

ومن يهبط من البرزخ إلى عذاب المسوخية يكون قد خسر الحياة الدنيا. ونعيم

---

(1) سورة «المؤمنون»: 100.

(2) سورة «الواقعة»: 83 – 95.

(3) سورة «فاطر»: 37.

الاخرة، وذلك هو الخسران المبين ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأنّ به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾[1].

أما الذين تابوا وأصلحوا في حياتهم البرزخية واعترفوا بذنوبهم فيرجون الله أن يخرجهم منها إلى النعيم الخالد ﴿ قالوا ربّنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا، فهل إلى خروج من سبيل ﴾[2]. وأولئك الله يغفر لهم ويخرجهم.

وكما أن «التعمير» الذي لاحظناه في آية سابقة لا يعني إطالة العمر في الحياة الواحدة، فإن كلمتي «الموت» و«الحياة» في كثير من آيات القرآن الكريم لا يمكن فهمهما بمدلولهما القريب فقط، بل كثيراً ما يقصد بكلمة «الموت» الحرمان المطلق من الأمل برحمة الله، فأولئك هم الميتون، كما أن «الأحياء» هم المنعمون برحمة الله عند صلاحهم. لنقرأ هذه الآية ولنمعن الفكر قليلاً:

﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها. فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[3].

فلو نظرنا في القاموس لوجدنا: تُوفّي فلان على المجهول قُبضت روحه ومات، فالله المتوفّي والعبد المتوفَّى. وإن المنام هو النوم والغفلة. والنوَمة الكثير النوم والمغفّل والخامل، والنويم المغفّل والخامل. ولو أخذنا الآية بمعناها الصحيح لوجدنا أن الله يتوفى الأنفس أي يميتها موتاً حقيقياً، حين موتها أي موت الخير فيها وهي حية، والتي لم تمت في نومها وغفلتها (أي التي لم ينقطع منها الخير تماماً).

إذن هو توفى الاثنتين التي ماتت والتي لم تمت في المنام أو الغفلة. علماً أن النائمة أو الغافلة لا تسمّى ميتة والنوم لا يعني الموت بمعنى مفارقة الروح للجسد ونحن لا نقول عن النائم إنه متوفّى، وإذا ما توفّي النائم يكون قد مات

---

(1) سورة «الحج»: 11 .

(2) سورة «غافر»: 11 .

(3) سورة «الزمر»: 42 .

فعلاً، مثله مثل اليقظان إذا ما تُوفّي. فكلاهما يكون قد مات وانتهت فعلياً منه الحياة.

وعبارة «الله يتوفّى» تعني يميت ويقبض الروح وتنتهي الحياة عند صاحبها دون أي مجال للجدل. ومن هنا فقط كانت الوفاة شيئاً والموت شيئاً آخر في التراث اللغوي العربي. فإذا كانت الوفاة لا تحتمل إلا معنى واحداً هو الموت بمفهومه البسيط المناقض للحياة، فإن لكلمة «الموت» ثلاثة معان: الأول هو مفارقة الروح للجسد في الزمان وهو الموت الزماني، والثاني هو مفارقة النفس لصحة المعرفة وهو الموت الإلهي، والثالث هومفارقة النفس لشهوات الجسد وهو الموت الإرادي (محيط المحيط). وبهذا فإن كلمة «الوفاة» التي تعني شيئاً واحداً هو مفارقة الروح الجسد وفناء الجسد، ليست مرادفة لكلمة «موت» ولا يصحّ أن تحلّ محلّها إلا في هذا المعنى الواحد. ولقد كان القرآن الكريم معجزاً في دقته حينما استخدم كلمتي «الوفاة» و«الموت» مع الأنفس في آية واحدة بالمعنيين المختلفين، ثم حثنا على أن نمعن الفكر لنغوص خلف ما يلوح منها في الظاهر ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾.

وهكذا يصبح المعنى الحقيقي للآية: إن الله يقبض نفوس الناس جميعاً ﴿ يتوفاهم ﴾، فأما النفوس التي لم تنطفىء فيها جذوة الخير والصلاح تماماً في نومها (أي في غفلتها أثناء حياتها) ولم تخلُ نهائياً من معرفة بالله، وبقي أمل في أن تتنبه من الغفلة (النوم) فتتوب وتصلح، فهذه يرسلها من جديد، مفسحاً أمامها، ومتيحاً لها فرصة أخرى إلى أجل مسمّى، فتعود إلى البرزخ، الذي هو الحياة الدنيا. وأما تلك التي «ماتت» نهائياً وهي بعد حية، وانقطع منها كل خيط رجاء في أن تعود إلى التوبة والصلاح، فإنه «يمسكها» ولا يتيح لها فرصة أخرى، ثم تخلد في العذاب إلى يوم القيامة.

إن هؤلاء «الموتى وهم أحياء» لا أمل فيهم. لذلك كان خطابه لمحمد: ﴿ إنك لا تُسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولّوا مدبرين.. وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾[1]. إن

---

(1) سورة «النمل»: 80 - 82.

هذه الآية تضع النقاط على الحروف: فالموتى فيها هم الموتى وهم أحياء، ولا فائدة من دعوة الرسول لهم إلى الإيمان. إنهم كالصمّ الذين لا يسمعون ولا يعون شيئاً بل يولّون مدبرين. إنهم ليسوا أمواتاً في القبور، لأن الرسول لا يدعو الذين في القبور إلى الإيمان، بل هم الأموات بالمعنى الإلهي، إنهم، بغير معرفة الله، كالصمّ، كالدواب و﴿ إن شرّ الدواب عند الله الصم البكم العمي فهم لا يفقهون ﴾. وبغير هذا الفهم للآية لا يزول ذلك التناقض العقلي واللغوي الذي يحمله التفسير الظاهري السطحي لها. إن من كفر وولّى مدبراً كتب عليه الموت الإلهي وهو حي، فيحق عليه القول، والقول هو الكلمة، والكلمة هي «كن»، ومثلها ﴿ كونوا قردة أو خنازير ﴾، وهذا ما المحت إليه الآية في آخرها «وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون». فلماذا كان اختيار «دابة من الأرض» تحديداً لتكلمهم، بأمر الله، عن مصير الناس الذين «كانوا بآياتنا لا يوقنون» لو لم تكن دليلاً على مصير أمثال أولئك الناس؟ إن من كتب عليه الموت وهو حي حقّ عليه القول بكلمة «كن» ليكون خلقاً آخر، وما أن يحقّ عليه القول حتى يكتب مصيره، ويقترن حالاً، وهو ما يزال في هيئته البشرية، بصورته اللاحقة التي استحقها «على مكانته» ﴿ لقد حقّ القول على اكثرهم فهم لا يؤمنون. إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً، فهي إلى الأذقان، فهم مقمحون. وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾[1]. فـ «القمح» تقال للدواب عامة التي تقمح برأسها أي ترفعه من الأغلال في العنق كالنير او سواه ولا تستطيع الشرب. ومن يهبط إلى هذا الدرك يخلد فيه دون اي أمل بالرجعة إلى حياة البشر، ولا إلى الأمام حيث معرفة الله، لأن الله يحجب عنهم العقل والأذهان والبصائر إلى يوم القيامة، وهذا هو المقصود بكلمة «فأغشيناهم».

- لقد جعل لجهنم سبعة أبواب. يقولون:

هل يعقل أن نفهم من الأبواب ظاهرها وكأنما يدخل الداخل داراً بأبعادها المعروفة؟ إن المقصود بها هو أبواب العذاب، أي ألوانه، كل حسب مكانته،

---

(1) سورة «يس»: 7 – 9.

«على مكانته» التي يستحق. وهي في النسخ والمسخ. والنسخ هو أن تنتقل النفس الناطقة من بدن إنساني إلى بدن إنساني (محيط المحيط). وقد تعلو منزلة أو تهبط في المرتبة البشرية نفسها، وهي «العذاب الأدنى» الذي تبقى فيه الفرصة متاحة للتوبة وصلاح الأمر، والرجوع للالتحاق بمقام الأبرار:

﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلّهم يرجعون ﴾[1].

اما المسخ فهو الخلود في العذاب تحت الحياة البرزخية دونما رجعة حتى يوم القيامة، وهي أربع دركات تنحط انحداراً.

إن هذا هو ما قصده القرآن الكريم في الآية: ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾[2].

فالآية، كما هو واضح، لا تصف الحال التي يعيشها الطرفان في هذه الحياة في حالتهم الراهنة، وإنما تصف الحياة التي تنتظرهم: فالمؤمنون يدخلون الجنة ويتمتعون فيها، والكافرون يدخلون النار ويتمتعون فيها ويأكلون كما تأكل الأنعام. ﴿ فأماَ الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض.. وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾[3]. فالنار من اسماء الحياة الدنيا، وهي المهيمنة فيها وعليها وفي تركيب كل مخلوقاتها. أما الجنة فهي «الظل الظليل» حيث لا برد ولا حرّ، ولا نار.

أما كيف يكون الخلود في العذاب في الحياة البهائمية (في النار) فهذا ما توضحه آية أخرى: ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾[4].

ومن السذاجة أن نفهم هذه الآية بما قد يخطر للوهلة الأولى من ظاهر المعنى. فالجلد لغة هو المَسْك الذي يمسك الجسد بلحمه وعظمه وأحشائه، ويتخذ شكله

---

(1) سورة «السجدة»: 21 .

(2) سورة «محمد»: 12 .

(3) سورة «هود»: 106 – 108 .

(4) سورة «النساء»: 56 .

وهيئته، و«نضج» الثمر او اللحم أدرك وطاب أكله.
إننا إذا ما أخذنا هذه الآية بمعناها الظاهر وجدنا اننا أمام الصورة التالية: الله سبحانه يشوي الكافرين بالنار، وكأنما بسفافيد، حتى إذا نضجت جلودهم بدلهم جلوداً غيرها وتابع عملية الشيّ!
إن مثل هذا الفهم يسيء إلى آيات القرآن لغة ومعنى، اولاً، ويسيء إلى عقولنا، ثانياً، بما تحدثه من تناقض عقلي واضح: فالبدن الذي يشوى في النار لا «ينضج» فيه الجلد فقط، بل الجلد وما تحته من لحم وغيره، ولو كان القصد هنا هو «شيّ» الكفار بالنار مع الاحتفاظ بالاحساس بالألم، اي أن يبقى الكافر على قيد الحياة، لما «عجز» البيان الإلهي عن التعبير بصورة اخرى وبكلمات أخرى. إن العكس هو الصحيح تماماً. فقد جاء اختيار كلمة «الجلود» احد إعجازات القرآن في آياته المتشابهات: إذ يترك دائماً تناقضاً عقلياً في المعنى الظاهر ليحث ذوي الأفهام النيّرة (الراسخين في العلم) على تجاوزه إلى ما هو اعمق وابعد غوراً. فالجلد هو المَسْك أي القميص أو القناع الذي يلبسه الجسد فيتخذ المَسْك(*) شكله. إنه الهيئة. وكلما «نضجت» تلك النفوس، اي أدركت حدّها في هذا الجلد، أو القميص، او الصورة، بدّلها قمصاناً أخرى في المسخ الذي تخلد في عذابه إلى يوم القيامة. وهذا هو «العذاب الأكبر» الذي لا مجال فيه للعودة، بعد «العذاب الأدنى» في الحياة البشرية الذي أتيحت فيه الفرص «لعلهم يرجعون».
إن «العذاب الأدنى» دائماً «إلى اجل معدود»، وهو البرزخ. اما «العذاب الأكبر» فهو المسخ الذي لُعن فيه مستحقوه من الله والملائكة والناس اجمعين. لنقرأ:
﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار اولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾(1).
إن في هذه الآية ثلاثة اشياء في غاية الأهمية: الأول التأكيد على صنف من

(*) من كلمة «المسك» العربية القديمة والحديثة جاءت كلمة mask في اللغات الأوروبية التي تعني الجلد او القناع. وهي بالعربية القديمة (السريانية والفينيقية) ماسكا. ومنها ذهبت إلى بلاد اليونان ثم إلى اللغات الأوروبية الأخرى: فصارت بالإنكليزية mask= قناع، وبالروسية maska = قناع.

(1) سورة «البقرة»: 161 - 162.

الكفار، هم الذين كفروا وماتوا وهم كفار، أي ليس في نفوسهم بصيص أمل بالتوبة؛ الثاني «أولئك عليهم لعنة الله والملائكة، والناس أجمعين، خالدين فيها»، اي أولئك يحق عليهم القول باللعن الذي كنا قد شرحنا معناه والقصد منه في القرآن الكريم بأنه المسخ وأيدناه بالشواهد. وفي هذه اللعنة سوف يخلدون؛ الثالث أنه أكد أن «اللعن» بالنسبة لذلك الصنف من الكفّار، والذي يعني لغة الطرد والحرمان من رحمة الله، هو من الناس أجمعين أيضاً، وليس من الله والملائكة والمؤمنين من الناس. ولا يظنن أحد أن كلمة ما في القرآن الكريم تأتي عبثاً دونما قصد. إن اللعن من الناس أجمعين هو الطرد أو الحرمان من حياة البشر ككل، مؤمنين وكافرين، من «القميص» البشري كله.

بعد هذا كله قد يقول قائل: لكننا كثيراً ما نرى الأشرار في هذه الحياة هم المنعمين، والأخيار هم الذين يتعرضون للمعاناة أكثر من سواهم في المال والأولاد. فإذا كانت الحياة الدنيا أحد أبواب العذاب، فكيف يستقيم هذا مع عطاء الكافرين في هذه الحياة البرزخية؟ لقد أجاب القرآن الكريم عن هذا، وأخبرنا في عدة مواضع وفي آيات كثيرة أن من المنعمين في هذه الحياة أخياراً وأشراراً، لكن لكل حسابه. لنقرأ: ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً. كلاً نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ﴾[1]. لكن الأخيار، وهم القلّة، يجزون عن سيئاتهم في هذه الدار إلى أن يخلصوا إلى الخير المطلق، فيستحقوا الخروج منها إلى دار البقاء ورفقة الأبرار، أما من نسي ربه، وجعل متاع الدنيا غاية له فيوفيه عن كل أعماله الصالحات في حياته الدنيا ذاتها، فيصير شراً مطلقاً، بعد أن خلص من كل صالحاته، فيحق عليه القول بالهبوط من البرزخ إلى العذاب الخالد، العذاب الأكبر: ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ لهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النار، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾[2].

---

(1) سورة«الاسراء»: 18 – 20.

(2) سورة «هود»: 15 – 16 .

ولما كانت هذه الحياة الدنيا مجالاً لأن يحاسب فيه الناس الصالحون التائبون عن سيئات اقترفوها ليخلصوا إلى رحمة الله الخالدة، ويجزى فيها الكافرون عن حسنات عملوها فيخلصوا إلى العذاب الخالد، فقد نبهّ القرآن الكريم الإنسان إلى وجوب إنعام النظر في كل ما يصيبه في هذه الحياة الدنيا من خير أو شر، والاّ يأسى على ما فات، ولا يفرح بما هو آت، لأن ذلك كله حساب مكتوب عليه لابدّ أن يوفيه: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن يبرأها، إن ذلك على الله يسير. لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم﴾[1]. ومن يذهب في تفسير هذه الآية إلى غير المقصود منها يكون قد انتهى إلى الجبرية التي تلغي الغاية من خلق الإنسان، وتجعل كل عمله باطلاً، إذ تسند كل ما يعمله من خير أو شر في النتيجة إلى الله. وكل شيء مقدّر ومكتوب سلفاً، ولا خيار فيه، كما لا مفرّ منه.

إن الآية تؤكد على أن الإنسان مخيّر في سلوك أحد النجدين: الخير أو الشر، وكل ما يعمله يحسب عليه (في كتاب) ويسأل عنه، ولابدّ أن يوفي هذا الحساب من خير أو شر. وبالتالي فالآية الكريمة تنبّه إلى أنه مادام الأمر هكذا فالعبرة لا تكون بـ «الأسى على ما فات» وبـ «الفرح بما هو آت» لأن هذا حساب على عمل مسجّل في الكتاب قبل حدوثه، أي قبل الحساب، بل العبرة كل العبرة في محاسبة النفس والتوجه في طريق التوبة والصلاح قبل فوات الأوان. وبغير هذا الفهم للآية سوف ننتهي إلى الجبرية ـ كما أشرنا ـ وعبثية الحياة والعمل.

وثمة سؤال آخر: كيف، إذن، نفسر ـ ومن خلال القرآن ـ ظاهرة تكاثر الناس على الأرض وتكاثر الشرفي آن معاً، ما دام الأشرار يهبطون إلى المسوخية من حياة البشر؟

إن الجواب عادة يكون ضمن المحاور التالية:

1. لما خلق الله السموات والأرض وما فيهن وما بينهن و«قدّر اقواتها» كان كل شيء، وما سوف يكون في كتاب، أي في علمه. «وسع علمه كل شيء» «ولا يحيطون بشيء من علمه. ﴿ولا يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في

---

(1) سورة «الحديد»: 22 - 23.

السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾[1].

2 . لما حكم على آدم وإبليس بالخروج من الجنة إلى الحياة الدنيا وتكاثر الذرية على الأرض دخل هذا التكاثر ضمن إطار التكاثر المقدر والميزان الموضوع لتقدير الأقوات «إلى أجل معدود» بصرف النظر عن نسبة الخير والشر بين البشر، الذين هداهم «النجدين» وترك لهم الخيار بينهما ﴿ والله لا يغير ما بقوم حتى يغيرّوا ما بأنفسهم ﴾.

3 . إن تكاثر البشر هو ضمن إطار قانون تكاثر الأحياء على الأرض، وضمن علم الله، وفي إطار تقديره ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ وهم، في هذا الإطار، وفي واقع تكاثرهم، جميعاً يخوضون دار التجربة حيث توعد إبليس ذرية آدم بقوله: ﴿ ربّ بما اغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلَصين. قال هذا صراط علي مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين. وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾[2].

4 . إن تكاثر الذرية أمر طبيعي وقانوني وضمن إطار تقدير الرب، يضاف إليهم كل من كتب له أن «يُعمّر» لهم في الخلق، فتتاح لهم فرص أخرى «إلى أجل معدود» في تقدير الرب.

وفي عملية الإغواء والتضليل التي لاحق بها الشيطان ذرية آدم يقلّ عدد «الخالصين» الذين نجحوا في التجربة ثم لن يعودوا: ﴿ ثلّة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾[3]. وإن هذا سوف يجعل عدد الأخيار في تناقص مستمر إلى يوم القيامة. أما الآخرون فيمدّ لهم في العمر في القمصان البشرية حتى يخلصوا إلى أحد الدارين. لنقرأ ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا، لا يستطيعون نصر أنفسهم، ولا هم منا يصحبون. بل منعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر. أفلا يرون أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها؟ أفهم الغالبون ﴾ (الأنبياء 42 – 43).

إن هذه الآية وحدها تفي بكل ما هو مطلوب للاجابة عن السؤال. ففيها: أولا،

---

(1) سورة «يونس»: 61 .

(2) سورة «الحجر»: 39 – 43 .

(3) سورة «الواقعة»: 13 – 14 .

تأكيد على أن من لا يخلص «لا يصحبه» الله من هذه الدنيا إلى دار الأبرار في الجنة: وثانياً أنه منعهم هم وآباءهم من هذه الصحبة حتى «طال عليهم العمر». وفي هذا تأكيد على أن «العمر» المقصود ليس عدد السنين في الحياة الواحدة، إذ لا يمكن أن يكون الكفار هم وحدهم، وآباؤهم، من طويلي العمر، وكثير منهم من يتوفى في مقتبل العمر؛ وثالثاً، إن الله سبحانه يجيب عن هذه الأسئلة بأسئلة أخرى: أفلا يرون أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها؟ ويستحيل علينا فهم الكلمات بظاهرها، إذ لا يعقل أن يكون المقصود بـ «أطراف» الأرض جوانبها، أو حواشيها، أو نهاياتها، أو قوائمها، وهي لن تنقص كما لو كانت قرصاً من الجبن! إن المعنى الآخر الأبعد غوراً لكلمة «أطراف» في القاموس هو: الأشراف، العلماء، العارفون بالله: ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾، فهم العارفون به، وهم بخلاصهم، تنقص الأرض منهم لتشملهم رحمته. إن من يفهم هذا القانون الإلهي سوف يتوصل إلى النتيجة بسهولة: وهي أن على من يحسب عدد الكفار والمؤمنين عليه أن يأخذ باعتباره عدد المؤمنين الذين خلصوا ثم لم يعودوا. فالمؤمنون المخلَصون ليسوا هنا بل في دار مقام الأبرار، ولهذا جاء السؤال الآخر بعد أن فصّل سبحانه حقيقة الأمر: أفهم الغالبون؟ ثم: ﴿ حتى إذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقلّ عدداً ﴾ (الجن: 24). وحسبنا هنا ما عرضناه من وجهة نظر بعض المسلمين أتباع فقه الإمام جعفر الصادق حول الظاهر والباطن في التعرف إلى حقيقة بعض المفاهيم القرآنية، ولننتقل الآن إلى مفهوم الظاهر والباطن عند المفكرين العرب المسلمين، ولنتوقف عند واحد من أهمهم، أبي حامد الغزالي.

مما لا يُماري فيه هو أن لكل الموجودات شكلاً ومضموناً، ظاهراً وباطناً، مبنى ومعنى. وإذا كان الخلق بالكلمة، فالكلمة الربانية تساوي خلقاً، وبالتالي فإن «الكلمة» تتضمن المعنى والمبنى معاً. وإذا كانت الكلمات البشرية، أو الأسماء، ليست هي الخلق، بل هي تمثيل لما هو موجود، لما قد تمّ خلقه، في حدّ قدرة البشر على إدراكه، فإنها، أي الكلمات البشرية، تبقى نوعاً من التمثيل، ولو في حالها المقزم والعاجز، لـ «كلمات» الخالق، ويفترض أن تحوي المبنى والمعنى معاً. فحينما نقول «تفاحة» يفترض أن تحمل هذه الكلمة إلى إدراكنا شكل

التفاحة، ولونها وطعمها، ورائحتها، ونكهتها التي تتميز بها حتماً عن البرتقالة. لكننا في واقع الأمر، حينما نرى التفاحة لا نرى منها غير شكلها الظاهر، وهذا الظاهر وحده لا يكفي من اجل التعرف إلى ما هو أعمق من الظاهر. ولما كانت «الكلمة» هي في أصل نشأتها تمثيلاً للخلق، فإنها تمثله حتماً في ظاهره وباطنه. ولما كانت حواس الإنسان لا تتيح له معرفة المعنى أو الباطن، ولا تتيح له حتى معرفة الظاهر إلا في حد قدرتها، أو بالأحرى، في حد عجزها، فقد زُوّد الإنسان، بخلاف كل المخلوقات الأرضية الأخرى، بعين اخرى هي عين العقل، من أجل أن يُعملها في الولوج من باب الظاهر إلى ما هو اعمق منه ليكون جديراً بتسميته «خليفة الله على الأرض». إن هذا عينه هو ما توصل إليه علماء المسلمين قاطبة حينما أعملوا العقل من أجل المعرفة الخالصة بعيداً عن أهواء السياسة(*)، فدعوا عالم الظاهر عالم الشهادة،

(*) تجدر الإشارة هنا إلى ان بعض المفكرين العرب المسلمين ــ ومنهم ابو حامد الغزالي ــ تحدثوا وكتبوا وفسروا بناء على «الظاهر والباطن»، ثم ــ وتحت ضغط السياسة ــ نقضوا ما دعوه بالتفسير الباطني للقرآن الذي اعتمد اساساً على قول الرسول.

إن ابا حامد الغزالي ــ على سبيل المثال ــ بعد ان الف رسالته «مشكاة الأنوار» التي اعتمد فيها التفسير الباطني لبعض آيات القرآن الكريم تلقى امراً من الخليفة المستظهر بالله من أجل وضع رسالة ضد «الباطنية»، لأسباب سياسية بحتة. فامتثل لأمر الخليفة قائلاً في مقدمة رسالته «فضائح الباطنية»: «أما بعد، فإني لم ازل مدة المقام بمدينة السلام متشوفاً إلى ان اخدم المواقف المقدسة النبوية الأمامية المستظهرية، ضاعف الله جلالها، ومدّ على طبقات الخلق ظلالها، في علم الدين اقضي به شكر النعمة واقيم به رسم الخدمة، واجتني بما اتعاطاه من الكلفة ثمار القبول والزلفة. لكني جنحت إلى التواني لتحيري في تعيين العلم الذي اقصده.. حتى خرجت الأوامر الشريفة المقدسة النبوية المستظهرية بالإشارة إلى الخادم في تصنيف كتاب في الرد على الباطنية.. وكيف لا أسارع إليه؟ وإن لاحظت جانب الآمر الفيته امراً مبلغه زعيم الأمة وشرف الدين، ومنشأه، ملاذ الأمم، أمير المؤمنين، وموجب طاعته خالق الخلق رب العالمين إذ قال الله تعالى: ﴿ اطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الأمر منكم ﴾.. وإن رجعت إلى نفسي، وقد شرفت بالخطاب به من بين سائر العالمين، رايت المسارعة إلى الإذعان والامتثال في حقي من فروض الأعيان..

تظاهرت عليّ اسباب الإيجاب والإلزام، واستقبلت الآتي بالاعتناق والالتزام، وبادرت إلى الامتثال والارتسام وانتدبت لتصنيف هذا الكتاب». انظر:

[أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية، (يضم رسالتي «فضائح الباطنية» و«مشكاة الأنوار»، حققه وقدم له الدكتور عبد الرحمن بدوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1964 ، ص2 – 5).

وعالم الباطن عالم العقل أو عالم الروح.

يقول أبو حامد الغزالي في رسالته «مشكاة الأنوار»:

«اعلم أن نور بصر العين موسوم بأنواع النقصان: فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه، ولا يبصر ما بعد منه، ولا يبصر ما هو وراء حجاب. ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها، ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها، ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر مالا نهاية له، ويغلط كثيراً في إبصاره: فيرى الكبير صغيراً والبعيد قريباً، والساكن متحركاً والمتحرك ساكناً.. واعلم أن في قلب الإنسان عيناً هذه صفة كمالها، وهي التي يعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة بالنفس الإنساني. ودع عنك هذه العبارات فإنها، إذا كثرت، أوهمت عند ضعيف البصيرة كثرة المعاني. فنعني به المعنى الذي يتميز به العاقل عن الطفل الرضيع وعن البهيمة وعن المجنون، ولنسمّه «عقلاً» متابعة للجمهور في الاصطلاح..

«إن العين تدرك من الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها، بل قوالبها وصورها دون حقائقها والعقل يتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها ويدرك حقائقها وأرواحها، ويستنبط سببها وعلّتها وغايتها وحكمتها.. فالعقل ينبهه كلام الحكمة. فعند إشراق كلام الحكمة يصير العقل مبصراً بالفعل بعد أن كان مبصراً بالقوة. وأعظم الحكمة كلام الله تعالى، ومن جملة كلامه القرآن خاصة...

«فقد فهمت من هذا أن العين عينان: ظاهرة وباطنة. فالظاهرة من عالم الحس والشهادة، والباطنة من عالم آخر وهو عالم الملكوت.. وإن من لم يسافر إلى هذا العالم، وقعد به القصور في حضيض عالم الشهادة فهو بهيمة بعد، محروم من خاصية الإنسانية، بل أضلّ من البهيمة، إذ لم تسعد البهيمة بأجنحة الطيران إلى هذا العالم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضلّ ﴾[1].

وبناء على هذا فقد دعا الغزالي، من أجل فهم القرآن، إلى الغوص إلى ما وراء الظاهر من خلال الظاهر نفسه، وعدم التوقف عنده، وأورد أمثلة مثل «الطور» و«الوادي الأيمن» و«خلع النعلين» و«اللوح المحفوظ» و«القلم» وغيرها.. فيقول:

---

(1) أبو حامد الغزالي، المرجع السابق، ص43 – 50 .

«كما أن في الموجودات العالية الروحانية ما مثاله الشمس والقمر والكواكب، فكذلك فيها ماله أمثلة أخرى إذا اعتبرت منه أوصاف أخر سوى النورانية. فإن كان في تلك الموجودات ماهو ثابت لا يتغير، وعظيم لا يستصغر، ومنه ينفجر إلى أودية القلوب البشرية مياه المعارف ونفائس المكاشفات فمثاله «الطُّور». وإن كان ثمّ موجودات تتلقى تلك النفائس بعضهم أولى من بعض فمثالها «الوادي». وإن كانت تلك النفائس بعد اتصالها بالقلوب البشرية تجري من قلب إلى قلب، فهذه القلوب أيضاً أودية. ومفتتح الوادي قلوب الأنبياء، ثم العلماء، ثم من بعدهم، فإن كانت هذه الأودية دون الأول وعنها تغترف، فبالحريّ، أن يكون الأول هو الوادي الأيمن لكثرة يمنه وعلو درجته. وإن كان الوادي الأدون يتلقى من آخر درجات الوادي الأيمن فمغترفه شاطىء الوادي الأيمن دون لجته ومبدئه»[1].

وهكذا نجد كيف أن الغزالي ينأى عن التفسير الظاهري للقرآن الكريم، وبهذا تكون وديان الجنة (الماء، والخمر، واللبن، والعسل) هي درجات في معرفة الله والقرب منه.

ويقول: «وإن كان أول منزل الأنبياء الترقي إلى العالم المقدس عن كدُورة الحس والخيال، فمثال ذلك المنزل الوادي المقدس. وإن كان لا يمكن وطء ذلك الوادي المقدس إلاّ بإطراح الكونين ـ أعني الدنيا والآخرة ـ والتوجه إلى الواحد الحق، ولأن الدنيا والآخرة متقابلتان متحاذيتان، وهما عارضان للجوهر النوراني البشري يمكن اطراحهما مرة والتلبس بهما أخرى، فمثال اطراحهما عند الإحرام للتوجه إلى كعبة القدس خلع النعلين. بل نترقى إلى حضرة الربوبية مرة أخرى ونقول:

إن كان في تلك الحضرة شيء بواسطته تنتقش العلوم المفصلة في الجواهر القابلة لها فمثاله «القلم». وإن كان في تلك الجواهر القابلة مابعضها سابق إلى التلقي، ومنها تنتقل إلى غيرها، فمثالها «اللوح المحفوظ» و«الرق المنشور». وإن كان فوق الناقش للعلوم شيء هو مسخر فمثاله «اليد»، وإن كان لهذه

---

(1) المرجع نفسه، ص69 ـ 70.

الحضرة المشتملة على اليد واللوح والقلم والكتاب ترتيب منظوم فمثاله «الصورة»، وإن كان يوجد للصورة الأنسية نوع ترتيب على هذه الشاكلة فهي على صورة الرحمن، وفرق بين أن يقال «على صورة الرحمن» وبين أن يقال «على صورة الله» لأن الرحمة الإلهية هي التي صورت الحضرة الإلهية بهذه الصورة.

«ثم انعم على آدم فأعطاه صورة مختصرة جامعة لجميع أصناف مافي العالم حتى كأنه كل ما في العالم، أو هو نسخة من العالم مختصرة. وصورة آدم – أعني هذه الصورة – مكتوبة بخط الله. فهو الخط الإلهي الذي ليس برقم حروف، إذ تنزه خطه عن أن يكون رقماً وحروفاً كما تنزه كلامه عن أن يكون صوتاً وحرفاً، وقلمه عن أن يكون خشباً وقصباً، ويده عن أن تكون لحماً وعظماً. ولولا هذه الرحمة لعجز الآدمي عن معرفة ربه: إذ لا يعرف ربه إلا من عرف نفسه. فلما كان هذا من آثار الرحمة صار على صورة الرحمن لا على صورة الله. فإن حضرة الإلهية غير حضرة الرحمة، وغير حضرة الملك، وغير حضرة الربوبية، ولذلك أمر بالعياذ بجميع هذه الحضرات فقال: ﴿ قل أعوذ برب الناس. ملك الناس. إله الناس ﴾، ولولا هذا المعنى لكان ينبغي أن يقول «على صورته»، واللفظ الوارد في الحديث الصحيح (على صورة الرحمن).

ولأن تمييز حضرة الملك عن الإلهية والربوبية يستدعي شرحاً طويلاً. فلنتجاوزه. ويكفيك من الأنموذج هذا القدر، فإن هذا بحر لا ساحل له. فإن وجدت في نفسك نفوراً عن هذه الأمثال فآنس قلبك بقوله تعالى: ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ وأنه كيف تفسيرها أن الماء هو المعرفة والقرآن، والأودية القلوب»[1].

إن ما يهمنا من كل هذا ليس مناقشة النظرات والعقائد الفلسفية العربية، بل الكشف عن الخط التواصلي في التراث العربي منذ الزمن الموغل في القدم وحتى اليوم. فكما كان قدامى العرب في سوريا ووادي النيل ينظرون إلى «الأرباب» الموكلين بتدبير الأمر على الأرض بإذن ربها الواحد الأحد لا كآلهة، وإنما

---

(1) المرجع نفسه، ص70 – 72 .

كقوى من خلقه هو، وتقدر على التدبير والتصرف والخلق بإذنه، ولها مراتب في نورانيتها متفاوتة جعلوا مثالها من عالم الشهادة الشمس والقمر والزهرة والكواكب، فإن هذا عينه ما نجده مستمراً ومتواصلاً عند المفكر الاسلامي الغزالي، يقول الغزالي: «إن كان في عالم الملكوت جواهر ونورانية شريفة عالية يعبّر عنها بالملائكة، منها تفيض الأنوار على الأرواح البشرية، ولأجلها قد تسمّى أرباباً، ويكون الله تعالى رب الأرباب لذلك، ويكون لها مراتب في نورانيتها متفاوتة، فبالحريّ أن يكون مثالها من عالم الشهادة الشمس والقمر والكواكب»[1].

وكما نظر قدامى العرب السوريين والمصريين إلى أنهار الماء والخمر واللبن والعسل في الجنة نظرة باطنية بالعقل والروح، وفهموا منها درجات المعرفة والقرب من الرب الخالق لا كما يدل عليه المعنى الظاهر للكلمات، هكذا فهمها المفكرون العرب المسلمون ضاربين صفحاً بكل التفاسير المتداولة.

* * *

من كل ما تقدم يمكننا القول: إن مفهوم الجنة والنار، هو من مواضيع العلم الرباني، وهو من «أحسن الحديث» الذي نزل وحياً، أي «كتاباً متشابهاً، مثاني»، وهو أحد المثاني السبع التي خصّ الله بها نبيه محمداً، وهو من «مثاني» الكتاب التي اوحيت إلى غيره من الأنبياء مجملة، فاختلف فيها، وفصّلت للناس في الوحي إلى محمد: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب، فاختلف فيه، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي فيه. ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك. إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم. وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ﴾[2].

وأن الجبل الأول، الجبل المركز، بأسمائه المختلفة، هو جبل المغارة، حيث حجر الـ «بن بن» أو «البنية» أو «الكعبة» أو «بكة» حيث يتنزل الملائكة بإذن ربهم،

---

(1) المرجع نفسه، ص67

(2) سورة «فصّلت» 3،42،41،43،45 .

ويعرجون منها إلى السماء، وحيث «المحلة الآمنة» التي يدبّرون منها أمر الأرض، وحيث خلق آدم، وحيث الجنة، وحيث دار الأرواح ولا سبيل إليها إلا بالروح، وهي الأرض المباركة، و«التي باركنا حولها» في التراث العربي كله، وفي الكتب السماوية، وحيث وضع بيت الله لأول مرة على الأرض، وحيث البيت المعمور، والسقف المرفوع.

وقد اشار إليها القرآن الكريم في أكثر من موضع لا يمكن أن يغفل عنها القارىء المتأمل الحصيف. ففي سورة «سبأ» نقرأ: ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير، سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين ﴾ (سبأ: 18). إن السبئيين المقصودين في القرآن الكريم هم قوم سبأ بن ددان بن يقطان بن ابراهيم من زوجته قطورا، وليسوا دولة سبأ اليمنية. فهؤلاء كانت مساكنهم فعلاً في عسير شرق بلاد غامد من جبال السراة في شبه جزيرة العرب، أي قرب الأرض المباركة والمقدسة حيث وادي طوى ما يزال على الخارطة حتى اليوم.. وقد أكد الدكتور جواد علي هذه الحقيقة في اكثر من موضع في كتابه «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»[1]. اما النقطة الأهم في هذه الآية فهي عبارة «القرى الظاهرة». إن مجرد ورود هذه العبارة ينبه العقل إلى وجود «قرى باطنة» «مخفية» «محجوبة» «غير ظاهرة»، وإلا لما كان للفظة «ظاهرة» هنا أية ضرورة. وهذا هو المحال مع لغة القرآن الكريم. وهذا ما اكده علم آل بيت محمد، إذ نجد أن المقصود بهذه الآية كان موضوع مساءلة عند أول لقاء تم بين الإمامين جعفر الصادق وأبي حنيفة[2].

ولقد لاحظنا كيف أن العرب الأقدمين كانوا يطلقون على تلك المحلة الآمنة التي هي مسكن أرواح الأبرار اسم «شموي» (أي السماء). والكلمة في القاموس السرياني تعني كل ما هو فوق ويظلّل، من السقف (سقف البيت) إلى السماء العليا. ولقد حافظت الكلمة على معانيها حتى اليوم. ففي «محيط المحيط» نجد أن من معاني السماء: الفلك الكلّي، وما يحيط بالأرض من الفضاء الواسع

---

(1) جواد علي، المرجع السابق، الجزء 1 ، ص454، 457، 460 .

(2) ابو منصور الطبرسي، الاحتجاج، طباعة بيروت، ص358 - 362 .

ويظهر فوقها وحولنا، وكل ما علاك فأظلّك، والسماء سقف كل شيء وكل بيت، ورواق البيت، وظهر الفرس، والسحاب، والمطر، ومسكن أرواح الأبرار في اصطلاح المولّدين.

ولقد كنّا بيّنا كيف أن العرب القدامى من سريان وفينيقيين دعوا نسبة إلى لهجتهم بـ «الأعاجم» ثم «المولّدين» فيما بعد، وخاصة في العصر العباسي.

ولقد لاحظنا أيضاً كيف أن قدامى العرب من سوريين ومصريين كانوا يصفون رب الجبل (و رئيس الملائكة فيما بعد) بـ «الرامي، الراشق» الذي يمنع كل من يحاول الاقتراب من عين الخلد، وهو «المخلّص شدا» عند عرب وادي النيل الذي «يحمل السماء» وتصوروه في هيئة «المحارب الجميل» وتمثلوه أميراً شاباً يقتل كل من يقترب[1]. ومثله صار «أبوللو» (وجه الرب) كما نقله السوريون إلى هناك ليسكن جبل «فرناس» (الفرن، التنور، البركان) الذي جعلوه تمثيلاً للجبل المركز، جبل السماء والأرض، ونعتوه دائماً بـ «رامي السهام الجميل».

ونحن لو أمعنّا الفكر قليلاً في بعض مصادر التراث لتأكدت لنا صحة وتواصل هذه الفكرة التراثية عن «السماء» المقصودة. فـ «المحلة الآمنة» هي التي تتنزل عليها الملائكة في الأرض ومنها تعرج. ومنها مصدر الوحي. وحولها «مدينتان» إحداهما تسكنها الجن، هي «جابلقا» والأخرى سكنها آدم ثم ذريته هي «جابرشا». وفي القواميس نجد أن «بلقا» و«بلوقا» مدينة مخفية قبل تسكنها الجن. وبرشا (أو برسا، أو برشا) معناها الآدمي، ابن آدم، ابن الناس، ابن البشر. و«جا» عربية قديمة تعني «أرض» «محلّة» «مكان» وهي تحوير «قاع» و«قيعة» التي صارت في اليونان «gea».

ونحن لو أمعنّا قليلاً في بعض آيات القرآن الكريم لوجدنا تأكيداً لهذه النظرة التراثية العربية القديمة. ففي سورة «الجن»، مثلاً، نجد أنهم في الأرض ﴿ وأنا ظننّا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا ﴾ (الجن: 12)، وفيها ﴿ استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا ﴾ (الجن: 1). وفيها قالوا عن أنفسهم ﴿ وأنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً أو شهبا. وأنا

---

(1) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص346.

كنـا نقعد منهـا مقـاعد للسمـع، فمن يستمـع الآن يجد لـه شهـابـاً رصدا ﴾ (الجن: 8 – 9).

إن هذا يؤكد أن عملية تنزل الرسل إلى «المحلة الآمنة» من أجل تبليغ رسالة عن طريق الوحي تكون مرافقة بعملية «تشديد الحراسة» على المكان، الذي هو «السماء» المقصودة هنا، ثم لا يعود الجن قادرين على أن يتخذوا مقاعد للسمع قريبة منها، إذ ينتظر كل من يحاول ذلك «شهاب». فما هي حقيقة هذا الشهاب؟ وهل هذه الشهب هي حقاً كما يظن المفسرون: الشهب الساقطة أو النيازك، أو الأجرام؟ وهل يعقل أن يقذف كل من «يسترق السمع» بنيزك، أو بجرم من الفضاء؟ ففي آية أخرى نقرأ ﴿ ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ (الملك: 5)، فهل يعقل أن يكون المقصود بهذه السماء الفلك المحيط بالأرض، وبالمصابيح الشمس والقمر والنجوم، وهل هي حقاً التي جعلت رجوماً للشياطين؟ إن كلمة «رجوم» هي من «رجَم» أي لعن وطرد وأبعد واخزى. لهذا فإن ما يحدثه المعنى الظاهر من تناقض عقلي يدفعنا إلى المعنى الأبعد غوراً. فالسماء الدنيا هي «متنزل» الملائكة على الأرض، والزينة هنا لا تعني التزويق والبهرجة فقط بل وتحديداً «التسليح» لأن الكلمة عربية قديمة تعني السلاح، والزيّن الحربة، وحرف الزين (صار الزاي) كان يرسم منذ البدء بشكل الحربة. ولنقرأ في سورة «الصافات» (وتعني الملائكة) ﴿ والصافات صفاً، فالزاجرات زجراً.. إنا زيّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب، وحفظاً من كل شيطان مارد. لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب، دحوراً لهم، ولهم عذاب واصب. إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ (1,2, 6 – 10) إن الصورة صارت هنا اكثر وضوحاً. فالآية تبيّن أن السماء الدنيا زيّنت بزينة الكواكب وليس بالكواكب نفسها. والكلمة هي من الفعل «كوكبَ» أي برق وتوقد، فالكوكب هو البرق وهو النجم، وهو أيضاً السيف، وهو الرجل بسلاحه (انظر «محيط المحيط»). و«زينة الكواكب» هي البرق والأشعة. والدليل ما اكدته الآية التالية ﴿ إلاّ من خطف الخطفة فأتبعه بشهاب ثاقب ﴾. فالشهاب الثاقب ليس هنا نجماً، وعقلياً لا يصحّ، وإنما هو بالفعل البرق، أو الشعاع الثاقب، كشعاع الليزر مثلاً، وبغير ذلك لا يستقيم المعنى ظاهراً وباطناً، وعقلاً. و«الثاقب» لا

تعني المضيء فقط، بل النافذ، الخارق، والنجم الكبير لا يخرق الجسم الصغير او ينفذ منه.

إن كل ما أوردناه من الشواهد يؤكد الحقيقة القرآنية حول الظاهر والباطن. إن الوقوف عند ظاهر المعنى فقط في كثير من آيات القرآن الكريم يحدث تناقضاً عقلياً لدى ذوي العقول العاملة والأفهام النيرة، مما يدفعهم إلى الولوج إلى ما هو أعمق من ظاهر المعنى. اما المعطلة عقولهم فيبقون عند حدود هذا الظاهر، أي عند حد عجزهم عن الذهاب إلى ما هو أبعد غوراً وأروع وأسمى. فيبقى ذلك التناقض العقلي «فتنة» لهم، وتربة خصبة لنمو بذور الشك والبعد عن اليقين فيما يخص حقائق علم القرآن والفتنة في القاموس تعني الاختبار.

وإن هذه الظاهرة نفسها ليست جديدة في التراث. إنها إحدى موضوعاته القديمة المتواصلة المتجددة.





الحلقة العاشرة

«المركز» وعقيدة الخصب السورية

إن دراسة واعية متمعنة للتراث العربي القديم تجعلنا نضع اليد على النقاط المفصلية التالية:

1 . تجمع مصادر التراث العربي القديم على وجود قوة خالقة هي التي خلقت هذا الكون ودبّرت أمره. وبقيت هذه القوة «محجوبة» خفية عصية على الادراك، إلا أنها إله واحد، أحد، قادر، هو الأول والآخر، أوحى لكل جرم أمره، أي قوة تدبر أمره بإذنه، هذه القوى المدبّرة أطلق عليها التراث القديم اسم «الأرباب» ثم «الملائكة».

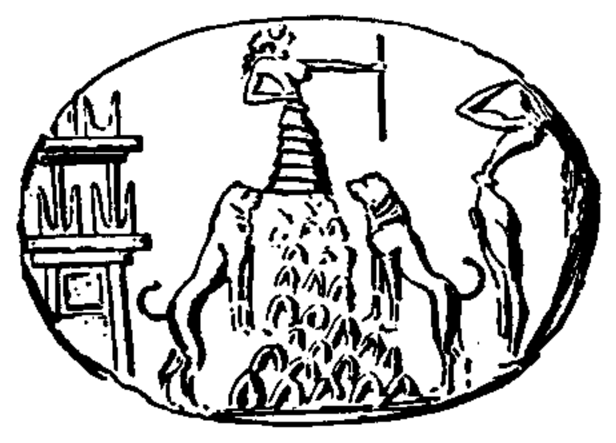
2 . بعد خلق السموات والأرض مرّت عملية خلق الحياة على الأرض بمرحلتين أساسيتين: الحياة غير الواعية، والحياة الواعية التي تمثلت بآدم الإنسان.

3 . أما الحياة غير الواعية فقد مرّت هي الأخرى بمرحلتين: خلق الكائنات الحية الأولى في الماء، وخلق النبات والحيوان على «الجبل الأول»، «جبل السماء والأرض».

4 . إن جميع مراحل الخلق هذه تمّت بتدخل مباشر من قبل «القوة المدبرة» في ثلاثة منعطفات حرجة، ولم تعتمد على «الصدفة» في إحداث أية قفزة نوعية كبرى، كخلق الحياة لأول مرة أو خلق الإنسان العاقل، في مسيرة عملية الخلق وتطورها على الأرض.

5 . إن هذه «القوة» الخالقة بأمر ربها هي التي تولّت تدبير أمر الخصب، وأمر الكائن الذي أوجدته لأول مرة في الماء، ثم على الجبل الأول، وغرّزت فيه خصبه وغرائزه ونظام عيشه وتكاثره، وبلغة عصرنا «برمجته». فدعيت في مرحلة الماء «الماء» أو «روح الماء» بكتاباتها المختلفة: نون، نن، نين، ني، نينا، نينتا، نوت، كما دعيت «الرحم» أو «الأم» بتسمياتها المختلفة: ما، مي، مامي، ماء، مايا، مَتْ (الرحم، الأم)، وجميعها تعني إما الماء أو الرحم، أو الأم. وقد رمز لعملية الخلق في الماء بسمكتين في إناء في التراث العربي القديم تأكيداً على البرنامج ذي النسختين المثال والمثيل، أو بوردتين في الماء متماثلتين ومتصلتين.

6 . أما في مرحلة خلق النبات والحيوان على الجبل، فقد دعيت «نين كورا أساق» أي ربة الجبل القاذف (البركاني)، أو عشتار الجبل، وقد صورت بهيئة سيدة



بارعة الجمال على قمة جبل مكلل بأشجار الصنوبر أو العرعر يحيط بها أسدان من الجانبين متوجهان بالنظر إلى خصبها (إلى ثدييها العاريين).

لقد كان مقر تلك القوة، التي هي «روح الخصب»، في الماء البدئي أولاً، ثم ما أن انبثق الجبل البركاني الأول من الماء «البدئي ليبرز وسطه مثل «قلب النافورة» حتى بزغت تلك «القوة» في الجبل لتدبير امر الخصب في الموقع الجديد. ولما كان العرب الأقدمون قد فهموا ذلك الجبل كشيء من مقذوفات الماء البدئي، وهو هكذا، حقيقة، إذ هو طين بركاني منصهر بالنار، فقد دعوه أيضاً بـ «رُغاء البحر» أو «زبد البحر» مستخدمين الكلمتين العربيتين القديمتين «تلمو» و«سفنو» أو «سفهو» وكلها في القاموس السرياني تعني زبد البحر. (ومن الكلمة اشتقت الكلمة الأخرى التي هي «سافون» وتعني الرغوة أو الصابون، ومعلوم أن الفاء كانت تلفظ P ثم تحولت إلى «باء» عادية في العربية الحديثة) وسنرى كيف التصقت هاتان الكلمتان بالأرض الجنة وبربة الخصب من سومر شرقاً إلى بلاد المورة غرباً فيما بعد. وحينما تجسدت قوة الخصب على الجبل، وازدهرت فيه حياة النبات والحيوان، فدعي في بلاد وادي النيل وسوريا بـ«التل المزدهر»، فقد دعيت روح الخصب في هذه المرحلة أيضاً بـ «ربة الزهر أو الإزهار» وبـ «وردة الخصب» و«عشتار الجبل». ومن هذه الأسماء:

● «ني روزا» أو «نيروز» ــ وتعني ربة الزهر أو الازهار. والاسم مؤلف من كلمتين «ني» وتعني سيدة، ربة، و«روزا» وتعني الوردة، وهي في القاموس السرياني من الفعل زْورَ = أزهر، أورد. ولما كان قدامى الفرس من العرب الساميين فلم يكن لديهم أية لغة أخرى غير العربية بلهجتها السريانية الشرقية، فقد استخدمها الفرس كما استخدمتها المنطقة كلها. ثم نسي الفرس حديثاً أصولهم الأثنية واللغوية، كما أهمل العرب لغتهم القديمة بلهجتيها السريانية الشرقية والفينيقية الغربية. وصار الدارسون يجتهدون اليوم لتفسير هذه التسمية بإرجاعها إلى اشتقاقات خاطئة كل إلى لغته، بعد أن صار الكل يدّعي هذا التراث العربي السوري المرتبط بعقيدة الخصب العشتارية، وبأعيادها الربيعية، ومنها عيد رأس السنة (وسوف نتحدث مفصلاً عن هذه الأمور في بحثنا حول «أعياد الخصب»).

● و«ني نورتا» ـ أي ربة الزهر أو الازهار أيضاً. إذ أن كلمة «نورثا» و«نورا» في القاموس السرياني تعني: النُّورة، الزهرة. وما تزال في العربية حتى اليوم إذ الفعل نوّرَ = أزهر، وشهر نوّار = شهر الزهر والازهار، والنورة الزهرة.

● و«ني لوفر» ـ أي ربة الوفرة والخصب. والكلمة من الفعل العربي القديم «فِر» و«يفر» ويعني: وفر، كثر، غزر، خصب. وهو الاسم الذي صار يطلق على وردة الماء (نيلوفر)، وتقنس كأحد رموز عشتار في سوريا ووادي النيل، ودعوه أحياناً بـ «زهرة اللوطس» أو «وردة الماء». واللوطس في القاموس السرياني تعني: الفتنة، الاغراء.

● و«نيفر» ـ أي ربة الخصب والوفرة، النافورة، وبهذا الاسم دعي مقرها في الأرض الجنة، في المغارة المقدسة حيث منابع الأنهار والوفرة والخصب، كما دعيت بـه تيمناً المدينة العبيدية في جنوب العراق. وبه ايضاً سميت الملكة العربية السورية في وادي النيل «نيفري تيتي» أي نافورة الخصب، ربة الوفرة والخصب، لأن «تيتي» و«يتيتي» في القاموس السرياني تعني الخصب، وكذلك «تي» تعني الخصب وتعني الرحم ورمزها الصليب، ولهذا صوّر حرف التاء منذ البداية هكذا † (وليست تعني الضلع كما فسّرها كتّاب اسفار التوراة). وقد صورت على شكل سرّة» بارزة وسط الماء تعبيراً عن المركز، السرّة، الرحم الأول ودعيت «نيفوري» التي صارت في استعمالنا اليوم «نافورة»، وصار الحوض والنافورة من العناصر الأساسية في البيت العربي منذ القدم وحتى اليوم. فكما أن المغارة هي بيت الرب أو الربة، فإن البيت هو بيت رب البيت أو ربته، والحوض والنافورة فيه تمثيل لـ «نيفوري» التي هي سرّة الربة، مركزها ويحيط بها المحيط المرّ (المالح). وصار الحوض والنافورة يمثل مركز أو قلب البيت العربي والمدينة العربية حتى اليوم.

● و«روداثِدا» ـ أي وردة الخصب، أو وردة الربيع، إن «رودا» في القاموس السرياني تعني الوردة وبها دعيت جزيرة «رودس»، و«ثدا» تعني: الثدي، الربيع، الخصب. وقد جرى إبدال بين الثاء والذال والدال، وصارت «ديدا» و«ديدو» و«ديدون» وهو اسم الأميرة السورية التي بنت قرطاجة الجديدة في الشمال الافريقي ولُقّبت بـ: «حليصا» (اليسا) وتعني: الشجاعة، المقدامة،

القائدة، المدبرة، المنقذة...

وقد انتقل الاسم إلى عرب وادي النيل لتسمّى به كاهنات الخصب، أو كاهنات إيزيس: «لقد تزوج الملك خوفو كاهنة اسمها «رود ددت» وجعلها تحمل منه، وتلد بمساعدة الإلهات ثلاثة أطفال كانوا بمثابة جيل جديد،... وأعطتهم إيزيس أسماءهم»[1].

- «جوليا ميزا» ــ أي المتجلية ذات الضفيرة، ربة الضفيرة. فلما كان العرب السوريون قد اعتقدوا أن «روح الخصب» قد انتقلت من الماء البدئي إلى الجبل الأول، فقد صوّروها في هيئة امرأة بارعة الجمال تطلع من الماء بكامل بهائها وقد التصق ثوبها الرقيق بجسدها الرائع ممسكة بضفيرة شعرها إلى جانب العنق. إن «جوليا» في القاموس السرياني تعني: المتجلية، الظاهرة، الطالعة، البهية، السنية، المتلألئة، النبية، الحكيمة، الجميلة.. و«ميزا» و«ميزتا» تعني الضفيرة، الجديلة، وهو اللقب الذي اتخذته لنفسها فيما بعد إحدى الامبراطورات السوريات الحمصيات (من مدينة حمص) الأربع اللاتي حكمن روما Tulia Misa .

- «نين ماح» دعيت بهذا الاسم في مرحلة خلق الإنسان في مغارة الجبل بمساعدة الرب «أنجي». وتعني: الربة المحيية، الخالقة، الباعثة، المقيمة من الموت..

ثم ما أن تمت عملية خلق الإنسان الجديد، ثم عملية طرده من الجنة في الجبل إلى العالم السفلي (الحياة الدنيا) ليعيش، ويتكاثر ويموت كبقية الكائنات الحية، حتى اضحى خاضعاً لناموس الخصب العشتاري الطبيعي، ولسيدته ربة الخصب. لقد صار جزءاً خاضعاً لدورة حياة الخصب في الطبيعة.
في هذه المرحلة بالذات صار علينا أن نقف وقفة مطولة مع «ربة الخصب» أو الأم السورية الكبرى ــ عشتار.

---

(1) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص63 .

عشتار ـ الأم السورية الكبرى:

إن موضوع «عشتار» هو من الضخامة والشمولية والاتساع والغنى بحيث يجعلنا نقف حائرين من أين نبدأ. لقد بقيت «عشتار» وعقيدة الخصب المرتبطة بها تغطي المساحة الزمنية الممتدة من بدء الخليقة، ثم تغلغلت، كلاً أو جزءاً، في أعماق الديانات التي جاءت بعدها، بحيث يسهل على الباحث في عصرنا الراهن أن يتميز خيوطها الراسخة الثابتة الألوان. اما على الساحة المكانية فقد امتدت عقيدة عشتار بكل تعاليمها وطقوسها ورموزها وخصائصها ووظائفها وأساطيرها وتراتيلها حتى غطت ـ دون مبالغة ـ أرجاء المعمورة.

إن عشتار هي ربة الخصب والحب والزواج والجمال، هي الربة الخالقة، وربة البعث والقيامة، هي المركز، والرحم، والأم الوالدة، وروح الخصب في النبات والحيوان والإنسان، هي السيدة العذراء الطاهرة، البكر التي لا تنتقص خصوبتها، هي ربة النواميس الكونية، وربة المصير، هي الربة النساجة الصَافة، العاملة، المعلمة، ربة الحرفيين وأصحاب المهن، والزراع، هي ربة الطبيعة وخصب الأرض ودورة الزراعة، هي ربة الحب والشهوة والجنس، هي الربة المعينة، ربة الحوامل والمرضعات والوالدات، وهي الربة الحامية، الحارسة للمدن وللناس، هي مصدر الأشياء، وسند الأحياء، ومالئة الكون بالخصب والنماء... إنها كل هذا وغير هذا في عقيدة الخصب العربية القديمة.

ولما كان يستحيل علينا هنا أن نحيط بموضوع عشتار في كتابنا هذا، ونظراً لأن موضوع هذا الكتاب يتعلق حصراً بـ «المركز» الانساني الحضاري الذي شعّ منه الإنسان والحضارة إلى كافة الجهات، فإننا سوف نكتفي بتسليط الضوء على أهم الخطوط الرئيسية التي تبين لنا حقيقة عشتار المركزية العربية.

«عشتار»، أصل التسمية:

إن الكلمة هي في الأصل من الفعل العربي القديم «عتر» ويعني في القاموس السرياني: خصب، كثر، وفر، غزر. «عتير» خصيب، كثير، وافر، غزير، وما تزال في العربية اليوم كلمة «عترة» تعني الخصب والذريّة. ومن المعروف أن الابدال في العربية القديمة والحديثة شائع بين السين والشين والتاء والثاء

جميعاً، ويبقى المعنى واحداً. إن كلمة «ثعلب» مثلاً، هي في العربية القديمة: ثعلب، وتعلب، وسعلب، وشعلب. وإن «ثِقَل» (وزنة) هي تقل، ثقل، سقل، شقل، شاقل، شيقل... الخ، وفي العربية القديمة كانت إضافة «الشين» في المقطع الأول من الكلمة للايحاء بالكثرة فالفعل «قلِبْ» يعني قَلَبَ، أما «شقلبْ» فيعني قلَبه كثيراً، وما تزال الكلمة مستخدمة بهذا المعنى في العربية الدارجة في الساحل السوري اللبناني حتى اليوم.

وهكذا، فإن «عشتار» تعني الزيادة في الزيادة والخصب. ومن «عتار» كانت «عشار» و«عشيرا» و«عشتار». وماتزال اللغة العربية تحتفظ بالكلمة ومعناها. ففي القواميس نجد: عشرّت الناقة صارت عُشراء، والعُشراء هي التي لقحت وخصبت وينتظر نتاجها، جمع عِشار.

وقد انتقل الاسم مع السوريين إلى شتّى الأرجاء، فصار يكتب ويلفظ بأشكال مختلفة منها: إستر، أسترايا، أستر، أستارتا. وقد اقترن الاسم في شبه جزيرة العرب بكلمة «العلية» فكانت «عشتار العليّة» وبها تسمّت مدينة «العليّة» في بلاد غامد من جبال السراة. كما أطلق التجار السوريون اسم «أسترا» على الجزيرة في المحيط الهادي الشهيرة بآثارها الفينيقية المدهشة، وكذلك على جزيرة استراليا الكبيرة (أي عشتار العليّة). وقد ثبت أن السكان الأقدمين لأستراليا كانوا خليطاً من الفينيقيين والسكان الأصليين قبل أن تجري بريطانيا تبديلاً ديموغرافياً على تلك الجزيرة حينما أرسلت مجرميها المحكومين بالاعدام وبالأشغال الشاقة إلى تلك الجزيرة. وجعلتهم يستوطنون في أخصب بقاعها، فأحدثت ذلك التبديل الديموغرافي، وعمّمت لغة «مجرميها» الانكليزية كلغة رسمية للسكان هناك.

وحينما أنشأ السوريون مستوطناتهم التجارية على شواطىء البحر الأسود كان من بينها مدينة «عشتار» التي صارت كونستانتا المرفأ الروماني حالياً[1]، وقد أطلقوا اسمها على النهر «نهر عشتار»، ثم دعوه نهر «طيطا» (أي الحية)، ثم نهر الدانوب، والدانوب في القاموس السرياني مجموعة كواكب في

---

(1) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص115 .

السماء شبه الحية.

ومن الكلمة «عتر» كان اسمها الآخر «عتارجات» ويعني الخصيبة المجيدة . لأن «جات» هي في القاموس السرياني من الفعل «جاي» = تعظّم، ارتفع، تكبر، تنعّم، تمجّد، أزهر، سطع، تلألأ.. و«جيتان» = تعني المعظّم، المجيد، المتكبر، البهي، المنعمّ، الجبار.. وقد تحولت الجيم في اللاتينية إلى ti ثم إلى t وصارت tytan وبالانكليزية صارت الكلمة giant = جبار، مارد، وبالروسية gigant .

وقد انتقلت تسميتها هذه شرقاً إلى الهند، يقول جوزيف كامبل: «وإلى اليوم ما تزال طائفة هندية مجهولة الأصل تعبد الأم الكبرى تحت اسم «أترجوت»، ولكنها تكرر في صلواتها كلمة غامضة دون أن تعرف معناها، هي كلمة «نن كورساق» المحوّرة عن اسم الأم الكبرى لحضارة الرافدين»[1].

والصيغة ليست بحاجة إلى إيضاح، إن «أترجت» هي «عتارجات» نفسها.

وهكذا فما أن «هبطت» عشتار إلى الأرض حتى شرعت في إنجاز تلك المهمة عبر الخطين الرئيسيين التاليين:

1 . لقد مثلت في نفسها روح الخصب، وبثته في جسد الطبيعة كله النباتي والحيواني والانساني، وتعهدته بالحماية والرعاية.

2 . ومن أجل هذا فقد عمدت وهي «النفس العذراء» إلى فرز قوة مخصبة من ذاتها متمثلة في الذكورة. فبقيت هي قوة الخصب، هي الأصل، وصار الذكر ابناً لها، صادراً عنها، تابعاً لها، مهيمنة عليه، عاجزاً عن القيام بأي دور إخصابي إلا من خلالها، يدور في فلكها مشدوداً بالرغبة الجامحة إلى العودة إليها والاتحاد بها والتلاشي فيها. هذه الرغبة هي الخيط الذي يشدّ السمكتين في الإناء إلى بعضهما في الصورة، وهي التي دعيت في أقدم لغة على هذا الكوكب بـ «الحب».

«الحب» في عقيدة الخصب:

إن عودةً إلى ما يقوله المؤرخ السوري سانخونياتن في استعراضه لنظرية التكوين العربية السورية القديمة: «.. لما هذه الريح وقعت في حب مبادئها

(1) Joseph Campbell, Oriental Mythology, PP. 37 – 39

الخاصة، حيث حصل اجتماع قران، دعي هذا التقارب «الرغبة». هكذا كان مبدأ خلق جميع الأشياء. ولم يكن لهذه الريح معرفة بما انتجت.. ومن هذه المساكنة للريح وجدت «مُتْ» (الرحم، الأم)، وتلك كانت البذرة الوحيدة للخلق وأساس جميع الأشياء»[1].

إننا لكثرة ما تتطابق تلك النظرات العربية الموغلة في القدم مع آخر ما توصل إليه علم الطبيعة المعاصر، والتماثل المدهش حتى في صيغ التعبير، نكاد نعتقد جازمين بأن هذا «الغرب» الذي استولى على كل مصادر التراث العربي، ثم احتكرها وأخفاها عن الأنظار، وأظهر منها ما أخضعه لعمليات التزوير والتشويه فقط، أعود لأقول: نكاد نعتقد أنهم يدرسون ذلك التراث الزاخر العظيم، ويتوجهون بأبحاثهم في الاتجاهات التي تحدّدها مقولاته، ثم ما يلبثون أن يعلنوا اكتشافاتهم المؤيدة بالعلم والتجربة، والتي تأتي، في النهاية، متطابقة مع مقولات تراثنا العربي القديم، الذي لا يبخلون عليه بكلمات الاتهام بالتصور الغيبي، الخرافي، الأسطوري، البعيد عن الحقيقة والواقع والعلم..

فماذا يقول علم الطبيعة المعاصر بخصوص تلك «الرغبة» أو «الميل» إلى الاتحاد؟

«هل يستطيع أي منا أن يتصور أن الماء هو اتحاد بين الهيدروجين والأكسجين؟ كلاهما غاز شفاف، ولكل منهما أيضاً ـ بسبب الخصائص المتميزة لتوزع الكترونات الذرات التي يتألفان منها «الميل» بأن لا يبقيا منفردين، وإنما ليتحدا مع بعضهما البعض.. يحصل التفاعل بينهما (بشغف كبير) مطلقاً حرارة. إن الاستعداد الموجود على الأخص لدى الأوكسجين ليتحد بهذا الشكل مع الهيدروجين كبير إلى درجة أن التفاعل يحصل بمجرد مدّهما بمقدار ضئيل نسبياً من الطاقة. إن العملية بكاملها هي، ببساطة، احتراق (أو تأكسد) الهيدروجين. أما الناتج، أي الصفوة الناتجة عن هذا الاحتراق، فهو شيء جديد تماماً، ليس له في تصوراتنا أو في إدراكاتنا الحسية أي تشابه أو أي قاسم مشترك مع العناصر التي نتج عنها. إنه «الماء»»[2]. ويتعلق نوع

---

(1) يوسف الحوراني، المرجع السابق، ص44 – 45 .

(2) هويمارفون ديتفورت، المرجع السابق، ص85 .

الـروابط الكيميـائيـة الحـاصلـة وكميتهـا بمدى استعداد هذه النتف الجـزيئيـة للتفاعل مع بعضها، اي بمدى (رغباتها) المتبادلة نحو الاتحاد»[1].

إننـا نقف أمـام صيغتين في التعبير متمـاثلتين: إحداهما من مصـادر التراث العربي السوري الموغلة في القدم، والثانية من مقولات علم الطبيعة المعاصر.

إنهـا «الرغبة» لدى العناصر في الاتحاد، القران. هذه «الرغبة» في علم المادة اللاعضـوية هي نفسهـا في مصـادر التراث العربي القديم وفي أدبيات علم الطبيعـة الحديث والمعاصر، وهي التي نجدها في اللغـة العربية منذ نشـأتها تسمّى «الحب» بين الذكر والأنثى في عالم الأحياء. فأين هو موضع العبقرية في هذه الكلمة؟

يقول علم الطبيعة المعاصر: «عندما يريد أحد ان يحصل على اتحاد كيميائي يتوجب عليه عادة أن يمدّ المواد الداخلة في التفاعل بشكل ما من أشكال الطاقة. حتى عـود الثقـاب لا يشتعل إلا بعد الاحتكـاك (يستمد في هذه الحـالـة طـاقـة حرارية ناتجة عن الاحتكاك)»[2].

ولو عدنا إلى معنى كلمة «حب» في قواميس اللغة العربية القديمة السريانية أو الفينيقيـة لـوجدنـا التـالي: إن فعل «حبْ» يعني: اتقد، التهب، اضطرم، اشتعل، عـانق، أحبّ. اتحببْ : التهب، اضطـرم. أحبْ: اضرم، ألهب، أحبّ، ودّ. حَبيب: متقد، مشتعل، مـزهر، سـاطـع. حبيبوت : اتقـاد، اشتعال، إزهـار، محبة، الخ. حوب : حب، محبة، لهيب، حرّ، حرارة.

فمنذ أن أفرزت عشتار منها الذكر ـ حسب مصادر التراث ـ أوجدت معه تلك الطـاقة الضروريـة لأي اتحـاد. لقد بقي مشدوداً بذلك الخيط غير المرئي الذي يصل مـابين الأنثى والذكر، والذي هو الـرغبـة الحـارة، الحب، الاشتعال، إنه «الطاقة» الضرورية لحدوث أي اتحـاد في الطبيعة. ومن هنا كان دائماً اقتران «الحب» في اللغة العربية بالنار، وكما تولع النار يولع الحب، وهو في النتيجة وَلَع، واشتعـال مولداً طاقة.

---

(1) المرجع نفسه، ص89 .

(2) المرجع نفسه، ص86 .

هل كان إنساننا العربي الأول حينما وضع كلمات هذه اللغة العبقرية على علم منذ البداية بقوانين الطبيعة، ام أن هذه اللغة ذات البنية الكونية العجيبة، وضعت لبناتها الأولى بتدخل من قوى فوق طبيعية كما هو الأمر مع نشوء الحياة!

إن الكلمة هي في عداد الكلمات العربية الأخرى ذات العلاقة بالسماء، بالأمر، بالروح، أي ضمن البنية الرقمية السباعية. فالكلمة في العربية القديمة هي «حوب» التي مجموع حروفها 16 ، (أي 6+1=7) لأن القيمة العددية للحروف هي: ح =8، و =6، ب =2.

ولابدّ لنا من الإشارة هنا إلى ان كلمة «الْحب» العربية هي التي ذهبت مع العرب السوريين إلى شتى أرجاء العالم القديم ليتعلمها الآخرون كما تعلموا غيرها، وصار كلٌ يلفظها بطريقته. فما ان وصلت إلى بلاد المورة مع السوريين حتى اختفت منها «الحاء» ــ كما شرحنا سابقاً ــ وصارت تلفظ loub. وهي الكلمة التي انتقلت فيما بعد إلى اللغات السلافية فصارت جذراً للمصدر تتفرع منها كل الاشتقاقات، ففي الروسية اليوم نجد أنّ مصدر فعل «أحبّ» هو Lub – it ، وتصريفه: لوب ــ لو = أحب؛ لوب ــ يش = تحبُّ؛ لوب ــ يت = يحبّ، تحبّ؛ لوب ــ يم = نُحب، لوب ــ يات = يحبّون. وكما ذهبت شرقاً إلى الهند فقد تغلغلت في كل اللغات الأوروبية الحديثة بشتى أشكالها: لوب، لوف Love، لوف... الخ.

وهكذا كانت عشتار ايضاً ربة الحب والرغبة الجنسية. ولما كان الحب رغبة، جنوة، شعلة، اشتعالاً، فقد صارت عشتار ربة الجذوة (الشعلة)، حسبها ان تظلّ لتوقد جذوة «الحب» في كل مخلوقاتها.

وإذا كان العقل قد تميز به آدم الإنسان عن باقي المخلوقات، فإن الروح، في جوهرها، واحدة لدى الإنسان والمخلوقات السماوية، إنها ما تزال أحد أسرار السماء المودعة لدى الإنسان على الأرض، شأنها ان تتلقى كل ما هو خارج نطاق الإحساس. والقلب هو ــ كما سبق أن مرّ معنا ــ العقل + الروح. وكما ان الروح جاهزة لتلقي كل ما هو سام، فإنها جاهزة لأن تتلقى كل ما هو شرير ايضاً، البرامج الشيطانية، الدخول الشيطاني.

ولما كان الحرف الآخر (الوجه الآخر) للقلب لدى الإنسان هو العقل، فإن كل ما

تتلقاه الروح، كل ما يربط على القلب من برامج، يترجمه العقل لدى الإنسان إلى لغة مخزونة بكل ما تحمله من صور وأحاسيس وافعال وحركات. اما ما يقابل هذا لدى الحيوان فهو الغريزة. فكما أن مستودع التخزين لدى العقل هو الذاكرة فإن مستودع التخزين لدى الغريزة يسمّى في التراث العربي «الوهم» (أو الواهمة) الذي هو مجموعة أحاسيس مكدسة من الرؤية والشم والذوق والسمع ومشاعر اخرى، تتخزن في هيئة أحد هذه الأحاسيس أو مجموعة منها مقترنة بما تنتجه من لذة أو ألم فقط، إن النعجة، مثلاً، يكفي أن ترى صورة الذئب حتى تثير في «واهمتها» مشاعر الألم حين تتمزق بين أنيابه ومخالبه، وحسبها أن تسمع عواء الذئب في البرية ليثير فيها ذلك الاحساس نفسه.

اما فعل الجنس فهو، طبيعياً، مقترن بالشعور باللذة، ولما كانت عشتار في عقيدة الخصب هي ربة الرغبة والحب والجنس، فهي «قادرة» على أن تلقي في «قلب» الإنسان ذلك الشيء الخفي الذي يترجمه العقل إلى لغته المخزونة بكل ما تحمله من افعال وصور وأحاسيس، فتستثير الغدد لافراز الهرمونات المحرّضة، فتشعل جذوة «الحب» أو «الرغبة» وتبث الحرارة في الجسد كله لتسيطر على كل أجزاء البدن دفعة واحدة. ولما كانت الغريزة عاجزة عن أن تعتمد على ذاكرة فهي دائماً تبقى خاضعة لمباشرة الحواس، ولهذا فقد أخضعت دورة الحياة الجنسية لدى الحيوان لنظام موسمي تتولاّه عشتار. فما أن تلقي جذوتها في غريزة التيس مثلاً، حين حلول زمن دورة الاخصاب الطبيعية، حتى يتحول التيس إلى مخلوق جنسي فقط، تنمو فيه أحاسيس الجنس بصورة تطغى على كل غرائزه الأخرى، وكثيراً ما تنقطع التيوس عن الأكل والشرب وتتحول إلى «هياكل» جنسية قد يفنى فيها الجسد أحياناً لشدة «الاشتعال». إن هذا هو ما جعل قدامى السوريين يرمزون إلى دوموزي، أو أدونيس بالتيس أو الجدي كقوة للاخصاب الحيواني، ثم لكل من «اتيس» (اي التيس) وديونيس، وباخوس.

اما الإنسان المزود بالعقل، فإنه أتيح له، بفضل هذا العقل، أن يبقى سيد نفسه إلى درجة كبيرة. فهو قادر في أية لحظة على أن يمتح من الذاكرة، مستعيناً بالمخيلة، كل أحاسيس الفعل الجنسي «ليبعث» تلك «الجذوة» في اللحظة التي يشاء. ولهذا فإن الاحتفال بأعياد «البعث» الربيعية العشتارية كان احتفالاً ببعث

الخصب في الطبيعة الحيوانية والنباتية دون الإنسان. وإن «قيامة» تموز أو أدونيس في بداية الربيع إنما كانت «قيامة» للخصب في الطبيعة العشتارية. إن عشتار كانت موكلة بتدبير أمر الحياة، نموّها، خصبها، رعايتها، تكاثرها، توطيدها على الأرض، ولم يكن من شأنها وضع نظام اخلاقي يتطلب حساباً وعقاباً. ففي عقيدة الخصب العشتارية الأولى، كل ما يؤدي إلى الخصب والتكاثر هو خير، وكل ما يؤدي إلى العقم هو شرير وملعون.

إن في مرحلة عشتار كان الإنسان العاقل الجديد ما يزال الجانب الأضعف على الأرض. ومن وجهة نظر تدبير أمر الأرض بعملية البناء والخلق والابداع، كان لابد من تدعيم وجود هذا الكائن الجديد، وتشجيعه على التكاثر والانتشار. ومن هنا فقد كانت عقيدة الخصب العشتارية ضرورة حياتية ملحّة في ذلك الزمن، من شأنها أن تؤمن تكاثر الإنسان من جهة، وإكثار قوته الضروري لوجوده المتسع من جهة أخرى. ولهذا فلم يكن للاتحاد، أو الاقتران، أو ما دعي فيما بعد بـ «الزواج» سوى قصد واحد ووحيد: هو ضمان عملية التكاثر. ومن هنا فقد كانت «الربوبية» (أو السيادة) في تلك الحقبة من تطور الحياة على الأرض مقترنة بـ «الفحولة» الاخصابية. ثم ما أن توطدت حياة الإنسان وانتصرت على الأرض حتى تحوّلت عشتار إلى «عناة» الخاطبة (أصلها حنت = الزوجة) لقد انتهى زمن التكاثر العشوائي، وبدأ عهد الزواج المنظم وبناء الأسرة المؤلفة من أب وأم وابن (أو أبناء). لقد «تشظّت» عشتار مرة أخرى لتتوزع في ثلاثة أقانيم.

إن لغتنا العربية التي واكبت هذا التطور حفظت لنا في صدرها تاريخ الإنسان على الأرض. إننا نرى ذلك في الكلمات التي اكتسبت مضامين محدّدة بما ينسجم مع كل مرحلة من مراحل التطور. فكلمة «مرأ» على سبيل المثال تعني جامعَ، والمروءة كمال الفحولة والرجولية. هذا هو المعنى الأول الأصل للكلمة. اما المعنى الثاني: آداب نفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق، وجميل العادات، وهذا هو المعنى الآخر الجديد، المضاف.

وعودة بنا الآن إلى موضوع «الحب» العشتاري «الجذوة». إن مصادر عقيدة الخصب العربية السورية تؤكد لنا أن عشتار أفرزت من ذاتها، بقدرة سماوية،

زوجها، دون أن تنتهك عذريتها. فهو «ابنها» بالقدرة وليس بالولادة. إنه «الطفل الإلهي» دوموزي، أو أدونيس. وهو الذي سوف يمثل عملية الاخصاب الذكري في الطبيعة بقوة «الحب» الساري بينه وبين عشتار، بين كل زوجين ذكر وانثى. إن هذا «الحب» هو الروح القدس «الذي كان وراء خلق العالم، وهو الذي يميز علاقة الرب بالكون»(1).

إن هذا «الحب» أو «الرغبة» في التراث العربي القديم هو أول ما خرج من دائرة العماء البدئية المسدودة المغلقة بتدخل القوى الفوق الطبيعية، وبه تمّ خلق الكائنات. إنه «الروح»، «المحرّك» وكل حركة تولد طاقة، والطاقة هي الشرط الضروري لحدوث أي «اتحاد» «اقتران» تفاعل.

إن هذه «الرغبة المحرّكة» هي التي انتقلت مع السوريين إلى بلاد اليونان وايطاليا ودعيت بالعربية الفينيقية «عيرو» (إيروس). ولقد فهمت في تلك البلاد خطأ، وكالعادة سرعان ما تحولت الكلمة هناك إلى إله، وهكذا يعتبرها الدارسون في الغرب كله اليوم، لجهلهم بالأصول العربية السورية لكل حضارة اليونان وايطاليا القديمة.

أما الكلمة في أصولها العربية القديمة فتعني: الراغب، الهائج، المغتلم شهوةً ورغبة. وهي في القاموس السرياني من الفعل «عير» أثار، هيّج، حرّك. لقد ذكر سانخونياتن في كتابه «تاريخ فينيقيا» أن عشتار «ولدت فوتو» و«إيرو»(2).

فالكلمة الأولى تعني الخصيب، ولهذا فقد دعيت كاهنة الخصب العشتارية «فثيا» أي الكاهنة، المخصبة، وإن الزهر الأصفر الذي يغطي مروج سوريا في بداية الربيع يسمى في الساحل السوري اللبناني حتى اليوم «زهر الـ «فيتي» أي زهر الخصب أو الربيع، وكلمة «الربيع» تعني الخصب.

أما الكلمة الثانية «إيرو» فتعني الرغبة والحب. ولما كان الابدال بين الهمزة والعين شائعاً في العربية منذ وجودها وحتى اليوم فإن الكلمة كانت تلفظ «عيرو» و«إيرو» في آن معاً، وما تزال اللغة العربية تحتفظ بالمعنى في فعل «أيَرَ» ومشتقاته.

---

(1) Allan Watts, Myth and Ritual in Cristiantiy, pp. 30 – 31

(2) يوسف الحوراني، المرجع السابق، ص77 .

إن جذوة الحب العشتارية، إذاً، هي أصل كل خصب وتكاثر، وبالتالي فهي ضمان بقاء الجنس البشري وخلوده، وعلى نطاق القبيلة أو العشيرة أو الأسرة فيما بعد (أي بعد تأسيس نظام الأسرة) ظلت هي الشعلة المقدسة رمز بقاء الأسرة واستمرار الذرية.

ولهذا فقد نشأ تقليد تقديس «جذوة الحب» العشتارية بتمثيلها بـ «جذوة» او «شعلة» يجري الحفاظ عليها مشتعلة رمزاً لخلود النوع أو الذرية في تسلسلها عند قدامى السوريين، ثم تحولت إلى رمز للخلود بصورة عامة، وهي أساس الشعلة المتقدة عند أضرحة الشهداء الذين يقضون دفاعاً عن الوطن فيما بعد، تعبيراً عن خلودهم.

إن هذا هو ما نقله السوريون معهم إلى بلاد اليونان، وأساء فهمه المؤرخون في الغرب، واعتبروه تقليداً «هندواوروبياً» مزعوماً.

ولما كانت عقيدة الخصب العشتارية قد جعلت قيامة أو بعث السيد الذكر، دوموزي أو أدونيس، في بداية الربيع كرمز لعودة اضطرام جذوة الحب والرغبة في الطبيعة الحيوانية والنباتية، فقد دعي هذا البعث لجذوة الرغبة الملتهبة المتلألئة في العربية القديمة «فصحتا» أي الفصح. والكلمة في القاموس السرياني من الفعل «فصح»: ويعني: فصحّ، سني، تلألأ، شعّ، ضاء، فرح. وقد صارت الكلمة في بلاد اليونان مؤخراً، ثم في الغرب كله، «فصتا» لاختفاء الحاء، وصارت تكتب Festa ، ثم أخذوا يجتهدون في استنباط المعاني لها من «لغة اغريقية قديمة» مزعومة، لا وجود لها إلا في القاموس السرياني أو الفينيقي.

يقول جيمس فريزر: «من ألقاب ديانا القديمة «فستا»، الذي يعني إذا أعيد إلى جذره القديم «المضيئة» أو «المشعّة» ثم تحوّل اللقب إلى إلهة مستقلة موكلة بالنار عموماً، وبالنار المنزلية ونار الطقوس الدينية خصوصاً. كانت «فستا» أجمل إلهات الرومان إطلاقاً، وعذراء كصنوها ديانا، طاهرة كشعلة النار التي ترمز إليها، وكانت كاهنات النار العذراوات يحرسن شعلتها ويبقينها متقدة على مدار السنة ويقمن بطقوسها. وكنّ ينتقين من أنبل العائلات الرومانية، ويخضعن لتدريب طويل مدته عشر سنوات يبدأ في سن السادسة فقط. ثم ينخرطن في خدمة الإلهة مدة عشر سنوات أخرى، يتفرغن بعدها لتدريب جيل

جديد من الكاهنات مدة عشر سنوات أخيرة. فإذا أتممن ثلاثين سنة في خدمة المعبد، سمح لهن بالعودة إلى أهاليهن والزواج إذا أردن ذلك. غير أن معظمهن كان يعزف عن الزواج للابقاء على مركزهن المقدس في المجتمع الروماني الذي كان يكنّ لهنّ أعظم تقدير وإجلال»[1].

«وكما جردت ديانا من نفسها الآلهة «فستا» كذلك جردت أرتميس اليونانية من نفسها الإلهة «هستيا». كانت هستيا إلهة النار المنزلية ونار المعابد. وكانت شعلتها الأساسية في معبد دلفي تعتبر الشعلة الكونية. لأن معبد دلفي نفسه كان لدى اليونان بمثابة مركز للكون. كما كانت هستيا حامية للعائلة وحارسة للمدينة.. هذا وقد اتحدت الإلهتان الرومانية واليونانية في إلهة واحدة تحت اسم هستيا ــ فستا»[2].

وهكذا نلاحظ، مرة أخرى، كيف تتحول هذه المفاهيم العشتارية العربية السورية في الخارج إلى آلهة، لجهل اولئك، الذين اطلق عليهم السوريون لقب «البرابرة» باللغة العربية القديمة. لقد أكد فريزر أن أصل الكلمة في جذورها القديمة يعني: المضيئة، المشعة، ثم تحولت إلى إلهة.

أما الكلمة الثانية، التي تحولت هي الأخرى إلى إلهة في الغرب، فهي «هستيا» وقد صارت «اجمل إلهات الرومان إطلاقاً، عذراء مثل ديانا، طاهرة كشعلة النار التي ترمز إليها». وكالعادة، إن أحداً في الغرب لا يعرف أصل هذه التسمية، ولا يمكن أن يعرف مادام يصرّ على عدم الاعتراف بالحقيقة التاريخية الساطعة: وهي أن ما دعي بحضارة اليونان والرومان القديمة إنما هي كلها ــ ودونما مبالغة ــ عربية سورية. وكلمة «البرابرة» كان السوريون يطلقونها على كل من لا يعرف لغتهم من سكان القارة وليس العكس.

اما حقيقة الكلمة فهي «حسيا» و«حسيتا» وتعني في القاموس السرياني: الطاهرة، النقية، البارة، العذراء، المقدسة، المرحومة، السعيدة، المطرانة، المعلمة.. وهي من الفعل «حسي» = قدّس، طهرّ، بـرّر، زكّى، غفر، حلّ من الخطيئة. (و «حسيا» هو اسم البلدة على الطريق بين حمص ودمشق التي ماتزال

---

(1) F. Guirand, Roman Mythology.

(2) F. Guirand, Greek Mythology, P. 80

قائمة حتى اليوم) ثم اختفت الحاء كالعادة وأضيفت هاء التعريف في أول الكلمة.
لقد كان «حستا» اسماً لاحدى كاهنات الجذوة العشتارية المقدسة السوريات في ايطاليا، ما ان توفيت حتى تحولت إلى قدّيسة هناك، ثم إلى ربة، والأمثلة على هذه الظاهرة أكثر من أن تحصى، بدءاً بـ «زيو» وزوجته النبيلة «حيرا»، وانتهاء بـ «جوليا دومنا» السيدة السورية الحمصية التي غدت امبراطورة لروما ثم ربة. إن هذه الظاهرة هي التي دعت فيلون الجبيلي لأن يكتب في القرن الأول للميلاد: «لقد انسجموا مع معظم هذه الأشياء، وأضافوا إليها توشيات مختلفة ليعطوها صبغة درامية. وقد استهدفوا سحر الخرافة»[1].

لقد دخلت كلمة «فصحا» أو «فصحتا» العربية القديمة إلى جميع اللغات. ولقد كانت تلفظ في العربية القديمة «بصحتا» (إذ كانوا يلفظون الفاء P)، و«بصتا» بدون الحاء كما في لهجة المندائيين، فوصلت إلى عرب وادي النيل ولفظت «باصت» (وصار المؤرخون اليوم يترجمونها بمعنى البسّة أي القطة) وما تزال القرى والبلدات مسمّاة بهذا الاسم في سوريا ولبنان: الباص، البصّة، إلى اليوم. أما في اللغات الأوروبية فقد صارت في الانكليزية Pasck وفي الروسية Paskha، وبالفرنسية pacque.. الخ. وتعني الفصح.

لقد بقيت جذوة الحب العشتارية «فصحتا» (السنية، المتلألئة) و«حستيا» (الطاهرة) حية وخالدة بأسمائها العربية القديمة في كل مواقع انتشار العرب السوريين ومنذ الزمن الموغل في القدم حتى اليوم يقول فريزر:
«هذه وقد بقيت طقوس النار القديمة مستمرة حتى الأزمنة الحديثة، رغم أن الناس قدنسوا منشأها وضاعوا عن أصلها، ففي أوروبا الحديثة، نزولاً إلى وقت متأخر من القرن التاسع عشر، كان الفلاحون يقومون بطقوس وشعائر لا تخفي طابعها العشتاري القديم»[2].

---

(1) يوسف الحوراني، المرجع السابق، ص98 – 100 .

(2) James Freezer. The Golden Bough. The Fire Festival of Europe.

عشتار وعقيدة الخصب الزراعية:

ذكرنا فيما سبق كيف أن المكتشفات الآثارية أثبتت اليوم أن أقدم إنسان عاقل في العالم بآثاره المتصلة دونما انقطاع إنما هو في سوريا القديمة. ولما كانت عقيدة الخصب الزراعية قد نشأت لأول مرة في تاريخ البشر مرتبطة بإنجاز أول ثورة زراعية في العالم والتي هي في سوريا، فإن الأرض العربية السورية هي مهد عقيدة الخصب الزراعية أيضاً.

«وفي الواقع فإن الثورة النيوليتية التي أدت إلى الاستقرار واكتشاف الزراعة وتدجين الماشية هي البداية الحقيقية لحضارتنا القائمة الآن. أما الثورة المدينية فهي التي أعطت هذه الحضارة أطرها الأولى التي مازالت قائمة في اساسات مجتمعات العصر الحديث. ورغم أن كل الحضارات، القائمة منها والمندثرة، قد حققت هاتين الثورتين في زمن ما من تاريخها، فإن علم الآثار الحديث يقرر اليوم ان الثورة النيوليتية والثورة المدينية قد حدثتا لأول مرة في تاريخ البشرية في منطقة الشرق الأدنى القديم. وهي المنطقة الوحيدة التي حققت ثورتها في معزل عن كل تأثير خارجي، جاعلة من نفسها نموذجاً أولاً للتحولات التالية في المناطق الأخرى»[1]. «أما البشائر الأولى للثورة النيوليتية، البداية الحقيقية للحضارة، فقد انطلقت من سوريا، حيث أثبتت الحفريات الأثرية التي ما تزال اليوم قائمة بنشاط، أن أولى التجمعات البشرية المستقرة، وأولى القرى المبنية في السهول المفتوحة قد قامت في سوريا الجنوبية.. خلال الألف العاشر والألف التاسع قبل الميلاد»[2]. وإن «أولى التجارب الزراعية قد تمت في المناطق الداخلية من سوريا على طول الشريط الممتد من جنوب حلب إلى صحراء سيناء. ويعتقد أن قصب السبق في هذا المضمار كان لموقعين رئيسيين هما موقع تل المريبط في الشمال عند شاطىء الفرات، وموقع أريحا في الجنوب بوادي الأردن، وذلك نحو نهاية الألف التاسع وبداية الألف الثامن قبل الميلاد»[3].

---

(1) Charles Redman, The Rise of Civilization, p 6 – 7.

(2) Charles Redman, Ibid, pp 71 – 74.

(3) James Mellart, The Neolithe of the Near East, p 274.

«لقد شكلت المرحلة الممتدة بين الألف العاشر والألف السادس قبل الميلاد مرحلة حاسمة في تاريخ الانسانية. فالتحولات الجذرية التي تمت هنا قد نقلت الانسانية من مرحلة الصيد والالتقاط إلى مرحلة الاستقرار والزراعة وتربية المواشي. وتشير كل الدلائل حتى الآن إلى أن هذه التحولات التي شكلت القاعدة المكينة لحضارتنا المدنية قد تمت في هذه المنطقة قبل اي مكان آخر على سطح الكرة الأرضية»[1]. ولقد دعاها الباحثون بـ «النطوفية» نسبة إلى وادي النطوف في جنوب سوريا. لكن متابعة الكشف الأثري أظهر امتداد واتساع هذه الثقافة على الرقعة السورية كلها «وذلك في الشريط الذي يمتد بعرض ثمانين كيلومتراً على محاذاة البحر المتوسط.. ومن جنوب دمشق حتى نهايات صحراء النقب.. فكانت هذه المنطقة من أكثر المناطق كثافة سكانية بمعايير ذلك الزمن. وفي الألف التاسع أخذت المستوطنات النطوفية تأخذ شكل القرى المستقرة»[2]. «وفي نهاية الألف الثامن.. يتحول المركز الحضاري كلية من سوريا الجنوبية إلى سوريا الشمالية خلال الألف السابع قبل الميلاد، أي في المرحلة الثانية من العصر النيوليتي ما قبل الفخاري»[3]. وهكذا، فكما كانت سوريا مهد الزراعة الأول على هذا الكوكب، فقد كانت مهد عقيدة الخصب الزراعية العشتارية لأول مرة في تاريخ البشر.

عشتار في رسالتها التعليمية الزراعية:

نتيجة لتعاليم عقيدة الخصب العشتارية، التي شجعت الاخصاب والتناسل وتكاثر بني الإنسان، فقد كثر الناس، وأخذوا ينتشرون على ظهر الأرض في شتى الاتجاهات، فتقلصت بذلك دوائر البشر المتوحشين سكان الكهوف، ولم يعد ما تقدّمه الطبيعة ذاتياً من قوت يكفي لسدّ حاجات البشر، فكان لابدّ من طريق جديد يشقه الإنسان من أجل تأمين غذائه وضمان استمراريته، وكانت زراعة القمح.

---

(1) J. Cauvin, Religions Neolitioques, p7.

(2) Charles Redman, The Rise of Civilization, pp 71 – 77.

(3) James Mellart, The Neolitic of the Neas East, pp 42 – 51.

«ولقد كانت سوريا مسعدة بأنها موطن الحيوانات النبيلة التي يمكن تأليفها، كما أنها موطن النباتات التي يمكن تدجينها. فالقمح والشعير البريان ينموان بصورة طبيعية في سوريا، شمالها وجنوبها، ولابد أن قيمتها الغذائية قد اكتشفت في عصر بعيد جداً. فالمناجل الصوانية وسائر الأدوات التي تركها النطوفيون بكميات كبيرة تظهر أنهم ومعاصريهم في سوريا الشمالية كانوا أول من مارس شكلاً من أشكال الزراعة في الشرق الأدنى. وكان الناس لا يزال أكثرهم من سكان الكهوف الذين يشبهون سكان مصر، ويعيشون على الصيد البري وصيد الأسماك، وبعضهم كانوا يعيشون على الرعي.. وليس لدينا دليل على ممارسة أي شعب آخر للزراعة في مثل هذا العصر البعيد.. والكلمة التي تعني القمح «قمحو» gmhw ، وكذلك الكلمة التي تعني الكرمة «كرمو Karmw» عند قدامى المصريين هي لا شك عربية»[1].

انطلاقاً من ان كوكبنا الأرضي جدير بأن تنشأ عليه الحياة وتزدهر، فقد كان لابدّ من ان يوكل أمر رعاية الحياة وتأمين ازدهارها على الأرض لإحدى القوى السماوية، فكانت «عشتار» بأسمائها المختلفة هي صاحبة المهمة. هكذا تقول عقيدة الخصب السورية القديمة. ثم، ومع بداية أول زراعة على الأرض في سوريا كان لابدّ من إحداث نقلة أخرى في عقيدة الخصب العشتارية. لقد صار الآن على سيدة «الجذوة الجنسية» أو على قرينها دوموزي، أو البعل، أو ادونيس... ان يحمل عبئاً إضافياً جديداً، بموت بموته، ويبعث مع بعثه. إنه روح القمح، وهكذا فقد صار عليه أن يتجسد في روح القمح. وبدأ «المركز» في المغارة المقدسة حيث مقر الكائنات السماوية والمحلّة الآمنة، يضخّ التعاليم الجديدة حول ضرورة تنظيم الأسرة، وإقامة تقاليدها، وتشريعاتها، وحول نشر التعاليم التفصيلية لزراعة حبوب القمح وتحويلها إلى رغيف.

لقد تقلص دور عشتار، وبدأ دور عناة الخاطبة (أوحنت التي هي «حنة» وتعني الزوجة، السيدة) وإيل للوقوف على رأس التشريع الجديد.

وكما هي العادة دائماً، فقد كانت المغارة المقدسة، في المركز مصدر كل

---

(1) فيليب حتي، تاريخ سوريا الجزء 1 ، ص17 .

الشرائع. وكما الموجة تنتشر دوائر من المركز إلى ان تتلاشى في البعيد، هكذا كان، ومازال، في إمكاننا تتبع انتشار الانسان وكل مظاهر حضارته القديمة. وفي الوقت الذي كانت موجة قديمة «تجاهد» في المسافات البعيدة عند حدود التلاشي، كنا نرى موجة أخرى جديدة تنبثق من «المركز» لتنتشر من حوله حاملة معها قيماً جديدة لزمن جديد.

إن هذا هو ما يفسرّ ظهور الجديد في كل مرة على الأرض السورية في الوقت الذي تكون فيه المناطق البعيدة عن المركز (كاليونان وإيطاليا وغيرهما) ما تزال تناضل في القديم. وبكلمات اوضح، بعدما كانت ملحمة جلجامش منذ الألف الثالث قبل الميلاد قد صورت لنا رفض الناس للزواج العشتاري العشوائي، واخذ الصراع بين عناة وإيل، من جهة، وجماعة العشتاريين من جهة أخرى، ينجلي عن انتصار الجديد، نرى في بلاد اليونان وايطاليا، وفي زمان متأخر جداً عن ذلك الزمن بآلاف السنين يخرج ديونيس وباخوس (وهما فينيقيان أيضاً) ويجاهدان لترسيخ تقاليد الجنس التكاثري العشتاري هناك.

وإن فهم واستيعاب هذه الظاهرة يجعلنا نفهم حركة التاريخ كما هي، ويجعلنا نعرف كيف نتعامل مع الوثائق الدينية المكتشفة هنا وهناك على أرض سوريا وخارجها. إن دراسة الحدث التاريخي ما ان تنفصل عن حامله الزمني حتى تتحول إلى عملية تزوير في التاريخ.

وإن ابرز مثال على ذلك هو الوثائق الدينية المكتشفة في أوجاريت على الساحل السوري. إن هذه الوثائق، بمجموعها، ما هي إلا انعكاس حقيقي لعملية التطوير العقائدي الذي يجري ضخّه من المركز إلى كافة الجهات. إن نظرة متمعنة واحدة على تلك النصوص تكشف لنا حقيقتها السكانية والجغرافية التابعة لمناطقها المركزية في بلاد غامد من شبه جزيرة العرب، وليس لسوريا المتوسطية. إنها، وكأي عقيدة جديدة انبثقت من هناك، سرعان ما كانت تتحول إلى نصوص دينية تعليمية وتربوية، يجري نقلها واستنساخها على أيدي المعلمين والكتبة لتعليمها للأجيال الصاعدة سواء في قصور الملوك أو الأمراء أو في كتاتيب الأحياء السكانية الأخرى. إنها تكرّس اللغة العربية القديمة في كل مكان ينتشر فيه تعليم الدين الجديد، من جهة، وتعمل على انتشار تعاليم هذا

الدين من جهة أخرى. إن هذا عينه هو ما حدث فيما بعد مع التوراة والانجيل والقرآن الكريم. وإن هذا هو ما تؤكده كل تلك النصوص المكتشفة في اوجاريت، إذ نجد كل نص منها ممهوراً في نهايته باسم الكاتب أو الناسخ أو المعلم، كما نجد تعابير كهذه:

«الكاتب هو إيلي ملكو الراوية»، «الراوي في عهد نقمد ملك أوجاريت»، «هنا يتوقف الراوي ويعلن أنه يخشى ان يكون قد أتعب المستمعين الشباب»، «لنتوقف هنا عن سرد قصتنا لأن الشبان قد تعبوا»[1].

إن هذا يوضح لنا، بما لا يبقي أي مجال للشك، اننا أمام «رواية» ومعلّم «راوية». وهذا أمر معروف في التقليد العربي. فحينما يعلّم الشيخ تلاميذه في الجامع الأموي نصوصاً قرآنية تحكي قصص الأنبياء فإن هذا لا يعني أن أحداث تلك القصص جرت في مكان وزمان وجود التعليم والمعلّم. وإذا ما روى الراوية في أحد مقاهي المغرب العربي قصة «عنترة» فإن هذا لا يعني أن الأحداث حدثت في المكان والزمان الذي تروى فيه. لكن اعتماد العرب في دراسة تاريخهم على المستشرقين (المتجاهلين او الجهلة) لحقائق التاريخ العربي، يجعل السقوط في مثل تلك المقولات والكتابات المغلوطة، تاريخياً وجغرافياً ومنطقياً، امراً محتماً.

لقد بدأت عقيدة التوحيد الكونية الشمولية تعود إلى الظهور لتتسنم سدة القيادة من جديد مع بداية الثورة الزراعية مقترنة هذه المرة باسم «إيل» رب الأرباب، وبدأت معها التقاليد العشتارية بالانحسار التدريجي. ولم يكن ذلك ليتم بمثل تلك السهولة. فعقيدة عشتار راسخة إلى الأعماق، ومن اجل ان تخلي الساحة للتعاليم الجديدة كان لابدّ من صراع حقيقي يخوضه ارباب الجديد عبر عدة آلاف من السنين.

إن رفض الملك جلجامش في الألف الثالث قبل الميلاد الزواج العشتاري لم يكن إلا مظهراً من مظاهر التراجع العشتاري على ساحة العقل العربي في ذلك الزمن. وإن كل النصوص التعليمية التي وصلت «اوجاريت» في الألفين الثالث

---

(1) هـ.إ.ديل ميديكو، التوراة الكنعانية، ص104, 249, 253, 242 .

والثاني قبل الميلاد، والتي تصوّر لنا عملية ذلك الصراع بين الـ «إيلويم» (جماعة إيل) والعشتاريين، لم تكن إلا بعض أصداء الموجة الجديدة التي اخذت تثبت أقدامها في كل مكان من الأرض العربية منذ زمن بعيد.

إن «عناة» هي «التجلي» الجديد لـ «عشتار» في المرحلة التاريخية الجديدة، وإن الصراع ليس إلا صراعاً عقائدياً بين الكهنة اتباع الجديد والكهنة أتباع القديم الذين قاوموا الجديد واحدثوا «فتنة» دموية في المركز:

«بعدما استراح السيد الأعظم
بما قدمته العذراء عناة
نصحت مخلوقات الآلهة باتقاء فتنة الاشيرتيم (العشتاريين)
كيف يمكن اتقاؤها
و«عشيرت» التي عبرت عن هذه النصيحة.
أسدتها لمخلوقات الآلهة، كاملة.
لكن الأمير رب الجدود، خلق الفوضى عندما نصحهم بكثرة الإنجاب»[1].

لقد تحولت «عشتار» إلى «عشيرت» أي العشيرة، الزوجة، وهي تقدم النصح لشعبها، لكن الكهنة هم الذين يؤرثون الصراع ويرفضون الانصياع لصورة «عشتار الجديدة» التي عليها ان تعلّم الزراعة وتوطد تقاليد الأسرة والزواج:

«لأنه يحيا السيد الأعظم،
مثل شعلة المنزل سيد الأرض،
إنه يبعث أيضاً، إيل، بسبب العذراء عناة
التي تصلي إلى إيل المبجل، نهاية الاعتداد بالنفس
معجزة عناة، حقول إيل تحمل كامل طاقتها
بالرفش تحكم عناة!»[2]

إن هذه النصوص المكتشفة في اوجاريت والتي وصفها الكاتب، كما يقول هو نفسه عن نفسه، لتعليم الأولاد في إوجاريت من التراث العربي القديم، والتي

---

(1) ديل ميديكو، المرجع السابق، ص237 .

(2) المرجع نفسه، ص295 .

يعيد مادتها الدارسون اليوم خطأ إلى أوجاريت نفسها وإلى الألف الثاني قبل الميلاد، هي نماذج دينية تعليمية تعود إلى فترة بدء الثورة الزراعية في سوريا والتي يقدرها الباحثون بين فترة الألفين الثاني عشر والتاسع قبل الميلاد. وإن الدولة العربية السورية المركزية التي أسسها سرجون العربي الآكادي في الألف الثالث قبل الميلاد التي وضعت دستوراً وقوانين جدّ متطورة، ولم تكن هي الأولى في سوريا، بالنسبة للعلاقات الزراعية والأسرية والصناعية والتجارية و«الراسمالية»، لأكبر تأكيد على ما نقول، خاصة وأن تلك الدولة كانت تمتد من البحر الأعلى (الأسود) شمالاً إلى البحر الأدنى أو الأسفل (بحر العرب) جنوباً، ومن شرق زغروس شرقاً إلى اليونان غرباً. إن تقاليد الأسرة والزراعة كانت قد ترسخت منذ آلاف السنين في شتى أنحاء الدولة السورية، ولم تكن في بدايات صراعها كما تعكس نصوص التعليم المكتشفة في أوجاريت.

وإذا ما أردنا أن نتابع انتشار هذه الموجة بعيداً عن المركز إلى الغرب نجد أن قدموس السوري كان أول من بنى مدينة في البر اليوناني بمعنى الكلمة، واسس هناك تقاليد الأسرة والزواج وذلك في حوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد.

إنه بهذا المضمون عينه يخاطبه الكاتب السوري ـ الروماني (أوفيد) حينما كتب يقول:

«وشُيّدتْ مدينة «طيبة». ومنها بدا القدموس انه وجد السعادة في منفاه. فقد تزوج النبيلة هارمونيا ابنة الرب (السيد) مارس والربة فينوس، وأنجب منها أبناء وبنات، أنجبوا له أحفاداً أعزاء، وضعوا تقاليد الأسرة، وأرسوا روابط التعاطف بين أفرادها. وعاش حتى رأى أحفاده وقد شبّوا عن الطوق وصاروا رجالاً»[1].

وليس صعباً أن ندرك أن «مارس» هو «مار» وتعني في العربية القديمة السيد، الرب، ومؤنثة ماري، وماريت، ومرت، ومريم، وأن «فينو» تعني السيدة الخصيبة، ونذكّر هنا أن من أولئك الأحفاد الذين نسلهم قدموس في طيبة كان: ديونيس الذي تحول هناك إلى إله، والملك أوديب، وهرقل.. سوف نتطرق إلى

---

(1) أوفيد، مسخ الكائنات، ص116 .

ذلك حينما نتناول «اليونان» مفصلاً في كتابنا القادم.

وإذا ما أردنا أن نتتبع انتشار الموجات الفكرية والحضارية من المركز العربي السوري إلى شتّى الأنحاء في المكان والزمان، فإننا سوف نجد الفرق واضحاً بآلاف السنين بين الموجة حين انبثاقها في المصدر، المركز، وبينها في البعيد المتلاشي، فبينما كانت عشتار قد تراجعت في سوريا ليتسنم السيادة أرباب ذكور، مثل مردوك وإيل لعدة آلاف من السنين قبل الميلاد، نجدها، بتجلياتها المتعددة، وبأسمائها المختلفة، تبقى هي المهيمنة في الامبراطورية الرومانية بعد الميلاد لعدة مئات من السنين، ثم ما لبثت أن تماوهت مع مريم أم المسيح.

يقول المؤرخ البريطاني توينبي: «وفي السباق للاستيلاء على دور الأم كان هناك على الأقل، خمس طالبات هن اللواتي تقدمن لذلك. وهذه كانت إيزيس المصرية وسيبيل.. وارطميس وديميترا. وإلهة متجسدة في مريم، زوج النجار الجليلي، وقد كسبت مريم السباق إذ اتخذت شخصية إيزيس وصورتها وصفاتها»[1].

لقد كان «التجلي» الجديد لعشتار في سوريا في هيئة ربة جديدة للزراعة، حملت رسالة تعليم الزراعة وفنونها لشعبها، كما تحولت إلى معلّمة لكل أنواع الحرف.

وإن قصة الصراع بين الموت والحياة، بين «موت» وتموز، أو أدونيس، أو البعل كانت أول «دراما» في التاريخ، صيغت بطريقة مدهشة لتعليم الناس فن زراعة القمح وصناعة الرغيف.

إنها احدى القصص التعليمية التي اكتشفت في «أوجاريت»، لكن مصدرها هو مغارة السادة الأرباب في شبه جزيرة العرب، حيث مركز ضخ كل الديانات على مر العصور.

إن موت دوموزي (او تموز) في الصيف كان يمثل نضج سنابل القمح للحصاد، ويباس المحصول، وإن نواح النساء السوريات عليه في شهر تموز هو نواح

---

(1) أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، الجزء الأول، ترجمة نقولا زيادة، الأهلية للتوزيع والنشر، الطبعة الثانية 1985 ، بيروت، ص371 .

على «روح القمح» والخصب التي كان يجسدها أيام عنفوان الجذوة (الحب). وإن انتقام عشتار له، أو عناة للبعل من «موت» كان تفصيلاً تعليمياً لعملية زراعة القمح:

«انقضى يوم مرت الأيام
وعناة الصبية تحن إليه
كما قلب الأم لعجلها
كما قلب الشاة لحملها
هكذا قلب عناة نحو بعل
ترفع صوتها وتصيح:
«ياموت ردّ لي أخي»
ويجيب موت ابن إيل:
ماذا تريدين أيتها العذراء؟
«... لقد مضغت بعل القدير
وجعلته كالحمل في فمي
وسحقته كالجدي في فمي
حتى ربة الخصب شاباش (شاباش = خصب) النيرة
تقع تحت يد موت بن إيل»
«مرّ يوم، وبعده كرّت الأيام
مرت الأيام ثم الشهور
ويزيد في عناة الحنين»
«وتمسك بموت ابن إيل
وبالسيف شطرته
وبمنجل قطعته
وبمذراة ذرته
وبالنار سلقته
وبجاروشة جرشته
وفي الحقول بذرته

وتأكل بقايا جسده العصافير»

وبعد ان تمطر السموات، وتمر الأيام، يعود البعل، ويبعث حياً من جديد.

إن النص ليس بحاجة إلى اي شرح او تعليق. لكن ما نريد قوله هنا فقط هو أن هذه النصــوص تعود تـاريخيـاً إلى بدايـة العقيدة الـزراعيـة، وليس إلى زمن وجودها مدونة في أوجاريت أو في غيرها.

إنها بمثابة «نصوص الكتاب المقدس» للعقيدة الجديدة منذ بدايتها. لقد انتشرت الـموجـات من المـركـز، مـوجـة في إثـر مـوجـة، حـاملـة معهـا عقيدة الـخصب العشتارية في مراحل تطورها، ومع تجلياتها وأسمائها ومهماتها وطقوسها الجديدة. لقد ذهبت عشتار العربية السورية شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، من مصر إلى الهند واعالي آسيا، إلى اليونان وايطاليا، مكتسحة في طريقها حوض المتوسط واوروبا وافريقيا وصولاً إلى الشواطىء الأمريكية.

ولم يكن مثل هذا الانتشار ليتمّ إلا على ايدي السوريين انفسهم الذين ـ على حد تعبير المؤرخين القدامى ـ «كانوا تحت كل سماء وفوق كل ارض»، ولم يكن من شيء يعدل حماستهم لعقيدة عشتار.

وكثيراً مـا كنـا نـرى الظـاهرة العشتارية في انتشـارهـا «الموجاتي» بأوضح صــورهـا على النحـو التـالي: بينمـا يتـم حسـم الأمـر لصـالح التطور الجديد، (الموجة الجديدة) في سوريا، وتتكشف الحدود والمعالم بين الجديد والقديم، كنـا كثيـراً مـا نـرى في الأصقـاع البعيدة ظـاهرة تمـاهي الموجـات القديمـة والجديدة وذوبـانها بعضـاً في بعض حتى تصبح عشتار، في روما مثلاً، هي عشتار الموجات جميعاً مختلطة بأسمائها وبوظائفها، مع ملاحظة الحفاظ على اصلها العربي من قلب شبه جزيرة العرب.

فهـاهو جيمس فريـزر ينقل لنـا في كتابه «الغصن الذهبي» ذلك النص الشهير للكاتب السوري الروماني «أبوليوس» الذي عاش مابين القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد، وصار احد كهنة إيزيس، ووضع كتاباً اسماه «الحمار الذهبي» اكد فيه وحدة «التجليات» العشتارية جميعاً. يقول فريزر: «وفي هذا النص تظهر عشتار بكل أبهتها وعظمتها للنبيل «لوكيوس» تلبية لدعواته وصلواته، وترفع عنه لعنة السحر الذي حوّله إلى حمار لسنين عديدة».

اما النص المنقول من كتاب أبوليوس فهو التالي:

«... لم يمض وقت طويل حتى هزّني خوف مفاجيء. فتحت عينيّ ورأيت قمراً بدراً يطلع متلألئاً من البحر. في هذه الأوقات السحرية تستكمل إلهة القمر، السيدة الوحيدة للجنس البشري، قوتها وجلالها. إنها الربة المتلألئة التي تسند بقواها المقدسة كل الكائنات، الحية وغير الحية، والتي يحكم مدّها وجزرها إيقاع الحياة في كل الكائنات الموجودة على الأرض وفي الجو وفي مياه البحار. كنت أعلم ذلك كله، لهذا فقد رغبت باللجوء إلى مشاهدة الربة في تجليها العياني، فلعل ربة المصائر قد قررت أخيراً انه حسبي من الآلام ما قد عانيت، وانه آن الأوان لخلاصي. قفزت من مكاني ونزلت إلى البحر حيث تطهرت سبع مرات، ثم توجهت إلى الربة بهذه الصلاة وكلي رجاء وفرح، والدموع تغمر وجهي:

«ياملكة السماء المباركة: بأي اسم تحبين أن أناديك؟

أأناديك «سيريس» أم المحاصيل، التي بعثورها على ابنتها «برسفوني» أعطت الناس القمح والخبز بعد أن كانوا يقتاتون بثمار البلوط؟ هل أدعوك «فينوس» اللألاءة التي منذ بدء الخليقة جمعت بين الذكر والأنثى برباط الحب والجنس، فقدرت بذلك استمرار تكاثر البشر إلى الأبد؟ هل أدعوك «أرتميس» أخت أبولو المنير، مخففة آلام النساء عند المخاض؟ هل أدعوك «برسفوني» الرهيبة التي ينعب لها البوم في الليل، والتي تخيف وجوهها الثلاثة الأشباح، وتتركهم تحت الأرض؟ أي إلهتي. يامن ترتعين في غاباتك المقدسة، ويتعبد لك الناس بطقوس مختلفة. يامن ترسلين سناك الأنثوي فيضيء جدران كل مدينة، وتبثين شعاعك الرقيق لينمّي البذور تحت التربة، يامن تحكمين مسار الشمس وقوة شعاعها، أتضرع إليك بأي اسم، وبأي وجه، وبأية صورة، وبأية طقوس؟ رأفة بي وببأسي! انعشي آمالي المحطّمة، وامنحيني أمناً وسلاماً بعد طول العذاب، أو فهبيني نعمة الموت. عندما انهيت صلاتي، وأفرغت مافي صدري المثقل، عدت إلى مكاني حيث عاودني النعاس. وقبل أن أطبق أجفاني بدأ يتراءى لي خيال امرأة طالعاً من وسط مياه البحر. كان لها وجه لو رآه معي جميع الآلهة لسجدوا أمام جماله. طلع راسها أولاً، ثم أخذ جسدها اللألاء يظهر شيئاً فشيئاً

إلى أن انتصبت كلها أمامي فوق سطح الماء. إن الكلام البشري ليخرس أمام المشهد. لكن لعلّ الإلهة نفسها تسعف خيالي بنفحة شعرية تكفي لأن انقل جزءاً ممّا رأت عيناي.

كان شعرها الطويل الغزير ينسدل جدائل مستدقة الأطراف على عنقها البهي، وقد علاه إكليل شبكت فيه كل أنواع الورود. وقد أحاطت بالرأس هالة من النور تسطع كمرآة أو كصفحة القمر البهي، ممّا عرّفني حقيقتها. وكانت حيّتان تنتصبان من يديها اليمنى واليسرى ليسندا هالة النور، وشمخت إلى جانبهما سنابل القمح. أما ثوبها فمن قطن (أو كتان) متعدد الألوان، بين أبيض ناصع، وأصفر كالزعفران، وأحمر متقد، وقد زينت حواشيه بشتى أنواع الزهور، كما تدلت منه الثمار متأرجحة مع هبات النسيم الرخيّ، وفوق الثوب عباءة سوداء لامعة تتقاطع مع جسدها مابين وركها الأيمن وكتفها الأيسر، ذات طيات كثيرة ومطرزة عند أطرافها بالنجوم. وفي الوسط منها يتوهج قمر ملتهب بلون النار، وفي قدميها نعل من ورق النخيل.

بدات الإلهة كلامها إلي، ففاحت كل عطور الجزيرة العربية، وملأت الجو. قالت: أنا الطبيعة، الأم الكونية، ربة الكائنات جميعاً، ابنة الزمن البدئي وربة كل شيء حي، ملكة الأموات وملكة الأحياء الخالدين. انا التجلي الأوحد لكل الآلهة والإلهات. حاكمة السموات العلى والبحار والعالم الأسفل. يعبدني الجميع في وجوه متعددة وتحت أسماء كثيرة، ويتقربون إلي بطقوس مختلفة في جميع انحاء الأرض. يدعوني الفرجيون «بسنيوتيكا» أم الآلهة، والاثينيون «أرتميس». في قبرص أنا «افروديت» وفي كريت «دكتينا» وفي صقلية «برسفوني» وفي إيلوسيس الاغريق أنا أم القمح. البعض يدعوني «جوني» والبعض «بيلونا» سيدة المعارك، والبعض «هيقات» والبعض «رهامنوبيا». أما الكوشيون الذين تشرق الشمس من أرضهم، والمصريون المتفوقون في الحكمة القديمة فيدعونني باسمي الحقيقي: الملكة «إيزيس» ويعبدونني بالطقوس اللائقة بي»[1]. تلك هي إيزيس المصرية، إحدى نبيات عشتار، أو أحد تجلياتها،

---

(1) James Frazer, The Golden Bough, pp 402 — 403

و: Apulius, The Golden Ass, Chapter 17 .

كما يقول أبوليوس الروماني، ما أن تتجلّى وتطل بقسماتها العربية الساحرة حتى تنتشر في الجو كل عطور شبه جزيرة العرب.

لقد بقي من المركز الرئيس عبقه الروحي الطاغي الذي يدل عليه، لكن عشتار تحولت إلى عباءة تضمّ كل كاهناتها ونبّياتها في جسد واحد لن يكون إجحافاً كبيراً إذا ما دعيت جميعاً باسم إحدى نبياتها «إيزيس» كاهنة عشتار في وادي النيل.

تجليات عشتار في مواقع الانتشار:

- إيزيس.

الأصل اللغوي لاسم «إيزيس»:

ذكرنا في الحديث عن اللغة العربية القديمة وعن الابدال في أصواتها سواء في لهجاتها المحلية او في أماكن انتشارها القريبة والبعيدة كيف أن الإبدال كان شائعاً بين الهمزة والعين، والهمزة والهاء، والهمزة والحاء، وكيف أن «الحاء» كثيراً ما كانت تختفي في بعض اللهجات المحلية (كالمندائية مثلاً) أو البعيدة (كاليونانية).

إن أصل الاسم في العربية القديمة هو «حيزيث» فتحولت الحاء إلى همزة (أو اختفت نهائياً ثم اقحمت الهمزة كالعادة في أول الكلام المبتدىء بحرف ساكن) أو تحولت إلى (ع) فصارت «عزّى»، كما تحولت الثاء باللفظ إلى سين، وهذا أيضاً شائع في العربية الدارجة حتى اليوم (مثلاً ــ مسلاً، ثعلب ــ سعلب... الخ) وكان العرب القدامى يكتبون كما يلفظون. أما الاسم فهو في القاموس السرياني من الفعل حزا ــ حزيا، حزيثا ويعني: رأى، ابصر، نظر العواقب، زار، افتقد، اضاع، استوحش، لقي، وجد، تمثّل، فحص، اختبر، قاسى، احتمل، ابتلى، سني، تلألأ، اشتهر، حذق، مهر، صار نبياً، عرافاً، حكيماً.. الخ، وباختصار: إننا، مرة أخرى، أمام الفعل الذي يعطينا، بمجمل معانيه، قصة إيزيس ويفصح عن حقيقتها، فهي التي افتقدت زوجها «أوزيريس» (أوزيري ــ اسم الفاعل في العربية القديمة من الفعل «أزر» ويعني الشفيع، المعين) بعد أن قتله «سيت»

(سيطو= الشيطان، الشر) ومزقه إرباً، فتحملت وعانت الكثير لفقده، وزارت عشتار في بيتها ووجدته في جذع الشجرة التي تحمل هيكلها (بيتها) واستعادته، ثم صارت مثالاً للصبر والوفاء، فاشتهرت وصارت إحدى النبيّات، الحكيمات، العرّافات، البصيرات بعواقب الأمور.

ومن الفعل نجد الاشتقاقات التالية: حزيو= شهير، بهيّ، جميل، شجرة عظيمة. ومؤنثة حِزيث = شهيرة، بهية، قدوة، مثال.. حِزوي = بصّار، نبي، عرّاف، بصير، حاذق، حكيم، ومؤنثة «حِزويث». أحزي = جعله يرى وينظر.

لقد انتقل هذا الفعل مع العرب السوريين إلى بلاد اليونان وايطاليا، واختفت منه الحاء، وتحولت هناك إلى حرف صوتي هو O أو W، وهكذا فإن كلمة «حيزي» التي تعني الحكيم، البصير، العراف، صارت بالانكليزية Wise أي حكيم. وبالفارسية اليوم Wise و«يزي» تعني الرؤية، أما «الفارسية» القديمة فهي العربية السريانية التي يدعوها المؤرخون التوراتيون خطأ بـ «الآرامية» ثم تحول هذا الصوت في بعض لهجات الغرب إلى الصوت V، وتحول الفعل هناك إلى فيزي Vizi، ثم صار أصلاً لفعل «راى» في معظم اللغات الأوروبية. ومنه اشتقت كل التسميات الحديثة مثل Visor أو Vision = الرائي، وtelevisor أو Television أي نقل الرؤية، وتحولت كلمة vize من السلافية القديمة إلى الروسية الحديثة فصارت vide= جذر فعل الرؤية.

وقد توهم الأوروبيون حينما صاغوا هذه التسميات الحديثة أنهم إنما يعتمدون على جذور لغوية اغريقية أو لاتينية، بينما هي في الحقيقة عربية فينيقية التي كانت هي وحدها لغة الحضارة في اليونان وايطاليا القديمتين، والجذر الآخر لكلمة tele هو في العربية القديمة (السريانية والفينيقية) «تيلي» ويعني تلا، قرأ، حمل، نقل، رغّب، شوق، تبع، لحق.

إن «إيزيس» هي إذن «حيزيث» في الأصل وتعني: العرافة، النبية، البهية، الشهيرة، الحكيمة.. وليست عشتار نفسها، بل إحدى راهباتها او كاهناتها.

وقبل أن نحدّد من هي إيزيس لابدّ من العودة إلى البقية المتبقية من التاريخ الذي كتبه لنا سانخونياتن في الألف الثاني قبل الميلاد.

يقول سانخونياتن:

«ومن جانو ابن جن وبرثوجن ولد أبناء فانون، وقد دعوا «فوح» (= الهواء، النسيم، الريح) و«فوير» (= في القاموس السرياني النار) و«فلوقو» (= الفلق، البركان)، وهؤلاء هم الذين ابتكروا النار بحك قطع من الخشب الواحدة على الأخرى، وعلّموا هذه الطريقة للآخرين، وكان لهم أبناء ذوو عظمة وسيادة بارزة، وقد أعطوا أسماءهم للجبال التي كانوا حكاماً لها.
ومنهم جاءت أسماء قاسيو (القاسي) ولبنان (جمع لبان = الكندر، الصنوبر) وحنتي لبنان (= زوجة لبنان)، وبراثي (= البنت، الصبية) ومن هؤلاء دقيوم ساميم رومو (= مراقب السماء العالية) وهو افصو رانيو (= المخلص الراني، الناظر، جبل رنيا)».
ولقد كنا قد تحدثنا مفصلاً عن هذه الأسماء في كتابنا الأول «تاريخ سوريا القديم، تصحيح وتحرير» وبيّنا كيف أن هذه الأسماء اطلقت على الجبال في جبال السراة من شبه جزيرة العرب، اي في المركز، وما تزال تحتفظ بأسمائها حتى اليوم. وليست أسماء جبل قاسيون المطل على دمشق إلا استنساخاً لجبل قاسيو المركزي الذي يعتبرونه خطأ الجبل الأقرع، وما جبال لبنان إلا استنتاخ لتلك الأسماء المركزية تيمناً بفضل أصحابها.
وبعد عدة أجيال يخبرنا سانخونياتن في كتابه «تاريخ فينيقيا» أنه جاء آمون وماجون اللذان خططا القرى والمراعي التي جاء منها ميسور وصديق.. ومن ميسور ولد تحوت الذي دعي تأوت، وثوت، وهرمس، ومار كوري (= رب الجبال بالسريانية والفينيقية)، ومن صديق جاء الكبيري[*].. وابتكروا أولاً السفن. ومن هؤلاء ولد رجال آخرون وجدوا عقاقير طبية لشفاء العضات السامة، واخترعوا كلمات السحر.

وفي عصر هؤلاء ولد واحد يدعى إيليون، وزوجته تدعى فيروت (تلفظ بيروت = الخصيبة، المثمرة)، وهي في اقليم جبيل (مدينة عشتار في شبه جزيرة العرب، أو مدينة إيل، ومعنى جبيل قبة إيل). ومن هذين ولد افيجيو الذي دعي منذئذ غُرانو (الجبل الوعر، العالي، المارد)، وباسمه سمّوا الكائنات

(*) «كبيري» في القاموس السرياني جميع «كبيرو» وتعني الكبير، العظيم، المجيد، الكثير، الوافر، الخصيب.

الـمــوجــودة فـوق رؤوســنـــا... ولــه أخت مـن الأبــويـن نـفسـيهمـا تـدعى «جيا» (= المعظمة، المجيدة، المزدهرة، المتنعمة، المتفنقة، اللذيذة)، ولجمالها سمّوا مثلها ما يوافق اسمها باللفظ. [تجدر الملاحظة إلى أنه جرى الخلط في اليونـان فيمـا بعد بين «جيـا» الـزوجـة المنعَّمَـة، وبين «جـا»، التي هـي القـاع، الأرض] وبعد أن حصل عورانو (أورانو) على تراثه تزوج أخته جيا فرزق منها بـأربعـة أولاد: إيلـو، وهـو قـرونو (= الأقرن، ذو القمتين، ذو البأس، المنيع)، وبتيل (الزاهد)، ودجن الذي يدعى سيتون، وأطلس..

وكـان لأورانـو أيضــاً زوجـات أخريـات أعطوه نسـلاً كثير العدد.. ومـع الزمن ارسل أورانو من مكان لجوئه ابنته عشتارت مع اثنتين من أخواتها همـا رحيا وديوني للقضاء على قرونو بنصب كمين له. ولكن قرونو اتخذهن زوجات له.. فألحقهما به. (وكنا قد شرحنا في كتابنا الأول كيف أطلقت أسماء السيدات على الأنهار والوديات في جبال السراة من شبه جزيرة العرب. ومـاتزال باقية حتى اليوم). ثـم وجه ضد قرونو حمة رمين (وادي حمة العليا اليوم) وحورا (وادي حورا اليوم، وهمـا شمـال شرق مكة) من أتبـاع آخرين، ولكن قرونو احتفظ بهمـا أيضـاً.

وقد ولـد لقـرونـو من عشتــارت سبـع بنـات فدعاهن جيتـاني أي المجيدات، المتكبرات (انظر فعل «جي» في القاموس السرياني)، أو أرتي ميصي (الربات القادرات)، وهي جمع حرتاميصا أي الربة القادرة.

وبعد أجيـال أخرى كثيرة أيضاً كان «طبيون» (الطيب، المنعَّم) أول كاهن عظيم من بين جميع اولئك الذين كانوا في فينيقيا، والذين ترجم لهم بطريق الاستعارة في مجمـوعهـم، وتـم اختـلاطهـم بحـركات العـالم الطبيعية، فانتقلوا إلى أنبياء الأســرار. وهـؤلاء، رغبة في زيادة الغموض في جميع هذه التقاليد، أضــافوا إليهـا ابتداعات جديدة علموهـا لمن خلفهـم، ولمن أشـركوه معهم في طقوس الأسرار (Mystere = المساتير، الأسرار).

ومن هذه الجماعة كان أوزيريس (أوزيري = اسم الفاعل من أزر أي المعين، الشفيـع) مبتكر الحروف الثلاثـة واخ قنـاغ الذي كان أول من غير اسمه إلى

«فونيقي» (= المرفَه، المنعّم، المتفنق)[1]. هذه هي باختصار شديد أهم خطوط النسب لأولئك الآباء العرب الأقدمين الذين عاشوا في المركز وحواليه، والذين ـ على حد تعبير فيلون الجبيلي ـ «حققوا اكتشافات لمساعدة وجودنا، أو الذين عمموا الخير، مهما تكن طبيعته، بين الشعوب. وقد دعي هؤلاء محسنين بسبب أعمال الخير الكثيرة التي يدين لهم الناس بها، وقد عبدوهم كأرباب ولهذه الغاية كرسوا لهم هياكل، كما هي الآن بالتوارث. كما أقاموا لهم أنصاباً وسواري عبدوها باحترام كبير. وقد احتفل الفينيقيون بأكبر أعيادهم على اسم هؤلاء»[2].

ومن المركز في شبه جزيرة العرب انتشرت موجات تقديس أولئك الآباء موجة في إثر أخرى حتى عمّت جميع مناطق انتشار العرب السوريين القدامى حتى شملت حوض المتوسط بشاطئيه الشمالي والجنوبي بما فيها مصر وادي النيل، ومن الهند شرقاً إلى الأطلسي غرباً. ولقد كنا قد شرحنا معنى كلمة «رب» العربية التي تعني السيد، الشريف، الكريم النسب، وبيّنا في كتابنا الأول أن تقديس



إيزيس في ملابسها العربية الزاهية والفخمة

(1) يوسف الحوراني، المرجع السابق، ص36 – 39.

(2) المرجع نفسه.

أولئك الآباء المتميزين لم يكن ليختلف كثيراً عن تقديس الأولياء والصالحين والآباء المقدسين في عصرنا اليوم، وقد تحولوا فيما بعد على أيدي السكان الأصليين في بلاد المورة وإيطاليا إلى آلهة.

بعد هذا صار في إمكاننا الآن أن نقترب من «إيزيس» والتي تقدست في وادي النيل. فمن هي إيزيس؟

إيزيس كاهنة الخصب:

لقد حفظت لنا الوثائق القديمة النسب العربي لكل من إيزيس وأوزيريس، فهما من منطقة المركز في جبال السراة من شبه جزيرة العرب.

يقول أدولف إرمان: «وإننا لنعلم ذلك من مصادر مختلفة، فهناك أولاً نصّان من الجزر الاغريقية، وهما متماثلان فيما يتضمنانه. غير أن أحدهما يقص في شعر هومري ما يحكيه الآخر نثراً: «إنني أنا إيزيس، عاهلة البلاد جميعاً. لقد تعلمت على يد هرمز (الذي هو تحوت) وابتدعت بالاتفاق مع هرمز، الكتابة الشعبية حتى لا يكتب كل شيء بحروف واحدة. لقد سننت للناس القوانين، وأبرمت مالا يستطيع البشر نقضه، إنني كبرى بنات قرونو. إنني زوج الملك أوزيريس وأخته، إنني أنا التي تشرق في نجمة الكلب. إنني أنا التي يسميها النســاء ربة، من أجلي قد شيدت مدينة بوسطة (فصحتا = البهية، السنية، المنيرة، المتلألئة، كانت الفاء تلفظ P واختفت الحاء، وكتب الصاد سيناً باللغات الأخرى). إنني أنا التي فتقت السماء عن الأرض، وبينت للنجوم مسالكها، واخترعت الملاحة، وعقدت بين الرجل والمرأة.. وقضيت بأن يحب الأبناء آباءهم. لقد وضعت مع أخي أوزيريس حداً لأكل البشر، وأريت الناس الأسرار الخافية، وعلمتهم كيف يعبدون تماثيل الآلهة، وحددت مناطق معابد الآلهة. لقد أذلت دولة الطغاة، وحملت الرجال على حب النساء، وجعلت العدالة أقوى من الذهب والفضة، وقضيت بأن يرى الناس الحق جميلاً...»[1]. «وقد قيل إن كتابة مماثلة تماماً كانت على قبر لإيزيس في بلاد العرب، كما قيل كذلك إنه كتب على

---

(1) انظر: أدولف إرمان، المرجع السابق، ص473.

و: C.I.G XII, 5, I.P. 217, 27

قبر أوزيريس: «إن أبي هو قرونو أصغر الآلهة أجمعين، وإنني أنا الملك أوزيريس الذي أدار الحرب في أنحاء الأرض كلها حتى بقاع الهند الخاوية، وحتى مناطق الشمال إلى منابع الدانوب، ثم إلى المحيط. إنني أنا الابن الأكبر لقرونو. وقد ولدت جنيناً من بيضة جميلة شريفة.. وليس في العالم مكان لم أبلغه. وقد منحت الناس أجمعين ما وجدته»[1].

إن هذه الوثيقة تضعنا مباشرة أمام الحقائق التالية:

1 . إن إيزيس وأوزيريس من أبناء قرونو (الذي هو إيل) من جبال السراة في شبه جزيرة العرب. وإن قبريهما هناك أيضاً كما تؤكد الوثيقة. لكن هذا لا يحدّد لنا بدقة إن كانا ابنين مباشرين لقرونو أم من أحفاده، إذ أنه جرت العادة العربية منذ القدم أن ينتسب الناس لأحد الأجداد المتميزين مهما بعد الزمن.

2 . لقد كانا ملكين في إحدى المناطق وزوجين. وإن كلمة «أخت» العربية القديمة هي «حت» وتلفظ بالسريانية «حيتو» وتعني: «أخت، قريبة، نسيبة، عشيرة، رفيقة، صديقة، مثيلة، حليفة، قرينة، راهبة، ومثلها .. أخ» التي هي بالسريانية «أحو» و«أحنو». ولهذا فعندما قال ابراهيم الخليل لابن أخيه لوط «نحن أخوان فلماذا نتقاتل من أجل المرعى» لم يكن يعني أنهما أخوان شقيقان، بل كان يعني «نحن قريبان». وكذلك حينما قال لزوجته سارة «قولي لهم إنك أختي». وإن اللقب «أحن اتون» (أخناتون) تعني راهب أو كاهن أتون، وليس أخاه. وإن اسم «حت سبسوت» (لملكة وادي النيل) يعني راهبة الخصب وليست أخت إذ أن «سبسوت» في العربية القديمة السريانية والفينيقية تعني الخصب، وهي من الفعل أسبس = أخصب، واسباسيا = الخصيبة. وإن «الأخيين» (أحيني) تعني الأقرباء، أبناء العشيرة، وهم من أول العشائر السورية التي نزحت من الشمال السوري إلى بلاد المورة، وبناء على هذا فحينما نقرأ في وثيقة قديمة أن الملك تزوج أخته فقد كان المقصود بها قريبته وليس أخته الشقيقة. وكذلك ينبغي أن نفهم علاقة القرابة بين إيزيس وأوزيريس.

3 . إن إيزيس وأوزيريس كانا، مثل باقي الآباء العرب السوريين المتميزين،

---

(1) المرجع نفسه، ص474 .

معلّمين، وهذا ما يقوله النص صراحة. وكان التنقل في الأرض وتعليم البشر المتخلفين (البرابرة) من سكان الكهوف اللغة والكتابة والزراعة والقانون وتقاليد الأسرة والزواج والعبادة تقليداً رسولياً عند قدامى السوريين حتى دعاهم سكان الغرب (التي دعيت فيما بعد أوروبا) «السادة المعلمين أبناء الآلهة». وإذا كانت إيزيس وأوزيريس قد اختارا بلاد وادي النيل مسرحاً لرسالتهما التعليمية فإن هذا يؤكد ـ كما يشير النص صراحة ـ على تخلف بلاد وادي النيل قبل إيزيس وأوزيريس.

4 . وبما أن إيزيس ابتدعت الكتابة الشعبية بالاتفاق مع هرمز (الذي هو تحوت) فإن هذا يعني أنها عاشت في الألف الرابع قبل الميلاد، وهو زمن اختراع الكتابة الأبجدية، وهو زمن إيل وعناة في أرض كنعان في بلاد غامد من شبه حزيرة العرب، وهو زمن انحسار الزواج العشتاري التكاثري وبناء تقاليد الأسرة في الأرض العربية. ومن اليسير أن ندرك أن كلاً من إيزيس وأوزيريس لم يخترعا ذلك، بل كانا المؤسسين لذلك في أرض وادي النيل، فجرى تقديسهما هناك، وتحولا إلى ربّين (أي سيدين)، ثم اختلطت الأمور، كعادتها في كل مكان، وصار السيد المعلم ظهوراً أو تجلياً للإله أو الإلهة.

وإذا ما عدنا إلى تسلسل تلك الأجيال العربية القديمة كما أوردها سانخونياتن فإننا نجد أن أوزيريس، الذي هو آخو فينيق، جاء بعد أجيال كثيرة من قرونو، ومن عشتارت التي تقدست هي الأخرى كواحدة من ربات الخصب، وتحديداً في زمن نشوء ديانة الأسرار التي جاءت رداً على التمادي في «نفخ» تقاليد الخصب الجنسية العشتارية بحيث صار الفحش والفسوق الجنسي هو الطاغي على عقيدة الخصب لعشتار.

ولما كانت ديانة الأسرار مقتصرة في الأصل على أناس معينين، ولها طقوسها ومراتبها المغرقة في السرية، وتعتبر هي، أو «الأورفية» (الحورفية من «حورفو» بالسريانية والفينيقية وتعني الخروف، الحمل، الجدي، وهو رمز أدونيس) البناء العقائدي الداخلي المنظم لعقيدة الخصب السورية القديمة، فإن عامة الناس أخذت من العقيدة ظاهرها وما يتلاءم مع رغباتها الحسية، فانتشرت تقاليد الاحتفالات الماجنة في كل أنحاء اليونان وإيطاليا، وزاد الطين

بلّة ظهور الكاهن السوري «باخوس»(*) (ويعني الفاحش، الداعر) في بلاد اليونان لينشر هناك طقوس العهر المكشوف الصاخب أثناء الأعياد. وهكذا صار لإيزيس نوعان من الطقوس: سرية، منظمة طقسياً وعقائدياً، وظاهرية مكشوفة ماجنة، وفي كلتا الحالين اختلطت مع عشتار وادونيس، وسيبيل واتيس (التيس، الجدي)، وتحولت في كل مناطق الانتشار السوري، مثلها مثل كاهنات الخصب السوريات الأخريات إلى إلهة.

ولهذا «فلم يكن في الامبراطورية الرومانية الواسعة الأرجاء مقاطعة واحدة لم تكن تعبد فيها الإلهة المصرية، حتى استطاع ترتوليان أن يقول: «إن الأرض بأسرها تعقد الإيمان باسم سيرافيس» (سير افصو = السيد المخلّص). وإننا لنجد في افريقيا الشمالية، وفي اسبانيا، وفي بلاد الدانوب، وفي فرنسا، وحتى في انجلترا نفسها، نقوشاً تكرم فيها إيزيس وسيرافيس.

وكان لايزيس كذلك ربوعها في مناطق جبال الألب وفي المانيا، وتقرّر أحد المصادر المسيحية في تقريع أن نونسبرج جنوب بوزن كانت كأنها اسكندرية ثانية ملأى بحماقات إيزيس واختفاء سيرافيس.. وكان في مارينهوزن في مقاطعة الرين مذبح لسيرافيس، أقامه ضابط روماني»(**)(1).

وهكذا تحولت «الربة» (بمعنى السيدة والمعلمة) إلى إلهة في كل مكان. لقد كان في التقليد العربي ان يقال للمعلم رباً اي سيداً إجلالاً لمهمته الرسولية، وهذا ما قيل لعيسى المسيح. ففي إنجيل يوحنا نقرأ:

«فالتفت يسوع ونظرهما يتبعان، فقال لهما: ماذا تطلبان؟ فقالا: ربي الذي تفسيره يامعلم اين تمكث؟» (1 : 38).

(*) من الكلمة دعيت محلات البغاء والدعارة في سوريا منذ القدم، ففي مدينة حلب كان المبغى يدعى «بحسيتا»، وفي دمشق «بحستا»، وهو «البحصة» الحالية. والكلمة هي «باحوس» و«باحوش» وتعني الشهواني، الهائج، المغتلم...

(1) ادولف إرمان، المرجع السابق، ص486 – 487.

(**) من الواضح ان «سيرافيص» تعني في العربية السريانية والفينيقية السيد المخلص، وهو لقب تموز، وادونيس، واوزيريس وغيرهم.. وان كتائب الجيش السوري في روما هي التي كانت صاحبة السطوة وتنصب الأباطرة إذ حكم روما عشرة اباطرة سوريين متعاقبين بينهم أربع سيدات حمصيات وابناؤهن الثلاثة وزوج إحداهن.

أما عن الموضع الذي يوجد فيه قبر إيزيس وأوزيريس في شبه جزيرة العرب فثمة دلائل تشير إلى أنهما دفنا في أعلى السراة شمال منطقة خميس مشيط، حيث السراديب أو مغارات الغرب السرية تحت جبل أبيدا. ففي «كتاب العالم السفلي» المصري القديم نقرأ:

«ففي الساعة الثالثة يصل (الميت) إلى حقل أوزيريس... أما الساعتان الرابعة والخامسة فتقودانا إلى منطقة غريبة، إلى «السراديب او مغارات الموت السرية» حيث يسكن الإله العظيم القديم للموتى.. وحيث يسود الظلام.. وهذه المنطقة صحراء رملية لا ماء فيها، وتسكنها الثعابين، بحيث لابد لسفينة رع نفسها أن تستحيل ثعباناً لتجرّ خلال سرداب هو الطريق الذي دخلت منه جثة سكر، اسفل الكثيب الذي دفن فيه سكر، والذي تطلّ منه رأسه الآن لتشاهد الشمس.

وفي الساعة السادسة تجد سفينة الشمس مرة أخرى مجرى من الماء وهي في هذا الحقل غير بعيدة عن جثة أوزيريس»[1]

إن هذا القول يصف لنا سراديب عالم الموتى كبيرة واسعة قرب صحراء تكثر فيها الثعابين، وفي تلك السراديب يمكن أن نلتقي بأنهار جوفية كبيرة، كما أن السفينة، «سفينة الرب»، يمكن أن تتحول إلى ثعبان هائل يمرّ في «السرداب» بسرعة خاطفة، و«طوله 1300 ذراع»[2]، إن هذا يذكرنا بـ «قطار الأنفاق» (المترو)!.

«ولكن خطّاً آخر يعرض في هذا الطريق الخفي الذي يبحر عليه الإله في سفينته الفاخرة، وذلك انه خلو من الماء. وفضلاً عن هذا فإن هذا المغار يخصّ أوزيريس الذي نرى «لحما» (الخاص به) متربعاً على العرش ملكاً.. واغرب من هذا أن إله الشمس يصل في هذه الساعة وفي الساعة التالية إلى رواب من الرمال قد دفنت من تحتها آلهة شتى كأتوم، ورَع، وخبري، وشو، وتفنوت، وغيرهم.. وفي الساعة الثامنة تنادي شتى الأرواح رع، حتى ليبدو لجيبهم كأنه.. طنين جماعة من النحل»[3].

---

(1) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص264 .

(2) المرجع نفسه، ص166 . (3) المرجع نفسه.

فعالم الأرواح، كما هو واضح، في مغاور، بجوار الرب، وهناك مثوى الأرباب الآخرين ايضاً. والمدخل قريباً من جبل سكر، حيث «الطريق الذي دخلت منه جثة سكر، أسفل الكثيب الذي دفن فيه سكر» وقد تقدس عند السومريين والآكاديين والبابليين في سوريا باسم «اشكر» «ومن صفاته في المدائح الإلهية سيد حواجز السماء»[1].

اما «سكر» فتعني في القاموس السرياني: الصادّ، المانع، قاطع الطريق، كاتم السر، ومن الكلمة كانت سكرتا = سر، وسكرتار = كاتم السر، أمين السر في العربية القديمة، ومنها ذهبت إلى جميع اللغات الأوروبية الأخرى.

ولما كان الأبدال بين العربية القديمة والحديثة في تحول كل سين إلى شين، فقد صار هذا الجبل يسمّى شكر. وهو الذي يقف حاجزاً يمنع الدخول إلى «عالم السماء» في الأرض تحت الجبال المقدسة.

وفي تقصّينا لهذا الجبل «شكر» في جبال السراة من شبه جزيرة العرب عثرنا على الآتي:

يقع جبل شكر في أعالي السراة عند أعالي وادي بيشه. وتقع بالقرب منه بلدة «جرش» الأثرية القديمة جداً، والتي دعيت مدينة «جرش» الأثرية في سوريا الغربية باسمها تيمناً بها لأنها في الأرض المقدسة.

«ويصف الأستاذ هاشم بن سعيد النعيمي موقع مدينة جرش بقوله: تقع على قاع منبسط بالقرب من سفح جبل شكر، من جهته الغربية. وتمتد في شكل خربة تقدر بكيلين ونصف طولاً وعرضاً، وأطلالها ماتزال ماثلة حتى الآن في شكل اهرام[*] متهدمة، ويوجد بها آثار من أبرزها المسند والصخور المنحوتة ذات الحجم الكبير الرائع، ويقف منها جبل شكر موقف الحارس الرهيب، إذ هي تقع في كنفه من الغرب. وفي عصرنا هذا يطلق على جبل شكر اسم حمومة أو الحمّة، وهو جبل منيع جداً يبلغ ارتفاعه عن سطحه حوالي الف قدم في امتداد خمسة اكيال تقريباً في الطول، وموقعه في متوسط بلاد رفيدة. وبالقرب من

---

(1) ادذارد، بوب، رولينغ، المرجع السابق، ص44 - 45 .

* إن في هذا دليلاً على ان تقليد بناء الأهرام نشأ في «المركز» في جبال السراة.

أُحُد(*) رفيدة من ملحقات أبها بحيث يقع على بعد أربعين كيلاً عن مدينة أبها في الاتجاه الجنوبي الشرقي، مما يسامت طور القرعاء شرقاً بنحو أربع ساعات تقريباً»[1].

أما حمد الجاسر فيقول في كتابه «في سراة غامد وزهران»: «كتب لي الأخ الأستاذ سليمان بن رشيد الهمزاني ـ احد رجال التعليم في تلك البلاد كتاباً بتاريخ 1381/2/12هـ: قمت برحلة من أبها إلى جرش، فبتّ في خميس مشيط. فعلمت أن ذلك المكان يبعد عن خميس مشيط بنحو ثلاثين كيلاً في الجنوب. فاتجهت في سيارة، ومعي من يرشدني إلى الجهة المقصودة، فواصلنا السير، وعلى مقربة منها وجدنا مزرعة، رافقنا صاحبها، بعد ان اشار إلى الموقع، وبعد سير قصير اعترضتنا ركام متناثرة ممتدة من الجنوب إلى الشمال، بحيث لم تستطع السيارة نفوذها. فسرنا على الأقدام، فأول ما شاهدنا آثار غرف مبنية بالحجارة البيضاء، تبلغ مساحة بعضها عشرة أمتار طولاً وخمسة عرضاً، ويبلغ طول بعض الحجارة متراً وربع المتر في عرض ربع متر، وسمكه كذلك. وأثناء سيرنا في وسط تلك الآثار وجدنا عدداً من الحفر الواسعة المعشبة، والأفنية الرحبة المتفرقة، ورأينا حطاماً كثيراً من الآجر والفخار، كما رأينا طبقتي رحا عظيمتين طول الواحدة متران تقريباً في عرض مماثل، والسمك يبلغ نصف متر. ولكنني لم أجد ثقباً للعود الذي تدار به الرحى عادة. ووجدت بقرب الثقب الذي يوضع فيه ما يطحن من برّ او غيره حفرة مربعة، ولما بلغنا منتهى آثار المدينة من الناحية الشمالية وجدنا طبقتي رحى أخرى مثل التي وصفناها.

وقد قدرت مساحة موقع المدينة من الجنوب إلى الشمال بنحو كيل ونصف، ومن الشرق إلى الغرب عرضاً بنحو كيل.

وقد قدّرت أن تلك الحفر المعشبة كانت آباراً، وأن الرحوين كانتا تداران بواسطة آلة، وأن الأحجار التي بنيت بها البيوت كانت تنقل من أمكنة بعيدة،

---

* إنه التمثيل الأول لجبل «حيدا» أو «إحدا» بالفينيقية.

(1) فؤاد حمزة، تاريخ عسير، ص12 – 13 .

بدليل بياضها الناصع، مع أن الجبال المحيطة بالمدينة سوداء حالكة السواد، وظهر لي من تناثر بعض الغرف والأقنية أنها مدمّرة بفعل حرب ضروس.

ثم سألت رفيقي: ما اسم هذا الجبل الحالك اللون الذي يقع شرقي المدينة الخربة، يفصل بينهما الوادي؟ فقال: جبل حَمومة، وحذرني من الوصول إليه، وانه لا يصل إليه أحد. فسألته عن السبب، فقال: إنه جبل تألفه الجن، وفيه حيّات وافاع كثيرة لحراسة دفين هناك، واسترسل في سرد خرافات وأساطير لا يقبلها العقل، ولكني عزمت على الذهاب إليه ومعي بندقية صيد، فوصلت إليه وصعدته، وفي أثناء الصعود رأيت على وجه صخرة كبيرة كتابة لا أفهمها، ورأيت كتابات كثيرة متفرقة في ذلك الجبل. وكنت أسمع أثناء السير رنيناً شديداً، استغربت، ثم ظهر لي أن عقب البندقية عندما يقرع أحد الصخور يحدث ذلك الرنين الذي جعلني أعتقد أن صخور ذلك الجبل قد تحوي بعض المعادن كالحديد الصلب. ثم بلغت قمة الجبل، فوجدت فيه مكاناً مستوياً فيه آثار قلعة متهدمة، وكسر فخار وآجر. ووجدت أسفل القمة قليلاً صخرة كبيرة تقع في الجنوب الشرقي من الجبل قد رسم فوق وجهها صورة امرأة على رأسها تاج، والصورة عجيبة المنظر، بديعة الشكل، لا أعتقد أن يد الرسام الماهر في زمننا تبرز مثلها، بحيث برزت تقاسيم الصورة كاملة بغاية الدقة، مما يحمل على الاعتقاد بأن الرسم كان بآلة قوية، وأن الرسام استعمل مادة تلين الصخر.

ثم أخذت أبحث في الجبل من جميع نواحيه فلم أر غير الكتابات (انتهى كلام الأستاذ الهمزاني)»[1].

ويضيف حمد الجاسر انه استقصى في كتب التاريخ ما قاله علماء التاريخ عن جرش وأهلها وماحولها فقال: «وأقدم ما وصل إلينا ممّا أطلعت عليه مدوّناً هو خبر وفد جرش في سنة عشر من الهجرة، وقد ورد في بعض المؤلفات بعنوان: خبر وفد الأزد أورده ابن سعد في «الطبقات» وابن هشام في «السيرة» وابن جرير في «تاريخه»، ونصه: قدم صرد بن عبد الله الأزدي في بضعة عشر رجلاً من قومه وفداً على رسول الله ﷺ، فأسلم وحسن إسلامه، فأمّره الرسول

(1) حمد الجاسر، المرجع السابق، ص46 – 48.

على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بهم من يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن. فخرج صرد حتى نزل بجرش، وهي مدينة حصينة مغلقة، وبها قبائل من اليمن قد تحصنوا بها، وقد ضوت إليهم خثعم، فدخلوا معهم حين سمعوا بمسير المسلمين، فحاصروهم بها قريباً من شهر، وامتنعوا فيها، ثم إنه رجع عنهم قافلاً حتى إذا كان إلى جبل يقال له «كشر» ظنّ أهل جرش أنه إنما ولّى عنهم منهزماً. فخرجوا في طلبه، فصفّ صفوفه، فحمل عليهم هو والمسلمون، فوضعوا سيوفهم فيهم حيث شاؤوا، فقتلهم قتلاً شديداً، وأخذوا من خيلهم عشرين فرساً. فقاتلوهم عليها نهاراً طويلاً، وقد كان أهل جرش بعثوا إلى رسول الله ﷺ رجلين يرتادان وينظران، فبينما هما عند رسول الله عشية بعد العصر إذ قال رسول الله: «بأي بلاد الله شكر؟»، فقام الجرشيّان فقالا: يارسول الله ببلادنا جبل يقال له جبل كشر وكذلك يسميه أهل جرش. فقال: (إنه ليس بكشر، ولكنه شكر)، قالا: فما باله يارسول الله؟ قال: إن بدن الله لتنحر عنده الآن، فجلس الرجلان إلى أبي بكر، أو إلى عثمان، فقال لهما: ويحكما، إن رسول الله الآن ينعي لكما قومكما، فقوما إلى رسول الله فاسألاه أن يدعو الله فيرفع عن قومكما.. فقاما إليه، فسألاه ذلك، فقال: «اللهم ارفع عنهم». فخرجا من عند رسول الله ﷺ راجعين إلى قومهما، فوجدا قومهما أصيبوا يوم أصابهم صرد بن عبد الله في اليوم الذي قال فيه رسول الله ما قال، وفي الساعة التي ذكر فيها ما ذكر. فخرج وفد جرش حتى قدموا على رسول الله، فأسلموا، فقال: «مرحباً بكم، أحسن الناس وجوهاً، وأصدقه لقاء، وأطيبه كلاماً، وأعظمه أمانة، أنتم مني وأنا منكم»[1].

ذاكم هو جبل «شكر» الأسود الكالح السواد، حيث تحته دفنت جثة «سكر» كما في كتاب الأموات المصري القديم ودعي باسمه، والذي بقي اسمه خالداً وما تزال تلك الواقعة حية إلى اليوم، فيقولون إن تحته دفيناً قديماً تحرسه الثعابين.. وهو جبل بركاني أسود، ويسمّى أيضاً جبل حمومة أو الحمة، والكلمتان عربيتان قديمتان. ففي القاموس السرياني نجد أن حموما،

---

(1) المرجع نفسه، ص43 – 44 .

حمومتا = حميم، حار، متقد، حاد، قحل، يابس، تائق، راغب، مهتاج، مفتلم، عين ماء حار، معدن، كبريت، عذراء، فتاة، بكر.

ونحن لا نشك في أن الصورة المحفورة في الصخر القاسي لامرأة بارعة الجمال تضع على رأسها التاج ليست إلا صورة للربة العذراء عشتار، أو لإحدى «تجلياتها» أو «كاهناتها» كإيزيس مثلاً.

أما ترحيب الرسول الكريم بأهالي جرش ومنطقة جبل شكر بمثل تلك الصورة فأمر ملفت للنظر فعلاً دون أن نعرف القصد.

ولربما كان هذا الجبل المهيب الحالك السواد هو الجبل الذي مرّ عليه جلجامش في طريقه إلى «أرض الخلود» ودعي جبل «اللكام» واللكام في القاموس السرياني تعني الحالك السواد.

ثمة أمر آخر في نص «كتاب الموتى» يلفت الانتباه، وهو أن الأموات يجدون «لحما» أوزيريس على العرش في المغارة، (وينقلونها كما هي «لحما»). والحقيقة إن «لحما» كما سبق أن مرّ معنا، هي النفس المثال العذراء الطاهرة، التي تعود إليها النفس المثيلة (لحما الثانية) لتقترن بها بعد الموت. إنها الزوج التي تنتظر زوجها حينما يصفو ويخلص من عالم الفناء الدنيوي. وليست «لحمه» بمعنى قمحه أو خبزه، لأن اللحم في العربية القديمة تعني أيضاً القمح والخبز. لهذا قيل في التراث العربي القديم: إن أول المخلوقات كان «لحما» و«لحما» أي النفس بشقيها: المثال الذي ينتظر، والمثيل الذي هبط إلى الحياة الدنيا، إلى دار البلاء والتجربة.

لقد عمت عقيدة الخصب السورية أرجاء العالم القديم كله، ففي وادي النيل رأينا كيف أن إيزيس كانت إحدى كاهنات الخصب، أو أحد ظهورات عشتار، وهي وأوزيريس عربيان من شبه جزيرة العرب، ينتسبان إلى قرونو (إيل) بن أورانو، وقبراهما في جبال جزيرة العرب أيضاً، وإلى جانب ذلك أيضاً كانت عبادة الأرباب السوريين في منطقة الدلتا والوجه البحري، وهي منطقة التواجد والنفوذ السكاني والاقتصادي السوري الدائم، منتشرة دونما مزاحمة من آخرين، يقول أدولف إرمان: «وهكذا نرى عشتارتي ترتبط بإلهة الحرب المصرية سخمت في منف، وقدوش بحاتحور، والإله السوري رشف يختلط

بسوتخ في الدلتا الشرقية. والإله رشف هذا هو صاحب القوة بين التاسوع، وهو إله محارب مسلّح بحربة ودرع، وهو يلبس تاجاً لمصر العليا، ولكن لباسه يكفي لاثبات أصله الغريب. فيه تعلّق شرائط على النقبة، وشريط آخر طويل يتدلى من تاجه الذي يزينه من أمام قرنان أو رأس غزال. وعلى كل فقد كان يوجد بلا شك، اكثر من رشف، لأن إحدى القصائد جاء بها أن ضباط رعمسيس الثالث أقوياء كالإله رشف، ولم يكن أولئك الذين يعبدون إله الحرب هذا جميعاً محاربين بالضرورة.. أما الالهة «قدش» التي تقف أحياناً إلى جانبه فلها طابع سمح مثل «حت حور» (راهبة حور).. وهي مثلها تدعى «عين الشمس» أو ابنة رع، وحين تقف على الأسود وتمسك في الوقت نفسه زهوراً وأفاعي، فإن معنى هذا، بمنتهى البساطة، أن تعمل للحماية من هذه الحيوانات الشريرة. وفي الوقت الذي كان فيه لرشف وقدش دائرة من المؤمنين بهما كان لبعل والإلهتين عناة وعشتارت نفوذ أعم.

«وبعل كائن مخيف ــ كما تظهره رسومه ــ واسمه = بست. وهو إله العواصف والزوابع، وهو يقف على الجبال ويزأر في السماء. أما في الحروب فإن الملك كان يشبه ببعل حين يكون ثائراً. ولقد شاع بين الشعب حتى لم تعد تحس قيمة اسمه، وحتى صار يسبق بأداة التعريف «البعل» كما لو كان اسماً عاماً يدل على الإله.

«وكما كان في كنعان اكثر من بعل واحد، فإنه كان يجب أن يعبد في مصر اكثر من بعل كذلك. ومن هنا نعرف بعل قادش وبعل صفون الذي يظهر انه كان إلهاً للملاحين. ومن ناحية اخرى كان يوجد كذلك معبد لبعل في منف، ونحن نعرف كاهناً لهذا الهيكل كان في خدمة بعل وعشتارت، وهو يحمل اسماً اجنبياً، وإن كان قد دفن خلال حكم أمون حوتب الرابع كمصري خالص. وكانت للإلهتين عناة وعشتارت شهرة عامة في مصر خلال الدولة الحديثة على نحو ما كان لبعل، وكلتاهما إلهتا حرب. ويمثل أحد المناظر إحداهما وهي تمتطي حصاناً وتمسك بيدها بلطة الحرب ودرعاً (وهو نقش قام به أحد الضباط في الصحراء، انظر L.D. III. 138). وحين أصبحت عناة، بعد ذلك، إلهة مصرية بحتة اضطرت إلى نبذ تلك الطبيعة المحاربة. وحين نراها بعد قرون في معبد فيله إذ بها

تتحول إلى إيزيس ولهـا ابنها حوريس. ثم نرى أوغسطس يقدم لها مرآتين كهديـة مناسبة لهـا.. وحين ينقض تحوتمس الرابع ـ في عربته ـ على العدو فإنه يقود حصانه كما تقوده في الوقت نفسه عشتارت[1]. وفي قصة حوريس وست نراهمـا قد أعطيتا لست إله الحرب كتعويض عما أصابه من ضرر.. وفي قصــة أخرى يذكر كيف أن الآلهة التي أزعجها البحر أحضرت عشتارت من ســوريـا إلى مصر، وأن هذه الآلهـة قامت بـاستقبـالها رسمياً، وأنها أعطيت عرشــاً، وجلست عليـه. وأن «الآلهة الكبار وقفوا أمامها، وأن الآلهة الصغار انبطحوا على بطونهم»، وهي كذلك تعتبر ابنة لفتاح، وليس من عجب بعد ذلك أن تتوطن بســرعة في منف. وقد كـان لها في عهد أمنوفيس الرابع معبد خاص بها»[2].

«وقد عبد ملوك الأسرة التاسعة عشرة أيضاً إلهتي الحرب. فترى الحيّ الشرقي من العـاصمـة الجديدة في عهد رعمسيس الثاني مكرســاً لعشترت. بينما كان الحي الغربي مكرســاً للإلهة «بوطو». ولم تكن خيل الملك تسمّى باسـم عنات وحدهـا، بل إن ابنته كذلك تحمل الاسم السامي «بنت عنات» أي ابنة عنات.

«وهناك آلهة أجنبية أخرى ليست لها أية صلة بعشترت، وقد عبدت كذلك في منف وهي الإلهـة السورية عشتار، وهي ترى مرة مع الإلهة «قدش» تعطيان الصحة لواحد من خدم الكاهن الأعظم افتاح. ومرة أخرى نتعرف عليها بشكل ادق كإحدى الإلهات التي دعيت لتسدي معونة. فلقد كان بواب معبد فتاح مشوّه السـاق، كما تبين لنا صورته في اللوحة، وكان يعتمد على معونة هذه الإلهة، خاصة لأنه هو وزوجه من أصل سوري...»[3].

إن هذه النصوص التي يوردهـا إرمان نقلاً مباشراً عن الوثائق المصرية القديمة ترينا:

1 . وحدة الشعبين السوري والمصري منذ الزمن الموغل في القدم لغوياً ودينياً وثقافياً.

---

(1) Davies, Tomb of Thutmossis, Iv, Pl, 10

(2) Ranke, Studies for Griffith, P. 416

(3) ادولف إرمان، المرجع السابق، ص168 – 171 .

2 . أن إيزيس وعشتارت تمثلان «ظهورين» أو تجليين للأم السورية الكبرى عشتار في كل من سوريا ووادي النيل، وكان سانخونياتن قد حدثنا كيف ان عشتارت إحدى زوجات قرونو بن اورانو، وأن أوزيريس وإيزيس من احفاده.

3 . إن العقيدة واحدة في سوريا ووادي النيل. فالإله افتاح (الفاتح) الذي كان أول من باشر عملية الخلق في الماء كان إلهاً مقدساً عند العرب القدامى جميعاً، بدليل أن كهنته في مصر من السوريين، وبواب معبده سوري ايضاً، وهو نفسه عند السوريين المندائيين أيضاً.

4 . إن الأرباب السوريين والمواطنين السوريين لم يكونوا يعاملون كـ «أجانب» في وادي النيل. وهذا يعكس ما تحاول معظم الدراسات الغربية ترسيخه، وهي تبذل جهوداً مضنية من أجل جعل «حضارة وادي النيل» ليس لها علاقة بمحيطها العربي منذ الزمن القديم، وانها لم تعرف العروبة إلا مع الإسلام!.

5 . إن الحصان عرفه العرب الأقدمون منذ عهد عشتار، وكانت أول من روّضه، وإن أصل الحصان العربي من شبه جزيرة العرب موطن عشتار، ولم يأت إلى المنطقة «بفضل العنصر الهند وأوروبي المزعوم» و«المتفوق عسكرياً!» فلقد اعتدنا على ثرثرات المؤرخين الأوربيين الذين أفرزهم عصر الاستعمار، فكانوا أفضل تعبير عن امم خرجت من قاع الهمجية لتجد نفسها بعد حين مسلّحة بأحدث تكنيك حربي، فمزقت التاريخ البشري، وكل ما كانت قد بنته الإنسانية من قيم عبر نضالها الماضي الشاق والطويل، وجعلت منه «مماسح» للبنادق ولأحذية الجنود الجائعين إلى لحوم البشر في كل اتجاه.

6 . إن هذه النصوص تؤكد أن ديانة الخصب السورية لم تدخل إلى وادي النيل دخولاً عابراً، وإنما كانت ديانة للجميع، راسخة، مستمرة في كل العهود، ومع كل الأسر الحاكمة. وإن هذا هو ما يفسر كون الشاطىء المصري المتوسطي القديم لم يتميز بشيء عن الشواطىء الأخرى سواء في سوريا المتوسطية أو في الشمال الافريقي، وأن ما دعاه المؤرخون الغربيون فيما بعد بـ «التأثير الاغريقي في وادي النيل» لم يكن إلا ذلك التراث العربي الواحد الذي امتد إلى كل الأنحاء، وكانت اليونان وايطاليا وكل بلدان المتوسط جزءاً منه وليس العكس.

إن «نقراطي» و«الصناع المهرة الأجانب» في الدلتا لم يكونوا «إغريقاً» كما يزعم

المؤرخون بل من العرب السوريين الذين كانوا قد بنوا في اليونان نفسها كل ما تزهو به. وليس أمراً لا يلفت النظر ـ كما يقول بيير روسي ـ أن المكتبات وذخائر العلم لم توجد يوماً في اليونان وايطاليا، وإنما في صور، وقرطاجة، والاسكندرية، ثم في بغداد، ودمشق، وقرطبة.. كما لم يكن مجرد صدفة أنها دمرت جميعاً على أيدي برابرة آسيا واوروبا.

ويؤكد أدولف إرمان نفسه أن طقوس الدفن في سوريا ومصر القديمة هي واحدة ويقول: «ومن الصعب أن تكون الصدفة هي السبب في أن نجد تلك الصورة نفسها في نقوش المقابر القديمة في شمال سوريا تلك التي ترجع إلى الألف الثاني قبل الميلاد... وفي المقابر الأتروسكية (في ايطاليا)»[1].

ويقول أيضاً: «ولم تنقطع هذه الصلة الدينية مطلقاً. وقد وجدت جبيل سبيلها كذلك إلى أسطورة أوزيريس. وكذلك ذكرها أحد كتاب الدولة الحديثة كأنها مدينة مليئة بالأسرار. ويمكن أن يقال الشيء الكثير عن إلهتها، وكانت هذه الإلهة، وهي «بعلة جبيل» أو «سيدة جبيل» كما تسمى في اللغة المصرية، الحامية العظيمة للملاحين، ومنهم كذلك الملاحون المصريون. وقد سوّى هؤلاء بينها وبين «حات حور». ولهذا كانت «حتحور» تسمّى منذ ذلك الوقت «سيدة جبيل». (وفي الدولة الوسطى نفسها كان اسمها يطلق على الفتيات الصغيرات). كانت «حتحور» تعتبر كذلك حامية الملاحين وإن كانوا لا يبحرون إلى جبيل وإنما في البحر الأحمر. بل إن السفينة التي كان الميت يبحر فيها إلى السماء كانت تقودها «حاتحور» سيدة جبيل»[2].

وكنا قد أوضحنا كيف أن «جبيل» المقصودة هي التي في المركز، وهي أول مدينة أنشأها «قرونو» (إيل) على نهر الليث (الكلب) في جبال السراة في شبه جزيرة العرب حيث موطن الأرباب، والتي دعيت جبيل على الشاطيء السوري تيمناً بها[*]. وتلك التي شهدت قصة أوزيريس. ممّا يؤكد مركزية النشأة السكانية والحضارية مرة أخرى.

---

(1) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص387 .

(2) أدولف إرمان، المرجع نفسه، ص389 ؛ و Lalau, Textes religiex no

(*) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا «تاريخ سوريا القديم، تصحيح وتحرير».

وكما كان السوريون يحتفلون في بداية الربيع بموت الإله وقيامته، كذلك الأمر نفسه انتقل إلى وادي النيل «ذلك لأن ما كان يعرض في هذه الأعياد على المشتركين هو ما كان يجري في الزمن القديم وما سبقه من تمثيليات من قصة الإله تمثل موته، والبحث عن جثته، والعثور عليها وإحياءها»[1].

أما في الاسكندرية فلم يكن بإمكان المرء أن يميز إيزيس عن عشتار أو افروديت السورية، إنها «كازيس ـ افروديت» التي كان ينبغي أن تبدو عارية.. وقد كان يستحب تمثيلها مع رضيعها وهي تعطيه ثديها في وضع يذكرنا بتماثيل السيدة العذراء بما يثير الدهشة...

«وقد تمثلها المصريون كذلك في هيئة الأفعى.. ثم الجرّة التي كان يراق منها في المعبد الماء قرباناً لها..»[2].

إن هذه الطقوس والعبادات، سواء في سوريا، أو في مصر، أو في أية بقعة أخرى من مناطق انتشار السوريين، كانت، على ما يبدو، على غاية من الاحكام والاتقان وعلى درجة كبيرة من العمق المحاط بالكتمان والرموز والأسرار. ولم يصلنا منها غير مظهرها الخارجي الذي لا يكاد يعبرّ عن مضامينها السرية المخبوءة. «ومهما يكن من شيء فقد كان عليهم أن يلتزموا الصمت المطبق عن سائر ما كانوا يخبرونه أثناء الاحتفال بالأعياد الأوزيرية. وكان هيرودوت الذي كان له هذا الحظ، قد تحاشى عن رهبة سرد ما يتصل بأوزيريس من تفاصيل»[3]. وكان لوكيوس الروماني قد صرّح بالشيء نفسه. ولقد كان المثقفون من أشياع إيزيس يردون على من كانوا يهزأون بهم: «إنكم لا ترون سوى المظهر الخارجي الغريب لمعتقداتنا، ولستم تعرفون ما يستتر وراءه»[4]. وقد قال فلوطارخ:

«إن من يأخذ هذه الأشياء بحرفيتها، ولا يعبأ بمعناها السامي فإنما «ينبغي له أن يتفل وأن يطهر فمه». إذ من هو أوزيريس؟ إن أوزيريس هو عنصر الرطوبة

---

(1) ادولف إرمان، المرجع نفسه، ص424 .

(2) المرجع نفسه، ص433 - 434.

(3) المرجع نفسه، ص424 .

(4) المرجع نفسه، ص471 .

وقوة الاخصاب في التناسل، إنه في الروح العقل، وفي العالم كل رتيب متسق مع القانون. أجل إنه، باختصار، عنصر الخير.. وإيزيس هي، جسداً، الأرض الخصبة، وهي في العالم الجزء الأنثوي الذي يتلقى التلقيح، وهي مادة الخير والشر، غير أنها تميل إلى الخير طبقاً لطبيعتها»[1].

إنها مرة أخرى، وحدة المركز والعقيدة واللغة والشعب منذ الزمن الموغل في القدم في كل من سوريا ووادي النيل.

- «افروديت»:

تعتبر أفروديت أحد التجليات الأولى لعشتار، كربة للحب والخصب في الطبيعة، وعلى هذا الأساس فهي ليست شخصية تاريخية (كما هو الأمر مع إيزيس وأوزيريس وعشتارت) بقدر ما هي تجسيد لأحد أوجه الخصب لعشتار الأم السورية الكبرى، الرحم الأول.

معنى «افروديت»:

أما الاسم فهو عربي سوري قديم مركب من كلمتين: «أف» أو «آفو» ويعني: وجه، صورة، تجسيد، أنف، ظهور؛ و«ردي» أو «رديو» ومؤنثة «رديت» أو «رديتا» ويعني: المني، الزرع، النسل، الرحم، الفرج، كما يعني: الترويض، التعليم، التهذيب، ركوب البحر، السفر، وهي في القاموس السرياني من الفعل «ردي» ويعني: سار، مشى، سافر، ركب البحر، روّض، علّم، هذب، ثقف، أمنى، زرع، نسل، ولّد..

وقد انتقلت الكلمة مع العرب السوريين إلى بلاد المورة وإيطاليا، ومنها إلى اللغات الأوروبية الحديثة، فتفرعت من الجذر، «رد» معانيه المختلفة، فصرنا نجد في الانكليزية مثلاً: road = ممشى، طريق، read = قرأ، علّم، هذّب، ride = ركب البحر، سافر؛ rodeo = ترويض، ومنها الروديو = ترويض الجياد. ومن معنى الكلمة الآخر (المني، النسل، الزرع) جاءت إلى اللغات السلافية عن طريق اليونان كلمة rod = جنس، وrodit = ولّد، نسلَ، وrodina = مسقط الرأس،

---

(1) Platarch, Lsis et Osiris, 33, 38, 39, 40 ,53

مولد، وطن... الخ، وعليه فإن معنى «أفروديت» في العربية القديمة هو: تجسيد المني، كما يعني صورة (أو تجسيد) المروّضة، المعلّمة. ولقد جاء المعنى الأول من القصة العربية السورية القديمة التي أوردها سانخونياتن في تاريخه والتي تقول: «.. وفي هذه الأثناء جدد أورانو الحرب ضد فونت، حيث إنه بعد ابتعاده عنه تعلق بدومارون. وبدأ دومارون الهجوم ضد فونت. ولما هزم نذر تقديم أضحية إذا ما نجا. وفي السنة الثانية والثلاثين من حكمه وتملكه قام إيلو، الذي هو قرونو نفسه، بمفاجأة والده أورانو بكمين في مكان وسط الأراضي. فقبض عليه وسلبه رجولته قرب ينابيع وأنهار في المكان الذي أنشئت فيه عبادته.. والدم الذي سال من جروحه تقطر في عيون الماء وفي مياه الأنهار، ولا يزال المكان معروفاً حتى اليوم»[1].

ولقد كنا قد حددنا في كتابنا الأول هذه المواضع في جبال السراة جنوب غرب مكة حيث ما يزال «بئر الدم» و«وادي الدم» الذي يدل على الحادثة قائماً إلى اليوم. وهو المكان الذي نزله سام بن نوح، وكان أحد تخومه ــ حسب تحديد الطبري ــ «ساتي دما» ومعناها بالسريانية ساقية الدم، أو وادي الدم، ولا يزال جبل «غُران» و«خبر غُران» شمالي وادي «حورا» و«حمة العليا» (حمة رمين) إلى الشرق والشمال من المنطقة نفسها.

وتقول الحكاية: إن مياه النهر حملت خصية اورانو إلى البحر. وهناك أخصبت «نينا» أي روح الخصب في الماء البدئي، ومن زبد البحر انبثقت اجمل امرأة في الوجود، فكانت أفروديت، بنت زبد البحر، إحدى ظهورات عشتار.

لقد كان هذا «ظهوراً» آخر وليس الأول. أما الظهور الأول فقد حدث على يد «أنجي» (المنجي، المخلص) وهو أحد الأرباب او الكائنات الأثيرية التي هبطت في مكان الأرض الجنة. و«وضع بذرته في رحم نني يمو (ربة النهر أو الماء أو البحر)» وسمثل الزبد.. كالزبد النقي الفاخر.. ولدت الربة نن كورا (ربة الجبل)[2]. فصارت افروديت ربة «القثرا» التي تعني في القاموس السرياني:

---

(1) يوسف الحوراني، المرجع السابق، ص81 – 83 .

(2) صموئيل كريمر، المرجع السابق، ص246 .



صورة تمثل افروديت السورية طالعة من الماء تستقبلها كاهنات عشتار بملابسهن السورية الطويلة المتميزة. نحت بارز على قطع من الرخام في روما. القرن الخامس قبل الميلاد

المصباح، القنديل، الكبرياء، الاباء، باب في الدجلة. وهو أحد أبواب الجنة في غامد حيث منابع الأنهار ومنها هدقلة (الدجلة) والفرات. وقد انتقلت هذه التسمية «افروديت ربة القترا» مع السوريين إلى اليونان وايطاليا. ثم عند اختراع المصباح الكهربائي حديثاً أطلقوا عليه اسم «القترا» Electra ظناً منهم أن الكلمة إغريقية أو لاتينية وتعني المصباح.

ويذكر الكاتب السوري «أوفيد» الذي عاش في روما أن عشتار كانت «ترعى شطآن نهر قترا حينما التقت بأدونيس وأحبته»[1].

وقد استخدم السوريون في بلاد اليونان كلمات أخرى للتعبير عن أصل أفروديت هي «برث سفئوني» أي بنت زبد البحر، لأن «برث» مؤنث «بر» وتعني بنت، و«سفئو» و«سفهو» تعني في القاموس السرياني زبد البحر، وصارت تلفظ

(1) اوفيد، مسخ الكائنات، ص347.

«برسفوني» وقد ذكر الكاتب السوري ـ الروماني «أوفيد» ذلك حينما كتب يقول عن لسان أفروديت: «حقاً إني من زبد البحر خلقت، ومن أعماقه المقدسة انبثقت، فكم أنا إليه مدينة، ما زال اسمي في اليونان يذكرني بهذا الأصل»[1].

ولقد كان قدماء العرب السوريين يصورونها في هيئة امرأة بارعة الجمال خرجت لتوّها من البحر فالتصق ثوبها الرقيق بجسدها الرائع، وقد أمسكت ضفيرة شعرها بيديها الاثنتين.

وقد ذكر لنا المؤرخ العربي المسعودي أخبار فراعنة مصر في شبه جزيرة العرب، وأعاجيب صنعتهم في قصورهم. ومما أورده أن الفرعون بقراو صنع جنة مليئة بالعجائب والتماثيل. ومما كان فيها «عمود من جوهر أخضر عليه قبة من ذهب فيها صورة المشتري. وفيها قبة من اللازورد على أربعة أعمدة من جزع أزرق. وفي سقفها صورة الشمس والقمر يتحدثان في صورتي رجل وامرأة. وقبة من كبريت أحمر فيها صورة الزهرة على صورة امرأة ممسكة بضفيرتها وتحتها رجل من زبرجد أخضر في يده كتاب فيه علم من علومهم، كان يقرأ عليها»[2].

و«سفئو» هو اسم الشاعرة السورية الشهيرة من لسبوس والتي اعتبرت ثامنة أعاجيب الدنيا. ويذكر المؤرخون أنها كانت تصرّ على أن اسمها هو «أف سفئو»[3] أي صورة زبد البحر، والصورة المجسدة فيه، وليس «سفئو» فقط.

أما المعنى الآخر لأفروديت المشتق من الترويض والتعليم فهو التجسيد للجانب العشتاري الآخر. فقد اشتهرت عشتار كربة للطبيعة والحيوانات البرية، وعرف عنها أنها كانت أول من روّض الأسود والخيول في شبه جزيرة العرب. لذلك كنا نرى صور عشتار وتماثيلها إما فوق ظهر أسد أو تمتطي ظهر حصان عار وهي واقفة، فدعيت «عشتار زارا» أي الراكبة واقفة[4]. في هذا دليل ساطع على أن الموطن الأصلي للخيول العربية هو شبة جزيرة العرب، ولم تأت وافدة من

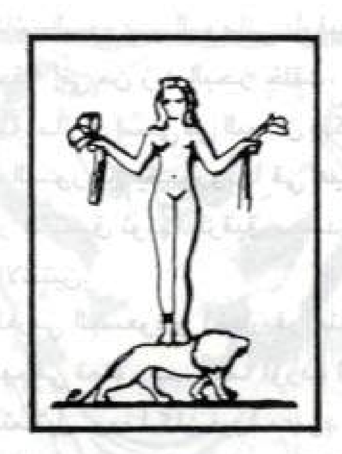
---

(1) المرجع نفسه، ص152 .

(2) المسعودي، أخبار الزمان، ص140 .

(3) ديورانت، المرجع السابق، اليونان، ص278 .

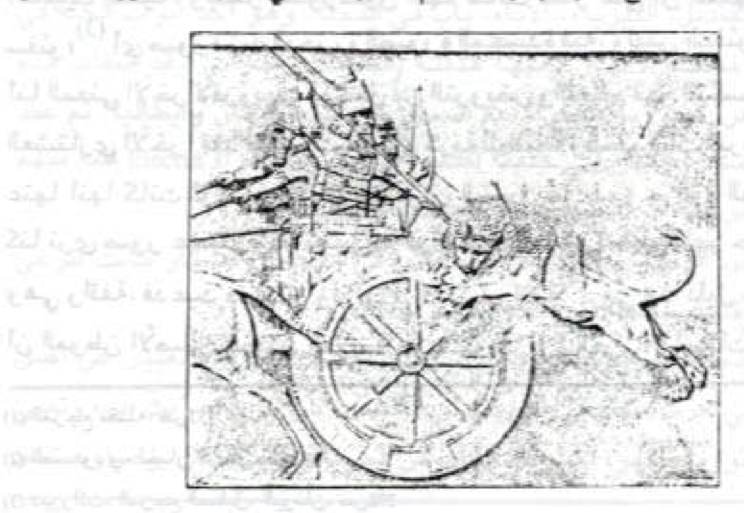
(4) ديلابورت، المرجع السابق، ص170 .



عشتار الراكبة واقفة على ظهر اسد

امريكا واوروبا كما زعم المؤرخون الغربيون الذين لا يعرفون كيف يهضمون كل ما تسوقه نزعاتهم إلى التزوير المغرقة في التعصب.

لقد دلت الوثائق المكتشفة في سوريا ووادي النيل أن الحصان كان ملازماً للإنسان العربي منذ أن بدأ حياة الاستقرار التي كانت الأولى على الأرض. وكان أول من اخترع الدولاب واستخدم العربات التي تجرها الخيول، فعلاوة



الملك السوري سردانيال على العربة يصيد اسداً



جنود سوريون يهاجمون بوابة أحد الحصون بآلاتهم الخاصة بدك الحصون

على الوثائق والصور القديمة المرتبطة بالأم السورية الكبرى عشتار فقد اكتشف على رقيم مسماري كبير في مدينة ماري السورية فيه نص إداري يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، يشتمل على أسماء ومهن لرجال ونساء من ماري يربو عددهم على 160 شخصاً «وبين الرجال نجد حرفيين مثل النجارين والدباغين والمغنين، والخياطين، والكتبة، والبستانيين، والفلاحين، والطباخين، وساسة الخيل، وطحانين، وسقاة، كما نجد بين النساء النساجات، ومدبرات المنازل وغيرهن...»[1].

ويذكر ديلا بورت في كتابه «ميسوفوطاميا» كيف أن السوريين القدامى عرفوا العربة منذ الزمن الموغل في القدم، وبنوا معابد خاصة بالعربة في التيمن (القبلة)[2]. وتقول الدكتورة إيفلين كلنيكل براندت: «وقد اهتم البابليون والآشوريون اهتماماً كبيراً بتربية الخيول وتدريبها، وكان مربّو الخيول

---

(1) إيفا شسترو مينغر، وكاي كولماير، دار فرتس للطباعة فيينا، ارض البعل، الآثار السورية، مجموعة ابحاث اثرية تاريخية لمجموعة من الاختصاصيين بالآثار السورية، ترجمة نايف بللوز، ص105.

(2) ل. ديلابورت، المرجع السابق، ص258.

يدونون خبراتهم كإرشادات عامة في أصول تربية الخيول. وقد جاء في أحد النصوص المتعلقة بتربية الخيول والتي تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد: «دعه يجري منطلقاً، ويدخل النهر، اغسله بالماء، دعه ينتفض ويخرج، دعه يدخل البيت، ادلكه جيداً بالزيت»[1] «كما يوجد نص اوجاريتي غير منشور ينكر أن الحصان هو حيوان عشتار المفضل»[2].

وفي وادي النيل يؤكد السير ولس بدج أن الحصان دخل إلى مصر مع أوزيريس[3]. وكنا قد تأكدنا كيف أن أوزيريس عربي من شبه جزيرة العرب. «وتذكر إحدى القصائد الملكية» (منذ الألف الرابع قبل الميلاد) كيف أن الملك شولجي أقام حفلاً في مدينة «أور»، وحفلاً آخر في نفس اليوم في مدينة «نفر» عندما كان متوجهاً على فرسه بزيارة خاطفة لمدينة نفر»[4].

أما عن أصل أفروديت، فقد أجمع كل الباحثين الموضوعيين الذين لم يكتبوا التاريخ انطلاقاً من تكوين نفسي مركب على التعصب على أن أفروديت سورية اسماً ومنشأ.

يقول غويراند: «وأفروديت (أوفينوس) ليست في الحقيقة سوى عشتار الكنعانية التي جاءت إلى قبرص مع الفينيقيين إبان سيادتهم على البحر المتوسط. ويجمع دارسو الميثولوجيا الاغريقية على ان اسم أفروديت يرجع إلى أصول سورية، وأن عبادتها انتقلت من قبرص إلى سائر انحاء بلاد اليونان والرومان، وأنها كانت في الأصل ربة الخصب للأرض والطبيعة بكل مظاهرها، ثم اقتصرت وظيفتها على الحب بشتى أنواعه. وتحكي اسطورة مولد أفروديت الكثيرة الزخارف عن أصلها (القبرصي)[*] فتقول: إن الإله قرونو قد تمرد على أبيه أورانو وقام بمساعدة أمه جيا على إخصاء الأب ورمى بأعضائه التناسلية

---

(1) ايفلين كلنيلكل، برانت، المرجع السابق، ص72 .

(2) المرجع نفسه، ص224 .

(3) السير ولس بدج، المرجع السابق، ص90 – 91 .

(4) اد ذارد، بوب، رولينغ، المرجع السابق، ص99 .

(*) الكلمة في الأصل «كفتور» اي «كافت حور» وتعني صخرة المغارة، ترجمها الباحثون الغربيون إلى «قبرص».

في البحر، فأخصبت الماء المالح مكونة زبداً أبيض انبثقت منه أفروديت.. في أبهى شكل لامرأة وقعت عليها عين إنسان»[1].

ويقول جيمس فريزر: «يروي المؤرخ الاغريقي هيرودوت أن الفينيقيين كانوا أول من أوجد في قبرص معابد لأفروديت»[2].

ويقول ول ديورانت إن افروديت جاءت إلى بلاد اليونان من الشرق الأدنى[3].

«وتشير كتابات هيرودوت إلى الأثر الذي خلفته عبادة عشتار المفعمة بالاشارات الجنسية لدى اليونانيين الذين أطلقوا على «أنانا ــ عشتار» اسم افروديت البابلية ويعتقد أن المرأة العارية المصورة على المنحوتات تمثل الإلهة عشتار أو من يدور في فلكها من كاهنات معبد العرس الإلهي المقدس»[4].

وقد تحدث الكاتب السوري لقيان السميساطي في كتابه «الربة السورية» عن معبد افروديت في جبيل فكتب يقول: «وقد رايت ايضاً في جبيل معبداً كبيراً لأفروديت الجبيلية، حيث تولم الولائم الفخمة على شرف أدونيس. وقد سألت عن هذه الأعياد وعلمت أن سكان جبيل يقولون إن قصة أدونيس وجرح الخنزير الوحشي له قد تسلسلت إليهم، وأنهم، في كل عام، كذكرى لهذه الحادثة، يضربون صدورهم، وينتحبون، ويولمون الولائم الباذخة، ويقيمون حداداً كبيراً في كل المنطقة، وعندما يكونون ضربوا صدورهم جيداً، وانتحبوا جيداً، يقدمون أضحية لأدونيس، كما أنها كانت تقدم لميت، إلا أنهم في اليوم التالي يعلنون أن أودنيس حي، ثم يرسلونه ليسكن في السماء. وآنئذ يحلقون رؤوسهم.. والنساء اللواتي لا يقصصن شعورهن يجازين بالطريقة التالية: يوضع جمالهن في البيع طيلة يوم. إلا أن السوق لا يفتح إلا للأغراب عن المدينة، *واثمانها تؤخذ هبات لأفروديت*».

ولقد أضحى ثابتاً اليوم أن الساحل المصري على المتوسط كان يشغله

---

(1) F. Guirand, Greek Mythology, PP 63 – 64.

(2) James Frezer. The Golden Bough, p. 382.

(3) ديورانت، قصة الحضارة، اليونان، ص336.

(4) اندارد، بوب، رولبنغ، المرجع السابق، ص57 .





افروديت الفينيقية في برقة
وهي الآن في المتحف القومي بروما



افروديت السورية، من جبيل

السوريون على الدوام (وقد اعتاد المؤرخون في الغرب على دعوتهم بـ «الاغريق»). ويذكر هيرودوت أن السوريين حكموا في ممفيس، وكان من بينهم ملك اسمه «فروتيو» (يعني بالسريانية المثمر، المخصب، كثير الذرية)، وله في ممفيس حرم جميل جداً، حسن الزينة، يقع إلى الجنوب من معبد «هيفاستيو» (الحداد، صاحب الفأس أو البلطة)، يقيم حول هذا الحرم فينيقيون من صور، ويسمّى هذا الحيّ كله معسكر الصوريين، ويوجد في حرم فروتيو معبد يسمى معبد «أفروديت الغريبة»[1].

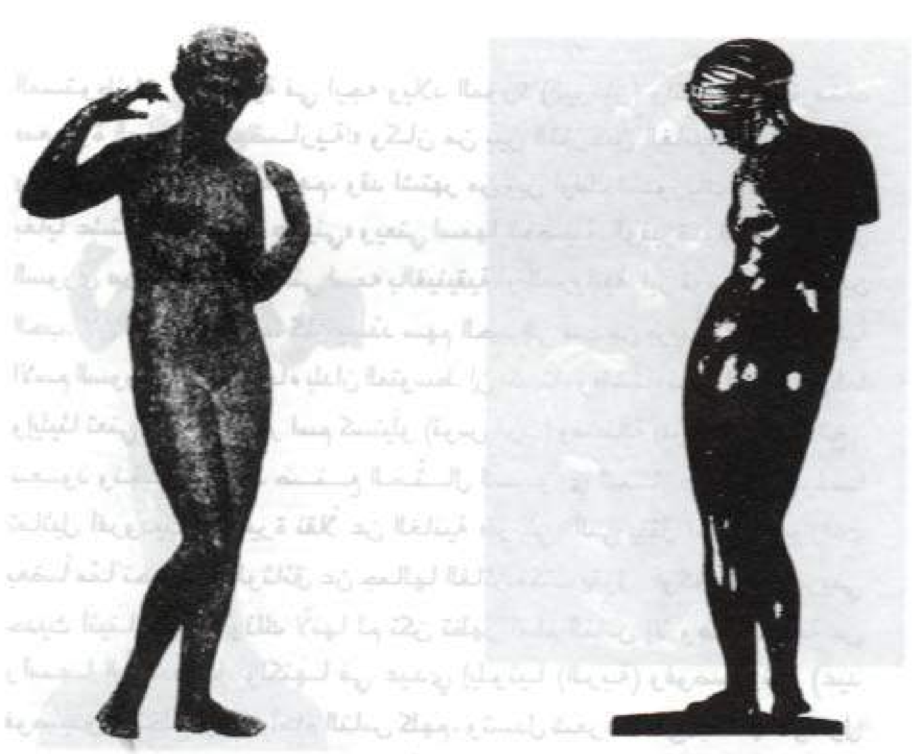
وحينما غزا الفرس بابل عاصمة الدولة السورية، واندفعوا غرباً عبر الشمال السوري المتوسطي، نزح المثقفون والحرفيون والأغنياء السوريون إلى

(1) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص230 - 231 .

المستوطنات السورية في ايجه وبلاد المورة (اليونان) وانبثقت فجأة هناك «معجزة اليونان الحضارية»، وكان من بين النازحين الغانيات من النساء والفنانون والنحاتون وغيرهم، وقد اشتهر من بين أولئك السوريات الغانيات (من بقايا عشتار المقدسات) «فريني» ويعني اسمها الخصيبة، الوفيرة. وقد صنع المثّال السوري «بركست إيليا» (يعني اسمه بالفينيقية أو السريانية: ابن قوس الربة أي ابن الحب. لأن الربة، أو الرب، كان يسدّد سهم الحب إلى قلب من يريد(*))، فانتشر هذا الاسم السوري في كل أرجاء بلدان المتوسط. إن «كستا» و«قشتا» تعني القوس، وإيليا وإيليثا تعني الربة، فانتشر اسم كستيلّو (قوس الرب) وقشتالة (قوس الربة.... الخ)؛ نعود ونقول: لقد صنع المثّال السوري النازح بركستيليا تماثيل افروديت الشهيرة نقلاً عن الغانية «فريني» التي ينقل لنا ول ديورانت بعضاً ممّا تحدثت به الوثائق عن جمالها الفاتن فكتب يقول: «وكان جمال فريني حديث أثينا كلها.. وذلك لأنها لم تكن تظهر امام الناس إلا وهي محجبة من رأسها إلى قدمها. ولكنها في عيدي إيلوثيا (الربة) وفوصيدونيا (عيد فوصيدون) تخلع ثيابها أمام الناس كلهم، وتسدل شعرها على جسمها، وتنزل لتستحم. وقد عشقت بركستيليا المثّال، ووقفت أمامه لينحت على صورتها تماثيل أفروديت. وأثرت فريني من عشاقها إثراء أمكنها من أن تعرض استعدادها لإعادة بناء أسوار طيبة إذا وافق الطيبيون على نقش اسمها على هذه الأسوار. ولكنهم أصرّوا على رفض هذا العرض»[1]. ومن المعروف أن «طيبة» هي أول مدينة حقيقية أسسها السوريون على يد قدموس وعشيرته في بلاد اليونان، ويقول ديلابورت: «وإن الإلهة عشتار الفينيقية هي التي غدت أفروديت الاغريقية بعد أن أخذ اليونان عبادتها عن طريق جزيرة قبرص التي انشأ السوريون أولى حواضرها، وأسسوا فيها عبادة عشتار، التي كان معبدها في مدينة بافوس يعتبر من المعابد الشهيرة في العالم القديم عندما

(*) إن الاسم الآخر الذي انتقل مع السوريين إلى بلاد المورة هو «كوبيد» وهو اسم الفاعل في العربية القديمة من الفعل «كبد» وهو الكابد أي الرامي بالقوس. وفي «محيط المحيط» ما تزال كلمة كبده رماه في كبده، والكبداء القوس.

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، حياة اليونان، ص106 .



تمثال برونزي لـ «فريني» السورية الشهيرة بجمالها، وشعرها محبوس تحت قمطتها. عثر عليها في مكدونيا. القرن الخامس قبل الميلاد.

«فريني» الحسناء السورية نموذج تماثيل أفروديت. من البرونز. جنوب اليونان المتحف البريطاني

كانت هذه المدينة مرتبطة مباشرة بملك جبيل السورية»[1].

وباختصار شديد: إن أفروديت هي ــ في التفكير السوري القديم ــ واحداً من تجليات عشتار الذي يمثل الخصب والحب والجمال والجنس في الطبيعة والحيوان. إنها تمثيل لعشتار في مرحلة ما قبل الزراعة.

ومن الأسماء العامة التي كانت تطلق على عشتار اسم «الربة» أو «الإلهة». فمجرد أن يذكر هذا الاسم كان الناس يدركون أن المقصود به عشتار، إذ لا ربة كانت للسوريين غيرها.

---

(1) L. Delapogrt, Phoenician Mythology, p. 81

- **اللات واثينا واسماء اخرى:**

أما كلمة «اللات» أو «ايلات» أو «إيليثا» أو «إيلينا» فكلها مؤنث «إيل» أو «أل» وتعني الربة العليّة.

وقد اقترن الاسم بالتعليم الذي منحته عشتار لشعبها في مرحلة الثورة الزراعية التي كان السوريون أول من أنجزها وأقاموا مدنهم التاريخية الكبرى أقدم مدن في التاريخ على الأرض. فدعيت الربة الفلاحة، والربة الزراعة، والربة الحامية أو الحارسة للمدن.

أما «الربة الفلاحة» فهي بالعربية القديمة «فلحت»، ولما كانت الفاء تلفظ P في العربية القديمة، واختفت «الحاء» في الغرب فقد صارت تكتب وتلفظ Palace، والتصقت بـ «اثينا» التي دعيت «أثينا بالاس». ولو نظرنا إلى فعل «فلح» في القاموس السرياني لوجدناه يعني كما يلي: فلحْ= فلح، حرث، فعل، عمل، صنع، اشتغل، كدّ، جدّ، مارس، مهن، خدم، خضع، عبد، تعبد، سجد، درس، تمعّن، حرّك، خلط الدواء، تجنّد، كان جندياً، أفلح، نجح، أدب، قرى، عمل مأدبة.. و«فلحوت» = فلاحة، حراثة، خدمة، عمل، مهنة، حرفة، عبادة، جندية، عسكرية، عسكر، جيش، مأدبة، وليمة. وهكذا نرى أن المعنى يتضمن، إلى جانب الزراعة والمهن والحرف الأخرى، الجندية والجيش. ولما كان السوريون القدامى سادة البحر وأول من أنزل سفينة في البحر، فقد كانوا يعتمدون، بالدرجة الأولى، على الأساطيل البحرية الفينيقية الشهيرة، حتى صار الجيش لديهم مرادفاً لكلمة «أسطول». وقد انتقلت الكلمة عبر اليونان وايطاليا إلى كل اللغات الأوروبية بعد أن اختفت منها الحاء، وصارت Pilot = طاقم السفينة، وFlot = أسطول. فصارت عشتار ربة الملاحين، والأساطيل والجنود المحاربين، وهي الصفة التي اتخذتها فيما بعد الامبراطورة السورية جوليا دومنا التي صارت امبراطورة روما ثم تحولت إلى ربة، ولقد صارت الربة تدعى «ربة الحرفيين» أيضاً انطلاقاً من المعاني الأخرى للكلمة.

أما الكلمة الثانية التي التصقت بالربة السورية فهي «الزرّاعة» وهي بالعربية القديمة (السريانية والفينيقية) «زِرْعِث»، وصارت، لاختفاء العين، تكتب في

الغرب Seres «سيريس». وهي في القاموس السرياني من الفعل «زرعُ» ويعني: زرع، بذر، بثّ التعليم، لقّن، نشر، نسل، تناسل... و«زرعيث» = نسل، ذرية، سلالة، زرع.

وهكذا فقد دعيت عشتار ربة السلالة أو الذرية، أي الأم الكبرى، وربة الزروع والتعليم الزراعي..

لنقرأ ما كتبه الكاتب السوري أوفيد حول الربة الزرّاعة «سيريس»: «كانت سيريس أول من حرثت كتل الطين بمحراثها المقوس، وأول من زرعت القمح وسائر الغلال، وفرضت القوانين الأولى، فنحن ندين بكل ما نملكه لـ «سيريس»، وعليّ أن أتغنى بها، وليت نشيدي يكون جديراً بها، فالإلهة جديرة بأن يُتغنى بها»[1].



تمثال الربة عشتار الزرّاعة (سيريس) التي كان لها فضل تعليم السكان زراعة القمح. عثر عليه في أعلى المسرح في لبدة (ليبيا). وقد اقيم في عهد حكم الامبراطورة السورية جوليا دومنا.

(1) أوفيد، مسخ الكائنات، ص169 .

ومن الأسماء التي ألصقت بها في هذه المرحلة اسم «دي ميثرا» ويعني الربة المكثرة، الموفرة، والكلمة من الفعل العربي القديم «يثرْ» ويعني: أثرى، أكثر، وفر، أخصب، وقد امتد انتشار هذا الاسم شرقاً إلى الهند وغرباً إلى كل أصقاع أوروبا.

لقد انشطرت عشتار السورية في الغرب الأوروبي إلى اثنتين: إحداهما أخذت تمثل خصب الطبيعة وهي أفروديت بنت زبد البحر «برسفوني»، والثانية ربة الزراعين التي مثلت خصب المحاصيل وهي «دي ميثرا»، ولما كانت الأولى هي الأصل فقد وصلت إلى اليونان معكوسة، إذ جعلوا ديميترا أماً لـ «برث سفنوني»، ودعيت «دي ميثرا» أم المحاصيل، علماً أن الأم الكبرى مثلت الخصب في الطبيعة قبل ظهور الزراعة بآلاف السنين.

ولما كان تعليم الزراعة لدى قدامى السوريين رسالة سماوية، عليهم أن يقوموا بها كأقدس الواجبات الدينية، وعليهم أن يبثوا تعاليم الربة الزرّاعة في كل الأصقاع حيث البشر مازالوا في مرحلة سكن الكهوف وأكل لحوم البشر، مهما كابدوا من مشقة، ومهما كانت المعاناة، فقد انتشر كهنة وكاهنات الربة الزرّاعة في كل مكان.

فيصف لنا أوفيد كيف أن الربة الزرّاعة «سيريس» تحمل مذراتها ذات الشعب الثلاث، وتسوح في الأرض في جولة تفقدية لكاهناتها اللاتي ينشرن التعليم الزراعي في بلاد اليونان وما يلاقينه من ضروب الشدة والمخاطر مع سكان الكهوف، السكان الأصليين هناك.. يقول أوفيد: «فوقفت الإلهة لحظة طويلة تحملق دهشة في هذا الينبوع الذي فجرّته ضربة من حافر جواد. ثم جالت ببصرها حول الينبوع مستعرضة الأجمات العريقة والكهوف والسفوح الخضراء المرصعة بالزهور العديدة. وهنأت بنات «منيموسيني» (الأصل الفينيقي: منحمو حسيني، أي المبعوثات الطاهرات. والكلمة من الفعل نحم = بُعث، قام من الموت، وحسيني = الطاهرات، المقدسات، جمع حسيا = طاهرة، مقدسة) على امتلاكهن هذا الموطن السعيد، واضطلاعهن بمثل رسالتهن النبيلة، فأجابتها إحدى الشقيقات قائلة: «أيا بالاس، ذات الصولجان (المذراة) الثلاثي الشعب، يامن كنت ستصبحين واحدة منا لولا شجاعتك التي قادتك إلى حمل

رسالة اعظم شأناً. إن ما تقولينه هو الحق بعينه. وإنك لعلى حق في امتداحك هذا الموطن، وإن حظنا لسعيد لو أتيح لنا أن ننعم به في هدوء. غير أن ما يلحق بنا من أذى البشر لا حدود له. إن كل شيء يثير الذعر في نفوسنا النقية»[1]

وحول الربة السورية الزرّاعة «زرعث» (سيريس) يقول الشاعر الذي قدّم لـ «المختارات الشعرية اللاتينية»:

«إن العذراء التي تحمل السنابل، محمولة هي نفسها على ظهر أسد سماوي، هي التي اقامت العدالة، وشادت المدن، والتي على يدها عرفنا السعادة، وبفضل هباتها تعرفنا على الآلهة. إنها أم الآلهة. إنها الفضيلة والسلام. إنها «سيريز» الإلهة السورية التي تزن في ميزانها الحياة وقوانينها. لقد أرتنا سوريا فيها نجم السماء الذي يقدمون له في ليبيا (افريقيا اليوم) كل احترام. وعن طريقها تلقينا كل علم، هذا ما فهمه والهم به عن طريق أولوهيتك ماركوس كايسيليوس دونا تيانوس التريبيون العسكري بفضل الأمير وكرمه»[2].

اما اللقب الآخر فهو «إيلادقيا» وتعني الربة الرئيسة، الحامية والكلمة في القاموس السرياني من الفعل دق ـ دوقا، دوقوتا: نظر، راقب، رصد، رعى النجوم، تأمل، هجم، باغت، فاجأ. دوق = إمام، مقدام، رئيس، نبي، أسقف، شرف، عين، علم، برج، مرصد.. ومن الكلمة العربية القديمة جاء اللقب «دوق» في أوروبا وإنكلترا خاصة.

وقد دعيت باسم «الربة الحارسة (إيلادقيا) مدينة اللاذقية على الساحل السوري و«الأدويسا» على ساحل البحر الأسود، وكل «أوديسا» أخرى، إذ أن القاف والكاف قبل الياء كانت تتحول في اللاتينية إلى c أو tc مثل «فينيقيا» صارت فينيسيا، وهي إحدى المدن الرئيسية التي بناها الفينيقيون في إيطاليا.

وقد كانت الربة الحامية عشتار تلقب بسيدة المعارك، وتمثلها الأعمال الفنية

---

(1) المرجع نفسه، ص166 – 168.

(2) جان بابليون، المرجع السابق، ص130 – 131.

في عدة القتال الكاملة، فهي إما أن تعتلي مركبة تجرها سبعة أسود وفي يدها قوسها المشدود، أو أن تتسلح بترسها وتعلو رأسها الخوذة وفي يدها السيف أو القوس وفي جعبتها السهام. وتركب واقفة على أسد أو حصان.

فهي «عناة» المحاربة، وهي اللات التدمرية، وهي أثينا. أما «أثينا» فقد قلنا إنها مؤنث «أتون» أي السيد، الرب، كما تعني الآية، المعجزة، إذ تقول الأساطير إنها ولدت من «بيضة» الرب التي أخصبت في ماء البحر. وكلمة «بيضة» في العربية القديمة (السريانية والفينيقية) هي «بيعتا» إذ كانت «العين» تحلّ محل الضاد. وكلمة «بيعتا» في القاموس السرياني تعني البيضة، الخصية، كما تعني اليافوخ، أعلى الرأس، أم الرأس. ولهذا فعندما رحلت هذه الأسطورة مع السوريين إلى بلاد اليونان لم يستطيعوا أن يفهموا منها إلا الوجه الآخر، فقالوا: لقد ولدت من «رأس أبيها» الإله، بعدما أحسّ بصداع شديد، فشقه هيفايستوس بفأسه وأخرجها منه، وكما أن نهاية الاسم المذكر هي (ون) فنهاية الاسم المؤنث منه هي (ينا).



الربة (أثينا) في ملابسها السورية الطويلة وتعتمر خوذتها، وتحمل سلة تنطلق منها حية. القرن الرابع قبل الميلاد. متحف اللوفر.

ويذكر أيضاً أن سبب تسميتها بالـ «عجيبة» أو «المعجزة» هي أنها لما جادلت أخاها فوصيدون حول تسمية القرية في بلاد اليونان أرادت هي أن تجعلها مسالمة تعمل في الزراعة، وحملت معها غرسة الزيتون، لتعلم الناس الزراعة والحصول على القوت دونما قتال. بينما أراد فوصيدون أن يكون السكان محاربين وقدّم لهم الحصان. ثم أفاقت القرية صباحاً لتجد غرسة زيتون كبيرة قد مدّت اغصانها في كل اتجاه فدعوا بالـ «أثيناي» (وهي في السريانية والفينيقية جمع ايثينيو، وتعني الاثينيين)، وظل اسم المدينة بصيغة الجمع الفينيقية Athenae لتدلّ على السكان المنتسبين إلى أحد الأرباب أو السادة المؤسسين أو إلى جد القبيلة. وصارت الربة تدعى «أثينا فلاحت» (أثينا بالاس) ربة الحرفيين والشغيلة والفلاحين، كما نقلت إلى بلاد اليونان العزف على الناي والمزمار المزدوج، وعلّمت النساء النسيج. وصار عيدها يدعى «بني أثينايا»، وكلمة «بني» في القاموس السرياني تعني: عيد، مهرجان.

أما أن تأتي الربة بشجرة الزيتون تحديداً فلأن هذه الشجرة هي أحد رموز عشتار حيث الجبال الأولى المقدسة، التي هي جبال السراة في شبه جزيرة العرب، هي موطن هذه الشجرة الأول، وما تزال مكلّلة بالعرعر (أو الصنوبر) وشجر الزيتون البري إلى يومنا هذا ويدعى بشجر العتم. ففي «المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران» نجد أن شجرة العرعر (أو الصنوبر) والزيتون البري مازال يكلل الجبال التالية: الجبل الأحمر ـ كثير الأشجار وخصوصاً العرعر؛ جبل الأعوص ـ تكثر فيه أشكار العرعر والزيتون البري؛ جبل أم لقمان ـ فيه أشجار العرعر والزيتون البري، جبل البراق ـ بسراة زهران فيه أشجار الزيتون البري؛ جبل جريان ـ مكسو بأشجار العرعر والزيتون البري؛ جبل جنبة ـ تكثر فيه أشجار العرعر والزيتون البري؛ جبل الحازم ـ تكثر فيه أشجار الزيتون البري؛ جبل حزنة ـ تكثر فيه أشجار العرعر والزيتون البري، جبل الخيال ـ تكثر فيه أشجار العرعر والزيتون البري، جبل الداية ـ تكثر فيه أشجار العرعر والزيتون البري؛ جبل بِقَط ـ تكثر فيه أشجار العرعر والزيتون البري؛ جبل رحا ـ تكلله أشجار العرعر والزيتون البري؛ جبل الشام ـ تكلله أشجار العرعر والزيتون البري؛ جبل الصار ـ تكلله العرعر والزيتون البري،

جبل ضحيان، تكلله أشجار العرعر والزيتون البري؛ جبل ضهر الغدا، جبل العرنين، جبل عويرة، جبل عيسان، جبل غابة الأنصب... وغيرها من الجبال الكثيرة الأخرى التي تكللها أشجار العرعر والزيتون البري[1].

اما عن أصل الربة أثينا فقد أجمع المؤرخون، ومنهم هيرودوت، ان أصلها من سوريا، مثلها مثل كل الأرباب الآخرين في بلاد اليونان الذين وصلوها مع شعائرهم.

يقول هيرودوت: «ومن المحتمل جداً ـ كما يخيل إلي ـ أن ميلاميوس تعلم هذه الشعائر من قدموس الصوري ومن أولئك الذين هاجروا معه إلى البلاد التي تسمّى حالياً «بويوثيا».. أما انها قد جاءتنا كلها من الخارج فهذا امر وصلت إلى معرفته اثناء بحثي.. أما فوصيدون (بوسيدون) فقد عرفه اليونانيون من الليبيين»[2].

ويقول الدكتور فوزي مكاوي نقلاً عن جويراند: «والجدير بالذكر ان عدداً لا بأس به من الآلهة الاغريقية لم يكن إغريقي الأصل، فمثلاً أثينا.. وأفروديت كانتا، فيما يبدو، قد أتتا إلى بلاد الاغريق مع البحارة الفينيقيين من بلاد الشرق القديم، وهي شبيهة في صفاتها بعشتار البابلية وعشتروت الفينيقية»[3].

وعلى اية حال فإن «الربة» باسمها العام اللات أو اثينا، هي عربية وليست اغريقية، وإن «اللات» التدمرية لم تأت «نقلاً عن الاغريق» كما يحلو لمزوري التاريخ وللنقلة العرب أن يرددوا دائماً، بل العكس هو الصحيح، وما من يوناني على الأرض بقادر على أن يعرف أصل أو معنى واحد من اربابه القدماء إذا لم يعد إلى التاريخ العربي السوري واللغة العربية القديمة. وليس هذا فحسب، بل إن قدامى الاغريق كانوا في المستوى نفسه من الجهل فيما يخص أولئك الأرباب، وهذا عينه هو ما أكده هيرودوت حينما كتب يقول: «ولم يعرف اليونانيون أصل واحد من الآلهة، ولا تاريخ وجودها القديم جميعاً.. لم يعرفوا

---

(1) علي بن صالح السلوك الزهراني، المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران.

(2) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص150 - 152 .

(3) الدكتور فوزي مكاوي، تاريخ العالم الاغريقي وحضارته ص64 - 65 .

ذلك إلا بالأمس أو بالأمس القريب كما يقولون،[1] وتلك المعرفة الناجمة فيما بعد لم تكن إلا نتيجة لكتابات المثقفين السوريين الذين نزحوا في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد بسبب الغزو الفارسي، فوضع هيقاتو (مؤرخ من ميليثا في كيليكيا السورية) وهيسيود (من نفس المنطقة أيضاً) كتباً دعيت «أنساب الآلهة» أو «أصل الآلهة»، ونقلت فيما بعد تحت اسم Theogenes، وواضح أن كلمة genes هي كلمة «جنس» العربية القديمة (السريانية والفينيقية) والحديثة نفسها.

إن «اللات» أو «اثينا» هي إحدى صور عشتار المعلّمة للحرف والزراعة، وقد وصلت موجتها إلى بلاد اليونان في زمن جدّ متأخر عن المركز، فنحن كنا قد تعرّفنا إلى أن «أنانا» (التي هي عشتار) العربية السومرية كانت تعلّم ربات البيوت الغزل والنسيج، وكانت قد أسقطت (عفواً أو عمداً من أجل التعليم) الـ «بكو» والـ «مكو» إلى العالم الأسفل الذي هو عالم الحياة البشرية الفانية. وإن كلمة «بكو» في القاموس السرياني تعني النول، وهي من الفعل بكت = نسج، حاك، كما أن «مكّو» و«مكوكو» تعني المكوك.

فبعدما كانت عشتار تحوك خيوط المصير لكل إنسان يولد (أي الصّافة لسلسلة الـ DNA بمفهوم علم الحياة المعاصر). «وتحدد للإنسان مسار حياته وتحدد ساعة فنائه.. ومن الأعلى إلى الأدنى، ومن البسيط إلى المركب، نسجت الأم الكبرى مادة في «رحمها» بإحكام، وأطلقتها إلى الخارج، ثم تابعت في رحمها الأرضي المظلم، وفي أرحام وكيلاتها النساء. حبك نسيج التعضي الحي وإظهاره مكتملاً» ـ كما يقول الكسندر هايدل ـ فإن الأم الكبرى «هي الغزّالة، إذ تحضر إلى سرير الميلاد، فإنها في الوقت نفسه، تحضر كسيدة للمصير، وتكتب لكل مولود أقداره.. وقد مثل الفكر الأسطوري هذا الجانب من الأم الكبرى بربات ثلاث هن ربات المصير (وهن تعبير عن الاصطفاف الثلاثي في البرنامج المرمّز). وقد أظهرهن الفن في بلاد الرافدين واقفات على تيس ذي قرنين كبيرين وفوقهن الهلال يتوسط المشهد»[2].

---

(1) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص155 .

(2) Erich Neumann, The Great Mothes. PP. 226 – 232

إن هذا يذكرنـا مرة أخرى بنظام الصف الثلاثي لحلقات السلسلة في برنامج الخليـة الذي، بنـاء عليه، تتحدد مواصفات وقدرات، وبالتالي مصير كل كائن حي. لكن هذا النوع من «النسج» أو «الهندسة» شيء خاص بالربة فقط، أما الغزل والنسج الذي اختص به الإنسـان فقد ألقت بأداتيه النول والمكوك إلى البشر في عالم الحياة الأسفل الفاني لينسجوا الملابس. وهذا هو ما علّمته عشتار لنسـاء سـوريا منذ الزمن الموغل في القدم، فدعيت بالربة النساجة أو «المهندسـة» أيضاً.

ويذكر نيومان في المكان نفسه كيف أن فكرة ربات المصير الثلاثة انتقلت من سوريا إلى بلاد اليونان، وصرن يظهرن تحت اسم «الموريا» اللواتي يحلّقن فوق أرباب الأولمب. وتبدو أفروديت نفسها كبرى هؤلاء الموريا الثلاث.

أما كلمة «الموريا» فليس من إنسان على الأرض يفهم لها معنى إذا لم يعد إلى اللغة العربيـة القديمة. إن الكلمة في أصلها العربي القديم «محوراي» وتعني: المهندسـات، المـؤلّفـات، النـاظمـات، الصـافـات، المتلألئـات، الشـاعرات، الفنانات... وهي جمع «محورا»، ولقد اختفت «الحاء» من الكلمة كما هي العادة.

وهي في القـامـوس السـريـاني من الفعل محر ـ محورا: هندس، مسح الأرض، نظم، ألّف، شعر، ألّف أشعاراً، صفّ؛ محورا: مهندس، مؤلّف، شاعر، محورو: غداً، بكرة، اليوم التـالي. وقد انتقلت هذه الأخيرة من اليونـان وايطاليا إلى الانكليزية فجاءت منها to morrow = أي غداً، إلى الغد.

ولقد اختلطت «الموجات» الحضـارية عند نهاياتها، فانتقلت عشتار النسـاجة إلى السيدة مريم العذراء في الغرب في الزمن البيزنطي. وصارت تصور على الايقونات وقد أمسكت بيدها خيطاً ملفوفاً على مغزل[1].

ويروي لنا الكاتب الروماني «أوفيد» في كتابه «مسخ الكائنات» كيف أن الربة النسّاجة كانت تقوم بجولاتها على كاهناتها السوريات في بلاد اليونان لنشر رسـالتها المقدسة في تعليم النسـاء السوريات هنـاك الحياكة والغزل والنسج والتطريز كما كانت «سيريس» تقوم بنشر رسـالة تعليم زراعة القمح وصنـاعة

---

(1) الأب متري هاجي أثناسيو، الموسوعة المريمية، ص123.

الرغيف. ويخبرنا في قصة «بالاس وأراخني» كيف أن أراخني الفينيقية لم تكن من السيدات السوريات النبيلات بل كانت وضيعة الأصل، وابنة أحد الفينيقيين العاملين في صباغة الصوف بالأرجوان وهو «ادمون» لكنها كانت بارعة في النسيج أيضاً، فتحدّت الربة نفسها في منافسة، وحينما تغلبت عليها أرخني، وهي إحدى تلميذاتها، غضبت عليها الربة ومسختها إلى عنكبوت لدقة نسيجها ونعومته.

ولسنا هنا في صدد دراسة تلك الأساطير السورية في بلاد اليونان والتي صارت تدعى «إغريقية» غير اننا لابدّ لنا من الإشارة إلى ما كنا قد ذكرناه في بحث اللغة، وهو أن الأسماء في تلك الأساطير هي مفاتيح السر التي خلفها لنا العرب السوريون للتأكيد على اصلها العربي السوري، إذ هي لم تكن اسماء، بل القاباً تحمل مضمون القصة ذاتها.

وهكذا فإن «أراخني» هي في الأصل «أراكني» وقد حوّل الفينيقيون، كعادتهم دائماً، الكاف في اللفظ إلى خاء. وتعني في القاموس السرياني: الوضيعة الأصل، المتواضعة، الذليلة.. وهي من الفعل «ركن»= ذلّ، وضع، كان وضيعاً.

أما «إدمون» فيعني الصباغ بالأرجوان، والكلمة في القاموس السرياني من الفعل إدمْ = لطخ، صبغ بالأحمر، بالدم، بالأرجوان. ومن الكلمة كان لقب عيسو الذي هو اخو يعقوب «إدوم» أي الأحمر، الأصهب.

ويؤكد اوفيد في روايته هذا المضمون للألقاب فيقول:

«لم تكن أراخني عريقة الأصل. كان ابوها إدمون مواطناً من كولوفون يحترف صباغة الصوف التي كانت تعتمد على أرجوان الرخويات البحرية من فوقيا، كما كانت أمها التي قضت نحبها من أصل لا يختلف عن أصل زوجها ضعة»[1].

إننا هنا لا نستطيع استعراض كل أقوال الباحثين والمؤرخين الموضوعيين الذين أخذوا يكشفون عن الحقائق المخبأة طيلة هذه القرون الطويلة التي سيطرت فيها النزعات التعصبية في الغرب على كتابة التاريخ. لكن محنتنا الحقيقية على هذا الصعيد تكمن في المؤسسات الثقافية العربية وفي النقلة

---

(1) أوفيد، مسخ الكائنات، ص181 .

العرب الذين «يتبارون» في نقل التزوير وحده دون أن تولد فيهم بذرة البحث بعد.

وهذا هو المؤرخ الألماني فرانتس التهايم يكتب قائلاً حول اللات واثينا وأفروديت من خلال أحد النقوش الفينيقية المكتشفة في قرطبة: «نقرا، مثلاً، في النقش المذكور الذي عثر عليه في قرطبة إلى جانب هليوس إله إيلا جبال الحمصي العظيم، كلا من الاسمين «أفروديت» و«اثينا» وترتسم وراء الأولى إلهة قمرية ذات أصل عربي، ويحتمل ان تكون ربة الزهرة «العزّى» بالذات التي تنتسب إلى الأصل نفسه، اما «اثينا» فقد ساوى هذا النقش بينها وبين «اللات» العربية التي انتشرت عبادتها بصفتها «أم الآلهة كلها» في المناطق التي كان سكانها يتكلمون باللغة العربية وصولاً إلى تدمر. وهنا وهناك كانت تعبد هي والعزّى معاً... ولنا من الشواهد ما يؤكد انها كانت معروفة في حوران ومدينة تدمر والمناطق المجاورة لها. وفي حمص نفسها وجدت صورة لها عليها رداء طويل وبيدها الصولجان.. وكانت الطائف القريبة من مكة منطقتها المقدسة التي لم يسمح فيها بقطع الأشجار والصيد، وهناك وجد الحجر المقدس الذي احتفظ في جوفه بكنز الإلهة»[1].

أمّا بعض الأسماء الأخرى التي انتقلت من سوريا إلى الغرب، مثل أرتميس (حرتاميصي = ربة القدرة، الربة القادرة، انظر «ميص» ومشتقاته في القاموس السرياني)، وسيبيل، وديانا.. فقد اكدت جميع المصادر والدراسات انه «في روما كانت أعياد الأم الكبرى «سيبيل» وابنها او عشيرها «اتيس» (التيس، الجدي) تسير على نمط مشابه لأعياد عشتار في بابل وسوريا، فالإلهة سيبيل إلهة شرقية انتشرت عبادتها في روما انتشار النار في الهشيم بعد ان أسست ديانتها في العام 204 ق.م بعد أن نقل حجرها الأسود من آسيا الصغرى (أي الشمال السوري) إلى عاصمة الامبراطورية الرومانية. وقد كان لحضور الحجر الأسود إلى مقره الجديد تأثير مباشر على محصول تلك السنة جاءت بحدث من أهم أحداث التاريخ الروماني، ألا وهو تراجع جيوش هانيبعل

(1) فرانتس التهايم، إله الشمس الحمصي والديانات الشرقية في الامبراطورية الرومانية، ترجمة إيرينا داود، دار المنارة، دمشق، 1990 ، ص44 - 45 .

الفينيقية عن حصار روما وعودتها إلى قرطاجة. وهو حدث عزاه الرومان إلى الإلهة «سيبيل». غير أن هانيبعل، وهو يلقي نظرته الأخيرة على سهول ايطاليا في لحظة وداع لحلمه الكبير، لم يخطر بباله أن روما المنتصرة قد استسلمت في العام نفسه إلى غزو من نوع آخر، غزو سيقيض له خلال القرنين القادمين أن يحقق مالم تستطع الجيوش الفينيقية أن تفعله إنه غزو الديانة الشرقية»[1].

والحقيقة إن غزو الديانة السورية لروما لم يأت في ذلك العام بل منذ تأسيس روما على يد التوأمين ابني الراهبة السورية في معبد عشتار وهما ريمو (الريم، ولد الظبية أو الغزالة الخالص البياض) وروملو (رومل = ولد الغزالة الأبيض المنقطة قوائمه بالسواد)، بل قبل ذلك منذ أيام الأتروسكيين السوريين، وقد اثبتت اصلهم السوري كل الأبحاث الموضوعية. وإن السوريين الرومانيين هم الذين كانوا ينافسون فينيقيي قرطاجة من أجل السيطرة على تجارة البحر المتوسط وليس غيرهم، وإن الذي هزم هانيبعل هوشيبون الفينيقي الافريقي وليس من سكان البلاد الأصليين.

على اية حال لسنا هنا بصدد البحث في تاريخ إيطاليا التي تدين باسمها نفسه إلى السوريين، لكننا، وفي معرض الحديث عن «وجوه» أو «تجليات» عشتار في الغرب، لابد وأن نوضح معنى «سيبيل».

إن الكلمة مركبة من «سب» ويعني في القاموس السرياني: الرحم، الفرج، وإيلا (الربة) وتعني التسمية رحم الربة، أم الإله، إذ هي أخصبت به من الروح وحافظت على عذريتها كربة للخصوبة، لأن من اسمائها ــ التي هي جميعاً اسماء لعشتار ــ «السيدة العذراء». وإذا كانت «ميثرا» (المكثرة، المخصبة) أو دي ميثرا، قد ذهبت شرقاً وغرباً، فإن «سيبيل» انطلقت من المركز غرباً إلى اليونان وايطاليا، وباسمها دعيت «العين» المقدسة التي تغذي الأنهار التي تروي الجنة حيث مسكن الأرباب في ديانة الخصب العربية السورية القديمة، مما حدا ببعض الباحثين إلى القول بأن اسم هذه العين هي التي أوردها القرآن الكريم ﴿ عيناً فيها تسمى سلسبيلا ﴾ اعتماداً على ما تقوله القواميس العربية

---

(1) James Frazer, The Golden Bough, p404

من أن هذه التسمية مؤلفة من كلمتين لا تتصرفان هما «سل» و«سبيلا» أي أنهما كلمتان عربيتان قديمتان غير خاضعتين للنحو والصرف. وفي القاموس السرياني نجد أن «سيلو» أو «شيلو» تعني الكهف، المغارة، فيكون المعنى كهف العذراء، أمّ الرب.

ومثلما كان رحم السيدة العذراء قد ضم الطفل الإلهي المخلّص تموّز أو أدونيس أو أوزيريس عند العرب القدامى السوريين والمصريين، وأظهره في دار الأبرار في الفردوس الأرضي ليرتوي بمشاهدته وقربه الأبرار في الدار الخالدة رياً روحياً، وهو قوام «النعمة، والحياة الروحية في دار النعيم الخالد، فقد صارت المغارة في الحياة الدنيا رمزاً لذلك الرحم، وصار الماء المتفجر من أعماقها، والذي هو قوام هذه الحياة، تمثيلاً لذلك الري في مستواه الأدنى، إنه ري الجسد الفاني لا الأرواح الخالدة. وهو نفسه ما أشار إليه أبو حامد الغزالي في تفسيره لوديان الجنة مؤكداً أن لكل مثال روحي مثيلاً في عالم المادة. ومن هنا انبثقت التقاليد السورية القديمة التي أضفت طابعاً مقدساً لكل مغارة في جبل تتفجر منها المياه، ودعيت في كل أنحاء سوريا بـ «كهف العذراء» ونقلوها إلى كريت واليونان وايطاليا كما سوف نرى لاحقاً.

ويؤكد هيرودوت أن «ميثرا» الفارسية هي عشتار البابلية[1]، وصار ثابتاً اليوم أن جميع آلهة مابين النهرين كانت ممثلة في البانثيون الفارسي، كما «كانت هذه الآلهة ممثلة من قبل البانيثون المصري»[2].

أما «فينوس» فتعني الخصبة، ربة الخصب. وهي من الكلمة العربية القديمة «أفني» التي تعني في القاموس السرياني الخصب، وقد اضيف حرف السين في اليونان وإيطاليا فيما بعد اعتباطاً إلى نهايات كل الأسماء، بعد أن كان مقتصراً في سوريا ومصر على بعض الأسماء التي تمتع أصحابها بقدرة من الآلهة، أو تحولت إلى آلهة مثل: إيزيس، أوزيريس، أودونيس، سميراميس.... الخ.

وإن من يقرأ «الإنياذا» يكتشف كيف أن مؤلفها السوري الروماني بابليون

---

(1) بيير روسي، المرجع السابق، ص78 .

(2) المرجع نفسه.

فرجيل لم يميز بين «فينوس» و«عشتار»، بل أشار صراحة إلى أنهما اسمان لمسمّى واحد، وأن موطنها الأصلي في شبه جزيرة العرب إذ تتضوع برائحة البخور وعطور بلاد العرب. ثم إنها حينما «تجلّت» لجماعة «عنيا» (إنياس) في قرطاجة أخبرتهم أنها هي نفسها عشتار السورية أم كل السوريين أينما كانوا وبالتالي فهي أم «عنيا» وجماعته الطرواديين. لنقرأ في الانيادا:

«وحدث في اليوم التالي أن إنياس بعد أن أحسن إخفاء سفنه في خليج تغطيه الأشجار، قام يجوس خلال الأرض الجديدة التي قدموها.. فلقيته أمه في منتصف الغاب، ولكنها ارتدت ملابس اسبارطية عذراء، فتدلّت قوس من كتفيها كما تفعل الصائدات، وحلّ شعرها، وقصر قميصها حتى ركبتيها، وجمعت ثيابها بعقدة عند صدرها، وبدأت الصائدة الزائفة الكلام قائلة:

ـ لعلك رأيت إحدى أخواتي تحوم هنا فتخبرني بمكانها. إنها تتنطق بجلد، وترتدي جلد فهد مرقط. بل لعلها في صيد خنزير برّي، تأخذ معها البوق والسلوقي.

فأجابها إنياس:

ـ إنني لم أشهد ولم أسمع بأن لك أختاً أيتها العذراء، وبمَ أدعوك؟ إذ لا ريب في أنه ليس بنظراتك ولا بصوتك ما يشبه امرأة فانية، فأنت، إذن، إحدى الإلهات، وقد تكونين أخت فينوس، أو لعلك إحدى الحوريات. ولكن انظري إلينا، مهما كنت. نظرة عطف، ومدّي إلينا يد العون. أخبرينا في أي بلد نحن، فقد دفعتنا الرياح إلى هنا، ولا نعلم من أمر المكان والسكن شيئاً.

فقالت فينوس:

ـ كلا، أيها الغريب، إنني لست ما تظن، فإن علينا، نحن عذارى صور، أن نرتدي جلداً، وننتعل نعالاً أرجوانية. وهذه البلدة القريبة هي بلدة صورية مع أن الأرض هي أرض ليبيا، و«ديدو» هي ملكة هذه المدينة»[1].

---

(1) فرجيل، الانيادا، ص67 - 68 .

رموز عشتار وانتشارها من المركز إلى العالم

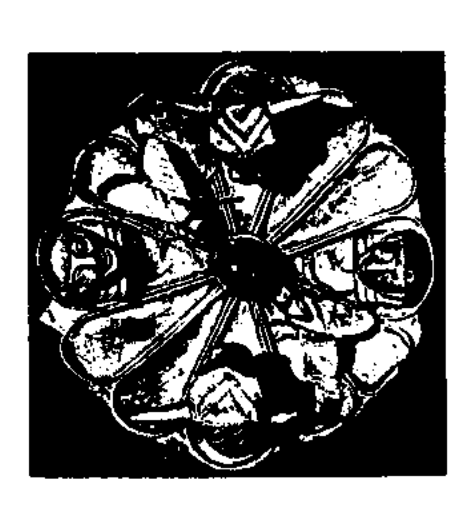
رأينا كيف ان الربة السورية عشتار مرت في ذهن الإنسان العربي القديم في عدة أطوار واكبت عملية نشوء الحياة على الأرض وتطور هذه الحياة من الخلايا الحية الأولى في الماء، إلى حياة النبات ثم الحيوان على الجبل البركاني الأول، إلى الإنسان.

ولقد كانت في كل مرحلة من تلك المراحل تتخذ شكلاً جديداً، وأسماء جديدة، ومهاماً جديدة، ويرمز لها برموز جديدة أيضاً. ففي مرحلة نشوء الحياة الأولى في الماء البدئي جعل لها رمز السمكة أو السمكتين المتماثلتين تدوران وكأنهما متحدتان في الماء، أو الزهرة أو الزهرتين المتماثلتين المتصلتين في الماء، ترميزاً للبرنامجين الأساسيين الضروريين لنشوء الحياة: المثال والمثيل.

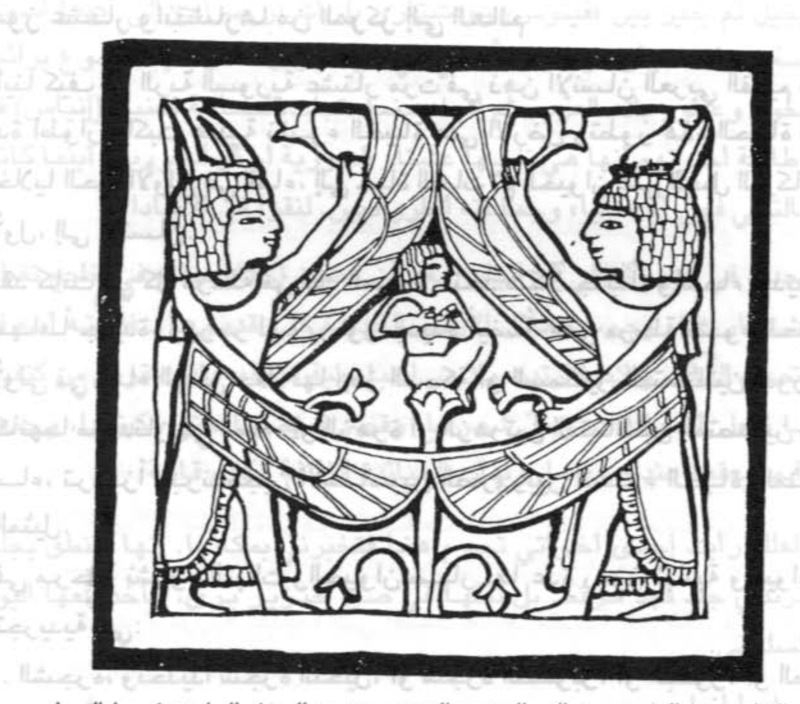
وفي مرحلة نشوء النبات والحيوان صار لها عدة رموز نباتية وحيوانية وتجريدية هي:

1 . الشجرة، وتحديداً شجرة النخيل، أو شجرة الصنوبر، أو البخور، أو المرّ، أو الكندر، وجميعها من الأشجار الخاصة بشبه جزيرة العرب. وكذلك شجرة الزيتون البرية.

2 . زهرة اللوطس، وكلمة «لوطس» في القاموس السرياني تعني الفتنة، الاغراء.



وردة عشتار في شكل حلية ذهبية من جزر بحر ايجه. وترى عليها رموز الخصب، كما ترى «زكزوكة» التبشير بالثمر. وهي حشرة ما يزال الصبيان في الساحل السوري إلى اليوم يلاحقونها، فيمسكون بها، ويضعونها في اشجارهم المثمرة لتغرد (تزكزك) بصوتها الرتيب القوي من اجل وفرة الثمر وسرعة نضوجه. القرن السابع قبل الميلاد.



3 . النافورة، التي ترمز إلى الوفرة المتفجرة من الجبل البارز وسط المياه.

4 . الجرة التي يتدفق منها الماء. وهي تمثل الرحم الأول، في المركز الذي انبثقت منه النعمة، قوام الحياة.

5 . الصليب، الذي يمثل في مركزه «الرحم» الذي هو المركز الأول لكل الولادات، كما يمثل بذراعيه المتقاطعين الذكورة والأنوثة. ومثله الصليب المعكوف.

6 . الأفعى، التي ترمز إلى التسلسل الخفي للرغبة أو الشهوة التي هي أساس الحياة والموت في الدار الفانية.

7 . الحمامة أو اليمامة، التي ترمز إلى الروح المقدس، طائر الحب، والسلام.

8 . الحصان والأسد، اللذان يرمزان إلى ترويض الحيوان.

9 . الجذوة أو الشعلة، التي ترمز إلى «الحب» الذي هو بمثابة الطاقة التي لابد منها من أجل أي اتحاد أو اقتران في الطبيعة.

10 . البقرة السماوية أو العجلة، وهي قرينة «الثور» رمز رب الخصب في الحيوان.



الزوبعة رمز الرغبة التي تزوبع حول الرحم المركز، ويرى فيها نظام الأزواج في صف السلسلتين واضحاً. اكتشفت على صحن من الفخار في سامراء يعود للعهد العربي الأكادي. الألف الثالث قبل الميلاد



عشتار والأفعى في كريت

ففي صلاة سورية إلى أنانا من عند سرجون الأول (الألف الثالث قبل الميلاد) نقرأ:

«أيتها البقرة البرية الجموح، انت أعظم من كبير الأرباب «آنو»»[1]. وفي بعض الألواح المكتشفة في أوجاريت نجد الربة تحمل لقب «العجلة» في مواضع كثيرة.

ومثلما انتقلت عبادة عشتار مع العرب السوريين إلى كافة أصقاع الأرض فقد انتقلت معها رموزها أيضاً.

يقول جوزيف كامبل: «وخلال العصر النيوليتي نضجت في سوريا الرموز التشكيلية الخاصة بالأم الكبرى، وهي الرموز التي انتقلت معها بانتقال ديانتها النيوليتية إلى الأصقاع الأخرى. ومن تلك الرموز: الصليب المعكوف، والصليب العادي، اللذان استمرا رمزين مقدسين في الديانات العشتارية والديانات الذكرية على السواء وصولاً إلى السيد المسيح وأمه مريم آخر أم كبرى في الديانات البشرية، وما زال الصليب المعكوف رمزاً مقدساً لدى الهندوسية في الهند، والبوذية في الشرق الأقصى، كما وجد في نقوش وصور الهنود الحمر في أمريكا...

«وإلى جانب الرموز التجريدية ارتبطت بالأم الكبرى رموز حيوانية لا يخلو عمل تشكيلي من واحد منها، أهمها: الحمامة، والأفعى.. ولقد انتقلت مجموعة الرموز هذه مع انتقال عبادة الأم النيوليتية إلى الثقافات الأخرى. فانتقلت أولاً، إلى كريت، ومن هناك نقلتها السفن عبر مضيق جبل طارق شمالاً حتى الجزر البريطانية وجنوباً على طول الشاطىء الافريقي. ومن كريت أيضاً إلى مكيني، وهي أول مدينة متحضرة على الأرض اليونانية. ومنها تغلغلت في الثقافتين الاغريقية والرومانية. ومن الهلال الخصيب وصلت مجموعة الرموز هذه إلى مصر منذ مطلع الألف الرابع قبل الميلاد. وكذلك من الهلال الخصيب، اتجهت شرقاً نحو آسيا حتى أقصى أصقاع المعمورة جنباً إلى جنب مع ديانة عشتار»[2].

---

(1) J.B. Britchard, The Ancient Near East, V.I. p. 128

(1) Joseph Campbell, Primitive Mythology, p143

ويقول ول ديورانت: «إن التجار السوريين كانوا وسيلة طوافة لنقل الثقافة، ونشروا علومهم في جميع اقاليم البحر المتوسط[1]. وإن سكان كريت كانوا فينيقيين وهكذا كان يسميهم اليونانيون[2]، وفي مكيني وكريت نجد البلطة المزدوجة والعمود المقدس، واليمامة الإلهية،... والأفعى[3].

ويقول بيير روسي: «إن شرحاً جاداً للنصوص، وللرسوم الجدارية، ولتماثيل الكهوف المسيحية قرب روما قد كشفت بصورة مؤكدة تأثيراً عربياً هاماً. إننا في الحقيقة نجد فيها كرمة ادونيس اليمني، وحمامة عشتار والسمكة، وقارب إيزيس، وشمس إيل»[4].

ويقول إيريخ نيومان: «منذ أن تعلّم الإنسان النيوليتي صناعة الجرار الفخارية، انضم الاناء الفخاري إلى جملة رموز الأم الكبرى.. وقد انتقلت تقاليد صناعة الجرار المقدسة من العصور النيوليتية التي حفلت بها إلى عصور الكتابة. وتعددت أنماط صياغتها ومعظمها يعير الجرة المقدسة الأثداء الأنوثية التي هي مركز العطاء في جسد المرأة. فقد تصنع الجرة على هيئة جسم كروي ذي عنق قصير يليه ثديان وسرّة واضحة.. وقد تزين السرة بصليب عادي أو معكوف. وللسرة هنا قيمة رمزية كبيرة، لأن سرّة عشتار هي مركز الكون، ومعبدها هو سرّة الأرض. وفيما بعد صار لرمز السرّة الإلهية هذا شأن كبير في الديانات الذكرية، حيث صار كل شعب ينظر إلى معبد إلهه الرئيسي على أنه سرة الأرض. كذلك كان معبد أبوللو في دلفي بالنسبة لليونان، وهيكل سليمان في أورشليم بالنسبة للعبرانيين، والكعبة بالنسبة للعرب. وإننا لنجد عشتار نفسها في العديد من صورها ومنحوتاتها تحمل بيدها جرة فخارية يميل عنقها قليلاً إلى الأمام. من ذلك تمثالها المعروف باسم ربة الينبوع المحفوظ بمدينة حلب السورية، والذي يمثل عشتار مدينة ماري السورية»[5].

---

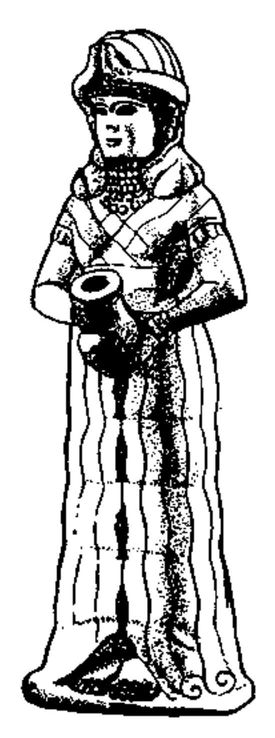
(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، حياة اليونان، ص131 .

(2) المرجع نفسه، ص20 .

(3) المرجع نفسه، ص65 .

(4) بيير روسي، المرجع السابق، ص106 .

(5) Erich Neumann, The Great Mother PP 163 – 164



«حورانينا» (اورنينا) وتعني كهف السيدة، كما صورها السوريون القدماء، وكانت المياه تتدفق من الكاس او الجرة التي هي رمز لخصب السيدة

ومن اليسير أن نلاحظ في تمثال الربة عشتار المكتشفة في مدينة ماري السورية كيف أن الجرة تقف بمثابة السرّة، وأن كلمة السرّة و«سرت» العربية القديمة واحدة، تعني السرّة وجبال السراة.

أما الشجرة فقد بقيت ملازمة للربة عشتار في كل مناطق انتشار عبادتها، وقد مثلت منذ البداية روح الخصب التي أخرجت من رحمها القوة المخصبة المتمثلة في الإله الابن. ففي الأساطير السورية القديمة يولد أدونيس من جذع شجرة المرّ في جزيرة العرب. ويقول جيمس فريزر: «قامت الأسطورة اليونانية بزخرفة هذه الأسطورة القديمة على طريقتها فقالت إن شجرة المرّ كانت فتاة جميلة وابنة لملك قبرص. حملت من أبيها سفاحاً ثم تحولت إلى شجرة حملت



الأم السورية الكبرى عشتار بملابسها التقليدية الأوجاريتية. ونرى وهي حاملة زهور الخشخاش احد رموزها التقليدية. كما ترى «الميجانا» وسط الصورة التي تستخدم لدق الحبوب وثمر الزيتون والعنب. وقد عثر عليها في مسّينا بايطاليا

في داخلها الإله»[1]. لكن هذه «الزخرفة» تبقي على الأصول العربية للأسطورة مهما ألحقت بها من تغيير، فشجرة المرّ ليست من أشجار قبرص أو اليونان، وقد كنا قد شرحنا كيف أن كلمة «كفت حورا» التي في الأصل تعني (صخرة المغارة) قد تحولت في النقل إلى «قبرص».

ولسنا هنا نجد داعياً للتفصيل في تلك الرموز وملاحقتها في انتشارها الموجي من المركز إلى كافة الأصقاع، إذ أنه بات معروفاً لكل الباحثين اليوم كيف أنها غطت مع عقيدة عشتار السورية العالم كله في المكان، كما أنها لم تتوقف في الزمان. بل تغلغلت عبر العصور حتى التصقت أخيراً بالسيدة مريم أم المسيح، ففي الموسوعة المريمية نقرأ:

«السلام عليك ياجرّة تحوي المنّ المحلّي وتمنحه لحواس الأتقياء. السلام عليك ياغذاء يقوم بدل المن»[2]. «الاناء الذي امتلأ بالرب، الذي حمل الله»[3]، «إن

(1) James Frazer, The Golden Bough, p. 386 – 387

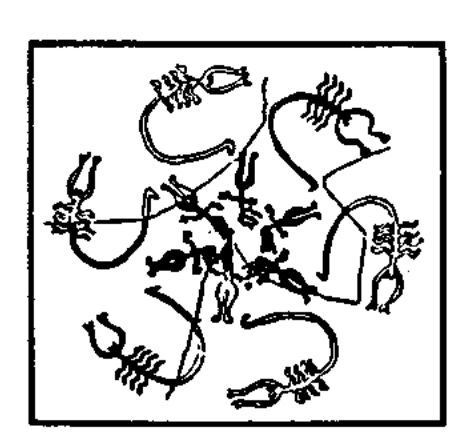
(2) الأب متري هاجي اثنا سيد، الموسوعة المريمية، ص26 .

(3) المرجع نفسه، ص353 .

والدة الإله بالجسد، لما قدّموها للرب عجلة ذات ثلاث سنين. تقبلها زكريا كاهن الله ووضعها في الهيكل»[1].

وغني عن القول أن الصليب الذي هو رمز لخصب عشتار ولرحمها الذي هو مركز الصليب، واسمه بالعربية القديمة كريستو = رحم، صار رمزاً للمسيحية البيزنطية، وإن الصليب المعكوف يمثل دوران قطبي الخصب يحركهما التوق الأبدي إلى الاتحاد والاقتران، فيتم بالحركة التحريض، وتندلع شرارة الحب، فيتغذى ويتقوى الخصب إلى الأبد.

ولما كانت عشتار هي الصخرة، هي المركز في المغارة، فقد بدأت العبادة العشتارية دوراناً أو طوافاً حول المركز. كثيراً ما كانت ترافق بالرقص والغناء والعزف. وقد مثلها التصوير السوري القديم في راقصات تدور حول المركز وقد تحولت كل منهن إلى شكل عقرب أو حية تمثيلاً لاندلاع الرغبة في الكائن الحي التي تحمل الحياة والموت في آن معاً في الدار السفلي الفانية.



كاس عليه رسم لراقصات بشكل زوبعة رمز الرغبة سرعان ما تنتهي بعقارب رمز الألم والموت. فالرغبة الجنسية هي بداية طريق الحياة حيث اللذة سرعان ما تفضي إلى الطرف الآخر حيث الألم والموت. العراق. الألف السادس قبل الميلاد

---

(1) المرجع نفسه، ص82 .

عشتار والطفل الإلهي:

يؤكد التراث العربي القديم أن الأم الكبرى التي مثّلت خصب الأرض أفرزت ابنها من خصوبتها إلى الخارج، ثم صارت هي الخصب وهو المخصب، وشدّته إليها برابطة أبدية هي الحب أو الرغبة. هي المركز وهو الذي يدور حول المركز، وتابع له، ومشدود إليه. هي الهيكل وهو الكاهن (الكاهن في القاموس السرياني يعني المخصب، وكهنوت تعني الخصب). ومثلما هي تمثل الأرض (الرحم) صار هو يمثل القمر (وليس الشمس أو السماء كما يفترض البعض). فكما هي أفرزت عنصر الذكورة من رحمها الخصيب إلى الخارج ليبقى متعلقاً بها يدور حولها ويخصبها، هكذا أفرزت الأرض القمر. والقمر في العربية القديمة والحديثة كان دائماً مذكراً والأرض مؤنثة. وفي العربية القديمة نجد أن الكلمة هي «كومر» وتعني الكاهن، المخصب. (وما تزال اللهجات العربية البدوية تلفظه بهذه الصيغة) ويذكر التراث أيضاً أن القمر كان ملتهباً، ولهذا فإن أشعته تحديداً هي التي دفأت بيضة عشتار وأخصبتها من أجل أن تنتج الرب، السيد، الإنسان الأول في المركز، في الجنة. ولهذا فقط بقيت دورة المرأة الاخصابية مرتبطة بالقمر تحديداً.

ونحن نلاحظ أن بعض الآيات في القرآن الكريم تؤكد على أن القمر كان جسماً ملتهباً منيراً ثم امحّى او انطفأ ﴿ فمحونا آية الليل ﴾.

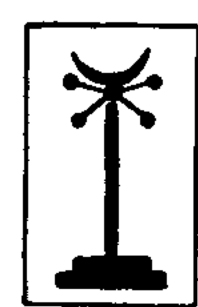
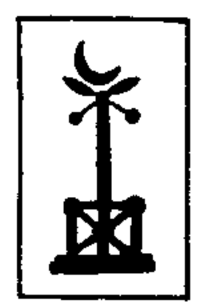
أما ارتباط خصب عشتار بالقمر فقد أكدته كل المصادر العربية القديمة. لقد





عشتار في رسم توضيحي تعرّض «البيضة» لاخصاب القمر. على ختم بابلي. وإلى اليمين تمثيل لثلاثة اوجه القمر (3 اسابيع) اللازمة لتحويل البيضة إلى كائن حي.

صوّر السوريون القدامى عشتار جالسة وبيدها البيضة وهي تعرضها لأشعة القمر في تزايده إلى أن يصبح بدراً. وعن هذا الارتباط يقول هاردينغ: «إن حياة المرأة الفيزيولوجية والسيكولوجية ذات طبيعة قمرية وإيقاع قمري. فهي مرتبطة بدورة شهرية معادلة لدورة القمر الذي يبدأ هلالاً في أول الشهر ليتلاشى في آخره، بعد أن يمر في فترة تقع في منتصف الشهر عندما يبلغ البدر تمامه. ولقد كان سكان بلاد الرافدين يعتبرون تمام البدر يوماً تحيض فيه عشتار وتستريح من كل أعمالها. لذا فقد ارتبطت بهذا اليوم مجموعة من المحرمات.. وقد دعي هذا اليوم «شبتو» أي يوم الراحة. وكانوا يحتفلون به في كل يوم شهر، ثم مرة في كل ربع من أرباع الشهر القمري»[1]، «ولقد عبرت الأعمال التشكيلية للحضارات الأولى في ثقافات الشرق القديم عن علاقة القمر بخصوبة الأرض ونمو الزرع والشجر، مدفوعة إلى هذا بالأفكار التي توارثتها عن الثقافة النيوليتية. فنجد في كثير من الرسوم كيف أن القمر والشجرة «عشتار» يندمجان في وحدة تشكيلية جمالية. ويبدو القمر وكأنه جزء عضوي من أجزاء الشجرة التي رسمها الفنان البابلي بأسلوب زخرفي مبسط جميل. ويكرر الفنان الآشوري نفس العناصر، متبعاً الطريقة نفسها، مع إضافة الحيوانات إلى الوحدة التشكيلية، لأن القمر مسؤول أيضاً عن تكثير الحيوانات وعن توالد الإنسان»[2].


مراحل عمل إخصاب القمر في تكون النبات كما تصورها قدامى السوريين، بابل، الألف الثاني ق.م

---

(1) M. Ester, Harding, Woman's Mysteries, p. 62

(2) Robert Briffault, The Mothers, P302.

ونذكر في هذا الصدد أيضاً أن قدامى العرب السوريين جعلوا أساس خلق الحيوان والإنسان كل من بيضته الأولى، فقد أخبرونا أن الطاقة الحرارية التي نفخت الحياة في البذور، وفي «البيوض» الأولى إنما جاءت من أشعة القمر. وبالنسبة للطيور، التي انتقلت إلى أمّاتها مسؤولية تأمين هذه الحرارة (الطاقة) لتدفئة البيوض، فقد ظلت دورة حياة أجنتها مرتبطة بالقمر، إذ أنها تفقس بعد ثلاثة أسابيع (21 يوماً)، أي بعد أن يجتاز القمر ثلاثاً من وجوهه.. وبعض الطيور كالنسر تحتاج بيوضها إلى أن تفقس ثمانية أسابيع، إذ لا تفقس إلا في اليوم السادس والخمسين من بدء الحضن، ولهذا فقد صار القمر بأوجهه الأربعة أساساً لعملية الحساب التي ارتبطت منذ البداية بدورة خصب المرأة والبيوض والبزور وقد أكد القرآن الكريم ذلك ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس ﴾ (البقرة 189)، فقسم الشهر إلى أربعة أسابيع هي أربعة أطوار القمر. ودعي القمر «مونا»، والكلمة في القاموس السرياني من الفعل «منا» ويعني عدّ، حسب؛ «منيان» حساب، علم الحساب، تاريخ، «منوت» = جزء، قسم، جهة، وجه. فمن المعنى الأول جاءت «منيا» وهو وزن بابلي ومكيال انتقل إلى كريت واليونان ومصر وايطاليا، وكذلك جاءت منه «منوت» بمعنى جزء من الساعة، دقيقة، وmoneta بمعنى جزء من العملة، فكّة، ومن المعنى الثاني (أي الجهة أو الوجه) جاءت تسمية أحد أوجه القمر الثلاثة اللازمة لانتاش البيض أو البزور، فكانت الربة العربية «مناة» هي التعبير عنه. ثم انتقلت هذه التسمية مع العرب السوريين إلى بقاع أوروبا: وصار اسم القمر في معظم هذه اللغات moon، كما ارتبط به اسم اليوم الثاني من الأسبوع monday (أصلها moonday). ولما كان قدماء العرب السوريين قد ربطوا بين خصب البيضة (أو دورة الحيض عند المرأة) بالقمر، وكان مركز الخصب هو الرحم الذي هو «كريستا» بالعربية القديمة (الكرشة الآن)، وكان رمز الرحم هو الصليب، فقد ربطوا أيضاً بين الخصب واكتمال وجه القمر حين يصير بدراً، فرمزوا لهذه العلاقة بين الرحم والقمر بالصليب والدائرة. لقد كانت شارة عشتار في الزمن البابلي عبارة عن دائرة كاملة وصليب، ثم انتقل هذا الرمز إلى مصر وكريت واليونان وغيرها من الأصقاع الأخرى.



الصليب الذي يمثل الرحم مركز الخصب. من اريدو في جنوب العراق الألف الرابع قبل الميلاد.

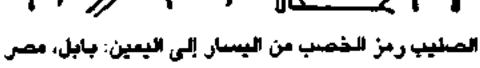


الصليب رمز الرحم مركز الخصب.
نقش على الفخار. تل حلف.
الألف الرابع قبل الميلاد



الصليب رمز الرحم مركز الخصب.
نقش على الفخار من اريدو في جنوب العراق.
الألف الرابع قبل الميلاد





الصليب رمز الخصب من اليسار إلى اليمين: بابل، مصر

يقول هاردينغ: «إنه في غرينلاند يسود الاعتقاد بأن القمر هو الذي يبث الحياة في أرحام النساء، لذلك فإن المرأة التي لا ترغب في الحمل لا تنام على ظهرها ليلاً دون أن تغطي منطقتها بإحكام، خوفاً من تسلل شعاع القمر. وفي نيجيريا يقتصر دور الفعل الجنسي الذي يمارسه الرجل على تسهيل مهمة القمر الذي يعتبر المسؤول الحقيقي عن الحبل. ولدى قبائل الماوري في أمريكا الشمالية يسود الاعتقاد بأن القمر هو زوج النساء جميعاً، وتعتقد بعض القبائل في منغوليا ومناطق أخرى من العالم بأن القمر قادر وحده أحياناً، ودون تدخل الرجل، على اخصاب النساء»[1].

كانت عشتار في ديانة الخصب السورية القديمة هي النفس العذراء الخصيبة الأولى، ومن ذاتها أفرزت ابنها الطفل الإلهي، الذكر، ربما بتدخل قوى علوية مثل «انجي» (المخلِّص، المنجي) كما اعتقد العرب السومريون، أو غيره، وذلك من اجل ان يتولى عملية إخصاب الانثى بعد أن شدته إليها برباط «الحب» الذي يؤمن الحرارة او الطاقة اللازمة لعملية الاتحاد، الاقتران.

ولما كان القمر الذي أفرزته الأرض قد مثّل في احدى المراحل عملية «المخصب» للبيضة في الرحم الأولى، فقد صار قرنا الهلال قرني الثور الذكر، وصارت عشتار هي العجلة او البقرة. وأطلق على القوة المخصبة الذكرية اسم الثور، أو التيس. إن هذا التمثيل للأم الكبرى وللابن هو ما نراه في سوريا النيوليتية قبل أي مكان آخر في العالم، من شتال أيوك إلى تل الرماد.

وبعد ان خلق الإنسان كان على عشتار ان تعمل كل ما في وسعها من أجل أن يتناسل ويتكاثر ويعمل ويعمّر الأرض، تلك المرحلة الأولى من عقيدة الخصب العشتارية لم تكن تتطلب من الإنسان الأول إلاّ أن يؤمن غذاءه ويتناسل ليكثر. فكان كل ما يمكن ان يستثير الرغبة إلى الجنس الآخر من أجل الانجاب والتكاثر يعتبر عملاً مقدساً وجزءاً من العبادة لعشتار التي صار اسمها عند كهنتها «البغي المقدسة» كما صارت كاهناتها يدعين «البغايا المقدسات».

إن هذا الطفل الإلهي بأسمائه المختلفة (دوموزي، أدونيس، أوزيريس،

---

(1) M.E. Harding, Woman's Mysteries, PP. 22 – 23

آتيس...) ما أن كبر فجأة حتى صار هو الإله الابن، الزوج، الحبيب، القرين، العشير، الشريك، الأخ.. الخ. إنه الذكر بكل ما يمثله للمرأة من علاقات، ولما كانت عشتار وابنها، أو حبيبها، في وجودهما الإلهي المثالي، فإن على الذكر والأنثى، الرجل والمرأة، في هذه الحياة الدنيا أن يقوما بهذا العمل نيابة عنهما انطلاقاً من المبدأ العقائدي السوري القديم: إن الآلهة خلقت البشر لتعمل كل شيء نيابة عنها على الأرض. وفي تلك المرحلة تحديداً كان على البشر أن يمارسوا عملية الحياة والموت في الدار الفانية ويتكاثروا من أجل السيادة على بقية المخلوقات على الأرض.



عشتار والطفل الإلهي تموز على ختم بابلي. الألف الثالث قبل الميلاد

وكما أن النفس العذراء الأولى كانت تحمل عنصري الخصب في ذاتها (في رحمها) ثم افرزت من ذاتها العنصر المخصب، ثم تجسد كلاهما في الطبيعة والحيوان، فإنه من أجل إعادة إنجاز العملية لابدّ من عودة الروح المخصبة في الطبيعة إلى الأرض، وعودة البزرة إلى التراب (رحم الأرض)، وعودة نطفة الذكر إلى بويضة الأنثى في الرحم، لابد من الغياب والظهور، من الموت والحياة. وهكذا صارت ظاهرة الحياة والموت في الحياة الدنيا جزءاً أساسياً من الخصب، يتجدد بتكرارها ومن خلالها، ويبقى الخصب هو الخالد الكامل الذي لا ينتقص. ومن هنا صارت للجنس طقوسه المقدسة في ديانة الخصب العشتارية.

وإذا كانت عشتار قد مثّلت في إحدى مراحلها روح الخصب في الطبيعة البكر،

تغيب في أواخر الصيف وتبعث في بداية الربيع، فإنها، بعد ظهور الإله الابن (الذكر)، عهدت إليه بهذه المهمة، وهكذا فإننا نجد الإله الابن (دومحوزي، أي الرب العاشق) يغيب في رحم أمه الأرض في بداية الشهر الذي دعي في سوريا باسمه (شهر تموز)، ويغيب معه الخصب في الطبيعة، وعنصر الاخصاب في الحيوان، ثم يبقى في رحم أمه الأرض (التي هي عشتار أو «جيا»، قيعة) مدة تسعة أشهر، هي مدة حمل الأم للجنين، ليبعث من بعد ذلك من جديد، وبعد تمام الشهر التاسع، في بداية الربيع.

منذ أن وجد الرب الذكر في عقيدة الخصب العربية السورية القديمة تحولت عشتار إلى العروس، والحبيبة، والمعشوقة، والزوجة، وتحوّل الرب إلى العاشق، الحبيب، العروس، الزوج. وصار لقاؤهما يعني نفخ روح الخصب في الطبيعة والحيوان معاً.. لذلك فقد حرصت عقيدة الخصب أن تحيط هذا اللقاء الجنسي بأبهة الطقوس، يجري تمثيله بين الكاهنة وكبير الكهنة، الذي كان الملك غالباً يقوم بدوره في حجرة الرب التي تبقى مغلقة حتى يأتي مثل ذلك اليوم من السنة.

أما اسم الرب في الأصل فهو «دومحوزي» (دوموزي لاختفاء الحاء) أي العاشق، الحبيب، المعشوق. والكلمة في القاموس السرياني هي «مُحوزو» أي عاشق، و«محوزتا» عاشقة، معشوقة، وتلفظ أحياناً بدون التاء «مْحوزا» كما هي العادة في العربية القديمة والحديثة، كأن نكتب «خديجة» وندعوها «خديجا»، و«مْحوزا» بمعنى العاشقة أو المعشوقة أو الملهمة هي التي ذهبت مع السوريين إلى بلاد اليونان ودعيت، بعد اختفاء الحاء، «موزا» وجمعها بالعربية الفينيقية أو السريانية «محوزاي» وتعني العاشقات، الملهمات.

ولم يفهم أحد في الغرب كله أصل الكلمة فاعتبروها «اسماً لربات الفن». فإذا ما أراد شاعر أن يكتب قصيدة فإنه يستلهم الوحي من «موزا»، وكان السوريون يقصدون العشيقة، سواء أكانت عشيقة الرب أي عشتار، أو عشيقة الشاعر نفسه التي هي ملهمته أصلاً قبل أية واحدة أخرى.
ثم إنه يجب التمييز بين «دُمحوزي» (دوموزي) الرب العاشق، وبين دوموزي

الملك الذي كان أحد ملوك سومر، ودوموزي الكاهن أو النبي.. وكثيرا ما كان يسمّى الكهنة بأسماء الأرباب، ويسمّى وكلاء الملك باسم الملك نفسه.

حياة دوموزي وموته:

إننا حينما نتكلم عن الربة والرب في ديانة الخصب المركزية فإن هذا يعني الكلام عن عشتار والطفل الإلهي الذي صار الابن والحبيب والعشيق والزوج والأخ، إنه دوموزي أو ادونيس، ثم أوزيريس، واتيس، وديونيس في مناطق الانتشار.

ومنذ أن تمت عملية فرز عنصر الذكر عن الأم الكبرى وقعت على كاهله مهمة تمثيل روح الاخصاب في الطبيعة والحيوان. فحياة دوموزي هي حياة الطبيعة والزرع والقمح، وحياة الرغبة الجنسية في الحيوان والإنسان، وغيابه يعني غيابها جميعاً. وكان يرمز له بالثور أو التيس كما ذكرنا..

«وقد واصل الرب الثور رحلته غرباً من الشرق الأدنى القديم إلى أن حط الرحال عند حواف العالم القديم وشواطئه، حيث حافظ على أسمه السامّي «الثور»»[1].

وكانت ليلة الاقتران هي ليلة الخميس، وقد بقي يوم الخميس هو يوم القران أو الزواج في التراث العربي منذ الزمن القديم وحتى اليوم. وقد دعي هذا اليوم بـ «يوم الثور»، وانتقل إلى بعض اللغات الأوروبية، «وقد بقي اسم ذلك الرب يطلق على يوم الخميس، كما هي الحال في اللغة الانكليزية اسم Thursday المحوّر عن thur's day»[2].

أما موته فقد كان في أوائل شهر تموز الذي دعي باسمه. فكانت تخرج النساء السوريات إلى البراري والحقول ليندبن الرب الميت أو الغائب، والذي بغيابه اختفت مظاهر الخصب من الطبيعة، والزوج لا ينام مع زوجته، والثور لا يقرب البقرة، والتيس لا يعلو ظهر العنزة...

ويؤكد جيمس فريزر ان اكتشاف الزراعة بالنسبة لإنسان العصر الحجري لم يكن نتيجة فعل بشري، بل نتيجة عون سماوي، وسنبلة القمح الأولى التي

---

(1) Shapiro, Hendricks, A Dictionary of Mythology, PP. 56 – 192

(2) Ibid

زرعها لم تكن إلا جسد الإله الابن القتيل الذي أرسلت به الأم الكبرى إلى العالم الأسفل من أجل ابتداء دورة الزراعة والحفاظ على استمرارها حتى نهاية العالم. فهو الإله الحي الميت الذي يهبط إلى رحم الأم الأرض في الصيف ثم يعود ساحباً خلفه بساط الربيع الخصيب مكملاً دورته السنوية. وهناك، في سوريا، حيث منبت هذه الأفكار، تركزت المستوطنات الأولى بدياناتها وطقوسها. لقد كان من بين الأسماء التي أطلقها السوريون على هذا الإله اسم «دَجَنْ». و«دجن» هو رب القمح كما انه القمح ايضاً. فالقمح هو جسد الإله القتيل بصورة من الصور. وما تزال هذه الكلمة تستخدم في الساحل السوري اللبناني إلى اليوم، إذ يقولون «ما تدجنت هذا اليوم» أي ما ذقت الطعام، أو «ماذقت الدجن». وإذا كان النواح على تموز في معابد المدن الكبرى قد اتخذ اشكالاً ومضامين دينية مختلفة، فإنه في حقل القمح قد حافظ على اصله القديم كنواح على سنابل القمح اليابسة، جسد الإله، الذي يقدم نفسه طائعاً للموت من أجل أن يحيا بنو البشر، ومن هنا فقد انبثقت فكرة الإله المخلّص، المنجّي، للإنسان من الموت أو الهلاك جوعاً في العالم الفاني.

«تروي المصادر الاغريقية أن المسافرين اليونانيين عبر الحقول السورية إبان الحصاد كانوا يسمعون صرخات تفجع عالية يطلقها الحصادون وهم يرددون ترديداً إيقاعياً كلمة «إيلونو»[1].

إن كلمة «إيلونو» أو «إيلون» هي تصغير كلمة «إيل» في العربية القديمة وتعني الرب الصغير أو الفتى أو الشاب. وليس كما يزعم المفسرون في الغرب انطلاقاً من جهلهم باللغة العربية القديمة. فالواو والنون كانت صيغة التصغير الشائعة للأسماء في كل لهجات العربية القديمة.

إن هذا الطقس نفسه انتشر من سوريا إلى قبرص ومصر واليونان وايطاليا وبقية أصقاع العالم القديم. فقد أكد هيرودوت أن صرخات التفجع على الإله السوري الذي يموت شاباً ذات الايقاع المأساوي الحزين، والتي كان يرددها الحصادون وقت الحصاد، من اقدم الألحان التي يمكن للمصريين تذكرها،

---

(1) Margurite Alexiou, The Ritual Laments, P. 57



عشتار الأم السورية الكبرى
والطفل الإلهي على نقش معدني
في كريت. حوالي 1500 ق.م



إيزيس والطفل الإلهي



صورة تمثل ميلاد عيسى ابن مريم، ونجمة الصبح
والمجوس يقدمون الهدايا. إيطاليا. القرن السادس

ولربما كانت أول أغنية غنوها على الإطلاق. وفي مقابل كلمة «إيلونو»، التي كانت تسمع في سوريا وفي قبرص أيضاً، كان الحصادون المصريون يرددون كلمة «مانيروس» التي فسّرها المؤرخ بقوله: إن «مانيروس» كان أول ملوك مصر، وهو الذي اكتشف الزراعة وعلّمها للمصريين، ولكنه مات وهو في ريعان الصبا».

«فالناس يتذكرونه ويندبونه في كل موسم حصاد. إلا أن كلمة «مانيروس» إذا حلّلت إلى مقاطعها المكونة في اللغة الهيروغليفية وهي «ما ـ ني ـ هرا» فإنها تعني: عدْ إلى بيتك»[1].

والحقيقة إن الهيروجليفية كتابة وليست لغة. أما لغة قدامى المصريين فهي العربية القديمة. والكلمة هي «مانيخ ـ حوري» وتعني حرفياً: أيها القديس، المتوفى، قم، تحرّر، اخلص من الموت. إذ أن «منيحو» تعني في القاموس السرياني: المتوفى، الميت، السعيد، المرتاح، القديس. و«حوري» من الفعل «حرا» = خلص، نجا، تحرّر، قام..

إن هذا النداء الموجه إلى دوموزي الرب الشاب من اجل أن ينهض من الموت ويخلص العباد من الموت جوعاً، هو الذي توجه به الناس جميعاً فيما بعد إلى أدونيس، وأوزيريس، واتيس، وهو الذي انتقل إلى مصر، وقبرص، واليونان، وايطاليا، وفرنسا، وبقية أصقاع أوروبا، كما انتقل غرباً إلى العالم الجديد وشرقاً إلى أقصى بقاع الهند. وبناء على نظرية الانتشار الموجي للحضارة، التي سبق أن فسرنا من خلالها ظاهرة الانتشار الحضاري من المركز السوري إلى العالم، فقد أخذت أطراف الموجات في البعيد تختلط، وتتماهى لقلة عمقها وضعف فاعليتها ولعدم سهولة التمييز بين حدودها، إلى أن تماهت أخيراً مع عيسى المسيح. ففي إنجيل يوحنا نقرأ: «أنا هو خبز الحياة من يقبل إلى لا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً»، و«أنا هو خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المنّ في البرية وماتوا. هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت. أنا هو الخبز الحي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى

---

(1) Ibid

الأبد. والخبز الذي أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة البشر»[1].

لقد أكدت المكتشفات الأثارية من صور ومنحوتات ووثائق مكتوبة تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد على الأقل أن السوريين كانوا يقربون الحمل أو الجدي او الخبز أو الخمر فداء للإنسان. يقول ديلابورت: «وكانت دبيحة الدم عادة حملاً أو جدياً. وهي تصور كثيراً في المناظر المحفورة في الألف الثالث. والواقع أن الحيوان كان يمثل صاحب القربان. وفي أحد النصوص المكتشفة التي تعود لذلك الزمن نقرأ:

«الحمل فداء للبشر

لقد قدم حملاً بدلاً من حياته

لقد قدم راس الحمل بدلاً من راس الإنسان

لقد قدم عنق الحمل بدلاً من عنق الإنسان

لقد قدم صدر الحمل بدلاً من صدر الإنسان»[2].

وإذا كان العرب السوريون، ومنذ الزمن الموغل في القدم، قد أحيوا ذكرى موت الإله تمثيلاً، فانبثق الفن التمثيلي والمسرحي من قبل الطقس السوري القديم، كما سوف نرى لاحقاً، ورمزوا إلى الإله بالتيس او بالجدي، فإن هذا الطقس ما ان وصل إلى من دعوهم قدامى السوريين بـ «البرابرة» في أوروبا حتى صاروا يقدمون القرابين البشرية تمثيلاً لموت الإله بدلاً من الجدي.

يروي لنا جيمس فريزر كيف أنه «في بعض مناطق ألمانيا كانت حزمة القمح الأخيرة تربط وتترك قائمة في الحقل. ثم يتقدم إليها حصاد شاب، فيشحذ منجله و«يصرعها» بضربة قوية، فتتهاوى وتتبعثر. وفي مناطق أخرى يصنع الحصادون دمية من عيدان القمح، ويأخذونها معهم إلى مكان الدراس، حيث توضع تحت آخر كومة قمح معدة للدراس، وهي الكومة التي تتلقى ضربة الدارس الأخيرة الذي يعتبره زملاؤه قاتل روح القمح. وقد تقرن زوجة صاحب الأرض إلى الحزمة الأخيرة.. وتجري عملية تقطيعها (درسها)، ثم توضع في

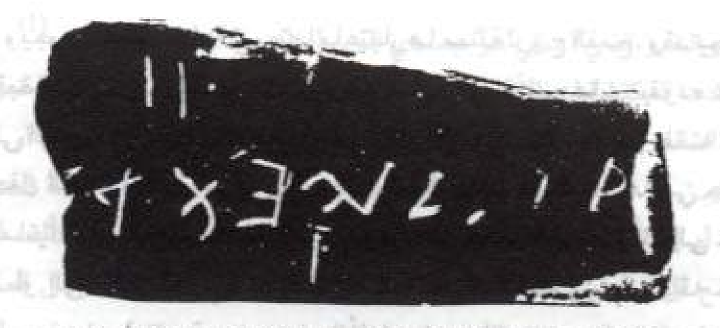
(1) انجيل يوحنا 6: 35، 48 – 51

(2) ديلابورت، المرجع السابق، ص197 .

المذراة، ويجري تمثيل عملية تذريتها باعتبارها ممثلة لروح القمح. وقد يجري تمثيل القبض على روح القمح باعتبارها حالة في غريب عابر يقوده حظه العاثر إلى المرور قرب حقل القمح، أو في زائر، أو في سيد الأرض نفسه لدى دخوله حقل الحصاد لأول مرة. ومثل هذه الممارسات كانت شائعة في جميع أنحاء المانيا، وفي بعض مناطق النروج وفرنسا، فكان الغريب يقاد إلى حقل الحصاد أو إلى مكان الدرس، حيث تربط إليه عيدان القمح ويشدّ وثاقه حتى يوافق على دفع فدية نقدية، وفي هذه الأثناء يقوم «الاسرون» بشحذ مناجلهم والتلويح بها في وجهه استعداداً لقطع عنقه. وقد يردد الحصادون حول الضحية أهازيج تتصل بالطقس القديم عندما كان الغريب يضحّى به فعلاً لا قولاً في حقل القمح. من ذلك قولهم: «الرجال جاهزون، والمناجل مسنونة، القمح طويل وقصير، والسيد لابد من حصد راسه»[1]. إن هذا هو ما فهمه همج أوروبا في ذلك الزمن من طقوس الخصب السورية. ولقد كنا قد رأينا كيف أن صراع «عناة» كان مع «موت» الذي هو رمز يباس الزرع، وليس مع روح القمح أو الخصب. وحينما قطعت جسد موت بمنجلها وجعلته إرباً إرباً تحت النورج، وذرته أمام الرياح الأربع، وتركت طيور السماء تأكل من جسده، فقد كان هذا تعليماً لعملية زراعة القمح وصناعة الرغيف، وليس قتلاً لأحد، قريباً كان أم بعيداً!

ويروي لنا جوزيف كامبل كيف أن هذه الطقوس الوحشية كانت تمارس في القارة الأمريكية أيضاً: «وفي العالم الجديد بقيت طقوس الخصب تقدم القربان البشري في المكسيك إلى ما بعد الفتح الاسباني بقليل. وتروي المصادر الاسبانية أن الأزتيك كانوا يحتفلون بعيد الخصب السنوي المكرس لإلهة الذرة، في شهر أيلول (سبتمبر) من كل عام. وكانوا في ذلك العيد يختارون فتاة صغيرة في غاية الجمال، يلبسونها زي إلهة الذرة، ويغرسون في شعرها باقة من الريش الملون، تمثيلاً لحزمة الخيوط في عرنوس الذرة.. ويضعون على رأسها تاجاً. بعد ذلك يضعونها على محفة فرشت بجميع أنواع البزور، ومزينة بالعرانيس والأوراق. ثم يحملونها في موكب حافل إلى المعبد هناك تنزل

(1) James Frazer, The Golden Bough, PP. 497 – 499



كتابة فينيقية عثر عليها في تينيسي في الولايات المتحدة الأمريكية



كتابات فينيقية في البارغواي



كتابة فينيقية في اوكلاهوما من الولايات المتحدة الأمريكية

الفتاة، ويأتي النبلاء والنبيلات في صف واحد، وقد حمل كل منهم وعاء فيه بعض من دمه، فيسكبون ما في الوعاء تحت قدمي الفتاة. ثم يردد الجميع وراء كبير الكهنة الصلوات والأدعية وهم يبكون وينديون. فإذا ما انتهوا سطحوا الفتاة على كومة من البزور، وتقدم كبير الكهنة فقطع رأسها، وقام برش دمها على التمثال القائم لإلهة الذرة وعلى الحبوب والبزور. بعد ذلك يتم سلخ الجثة، ويعطى جلدها إلى أحد الكهنة الذي يحاول إدخال نفسه فيه قدر استطاعته. ثم يأتونه بملابس الفتاة وبكامل زينتها فيضعها عليه، ويأخذونه من ثمّ ليطوفوا به في موكب صاخب على دقات الطبول»[1].

هكذا فهم العالم الهمجي طقوس عشتار التعليمية للحضارة الزراعية. وبناء على هذا فقد كان الاسم الذي يطلق على السوريين في اليونان «السادة المعلمون أبناء الآلهة» ويطلقون هم على غيرهم هناك اسم «البرابرة» وقد أخذ المؤرخون في الغرب يعكسون الآية فيقولون: كان اليونانيون يطلقون على كل ما عداهم من الشعوب لفظ «البرابرة»، ليوهموا القارىء بأن المقصود بها شعوب الشرق جاهلين، أو متجاهلين أن أولئك «اليونانيين» لم يكونوا غير بعض من السوريين. وهذا ما قد أفردنا له كتاباً خاصاً هو كتابنا الرابع.

وبما أننا أوضحنا معنى موت دوموزي، وقلنا إن «موت»، الذي هو يباس الزروع، هو الذي قتل البعل (والبعل تعني الزوج، القرين، العشير)، فإننا هنا سوف نتناول أدونيس في موته وقيامته الذي هو موت وقيامة روح الاخصاب الذكري، أو الرب الابن.

اسطورة عشتار وادونيس:

تقول القصة الأسطورة، كما رواها الكاتب السوري ـ الروماني «أوفيد»: ما أن كبر ادونيس (أدون = السيد، الرب) حتى تعلقت به عشتار وأنساها رعاية شطآن جزيرتها «القترا»، وأصبحت رفيقته تصحبه أنّى ذهب. وتركت ما تعودته من الاسترخاء في ظلال الأشجار والعناية بجمالها وزينتها، وأصبحت تجول في الغابات والجبال، مشمرة ثيابها حتى ركبتيها.. وأخذت تنصح أدونيس

(1) Joseph Campbell, Primitive Mythology, PP 222 – 223.

باتباع نهجها محذّرة إياه من الوحوش، مؤملة في أن يصغي لنصحها.
وقالت له: «كن جسوراً.. ولا تأمن الحيوانات التي تتعرض لك. ولا تكن طائشاً حتى لا أغدو تعسة بعدك يافتاي الحبيب. لا تتعرض للحيوات التي زودتها الطبيعة بأسلحة حتى لا أدفع أنا غالياً ثمن مجدك الذي تبلغه. فليس لشبابك وجمالك وسحرك الذي يفتن عشتار أثر على الأسود والخنازير البرية المشعثة الشعر. فهي لا تخشى الوحوش ولا ترهبها. ثم إن الخنزير البري كالبرق في انقضاضه بمخالبه. وإن الأسد إذا أثير يتوثب دوماً للهجوم.
وانطلقت عشتار بمركبتها في الأجواء بعد أن حذّرت أدونيس. غير أن الشجاعة لا تجدي فيها التحذيرات. فلقد لمح خنزيراً برياً كانت كلابه قد اقتفت أثره وأثارته من وجاره. وكاد أن يخرج من الغابة. فأنفذ في جنبه رمحه بطعنة قاتلة. وأسرع الحيوان، فنزع الرمح الدامي بخطمه الملتوي، فدب الذعر في قلب



أدونيس يمتطي ظهر النمر. لوحة فسيفساء سورية في متحف ديلوس

أدونيس، وأخذ يبحث عن مأوى، غير أن الخنزير الوحشي تعقبه، وعضّ فخذه قريباً من خصيته بنابه، فتلوى فوق الأرض محتضراً على التراب وحيداً. وبلغت أنّات أدونيس المحتضر اسماع عشتار، التي لم تكن قد بلغت جزيرة كفتور. فاستدارت واتجهت إليه، ولمحته عن بعد مضرجاً بدمائه فاقد الوعي. فقفزت إليه، وشقت ثوبها عند صدرها، وشدّت شعر رأسها، وجعلت تضرب صدرها بيديها اللتين لم تخلق لذلك. وأخذت تلوم الأقدار، وصاحت فيها قائلة: لا، لن يخضع لك كل شيء. وسوف يبقى أدونيس ذكرى حزن خالد إلى الأبد. وسوف يمثل كل عام مشهد موتك يذكّر بما كان فيه من نواحي عليك. ولتنبثقن زهرة من دمائك. وصبّت عشتار على دم أدونيس بعد كلماتها هذه رحيق زهرة عطرة جميلة، لم يكد يمسّه حتى أخذ الدم يغلي ويفور، وتصاعدت منه فقاعات صافية. ولم تكد تمضي ساعة من زمان حتى انبثقت من بين الدماء زهرة بلون الدم شبيهة بزهرة الرمان التي تخفي بذورها تحت لحائها، غير أن المتعة التي تمنحها هذه الزهرة قصيرة العمر، لأنها زهرة رقيقة واهنة الساق، تعصف بها الريح التي خلعت عليها اسمها وهي زهرة شقائق النعمان».

نلاحظ هذه القصة الأسطورة، التي أضيف إليها في بلاد اليونان وايطاليا فيما بعد توشيات وزخرفات أساءت إلى القصد منها، انها وضعت اساساً لغاية تعليمية: فالإله الذي نزل إلى العالم الفاني هو الإنسان، وعليه أن يعيش هذه الحياة بكل مافيها من معاناة ومخاطر. والخنزير البري الذي قتل أدونيس هو عدو الخصب والزراعة ومدمّر المحاصيل، ولقد أصاب خصب الإله، أي خصيته. وإن دم الإله القتيل هو الربيع القادم المتمثل في أزهار شقائق النعمان. ولابدّ هنا من أن نذكّر مرة أخرى بأن اصل الكلمة هي «النحمان» وليست «النعمان»، و«النحمان» تعني القائم من الموت، والابدال من الحاء إلى العين كثير في العربية القديمة والحديثة. يقول حمد الجاسر: لقد تحول اسم قرية «الريحان» إلى «ريعان» وهي من قرى الشفا المطل على تهامة[1]. والكلمة عربية قديمة، وهي في القاموس السرياني من الفعل «نحم» ويعني: بُعث، حيا،

---

(1) حمد الجاسر، المرجع السابق، ص56.

قام من الموت. ثم اختفت الحاء كما في اللهجة المندائية التي منشأها في الأرض المركز في بلاد غامد نفسها، وجرى الابدال مع العين. وما يزال وادي النعمان حتى اليوم أحد وديان جبال السراة جنوب غرب الطائف، يشتهر بمياهه الحمراء التي تصبغها التربة في الربيع.

أما العناصر التعليمية الأخرى فهي العناصر الطقسية: فكما ناحت ولطمت وندبت عشتار على الإله القتيل هكذا على النساء السوريات أن يفعلن، وكما امرت عشتار فإنه سوف يُمثّل كل عام مشهد موته ليذكر بما كان فيه من نواحها عليه» فمن هنا كانت بداية التمثيل المسرحي في سوريا، التي كما سوف نرى، كانت بداية هذا الفن في العالم أجمع. إنها بداية طقسية دينية مرتبطة بديانة الخصب العشتارية.

اما الخنزير البري، عدو الزروع ومدمّر المزروعات، فقد دعي في التراث السوري ب «الخنزير قاتل أدونيس» أي قاتل الخصب. ومع السوريين انتقلت هذه التسمية إلى بلاد اليونان فدعي هناك «خنزير كلي دونيا» أي قاتل ادونيس. والكلمة في القاموس السرياني هي من الفعل «قِلّ» أي قتل، أهلك، وقد ذهبت إلى الإنكليزية وصارت Kill = قتل.



الحلقة الحادية عشرة

«المركز»
وأعياد الخصب السورية



● **أعياد الربيع:**

إن كلمة «ربيع» العربية تعني الخصيب، وربعَ خصب، وربيع رابع أي مخصب خصيب. لقد اقترن اسم الفصل بالخصب منذ البداية. ومنذ أن دفعت عشتار بحبيبها وعشيقها دوموزي إلى الحياة الدنيا (العالم الأسفل) فقد صار عليه أن يمثل روح الاخصاب في موته وفي قيامته (بعثه). وعند قيامته تتزين عشتار كما تزدان الأرض، من أجل لقاء حبيبها، وتتجدد الخصوبة في الطبيعة والحيوان مع بدء فصل الربيع. وكان «ثوبها» الذي ترتديه في هذه المناسبة يزدان بكل أنواع الزهر والثمر، ومن القمر إلى صدف البحر، وبكلمة: بكل رموز الخصب والتكاثر والوفرة. وكانت تدعى آنذاك «أم الزِلُف» والـ «زلُف» كلمة عربية قديمة، وهي في القاموس السرياني تعني: الثوب الموشى، الزينة، الجمال، الصَدَف، الوذع، التيس، الغزال، السجلّ، السِفر، البراءة.

وما تزال أغنية «أم الزلف» مستمرة في سوريا ولبنان إلى يومنا هذا:

عالعين يامْ الزلف زلفا ياموليّا

وكلمة «موليّا» في القاموس السرياني تعني: الخصب، والوفرة وكانت تمثل دور عشتار الكاهنة المقدسة، أو إحدى العذراوات، أو الملكة، ثم صارت شجرة الصنوبر (شجرة عشتار) تمثيلاً لها، فيجري تزيين الشجرة كما كانت تزدان عشتار من أجل اللقاء والاقتران.

ومع بدء فصل الربيع تبدأ أعياد الخصب العربية السورية المرتبطة بقيامة تموز أو البعل أو أدونيس من الموت، وتتصل بعيد رأس السنة في الأول من نيسان من كل عام.

● **عيد النيروز:**

وتعني الكلمة «ربة الزهر أو الإزهار». وقد سبق أن شرحناها آنفاً. وهي ليست كما يحاول بعض «المجتهدين» اليوم من خلال إرجاعها إلى كلمات إنكليزية مع عربية أو فارسية، فيقولون نيو = أي جديد، و«رش» هي بالعربية القديمة تعني «رأس» فيقولون: أي الرأس الجديد، أي رأس السنة الجديد!

إن هذا العيد هو عيد الأم السورية الكبرى عشتار، إذ تتجلى بكامل سناها

وألقها في ازدهار الطبيعة. ومن اسمائه ايضاً في الساحل السوري عيد «الزهورية»، وفي مصر عيد «شم النسيم»، وقد حافظ الفرس الذين لم يتكلموا في الزمن القديم لغة غير العربية السريانية التي يدعوها المؤرخون «آرامية»، على الاسم العربي السوري القديم، «النيروز». وقد اقترن في التاريخ السوري هذا العيد بعيد الأم الكبرى عشتار، وما زال امتداده قائماً إلى يومنا هذا تحت اسم «عيد الأم».

إن الألق والازدهار الذي تمنحه عشتار للطبيعة في هذا الوقت ليس، في عقيدة الخصب، إلا تجلياً لعشتار نفسها التي تدعى في هذه الحالة «فصحتا» أي السنية، البهية، المتلألئة، الجميلة، الطالعة، الظاهرة، المضيئة... وهو «الفصح» الذي استمر في المسيحية البيزنطية وما زال حتى اليوم بعد ان اقترن بالسيدة مريم والسيد المسيح. وقد ذهبت الكلمة مع العرب السوريين إلى كافة الأصقاع فانتقلت إلى جميع اللغات بألفاظها وكتاباتها المختلفة. وقد سبق أن مررنا على ذلك.

● عيد راس السنة:

تقول الدكتورة إيفلين كلنيكل ـ براندت: «ومن أهم وأكبر الأعياد عند البابليين عيد راس السنة الذي يتسم بأهمية أساسية لمجمل حياة الدولة. ولم يقتصر مغزى هذا العيد على الالتقاء السعيد لكافة الناس وحسب، بل إن الأحداث التي تجري هنا لها في رأي البابليين الأهمية الحاسمة لوجود الدولة. وإذا صادف أن الاحتفال لم يتم بهذا العيد بسبب الحرب أو احتلال العدو للبلاد أو غياب الملك، فإن ذلك يعتبر كارثة قومية. إن احتفالات هذا العيد تجري في كافة انحاء البلاد. إلا أن أهم الاحتفالات تجري في مدينة بابل بالذات.

«تبدأ احتفالات راس السنة في آذار (مارس)، وتبلغ القمة في الفترة من1 ـ11 من نيسان، أي في وقت تكون فيه الطبيعة في ذروة جمالها، وحيث الحياة الجديدة تدب في كل شيء بعد أن يزول برد الشتاء القارس. وكان مركز الاحتفالات هو معبد إيزانجيلا (حيزا انجيلا = نبية الوحي، العرّافة). وفي كل عام تجري هنا المراسم الدينية المستمرة التي ترجع أصولها إلى العهد

الســـومـري. وكــان تمثــال مـردوخ هـو الذي يمثل مـركـز الصـدارة في هذه الاحتفـالات. وكـان ينبغي أن يرتدي في هذه المنـاسبة أروع الملابس ويظهر بـأبهى مظهـر. وبعد بدء العيد كـان رئيس الكهنة يتلو في اليوم الثاني صـلاة طويلة وحده أمـام الإلـه. وبعد ذلك يسمح لبقية الكهنة بالدخول. وفي 3 نيسـان كانت نفس المراسم الدينية تعاد مع تمثالين خشبيين مصنوعين من قبل عدد من الحـرفيين ومغطيين بـالمـلابس الحمـراء والذهب والأحجـار الكريمة. وفي 4 نيسان ترفع الصلوات لمردوخ (مـار دوق = الرب الحـارس) وزوجته «سارا بنيتوم» التي تعني ربـة الكعبـة). وكـان رئيس الكهنـة يراقب النجوم، ثم يقوم بتلاوة بعض التعـاويذ. وفي المسـاء تروى أمـام تمثـال مردوخ ملحمة تكوين الخليقـة، وربمـا تقـدم بعض الحـركـات التمثيلية. وبعد الصلوات والقرابين الاعتيادية في اليوم الخامس كان الكهنة المعوذون ينظفون المعبد. وكـان أحد الطباخين يذبح شاة يقوم أحد الكهنة بمسح جدران المعبد بدمها. وبهذه العملية تنقل الذنوب إلى الشاة التي ترمى في النهر ككبش الذنوب (إن هذا هو مـا تحوّل في الغرب إلى ذبح رجل أو امرأة وتلطيخ التمثال بدمها!) وكان الطبـاخ والكاهن المعوذ يطهران أنفسهما دينياً عند القيام بهذه المراسم، وعليهم، بعد ذلك، ترك المعبد والذهـاب إلى السهـول إلى أن تنتهي الاحتفـالات. وكـان المصلّى المعدّ لـ «نبو» (النبي) في معبد «إيزانجيلا» (حيـزا أنجيلا= نبي الـوحي) قد تزوّق بسمـاء ذهبية، ثم ينتظر قدوم الرب من معبده في «بورسيبا» (فورسبا= ثمرة الرحم، الإله الابن).

«كان الملك يلعب في الاحتفالات الدينية اللاحقة دوراً مهماً حيث يدور في أرجاء المعبد، ويلقي كـافة شـارات حكمه أمام الإله. ثم يقدم تقريراً عن أعماله في السنـة المنصرمـة، ويعترف بذنـوبه، وعليـه أن يعلن بـراءته من وقوع بعض الأحداث التعسة والمصائب، وبعد ذلك يتلقى الملك صفعة على وجهه من رئيس الكهنة مع شد الأذنين، منبهاً إياه إلى ضرورة تأدية الواجبات الدينية على أكمل وجه. وبعد ذلك يسمح له بحمل شاراته الملكية. وفي المسـاء كان الملك ورئيس الكهنة يضحيان معاً بثور أبيض.

وفي اليوم السادس يتم استقبال «نبو» القادم من «فورسبا» في شارع الموكب.

وكـانت الدمى المـزوقة المعدّة لـلاستقبـال تحـرق بعد اجـراء المـراسـم الدينية عليهـا. وأمـا الأيـام الـلاحقـة الأخرى من أعيـاد رأس السنـة فغير واضحـة، للأسف، وذلك بسبب تلف بعض النصـوص في الرقم الطينية. على أن من أهم الأحداث التي تجري في أعياد رأس السنة هو تقرير مصير العام الجديد، حيث تجـري المـراسـم امـام تمثال مردوخ، وبوجود الكاتب «نبو» (المتنبىء) وبقية الكهنة، وفي غرفة خاصة..

أما العيد الحقيقي للشعب فإنه يبدأ في اليوم العاشـر (أي العاشر بدءاً من 25 آذار، وهو اليوم الرابع من نيسـان، الذي مـايزال الشعب السوري في السـاحل خاصة يحتفل به أعظم احتفـال بالرقص والدبكة على أنغام الطبول والمزامير، وما زال يدعى حتى اليوم باسمه القديم «عيد الرابع» أي الرابع من نيسـان على الحساب الشرقي القديم ذاته.

«كانت المواكب المحملة بتماثيل الآلهة تعود إلى بابل عبر الطرق البرية، ولهذا الغرض أمر نبوخذ نصر ببناء شارع الموكب العظيم الذي يمتد بين دار العيد إلى بـاب عشتـار.. وكـانت عربـات المـواكب الكبيـرة المـزوقـة تحمل التمـاثيل وتسير عبر الشـارع ذي الـ 300 متر طولاً، والذي زخرف جانباه على أرضية زرقـاء بأسود ضخمة وحيوانات مقدسة لعشتـار. وكـان عرض الشـارع 16 متراً، رصف بأحجار معرّقة بالأبيض والأحمر من الجانبين، وكانت العربات تسير بهدوء، تتبعها مجموعة كبيرة من البشر بـالموسيقى والرقص، وتعلو الهتافات والتهـاليل في كل مكـان.. وكـان المـوكب يتـوجـه من بـوابـة عشتـار على طول الأسـوار العـالية للقصر حتى منطقة معبد مردوك.

«ومن الأحداث الهامة التي تجري خلال أعياد رأس السنة «الزواج المقدس» بين مـردوك وزوجتـه «سـارابنيثوم» = ربة الكعبة) وكـان ذلك يمثل من قبل الملك ورئيسة الكهنة حتى يتم ضمان الخصوبة والثروة في البلاد في السنة الجديدة. وترجع أصول هذا التقليد إلى ما قبل العهد السومري ايضاً.

وفي أعيـاد رأس السنـة ينبغي أن تزول الفوارق الاجتماعية، وكـان المـالكون يخدمـون عبيدهم. ويجلس في مكان الملك رجل آخر عليه أن يكفر عن ذنوب الملك وأخطائه خلال العـام المنصرم من حكمه. ومـع عودة الأرباب إلى معـابدهم

وسفر «نبو» إلى «فورسبا» كان العيد العظيم يصل إلى نهايته»[1].

إن هذه النصوص المكتشفة التي تصف لنا طقوس الاحتفالات السورية القديمة تظهر حقيقة الحاكم العربي منذ الزمن القديم، وإصرار التقاليد العربية، حتى في الأعياد، على التأكد من قيامه بواجباته، وإشاعة العدل بين مواطنيه، وذلك بخلاف مادأب ويدأب الغرب المتعصب على إشاعته وترسيخه من أن هذا الحاكم كان مقروناً دائماً بالتعسف والاستبداد والظلم والوحشية منذ القدم وحتى اليوم.

عيد رأس السنة وطقوس الزواج المقدس:

لقد مر الإنسان عبر مسيرته الطويلة بمراحل كثيرة، كانت كل منها تفرض عليه أشياء وتحظر عليه أشياء أخرى، ولم تنفلت يوماً ما حريته من عقال ضرورات حياته، ولهذا فمن الظلم الكبير أن ننظر اليوم إلى طقوس الخصب العشتارية قبل آلاف كثيرة من السنين بمعايير عصرنا القيمية والأخلاقية اليوم. إن المراحل الأولى التي مرّ بها الإنسان كانت تحتم عليه فكرة التكاثر، مما جعله يضعها في مركز عقائده وأخلاقياته، أما اليوم فإن الأمر على العكس من ذلك تماماً. إن بإمكاننا أن نتصور ظاهرة التناسل الفوضوي مع بدء عقيدة الخصب. ثم لما جاءت عقيدة الخصب الزراعية نرى كيف انبثقت من أرضية الواقع المعاش ضرورة تنظيم الأسرة المستقرة ضمن إطار علاقات جديدة تضمن التكاثر من ناحية وتبقي على قداسته، كما تضمن تعاون الأفراد من أجل توفير القوت وتخزينه عن طريق العمل في الأرض، من جهة أخرى. أما على صعيد علاقة المرأة بالرجل فقد خطت العقيدة، بالنسبة لما كان قبلها، خطوات كبيرة على طريق تنظيم تقاليد الأسرة وترسيخها، فغضّت النظر عن أشياء لكنها لم تفلتها من رقابتها، وقررت أشياء جديدة أخرى كانت هي الأساس للعلاقات الاجتماعية بين البشر في الأزمان اللاحقة.

إن من بين أهم أيام أعياد الربيع السورية القديمة كان يوم عشتار.

ففي هذا اليوم كان على كل امرأة زوجها عاقر أن تجلس في هيكل عشتار مرة

---

(1) إيفلين كلنيكل ــ براندت، المرجع السابق، ص155 – 158 .

في حياتها، وأن تضاجع رجلاً غريباً. لا فرق في ذلك بين الفقيرة والأميرة. وكانت الكثرة الغالبة منهن يتبعن الطريقة التالية: تجلس الكثيرات منهن في هيكل عشتار وعلى رؤوسهن تيجان من أغصان الشجر والزهر الذي ينمو في جبال عشتار المقدسة (السراة). وتزدحم الممرات في الهيكل بالغاديات والرائحات في خطوط مستقيمة وفي كل الاتجاهات. ثم يمر بهن الغرباء ليختاروا من يرغبون. فإذا جلست امرأة تلك الجلسة كان عليها ألا تعود إلى منزلها حتى يلقي أحد الغرباء قطعة نقدية من الفضة مهما كانت زهيدة في حجرها، ثم يضاجعها خارج المعبد. وعلى من يلقي القطعة الفضية أن يقول: اضرع إلى الربة «ميليثا» أن تعينك.

و«ميليثا» ـ كما سبق أن بيّنا سابقاً ـ تعني المعينة، وهي أحد أسماء عشتار في يوم عيدها وعند وضع الحوامل لأولادهن. وباسمها دعيت المدينة السورية الحضارية الشهيرة في كيليكيا التي ألقت في حضن أثينا كل حضارتها ومثقفيها، إبان الغزو الفارسي، كما دعيت باسمها بلدة «ميليثا» في جنوب لبنان والقائمة حتى اليوم. ولم يكن من حق المرأة أن ترفض، فهذا الرفض يحرمه القانون لما لظاهرة العقم في نظرهم من شر، وما للإنجاب والخصب من قداسة، وإذا ما ضاجعته وتحللت مما عليها من واجب إزاء عشتار عادت إلى منزلها. ومهما بذل لها بعدئذ من المال فإنها تبقى منيعة مدى الحياة.

ويقول ول ديورانت نقلاً عن هيرودوت: «فمن كانت من النساء ذات جمال وتناسب في الأعضاء لا تلبث أن تعود إلى دارها. أما الشوهاوات فيبقين في الهيكل زمناً طويلاً، وذلك لعجزهن عن الوفاء بما يفرضه عليهن القانون، ومنهن من ينتظرن ثلاث سنين أو أربعاً»[1].

ويضيف ول ديورانت: «وكان يسمح للبابليين في العادة بقسط كبير من العلاقات الجنسية قبل الزواج. ولم يكن يُضن على الرجال والنساء أن يتصلوا اتصالاً غير مرخص به بـ «زيجات تجريبية» تنتهي متى شاء أحد الطرفين أن ينهيها.. ورغم هذه الأساليب الغريبة فلم يكن الزواج يقل إخلاصاً واقتصاراً

---

(1) ول ديورانت، المرجع السابق، الشرق الأدنى، ص230 .

على واحدة عنه في العالم المسيحي في هذه الأيام. وكانت الحرية المباحة للأفراد قبل الزواج يتبعها إرغام شديد على التمسك بالوفاء الزوجي بعده»[1].

أما إن كانت هي العاقر فقد حتمت عليها التقاليد أن تهب زوجها جارية تنجب له ذرية تحمل اسمه وترثه، وقد استمرت هذه العادة حتى في زمن إبراهيم الخليل الذي ما أن تأكدت زوجته سارة من عقمها حتى وهبته الجارية هاجر، وهي من عشيرة مصريم (المصريين) في غامد من السراة في شبه جزيرة العرب، وولدت له اسماعيل.

أما في عيد رأس السنة ذي الطقوس والمراسم الدينية الطويلة والمعقدة فكان من بين أهمها جميعاً طقس «الزواج المقدس» الذي يمثل بعث إله الخصب وقيامته، ثم لقاءه بعشتار في اتصال جنسي من أجل أن يعم الخصب كل ما في الطبيعة وكل الكائنات الحية.

يقوم بتمثيل هذا الطقس كبير الكهنة أو الملك نيابة عن رب الخصب، كما تمثله إحدى كاهنات عشتار أو إحدى النساء الجميلات ممّن وهبت نفسها لمعبد عشتار.

أما الطقوس المتبعة فكانت تجري على النحو التالي: بعد أن تجرى مراسم الافتتاح الطقسي بتلاوة ملحمة الخلق، يجري تمثيل موت الرب مع النواح والندب، ثم يجري التبشير بقيامته، وتبدأ مراسم الفرح.

تغتسل المرأة وتتطهر في المياه المقدسة وكذلك الكاهن أو الملك، كما كان يستحم أو يتعمد دوموزي في مياه التطهير الـ «أردن» (وكنا قد شرحنا معنى الكلمة، وقلنا انها جمع «رديو»، و«أردو» ومن معانيها التطهير، التعميد). فقد جاء في أحد النصوص السومرية الخاصة بهذه المناسبة مايلي:

«زوجها اقتيد إلى الأسر، ابنها اقتيد إلى الأسر...

الذي لم يعد يستحم في «أردو»[2].

ويعلّق صموئيل كريمر على هذا النص بقوله «قد يكون هذا طقس معمودية أدّاه

---

(1) المرجع نفسه، ص221 – 222 .

(2) صموئيل كريمر، طقوس الجنس المقدس عند السومريين، دار الفربال، دمشق 1986 ، الطبعة الأولى، ترجمة نهاد خياطة، ص184 .

دومـوزي (وملوك جـاؤوا بعده) في «أرِدو» حيث مقر إلـه المـاء «أنجي» والد دوموزي»[1].

وكنا قد بينا ان هذا المكان هو في المغارة المقدسة، في المركز، مقرّ الأرباب، وبالتالي فإن المياه التي تخرج من هناك لتسقي جنة عدن هي مياه مقدسة، وهناك قام يوحنا المعمدان بتعميد عيسى المسيح قرب أورشليم المغارة التي يخرج النهر الكبير، نهر الفرات، من على يمين مذبحها الأيمن. ولا يمكن أن «يتعمد» دوموزي والسومريون في مياه نهر الأردن في فلسطين الذي دعي بهذا الاسم تيمناً بمياه الأرض المقدسة في المركز. ثم نقله السوريون معهم إلى ايطاليا، فدعوا اسم المياه التي تتفجر من مغارة جبل «إيدا» مياه الـ «أردن»[2].

ثم تأخذ الكاهنة زينتها كما تتزين عشتار للقاء حبيبها. ويأتون بشجرة الصنوبر، التي هي أحد رموز عشتار، ويزينونها كما تتزين عشتار بكل رموز الخصب من ثمار ودمى تمثل مختلف الحيوانات التي يُرجى إخصابها، تهيؤاً للقاء حبيبها القائم من الموت.

اما كيف تتزين عشتار (المرأة) وتعدّ نفسها للقاء الحبيب القمر أو «الثور» القائم من الموت فتصفه لنا إحدى الاغنيات التي كانت تغنّى محاورة بين النساء والرجال في هذه المناسبة، تقول الأغنية الترتيلية:

«عندما أكون من اجل الثور البري، من أجل الرب، قد استحممت،
عندما أكون من أجل الراعي دموزي، قد استحممت،
عندما أكون بـ... عطفيّ قد زينت
عندما أكون بالعنبر ثغري قد طليت،
عندما أكون بالكحل عيني قد [ ] كحلّت،
عندما يكون براحتيه الواسعتين قد احتوى خاصرتيّ»[3].

يقول كريمر: «ويخبرنا الشاعر أن تأدية الطقس كانت تجري في ليلة رأس السنة الجديدة في بلاط الملك.. وهذا ما كان يحدث نرويه خطوة خطوة: أولاً،

---

(1) المرجع نفسه، ص228 .

(2) فرجيل، الأنيادة، ص91 .

(3) صموئيل كريمر، طقوس الجنس المقدس، ص95 .

يقام سرير من الأسل والأرز، يمدّ عليه غطاء أو فراش، أعد خصيصاً لهذه المناسبة، ثم تستحم أنانا بالماء والصابون، ثم تتمدد على الفراش، وعندئذ يسعى الملك إلى «الحضن المقدس» و«رأسه مرفوع» على أرض رشّت بزيت الأرز العطر. ثم يضطجع مع الملكة»[1].

وفي هذه الأثناء تكون الأفراح عامة، فتغنّى كثير من الأشعار التي تصف نداءات الجسد ممثلة بنداءات الربة لحبيبها «الثور» القوي القائم من الموت، والتي تنضح بعبارات جنسية مكشوفة من شأنها عند ترديدها بين المحتفلين رجالاً ونساء أن تستثير فيهم الشهوة الجامحة إلى الجماع. فبقدر ما يكون الجماع عاماً وعنيفاً في هذا اليوم بقدر ما تشحن الأرض بطاقة الخصب وتخرج محاصيل وفيرة:

«التيس، بعد أن نط على ظهر [العنزة]

ركبها، واقعها

الراعي يقول لعشيرته:

أختاه، انظري! ماذا يفعل التيس بـ [العنزة]؟

تجيبه أخته (عشيرته):

بعد أن نطّ على ظهر[ها] ندّت عنها صيحة نشوة

فإذا ندّت عنها صيحة نشوة، يكون قد نط على ظهر [العنزة]

تعال الآن. إن هذا لأنه... ملأها بمنيه»[2].

ثم:

«أمّا من أجلي، من أجل فرجي،

من أجلي، الرابية المكومة عالياً،

لي، أنا العذراء، فمن يحرثه لي؟

فرجي، الأرض المروية، من أجلي،

لي، أنا الملكة، من يضع «الثور» هناك؟

---

(1) المرجع نفسه، ص116 .

(2) المرجع نفسه، ص152 .

فيأتيها الجواب:

«أيتها السيدة الجليلة، الملك سوف يحرثه لك، دموزي الملك، سوف يحرثه لك.

فتجيب جنلي:

احرث فرجي، يارجل قلبي»[1].

وفي مكان آخر نقرأ:

«أيها العريس الغالي على قلبي،

عظيمة هي مسرتك، حلوة كالعسل،

أيها الليث الغالي على قلبي، عظيمة هي مسرتك، حلوة كالعسل.

لقد أسرتني. أقف مرتجفة أمامك.

أيها العريس، لو تحملني إلى الخدر...»[2]

ومنذ ذلك الزمن الموغل في القدم دعي ذلك الشهر (شهر اللقاء الجنسي في بدء الربيع) بشهر العسل.

«أختاه، لماذا أغلقت على نفسك في البيت؟

ياصغيرتي، لماذا أغلقت على نفسك في البيت؟

اغتسلتُ، تصوبنت،

اغتسلت في الحوض المقدس،

تصوبنت في الحوض الأبيض،

ارتديت طيالس المُلك، ملك السماء،

ولذلك أغلقت على نفسي في البيت.

كحلت عيني بالكحل،

وثبتَ تسريحة شعري الـ ..

وحللت ضفائري،

واختبرت السلاح الذي يجعل أمره أكيداً،

وسوّيت شفتي الملتويتين

---

(1) المرجع نفسه، ص91 – 92 .

(2) المرجع نفسه، ص135.

وجمعت الجدائل المرتخية،
فلتتدلّ على حافة قذالي...»[1].

«حبيبي، يارجل قلبي،
يمناك وضعتها على فرجي،
يسراك مسّدتْ رأسي،
لقد لامس ثغرك ثغري
وضغطت شفتي على رأسك
لذلك كتب عليك شر المصير»[2].

وواضحة هنا الإشارة إلى أن الجنس والتكاثر هو عنوان الطريق إلى الحياة الفانية، إلى الموت والحياة. وهذا هو المقصود بـ«شر المصير».



تصوير تجريدي للجنس الذي يمثل اللذة والألم، الحياة والموت، على ختم اسطواني من اور الألف الرابع قبل الميلاد.

إن من اليسير أن نلاحظ كيف ارتبطت في عقيدة الخصب الأرض بالمرأة. فالأرض هي الرحم الذي يحتضن البزور ثم يطلعها محصولاً جديداً. وكما أن الأرض بحاجة إلى حراثة لدفن البزور، فإن الاتصال الجنسي هو عملية «حراثة»

---

(2) (1) المرجع نفسه ص155،143 .

من اجل ان يضع الذكر «زرعه» في رحم الأنثى. وكلمة «زرع» في العربية القديمة والحديثة تستخدم لكل ما هو مزروع سواء استنبت بالبذر للأرض، أم بمني الرجل للمرأة.

وكانت الأعياد تبلغ ذروتها في الرابع من نيسان إذ تتحول إلى دبكة وأفراح. إن حلقة الدبكة السورية هي أول حلقة رقص في تاريخ البشر. إذ أن منشأها ديني عقائدي منذ أن وجد أول إنسان، ووضع له الرب الخالق بيتاً مركزياً في الأرض الجنة تمثيلاً لعرش الرب في السماء السابعة. فأمره الأرباب بأن يحفّ به ويطوف كما رأى الملائكة تحفّ بعرش الرب. وهكذا بدأت العبادة طوافاً ودوراناً، وكان هذا الطواف مصحوباً بالأناشيد الدينية والايقاعات المهيبة.

إن الدوران حول المركز عقيدة سورية دينية قديمة، ظهرت جلية مع عقيدة الخصب العشتارية منذ العصور النيوليتية في شكل الصليب المعكوف الذي مثلت أذرعه راقصات تطايرت شعورهن إلى الوراء، واستمر هذا الرقص الدوراني مع داود، وتؤكد أعمال الرسل التي حذفتها الكنيسة في حوالي القرن العاشر للميلاد أن «السيد المسيح أدّى رقصة دورانية مع أصحابه قبل أن يقاد إلى الصليب (أعمال يوحنا 94)[1]» كما استمر في الفرق الصوفية الاسلامية حتى اليوم.

وما تزال حلقة الدبكة الدورانية في سوريا هي التعبير الأساسي عن الفرح في الأعياد الدينية وغيرها. ويختار إلى هذا اليوم موقع للتجمعات له طابع مقدس، كأن يتم الاحتفال عند مقامات الأولياء أو القديسين الذين يمثلون بطريقة ما ذلك المركز وكانت حلقة الدبكة تسمّى «كركو».

ومن كلمة «كركو» العربية القديمة التي تعني الحلقة، دائرة الرقص أو الدبكة، جاءت كلمة Cirk اللاتينية (إذ تحول الصوت الحلقي قبل y,e,i إلى tc) وانتقلت منها إلى اللغات الأوروبية.

اما قائد حلقة الدبكة فقد كان يسميه السوريون الـ «احزيو كركو» أي «قدوة» أو رئيس الحلقة، وهو ما يسمى اليوم في سوريا «راعي الأول»، وإن كلمة «دبكة»

---

(1) Max Pulver, Jesus Round Dance, P. 178,181

هي عربية قديمة، وهي في القاموس السرياني من الفعل «دبكْ» ويعني: لحق، أدرك، وصل. فالدبكة هي لحاق الواحد من الراقصين بالآخر في الحلقة المتحركة دوراناً. إذ أن «راعي الأول» يرقص متقدماً في خط دائري، ويلحقه الذي يليه، ثم الذي يليه، وهكذا. وكانت توقد النار في وسط الحلقة تمثيلاً لـ «جذوة» الحب التي ينبغي ألا تنطفىء.

وقد تحولّت التسمية في الغرب إلى «exarco».

يقول عبد اللطيف احمد علي: «وجرت العادة أن يتقدم شاب ليقود الجوقة في الرقص او الغناء، وكان يعرف باسم exarco، ومعناها الحرفي (البادىء)»[1].

والحقيقة إن الكلمة هي «أحزيو كركو» إذ ان «أحزيو» في القاموس السرياني تعني من جملة ما تعنيه «القدوة»، وهو أول الراقصين في الحلقة إلى اليوم، لا يبدأ أحد الدبكة قبله، يبدأون إذا بدأ، ويتوقفون إذا وقف، ويرقصون نوع الدبكة التي يبدأها هو، ويغيرون حينما يغيرّ هو بما ينسجم مع تلوّن انغام الناي أو المزمار (المزوج) وإيقاعات الطبل. إنه بكلمة «القدوة» فعلاً. وكثيراً ما كان الشاعر (الزجّال) هو الذي يقود حلقة الدبكة: «ومع أقدم حلقات الانشاد العاطفية لجماعات الكوروس وفق نظام الاحتفالات الديونيسية ـ وهي الديثرامب ـ كان الشاعر نفسه هو قائد الكورس «اجزارخوس»[2] ونلاحظ كيف تحولت «الحاء» إلى g في اللفظ، وأحياناً إلى K .

وقد كانت البداية الطبيعية لمكان المشاهدين هو منحدر التل أو مجموعة التلال التي تحيط بالساحة (المرسح). هناك كان يجلس المشاهدون ليشاهدوا عرض المسرحيات في بداية الفترة التي شهدت هذه العروض. وبالتدريج بدأت الأمور تتطور بعض الشيء، فأصبحت هناك مقاعد خشبية جماعية تقام على المنحدرات المحيطة بمسرح المذبح (الأوركسترا). التي نجدها في الوقت الحالي في الملاعب الرياضية. وهي مدرجات لا يزال عدد كبير منها باقياً إلى اليوم. وهذه المدرجات كانت تحيط بالقسم الأكبر من الساحة الدائرية (مرسح المذبح)

---

(1) عبد اللطيف أحمد علي، محاضرات في العصر الهلنستي، جامعة بيروت 1971 ، ص 166.

(2) «الإغريق بين الأسطورة والإبداع» ص267 .

بحيث تقترب منها لا يفصلها عنها إلا فتحتان يدخل منها أفراد المرسح، وكانت تخترقها من اسفل إلى أعلى عدة ممرات على مسافات متساوية يستخدمها المشاهدون في الوصول إلى أماكنهم أو عند مغادرة المكان بعد انتهاء العرض.



الحلقة الثانية عشرة

عشتار وأدونيس ونشوء المسرح



ليس ثمة من يماري، قديماً وحديثاً، في الأصل العربي السوري لعشتار وأدونيس. فبالرغم من الزخرفات الكثيرة التي أضيفت فيما بعد لأسطورتهما في بلاد اليونان ثم في ايطاليا، فقد بقي أصلهما العربي طاغياً حتى في الشكل الذي اتخذته الأسطورة أيام الدولة الرومانية.

ففي الصياغة التي كتبها «أوفيد» للأسطورة نجد كيف أن أم ادونيس حينما هربت من أبيها «خلفت وراءها نخيل بلاد العرب» كما نجد في المنطقة التي كانت تعيش فيها «شجر القرفة والمر والبخور»، و«ظلت تركض هاربة حتى وصلت بلاد سبأ»، «وهناك تحولت إلى شجرة المر «مُرتا»»[1].

إن أبطال القصة وأحداثها حتى في الوعي الروماني، عرب وفي بيئة عربية هي شبه جزيرة العرب، وليست التسميات الأخرى في سوريا المتوسطية إلا استنساخاً تيمنياً، كما هي الحال في التقليد العربي، سار به العرب السوريون إلى شتى مناطق انتشارهم في العالم القديم.

وإذا كانت كتابة التاريخ لدى بعض المؤرخين في نزعاتهم التعصبية قد جعلت من المستوطنات السورية في بلاد المورة عالماً حضارياً مستقلاً بذاته، ولد بـ «معجزة» في القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد، ثم انطفأ فجأة، وإذا كان العرب في العصر الحديث يقتصر دورهم في النقل لما يزوره مؤرخو العصر الاستعماري، ولمّا كان القائمون على مؤسسات الثقافة والاعلام والآثار في الوطن العربي ليسوا، في أفضل حالاتهم، إلا أدوات، أو امتداداً لأساتذة التزوير وخصوم التاريخ العربي، يرددون كالببغاوات ما يرسم لهم في الخارج، ولما كان الفن المسرحي أحد إنجازات شعبنا العربي السوري، وبعض إبداعاته الرائعة التي تؤلف بمجموعها كنز البشرية الحضاري الذي نهلت منه البشرية جمعاء، وكان الأساس في تطورها اللاحق، لهذا كله، ولأشياء أخرى كثيرة، فإننا سوف نتوقف قليلاً عند هذا الانجاز الحضاري المركزي، الذي هو المسرح.

وقبل أن نبدأ في شرح كيفية نشوء الفن المسرحي وما ارتبط به من الفنون

---

(1) أوفيد، مسخ الكائنات، ص290 – 295 .

الأخرى من قلب عقيدة الخصب السورية بأقنوميها عشتار وأدونيس لابدّ من التنبيه إلى ضرورة التمييز بين أدونيس الرب الابن والحبيب وروح الاخصاب في الديانة العشتارية، وبين «ديوني» الرجل الكاهن، أحد احفاد قدموس السوري في بلاد اليونان، والذي تحوّل هناك إلى إله فيما بعد، ودعي أيضاً «باحوس» أو «باحوش»، ثم جرى هناك الخلط بينه وبين رب الخصب السوري «أدونيس» حبيب عشتار. وقد اعتاد على الخلط بين الاثنين جميع المؤرخين.

وقصة ديونيس هي أن هذا الكاهن الشاب الذي لقبه «فرصيو» (في القاموس السرياني تعـ ي الشبق، الشهواني، المغتلم) زعم أنه ابن الرب، ويقص لنا «أوفيد» كيف أنه حاول أن يقنع سكان «أرقو» بألوهيته، فطردوه، فجاء إلى «طيبة» مدينة قدموس التي اختلط فيها السوريون (جماعة قدموس) بـ «أبناء التنين أو الثعبان» وهم السكان الأصليون للمنطقة الذين كانوا يسكنون الكهوف ويأكلون لحوم البشر، وهم الذين فتكوا بكثيرين من جماعة قدموس إلى أن هزمهم أخيراً بمعونة خمس عشائر من السوريين الآخيين الذين كانوا قد سبقوه إلى الاستيطان في الأرض هناك. فتمكن «باحوس» الذي هو «فرصيو» والذي دعي فيما بعد «أدونيس» أو «ديونيسيوس» من أن يجرّ خلفه كثيراً من سكان طيبة من النساء والشباب. فخطب «فنيتو»[*] (الصادّ، المانع) وهو أحد الطيبيين من أصل سوري خطاباً نقل أوفيد بعضاً منه على النحو التالي:

«ياسلالة التنين (أي الثعبان، ويقصد هنا المتحدرين من سكان الكهوف الأصليين في الأرض)، ياأبناء مارس (من مرسَ= طحن العظام، سحقها، والخطاب إلى هؤلاء انفسهم، وليس المقصود به المريخ كما يزعم المفسرون في الغرب). ما هذا الخبل الذي ذهب بعقولكم؟ أو يمكن أن يكون لقرع النحاس بالنحاس ولعزف المزمار المقوس تقوس القرن، ولحيل السحرة مثل هذا الأثر؟ أو يمكن أن يطغى ضجيج النسوة ونشوة السكر وجلبة أخدان العربدة والمجون وقرع الدفوف الجوفاء على الرجال الذين لا يهابون صهيل السيوف في

(*) هو حفيد قدموس وابن اجاثية أخت سيميلا، أي ابن خالة «ديونيس» الذي ادعى الألوهية في اليونان. والاسم في القاموس السرياني من الفعل فني = صدّ، منع، هدى.

انظر: ثروت عكاشة، الإغريق بين الأسطورة والابداع، ص293 .

المعارك ونداء النفير الذي يدعو إلى القتال أو الكتائب التي تشرع في صفوفها الحراب؟..

عن أي منكم يحق لي أن أدهش؟ أأنتم أيها الشيوخ الذين عبرتم المسافات الطويلة من البحار، وجئتم هنا لتشيدوا مدينة «صور» الجديدة، ولتقيموا بها معابد آلهتكم، ثم تتركون غيركم يظفر بها دون قتال! أم أنتم، أيها الشباب، يامن تمتلئون حيوية، وتقتربون مني سناً! إنه لأجدر برؤوسكم أن تحمل خوذات بدلاً من أكاليل الزهور، وبأيديكم أن تحمل السيوف بدلاً من «ترصوس[*]»، باكخوس. إني أضرع إليكم أن تتذكروا آباءكم.. لقد ذبح «التنين» رجالاً شجعاناً، فاطردوا هذا العدو الجبان لتكونوا أمناء على مجد آبائكم. ولو كان مقدراً لطيبة ان تسقط سلمياً لتمنيت ان يهدم أسوارها أعداء شجعان بقذفات المجانيق ومقارعة السيوف وأزيز اللهب. فسنسلم ساعتها من اللوم مهما كان حظنا شقياً، ولن نكون بحاجة إلى إخفاء دموعنا التي لن تغسل عنا العار، اليوم يستولي على طيبة صبي خامل غير مفتون بالحرب وفرسانها وأسلحتها، ولا تستهويه غير جدائل الشعر التي يفوح منها عطر المُرّ، وأكاليل الزهور، والثياب الصارخة الألوان المطرزة بالذهب. دعوه لي، ولسوف أرغمه على الاعتراف بانه هو نفسه الذي اختلق الخرافة القائلة بأنه إله مقدس. فإن طقوسه الدينية تدعو إلى السخرية. فإذا كان أقريسيوس[**] قد وجد الشجاعة الكافية لكي ينكر عليه ألوهيته ويغلق في وجهه أبواب مدينة أرقوس، فهل يعقل

(*) كلمة «ترصو» هي عربية قديمة، وتعني في القاموس السرياني: العدل، الاستقامة، وهو الصولجان الذي كان يحمله الأرباب السوريون رمزاً للعدل والاستقامة والخصب والنماء. ثم صار في اليونان بعد ديونيس (باخوس) رمزاً لقضيب الرجل. وكان يمثله، في الغالب، قضيب من الخيزران الأخضر، ما يزال يحمل كتلته الزهرية، وذلك لما يمثله قضيب الخيزران من المرونة والاستقامة والصلابة وسرعة النمو طولاً، فيلتقي بهذا كله مع قضيب الذكر. ومن الواضح ان بلاد اليونان وإيطاليا ليست موطناً لنبات الخيزران. بل كان ينمو على ضفاف الأنهار في شبه جزيرة العرب.

(**) «أقريسيو» اسم ملك «أرقو» التي تحدثنا عنها وقلنا إنها تعني السلحفاة وأول من استوطنها السوريون. وإن «أقريسيو» تعني: المقاوم، المقاتل، المشاكس، وهي من الفعل «اقرس» في القاموس السرياني ويعني: قاوم، شاكس، آذى، ضرّ، اعتدى. ومنها جاءت الكلمة في اللغة الأوروبية الحديثة agress = اعتدى، عدوان..

أحد أن يصيب هذا الغريب فنطيوس وسكان طيبة معه بالذعر؟»[1].
هذا هو «أدونيس» الآخر، الذي لم يعد يميز الناس فيما بعد في اليونان وإيطاليا بينه وبين الرب أدونيس، الإله الابن والحبيب في عقيدة الخصب السورية.
لكن «أدونيس» الثاني هو ابن «سميلا» بنت قدموس لم يكن كاهناً فحسب، وإنما هو الذي نقل وعلمّ السكان الأصليين في بلاد المورة زراعة الكرمة، وعصر العنب، وشرب النبيذ من وطنه الأم سوريا حيث كانت مرتبطة بأدونيس، فارتبط اسمه بالكرمة والخمر في بلاد اليونان، وصار هناك رباً للخمر، ثم انطلق منها ـ ككل المعلمين السوريين الآخرين ابناء الآلهة، إلى الألوهية المطلقة متماهياً مع أدوينس الخصب. وصار اتباعه يغالون في أعياده في شرب الخمور والنبيذ الذي هو دم الإله، ثم يتحول العيد إلى حفلات وعربدات صاخبة وماجنة.
بعد هذا التوضيح الذي لابد منه لنعد الآن إلى موضوعنا: «عشتار وأدونيس ونشوء المسرح».
ومن أجل مناقشة هذا الموضوع لابدّ من ان نتناوله تاريخياً، وسكانياً، لغوياً، ومنطقياً، كما عودنا القارىء عند مناقشتنا لكل الأحداث التاريخية ذات الشأن.
فمن الناحيتين التاريخية والسكانية يجمع المؤرخون في الشرق والغرب على أن نشوء المسرح في أرض اليونان بدأ مباشرة بعد الاجتياح الفارسي للمدن السورية الشمالية الممتدة من بابل شرقاً إلى ميليتا غرباً، اي في القرن السادس قبل الميلاد، حينما اندفعت الفئات المثقفة السورية ومعها رجال الأعمال والموسرون إلى المستوطنات السورية في بلاد اليونان. وأن المسرح نشأ من قلب ديانة الخصب السورية المرتبطة بعشتار وادونيس.
ويستوي الأمر لدينا سواء أخذنا الشواهد ممّا يكتبه المؤرخون في الغرب أو ممّا «يكتبه» الأساتذة العرب، لأن هؤلاء الأخيرين ينقلون ويترجمون عن أولئك، فالأمر في الحالين سواء.
إن فن التمثيل (أو التجسيد، أو التشخيص) نشأ أساساً من الأعياد الدينية

---

(1) أوفيد، مسخ الكائنات، ص132 .

السورية، منذ أن جعلت عشتار بكاء حبيبها الغائب او القتيل فرضاً على رعاياها، وجعلت تمثيل موته سنّة ملزمة لرعاياها إلى الأبد، لتذكّر بمدى حزنها عليه، ولن يعادل ذلك شيء في شدته إلا الفرحة بيوم بعثه وقيامته.

يقول الدكتور عبد اللطيف أحمد علي «ويكاد يكون من المتفق عليه أن نشأة المسرحية تتصل بديانة هذا الإله (أدونيس)، وهي ديانة كانت لها طقوس معينة تنشد فيها قصة الإله وتؤدى بحركات أو إيماءات معينة.. ولقد انفردت ديانة أدونيس ببعض خصائص جعلتها، دون غيرها من الديانات حقلاً خصباً لنمو الدراما.

فقد دخلت عبادة هذا الإله بلاد اليونان بعد غيرها من العبادات الهامة، أي بعد عبادة زيوس وحيرا وأثينا.. ولم تأخذ طقوسها شكلاً محدداً وتستقر إلا بعد القرن السادس قبل الميلاد»[1].

ويقول ول ديورانت: «وأهم من هذا كله ما كان يحدث في البلوبونيز وأتيكا من حزن ومرح لموت أدونيس وبعثه. وكان يطلق على هذه المحاكاة اسم «درومينا» Dromena أي أشياء تعمل، ولفظ «دراما» ذو صلة بهذا الاسم.. ويرى من هذا أن المسرحية الأثينية، مأساة كانت أم ملهاة، كانت تمثل على أنها جزء من حفلات أدونيس بإشراف الكهنة في دار للتمثيل تسمّى باسمه، وعلى يد ممثلين يسمون بـ «الفنانين الأدونيسيين». وكان يؤتى بتمثال أدونيس إلى مكان التمثيل، ويوضع أمام المسرح لكي يستمتع بمشاهدة التمثيل. وقبل البدء به كان يضحّى بحيوان للإله. وكان لدار التمثيل ما للمعبد من قداسة.. ثم أذن للشعراء على توالي الأيام أن يستبدلوا بعذاب الإله عذاب بطل من أبطال الأساطير اليونانية»[2].

إنه يؤكد هنا على ارتباط نشوء فن المسرح بديانة أدونيس. ولو أنه يخلط في تفسيره لمعنى كلمة «دراما» التي سنعود إليها في حينها، ويغفل عن حقيقة أن التمثيل كان يقوم في البداية في المعبد نفسه قرب المذبح وليس في دار للتمثيل،

---

(1) عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص161 – 162 .

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، حياة اليونان، ص422 – 423 .

وهذا ما سوف نبيّنه لاحقاً أيضاً.

ويقول أندريه إيمار وجانين أوبوايه في مؤلفهما الضخم «تاريخ الحضارات العام»: «ولدت المهزلة (الملهاة)، شأن المأساة، من ظرف أعياد أدونيس نفسها.. لقد أحيطت أعياد أدونيس، التي تميزت بالتمثيل المسرحي، ببهاء خاص لا يمكن تعليله.. ثم هبطت المأساة (في القرن الرابع) هبوطاً لن ترتفع بعده»[1].

ويقول الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى: «تكمن الأصول الأولى للمسرح اليوناني في الاحتفالات الدينية التي كانت تقام في المناطق المختلفة في بلاد اليونان، والتي كانت تدور حول عقيدة الإله أدونيس..ولم تكن هذه الاحتفالات، في الحقيقة، بدعة اقتصرت على بلاد اليونان، وإنما عرفتها مجتمعات أخرى منها مصر وسوريا.. ففي سوريا كانت تقام احتفالات مماثلة.. مؤداها أن الإله بعل (أو أدون = أدونيس) قد قتله خنزير بري، ثم حاولت عشتار (أو عشتروت) إعادته للحياة حتى تعود الحياة إلى الطبيعة التي ماتت في الشتاء..

فمن قورنثا انتقلت فكرة هذه الاستعراضات إلى أثينا حيث أصبحت قبيل القرن الخامس قبل الميلاد مجالاً للمباراة في الاحتفالات المتصلة بأعياد الإله أدونيس.. وقد كانت المسرحية التراجيدية بسيطة في بدايتها، فهي ملتزمة بأن يكون موضوعها متصلاً بالإله أدونيس. والحوار لا يتعدى ممثلاً يقوم بتقمص دور كل الشخصيات»[2].

وقبل أن يصل فن التمثيل المسرحي عن طريق السوريين إلى اليونان كان قد ترسخ في كريت مع السيطرة السورية هناك، وخاصة في عهد الملوك السوريين أبناء الأميرة أوروبا.

فقد اكتشفت آثار الحضارة السورية التي دعيت «مينوية» نسبة إلى «مينا» ابن أوروبا «فبهرت الغربيين المتعجرفين»[3]، و«اكتشفت فيها دور التمثيل في

---

(1) أندريه إيمار، جانين أوبوايه، المرجع السابق، الجزء 1، ص397,393,396 .

(2) لطفي عبد الوهاب يحيى، اليونان، دار النهضة العربية، بيروت، 1979 ، ص189 – 194 .

(3) ديورانت، المرجع السابق، اليونان، ص17 .

افنية القصور»[1]، كما اكتشف «ان كلام الكريتيين كان يختلف عمّا يعرف من الكلام اليوناني كل الاختلاف، واقرب منه شبهاً بلغات الشرق الأدنى ومصر والحبشة، وقبرص والأناضول»[2].

طقوس عيد أدونيس ونشوء الدراما

إن أدونيس هو القوة المخصبة في الطبيعة والحيوان. وقد رمز السوريون لهذه القوة بالثور (مع البعل) وبالتيْس أو الجدي (مع أدونيس) كقوتين ذكريتين كبيرتين في الاخصاب. ولما كان عيد أدونيس هو تمثيلاً لموت الإله ولبعثه من الموت، فقد كان لابدّ من الاستعاضة عن قتل الإله برمزه الحيواني الذي هو الجدي، كما صار اتباعه يدعون باسم «جماعة التيوس». اما موضوعها المركزي فهو الصراع بين قوى الخصب وقوى تدمير الخصب، بين بعل وموت، بين أدونيس (خصب الزرع) والخنزير البري (مدمّر الزروع)، بين الخير والشر، بين الحياة والموت، ومن هنا جاءت كلمة الـ «دراما» التي لم يعرف أحد من الباحثين حتى اليوم أصلها العربي السوري.

«الدراما» كلمة عربية قديمة:

إن الكلمة هي في القاموس السرياني من الفعل «دَرْ» ويعني: صارع، قاتل، حارب، كافح، خاصم. درزْ= مبالغته. دورو= صراع، قتال، كفاح، حرب، هيجاء. بيت درا = ميدان الحرب والكفاح والصراع. ولما كان العرب السوريون من عادتهم أن يضيفوا «الميم» إلى كثير من نهايات الأسماء عوضاً عن التنوين اليوم مثل يحيى ـ يحيم، كلتو ـ كلتوم، ملك ـ ملكم، ماريا ـ مريم، فقد أضافوا إلى «درا» صوت الميم، وباللهجة الفينيقية «ما» وصارت «دراما» التي تعني حرفياً الصراع، وليس كما يخمن ول ديورانت وغيره قائلاً، كما مر معنا ـ إنها تعني: شيء يمكن عمله!

ومن الكلمة كان اسم أحد أبناء حيلون في شمال سوريا الذي ذهب إلى بلاد المورة، وهو «دورو» أي المقاتل، البطل، ودعيت عشيرته بـ «الدوريين».

---

(1) المرجع نفسه، ص18 .

(2) المرجع نفسه، ص31 .

وهكذا يكون المضمون الأساسي في تمثيل موت الإله وبعثه هو تجسيد فكرة الصراع بين قوى الحياة وقوى الموت. ثم تطور هذا المضمون ليعكس فيما بعد الصراع بين الخير والشر.

يقول الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى: «فمن حيث المضمون لم يعد موضوع المسرحية يدور حول ما يتصل بالإله ادونيس، وإنما أصبح يدور عموماً حول الصراع بين الآلهة والانسان، أو بين القدر والإنسان، أو بين الخير والشر، أو حول مواضيع أخرى من هذا القبيل»[1].

وعلى العموم فإن الـ «دراما» تعني الصراع.

نشوء وتطور «التمثيل» في بلاد اليونان:

تجمع كافة المصادر على أن شبه جزيرة المورة، التي دعيت بلاد اليونان فيما بعد، كانت بلاداً فقيرة لا تصلح لأن تكون مستقراً لتجمعات كبيرة من البشر ولالإقامة حضارة. وكان سكانها الأصليون من الهمج سكان الكهوف وآكلة لحوم البشر حينما وفدت إليها أولى الجماعات السكانية السورية فأقامت المحطات والمدن لأول مرة في تاريخ اليونان.

تلك المرحلة مثلت عصر «الأبطال» الذين كانوا رواداً في استكشاف الأراضي وتأسيس المدن والدفاع عنها. وعرفنا من بين هؤلاء المؤسسين قدموس الصوري، وزيو وزوجته حيرا، وأثينا، وفوصيدون، وأرقو، ومن بين هؤلاء أيضاً كان ذلك الملقّب بـ «الطائر المخلص» (فيق روفي، كيك روف) أحد المؤسسين الأولين لقرية أثينا قبل أن تدعى باسم الربة.

وجميع هؤلاء، وغيرهم كثيرون، من المؤسسين تحولوا في تلك البلاد إلى آلهة. حينما ظهر أدونيس بن سميلا حفيد قدموس (ويدعى أحياناً ديونيس) وعلّم السكان زراعة الكرمة وشرب الخمر، وتحوّل إلى رب، لم يظهر أي أثر هناك لفن التمثيل المسرحي الذي كان مرتبطاً منذ البداية بعشتار وأدونيس. وكان يكتفي السكان الأصليون بتقديم فروض الولاء والعبادة والطاعة للسادة المؤسسين من الآباء السوريين الوافدين. أما هؤلاء فلم يكونوا يبغون أكثر من اختيار

---

(1) لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص195 .

بعض المواقع يقيمون فيها قرى أو مزارع أو مدناً صغيرة، فيسكنون حصون الأمراء (عكروبولي: عكرو = حصن، سياج، و«بولي» جمع «بولو» وتعني الأمير في القاموس السرياني، وهي التي دعيت بالـ «أكروبولي»)، ويعلمون السكان الأصليين المتخلفين لغتهم وفنون زراعة الأرض وتربية المواشي. ولهذا فقد كان أول ظهور لأول مظهر من مظاهر التمثيل الدرامي في اليونان يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد، وذلك، كما أسلفنا، بسبب اجتياح القبائل الفارسية للشمال السوري، مما دفع بالمثقفين إلى النزوح غرباً إلى المستوطنات السورية في الجزر والبر القاري.

وهكذا يلاحظ المؤرخون كيف أن أثينا امتلأت فجأة بالأغراب، وهي القرية الصغيرة التي يتسع مذبح الإله أدونيس لمواطنيها جميعاً كما سوف نرى لاحقاً. ومع هؤلاء «الأغراب» جاء كل شيء من الآلهة إلى الفلاسفة والشعراء. إن هذا لمّما يثير غضب المؤرخين الغربيين الذين لا يعرفون كيف يفهمون الحدث التاريخي الحضاري إلا من خلال قوقعة التعصب للغرب ضد الشرق.

يقول أندريه إيمار مبدياً دهشته واستنكاره لهذه الظاهرة، فيحاول تفسيرها من خلال «تساهل الاثينيين وتسامحهم».

«وقد اضطرت آثينا بسبب مرفأ البيرة، الذي يؤمه التجار والمسافرون من كل البلدان، أن تبالغ في التساهل. فسمحت في الدرجة الأولى بعبادة إيزيس المصرية، وأدونيس وعشتار السوريين. ومنذ البدء انضم بعض المواطنين، دونما تستر أو تعرض لأي لوم، إلى صفوف الأجانب المقيمين وغير المقيمين.. وأقرت أثينا بعد ذلك دخول العدد الأعظم من هؤلاء الآلهة إلى العبادة الرسمية. إن في هذا التساهل، أو بالأحرى هذه القابلية للتسرب، ما يثير الدهشة»[1].

«وفي أثينا أسس الفلاسفة الأجانب مدارسهم التي أقبل عليها تلاميذهم»[2].

إن هذا جانباً من الظاهرة التي لا يحاول معظم الباحثين في الغرب فهمها، وهي أن المهاجرين السابقين سوريون، وكذلك النازحون بفعل الغزو الفارسي

---

(1) اندريه إيمار، المرجع السابق، ص366 - 367.

(2) المرجع نفسه، ص387.

سوريون أيضاً، إن هذه الحقيقة سوف تبقى غير مستساغة وصعبة الهضم أمداً طويلاً بعد، لأن الجامعات في الغرب كتبت التاريخ الغربي كمعلم لشعوب الأرض منذ القدم، ونفخت بهذا الانسان روح التعصب العنصري الأعمى ضد الشرق، لكن كثيراً من أصوات الباحثين الموضوعيين المنصفين أخذت تعلو اليوم بكثرة في وجوه مزوري التاريخ، وتعمل من أجل تصحيحه في كل مكان من دول الغرب.

فلنتابع إذن نشوء وتطور فن التمثيل الذي بدأ هناك مع هذا النزوح السوري المفاجىء، ثم انطفأ مع عودتهم بعد القضاء على الانقلاب الفارسي في القرن الرابع قبل الميلاد.

تقول المصادر جميعاً إن هذا الفن انبثق هناك من رواية موت الإله أدونيس وبعثه، وتشخيص هذه الرواية من قبل الراوي بالحركات أو الايماءات(*). فكانت حكاية موته يصحبها النواح والندب وموسيقى الناي الحزينة، كما كان بعثه مرافقاً بالفرح والأغنيات المرحة والرقص والدبكة على أنغام الطبول والمزامير.

ولنبدأ مع هذه الأشياء مرحلة فمرحلة:

1 . **النشيد الديثرامبي نشيد رب العرش،**

وقد دعي في العربية القديمة «دإثر أمبو».

فقد اعتاد السوريون، ككل العرب، منذ الزمن القديم أن يجعلوا للأرباب أو للأولياء والقديسين، مقامات في كل مناطق انتشارهم، توفيراً لهم لعناء مشقات السفر عبر المسافات النائية. ومن هؤلاء رب العرش الذي هو أدونيس. فقد جرت تقاليدهم أن يبدأوا احتفالاتهم بعيد أدونيس بترتيلة دينية يمجدون فيها الإله ويحيونه في المكان الذي أقيم له عرش في مقامه هناك في المعبد.

(*) إن التمثيل الإيمائي كان يدعوه قدامى السوريين (فنتامومي)، ولما كانوا يلفظون الفاء P فكانت تلفظ «بانتامومي» وهي التسمية التي انتقلت إلى كل اللغات فيما بعد Pantamymy أي التمثيل الإيمائي، أما معناها فهو الحوار الإيمائي، أو الرد بالإيماء، إن «فنتا» في العربية القديمة تعني الرد، الجواب، الحوار. (انظر القاموس السرياني)، أما «مومي» فهي من الفعل العربي القديم الحديث «وَمى، يومي، مومي» أي أشار، وكذلك «أومى» و«أوما».

ودعي هذا بـ «السلام على مقام العرش» الذي هو «دِثرْ امبو». والحقيقة إن أحداً في الغرب كله لم يعرف معنى هذه التسمية، فشرعوا يضعون لها التفسيرات كل بما تجود به قريحته من خلال قرائن النصوص، أو من خلال معرفته بالاغريقية او اللاتينية، وبقيت التسمية لغزاً عندهم جميعاً وقد اقرّوا بأنها ليست «إغريقية».

اما الحقيقة فهي عربية سورية: فالدال كان بالسريانية والفينيقية أداة للتعريف في كثير من الأحوال، ومن الفينيقية انتقلت إلى الفرنسية كما انتقل اللام كأداة للتعريف إليها نفسها. و«إثر» أو «إثرا» = مكان، محل، موطن، مسقط الرأس، مقام، و«أمبو» و«امبون» = العرش، الكرسي.

يقول الدكتور عبد اللطيف احمد علي: «كان لأدونيس ابتهال ديني، او نشيد خاص به، يعرف باسم ديثيرامبوس Dithirambos ولعل هذا النشيد كان، منذ البداية، اغزر مادة وأكثر تنوعاً من اناشيد غيره من الآلهة. ومن المرجح ان أقدم نشيد كان يدور حول تمجيد أدونيس، وبخاصة أن اسم النشيد قد يؤدي معنى «الميلاد المزدوج» إشارة إلى مولد ديونيس من سيميلا، ومولده الآخر من فخذ زيوس رب الأرباب»[1]. إن هذا مجرد تخمين نقله عن غيره دون أن يقوم على أي أساس.

ويقول الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى: «ومن النوع الأول، وهو الديثيرامبوس أو العرض الغنائي (!) الجاد، انبثقت التراجيديا او مسرحية المأساة لتصبح لوناً فنياً قائماً بذاته»[2].

ثم إنه يضيف قائلاً: «وكانت بداية هذا التطور على يد شخص اسمه ثيسفيس[*] Thespis عاش في أثينا في القرن السادس قبل الميلاد، واراد أن يعطي الأناشيد الجماعية التي كانت تنشد في العروض الديثيرامبية شيئاً من التشويق عن طريق «التجسيد»، فبعد أن كان المنشدون يسردون الأحداث والمواقف بكل ما في

---

(1) عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص162 – 163 .

(2) لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص193 .

(*) الاسم عربي سوري قديم يعني اللهب، الشعلة، وهو في القاموس السرياني من الفعل «إسف» = ألهب، اشعل، أوقد..

هذه الأخيرة من حديث فيه أخذ ورد بين الشخصيات التي يتناولها المنشدون، أدخل ثيسفيس تطويراً جديداً (حوالي 535 ق.م) لهذا الوضع، فجعل واحداً من المنشدين يقوم بدور هذه الشخصية أو تلك حينما يرد ذكرها في الإنشاد. وبهذا التطوير تحوّل سرد مجموعة المنشدين أو الكورس Choros للحديث بشكل غير مباشر إلى حوار مباشر بين رئيس الكورس وبين من يقوم بدور الشخصية المطلوبة. وقد أطلق اليونان على من يمثل هذه الشخصية أو يقوم بدورها تسمية هيبوكريتيس Hypokrites، ومعناها «المجيب» أو «المفسّر» أو «الشخص» الذي يدّعي دور شخص آخر. ومن ذلك نستنتج طبيعة دور الممثل في البداية. فقد كان هذا الدور ينحصر تقريباً في الاجابة على بعض أسئلة يلقيها الكورس أو رئيس الكورس بحيث تكون هذه الإجابة نوعاً من التفسير أو التوضيح، وذلك عن طريق تقمص الممثل لشخصية أخرى غير شخصيته بهدف تجسيد الموضوعات التي تتحدث عنها أناشيد الكورس. وبظهور هذا الاتجاه أو هذا التطور نحو تجسيد الالقاء يمكننا أن نقول إن فن الدراما أو فن المسرح قد بدأ عند اليونان»[1].

إن هذا يضعنا أمام الخطوة الأخرى التي خطاها التمثيل السوري الأدونيسي، وهي التي دعيت بالـ «هيبوكريتيس» والتي احتار في معناها الباحثون ــ كما لاحظنا ــ وداروا من حولها. إنها بكلمة واحدة «التجسيد» أو «التشخيص» وليست التفسير، ولا أي شيء سواه.

2 . «التجسيد» كخطوة أولى في نشوء المسرح

إن الكلمة كما يكتبونها في اللغات الأوروبية منقولة عما يدعونه بـ «الاغريقية» Hypokrite. أما الأصل فهي عربية قديمة، وأصلها «هـ فيجروث» إذ الهاء في الفينيقية للتعريف، و«فيجروت» تعني حرفياً التجسيد، وهي في القاموس السرياني هكذا: فيجورا = جسد، جسم، بدن، جثة، حقيقة، ضد خيال، فيجورونو= جسدي، جسمي، بشري. فيجورونوثا= جسدية، جسمية، بشرية، سرّ التجسد. فيجورا= جسد، جسم، يابس. والفعل فجرْ ــ فوجورا = جسّد،

---

(1) لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص193 – 194 .

جسّم، مثّل، شخّص، فوجرام = عورة، سوءة..

وقد ذهبت هذه الكلمة، كغيرها من الكلمات العربية القديمة، مع السوريين إلى اليونان وايطاليا، ومنهما إلى بقية اللغات الأوروبية، فصارت Figure= جسد، بدن، شخص، جثة. وباللغات السلافية التي نقلت مباشرة عن اليونان Figura = جسد. ولما كان العرب السوريون يلفظون الفاء P في معظم الحالات فقد كانوا يلفظونها في بلاد اليونان كما يلفظها السوريون.

لقد كان على الراوي الوحيد أن «يجسّد» الأحداث وهو يرتّلها مستعيناً بالحركات والايماءات، فدعي منذئذ بـ «المجسِّد» أو «المشخِّص» أو «الممثل» وقد بقيت كلمة «مشخصاتي» مستخدمة بدلاً من كلمة «ممثل» إلى وقت قريب.

3 . «الساتيرا»

«وديانة أدونيس ديانة نشوة وجذبة روحية. ذلك أن النبيذ، هو هدية هذا الإله إلى البشر، والنشوة الروحية، لأن كلاً منهما كان يسري في أوصال اتباع ديونيس ومريديه. فيحسب الواحد منهم بعد أن يروح في غيبوبة أو يمسّه نوع من الخبل انه صار عضواً في جمعية التيوس Thiosos أو حيواناً في قطيعه المقدس. وكانوا قديماً يرقصون في الجبال، وبخاصة على مقربة من دلفي وطيبة، على أنغام المزامير والطبول والدفوف والصنوج. وكان الرجال من فرط انتشائهم يتصورون كأنهم «ساتيروي» Satyroi وهم اتباع ديونيس من أرواح الغاب الذين تخيلهم اليونان كمخلوقات بشرية نحيلة الجسم، شائهة الشكل، بعضها في هيئة التيس، متمردة الطبع، جامحة الشهوة، وبعضها الآخر في هيئة الخيل له أذنان مدببان وذيل حصان. أما النساء فكن يتصورن كأنهن ميناديس maenades أي تابعات الإله المتفانيات في عبادته، والمجنونات شغفاً به، وقد يعرفن في طيبة باسم بكخاي Bacchai وفي أثينا باسم ليناي Lenee»[1].

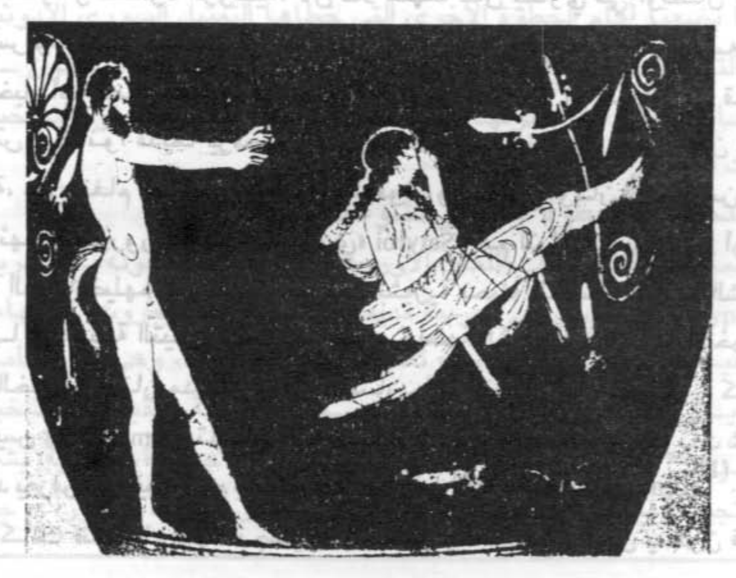
«ولقد كانت «تشترك فيها مجموعة الممثلين والمنشدين الذين يمثلون فكرة

---

(1) عبد اللطيف احمد علي، المرجع السابق، ص163 .



الجزء العلوي من الآنية السورية التي دعيت «آنية فرنسوا». وترى فيها مجموعة من الفتيات السوريات يرقصن في عيد أدونيس بين جماعة المتنكرين (الساتيري) بذنب الحصان



ساتير يؤرجح إحدى المريدات من عابدات ديونيس. القرن الخامس قبل الميلاد. متحف برلين.

الحياة البرية وما فيها من كائنات هائمة تمثل الرغبات الحيوانية غير المصقولة في الإنسان، وتتخذ، في تصور اليونان، أشكال آدميين لهم بعض أعضاء الحصان أو التيس، كانوا يطلقون عليها اسم ساتيروي Satiroi . وقد كانت العروض الديونيسية وكذلك المسرحيات التراجيدية في بداية الفترة التي شهدت ظهورها تضم إلى جانب المشاهد المأساوية مشاهد يظهر فيها أشخاص يتنكرون، عن طريق الملابس، في هيئة هذه الكائنات الساتيرية، ويقومون بأدوار فيها شيء من المرح والجرأة التي تشيع في العرض قدراً غير قليل من البهجة»[1].

ولقد كان التيس هو الحيوان المقدس في تلك العقيدة الديونيسية... لذا كانوا إذا ما همّوا بذبح التيس التفوا حوله راقصين مغنين منشدين الديثرامب. فإذا ما انتهوا من ذلك ذبحوه فأكلوا من لحمه وتقربوا للآلهة بشيء منه. وكذلك كانوا يحوكون من جلود التيوس أثواباً لهم.. ومآزر للساتير، وعباءات للمايناديس يطرحنها على أكتافهن. وبعد أن يأكلوا من لحمه ويتخذوا من جلده لباساً لهم كانوا يحسّون أنهم قد غدوا تيوساً، تراجوي»[2].

ولابدّ من التوقف هنا لنوضح معاني هذه التسميات:

● ساتيرا، لقد صارت تفهم في الغرب على أنها تمثيلية هزلية ساخرة. أما الحقيقة فهي كلمة عربية قديمة تعني: المخفي، المتنكّر، المقنّع... وهي من الفعل العربي القديم ـ الحديث «ستر» أي أخفى، نكّر، ستر.. والكلمة هي نعت لجماعة ديونيس الذين يلبسون جلود الماعز، ويتنكرون بها لممارسة طقوس المجون والدعارة بشهوانية فاضحة إبان الاحتفال بعيده. فالمتنكر هو «الساتيرو» وأما الجلد الذي يتنكر به ليصبح في هيئة التيس فيدعى الـ «ماسكا» أي الجلد، الذي هو قناعه. والكلمة هي عربية قديمة وحديثة وتعني الجلد. ففي قاموس «محيط المحيط» نجد أن المَسْك يعني الجلد لأنه يمسك الجسد والأحشاء كلها ويأخذ هيئتها. ولما كان التنكر بالجلد كله فقد دعي اللباس التنكري

---

(1) لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص197 .

(2) ثروت عكاشة، الاغريق بين الأسطورة والابداع، ص246 .

«ماسكا» بالفينيقية أي الجلد، ثم صارت في كل اللغات الأخرى تعني القناع. مقتصرة، فيما بعد، على الوجه فقط.

- التيوس بقيت بلفظها theosos وليست بحاجة إلى شرح.
- المايناديا، وهو الاسم الذي كان يطلق على تابعات أو عابدات ديونيس. يقول عبد اللطيف أحمد علي «وكانت هؤلاء المتعبدات يرحن في غيبوبة، ويصرن مهووسات فعلاً او مجنونات Mainade ويتصورن انهن قد اتحدن بباخوس اتحاداً تاماً Bacc hai أو صرن حيوانات في قطيعه المقدس»[1].

اما اصل الكلمة فهو عربي قديم (سرياني، فينيقي) ويعني: المرتلات، المتعبدات، الممسوسات، المخلوطات، وهي في القاموس السرياني من الفعل (عني) و(اعني)= غنّى، رتّل، خلط، أجاب. اتعنوي= تنسك، تعبد، أدمن على. عنوبوتا= عبادة، إدمان، خلطة، ردّة، ترتيلة، عناياتي = غنم، ضان، نعاج، عنزات (إذ العين كانت تحلّ محل الضاد في العربية القديمة). والكلمة في الأصل هي «معنياثي» ثم اختفت «العين» وتحولت الثاء إلى d كالعادة، فصارت «مانايادي» وتعني حرفياً: المتعبدات، المدمنات، الممسوسات، اللواتي صرن نعاجاً أو عنزات.

- باكّاي، وهي في صيغة الجمع بالسريانية والفينيقية وتعني حرفياً البكّاءات، الندابات، كما تعني تابعات «بكو»، أو «باخو» أي الديك، والفاحش، الذي هو لقب ديونيس.
- ليناي، وهي ايضاً جمع بالسريانية والفينيقية وتعني: الندابات، البكاءات، النواحات. وهي في القاموس السرياني من الفعل «الا» ويعني: ولول، رثى، ناح، ندب. آليا= بكّاء، ندّاب، نوّاح. إليوت: بكاء، ندب، نوح، رثاء. إلي = بكاء، ندب، نوح. إلينا = بكاءة، ندابة، نواحة، وجمعها إليناي بالفينيقية والسريانية. ولما كانت الناي أو زمر القصب هي المستخدمة منذ أن بدأ الترتيل فقد دعيت هذه الآلة الموسيقية في سوريا، حيث عرف الإنسان العزف والموسيقى لأول مرة في التاريخ، «آليا» أي الشجية، النواحة، والليناي = النوّاحة، التي جاءت منها كلمة الناي الحديثة. ثم ارتبطت بالعازف عليها ودعي «اوليتا» وجمعها

(1) عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص167 .



صورة سورية تمثل عازفة المزمار

صورة للرقيم الذي يحمل اقدم نوتة موسيقية في العالم. من مكتشفات اوجاريت. الألف الثالث قبل الميلاد. وهي تقوم على السلم السباعي الذي نقله فيثاغورث الصوري إلى اليونان عام 500 ق.م، أي بعد اكثر من الفي عام من وضعه على ايدي قدماء السوريين.

أوليناي. وما تزال الكلمة مستخدمة في مصر حتى اليوم، إذ يدعى العازف على الآلة الموسيقية «آلاتي» أياً كانت هذه الآلة. وليست كلمة «آلة» المستخدمة مع ادوات الموسيقى إلا استمراراً من القديم، وكانت مختصة بالموسيقى الشجية فقط، ثم عمّمت على كل الآلات مهما تطورت و اياً كانت.

4 . التراجيديا، وأصل تسميتها

لقد احتار الباحثون في الغرب في أصل هذه الكلمة، ووضعوا نظريات وافتراضات كثيرة ومتناقضة، لكنها جميعاً كانت تدور حول أصل الكلمة المشتق من «الجدي».

وقد أورد عبد اللطيف أحمد علي نماذج من هذه الآراء الحائرة ثم كتب يقول: «والسؤال المحيّر هو: لماذا سميت المأساة الجادة الحزينة بالـ «تراجيديا» اي اغنية الجدي؟ في رأي كثير من الباحثين ان التراجوس هو الساتيروس الذي يظهر أولاً في النشيد الديثرامبي فقط، وبعدئذ لا يظهر إلا في المسرحية الساتيرية. فلماذا صارت كلمة ساتيروس تدل على نوع واحد من أنواع المسرحيات المرتبطة بديونيسيوس، وهو المسرحية الساتيرية الفكاهية الماجنة، بينما صارت كلمة تراجوس بمعنى جدي تدل على النوع الجاد من الدراما؟ إن المقام لا يتسع لعرض مختلف الآراء التي أدليت بصدد هذه النقطة الشائكة، لكن حسبي ان أشير إلى رأي «ورد» في حجر فاروس الشهير Marmar Parium الذي يرجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد ــ وهو رأي غير صائب على أي حال ــ إذ يقول: إن التراجيديا سميت كذلك نسبة إلى تراجوس، أي الجدي، لأنه كان جائزة تعطى للفائز في المسابقة، وكان حيواناً يقدم قرباناً لديونيسيوس. غير ان الجائزة الأولى لم تكن قط جدياً، بل كانت في الأغلب، مائدة ذات ثلاث قوائم او ارجل tripone، وكان الثور هو الذي يقدم جائزة لا الجدي.

وفي أيام أريون كان الجدي هو الجائزة الثالثة، ودنّ النبيذ ampora هو الجائزة الثانية، بينما كان الثور هو الجائزة الأولى»[1].

---

(1) المرجع نفسه، ص173 – 174 .

أما الحقيقة فإن الكلمة عربية قديمة (سريانية، فينيقية) مؤلفة من كلمتين: الأولى «تراحي» جمع «تراحو» وهي في القاموس السرياني تعني التيس أو الوعل، والثانية «جديا» وتعني الجدي. فيكون المعنى للكلمة «تيوس الجدي». إن الجدي، الحولي الشاب، الفض، هو رمز أدونيس. وإن عبّاده ومريديه الذين يلبسون جلود التيوس ليقبلهم في قطيعه هم التيوس. وهكذا يستغرب الباحثون في الغرب هذا الفرق، وينقله لنا الدكتور ثروت عكاشة هكذا: «ومن الغريب أن اسم «الجدي» كان يطلق على الإله ذاته. ولعلنا نجد تفسير ذلك في بعض الطقوس التي تحرم تقديم تيس كبير قرباناً، وتشترط تقديم جدي صغير بدلاً منه يمثل الإله في الوقت نفسه. وهناك نكتشف المفارقة الغريبة التي يمكن أن ندعوها مأساوية «تراجيدية» بالمعنى الشائع للكلمة المشتقة من «تراجوس». ذلك أن تقديس الإله يتم من خلال تمثيل آلامه الذاتية، بتقديم قربان إليه في شخص مخلوق يمثل تجسيداً له في آن معاً»[1].



الجدي الذي يمثل الرب ادونيس، واحد اتباعه وقد تنكر بذيل الحصان

---

(1) ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص266 .

إنه في الوقت الذي يتم تجسيد الإله في الجدي ويذبح ويرش دمه على مذبح الإله يجري الندب والنواح من قبل مريديه الذين يلبسون جلود التيوس، ثم يتناولون لحم الجدي الذي هو جسد الإله، ويشربون النبيذ، الذي هو دمه، في حمأة الحزن، واللطم والنواح على معاناة الإله القتيل، إنهم التيوس وإنه الجدي، وهم تيوس الجدي، أي قطيع الإله، ونلاحظ كيف أن كلمة «تراجو» التي تعني بالعربية القديمة «التيس» قد تحولت إلى «تراجوس» ثم لم يعد أحد ما يعرف لها أصلاً.
أما «جديا» فهي واحدة بالعربية القديمة والحديثة وتعني «جدي». ونلاحظ كيف تحولت الجاء في «تراجي» إلى g، وهي من الابدالات النادرة، وقد رأيناها سابقاً في مثال «أحزى كركو» التي صارت «أجزاركو» قائد الدبكة.
ولابد لنا من توضيح الكلمات الأخرى التي هي أسماء لجوائز الفائزين في التجسيد أو الرقص:

- إن كلمة tripone التي يعتقدون أنها طاولة بثلاث قوائم، انطلاقاً من tri أو three الانكليزية التي تعني ثلاثة، ولمشابهة الكلمة باللفظ مع «طرابيزة»، فهو ضلال آخر حينما لا يعترفون بأن «الاغريقية» القديمة إنما هي العربية القديمة.

إن الكلمة هي في القاموس السرياني «طريفون» و«طريفونسا» وتعني: جوشن، درع، عباءة، برنس. وهي الجائزة الأولى. ونلاحظ كيف أن الفاء كانت في العربية القديمة تلفظ P. وهكذا بقيت بلفظها في بلاد اليونان. وكانت العباءة الفينيقية الأرجوانية الشهيرة هي الجائزة.

- أما امفورا ampora، فهي في القاموس السرياني «أوفورا» وتعني: برنية، أو جرة صغيرة مدورة. والفاء كانت تلفظ P. ثم أضيف إلى أولها الصوت (م) لأن المقطع الأول ابتدأ بصوت شفوي هو الفاء أو P. وكنا قد شرحنا هذه الظاهرة في العربية القديمة حيث بحث اللغة، وقلنا إنها استمرت في اللهجة الدارجة حتى اليوم كأن نقول «امبارحة» بدلاً من «البارحة»، وفي جبال السراة ما تزال الميم هي أداة التعريف السائدة حتى اليوم في كل الكلمات. يقول حمد الجاسر في كتابه «في سراة غامد وزهران»: «ومن اللهجات السائدة استعمال (ام) بدل (ال) التعريفية، فأكثر سكان بلاد سراة عسير وتهامة يقولون «أمرجل» بدل (الرجل).

ومن شعرهم:

ياعسير (امهول) ما هذي (امقضية)

أي ياعسير الهول ما هذي القضية»[1]

5 . الكوميديا، وأصل التسمية:

قلنا فيما سبق إن فن التمثيل وُلد مع عقيدة عشتار وتموز أو ادونيس، وذلك برواية وتشخيص قصة موت الإله ثم قيامته من الموت. فالشق الأول يتجسد حزناً ونواحاً وهو الذي يمثل المأساة، أما الشق الآخر فيتجسد فرحاً ورقصاً، وهو الملهاة أو «الكوموديا Komodia»[*]. ومثلما احتار الباحثون في أصل كلمة «تراجيديا» فقد عانوا الشيء نفسه مع كلمة «كوموديا». وينقل لنا الدكتور ثروت عكاشة، بعضاً من هذه الحيرة بعد أن يتبنّى هو الآخر إحدى الفرضيات الخاطئة فيكتب قائلاً: «والكوميديا ترجع أصلاً إلى لفظة كوموس اليونانية، ومعناها أنشودة الكوماست، أي المعربدين المرحين. كما كانت التراجيديا أنشودة التراجوس أي المعزيين [جماعة الماعز أو التيوس] أتباع ديونيسيوس. وأخطأ البعض فأرجع أصل هذه الكلمة إلى «كومي» أي قرية، وإلى «كوما» بمعنى الاستغراق في النوم، معللاً هذا وذاك بأن القرويين كانوا يخفّون من قراهم لمشاهدة تلك الحفلات الساخرة التي يتندر فيها بالأشخاص غير المحببين إليهم، حتى إذا ما عادوا إلى قراهم اخذوا يتسلون بما شاهدوا وسمعوا إلى أن يغلبهم النوم.

وفيما ذهب إليه هؤلاء تمحّل ظاهر واجتهاد في خلق أسباب لاسند لها. والحقيقة التي لا تقبل شكاً هي أن الكلمة ترجع، كما قلنا، إلى كلمة الكوماست أي المعربدين المرحين»[2].

إن الحقيقة التي لا تقبل شكاً هي أن كل كلامه خطأ. فالكلمة هي من العربية القديمة (سريانية، فينيقية)، وهي في القاموس السرياني «قوموثا» و«قيوموثا» وتعني القيامة، البعث من الموت. وهي في القاموس السرياني من الفعل قم ـ

---

(1) حمد الجاسر. في سراة غامد وزهران، ص489 .

(*) كانت الكلمة في الأصل تكتب Komodia. انظر عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص178 .

(2) ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص266 .





راقصات سوريات في محراب ديونيس على آنية. ويرى «ترصو» الإله (قضيب الخيزران) والمزمار المزدوج، والدف (الشخليلة) والملابس السورية الفخمة الطويلة. الآن في متحف نابولي القومي



صورة تمثل الاحتفال بقيامة ادونيس. موجودة في متحف تارنتوم بإيطاليا

قومو = قام، نُشر، بُعث، ظهر، طلع، وُجد، حضر، عاش، وقف، انتصب، نهض، وقد تحولت «الثاء» في النهاية إلى d بعد انتقالها إلى اللاتينية كالعادة، وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الظاهرة في بحث اللغة.

المقومات المادية لمسرح أدونيس

1 . الأوركسترا أو ساحة الرقص:

«وأول هذه الأقسام هو الأوركسترا Orchestra أو مكان الرقص. وهو الساحة أو المكان الذي كان أعضاء الجوقة (أو الكورس) يؤدون فيه رقصاتهم وأناشيدهم أثناء أداء المسرحية. وقد يبدو الكلام عن ساحة الرقص هذه غريباً في بداية حديث عن مقومات البناء المسرحي، لكن يجب أن نذكر أننا نتحدث عن المسرح اليوناني، وأن بداية المسرح اليوناني كانت تطور الأناشيد التي يلقيها الكورس في الاحتفالات الدينية كما مر بنا في مناسبة سابقة.

ومن هنا فإن هذه الأناشيد كانت، في بداية تطور الفن المسرحي، هي أهم أجزاء المسرحية، ومن ثم، فإن الأوركسترا، أو الساحة التي كان أعضاء الكورس يؤدون فيها هذه الأناشيد أثناء رقصاتهم، كانت، بالضرورة أهم قسم في المكان أو البناء المسرحي.

وقد كانت ساحة الأوركسترا في البداية عبارة عن أي اتساع مسطح يقع عند سطح أو منحدر تل أو مجموعة تلال. وكان شكلها عادة مستديراً. وقد كان هذا الشكل الدائري، دون شك، هو الشكل المثالي للمكان الذي تؤدي فيه جماعة الكورس أناشيدها ورقصاتها. ومع هذا فإن هذا الشكل الدائري لم يكن يبدو أمراً لا استثناء له، فهناك مثال لمسرح صغير إلى الشمال الشرقي في أثينا، وقد نجد شكل الأوركسترا مربعاً تقريباً حسب التشكيل الذي اتخذه السفح الصخري للمرتفعات في المنطقة التي أقيم فيها المسرح.

«وفي وسط ساحة الأوركسترا هذه يقوم مذبح القرابين الخاص بالإله أدونيس (أوديونيسيو) الذي كانت تقام المباريات المسرحية احتفالاً بعيده، وفي الواقع كجزء من شعائر هذا العيد. هذا وإن أقدم آثار باقية حتى الآن لمثل هذه الساحة هي الأوركسترا التي تشكل جزءاً من مسرح ديونيسوس في أثينا، عند

منحدر الأكروبوليس، ويرجع تاريخها إلى أواسط القرن الخامس تقريباً»[1].

فالأوركسترا، إذن، «ساحة مستديرة الشكل تقريباً في أسفل التل، وكانت تقوم في وسط الساحة مائدة أو مذبح القرابين المسمّى Shymele (شوميلي) حيث كانت تقدم قبل العرض القرابين لديونيسيوس الذي تعزى إلى عبادته نشأة الدراما وصار بمثابة إله التمثيل المسرحي.. وفي رأي أكثر العلماء الآن أن التمثيل نفسه كان في العصر الكلاسيكي يجري في هذه الساحة الأوركسترا. وأن الممثلين كانوا لا يقفون على أي منصة مرتفعة بل على مستوى ساحة الكورس. ولم تكن هذه الساحة، أو مكان النظارة، مسقوفة، وكان التمثيل يجري بالنهار»[2].

إن في هذين النصين عدة نقاط لابد من التوقف معها:

- فالأوركسترا هي، في الأصل، ساحة للغناء والرقص، وليست فرقة موسيقية كبيرة كما صار يفهم منها اليوم. وإن أحداً من الباحثين اللغويين لم يعرف حتى اليوم كيف «ركبت» صيغة هذه الكلمة التي تتضمن ساحة للرقص، ومذبحاً للإله في وسطها.

إن الكلمة عربية سورية قديمة، مركبة من كلمتين فعلاً، هما «حور» و«قسطرا» أو «قسطروم».

أما كلمة «حور» فتعني: مرسح، مشهد، منظر، مرأى، كما تعني الحولي من المواشي. وهي من الفعل حر، حورا، حيارا= نظر، تطلع، أطلّ، أشرف، انتظر، تأمل، تمثّل، اهتم، تحفظ. أحير= جعله ينظر، أرى، أظهر، وجّه، حثّ، رغّب، نظر، رأى.

ونلاحظ كيف اختفت الحاء في الغرب وتحولت إلى «همزة» هذا وما يزال السكان في قرى الساحل السوري اللبناني يستخدمون كلمة «حور» للساحة قدّام البيت ويجمعونها على «حيّارا» حتى اليوم، وهي غالباً «حواكير» تجري فيها الدبكة إبّان الأفراح حتى وقتنا هذا.

---

(1) لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص303 – 204 .

(2) عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص186 .

أما «قسطرا» أو «قسطروم» فهي في القاموس السرياني تعني: المصطبة، درج المذبح، درابزون، حاجز. وبذلك يتضح مضمون صيغة التسمية بجمع الكلمتين معاً: ساحة المذبح، مرسح المذبح.

● اما كلمة «شوميلي» التي ذكرت اسماً لمذبح القرابين، فهي فعلاً في القاموس السرياني «شوميليوم» و«شوميلَي»، وتعني: المذبح، سر التثبيت أو التكريس أو القربان، التقديم على اسم الرب. وما تزال هذه الكلمة تتردد في أغاني الفولكلور السوري منذ أعياد أدونيس وحتى اليوم(*)، دون أن يعرف الناس معنى لها وهم يرددونها. والكلمة تعني «اسم الرب» شم=اسم، إيلي= ربي، كما تعني التقديس، التقريب، الزيارة.

2 . **غرفة الممثلين «سكيني»**:

إن الكلمة عربية قديمة وتعني المسكن، الخيمة. وهي من الفعل «سكن» الذي لا يحتاج إلى شرح.

«ومن الطبيعي أن نشأة الفن المسرحي، بحيث وجد الممثلون الذين يجسدون الأحداث التي يرويها أعضاء الكورس في أناشيدهم، أدى إلى ضرورة وجود مكان يستعد فيه هؤلاء الممثلون، بتبديل ملابسهم لتناسب الأدوار التي كانوا يقومون بها في المسرحيات، وقد كان هذا المكان في بداية الأمر عبارة عن خيمة صغيرة (واسمها باليونانية Skene) تقام قريباً من رأس دائرة الأوركسترا في مواجهة المشاهدين، ثم ترفع عند انتهاء الموسم المسرحي الذي كان يعقد أثناء الاحتفالات بأعياد الإله أدونيس.

«وبالتدريج، وبتزايد عدد الممثلين، طوّر اليونانيون هذه الخيمة، بحيث أصبحت مبنى من الخشب فيها عدد من الأبواب التي يدخل منها الممثلون إلى حيث يؤدون أدوارهم، وإن كان هذا البناء الخشبي، هو الآخر، لم يكن بناء دائماً، وإنما كان يزال عند انتهاء موسم المباريات المسرحية. وانتهى الأمر بعد فترة من الزمن (ربما في الربع الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد) بأن حلّ محل هذا البناء الخشبي بناء حجري دائر يتسع لما يحتاجه الممثلون من تبديل

(*) نتذكر هنا الأغنية الفولكلورية السورية الشهيرة: «عليوم شومليوم شوميلي» أي: «ياالله، على اسم الله».

ملابسهم بين مشاهد المسرحيات، ويتسع كذلك لايواء بعض الأدوات والرافعات التي بدأ القائمون على شؤون المسرح يحتاجون إليها في اخراج المسرحيات»[1].

ويقول عبد اللطيف أحمد علي: «الخيمة Skene كانت تقوم وراء الأوركسترا (ساحة الكورس). وكانت في الأصل كشكاً من الخشب، ثم أصبحت بناء مستطيلاً من الحجر، وفي هذا المبنى كان الممثلون يبدلون البستهم وأقنعتهم.

«وفي وقت غير معروف أقيمت أمام الخيمة مباشرة منصة مرتفعة نوعاً ما ترتكز على أعمدة، ويبلغ ارتفاعها 12 قدماً وعرضها 10 أقدام، وتسمّى فروسينيوم Proscenium. كانت أولاً من الخشب، وبعدئذ من الحجر. ويرى بعض العلماء انها تقابل عندنا خشبة المسرح. لكن بعضهم الآخر يرى أنها ليست إلا واجهة زخرفية (أمامية) للخيمة، وبمثابة خلفية زخرفية لمكان التمثيل (ساحة الكورس). وعلى جانبي هذا المنظر الأمامي كان يوجد نتوءان زخرفيان جانبيان أحدهما على اليمين والآخر إلى اليسار، ويسمّى كل منهما فروسينيوم أي (المنظر الجانبي بالنسبة للخيمة).

«وأهم من ذلك الممران اللذان يوجدان أمام المنظرين الجانبيين، واحدهما على اليمين والآخر على اليسار ويسمى كل منهما Parados وهما ممران لدخول الكورس والممثلين إلى ساحة الأرض (الأوركسترا)»[2].

لنتوقف الآن امام هذه المفردات الجديدة، ولنتعرف على هويتها اللغوية كعادتنا، إذ لا جدال في أن حقيقة اللغة هي التي تحدّد الهوية القومية السكانية والحضارية:

- كنا قد أوضحنا معنى «سكيني» غير أن ما نودّ إضافته هنا، هو أن هذه الكلمة ما أن انتقلت إلى اللاتينية التي لا تحوي أي صوت حلقي، والتي يتحول الصوت الحلقي فيها (مثل الكاف والقاف وغيرهما) إلى c أو tc إذا ما وقع قبل y,e,i حتى صارت الكلمة Scene، وهذهُ الكلمة عينها هي التي صارت تستخدم في كل اللغات الأوروبية بمعنى منظر، مشهد، بعد أن جهلوا معناها في أصلها

---

(1) لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص205 .

(2) عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص186 .

العربي القديم، ثم صارت تطلق على منصة المرسح أو المسرح ككل.

● أمّا «فروسينيوم» بصيغتها اللاتينية والتي اختفت فيها بعض الأصوات من الأصل العربي، والتي ذكر المؤلف انهما كانا اثنين: أحدهما على يمين الخيمة والآخر على يسارها، فإنهما ممران أو مخرجان او مدخلان أو فرعان من الخيمة وإليها. والكلمة في أصلها العربي القديم هي «فرعو سكيني» وتعني فرع الخيمة، مخرجها، ففي القاموس السرياني نجد: فرعو= فرع، فراغ، مخرج، (أو مدخل) منفذ. «فرعي دفجروت» منافذ البدن، مسامّه (إذ الدال هنا للتعريف والإضافة). ونلاحظ كيف اختفت العين من الكلمة فصارت «فرو»، ولما كان العرب الأقدمون يلفظون الفاء P في معظم الحالات فقد انتقلت الكلمة إلى اليونان بلفظها العربي القديم Pro، ثم صارت في كل اللغات الأوروبية بادئة تعني «مدخل». أما «سكيني» فقد شرحنا كيف تحول فيها الكاف إلى C .

● أمّا الممران الجانبيان اللذان يسمّى كل منهما فَرادو Parados فالكلمة هي نفسها في العربية القديمة «فَرادو» وتعني: التفريد، الدخول فرادى، ومن الكلمة جاءت كلمة Parad الروسية التي تعني العرض، أو الاستعراض. ولقد لفظت، كالعادة، الفاء P.

أما كلمة «فَرادو» parado المستخدمة بمعنى فصل من التمثيلية، فهي نفسها في القاموس السرياني، وتعني: فصل، جزء، قطعة، ترتيله، أنشودة. وهي من الفعل نفسه. «فرِذْ» الذي يعني في القاموس السرياني: فَرد، فرّق، فصل، جزّأ، قطع، افترق، خرج، دخل، هرب، نفر، طار، فزع، خاف، أفزع، أخاف، طيّر، هرّب.. وقد انتقلت الكلمة مع السوريين إلى المورة وايطاليا، ثم انتقلت إلى اللغات الأوروبية الحديثة حاملة كل المعاني العربية القديمة. وإن كلمة «أفْريد» afraid الانكليزية (التي تعني: أخاف، أفزع، خائف) شاهد على «سياحة» هذه الكلمة بكل معانيها.

ومن الجدير ذكره ان هذه المسارح هي منذ البداية مقامات للرب السوري ادونيس، ارتبطت به في أيام أعياده، وأنشئت من أجل احياء وتمثيل ذكرى موته وقيامته، فكانت المشاركة في هذه الاحتفالات واجباً دينياً مقدساً لدى كافة السوريين التزاماً بأمر عشتار. إن هذا التقليد هو ما نقله السوريون معهم

إلى بلاد اليونان إبان النزوح الجماعي لمثقفيهم بفعل الانقلاب الفارسي فانتقل هذا التقليد معهم طيلة فترة النزوح، أي في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، ثم انطفأ فجأة بعد عودتهم إلى الوطن.

لقد كانت أثينا، في تلك الفترة، قرية صغيرة ليس فيها شيء مما تحويه مدن سوريا أو مصر أو المدن التي أنشأها الفينيقيون على طول شواطيء المتوسط. وكان المسرح الأدونيسي يتسع لكل مواطني أثينا حتى في زمن ازدهارها. «فكانت تغلق المصالح والمحاكم حتى يتمكن جميع المواطنين من الحضور. كما كانت تفرج عن المسجونين في أيام الاحتفالات حتى يستطيعوا هم الآخرون أن يشاهدوا هذه الاحتفالات بما فيها من المسرحيات»[1]. «وكانوا يثورون فعلاً إذا اعتقدوا أن هناك مساساً حاداً بعقائدهم الدينية، أو بالأخلاقيات التي يعتنقونها. ولدينا مثال عن حالتين في هذا المجال: إحداهما حدثت مع الشاعر التراجيدي إسخيلوس[*] حيث اعتقد المشاهدون أنه يمسّ العقيدة الدينية بشكل حقيقي. فاحتج المشاهدون بشكل يبدو أنه كان على قدر كبير من الخشونة ممّا اضطر الشاعر أن يجري ويحتمي بمذبح الإله أدونيس (المذبح كان ارتفاعاً صغيراً يقوم في وسط ساحة الأوركسترا»[2].

3 . **الكورس:**

«لقد ابتدأ الفن المسرحي بهذه المجموعة من الراقصين والمنشدين تروي قصص الآلهة والأبطال والأساطير في أعياد الإله أدونيس»[3].

«ولم تكن أرض المسرح هذه مقسمة إلى مناطق للكورس والممثلين تفصل بينهما أستار أو حواجز، بل كانت رقعة متصلة، وإن جرت العادة أن يشغل

---

(1) لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص221 .

(*) «اسكيلو» كلمة عربية قديمة تعني المعلّم، المؤدب، وقد لطف الفينيقيون كعادتهم الكاف إلى خاء في اللفظ. وهي في القاموس السرياني من الفعل اسكلْ = علّم، هذب، أدّب، فقه، عرّف، درّس. ومن الكلمة جاءت كلمة مدرسة في كل اللغات الأوروبية اليوم. Shkola, School .... الخ.

(2) المرجع السابق، ص223 .

(3) المرجع نفسه، ص212 .

الكورس مكان الصدارة من أرض المسرح بينما يشغل الممثلون خلفيتها»[1].

إن الكورس كلمة عربية قديمة، وأصلها «حورو» أي المشهد، المنظر، المرسح. وكان هذا المرسح يعقد للرقص والغناء، وتحديداً إنه مرسح الدبكة عند السوريين منذ الزمن الموغل في القدم. فرقصة الدبكة هي رقصة الفرح في الاحتفالات والأعياد والأعراس. وما يزال يوم الرابع من نيسان عيداً احتفالياً من أعياد رأس السنة السورية القديمة يعيشه السوريون بالدبكة على أنغام المزامير وايقاع الطبول حتى اليوم. ولقد تحولت «الحاء» في ايطاليا إلى k وصارت «كورو» لأنها الصوت الحلقي الوحيد الذي احتفظت به اللاتينية من الفينيقية. أما الصوت (س) فقد أضيف اعتباطياً لنهايات كل الأسماء.

فالحورو (الكورس) هو مجموعة الراقصين المغنين في حلقة الدبكة. ينقل لنا الدكتور ثروت عكاشة وصفاً لرقصة (الكورس) فيقول: «لقد كان الرقص المصاحب للغناء سابقاً على ظهور الدراما. فهو سمة من سمات حياة الاغريق، نشهده في تلك الصورة الأتيكية التي يرجع العهد بها إلى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، والتي تمثل فتياناً وفتيات تشابكت أيديهم في حلقات وهم يرقصون رقصة الكوروس، وثمة إناء يرجع تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد يحمل كذلك تصويراً لكوروس راقص.



رقصة الحورو (الكورس) على آنية سورية في اتيكا. وهي تمثل مجموعة من الصبايا السوريات في ملابسهن الشرقية الطويلة الفخمة

---

(1) ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص257 .

«ولطالما شهدت حفلات توزيع جوائز النصر فنوناً من الموسيقى والرقص وغناء الكوروس تتخلل فقرات البرامج من مباريات (آجون). وصدق أرسطو حين قال: إن التراجيديا ترجع في نشأتها إلى أداء قادة الديثرامب، والديثرامب عرض يؤديه خمسون شخصاً يرقصون في حلقة دائرية منشدين احتفالاً بأعياد أدونيس»[1].

إن كلمة «أجون» التي تعني المباريات، هي عربية قديمة، وفي القاموس السرياني نجد: أجون= جهاد، حرب، صراع. أجونيسطو= مجاهد، مصارع، محارب، منازع على النصر.

ولابدّ من التذكير هنا بأن إجماع المؤرخين كامل على أن تسمية أتيكا (عتيقا= العتيقة، اليابسة) عربية سورية وليست «إغريقية»، وأن أول من نزل واستوطنها السوريون الفينيقيون الذين بنوا محطات لهم على سفوح تلالها العجفاء، وليس على الشواطىء مباشرة، من أجل استخراج الفضة واستثمارها. وإن كل الآثار التي تدعى اليوم «أتيكية» هي عربية سورية، حتى



أمفورا سورية في اليونان، وقد رسمت عليها امرأة واقفة إلى جوار سبيل الماء. وكتب بالعربية الفينيقية في الأعلى «منهل» اي منهل. عين الماء، سبيل. وفي الوسط «كرونوث» وهي في القاموس السرياني تعني حوض الماء، صنبور، حنفية، مجرى، جدول. وإلى اليمين اسم المرأة من الأعلى إلى الأسفل. المتحف البريطاني.

---

(1) ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص340 - 343 .

أن أولئك السوريين كانوا يكتبون بلغتهم العربية الفينيقية على مصنوعاتهم الخزفية والأواني الزجاجية المدهشة التي ما تزال محفوظة بكتابتها العربية الفينيقية في المتاحف حتى اليوم.

وهكذا اتضح لنا حتى الآن أن «كوروس» هو «حورو» ويعني حرفياً مرسح الدبكة، وأن «أوركسترا» هي «حور قسطرا» وتعني مرسح المذبح، أو المقام.

أما حلقة الراقصين نفسها أو «الدّبيكة» بلغة اليوم الدارجة. فقد كانت تدعى «الكركو»، والكلمة في القاموس السرياني تعني الحلقة، الدائرة.

وفوق هذا كله فقد أدخل السوريون معهم ملابسهم وأزياءهم إلى بلاد اليونان. وظهرت هذه الأزياء الأخاذة في حلقات الدبكة والرقص متميزة بأقمشتها البديعة، وألوانها الزاهية، البيضاء، والأرجوانية، والذهبية، وبالفساتين الطويلة، والأحذية «المتكبرة» المرفوعة الأنف من الأمام، وهو الحذاء العربي



صورة الفارس الجوال على إناء مدوّر (كيلكا). وقد كتب بالعربية الفينيقية على يسار الصورة كلمة «حدار» وتعني في القاموس السرياني الفارس الجوّال. وترى الزخرفة العربية الأصيلة على ترسه. القرن السادس قبل الميلاد. متحف ميونيخ



رقصة الحورو (الدبكة) لمجموعة من الرجال والفتيات السوريين على آنية اتيكية من الزمن المبكر، وقد كتبت أسماؤهم جميعاً بالعربية الفينيقية



الصينية السورية المدورة «كلكا» وعليها صورة بائع الحبوب، وأمامه الميزان والأكياس، وقد كتبت أسماء الأشخاص بالعربية الفينيقية. برقة. القرن السادس قبل الميلاد. موجودة في دار الكتب الوطنية بباريس



نساء سوريات أمام السبيل (عين الماء). وقد كتبت أسماؤهن بالعربية الفينيقية. القرن الخامس قبل الميلاد. اليونان. المتحف البريطاني.



سيدة سورية وقد امسكت بالقناع



رقصة الحورو (الكورس). تصوير على آنية سورية في آتيكا في الزمن المبكر.
موجودة الآن في متحف اثينا القومي

التقليدي القديم، والذي كان يدعى «موس قترو» أو «موق قترو»[1]. والكلمتان عربيتان قديمتان: إن «موس» هي من الفعل العربي القديم «سأو» ويعني أحذى، ألبس حذاء، ومنها جاءت Shoe الانكليزية التي تعني حذاء. وإن «موق» هي أيضاً في القاموس السرياني تعني حذاء، ومنها كانت تسمية «موكيني» و«مسيني» للمدينة اليونانية ثم الايطالية، وهي تسمية سورية تعني «الحذّائين» صانعي الأحذية، والأصل الفينيقي للكلمة هو «موقيني»، ثم تحول القاف في اللاتينية إلى c لوقوعه قبل الصوت «i» كالعادة، وهكذا ظل الاسم الذي أطلق على القرية أو المدينة الفينيقية القديمة في اليونان على حاله «موقيني» (أو موكيني)، بينما صار الاسم للمدينة التي بناها هؤلاء السوريون أنفسهم فيما بعد في إيطاليا «موسيني» بعد الابدال اللاتيني للصوت الحلقي هناك «وكان يؤدي دور البطل شاب يرتدي زياً أبيض ذا أكمام طويلة، وحزاماً ذهبياً عريضاً، وعباءة أرجوانية، وحذاء أبيض ذا أربطة حمراء»[2]. إنه الزي الفينيقي التقليدي القديم الشهير.

«وإن العناصر الأساسية الثلاثة للملابس في التراجيديات: القناع، والرداء ذا الأكمام الطويلة والحذاء المرتفع، كانت قد وجدت مع طقوس العبادة الأدونيسية، ومن ثمّ كان بقاؤها حتمياً حتى نهاية العصور القديمة... فقد كان الرداء ذو الأكمام الطويلة والحذاء المرتفع هو ما يرتديه أهالي آسيا الصغرى.. وقد وصلت عقيدة أدونيس إلى أرض اليونان عن طريقين: عبر البحر من الشرق، وعبر بويوثيا من الشمال. ومن هاتين الجهتين نقلت هذه العقيدة معها رداءً اجنبياً غريباً على الاغريق الذين كانوا يرتدون ملابس خفيفة قصيرة. وبدت لهم هذه الملابس على شيء من الفخامة، وسرعان ما ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالمسرحيات الدينية الأدونيسية»[3].

«وثمة أوان خزفية يرجع تاريخها إلى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد

---

(1) عبد اللطيف أحمد علي، المكتبة التاريخية، مصادر التاريخ اليوناني، مكتب كريدية اخوان، بيروت، 1972 ، ص171,163 .

(2) ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص339 .

(3) المرجع نفسه، ص280 .

تحمل صوراً لجوقات من الرجال (كوروس = مرسح) قد تشكلوا في أشكال الحيوانات التي ترقص وتغني بمصاحبة الأليوس (الناي) التي كان عازفها يرتدي الملابس العادية المكونة من الكيتون (ثوب الكتان) الطويل وكان يصل عادة إلى الركبة عند الرجال وحتى القدمين عند النساء، ومن فوقه العباءة الملتفة التفافاً عفوياً حول الجسم»[1].

أما التمثيليات نفسها فكانت تتشكل من مدخل هو «فرعو لوجو» (وتعني في القاموس السرياني: مدخل القول، (صارت «برولوج» لاختفاء العين ولأن الفاء في العربية القديمة كانت تلفظ P)، ومن فصول، يسمى الواحد منها «هيبيزود» episode (والكلمة من العربية القديمة «فيصوت» و«فيصو» وتعني: فصّ، فصل، قطعة، لفظت الفاء P كالعادة، وتحولت الثاء في اللاتينية إلى d واضيفت الهاء أو الهمزة للتعريف. ومن الكلمة جاءت الكلمة الانكليزية Piece وتعني قطعة، فصل. «ويعدّ التسلسل المتبع في مأساة «الباكّاي» (النادبات) نموذجاً في تعاقب أجزائها المنتظم، إذ تأتي المقدمة (البرولوجوس) ثم الأدوار الكورالية الستة (ستيمازون) متخللة خمس حلقات او فصول أو مشاهد درامية»[2].

ومن السهل أن نتعرف أيضاً على أن تسمية «ستيمازون» للمشاهد الكورالية (من كورو التي هي حورو = مرسح الرقص أو الراقصين) الستة هي أيضاً عربية سورية ومؤلفة من كلمتين: «ست» و«محازون» التي هي من الفعل العربي القديم (في القاموس السرياني) «حزا» اي، راى، شهد، تفرج، احزي = جعله يرى. «محازا» أو «محوزو» = مشهد، مرسح، منظر (وكنا قد شرحنا ها آنفاً، وذكرنا اختفاء الحاء، ثم انتقال الكلمة إلى اللغات الأوروبية). أما كلمة «ست» فبقيت كما هي، ويصير معنى «ستيمازون» ستة مشاهد كورالية اي راقصة.

إن حياة «اليونان» التي حفلت بما وفد إليها من فنون وآداب السوريين في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد أقفرت نهائياً مع عودة المثقفين السوريين إلى وطنهم الأم، بعد أن قاموا بنجاح بانقلابهم المعاكس ضد الفرس

---

(1) المرجع نفسه، ص307 .

(2) المرجع نفسه، ص300 .

بقيادة الاسكندر المكدوني الذي تربى هو وابوه فيليب في جيش طيبة الفينيقي[1]. وإذا بلاد اليونان آخر الأمر تفقد في القرن الرابع كل شيء، ومرة واحدة، وإلى الأبد.

«ثياترو» (المسرح) واصل الكلمة:

مادامت العقيدة التي انبثق منها المسرح سورية، وما دام السكان الذين نشروا هذه العقيدة، وأقاموا المعابد في كل مكان من مناطق انتشارهم، ومثلوا، لأول مرة في التاريخ، قصة موت الإله وقيامته، سوريين، وما دامت كل عناصر ومقوّمات المسرح منذ نشوئه سورية أيضاً، فهل كانت الكلمة التي تدل على المسرح شاذة وغريبة؟ نقول: بالتأكيد، لا.

إن الكلمة هي في العربية القديمة من الفعل «تإرْ» = رأى، شهد، نظر، تأوريو = تايرو= ملاحظ، ناظر، متأمل، تإثرون، وتإطرون= مشهد، منظر، مرسح. والتاء في أول الكلمة للتعريف كما في «تدمر». إن الكلمة هي من الجذر العربي القديم «تإرْ» الذي يعني رأى، شاهد. وإلى الفعل العربي القديم تعود كلمة Theory بمعنى نظرية... الخ.

لقد أقيم أول مسرح في أثينا على أيدي السوريين النازحين حوالي 490 ق.م وهو مسرح أدونيس في جنوب الأكروبول. ويمكن أن نقول في ضوء ما لدينا من معلومات طفيفة، إن المسرح كان ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي: 1 ـ مكان النظارة theatron، وهو عبارة عن سفح تل منحدر قد ركبت فيه مقاعد من الخشب. ويقال إنها انهارت ذات مرة بالمتفرجين، ولذلك استبدلت بها مقاعد من الحجر والرخام، أو مجرد صفوف منحوتة في صخر التل، وتتدرج مع الانحدار الطبيعي له. وكانت هناك مقاعد أمامية مخصصة للكهنة وكبار الموظفين وحكام المسابقة. وكان المقعد الأوسط في الصف الأول مخصصاً لكاهن أدونيس (الذي يدعى Lusius أي المطهّر، أو Eleutherius أي المحرّر)[2].

---

(1) جيمس بريستد، المرجع السابق، ص422,420,414 .

(2) عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص185 – 186 .

فمكان النظارة، كما نرى، هو الذي دعي «تاپترون». اما القاب كاهن أدونيس، فالقول إن الكلمة الأولى lusios لوسيوس تعني المطهّر، صحيح تماماً، إذ هي في القاموس السرياني حسيو = طاهر، بار، قديس، أسقف،،مطران، وهي من الفعل حسي ــ حوسيو = قدّس، طهّر، برّر، زكّى، صفح، غفر، حلّ من الخطيئة. وقد حذفت الحاء ودخلت لام التعريف وصارت «لوسيو» بدلاً من «لْحوسيو»، ومن الكلمة جاء الاسم «لوسا» و«لوسي» و«لوسيو» و«لوشيون» أي الطاهرة والطاهر.

اما الكلمة الثانية «لوثيريوس» والتي فسّرت خطأ بمعنى المحرّر، فهي في الأصل العربي القديم «لْحوتيرو» وتعني: الجليل، المتكبر، المتنعم، وهي في القاموس السرياني من الفعل «حتر» = خطر، تكبر، تعظم، زها، تنعم، تفنق.... ونلاحظ ايضاً اختفاء الحاء في الأصل. وفي «محيط المحيط» الخطير تعني الشريف.

ولما كان أهم مسرح في البلاد التي دعيت «يونانية» هو المسرح الملحق بمعبد ديلوس، فلقد أكدت الدراسات أن كل ما في الجزيرة (حتى تسميتها كما سوف نرى) هو سوري، بما في ذلك المسرح.

لقد كتب الأستاذ ارنست وبل بصدد ذلك يقول: «يمكننا دراسة هذه التأثيرات الشرقية أثناء العهد الهلنستي في أقدم معابد اليونان وهو معبد ابولون في ديلوس.

لقد أبان المؤرخ روسيل أهمية الدور الذي لعبه المهاجرون السوريون والفينيقيون في هذه الجزيرة. وعثر منذ مدة قريبة على وثيقة اثرية فيها لائحة بأسماء شبان من ديلوس معظمهم سوريون. كما أن أكبر منازل الجزيرة، وهو منزل «الخطاف»، كان لأحد التجار السوريين الأغنياء. وكذلك فإن فناناً من جزيرة ارواد صنع لوحاً من الفسيفساء، وهو في منزل «خنزير البحر». على أن كل ما نكر ليس بشيء امام المعبد الذي انشأه السوريون في هذه الجزيرة الصغيرة ووقفوا على آلهتهم. ونلاحظ ان كثيراً من العلماء استغربوا شكله وأوضاعه التي تفترق كثيراً عن شكل واوضاع المعابد اليونانية لما عثر عليه في سنتي 1909 – 1910 . غير أن المعلومات التي توفرت لدينا خلال ثلاثين سنة خلت عن الآثار والأبنية السورية بدّدت هذا الاستغراب، واثبتت انه شبيه

بالمعابد السورية، ولاسيما بمعابد دورا أوروبا.
وبلّت الكتابات التي وجدت فيه على أن أكيوس بن أبولونيوس من مدينة هيرابولي (منبج) من سوريا هو أول من انشأه في سنة 128 - 127 ق.م وأهداه إلى الرب حدد وإلى الربة أتارجاتي. ولا يخفى أنه كان في منبج في هذا الزمن معبد عظيم لهذين الربين ثم اتسع معبد ديلوس في سنة 118 - 117 ق.م، وبين سنتي 112 - 104 ق.م، فشيدت فيه قاعة أكيوس، وعمارة مدخل عظيم بين رواقين ضخمين، وصومعتان، وإيوان، ومسرح، ثم تهدم قسم منه في فاجعتي 69,88 اللتين حلّتا في الجزيرة وتحول إلى أطلال.
.. وقد أنهينا إظهار كامل اجزائه في سنة 1950 ، ومخططه فريد من نوعه. إذ أن جدارين مبنيين بأحجار ضخمة يتتابعان ويحدثان فيما بينهما فراغاً، هو واجهة مسرح مستدير. ولهذا المسرح اثنتا عشرة درجة، تفصل بينهما ستة سلالم كما هو الأمر في كل المسارح اليونانية.. والمسرح أهم أجزاء معبد ديلوس، وهو عنصر أساسي من عناصر المعبد السوري. ويلاحظ أنه لم يوجد في أي معبد من معابد بلاد اليونان (القارية)، على حين أن المعابد السورية ذات المسارح متعددة، ومنها معبد بعل شمين في سيع في حوران..
هذا وقد وجدت مسارح حقيقية في بعض المعابد السورية كمعبد جرش، وأهم هذه المعابد معبد أتارجاتي في دورا أوروبا الذي وجدت فيه قاعة فيها ست درجات، ومعبد أرتميس نانايا في نفس المدينة.. وكذلك عثر على قاعات مدرجة في معابد أرتميس أزاناثكونا، وادونيس..
وصفوة القول إن عناصر معبد ديلوس تلقي نوراً واضحاً على تاريخ الديانات والمعابد السورية. ولا ريب أن القضايا التي يضعها هذا المعبد على بساط البحث ستزداد وضوحاً خلال الاكتشافات الأثرية المقبلة في سوريا»[1]. أما تسمية «ديلوس» نفسها فهي عربية قديمة وتعني المتحركة، المتأرجحة، المتزلزلة، الأرجوحة. وهي في العربية القديمة (في القاموس السرياني) من

---

(1) ارنست وبل، المعبد السوري في ديلوس، مجلة الحوليات (السورية). المجلد 1 ، الجزء 1 ، دمشق، 1951 ، ص140,141,143,144 .

الفعل ديل = تحرك، تردّد، اهتز، تزلزل، تأرجح. ومنه «ديلو»: حركة، زلزلة و«ديلوث»: حركة، زلزلة، اختلاج، أرجوحة.

وتقول المصادر اليونانية إنها كانت جزيرة متأرجحة في المياه إلى أن ثبّتها «زيوس» زوج حيرا. ففي قصة ميلاد «ابوللو» و«أرتميس» نقرأ: «كانت حيرا تغلي بنيران الغيرة والغضب لمغامرات زيوس الجامحة التي لا تقف عند حد، وتصيب كرامتها كأنثى في الصميم. فما إن علمت بعشقه الجديد للربة «لاتو» (اللات = الربة، السيدة) حتى ثار بركانها، وألبّت عليها الآلهة حتى يتخلوا عن مساعدتها وهي حبلى، فيتعرى عشقها المحرم أمام أعين الجميع. وهكذا لم تجد لاتو ملاذاً او مأوى وبطنها تكبر وحملها يثقل، بينما حيرا تسخر منها شامتة، إلى أن جاءها المخاض، فثبّت لها زيوس جزيرة ديلوس العائمة.. فوضعت أبوللو وأرتميس اللذين انتشرت عبادتهما من بعد. فالبشر (هناك) لم يميزوا بين أبناء الآلهة شرعيين كانوا أم ابناء سفاح»[1]. وفي الانيادا نقرأ: «فأتوا أول ما أتوا جزيرة ديلوس التي اعتادت أن تتيه في البحر إلى أن ثبّتها رب القوس الفضية»[2].

لكن ماذا يفيد هذا كله إذا كان القائمون على الآثار في سوريا اليوم لا يقرأون، ولا يهتمون، بل هم أكثر الناس اندفاعاً لأن يطلقوا على كل حجرين كبيرين في سوريا اسم «روماني» أو «هلنستي»!

إن كلام هذا الباحث الأثري واضح، ويضع الأسماء الصحيحة على مسمياتها، ويؤكد ان المسرح إنجاز سوري ارتبط بعبادة الأرباب السوريين، وأن المسارح في سوريا الطبيعية كلها ليست يونانية أو رومانية، وهي موجودة حتى قبل أن توجد الدولة الرومانية، وسواء أكان مسرح بصرى أم مسرح جرش. وأن السوريين هم الذين بنوا المسارح كلها في اليونان وايطاليا وليس العكس، لأن المسرح جزء من عبادتهم الدينية التي نقلوها هم إلى الخارج وليس العكس. لكن القائمين على الآثار في سوريا الذين لا يبخلون على أنفسهم بلقب

---

(1) ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص58 .

(2) فرجيل، الانيادا، ص40 .

«باحث تاريخي» يفرغون فراغهم الثقافي والعلمي على تاريخ الوطن، متلفعين دائماً باليافطة المعروفة: «إنه أسلوب البناء الروماني!»، وكأنهم لم يسمعوا بأن قرابة خمسة عشر امبراطوراً سورياً هم الذين حكموا روما وشادوا بناءها، منهم سبعة أباطرة من حمص وحدها. وأن المعماري السوري الشهير أبولو دور الدمشقي و«ورشته» المعمارية السورية هو الذي قام بتخطيط وتصميم وتنفيذ كل ما تزهو به روماً من آثار اليوم. وفوق هذا وذاك لنسمع تتمة ما يقوله ذلك العالم الآثاري «وبل» حول مسرح بصرى:

«وأبانت أعمال الحفر في الزاوية الشرقية ثمانية أعمدة من الطراز الكورنثي، ومعها بعض أقسام مما كانت تحمله من رفاريف، وخمس قواعد لأعمدة أخرى، وكانت توجد فوق هذه الأعمدة الكورنثية أعمدة دورية. وهذا يخالف ما كان شائعاً في العمارة الرومانية، مع وضع الأعمدة الأخيرة في الأسفل والأولى في الأعلى. ولا يقل أهمية عن ذلك ما اكتشف من طبقة من الممر ما تزال في مكانها أمام جدران الزاوية الشرقية، وجدار المسرح الأوسط، وفي الزاوية الغربية، وهو شيء عديم الوجود في المسارح الرومانية»[1].

فعلى أي شيء يعتمد إذن «موظفو» آثارنا (الفطاحل) في إطلاق التسمية «الرومانية» يميناً وشمالاً حتى لم يتركوا شيئاً لنا في آثارنا؟

أليس واضحاً أن تسمية «أعمدة كورنثية» و«دورية» هي نعوت وضعها الغربيون حين دراستهم للآثار السورية في بلاد اليونان، وقبل أن يتعرفوا على آثارنا، وقد كانوا ينطلقون من الفرضية القائلة بأن حضارة اليونان هي أقدم الحضارات؟ ثم إن التسمية هي نعت للطراز المعماري وليست هوية حضارية لشعب من الشعوب آنذاك.

ثم إن «كورنثا» نفسها بناها السوريون في اليونان، وهي «قورنثا» وتعني الجرة، جرة الربة عشتار المقدسة. وكان هذا الاسم قد أطلقوه أولاً على قورنثا في ليبيا التي صارت «برقة» فيما بعد.

إن «الكورنثي» هو طراز سوري من أساسه. والتسمية لم تكن تعني أحداً غير

---

(1) المرجع نفسه، ص156 .

السوريين في الزمن القديم. ثم إن هذا الطراز «الكورنثي» موجود قبل أن توجد روما.

فكيف صار حتى ذلك الطراز في سوريا رومانيا! ألم يئن الأوان لإزالة كل تلك اليافطات الكاذبة التي تتصدر صروحنا القومية الآثارية المنتشرة في كل مكان من أرض سوريا، ومن متاحفنا التي لا تحوي جميعها كلمة «عربي» أو «سوري»؟

أخيراً نقول: إن المسرح نشأ سورياً، ومرتبطاً بديانة الخصب السورية المركزية، بكل مقوماته وتسمياته التفصيلية. وإن المسرح والعمارة ولدا من رحم عقيدة الخصب العشتارية. ومن سوريا ـ كما سبق أن تأكد لنا ـ انتشر مع العرب السوريين إلى شتى مواقع انتشارهم في العالم. لقد حذق المهندسون السوريون في بناء المعابد والمسارح الملحقة بها في كل مناطق انتشارهم، وخاصة في بلاد اليونان وايطاليا. ولقد برعوا في حل مشكلات الصوت بتصميماتهم الذكية. فقد كانوا يجعلون المسرح كالقمع المفتوح قليلاً في حضن تل أو مجموعة تلال، تقع عادة على تشكيل يصنع الجزء الأكبر من «القمع»، بحيث يصبح تردد الصوت فيه واضحاً إلى حد كبير. فالمشاهد يستطيع أن يجلس في أعلى المدرج، ومع ذلك يسمع بوضوح صوت ورقة يمزقها شخص في ساحة المسرح. إن هذا ما نلمسه في مسرح بصرى حتى هذا اليوم. وليست التسميات الغريبة التي يلحقها «موظفو» الآثار بكل أثر عمراني في سوريا وغيرها سوى دليل آخر، وشاهد يومي، على مدى بؤس المؤسسات الثقافية في الوطن العربي، وعلى «التقزم» الذي يشعر به هؤلاء «الموظفون» أمام المزورين من «العلماء» الأجانب، فينعكس هذا التقزم على تاريخ الأمة بكامله.

يقول فرانز كوفون في كتابه «الديانات الشرقية في الوثنية الرومانية»:

«إنه من الجبال الأوسترية حتى أفواه الدانوب نشر السوريون عبادات أدونيس، واتيس، وبعل، وسيبيل، حتى أن سويسرا نفسها تلقت آثاراً عديدة من هذا التأثير. وعرفت بلاد الغال وأسبانيا وهولندا وافريقيا، إيزيس وعشتار وإيل أولاد الله، وعقيدة البعث.. إننا في كل يوم نكتشف قرابات بين الديانات السلتية والسورية، بين ديانات الكهنة الغاليين وديانات ومزارات العاصي، فالإله الغالي

مباليم» ليس سوى البعل.. إن التشابك الديني السوري القديم يتجاوز ــ في الحقيقة ــ الخيال. إنه يتضاعف من ركام يتحاذى فيه يونانيون وأناضوليون وافريقيون وسكان مابين النهرين، يتكلمون لغة مشتركة هي الآرامية، ثم هم يتابعون الحديث بلهجاتهم أو لغاتهم الاقليمية»[1].

إن موظفي الآثار والاعلام في الوطن العربي يسيئون إلى حقيقتنا التاريخية اكثر من اي شيء آخر بعد أن جعلوا من أنفسهم أدوات صماء. تردّد ما يقوله المغرضون في الخارج فتصبح امتداداً لخصوم هذا التاريخ، لكن في عقر الدار نفسها. فبينما تعلو صيحات الباحثين الموضوعيين في العالم ضد التزوير الحاصل في تاريخ العرب نرى هؤلاء مصرّين على التمسك بجهلهم، وعلى قلب التاريخ رأساً على عقب، حتى صار كل ما خلفه لنا الأجداد «يونانياً» أو «رومانياً» مزعوماً.

ويقول بيير روسي: «لقد بدأنا نرى بجلاء، خلال ظلمات التاريخ ومبتذلات تعليم جامعي مضلل، إلى ذلك النور الذي غمر العالم العربي قبل أن تكون أثينا قد خلقت. ولا نستطيع أن نمنع انفسنا من الضحك أمام ذلك المديح الذي يكيله مستشرقونا إلى العرب لأنهم «نقلوا» إلينا علم الاغريق وتقنيتهم.. ولنخاطر في القول بأنه يلزمنا جيل آخر لنتمكن من قلب هذه المفاهيم الخاطئة إلى عكسها.. وإنه لمن المدهش أن كتبنا المدرسية تعاند في ذلك معتبرة المدنيّة الاغريقية مخلوقة من العدم، ومنبجسة بإعجاز من «العبقرية الهيلينية» دون أن تقيم أي اعتبار لأصولها القانونية الأكيدة.

«وإنه لأمر اكثر إدهاشاً كذلك ان معظم مؤرخينا قد تكلموا عن سيطرة إغريقية على الشرق، بينما كانت قوة المدن اليونانية لدى مقارنتها بالامبراطورية المصرية او السورية لا تعدو كونها مشابهة لإمارة «اندورا» بالقياس للولايات المتحدة الأمريكية.. فماذا يمكن أن تزن اليونان الفقيرة أمام الاقتصاد الزراعي المصري أو السوري الضخم، وأمام هذه التنظيمات الصناعية، والبحرية، والمالية الموطدة في الشرق وسط ملايين العمال، والمهندسين،

---

(1) بيير روسي، المرجع السابق، ص82 – 83 .

والعلماء، الذين تسوسهم وتدير أمورهم دول مركزية منذ عهود قديمة؟ وماذا يمكن أن يعادل، في نظر العلاقات العالمية، ذلك الأثيني الذي رتّب الطبقات في القرن السادس قبل المسيح فجعل الطبقة الأولى التي هي طبقة الاشراف تتضمن الملاّك الذين كان دخلهم 600 مدّ من القمح (600 ديكالتر تقريباً)، والثانية طبقة الفلاحين الذين يملكون جواداً، والثالثة طبقة من يملكون زوجاً من البقر، والأخيرة كانت الذين يؤجرون خدماتهم ولا يملكون شيئاً، وكان ذلك كله لا معنى له أمام مصادر الشرق التي لا تحصى، حيث الذهب والفضة، والحجارة الكريمة كانت مدخرة منذ آلاف السنين على شكل سبائك وتماثيل آلهة، وثروات دول أو معابد، وكانت تؤلف تغطية مالية تتجاوز الخيال[*].

«فليس الفكر الاغريقي شيئاً آخر سوى درس قادم من الشرق، أو عالم صغير، وصدى لآسيا. فالتجربة فيه محكومة بحقيقة أن آسيا لم تستعر شيئاً من الهيلينية، وإنها، على العكس من ذلك، قد أعطتها كل شيء»[1].

(*) إننا نورد بعض ما يقوله أولئك الباحثون المنصفون في الخارج من أجل أن يساعدنا ذلك في عملية «تقبل» الحقيقة لدى الكثيرين ممّن يشعرون بالنقص أمام كل ما هو أجنبي ولا يعرفون كيف يميزون الحقيقة ويستنبطونها بأنفسهم، ثم لا يتقبلونها ولا يستسيغون لها مذاقاً إذا ما قُدمت لهم بكؤوس وطنية.

(1) المرجع نفسه، ص155 - 121,159 .



الحلقة الثانية عشرة

«المركز» ورب العرش والألعاب

الألعاب الأولمبية:

من المواضيع المميزة في التاريخ العربي، والتي أصابها التزوير، موضوع الألعاب الأولمبية.

ومن أجل إجلاء الحقيقة التاريخية لموضوع الألعاب الأولمبية سوف نعمد، كعادتنا، إلى دراستها من النواحي التاريخية والجغرافية والسكانية واللغوية والمنطقية والآثارية.

فقد رأينا فيما تقدم كيف أن العرب الأقدمين اعتقدوا بوجود قوى مدبّرة في كل سماء وفي كل أرض، تدبّر الأمر بإذن ربها الواحد الأحد، أطلقوا عليها مرة اسم «الأرباب»، وتارة اسم «كائنات أثيرية»، وأخرى اسم «الملائكة». وكان «سيد» هذه الأرباب أو رئيسها، يدعى «الأب» أو «الروح» أو «رب الأرباب» أو «رئيس الملائكة».

وفي التراث العربي القديم نجد أن تلك «القوة» منحت القدرة على الخلق، فخلقت الإنسان بإذن الرب الواحد، ونفخت فيه من «روحها». هذه الروح التي نفخت في الإنسان دعاها العرب الأقدمون «با». أما «الروح» الذي هو سيد الأرباب، أو رئيس الملائكة فدعي «آبا» أو «آبو» أي الرب الروح، وليس الرب الوالد. ولما كان العرب يضيفون صوت الميم إلى أول الكلمات المبدوءة بصوت شفوي (كالباء والفاء) فقد صار يسمّى أيضاً «أمبا» (بالفينيقية) و«أمبو» بالسريانية. وتعني الروح المدبّر، أو العرش.

وإذا ما نظرنا إلى معاني كلمة «العرش» في قاموس «محيط المحيط» لوجدنا من بينها أن العَرْش من القوم رئيسهم المدبّر لأمرهم، وأربعة كواكب صغار يقال لها عرش السماك. وعرش الله تعالى المكان الذي يظهر فيه الله تعالى قدرته ومجده على نوع خصوصي. والعرش الأكبر عند الصوفية قلب الإنسان الكامل، والعرش في القاموس عرش الله تعالى ولا يحدّ، او ياقوت أحمر يتلألأ من نور الجبار تعالى.

لقد جمعت هذه المعاني الخط العقائدي التراثي في تواصله التاريخي عند العرب، فقدرة الله تجلت حينما رف «روحه» على الماء، وبدا الخلق الأول للحياة في الماء، فكان «عرشه» على الماء.

وتجلت قدرته على الأرض حينما تجلّى بأركانه الأربعة، والذين دعوا في التراث بكبار الملائكة الأربعة: ميكائيل، اسرافيل، عزرائيل، جبرائيل، ومثلتهم الكواكب الأربعة التي دعيت بـ «عرش السماك». وبأركان البيت الأربعة الذي «كان أول بيت وضع للناس» في بكة، وبـ «الياقوت الأحمر الذي يتلألأ» فوق البيت الأول الذي هو الكعبة، فدعيت تلك «الياقوتة» في التراث العربي بـ «البيت المرفوع» بعد أن ارتفعت من موضعها على الكعبة في الأرض، إلى السماء السابعة، وهذا ما رأيناه في رواية الطبري. والعرش هو قلب الإنسان الكامل، لأن القلب ــ كما مّر معنا ــ لطيفة ربانية ظاهرها العقل أو النفس وباطنها الروح. فالروح هي في القلب، ومن نفخة «الروح»، و«الآب»، «المدبر». والعرش من القوم رئيسهم المدبّر لأمرهم، وهذا ما تواصل في التراث منذ البداية.

إن هذا «الروح»، أو «العرش»، أو «امبو» (وأحياناً امبون) هو الذي أخمد بركان الجبل الأول الذي برز من الماء، وانتصر عليه، ومهد الأرض اليابسة، أي جعلها مهداً، أو مهاداً أو سريراً لخلقه الجديد. فدعاه السوريون «مردوق» (ومردوك، ومردوخ) وتعني الرب الحارس، الرئيس، الإمام، المقدام... الخ.

ومنذ الزمن الموغل في القدم أخذ العرب السوريون يحتفلون بعيد الخلق، أو «الفَطر» أو «الفطرة» أو «تجلي النور» أو «دهوا» (ضحوة)، ويقرنون في تراتيلهم بين خلق الإنسان الأول والانتصار على قوى التدمير المعادية للحياة المتمثلة في ذلك البركان (التنين). فكان الإنسان الأول هو «رب العرش» الجديد الذي أوكل بتدبير الأمر على الأرض بإذن ربه، ودُعي «المبو» وهي مؤلفة من «إيل» أو «ال» بمعنى سيد، رب، و«أمبو» بمعنى عرش، أي: رب العرش.

ولما حكم أورانو جبال المركز «السراة» دعي «المبو» (رب العرش)، وابتنى هناك معبداً على قاعدة مربعة مؤلفاً من ثلاث طبقات، دعيت الأولى جبل إسّا (الأساس)، والأخيرة «الأولمب»، أي جبل رب العرش[1]، وقد وصف هيرودوت هذا الجبل المعبد، وذكر انه كان محرماً على الأغراب دخوله. ودعي عيده آنذاك الـ «أورانيا».

---

(1) أوفيد، مسخ الكائنات، ص60 .

ثم لما تسنم ابنه قرونو سدة السيادة (الربوبية) بعد تغلبه عليه، صار عيد الأولمب مقترناً بقرونو، ودعي الـ «قرونيا».

ولما كان «قرونو» حسب ما نكرته المصادر القديمة، ومنها التاريخ الذي كتبه سانخونياتن، هو أبو كثير من السادة الأشراف الذين دعوا «أرباباً» مثل اوزيريس، وإيزيس، وعشتارتا، وزيوس، ودمارون، وفوصيدون، وأطلس، وغيرهم، وطالت مدة ولايته، فقد بقي عيد الأولمب «رب العرش» مرتبطاً به زمناً طويلاً في سوريا، حتى أنه انتقل إلى روما على أيدي الأباطرة السوريين الذين حكموا روما باسمه دونما تغيير.

وهكذا، فقد انتقل عيد الأولمب (رب العرش) إلى الاحتفال بتنصيب الملوك على عرش البلاد، لأن الملك، في كثير من الأحيان، هو كبير الكهنة الذي له وحده الحق في تمثيل سلطة الرب على الأرض. وكنا قد رأينا كيف أنه في أعياد رأس السنة يقوم الملك بتمثيل دَوْر رب الخصب مع كاهنة عشتار أو مع الملكة، فيؤديان معاً طقوس الجنس المقدس. فكان الاحتفال بالعيد يتضمن رواية قصة بدء الخليقة، ثم تمثيل موت الإله، ثم قيامته من الموت، ثم تبدأ الاحتفالات الصاخبة التي تحوي الرقص والشرب والغناء على أنغام الناي والمزامير وقرع الطبول والدفوف وهزّ الشخاليل، كما كانت تضم أيضاً مباريات في ألعاب القوى من سباق الخيل، والجري، ورفع الأثقال، والمغالبة أو المصارعة، والملاكمة، ورمي الرمح، إلى جانب مباريات في العزف وقول الشعر والخطابة والدبكة والتمثيل.. وغير ذلك.

وقد انتقلت هذه الألعاب مع عقيدة الخصب المركزية إلى وادي النيل أولاً، فاكتشفت فيها كثير من الصور واللوحات والنقوشات التي صوّرت مختلف هذه الألعاب، كما انتقلت إلى قبرص، ثم إلى كريت التي كان سكانها جميعاً من السوريين، وقد رأينا كيف أكد المؤرخون أن اليونانيين كانوا يطلقون على سكان كريت اسم «الفونيقي» أي الفينيقيين. ولن يفيد الباحثين اللغويين الانكليز في شيء «حبسهم» للرقم التي اكتشفوها في كريت منذ بداية هذا القرن وحتى اليوم. فأمرها مكشوف، وقد تحدث عنها ـ كما مرّ معنا ـ كثير من الباحثين بأنها اللغة العربية الفينيقية.

وقد كانت الألعاب في طروادة الفينيقية جزءاً من الاحتفالات. وقد تحدث عنها هوميروس في الألياذا. ونكر كيف أن الطروداييين هم من سلالة طفقير الصوري جدّ دردان. وكان مشهوراً بقوسه كرام. وذكر هوميروس أن الطرواديين كانوا يحتفظون بقوسه، حتى لما أطبق عليهم الخصوم كسر هقتور (البطل الطروادي ابن فريام الملك) قوس طفقير علامة على ضراوة المعركة وعلى الالتحام مع الخصم بالسيوف[1].

وبعد انتصار الآخيين على الطرواديين أقاموا الاحتفالات بالألعاب التي شملت سباق الخيل، والمصارعة، والملاكمة، وغيرها، ووزعوا الجوائز.

وحينما غادر بقية الطرواديين المنهزمين بلدتهم المدمّرة، عرجوا على قرطاجة أولاً، ثم إلى مواقع المستوطنين السوريين القدامى في جنوب إيطاليا. فأقاموا مدن لافينيا (الخصيبة)، والبا (حلبا = المغارة، تيمناً بمغارة عشتار)، ثم روما، وأقاموا الدولة هناك فيما بعد لتنافس المواقع السورية الأخرى، المسيطرة على تجارة البحر المتوسط، بعد أن خلصتهم القبائل الآخية طروادة في الماضي التي كانت مفتاحاً للسيطرة على تجارة البحر الأسود.

وفي الطريق إلى جنوب إيطاليا، عرجوا على أرض صقلية حيث كانت سورية (فينيقية) بكاملها. وهناك خاطب «عنيا» (إنياس) الكاهن جماعته الطرواديين قائلاً: «أما الآن، ونحن في هذه الأرض الصديقة، فلنحرص على التزام الخشوع والوقار في هذا النهار. ولنأخذ على انفسنا عهداً بأننا سنحافظ على إحياء هذا اليوم من كل عام، في ارض ايطاليا إذا ما يسرت لنا الريح الرخاء بلوغها.. فاغتبطوا وامرحوا.. وإذا ما حلّ اليوم التاسع رائقاً جميلاً فإني أود إقامة المباريات في الركض، ورمي النشاب، والصيد بالقوس، والملاكمة، وغيرها، وهلّموا بناء الآن إلى إعداد التضحية»[3].

وكانت الثياب الارجوانية الفينيقية الشهيرة والذهب هي الجوائز للفائزين[4].

---

(1) فرجيل الأنيادا، ص196 .

(2) المرجع نفسه، ص264 – 273 .

(3) المرجع نفسه، ص102 – 103 .

(4) المرجع نفسه، ص104 – 105 .

ومن بين أهم هذه المباريات كانت الفروسية وسباق الخيل والزوارق التي اشتهر بها العرب عامة والسوريون خاصة منذ الزمن الموغل في القدم. ولقد نقل السوريون الطرواديون هذه العادات إلى ايطاليا وعلّموها للسكان هناك لأول مرة منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد. لنتابع ما يقوله فرجيل حول سباق الخيل الذي أقاموه فور وصولهم إلى أرض إيطاليا: «لقد أقبل أسكانيو(*) (ابن الكاهن عنيا) وفتية من رفاقه يمتطون الخيول، وقد طوقت الأكاليل رؤوسهم، وحمل كل منهم نشابتين من خشب الكرز. وعلق بعضهم جعبة على كتفه، وتحلوا جميعاً بعقود من الذهب تنبسط إلى أعالي صدورهم. وقد قسموا إلى ثلاث فرق لكل منها قائد يتبعه منهم اثنا عشر. وكان أحد هؤلاء القواد. فريام ابن فوليت، وقد دعي باسم جده، وهو يمتطي جواداً أدهم مَحَجل القوائم أغرّ الجبين، وثانيهم أتيس حبيب أسكانيو. أما الثالث، وكان أجملهم منظراً، أسكانيو على جواد صيداوي أهدته إياه الملكة ديدو، كما أن أسسيتو [الملك الفينيقي في صقلية] أهدى الآخرين خيولاً صقلية.

ولما أقبل هؤلاء علا الهتاف ودوّى تصفيق الأيدي، وبلغ سرور الطرواديين مداه لرؤيتهم هؤلاء الفتيان يشبهون آباءهم العظام هذا الشبه الشديد. ثم أعطيت الإشارة، فانقسمت الفرق إلى زمر كأنها تقاتل في معركة، يكرّون حيناً ويفرّون حيناً. وقد يتجهون معاً إلى هذه الناحية أو تلك. وتعددت حركاتهم واتجاهاتهم حتى لكأنها تعاريج دهاليز اللابيرانت في كريت. وقد كان لهم من الخفة والرشاقة ما جعلهم أشبه بالدلافين وهي تلهو بين أمواج البحر الكريتي أو بحر افريقيا. وهذا النوع من الرياضة علّمه أسكانيو لقومه حينما بنى مدينة ألبا، وأخذته عنهم مدينة روما الجبارة»(1).

إن الفرسان والمتبارين، كما صار واضحاً، هم من أصل سوري، وخيولهم

---

(1) المرجع نفسه، ص117 – 118 .

(*) «سكانيو»، ويلفظ بالفينيقية «سخانيو»، هو ابن «عنيا» (انياس) كاهن طروادة، ويعني في القاموس السرياني: المسكين، المتروك، المحروم، الذي لا معين له. وقد دعاه أبوه بهذا الاسم لأنه بعد سقوط طروادة كان قد بقي، وهو طفل صغير، منسياً في البيت إلى جانب أمه وجدّه الشيخ المطروح أرضاً لا معين لهم. فعاد إليهم «عنيا» واحتملهم معه. (الانياذا، ص 29).

سورية، وهذا النوع من الرياضة سوري نقلوه إلى ايطاليا وعلّموه للسكان الأصليين هناك فيما بعد. وذلك كله منذ تدمير طروادة السورية على أيدي القبائل السورية الآحينية (الآخويين «الآخيين») الذين كانوا أول من استوطن شبه جزيرة المورة قبل قدموس.

ولما برزت روما على الساحة برزت تحت الحكم السوري في زمن سلالة الملوك الانطونيين أولاً، ثم زمن الأباطرة السوريين الآخرين (ومنهم سبعة من حمص وحدها). فنقلوا معهم تقاليد الاحتفالات الشاملة للألعاب بتسميتها السورية القديمة «الألعاب القرونية» نسبة إلى «قرونو» ابي الآلهة.

وفي الوقت نفسه، ومنذ أن بدأ تحوت يقلد أورانو «ويرسم بالحفر تعابير وجوه الآلهة قرونو وداجان وآخرين الذين هم السمات المقدسة للحروف»[1] ـ على حد تعبير سانخونياتن، فقد صنعت تماثيل الرب أو الملك «قرونو»، ودعي «صلمبو». والتسمية مؤلفة من «صلم» و«أمبو». أما «صلم» فهي في القاموس السرياني تعني: صنم، وثن، تمثال، صورة، وجه، مثال، نموذج، رمز، شخص، اقنوم، إيقونة، خيال... الخ. وقد جرى الابدال بين اللام والنون الشائع في العربية حتى اليوم (كما يقول المصريون «فنجال» بدلاً من «فنجان») فصارت في العربية الحديثة «صنم». و«أمبو» كما كنا قد شرحناها: الروح، العرش، الرب المدبّر للأمر... الخ.

و«صلمبو» (الذي هو تمثال رب العرش) كانت تطلق في سوريا على «قرونو» ثم على «حدد» و«البعل» أيضاً.

يقول جان بابليون: «ولقد اختير اسم «بعل» ليمثل الإله الأكبر أمام العزّى إلهة القمر البابلية التي كان يرمز إليها بالهلال، وتتصدر واجهة معبد الأنطونيين. وكان إله الشمس الذي يموت موتاً فصلياً، وحبيبته التي تندب وفاته وتشهد بعثه، كانا دائماً جزءاً من إرث مشترك في عبادات الشرق، وكانا يحملان اسماء مختلفة باختلاف المناطق. أما في حمص فكانوا يطلقون عليهما اسمي ريمون وسلمبو، وهما اسمان قديمان من مخلفات المفردات الآشورية»[2].

---

(1) يوسف الحوراني، المرجع السابق، ص90 – 91 .

(2) جان بابليون، المرجع السابق، ص13 .

والحقيقة إن التسمية هي «صَلَمبو» كما ذكرنا، أما «ريمون» الذي هو لقب «حدد» وتعني «الراعد» فهي في العربية القديمة «رعمون»، وهي في القاموس السرياني من الفعل رعمْ = رعد، قصف، صعق، هدر، هزم، دوَّى صوت الرعد أو البوق، وقد اختفت العين كالعادة في اللفظ، ثم في الكتابة.

ويضيف جان بابليون: «ثم أتت (إلى روما) الألعاب القرونية عام 204 لتكون مناسبة جديدة تتآلف فيها العائلة الامبراطورية من جديد، سواء كان الدافع إلى ذلك قناعة سبتيمو سفيرو في اتباع اثر ملوك سوريا ومصر وطراقيا الذين كانوا يحيون مثل هذه المناسبات في الماضي، أو أن فكرة الوهيته أصبحت منذ ذلك الوقت جزءاً من شخصيته»[1].

إن في هذا القول دليلاً آخر، واعترافاً صريحاً بأن اصل هذه الألعاب قديم في سوريا ومصر، وكانت تدعى «الألعاب القرونية» نسبت إلى «قرونو» الذي هو «إيل» كما يقول سانخونياتن.

أما انتقال هذه الألعاب إلى بلاد اليونان القارية فقد تم عبر طريقين: الأول عن طريق السوريين في أتيكا (عتيقا)، والآخر عن طريق طيبة في بيوثيا (ارض العشيرة) بلدة قدموس ودعيت هناك بالألعاب البيوثية.

أما دلفي في جبل فرناس (فرنا = الفرن، التنور، البركان) فقد عرفتها بعد انتصار أفولو (أبولو) على الثعبان «فيثون» في الجبل. والكلمة عربية قديمة، وهي في القاموس السرياني «فيثون» وتعني: فتّان، كما تعني بثن، حية رقشاء. والمقصود بها طبعاً ــ البركان الذي كانوا يشبهونه دائماً بالتنين أو الثعبان.

لقد كان الموضوع استنساخاً عقائدياً للفكرة الأصلية من المركز: فكما انتصر مردوك على التنين وحبسه تحت الجبال يهدر ويزمجر (كرمز للجبل البركاني الأول) هكذا فعل أبولو ببركان جبل فرناس وحبسه، وأخذ يدخّن من فوهاته الكثيرة.

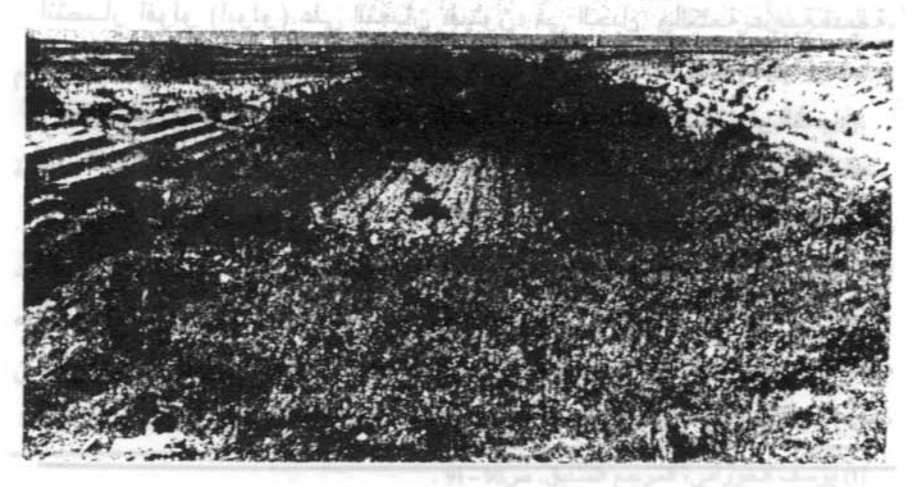
أما من الناحية الآثارية، فقد أجمعت الدراسات الجادة في الغرب على أن ملعب عمريت الأولمبي هو أقدم ملعب أولمبي في العالم بقي إلى اليوم. ولقد أجريت

---

(1) المرجع نفسه، ص114 .

حوله عدة أطروحات للدكتوراه في جامعات الغرب، كان آخرها رسالة الدكتور لبيب بطرس (من لبنان) في جامعة السوربون، أثبتت جميعاً أن ملعب عمريت الأولمبي أقدم من أي ملعب آخر بسبعة قرون على الأقل، وهو يعود إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد.

إن هذا الملعب ما يزال قائماً إلى اليوم بأبعاده ومقاييسه الأولمبية العالمية المعروفة. وسبب بقائه أنه قُدَّ في الصخر بساحته، ومداخله، وسلالمه، ومسبحه الأولمبي ومدرجاته، فلم تتمكن عوادي الزمن من طمس آثاره [لكن مديرية الآثار السورية هي التي تتكفل بهذا الطمس، إذ تركته مهملاً، كما أهملت عمريت نفسها التي تعتبر أقدم مدينة آثارية في العالم منذ عهد عشتار، حيث ما يزال معبدها النموذجي، بسُرته وحوضه المائي وينابيعه، كما مايزال برج بازيقو (البازي، النسر السوري الذي هو شعار الملوك السوريين منذ الزمن الموغل في القدم وحتى اليوم. وبالمقبرة المقطوعة في الصخر، والتي امحَت فيها ملامح الأسود لشدة قدمها. فيرددون دائماً أن عمريت تعود للعهد



ملعب عمريت الأولمبي المنحوت في الصخر. اقدم ملعب أولمبي في العالم

اليوناني، ليتكشف جهلهم المريع وبؤس المؤسسات الثقافية في الوطن العربي إلى درجة التقزم].

ولما كانت اللغة هي أهم عامل في تحديد الهوية القومية للحضارة بشتى مظاهرها، فقد كان لابدّ من التوقف عند بعض مفردات الألعاب الأولمبية من الناحية اللغوية.

لقد شرحنا معنى «أولمب» ونتطرق إلى بعض المفردات الأخرى، علماً أن أحداً لا يستطيع الزعم بأنه يفهم معنى لتلك المفردات إذا لم يعد إلى لغتنا العربية القديمة.

إن البطل الذي كان يحق له الاشتراك في المباريات كان يدعى في سوريا «أتليسو» أو «أتليط» أو «أطليس» بالإبدال، والكلمة في القاموس السرياني تعني: البطل، المجاهد، المصارع، المكافح، القوي، المجيد، المنتصر. وفي العربية الحديثة استمرت الكلمة في «الأثل» و«الأثلة» وتعني: المجد، الغلبة، الانتصار، الشرف. والأثيل المجيد، الشريف، المنتصر.

يقول ولد ديورانت: «ولم يكن يسمح لغير اليونان الأحرار بالاشتراك في مباريات الألعاب الأولمبية. وكان المتبارون Athlete (المشتقة من Athlos بمعنى مباراة) يختارون بعد اختبارات محلية وبلدية يستبعد فيها غير اللائقين..»[1].

وكانت منتشرة في أتيكا (عتيقا) التي رأينا كيف أكد جميع المؤرخين أن سكانها كانوا من السوريين الذين استثمروا فيها مناجم الفضة لأول مرة، إذ لم تكن صالحة للسكن، لأنها أرض صخرية، عتيقة لا تصلح للزراعة أو لبناء المدن والمرافئ. كان ذلك قبل أن تعرف أثينا تلك الألعاب بزمن طويل. «فكان كل قسم من أقسام أتيكا العشرة أربعة وعشرون رجلاً يختارون من بين أصحّ السكان أجساماً وأقواهم بنية وأجملهم منظراً.. وتشمل الألعاب سباق العربات، وسباق المشاعل، وسباق التجذيف، ومباريات موسيقية في الغناء والعزف على القيثارة، والمزمار، والناي، والرقص»[2].

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، حياة اليونان، ص389.

(2) المرجع نفسه، ص387 – 388.



سوريون يعلمون الموسيقى في اليونان. وترى صورة القيثارات السورية الشهيرة التي بشكل راس ثور، وصورة الدف أو الشخليلة معلقة. وهي على كوب فخاري يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

ولقد علمنا كيف أن السوريين هم وحدهم كانوا أصحاب السفن والمسيطرين على التجارة في البحار، وهم أول من أبدع الآلات الموسيقية، وأول من وضع نوتة موسيقية في التاريخ وذلك منذ الألف الثاني قبل الميلاد. وكانت القيثارة البابلية بأوتارها العشرة منذ الألف الرابع قبل الميلاد، وهم الذين نقلوا إلى بلاد اليونان الاحتفالات الدينية بكل ملحقاتها.

أما ما يذكره ديورانت حول معنى كلمة «أثليس» فهو مجرد تخمين لا يعتمد على

اي اساس لغوي في اية لغة اخرى في العالم.

اما المفردة الأساسية الأخرى والمدعوّة بسباق «الماراثون» فهي تسمية عربية قديمة. وأصل الكلمة هي «مَرَهْطون»، وهي في القاموس السرياني من الفعل رهطْ مَرَهْطون = ركض، عدا، اسرع، بادر، جرى، عبر، مضى، مرّ، اجتاز، سعى، جدّ، اجتهد. راهوط = راكض، جارٍ، مسرع.. الخ. رهوطو = عدّاء، رسول، بريد. مرهطو، ومرهطون = عدّاء، راكض؛ مضمار الجري، مضمار السباق.. الخ. ثم تحولت الطاء (طيتا) إلى ثاء (ثيتا) في بلاد اليونان (مثل «طيبة» صار اسمها «ثيبا» وهي بلدة قدموس) فصارت الكلمة فيما بعد «مَرَهثون» Marahthon وسقطت الهاء في اللفظ لأنها صوت (اخرس) بعد حرف صوتي، لا يكاد يُسمع حتى لو لفظ. ولقد أطلق السوريون هذا الاسم على السهل الذي كان يمكن أن يستخدموه مضماراً للسباق وإعداء الخيل بين تلك الجبال المتراصة والمتقاربة. فأطلقوا عليه اسم سهل مَرَهْطون Marahthon أي سهل سباق الخيل. وفيه جرت إحدى المعارك بينهم وبين الجيش الفارسي. وليس لكلمة ماراثون Marathon أي معنى آخر بأية لغة اخرى في العالم، ومنها اليونانية والايطالية التي صار يتكلمها ابناء اليونان وايطاليا منذ ما يقرب من الفي سنة.

وهكذا تبين لنا كيف ان الألعاب الأولمبية هي عربية سورية مركزية اصلاً، وتقليداً، إذ ارتبطت، منذ البداية، بعقيدة الخصب العربية السورية، كما ثبت ذلك أيضاً من النواحي السكانية، والتاريخية، والآثارية، واللغوية، والمنطقية.



الحلقة الثالثة عشرة

السيد المسيح
وإشكالية الزمن عند المؤرخين



ومن اجل مناقشة هذه الاشكالية بروية وموضوعية لابدّ من التوقف عندها قبل ان نتجاوزها لمتابعة موضوعنا الحالي، وذلك لما لها من الأهمية التاريخية البالغة، خاصة وقد صار هذا التاريخ المفترض لميلاد السيد المسيح نقطة فاصلة بين ما قبله وما بعده من جهة، كما ان علم الكرونولوجيا هو الذي يحدّد الزمن للحدث التاريخي، وبالتالي فإن اي تزوير فيه سوف ينعكس تزويراً على عملية التاريخ ككل من جهة ثانية.

إشكالية زمن المسيح عند المؤرخين:

من أجل مناقشة هذه الاشكالية، ومحاولة الوصول فيها إلى نتيجة مقبولة، فإننا سوف نتبع المنهجية الثابتة التي عودنا عليها القارىء، والمنطلقة أساساً من فهمنا للتاريخ كعلم موسوعي شمولي، وبالتالي، فإننا سوف نعتمد كل ما يتوفر بين ايدينا من مصادر ووثائق، ثم نُخضعها لعملية مناقشة شاملة مستعينين بالعلوم المساعدة الأخرى.

وإن اول ما سوف نقوم به الآن هو استعراض موجز لمجمل الآراء التي ظلت جميعاً مختلفة ومتناقضة إلى يومنا هذا. وتجدر بنا الإشارة هنا إلى أن معظم الباحثين في الغرب استعرضوا هذه الآراء، لكنهم، بدلاً من أن يفندوها، ويمحصوها، ويخلصوا إلى نتيجة منطقية ومقبولة كنا نراهم، في معظمهم، ينحرفون عن جادة البحث الحقيقية ليطلعوا علينا بنتيجة مجحفة: هي إما التشكيك بوجود السيد المسيح أصلاً، أو بنكران وجوده.

اما نحن فإن ثقتنا بمصادر تراثنا العربي كبيرة وعظيمة. وليس يتطرق الشك إلى اي منا، كما لم يتطرق الشك إلى أي من أعلامنا وباحثينا ومؤرخينا، بأن الوجود التاريخي لعيسى المسيح هو وجود حقيقي وفعلي، ترك آثاره ليس على المنطقة العربية وحدها بل على العالم بأسره.

وإذا كان الغرب قد تطفل على كتابة التاريخ، فاعمل معظم الباحثين فيه تزويراً وتشويهاً منذ أن انتقلت إلى هناك مفاتيح العلم والتكنيك، فاعتقدوا أن عليهم أن يملكوا التاريخ القديم أيضاً، فإنه صار لزاماً علينا اليوم أن نعيد الأمور إلى

نصابها، ونعيد بأيدينا كتابة تاريخنا الذي هو تاريخ التمدن البشري على هذا الكوكب.

ولقد وجدنا في ما يقوله وينقله ويستعرضه المؤرخ الأمريكي ول ديورانت حول السيد المسيح صورة حقيقية تجسّد الكثير من واقع المسألة كما تعامل معها المؤرخون والباحثون في الغرب.

يقول ول ديورانت:

«هل وجد المسيح حقاً؟ أو أن قصة حياة مؤسس المسيحية وثمرة أحزان البشرية وخيلائها وآمالها أسطورة من الأساطير شبيهة بخرافات كريشنا، وأوزيريس، وأتيس، وأدونيس، وديونيسس، ومثرا؟ لقد كان بولنجبرك والملتفون حوله، وهم جماعة ارتاح لأفكارهم فولتير نفسه، يقولون في مجالسهم الخاصة إن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق. وجهر فولني Volney بهذا الشك نفسه في كتابه «خرائب الامبراطورية» الذي نشره في عام 1791. ولما التقى نابليون في عام 1808 بـ «فيلاند» العالم الألماني لم يسأله القائد الفاتح سؤالاً تافهاً في السياسة او الحرب، بل سأله هل يؤمن بتاريخية المسيح. ولقد كان من أعظم ميادين نشاط العقل الإنساني في العصر الحديث وأبعدها أثراً ـ ميدان «النقد الأعلى» للكتاب المقدس ـ التهجم الشديد على صحته وصدق روايته.. وربما أدت هذه الأبحاث على مر الأيام إلى ثورة في التفكير لا تقل شأناً عن الثورة التي أحدثتها المسيحية نفسها. وقد دارت رحى أولى المعارك في هذه الحرب التي دامت مائتي عام في صمت وسكون. وكان الذي أدارها هو هرمان ريمارس أستاذ اللغات الشرقية في جامعة هامبرج. فقد ترك بعد وفاته في عام 1768 مخطوطاً عن حياة المسيح يشتمل على 1400 صفحة حرص على ألاّ ينشره في أثناء حياته. وبعد ست سنين من ذلك الوقت نشر جتهولد ليسينج أجزاء من هذا المخطوط.. وفي عام 1796 أشار «هردر» إلى ما بين مسيح متى، ومرقص، ولوقا، ومسيح إنجيل يوحنا من فوارق لا يمكن التوفيق بينها.. ثم جاء دافيد شتراوس (1834 – 1836) في كتابه عن حياة المسيح. وهو كتاب عظيم الأثر في التاريخ، فرفض ما حاوله بولس من توفيق بين المعجزات والعلل الطبيعية، وقال إن ما في الأناجيل من خوارق الطبيعة

يجب أن يعدّ من الأساطير الخرافية، وإن حياة المسيح الحقيقية يجب أن تعاد كتابتها بعد أن تحذف منها هذه العناصر أياً كانت صورها. وقد أثارت مجلدات شتراوس الضخمة عاصفة قوية في التفكير الألماني دامت جيلاً من الزمان. وفي نفس العام الذي ظهر فيه كتاب شتراوس هاجم فرديناند كرستيان بور رسائل بولس وقال إنها كلها مدسوسة عليه عدا (بعضها).. وفي عام 1840 بدأ برونو بور سلسلة من الكتب الجدلية الحماسية يبغي بها أن يثبت أن يسوع لايعدو أن يكون أسطورة من الأساطير، أو تجسيداً لطقس من الطقوس نشأ في القرن الثاني من مزيج من الأديان.. وفي هذه الأثناء وصلت المدرسة الهولندية ـ مدرسة بيرسن، ونابر، ومتثاس، بالحركة إلى أبعد حدودها إذ أنكرت بعد بحوث مضنية حقيقة المسيح التاريخية... وفي انجلترا أدلى و.ب.سميث، وج.م. روبرتسن بحجج من هذا النوع أنكرا فيها وجود المسيح. وهكذا بدا أن الجدل الذي دام مائتي عام سينتهي إلى إفناء شخصية المسيح إفناءً تاماً»[1].

هذا بعض مما استعرضه ول ديورانت من وجهات النظر في الغرب حول تاريخية عيسى المسيح.

أما بشأن المصادر التي يمكن للباحث ان يعتمد عليها من أجل تحقيق الوجود التاريخي للمسيح في زمن محدد فيقول:

«وبعد، فما هي الأدلة التي تثبت وجود االمسيح؟ إن أقدم إشارة غير مسيحية إليه هي التي وردت في كتاب «قدم اليهود» ليوسيفوس (93م؟): «وفي ذلك الوقت كان يعيش يسوع، وهو رجل من رجال الدين، إذا جاز أن نسميه رجلاً، لأنه كان يأتي بأعمال عجيبة. ويعلم الناس، ويتلقى الحقيقة وهو مغتبط. وقد اتبعه كثيرون من اليهود وكثيرون من اليونان. لقد كان هو المسيح». ويتابع ول ديورانت: «قد تنطوي هذه السطور العجيبة على أصل صادق صحيح. ولكن هذا الثناء العظيم الذي يثني به يهودي على المسيح يريد به الزلفى للرومان أو اليهود، وكان كلاهما يناصبان المسيحية العداء في ذلك الوقت، نقول: إن هذا الثناء لمما يبعث الريبة في هذه الفترة، ولذلك يرفضها علماء المسيحية، ولا

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، الحضارة الرومانية، عصر الإيمان، المجلد 11 – 12 ، ص202 – 204 .

يكادون يشكون في أنها مدسوسة على يوسفوس...
وأقدم ما لدينا من إشارات إلى المسيح في أدب الوثنيين ماورد في خطاب كتبه بليني الأصغر (حوالي 110م) يستشير به تراجان عمّا يعامل به الكرستياني. وبعد خمس سنين من ذلك الوقت وصف تاستس اضطهاد نيرون للكرستياني في روما.. ويذكر سوتونيوس (125م) خبر هذا الاضطهاد نفسه.. وهذه الإشارات كلها تثبت وجود المسيحيين لا المسيح نفسه. ولكننا إذا لم نسلّم بوجود المسيح فلا مناص لنا من أن نأخذ بالفرض الضعيف جداً، وهو أن شخصية يسوع قد اخترعت اختراعاً في جيل واحد..
أما الأدلة المسيحية على وجود المسيح فتبدأ بالرسائل المعزوة إلى القديس بوليس. وبعض هذه الرسائل لا يعرف كاتبها معرفة أكيدة، ومنها عدة رسائل تؤرخ بعام 64م، ولكنها كتبت، في الحقيقة، بعد ذلك التاريخ....
«وترجع أقدم النسخ التي لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث.
أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كتبت بين عامي 60 – 120م، ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان لأخطاء في النقل، ولربما تعرضت أيضاً لتحريف مقصود يراد به التوفيق بينها وبين الطائفة التي ينتمي إليها الناسخ وأغراضها. والكتّاب الذين عاشوا قبل نهاية القرن الأول الميلادي لا ينقلون قط شيئاً عن العهد الجديد، بل كل ما ينقلونه مأخوذ من العهد القديم، ولسنا نجد إشارة لإنجيل مسيحي قبل عام 150م إلا في كتابات فافياس الذي كتب في عام 135 يقول: إن يوحنا الأكبر، وهو شخصية لم يستطع الاستدلال على صاحبها ـ قال إن مرقص ألف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس...»[1].
«وتقول الرواية المأخوذ بها إن إنجيل متى أقدم الأناجيل كلها.. وأنه كتب في الأصل بالآرامية، ولكنه لم يصل إلينا إلا باللغة اليونانية.. وإن النقاد يميلون إلى القول بأنه من تأليف أحد أتباع متّى، وليس من أقوال «العشار» نفسه»[2].
أما إنجيل يوحنا «فلا يدعي الإنجيل الرابع أنه ترجمه ليسوع، بل هو عرض

---

(1) المرجع نفسه، ص204 – 207 .

(2) المرجع نفسه، ص208 .

للمسيح من وجهة النظر اللاهوتية بوصفه كلمة الله، وخالق العالم، ومنقذ البشرية، وهو يناقض الأناجيل الأخرى في كثير من التفاصيل وفي الصورة العامة التي يرسمها للمسيح. وإن ما يصطبغ به الكتاب من نزعة قريبة من نزعة القائلين بأن الخلاص لا يكون بالإيمان بل بالمعرفة، وما فيه من تأكيد للآراء الميتافيزيقية قد جعل الكثيرين من الباحثين في الدين المسيحي يشكّون في صدق القول بأن واضعه هو الرسول يوحنا..

«وملاك القول: إن ثمة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر، وأن فيها نقطاً تاريخية مشكوكاً في صحتها، وكثيراً من القصص الباعثة على الريبة والشبهة بما يروى عن آلهة الوثنيين، وكثيراً من الحوادث التي يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة في العهد القديم، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها تقرير أساس تاريخي لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة أو طقس متأخر من طقوسها. لقد كان المبشرون بالإنجيل يرون كما يرى شيشرون، وسالست، وتاستس أن التاريخ وسيلة لنشر المبادىء الخلقية السامية. ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب قد تعرضت لما تتعرض له ذاكرة الأميّين من ضعف وعيوب، ولما يرتكبه النساخ من أخطاء أو «تصحيح»[1].

أما حول الرسائل فيقول: «ينزع النقاد إلى الاعتقاد بصحة معظم ما جاء في رسالة بطرس الأولى، وهي احدى الرسائل السبع الواردة في العهد الجديد معزوة إلى الرسل الاثني عشر، وتنزع كذلك إلى القول بأن صاحب رسالات يوحنا هو نفسه صاحب الإنجيل الرابع الذي لا يزال مثاراً للنزاع. أما باقي الرسائل فيرفضونها لأنهم يشكّون كثيراً في صحتها[2]».

أما ما يتعلق بزمن ميلاد المسيح فسوف نستعرض بعضاً من أقوال المؤرخين التي لا ينظمها شيء:

«إن الذي أنشأ التقويم الميلادي هو «دينيز الصغير» (المتوفى عام 540م)، وذلك

---

(1) المرجع نفسه، ص204 – 210 .

(2) المرجع نفسه، ص242 .

عام 525م. وقد عاش في روما، وحدد تاريخ ميلاد المسيح بالنسبة لتأسيس هذه المدينة»[1].

وبناء على هذا فإن كل التواريخ المفترضة حتى ذلك التاريخ هي موضوعة حديثاً، أي بعد القرن السادس الذي عاش فيه دينيز الصغير، ومشكوك في صحتها.

«ولسنا نعرف اليوم الذي ولد فيه بالتحديد. وينقل لنا كلمنت الاسكندري (حوالي عام 100 م) آراء مختلفة في هذا الموضوع كانت منتشرة في ايامه، فيقول: إن بعض المؤرخين يحدّده باليوم التاسع عشر من نيسان (ابريل)، وبعضهم بالعاشر من آيار (مايو)، وإنه هو يحدّده بالسابع عشر من نوفمبر من العام الثالث قبل الميلاد. وكان المسيحيون الشرقيون يحتفلون بمولد المسيح في اليوم السادس من شهر كانون الثاني منذ القرن الثاني بعد الميلاد. وفي عام 354 احتفلت بعض الكنائس الغربية، ومنها كنيسة روما، بذكرى مولد المسيح في اليوم الخامس والعشرين من كانون الأول (نوفمبر)، وكان هذا التاريخ قد عدّ خطأ يوم الانقلاب الشتائي الذي يبدأ النهار بعده يطول. وكان قبل هذا يحتفل فيه بعيد «ميثرا»... واستمسكت الكنائس الشرقية وقتاً باليوم السادس من كانون الثاني، واتهمت أخواتها الغربيات بالوثنية وبعبادة الشمس، ولكن لم يكد يختتم القرن الرابع حتى اتخذ يوم الخامس والعشرون من كانون الأول عيداً للميلاد في الشرق ايضاً»[2].

بعد هذا كله آن لنا الآن ان نبدأ المناقشة انطلاقاً من الأرضية التالية:

1 . إن الأناجيل لم تحدّد لنا زمن ميلاد السيد المسيح.

2 . إن عام ميلاده المعتمد اليوم وضع في القرن السادس بعد ميلاده المفترض دون أن يقوم على أساس.

3 . إن الاختلاف في يوم الميلاد اختلاف بعيد يدور مابين الشتاء والصيف والربيع.

---

(1) الدكتورة ليلى الصباغ، دراسة في منهجية البحث التاريخي، ص123 .

(2) ول ديورانت، المرجع السابق، ص212 – 213 .

4 . إن يوم الخامس والعشرين من كانون الأول هو يوم خلق الإنسان (الطفل الإلهي) الأول في التراث العربي القديم. يقول جيمس فريزر: «وفي معابد الخصب الكنعانية كان ميلاد الإله الابن يعلن بصرخة ابتهاج عالية عند منتصف الليل: «هاهي العذراء تلد ابناً والنور ينتشر» وذلك عند منتصف ليلة الخامس والعشرين من كانون الأول (ديسمبر)»[1].

وكان الأنباط في سوريا يحتفلون بهذا اليوم: «وذو الشرى من أصنام ازد السراة، ومن معبودات الأنباط في البتراء. بل هو أشهر معبوداتهم ويسمونه دوشر. يقول الدكتور صالح أحمد العلي عنه: «يبدو أن اسمه مشتق من جبل السراة. وقد عبده الأنباط، وسمّوا كثيراً من اولادهم به، كعبد ذو شري.

وكان عندهم صخرة مربعة، ارتفاعها أربعة أقدام، وطولها قدمان، ويسفح عليها أو امامها دم الضحايا. ويقول إيفانوس: إنه كان يقام لها عيد في 25 كانون الأول أي يوم الانقلاب الشتوي»[2].

ويلاحظ بسهولة كيف أن هذا العيد مرتبط بالمركز الأول في جبال السراة، ومقترن بالصخرة المقدسة.

ومن سوريا انتقل مع عقيدة الخصب العربية السورية إلى شتى أرجاء المعمورة. ولقد كنا قد شرحنا كيف أن هذا اليوم في التراث العربي القديم هو يوم «الفطر» أي الخلق، الذي يبدأ عند تمام الشهر التاسع من بدء العام الذي كان في بداية الربيع (25 آذار)، الذي تبدأ فيه الاحتفالات بأعياد رأس السنة السوري الذي عمَّموه على البشرية، كما عمموا كل شيء غيره، وظلت البشرية تحتفل به في بداية الربيع حتى وقت قريب من هذا القرن. «فقد كانت السنة تبدأ في انكلترا في 25 آذار لا في الأول من كانون الثاني،... وفي عام 1572 نفسه الذي تبنّت فيه انكلترا التقويم الغريغوري جعلت بداية السنة لديها هو الفاتح من كانون الثاني، وحتى مرحلة قريبة جرت العادة في انكلترا أن يسجل تاريخ الوثائق بسنين مزدوجة بالنسبة لتأريخ الأحداث القائمة بين الأول من شهر

. (1) James Frazer, The Golden Bough P.416

(2) انظر: الدكتور صالح أحمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ص190 ، وحمد الجاسر، المرجع السابق، ص334 – 335 .

كانون الثاني والرابع والعشرين من آذار. ولم تأخذ روسيا بالتقويم الغريغوري إلا في عام 1918 ، واليونان في عام 1923 . ويمكن النظر إلى هذا التقويم اليوم على أنه يستخدم من قبل الجزء الأكبر من العالم، فالتقاويم القديمة أهملت، ولم تعد لها قيمتها إلا في الطقوس والأعياد والشعائر الدينية»[1].

إن الطقوس والأعياد في العالم اليوم بقيت على طقوس وأعياد وتقاويم ديانة الخصب العربية السورية القديمة. وهكذا، فإننا في مسألة تاريخ ميلاد السيد المسيح نقف أمام مجموعة من الافتراضات المغلوطة التي لا تقوم على أساس. وفوق هذا فإننا نواجه واقع انعدام وجود أية وثيقة تاريخية يمكن الركون إليها.

ولما كان لا يخامرنا الشك لحظة في تاريخية عيسى المسيح، خاصة وأن مصادر التراث العربي تؤكدها، كما يؤكدها القرآن الكريم، فلن نعدم الوسائل في محاولة استنباط فترة وجود السيد المسيح من خلال ما هو متوفر لدينا مستندين إلى ما قد تقدّمه بعض العلوم المساعدة الأخرى لعلم التاريخ، ومن بينها علم المنطق.

وجدير هنا أن نذكّر بأن الغرب كان قد زوّر جغرافيا أحداث التوراة والانجيل. فنقلها من مواقعها في مغاور جبل غامد من شبه جزيرة العرب إلى فلسطين لأسباب وأغراض سياسية واستعمارية مكشوفة، ثم لمّا بدأ يدرس هذه الجغرافيا المزّورة لم يستطع تقبل ما يزدحم فيها من تناقضات قبيحة تربك كل عقل صحيح. وعوضاً من أن يعود إلى تصحيح ما سبق أن زوّره فقد أخذ يعلن لا معقولية الأحداث. ففي منتصف القرن التاسع عشر أسست «الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية» بهدف دراسة طبيعة ومناخ الأرض التي ترغب بريطانيا ضمّها لمستعمراتها. وهذه الجمعية ما لبثت أن تطور عملها من المسألة المناخية والجغرافية إلى خدمة الصهيونية. فقد أسس اليهودي الثري «شابيرا» «البنك الملّي اليهودي» الذي انبثق عنه العديد من الهيئات المالية مثل «صندوق اكتشاف فلسطين» الذي، بدوره، تعاقد مع الجمعية الجغرافية

---

(1) الدكتورة ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص128 – 129 .

البريطانية لدراسة مناخ وجغرافيا بلاد الشام: سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن. كما ساهم بتمويل تكاليف الدراسات الجغرافية التي قامت بها الجمعية البريطانية بغاية وضع «جغرافيا الكتاب المقدس»، ووضع خارطة للأماكن التي دارت فيها أحداث الكتاب المقدس، العهد القديم والعهد الجديد، وتغيير أسماء المدن والقرى العربية في فلسطين وغيرها إلى أسماء ما دعوه حديثاً بـ «عبرية»، أو إسقاط بعض الأحداث على أسماء المواقع التي تتشابه مع الأسماء الواردة في التوراة.

ونتيجة لتقرير الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية وضع «أطلس» و«قاموس الكتاب المقدس»، وبذلك ثبتت المفاهيم التوراتية بذهن الغرب، مما خلق أساساً معنوياً لأن يأخذ دعم الغرب لليهود بعداً جديداً هو ما دعي بالبعد التوراتي.

لقد اعتدنا على «وقفات» الباحثين في الغرب في الطريق المسدود أمام ما قاموا هم أنفسهم بتزويره. ولقد صحّحنا في كتابنا الثاني «العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود» الجغرافيا المزورة لأحداث التوراة والانجيل. وها نحن مرة أخرى نقف أمام ضرورة تصحيح تاريخ السيد المسيح.

إنه، نتيجة لهذا الشك في التآريخ القائمة على أساس ميلاد السيد المسيح المختَرَع الذي يعاني منه الباحثون في الغرب، فقد قامت عدة محاولات في العالم الغربي من أجل وضع علم حساب السنين بدقة على قاعدة تاريخية منطقية وصحيحة. نذكر منها محاولة سكاليجر في القرن السادس عشر الذي وضع كتابه «في تصحيح الزمن» لهذه الغاية. «وبسبب الخلاف الذي حدث عام 1947 وما بعده حول نسبة كتاب «أمور فلسفية» لـ «هيبوليت دو روم» فقد اضطر المختلفون إلى الرجوع إلى قوائم أعياد الفصح التاريخية، وتوالي الملوك الفرس، وقائمة أجداد المسيح»(1).

ونحن هنا لن نألو جهداً في الرجوع إلى قائمة أجداد المسيح وإلى كل المصادر العربية وغير العربية ممّا يمكن أن يوفّر لنا شيئاً حقيقياً يمكن الاعتماد عليه

---

(1) الدكتورة ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص125 .

في تحديد زمن عيسى المسيح.
لنبدأ الآن بما كنا قد وصلنا إليه:

1 . إنه بموجب «الفترات الألفية» التي أكدتها مصادر التراث العربي جميعاً، بدءاً من قدامى العرب السوريين والمصريين وانتهاء بالقرآن والانجيل والتوراة، يكون زمن السيد المسيح حوالي 360 قبل التاريخ الشائع حالياً لميلاده.

2 . إن هذا التاريخ تحديداً هو الذي نقله العرب السوريون (السريان) شرقاً إلى الهند، فاعتمده الهنود الذين يتحدثون عن ميلاده المعجز، وظهور النجم، وبشارته، وكرازته، ثم صلبه وقيامته في اليوم الثالث في تلك الفترة تحديداً، ودعوه كريشنا، ومن الثابت اليوم لدى كل الباحثين الموضوعيين أن حضارة الهند الكتابية، والتي بدأت في القرن الخامس قبل الميلاد هي عربية سريانية، كما أن حضارة اليونان المفاجئة في القرن الخامس قبل الميلاد هي عربية فينيقية بزغت فجأة نتيجة لاجتياح القبائل الفارسية لبابل، فاندفع المثقفون السوريون إلى مستوطناتهم في الشرق والغرب إلى أن تم دحر الفرس، فخلت الهند كما خلت اليونان فجأة. (وهذا ما سوف يأتي مفصلاً في كتابنا الرابع).

3 . لوائح النسب ونحن هنا إذا ما عدنا إلى قائمة أجداد المسيح، كما سجلتها لنا الأناجيل، ودرسناها علمياً كما ينبغي أن تدرس قوائم النسب المفترض صحتها، (وهذا ما كنا قد قمنا به لمعرفة زمن آدم الرسول، ونوح، وإبراهيم في كتابنا الأول «تاريخ سوريا القديم، تصحيح وتحرير»)، فإننا سوف نجد أنفسنا أمام صفحة النسب التالية: في الاصحاح الأول من إنجيل متّى نجد لوحة النسب الممتدة من ابراهيم إلى «يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع» تضم 42 اسماً، قسمها الكاتب إلى ثلاثة أقسام فقال: «فجميع الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة عشر جيلاً، ومن داود إلى سبي بابل أربعة عشر جيلاً، ومن سبي بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلاً» (متّى 1 : 17).

وإن من المتعارف عليه أن يُجعل القرن (الذي هو مائة عام) أربعة أجيال نموذجية (مثالية) وثلاثة أجيال شبه مثالية. وهذا يعني أن نجعل السنّ المثالي لزواج الرجل هو سن الخامسة والعشرين. فإن من يتزوج في الخامسة والعشرين، ويزوج ابنه، ثم حفيده في هذه السن أيضاً وينجبون أولاداً دونما

عوائق، يكون عنده، حين بلوغه سنّ المائة، ولد في الخامسة والسبعين، وحفيد في الخمسين، وابن للحفيد في الخامسة والعشرين. وبهذا يكون القرن الواحد أربعة أجيال.

فإذا ما طبقنا هذا السن المثالي للجيل (25 سنة) على أبناء ابراهيم (علماً أنهم جميعاً من البدو العرب الآراميين، ومعروف أن البدو يتزوجون وينجبون قبل هذا السن بكثير) يكون لدينا 42 اسماً (جيلاً) يزيد الواحد منهم الآخر 25 سنة. فيكون الزمن مابين ابراهيم وعيسى المسيح هو 25x42 = 1050 سنة. ولو أننا أخذنا بالاعتبار السن الوسطي للانجاب عند البدو الذين يتزوجون في مراحل من السن أبكر وجعلنا سن الانجاب المثالي لديهم هو 20 سنة لنتج لدينا عدد من السنين أقل أي 20x42 = 840 سنة مابين ابراهيم وعيسى. ومع هذا فنحن سوف نعتمد هنا الجيل شبه المثالي (أي 30 عاماً) آخذين بعين الاعتبار أن بعضاً من أولئك الآباء لم ينجبوا إلا في سن الشيخوخة كابراهيم وزكريا، اللذين حدثنا عنهما القرآن الكريم، مع افتراض وجود غيرهما، فيكون الناتج هو 30x42 = 1260 سنة، هو الزمن مابين ابراهيم وعيسى.

وإذا ما علمنا أن نسب موسى في كل المصادر العربية هو موسى بن عمران بن يصهر بن أقهات بن لاوي بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم اتضح لنا أن 7 أجداد يفصلون بينه وبين ابراهيم، وبالتالي فإن الزمن بين موسى وابراهيم هو 30X7 = 210 أعوام.

عليه يكون الزمن الفاصل بين موسى وعيسى هو 1260 – 210 = 1050 عاماً. إنها الفترة التقريبية الصحيحة فعلاً، أي حوالي الف سنة قمرية.

ما تقوله المصادر الأخرى:

آ ـ المصادر العربية:

1 . لقد جعل المؤرخون الغربيون تاريخ غلبة الاسكندر على الفرس في بابل عام 333 قبل الميلاد المفترض للمسيح[1] (وهو أحد التواريخ التي وضعت

---

(1) فيليب حتي، المرجع السابق، ص253 .

اعتباطاً). ومع افتراض هذا التاريخ تقريبياً فإننا سوف نعود إلى ما يذكره لنا المؤرخون العرب.

إن من المعروف أن الفرس كانوا مجموعة من القبائل البدوية الرعوية حينما غزوا بابل وتملكوا عليها، وهذا ما أكده هيرودوت. ثم ما أن استعيدت منهم بابل والمنطقة كلها حتى عادوا إلى قبائلهم فملك عليهم تسعون ملكاً على تسعين قبيلة[1]، وهذا ما دعي بحكم «ملوك الطوائف»، وأول أولئك الملوك أشك بن جزه وأسرته من بعده، ودعي حكمهم بحكم الأشكانيين.

يقول الطبري: «ويقال إن عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم ولد بأوري شليم بعد إحدى وخمسين سنة من ملوك الطوائف»[2]. وهذا يعني من بدء حكم ملوك الطوائف في القرن الرابع قبل ميلاد المسيح المتداول، لأن «هؤلاء استمروا في الحكم 530 سنة»[3] أي حتى 200 بعد الميلاد المفترض «للسيد المسيح. فليس معقولاً أن يكون المقصود بعد نهاية حكم ملوك الطوائف، لأنه لا يمكن أن يكون ميلاد عيسى بعد 200 سنة من ميلاده المفترض والمأخوذ به اليوم.

إن هذا يؤكد على أن زمن غلبة الاسكندر المدون على الفرس في بابل وميلاد عيسى يقعان في فترة زمنية واحدة، خلال قرن واحد، لا يفصلهما أكثر من 50 عاماً.

وإن هذا ـ على ما يؤكد الطبري ـ هو ما تذكره مصادر الفرس نفسها[4].

2 . وينقل لنا الطبري أيضاً عن المجوس، وهم الكلدانيون[*] الذين اشتهروا بالسحر والتنجيم في بابلون على وادي الفرات في شبه جزيرة العرب، وليسوا هم البابليين، وقد خلط المؤرخون بينهم وبين البابليين كما خلطوا مابين بابل

---

(1) تاريخ الطبري، الجزء1 ، ص417 .

(2) المرجع نفسه، ص416 .

(3) المرجع نفسه، ص417 .

(4) المرجع نفسه.

(*) الكلمة من «كلدي» في القاموس السرياني وتعني منجم، ساحر، كما أن مجوسي تعني الشيء نفسه. وقد ذهبت الكلمتان عبر اليونان إلى اللغات الأوروبية فصارت بالروسية Kaldun = ساحر، وباللغات الأخرى Magic = ساحر، وهي مجوس.

عاصمة الدولة السورية وبابلون المحطة في شبه جزيرة العرب، وهم يؤلفون نسبة كبيرة من الفرس. فيقول: «إن المجوس توافق النصارى واليهود في مدة خراب بيت المقدس، وأمر بختنصر وما كان من أمره وأمر بني اسرائيل إلى غلبة الاسكندر وهلاك دارا، وتخالفهم في مدة مابين مُلك الاسكندر ومولد يحيى فتزعم ان مدة ذلك إحدى وخمسون سنة. فبين المجوس والنصارى في الاختلاف في مدة مابين ملك الاسكندر ومولد يحيى وعيسى ما ذكرت»[1].

وكان قد ذكر أن النصارى يجعلون مابين ملك الاسكندر ومولد يحيى بن زكريا 303 سنين[2]. ومن المعروف أن عيسى هو ابن خالة يحيى وبينهما أشهر فقط.

إن هذا يرينا الفارق بين التاريخ الذي وُضع في روما افتراضاً لميلاد المسيح، وبين التاريخ الذي وضعه المجوس والكلدانيون أو الفرس الذين كانوا يجاورون بيت المقدس في جبل غامد وعاشوا أحداثه وشاركوا في تقديم الهدايا بميلاد المسيح كما تخبرنا الأناجيل.. فهم، بالتالي، المعتمدون منهجياً اكثر من سواهم، أو هكذا ينبغي أن يكون.

3 . وفي موقع آخر نجد تأكيداً على أن فترة وجود عيسى هي فترة الحاكم السوري أنطيوخس بعد سلوقس والاسكندر وليست فترة وجود قيصر روما أغسطس. يقول الطبري: «حدثنا بشر بن معاذ قال حدثنا يزيد بن زريع قال حدثنا سعيد عن قتادة قوله ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون. إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنّا إليكم مرسلون ﴾ قال ذكر لنا أن عيسى ابن مريم بعث رجلين من الحواريين إلى أنطاكية.. فكذبوهما، فأعزّهما بثالث فقالوا إنّا إليكم مرسلون[3] وإن أنطاكية المقصودة هي أنطاكية المحطة على طريق القوافل التجاري الدولي في بلاد غامد، وقد جرت العادة، كما سبق أن بيّنّا في كتابنا الثاني، أن يسمّي وكلاء المحطات أنفسهم بأسماء ملوكهم المركزيين، والمهم أن الزمن زمن الميلاد أنطيوخس السوري وليس زمن قيصر روما. كما أن تلك المحطة (أنطاكية) التي

---

(1) المرجع نفسه، 422 .

(2) المرجع نفسه، 421 .

(3) المرجع نفسه، ص463 .

كذبت مبعوثي عيسى يخبرنا القرآن الكريم بمصيرها ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ ويضيف الطبري: «فأهلك الله ذلك الملك وأهل أنطاكية فبادوا عن وجه الأرض، فلم يبق منهم باقية»[1].

4 . لقد جاهد موسى في سبيل إرجاع عشيرة بني اسرائيل إلى عبادة الرب الواحد ولم يفلح، ثم ما لبث أبناء تلك العشيرة في معظمهم أن أهملوا موسى وتوراته ما ينوف على ألف عام، قبل أن يضعوا لنا هذه التوراة التي بين أيدينا اليوم، أي في القرن الثالث قبل الميلاد (الروماني) للمسيح. أفلا يحق لنا أن نتساءل الآن: لماذا صبر بنو عشائر إسرائيل كل هذه الألف سنة دون أن يفكروا بوضع كتاب التوراة حتى ذلك التاريخ بالذات؟ الجواب هو أن تصدي عيسى المسيح لهم في ذلك الوقت، وجهاد تلاميذه من الحواريين بينهم ناشرين تعاليمه، أشعر الكهنة اليهود بالخطر الحقيقي، فعمدوا إلى وضع كتابهم بالحرف الفينيقي (الذي يدعى يونانياً فيما بعد) كدليل على أن الزمن هو زمن الاسكندر والسلوقيين وليس زمن الرومان اللاتين.

5 . وإذا كان ذلك كذلك، فلماذا أخفى أولئك الكهنة الذين وضعوا كتاب التوراة في فترة وجود المسيح، أو بعيده بقليل، اي ذكر عن المسيح؟ إن الطبري يجيبنا عن هذا السؤال فيقول: «لقد أنقصوا ما انقصوا من تاريخهم... دفعاً منهم لنبوة عيسى بن مريم عليه السلام، إذ كانت صفته ووقت مبعثه مثبتة في التوراة. وقالوا لم يأت الوقت الذي وقّت لنا في التوراة أن الذي صفته صفة عيسى يكون فيه، وهم ينتظرون بزعمهم خروجه ووقته»[2].

ب. شواهد اخرى من المصادر الأجنبية:

1 . إن النصارى الأوائل Naserane (وهي بالعربية السريانية «نصراني» جمع نصيرانو أي الزاهد، الراهب، المسبّح، العابد، المتعفف، وهي بالعربية الحالية «نزير») الذين كانوا يسكنون المغاور والقفار في برية شبه جزيرة العرب، ويتعمدون بالماء، ويؤمنون بشريعة موسى وتعليم عيسى، كانوا موجودين هناك

---

(1) المرجع نفسه، ص464 .

(2) تاريخ الطبري، المرجع نفسه، ص12 .

قبل التـاريـخ المفتـرض لميـلاد المسيح. وقد أشـار إليهـم المؤرخ اليهـودي يوسيفوس في كتابه[1]، كما تحدث عنهم ول ديورانت معتبراً إياهم جماعة من اليهـود كمـا فعل يـوسيفوس (الذي كان ملتزمـاً بتعاليم الكهنة بعدم الاعتراف بمجيء المسيح بعد). ودعـاهـم «شيعة الأسينية» وكتب يقول: «وأكبر الظن أن اسمها مشتق من اللفظ الكلداني أسخـاي Aschai (أي المستحم) وأن أعضـاءهـا أخذوا عقائدهم وعباداتهم من نظريات الزهـاد.. التي كانت منتشرة في القرن الأول قبل المسيح.. وكـانوا يستمسكون أشد الاستمسـاك بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة، ويعيشـون معاً عيشـة المتبتلين الرهبان الزاهدين، يزرعون الأرض في واحة إنجادي Engadi وسط الصحـراء غرب البحر الميت»[2].

إن في هذا القول ثلاثـة عناصر شـواهد هي: النـاس انفسهم واللغة والمكان. فـالنص، كمـا هو واضـح، يتحدث عن رهبـان يـؤمنـون بموسى وبعيسى، إنهـم نصارى المسيح وليسوا «رهبان» التوراة التي لم تعرف الرهبانية في أي زمن. وتسميتهم كلدانية، والكلدانيون هم سكان بابلون المحطة في برية شبه جزيرة العرب شـرق بلاد غـامد على نهـر الفـرات (أو الثرات) وهـم اقرب النـاس إلى أورشليم المغارة حيث يخرج الفرات. والكلمة «أسحاي» هي عربية سريانية، وهي من الفعل سحي = غسل، طهّر، و«سحا» = اغتسل، تطهر، استحم، طاف، ساح.. والمقصود بالكلمة الزهـاد الذين يتعمدون بالماء. وكان السيد المسيح (معلمهـم) أول من تعمد بمـاء الـ «يردن» (= مـاء التطهير) على يد ابن خالته يوحنا المعمدان. أما من حيث المنطقة الجغرافية فقد كانوا يزرعون الأرض في واحـة «إنجادي» التي هي «نجد»، وهي وسط الصحراء فعلاً وفي شبه جزيرة العرب، وشرق بلاد غامد، وليست وسط «الصحراء» غرب «البحر الميت» حيث لا صحراء هناك ولا نجد. لكن التزوير الجغرافي لأحداث التوراة الذي نقل مواقع عشيـرة بني اسـرائيل إلى فلسطين جعل «عربت» (التي تعني بـريـة العـرب، الصحراء، في شبه جزيرة العرب) هي البحر الميت! وقد كنا قد بيّنا ذلك مفصلاً في كتابنا الثاني. وهؤلاء النصارى هم الذين وقفوا مع محمد في شبه جزيرة

(1) Josephus, Antiquities XV.iii,1

(2) ول ديورانت، المرجع السابق.

العرب منذ بدء دعوته، وقد أثنى عليهم القرآن الكريم، وقرن الرهبانية بهم بقوله: ﴿ لتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك أن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾[1].

فالرهبان هم من نصارى المسيح وليسوا من اليهود، وأصحاب «العماد» بالماء الذين يؤمنون بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة هم فقط جماعة المسيح، وكانوا موجودين قبل التاريخ الموضوع لميلاد السيد المسيح كما رأينا.

2 - وفي الوقت نفسه ينقل لنا ول ديورانت عن يوسيفوس أن «هيرودو» الذي هو وكيل الملك المركزي على المحطة والعشيرة «كان يريد أن يكون معبود العالم اليوناني لاملك اليهود فحسب.. ومن أجل هذا كان انتصار الروح الهلينية على الروح اليهودية في شخص حاكمهم[2]... ثم إن هيرودس هذا هو وكيل القيصر القيصر أغسطس في روما، وهو الذي أمر أنطيبا بسجن يوحنا المعمدان وقطع رأسه بناء على طلب محظيته... ونحن نسأل: كيف يكون هيرودس وكيلاً لقيصر روما ويلهث خلف رضى ملوك هيلينيين لم يعد لهم وجود؟ المفترض أن يسعى خلف رضى سادته وأولياء نعمته، وإلاّ لفقدها وفقد رأسه! ثم إن متّى ولوقا يحدّدان ميلاد المسيح في الأيام التي كان فيها هيرودس ملكاً على اليهود، ويقول لوقا: «إن يسوع كان حوالي الثلاثين من العمر حين عمده يوحنا المعمدان في السنة الخامسة عشرة من حكم طيبيريوس».

إذن لوقا يقول: يوحنا المعمدان عمّد المسيح حينما كان عمر الأخير 30 عاماً وفي زمن طيبيريوس الذي حكم بعد هيرودوس. وكنا قد رأينا كيف أن هيرودوس قطع رأس يوحنا المعمدان حينما كان هو الحاكم قبل طيبيريوس! والحقيقة هي أن هيرودو(س)(*) الذي هو أحد أبناء العشيرة كان وكيل الملك المركزي على محطة القوافل في الطريق التجاري الدولي شرق مغارة أورشليم

---

(1) سورة المائدة 82 .

(2) ول ديورانت، المرجع السابق، ص168 .

(*) الاسم هو «حيرودو» ويعني في القاموس السرياني المهيب، المخيف، وهكذا نقله المؤرخون العرب ومنهم الطبري.

في شبه جزيرة العرب في القرن الثالث قبل الميلاد الموضوع للسيد المسيح، وليس في فلسطين. إن هذا هو ما أكده يوسيفوس في تاريخه حينما كتب يقول: «لسنا شعباً تجارياً، فنحن نعيش في بلد عديم السواحل، ولا نميل إلى الاشتغال بالتجارة»[1]. لكن هذا القول أدهش ول ديورانت الذي تربّى على التاريخ المزوّر لأحداث التوراة. ففلسطين بلد ساحلي، ويوسيفوس عاش وكتب في القرن الأول الميلادي (الموضوع)، وسكان فلسطين كبقية أشقائهم السوريين أول من عرف التجارة وسافر في البحار! فما كان منه (ول ديورانت) إلا أن أسرع لتفسير هذه العبارات (متطوعاً) بمايلي: «بلد عديم السواحل» أي (بلاد اليهود الشرقية) وكأنما ذكر يوسيفوس بلاداً غربية وشرقية!

أين إذن «دولة سليمان» المزعومة وتجارته عبر البحار، و«دولة» داود المزعومة التي امتدت من النيل إلى الفرات في زمن ما؟! أما عبارة «لا نميل إلى الاشتغال بالتجارة» فيفسرها ول ديورانت مضيفاً خلفها (بالتجارة الخارجية!). لقد اعتدنا على هذه الأساليب في كتابة التاريخ على أيدي معظم المؤرخين في الغرب: إنهم يزورون تاريخنا، ويصدقون تزويرهم، ثم يجدون أنفسهم في تناقضات وإرباكات نجمت عن التزوير نفسه، ثم يعمدون إلى تجاوز الخطأ بخطأ أفدح..

3 . ثم إن هناك دلائل تؤكد وجود النصارى السوريين قبل ميلاد المسيح (الموضوع) بعدة قرون، وتحديداً بثلاثة قرون، وقد مرّ على ذكرها المؤرخون في الغرب دون أن تلفت انظارهم إلى الحقيقة. يقول ول ديورانت: «ولقد ظلت المسيحية قائمة مدى خمسة قرون بين طائفة قليلة من المسيحيين السريان المسمين بـ «الأبيونيم» (الفقراء) الذين كانوا يجمعون بين التقشف المسيحي والناموس اليهودي الكامل إلى ان كان عليهم آخر القرن الثاني الميلادي حكمت عليهم الكنيسة المسيحية بالكفر واخرجتهم من حظيرتها»[2].

إنهم، إذن، كانوا موجودين لخمسة قرون قبل نهاية القرن الثاني الميلادي

---

(1) ول ديورانت، المرجع نفسه، ص172 .

(2) ول ديورانت، المرجع نفسه، ص245 .

(الموضوع). وهذا دليل آخر على أن وجود نصارى المسيح يعود إلى ثلاثة قرون قبل ميلاده المفترض.

4 . أما التاريخ الذي اقترحه دينيز الصغير في روما في القرن السادس، فنحن نرجح أن المقصود به هو تاريخ دخول «الكارز»، أي المبشّر، إلى روما، وليس تاريخ ميلاد المسيح، خاصة وأن الأناجيل لم تكن قد وضعت، كما أن كتبة أسفار التوراة تقصدوا عمداً عدم الإشارة إلى مجيء المسيح.

والدليل على ذلك هو أن كلمة «كريزتوي»(*) العربية السريانية والتي تعني المبشّر، الكارز، الواعظ، المعلم، هي التي صارت تعرف في ايطاليا، وصارت تكتب باللاتينية KRESTO، وفهموها خطأ بمعنى المسيح، أو الصليب، لقد صار المبشّرٌ هناك، إذن، هو المسيح! وإن كلمة «كريزتيانوي التي تعني المبشرٌ صارت تفهم في الغرب بمعنى المسيحيّ.

5 . ومما يزيد الأمر وضوحاً هو أن التوراة السبعونية التي وضعت في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح (الموضوع) أغفلت أي ذكر للسيد المسيح، لكنها استخدمت كلمة «كريزتيو» .

غير أن جهل الغرب أو تجاهله بحقيقة أن العربية الفينيقية هي لغة اليونان وايطاليا القديمة وكريت، جعل الناس هناك يظنون أن الكلمة تعني «المسيح»، ثم مالبث أن صارت تعني الصليب أيضاً، وهكذا دخلت إلى اللغات الأوروبية الحديثة بمعنييها المغلوطين، بعد أن توهموا (أو هكذا أرادوا) أن الأصل «يوناني»!.

6 . بقي لنا أن نسأل: إذا كان تلاميذ المسيح المباشرون (الحواريون) هم الذين بشروا ونشروا المسيحية ـ كما يزعم المؤرخون ـ في أعالي سوريا واليونان وروما وقبرص، فمن الذي بشر بها ونشرها في شبه جزيرة العرب، وسطها، وجنوبها (اليمن)، وفي الحبشة، علماً أن وجود النصاري هناك ـ كما ظهر لنا ـ سابق لأي وجود مسيحي آخر، وقبل ميلاد المسيح (المفترض) بعدة قرون؟

(*) الكلمة هي في القاموس السرياني من الفعل كرزْ = كرز، وعظ، بشر، اعلن، بيّن، دل، علّم، حرم، طرد.. كريزتو = بشارة، تعليم، كرازة، وعظ... الخ، والاسم منها «كريزتيانو» والجمع «كريزتيانوي».

وفوق هذا فإن الأناجيل وجّهت «الرسل» غرباً، ولم تبعث بأحدهم إلى تلك المناطق التي تتكلم لغتهم، وباللهجة نفسها التي تكلم بها السيد المسيح، أي العربية السريانية التي تدعى اليوم خطأ بـ «الآرامية»، إذ أن آرام بن سام بن نوح نفسه كان يتكلم العربية السريانية كما تكلمها أبوه وجده نوح، ولم «يخترع» لغة، وكان موطن الآراميين على ضفاف الفرات شرق غامد في برية العرب وليس في سوريا المتوسطية.

صحيح أنه جرى تعتيم حقيقي من قبل المؤرخين على تاريخ شبه جزيرة العرب قبل الإسلام، لكن هذا لا يمنع الباحث الموضوعي أن يلاحظ، ومن خلال القرآن نفسه، كيف أن جزيرة العرب لم تكن بمثل هذه الصورة التي جرى ترسيخها ونقلت إلينا: مجموعات من القبائل البدوية المتخلفة الوثنية. ومن أجل إجلاء بعض ملامح الصورة الحقيقية لابدّ من أن نضع الحقائق المهمة التالية:

1) لما كانت شبه جزيرة العرب هي المركز، وهي مصدر الديانات كلها وموطن جميع الأنبياء، بمن فيهم ابراهيم وموسى وعيسى، (وقد أثبتنا ذلك في كتابنا الثاني «العرب والساميون والعبرانيون وبنو اسرائيل واليهود»)، وأن هؤلاء الأنبياء جميعاً، بدءاً من آدم الرسوم، ومروراً بإدريس، ونوح، وابراهيم، وهود، وصالح، واسماعيل، وإسحق، ويعقوب، وموسى، وداود، والياس، ويحيى (يوحنا) وعيسى، ومحمد، إنما هم ـ كما أكد القرآن الكريم ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ وفي منطقة واحدة، فإن ظهور وانتشار ديانة التوحيد التي دعا إليها أولئك الأنبياء بمن فيهم عيسى المسيح، إنما كان في شبه جزيرة العرب قبل أي مكان آخر.

2) إن نظرة واحدة على ما ينقله لنا المؤرخون والاخباريون العرب ترينا كيف أن «النصرانية» كانت مزدهرة من مكة إلى اليمن منذ القرن الثالث الميلادي في حين أن «مسيحية» قسطنطين البيزنطي بدأت في القرن الرابع. لقد انتشرت النصرانية في الحجاز حتى صار ملوك كندة جميعاً من النصارى، وانتشرت في نجران، واليمن، والحبشة، وقام الصراع على أشده بين اليهودية والنصرانية في اليمن منذ القرن الثالث، فكان غزو الحبشة النصرانية الأول لليمن وأقيمت «كعبة نجران» في اليمن لتنافس كعبة مكة التي كان يقوم عليها بنو جرهم

انسباء اسماعيل بن ابراهيم، ويذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني» أن البيت العتيق كان في ذلك الزمن لا سقف عليه[1]. ويقول الدكتور محمد عزة دروزة:

«فالقرائن القرآنية تلهمنا من جهة، والتاريخ المتصل بالمشاهدة من جهة أخرى، يخبرنا بأن آلافاً مؤلفة من العرب كانوا نصارى، ومنهم البدو ومنهم الحضر، وانهم كان لهم دول وشأن على مسرح بلاد الشام والعراق، ولهم أساقفتهم ورهبانهم وقسيسوهم وكنائسهم واديارهم الكثيرة»[2].

3) وإن إلمامة بالأدب العربي-في مرحلة ما قبل الإسلام تكشف لنا كيف أنه ـ والشعر يؤلف معظمه ـ يكاد يكون خلواً من أية دعوة إلى الوثنية. فإذا ما علمنا أن الشعر في ذلك الزمن، لما يتمتع به من الأهمية لسهولة انتشاره وقدرته الفائقة على الفعل والتأثير في ذلك الزمن، كان بمثابة وسائل الدعاية والاعلام والثقافة مجتمعة في عصرنا الراهن.

4) وإن من يتأمل سور القرآن الكريم سوف يكتشف أنه لا تكاد تخلو سورة من الحوار أو الجدل مع أصحاب الكتاب. إن هذا من شأنه أن يفتح كل العيون على الواقع الفكري والعقائدي من جهة، والتاريخي من جهة أخرى، لعرب شبه الجزيرة قبل الاسلام.

5) فكما أن شبه جزيرة العرب كانت موطن عيسى وموسى العربيين الآراميين فإن البقعة نفسها هي التي شهدت الصراع الأول، والتنافس الأول بين نصارى عيسى وبين كهنة اليهودية الذين حرفوا توراة موسى وخاطبهم المسيح بـ «الحيات أبناء الأفاعي»، و«أولاد الأفاعي»[3]، وهي المنطقة التي شهدت أولى الكنائس والأديرة، بينما لم تشهد فلسطين أول كنيسة إلاّ في القرن الرابع والخامس الميلاديين في عهد قسطنطين البيزنطي.

6) واستكمالاً للحديث عن الأناجيل، وبعدما عرفنا أن الأناجيل الأربعة التي اعتمدت مؤخراً من بين أناجيل أخرى كثيرة لا تشير إلى وجود أي مبشر في

---

(1) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج13 ، ص109 .

(2) محمد عزة دروزة، «عصر النبي وبيئته قبل البعثة»، ص468 .

(3) متّى 44:33:24:12 .

جزيرة العرب أو الحبشة، فإن هذا، لاشك، سوف يضع الباحث أمام حلقة ضائعة لابدّ من التريث قبل أن يقرّر الأخذ بما هو سائد اليوم ومسجّل كجزء من التاريخ.

ولما كان منطلقنا في أبحاثنا حول التاريخ العربي هو وحدة هذا التاريخ منذ بدء أول إنسان عاقل وحتى اليوم، وهو ما تؤكده كل مصادر التراث، وكل المكتشفات الآثارية، ولما كانت عقيدة التوحيد هي ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ منذ آدم الإنسان الأول وحتى محمد خاتم الأنبياء، كانت كلما خبت أنوارها أرسل الله لها من يذكيها، حتى صارت أحد أهم خطوط التواصل في التاريخ العربي، فإنه لا يمكن الحديث عن أية مرحلة من مراحل توهج أو تطور هذه العقيدة في معزل عن المراحل الأخرى. وإن ما ابتليت به هذه العقيدة العربية التوحيدية في كل مراحلها منذ أن خلق الله آدم وحتى اليوم، على أيدي رجال الدين من سوء فهم، ومن تحوير وتزوير، انتهى إلى تعصب مقيت، فقد أفضى، بالتالي، إلى تفكيك ترابط حلقات السلسلة، وتقطيع خط التواصل الواحد.

ومن هنا، ومن خلال قناعتنا الأكيدة بوحدة هذا التاريخ العربي الكبير، الذي هو تاريخ التمدن البشري على هذا الكوكب، فإننا سوف نقترب من الحلقة المفقودة في تاريخ النصرانية التي هي واحدة من أهم حلقات التواصل في تاريخنا العربي.

النصارى والإنجيل:

إن كلمة «النصارى» هي التسمية الأصل لأتباع السيد المسيح. وهي من الكلمة العربية السريانية نَصِر ـ نصيريو، نصيرانو، نصيراني، وتعني: الزاهد، العابد، الناسك، المتبتل، المسّبح، المرتّل، الممَجد.. الخ، وكان هؤلاء «النصارى» يتعبدون في المغاور المقدسة في الأرض المقدسة من جبال غامد في جبال السراة من شبه جزيرة العرب. لقد كانت العزلة أحد التقاليد العربية الروحية القديمة من أجل الانصراف عن مشاغل الجسد، وللحصول على «الصفاء» الروحي تمهيداً للاتصال مع عالم السماء والروحانيات. إن هذه الظاهرة يمكن أن نلحظها في التاريخ العربي القديم دونما انقطاع. وكثيراً ما

كانت تختار أماكن العزلة في مغاور او صوامع على رؤوس الجبال. وكان يطلق عليها في كثير من الأحيان اسم «حورا» (أي المغارة) أو «قليا» و«قليتا» وتعني القلاّية، الصومعة، الكوخ. كما كان يطلق عليها اسم «سدرا» وتعني الملجأ، الكهف، الكوخ، الستر..

وفي الآداب العربية السومرية نجد أن الرب «حيا» حينما نبّه أوتو نفشتيم (سيد النفوس أو الأرواح) خاطبه قائلاً: «ياصاحب الكوخ، ياصاحب الكوخ»، وهي التسمية التي انتقلت مع العرب السوريين إلى بلاد اليونان فدعي هناك رجل الطوفان باسم «دوقليون» أي صاحب القلاّية أو الصومعة.

ومن المعروف ان الأناجيل جميعاً تؤكد على غياب عيسى من سن الثانية عشرة إلى سن الثلاثين في العزلة في المغارة «حورا»، ولقد دعي تلاميذه الاثنا عشر في العربية بـ «الحواريين» أي الرهبان سكان «حورا» أي المغارة.

أما القول بأن تسمية «النصارى» جاءت نسبة إلى بلدة «الناصرة» في جنوب سوريا فهذا تزوير للتاريخ وللجغرافيا. فإن النسبة إلى هذه البلدة هي «ناصري» و«ناصريون» وليس «نصراني» و«نصارى»، وفي العربية الحديثة بقيت كلمة «نزير» لتعبرّ عن المضمون ذاته، إذ هي تعني الزاهد، المتعفّف..

ولقد كنا قد ذكرنا كيف أن طائفة منهم كانت تدعى «حسيناي» أي المتطهرين، تسكن في مغاور الجبال، وتزرع بعض الواحات في الصحراء غرب نجد. ويعتقد ول ديورانت خطأ أن عيسى المسيح لابدّ أنه تعرف على هؤلاء «الحسنيين» (المتطهرين) «وعرف شيئاً عنهم وعن حياة الزهد الشبيهة كل الشبه بحياة البوذيين.. ولعله قد سمع أيضاً عن شيعة تدعى Nazarane كان المنتمون إليها يعيشون في فيريه في الناحية الأخرى من الأردن، وكانوا يرفضون التعبد في الهيكل، ويأبون التقيد بالناموس فقط»[1].

إن هذا يدل دلالة قاطعة على وجود «النصارى» قبل الوجود المفترض للسيد المسيح. ولما كان النصارى هم أتباعه فقد صعب على المؤرخين في الغرب ان يوفقوا بين وجودهم السابق لهذا التاريخ المغلوط الذي افترضوه لميلاد السيد

---

(1) ول ديورانت، المرجع السابق، ص215 .

المسيح وبين زمن وجوده المأخوذ به اليوم.

وقد كنا قد فنّدنا كل التزوير الذي أصاب مواقع أحداث التوراة والانجيل في كتابنا الثاني[*]، فلسنا نجد هنا ثمة داعياً للعودة إلى هذا الموضوع. لكن المتتبع للأحداث ولسيرة الناس ذوي العلاقة بها لن يصعب عليه الوقوف على الحقيقة، وهي أن جميع أحداث التوراة والانجيل إنما مسرحها شبه جزيرة العرب وليس فلسطين.

وإن كلمة «يردن» التي تعني في العربية السريانية مياه التطهير، لا علاقة لها بنهر الأردن، كما أن أورشليم (حوراشليم = مغارة المتعبدين) الواقعة في قمة الجبل المنيع والتي تنبع منها من تحت المذبح مياه حية نصفها يذهب إلى الشرق مكونة بحراً لا يعبر، ونصفها إلى الغرب، لا تمت إلى مدينة القدس بأية صلة، وفوق هذا نجد في إنجيل مرقص كيف أن يوحنا المعمدان «يرتدي ثوباً من الشعر، ويعيش على الجراد الجاف وعسل النحل»، وهذا خاص بجبال جزيرة العرب، ويقول بولس: «إنه ظلّ ثلاثة أيام يدعو إلى المسيح في بلاد العرب قبل أن يعود إلى أورشليم ويعفو عنه بطرس»[1].

وأن الملك على دمشق في زمنه كان «الحارث» فيقول: «يسوع المسيح الذي هو مبارك إلى الأبد يعلم أني لست أكذب، في دمشق والي الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين يريد أن يمسكني، فتدليت من طاقة في زنبيل من السور ونجوت من يده» (رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس 11: 31 – 33).

فالملك «الحارث» هو من ملوك كندة على دمشق المحطة الآرامية في شبه جزيرة العرب، وليس ملكاً على دمشق المدينة التاريخية الشهيرة التي لم يملك عليها «الحارث» في زمن السيد المسيح، ولم تدخلها العشائر الآرامية الرعوية التي لم تتعدَّ قلب شبه جزيرة العرب.

ويؤكد المؤرخون «أن المسيحية ظلت قائمة مدى خمسة قرون بين طائفة قليلة من المسيحيين السريان المسمين بالأفيونيم (الفقراء) الذين كانوا يجمعون بين

(*) راجع كتابنا الثاني «العرب والساميون والعبرانيون، وبنو إسرائيل واليهود».

(1) ول ديورانت، المرجع السابق، ص253 .

التقشف المسيحي والناموس اليهودي الكامل، فلما كان آخر القرن الثاني الميلادي حكمت عليهم الكنيسة المسيحية بالكفر وأخرجتهم من حظيرتها؛ – كما سبق ان ذكرنا.

إننا نرى في هذا القول تأكيداً آخر على وجود «المسيحيين» الذين هم «النصارى» قبل القرن الثاني الميلادي بخمسة قرون. وهؤلاء النصارى كانوا يؤمنون بالمسيح وبتوراة موسى، ثم حكم عليهم بالكفر وأخرجوا خارج الكنيسة، إن هذا بالضبط هو ما حدث للنصارى العرب على ايدي «المسيحية» (الكريزتوي) المرتدة على المنطقة من الغرب.

ونحن هنا لسنا في صدد البحث في الأمور العقائدية، وإنما نبحث عن المواقع التي غيبّت فيها خيوط التواصل التاريخي العربي، فنجلو عنها غبار القرون لنعيد إليها توهجها الأصيل الممتد منذ خلق الإنسان وحتى اليوم.

عرفنا فيما تقدم كيف ان التراث العربي أكد على فكرة محورية في تاريخه: هي أنه منذ ان أخرج الله آدم من الجنة إلى الحياة الدنيا للبلاء والتجربة وعده بالرجوع إذا ما تاب وأصلح، كما وعده بإرسال «الهدى» من فترة إلى أخرى رحمة به منه لتذكيره. وعلى هذا الأساس فقد أكدت عقيدة التوحيد العربية على الإيمان بجميع الأنبياء والرسل، وأن كلاً منهم يكمل الآخر لا ينقضه. إن هذا هو ما جاء على السنة كثير من الأنبياء، كما جاء على لسان عيسى: «لا تظنوا اني جئت لأنقض الناموس او الأنبياء. ماجئت لأنقض، بل لأكمل»[1]. إن عيسى يؤكد انه لم يأت لينقض أحداً ممّن سبقه من الأنبياء، وهذا تأكيد على توهج خط التواصل في التاريخ العربي. ولقد جاء هذا التأكيد في القرآن الكريم كبيراً وعظيماً وشاملاً في سور كثيرة وفي آيات كثيرة، حسبنا هنا أن نورد منها هذه الآيات: ﴿ قل آمّنا بالله وما انزل علينا، وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط. وما اوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[2] و﴿ إن هذه أمتكم امة واحدة وانا ربكم

---

(1) متّي 17:5 .

(2) سورة آل عمران 84 .

فاعبدون ﴾[1] و﴿ تلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم. ووهبنا له اسحق ويعقوب كلاً هدينا، ونوحاً هدينا من قبل، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين. وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين. وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين. ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾ـ﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكمة والنبوة. فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلّنا بها قوماً ليسوا بكافرين ﴾[2].

إن هذا الخط التراثي العربي في تواصله التاريخي كان النصارى العرب يشكلون احدى حلقاته المتوهجة. فلماذا، إذن، تعددت الأناجيل؟ وهل كان لدى أولئك النصارى إنجيل أم اناجيل؟

لقد اعتاد العرب جميعاً أن يتحدثوا عن الانجيل بصيغة المفرد. وهذا ما أكده القرآن الكريم أيضاً. فهل كان لدى النصارى العرب إنجيل واحد؟ إن المنطق يقودنا إلى مثل هذه النتيجة، ذلك لأن:

1 . إن أحداً من النصارى قديماً لم يتحدث إلا عن الانجيل وليس عن الأناجيل.

2 . إن التراث العربي بمجمله لم يتحدث عن أناجيل، بل عن الإنجيل.

3 . إن الأناجيل الأربعة المعروفة هي التي «غربلتها» الكنيسة في الغرب وأبقت عليها من بين عشرات الأناجيل الأخرى كما يؤكد المؤرخون الكنسيون هناك. وإن هذه الأربعة ما تزال حتى يومنا هذا مشكوكاً في نسبتها لتلاميذ المسيح من الحواريين. «وترجع أقدم النسخ التي لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث. أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كتبت بين عامي -6-120م ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان لأخطاء في النقل، ولعلها تعرضت أيضاً لتحريف مقصود يراد به التوفيق بينها وبين الطائفة التي ينتمي إليها الناسخ في أغراضها.. ويقول فيفياس إن مرقص ألف أنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس»[3].

---

(1) سورة الأنبياء 92 . (2) سورة الأنعام، 83 - 88 . (3) ول ديورانت، المرجع السابق، ص207 .

وإن «الأناجيل الأربعة التي وصلت إلينا هي البقية الباقية من عدد اكبر منها كثيراً.. وقد كتبت كلها باللغة اليونانية الدارجة».. و«تقول الرواية المأخوذ بها بأن إنجيل متى أقدم الأناجيل كلها. ويعتقد إيرينايوس انه كتب في الأصل باللغة الآرامية ولكنه لم يصل إلينا إلا باللغة اليونانية.. وإن النقاد يميلون إلى القول بأنه من تأليف أحد أتباع متّى وليس من أقوال «العشار» نفسه». و«إن إنجيل يوحنا يناقض الأناجيل الأخرى في كثير من التفاصيل وفي الصورة العامة التي يرسمها للمسيح.. وإن ما فيه.. قد جعل الكثيرين من الباحثين في الدين المسيحي يشكّون في صدق القول بأن واضعه هو الرسول يوحنا»، و«ملاك القول إن ثمة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر، وأن فيها نقطاً تاريخية مشكوكاً في صحتها، وكثيراً من القصص الباعثة على الريبة والشبهة بما يروى عن آلهة الوثنيين، وكثيراً من الحوادث التي يبدو انها وضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة في العهد القديم، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها تقدير أساس تاريخي لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة أو طقس متأخر من طقوسها». كل هذا كنا قد مررنا عليه، ونعيده هنا لتسهيل الوصول إلى النتائج.

إن ما يؤكده الباحثون في الغرب هو أن هذه الأناجيل الأربعة وضعت في زمن جد متأخر عن المسيح، وليست من وضع حوارييه (تلاميذه المباشرين)، وأنها وضعت باليونانية وبعد نشوء الكنيسة أو «العقيدة» على أيدي أتباع للتلاميذ، وأنها كانت كثيرة جداً، كما أنها لم توضع باللاتينية أي في زمن سيطرة روما بل قبل ذلك. كل هذا يؤكد لنا عدم صحة التاريخ المزعوم لميلاد السيد المسيح من جهة، وأن إنجيل عيسى شيء، وتلك الأناجيل الكثيرة التي وضعت نقلاً عن الذاكرة جيلاً بعد جيل على ايدي اتباع التلاميذ في الخارج شيء آخر.

4 . وعلاوة على هذا كله فإن اياً من هذه الأناجيل الأربعة ليس في إمكانه أن يكون الحلقة في سلسلة التواصل التاريخي لعقيدة التوحيد العربية كما عهدناها حتى الآن، اي مرتبطاً بما قبله وما بعده ارتباطاً محكماً يضمن عدم انفراط السلسلة، فأيّ منها كان هو الإنجيل؟

إنجيل النصارى:

لابدّ قبل كل شيء من أن نوضح معنى كلمة «إنجيل». إن الكلمة عربية سريانية، وهي، بالنون، وبدونها، تعني الوحي، الكشف، البيان، الإظهار.. وهي في القاموس السرياني من الفعل «جْلي» ويعني: جلا، كشف، بيّن، اعلم، أخبر، أوحى، أنبأ..

و«أجلي» تعني الشيء نفسه، ومنها «أجيليون» و«أنجيليون» (أي بالنون وبدونها) أي الوحي، الرؤيا. وليست الكلمة من أصل يوناني كما يدّعي المؤرخون في الغرب، ومن بينهم ول ديورانت الذي يكتب قائلاً: والللفظ الدال على الإنجيل هو ترجمة للفظ اليوناني angelion. (انجيليون) والذي يبدأ به إنجيل مرقص ومعناه «أخبار سارة» هي أن المسيح قد جاء[1]. فالكلمة التي يزعمون أنها يونانية هي عربية قديمة سريانية وفينيقية، وقد أكدنا اكثر من مرّة ان ما دعي بـ «الاغريقية القديمة» ليست إلا العربية القديمة سريانية أو فينيقية.

العربية القديمة سريانية أو فينيقية.

إنجيل برنابا ـ إنجيل النصارى العرب:

إن النسخة التي بين أيدينا لإنجيل برنابا هي التي نقلها إلى العربية الدكتور خليل سعادة والتي قدّم لها قائلاً: «والنسخة الوحيدة المعروفة الآن في العالم التي نقل عنها هذا الإنجيل إنما هي نسخة إيطالية في مكتبة بلاط فيينا، وهي تعدّ من أنفس الذخائر والآثار التاريخية فيها، تقع في مائتين وخمس وعشرين صفحة سميكة مجلدة بصفحتين رقيقتين متينتين من الورق المقوّى يغطيهما جلدان لونهما أدكن ضارب إلى الصفرة النحاسية، ويحيط بهما على الحوافي الأربع خطان مذهبان، وفي مركز الجلد نقش بارز عطل من التذهيب تحيط به حافة مزدوجة من نقوش ذهبية متباينة الأشكال يسميها الغربيون بالطراز العربي، ويستدلون من مجمل التجليد المنوه عنه أنه طراز شرقي».

اما حول قدم هذا الانجيل فيروي الدكتور سعادة في مقدمته قائلاً: «ويذكر التاريخ أمراً أصدره البابا جلاسيوس الأول الذي جلس على الأريكة البابوية

---

(1) ول ديورانت، المرجع السابق، ص206 – 207 .

سنة 492 يعدّد فيه أسماء الكتب المنهي عن مطالعتها وفي عدادها كتاب يسمّى «إنجيل برنابا».

فإذا صحّ ذلك كان هذا الانجيل موجوداً قبل ظهور نبيّ المسلمين بزمن طويل، وهو دليل على أن هذا الإنجيل لم يكن حينئذ لابساً هذا الثوب القشيب الذي يرفل فيه الآن، لأن مجرد إصدار البابا المشار إليه نهياً عن مطالعته دليل على شيوعه أو على اشتهار أمره بين خاصة العلماء، إن لم يكن بين العامة، فمن المستبعد أن لا يتصل خبره ولو سماعاً بنبي المسلمين، وفيه العبارات الصريحة المتكررة، بل الفصول الضافية الذيول التي يذكر اسمه في عرضها ذكراً صريحاً لا يقبل شكاً أو تأويلاً، ولاسيّما بعد أن نهض تلك النهضة التي مادت لها الجبال الراسيات، ونفخ في قومه تلك الروح التي وقف لها العالم متهيباً ذاهلاً، وجرى ذكره على كل شفة ولسان...

بيد أن هنالك إنجيلاً يسمّى بالإنجيل الأغنسطي طمست رسومه وعفت آثاره يبتدىء بمقدمة تندد بالقديس بولس وينتهي بخاتمة فيها مثل ذلك التنديد..

ومن المحتمل ان يكون ذلك الإنجيل الأغنسطي أباً لإنجيل برنابا هذا» .

ويقول جورج هرنشو: «ولقد عثر الايطاليون من علماء النهضة، وهم ينقبون عن النصوص القديمة، على الترجمة اليونانية للعهد الجديد. فلما درسوا ذلك المستند الثوري العجيب تبين لهم أن النص اللاتيني للعهد الجديد المعروف بالفلجات يشتمل على تحريف رديء جداً لعقائد المسيح والرسل. وأظهرت تلك الترجمة، فوق ذلك، حقيقة أخرى هي أن الكنيسة الكاثوليكية كانت على عهد بابوات القرن الخامس عشر تختلف اختلافاً شديداً عن كنيسة إنجيليي القرن الأول. لقد وقف علماء ايطاليا على ذلك، فلم يكترثوا به، بل هزّوا رؤوسهم ومضوا في طريقهم. وفوق ذلك فقد اكتشفوا بأن يونانية العهد الجديد كانت تختلف عن يونانية عصر بركليس(*) إلى حد انهم خافوا ان تفسد عليهم الأمر إذا هم تعمقوا في دراستها.

ولقد بلغ الأمر بالكردينال بمبو Pambo أن حذر أصحابه قراءة رسائل بولس

(*) ذلك أن «يونانية» عصر بركلي هي الفينيقية النقية، وفي هذا شاهد آخر على ما كشفناه.

الرسول لذلك الغرض عينه!»[1].

أما نحن فكل ما يهمنا هنا هو البحث في مدى المصداقية التاريخية لإنجيل برنابا من جهة، ومدى تعبيره في موقعه التاريخي – إن صحّت واقعيته – عن الحقيقة التاريخية لشعبنا العربي في تواصلها التاريخي.

فمن هو برنابا؟

إن برنابا هو أحد حواريي السيد المسيح. ويذكر «قاموس الكتاب المقدس» أنه «هو الذي عرّف التلاميذ ببولس بعدما اهتدى ورجع إلى أورشليم»[2].

ولقد ورد ذكر برنابا في «أعمال الرسل» في مواضع كثيرة نذكر منها:

في رسالة بولس إلى أهل كورنثوس: «ألعلنا ليس لنا سلطان أن نجول بأختٍ زوجة كباقي الرسل وإخوة الرب وصَفا. أم أنا وبرنابا وحْدنا ليس لنا سلطان أن لا نشتغل» (6,5:9).

ويقول عنه في موضع آخر إنه باع ممتلكاته وأتى بثمنها ووضعها عند أقدام الرسل: «ويوسف الذي دعي من الرسل برنابا الذي يترجم ابن الوعظ... إذ كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ووضعها عند أرجل الرسل» (أعمال الرسل 36:4).

«وكان في انطاكية في الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون برنابا وسمعان» (1:13).

«ورجع برنابا وشاول (الذي هو بولس) من أورشليم بعدما كملا الخدمة وأخذا معهما يوحنا الملقب مرقص» (25:12).

«ولما انقضت الجماعة تبع كثيرون من اليهود والدخلاء المتعبدين بولس وبرنابا اللذين كانا يكلمانهم ويقنعانهم أن يثبتوا في نعمة الله» (43:13).

ويذكر أيضاً كيف أن ما قام به برنابا من المعجزات الشفائية في «لسترة» صار السكان يدعون برنابا باسم «زيوس»: «فكانوا يدعون برنابا زفس وبولس هرمس» (12:14).

إن برنابا، إذن، ليس شخصية أسطورية أو من نسج الخيال، فـ «أعمال الرسل»

---

(1) جورج هرنشو، المرجع السابق، ص53 – 54 .

(2) قاموس الكتاب المقدس، الجزء1 ، ص223 .

تؤكد جهاده كواحد من الحواريين في سبيل نشر تعاليم عيسى وإنجيله.
ذاك أولاً.
ثانياً، ورغم هذا فإننا نرى الأيدي قد امتدت إلى الأناجيل الأربعة لتمحو اسم برنابا.
إن برنابا في إنجيله حينما يعدد أسماء حواريي عيسى الاثني عشر يوردهم على النسق التالي: «فلما طلع النهار نزل من الجبل وانتخب اثني عشر سمّاهم رسلاً منهم يهوذا الذي صلب، أما أسماؤهم فهي: أندراوس وأخوه بطرس الصياد، وبرنابا الذي كتب هذا مع متى العشار الذي كان يجلس للجباية، يوحنا ويعقوب ابنا زبدي، تدّاوس ويهوذا، برتولوماوس وفيليبس، يعقوب ويهوذا الاسخريوطي الخائن. فهؤلاء كاشفهم على الدوام بالأسرار الإلهية، اما يهوذا الاسخريوطي فأقامه وكيلاً على ما كان يعطى للصدقات، فكان يختلس العشر من كل شيء»[1]. ولنلاحظ هنا أن برنابا يصرّح بأنه كتب إنجيله مع متّى. ويكاد يجمع المؤرخون على أن إنجيل متى أقدم الأناجيل وكان مكتوباً بالآرامية، أي بالسريانية.
اما في إنجيل متى كما وصلنا فإن التلاميذ الاثني عشر هم: «الأول سمعان الذي يقال له بطرس وأندراوس أخوه، يعقوب بن زبدي ويوحنا أخوه، ولبّاوس الملقب تدّاوس، سمعان القانوي ويهوذا الأسخريوطي الذي أسلمه» (10:2 – 4).
ففي تعداد برنابا نجد: 1. سمعان هو بطرس، 2. يعقوب، 2. يهوذا، وليس من ذكر لتوما.
وفي تعداد متى نجد: 2 سمعان (أحدهما الملقب بطرس والثاني القانوي) 2 يعقوب، 1 يهوذا، يوجد توما ولا يوجد برنابا.
وأما في إنجيل لوقا فنقرأ: «ولما كان النهار دعا تلاميذه واختار منهم اثني عشر الذين سمّاهم أيضاً رسلاً: سمعان الذي سمّاه أيضاً بطرس وأندراوس أخاه، يعقوب ويوحنا، فيليبس وبرثولماوس، متّى وتوما، يعقوب بن حلفي وسمعان الذي يدعى الغيور، يهوذا أخا يعقوب ويهوذا الاسخريوطي الذي

---

(1) انجيل برنابا ترجمة الدكتور خليل سعادة، دار المنار، القاهرة، 10:14 – 19).

صار مسلماً أيضاً» (13:6 – 16).

وهنا نجد: 2 سمعان (أحدهما بطرس والثاني الغيور)، 2 يعقوب، 2 يهوذا، ولا ذكر لبرنابا.

وإذا ما أردنا التدقيق لاكتشاف الخطأ أو التزوير، فإننا سوف نضع برنابا وإنجيله جانباً في البدء، ولننظر فيما يورده إنجيل متى وإنجيل لوقا.

إن كلاً من الإنجيلين ذكر لنا 2 سمعان، لكن متّى دعا سمعان الثاني القانوي، ودعاه لوقا الغيور.

إن كلاً منهما سمّى لنا 2 يعقوب.

إن متّى ذكر لنا يهوذا واحداً، بينما لوقا ذكر 2 يهوذا.

إن متّى ذكر لنا لبّاوس الملقب تدّاوس، بينما أغفله لوقا، وذكر بدلاً منه يهوذا الآخر.

ولو عدنا الآن إلى التعداد كما يذكره برنابا لوجدنا أنه ذكر هو الآخر تدّاوس، وذكر أيضاً 2 يهوذا أحدهما الأسخريوطي وحفظ بهذا اللقب عبر الأجيال ليتم فرزه عن الآخر، إذ هو الذي سلّم السيد المسيح. وهذا يؤكد لنا وجود الاثنين.

لكن برنابا لم يذكر لنا إلا سمعان واحداً الذي لقبه بطرس، بينما متّى ذكر سمعان الآخر ولقبه القانوي، ولوقا ذكر سمعان الآخر الذي لقبه الغيور. ونحن لا نشك في أن «العملية» كامنة هنا.

وبالرجوع إلى المصادر التاريخية وجدنا أن سمعان بطرس هو نفسه سمعان القانوي أو الغيور.

يقول ول ديورانت نقلاً عن مصادر تاريخية أخرى: «ولما أن سُجن المعمدان انضم أندرو أحد أتباعه إلى عيسى، وجاء معه بأخيه سيمون (سمعان) الذي سماه المسيح باسم «كفا» أي الصخرة، وترجم اليونان اسمه إلى بطرس. وبطرس هذا شخصية لحماً ودماً، فهو متهور، جاد، كريم، غيور، هياب، يصل به الوجل في بعض الأحيان إلى حد الجبن الذي لا يسع الإنسان إلا أن يعفو عنه. وقد كان هو وأندرو يصيدان السمك»[1].

---

(1) ول ديورانت، المرجع السابق، ص223 .

إن سمعان هذا (الذي هو بطرس) هو، إذن، سمعان الغيور نفسه. وإن هذا يضعنا أمام الاستنتاجات الحقيقية التالية:

1 . إن برنابا هو الأصل، وقد وضع إنجيله مع متّي. وحينما ذكر لنا سمعان واحداً فلأنه كان يعرف أن سمعان الذي لقّبه السيد المسيح «كفا» (بالسريانية تعني الصخرة) هو نفسه سمعان الغيور.

2 . إن واضعي الأناجيل من أتباع التلاميذ في الغرب، ربما كانوا يدركون أنه ليس ثمة إلا سمعان واحد، لكن حينما صدر الأمر البابوي بحظر إنجيل برنابا كان لابد من إزاحة اسمه من بين الرسل حتى لا يثير جدلاً عند عامة الناس، فجرى حذف اسم برنابا، وقسم سمعان إلى «سمعانين» أحدهما الملقب بطرس والآخر الغيور! لكن هذا التزوير كان ناقصاً إذ أن «أعمال الرسل» بقيت شاهدة على جهاد برنابا وليس فيها من ذكر لسمعان الآخر حتى ولكثيرين غيره!

وسمعان هذا هو ما عرف في العربية بـ «شمعون الصفا» و«الصفا» هي جمع صفاة وتعني الصخرة الملساء الصلدة.

إن هذا من شأنه أيضاً أن يكشف حقيقة واضعي تلك الأناجيل في الخارج. إذ من غير المعقول أن يكون واضعوها من الحواريين الاثني عشر ولا يعرفون أسماء بعضهم، أو يقعون في خطأ كهذا الخطأ: إذ يقسمون سمعان بناء على ألقابه إلى اثنين، ثم يقعون في تناقض آخر بين يهوذا واحد أو اثنين!

إنجيل ـ برنابا ـ متّي: حلقة حقيقية في السلسلة

إن من يقرأ إنجيل برنابا (الذي يقول فيه إنه كتبه مع متى) سوف يشعر بكل يسر أنه يمثل حلقة الاتصال الحقيقية في سلسلة التراث العقائدي العربي الصادر دائماً من المركز. وقبل أن نبدأ بالكشف عمّا يمثله هذا الإنجيل لابدّ من الإشارة إلى أن هذا الانجيل، الذي اختفت آثاره من نسخته السريانية الأصلية، ولم يعثر عليه إلا منقولاً إلى الإيطالية، التي نقل منها إلى العربية حديثاً، ونقل قبل ذلك إلى الانكليزية، قد أصابه مثل ما أصاب غيره، أو بعض مما أصاب غيره، من التحوير المتعمد أو الناجم عن أخطاء في النسخ أو النقل من لغة إلى أخرى، ومع هذا، فهو يبقى، في صورته الحالية، يمثل جوانب هامة وأساسية من

النظرة التراثية العربية إلى الله، والخلق، والمركز، والجنة والنار، وآدم، والأنبياء، والوحي، والملائكة، والبعث، والموت والحياة، وغير ذلك من الأمور التي شكلت النظرة إليها خطاً تراثياً متصلاً منذ أن خلق الله آدم الإنسان وحتى اليوم.

ولنبدأ الآن باستعراض بعض أهم هذه النقاط من خلال إنجيل برنابا ـ متى:

1 . يؤكد برنابا في أكثر من موضع أنه كان دائماً ملازماً ليسوع: «فانصرفوا جميعهم، خلا من يكتب ويعقوب ويوحنا، فذهبوا في كل اليهودية مبشرين بالتوبة كما أمرهم يسوع، مبرئين كل نوع من المرض، حتى ثبت في اسرائيل كلام يسوع أن الله أحد وأن يسوع نبي الله» (126:4 – 6).

2 . ومن الناحية الجغرافية يستشف أن أورشليم (حوراشليم) هي مغارة المتعبدين كما سبق أن شرحناها، وليست مدينة القدس، إذ أنها مجاورة للصحراء، وكلمة «مدينة» تطلق على المغارة لمجرد أن تسكن: «ولما قال هذا خرج من المجمع والمدينة وانفرد في الصحراء ليصلّي لأنه كان يحب العزلة كثيراً». (44:50).

وإن المجوس الذين رأوا النجم حين مولده فتبعوه إلى أن عثروا عليه في المغارة، هم الكلدان سكان بابلون المحطة على وادي الفرات الذي ينبع من مغارة صهيون وعن يمين المذبح الأيمن في مغارة أورشليم[1] في بلاد غامد من شبه جزيرة العرب. ولا يمكن أن يكونوا قد أتوا من بلاد فارس إلى بيت لحم في فلسطين في أقل من أسبوع خاصة وأن عيسى الطفل لم يبق في المغارة إلا ثمانية أيام، لأنهم في اليوم الثامن أخذوه للختان: «فلما تمت الأيام الثمانية حسب شريعة الرب،، كما هو مكتوب في كتاب موسى، أخذا الطفل واحتملاه إلى الهيكل ليختتناه، فختنا الطفل وسمياه يسوع كما قال الملاك قبل أن حبل به في الرحم» (2,1:5).

وإن في الأمثلة، التي كان يضربها لتلاميذه، الأشجار التي تختص بها شبه جزيرة العرب لا فلسطين: «وأنت يجب أن تعرف أن النخل والبلسان هما أجمل

---

(1) راجع: نبوءة حزقيال.

من التينة، ولكني غرست سابقاً في فناء داري فسيلاً من النخل ومن البلسان وأحطتهما بجدران نفيسة» (12:114).

وأن تنقلّه مابين أورشليم، وسيناء، لم يكن ليتم بمثل تلك السهولة لو كانت بين القدس وصحراء سيناء، كما أن هروب أمه به ليلاً وهو طفل ابن أيام إلى مصر لم يكن بين مدينة بيت لحم في فلسطين ومصر وادي النيل عبر صحراء سيناء خيفة أن يقتله هيرودو، وإن ركوبه السفينة من الجليل إلى الناصرة لا يمت إلى جغرافية فلسطين بأية صلة. وإنما عبر وادي الفرات الذي ـ كما جاء في نبوءة حزقيال ـ ما أن يبتعد عن بيت المقدس مسافة ألف ذراع حتى يصير بحراً لا يعبر ترى الصيادين عليه من عين عجلائيم (العجول) إلى عين جدي، والجليل في القاموس السرياني تعني الدائرة أو الدوار أو البركة المستديرة في النهر، و«ناصري» هي دير الرهبان وليست مدينة الناصرة التي لا يوصل إليها بالسفن.

ففي إنجيل برنابا نقرأ: «وذهب يسوع إلى بحر الجليل، ونزل في مركب مسافراً إلى الناصرة مدينته» 1:20)، «ولما بلغ مدينة الناصرة أذاع النوتية في المدينة كل ما فعله يسوع» 9:20. فإذا كان التزوير قد جعل «بحر الجليل» هو بحيرة طبريا، فأي طريق مائي يمكن أن يسلكه يسوع بالسفينة ما بين بحيرة طبريا ومدينة الناصرة الواقعة في الجبال؟.

ولقد كنا قد أوضحنا في كتابنا الثاني ان كلمة «مدينة» تطلق على كل مسكن للانسان حتى المغارة. ولقد ردّدت بقية الأناجيل مثل هذا الكلام بصيغ مختلفة. ففي إنجيل متّى نقرأ: «فدخل السفينة واجتاز وجاء إلى مدينته (أي الناصرة)» (متّى 1:9) فأية شعوذة جغرافية هذه التي قبل بها ملايين الناس على مدى مئات السنين زاعمة أن المقصود بها ما بين بحيرة طبريا ومدينة الناصرة في فلسطين! علماً أن كلمة «الجليل» تعني الدّوار او الدائرة، وأن كلمة «البحر» تطلق على كل ماء كثير. فمتى كان البحر أو النهر يصل ما بين طبرية والناصرة في الجبال التي لم تدعَ بـ «الجليل» إلا بعد التزوير الجغرافي لأحداث التوراة!.

وأن الهيكل هو في المغارة على قمة جبل صهيون (19:124) وكنا قد شرحنا في كتابنا الثاني معنى كلمة «صهيون» في القاموس السرياني: المغارة في الجبل،

العطش، الفرات وقت نقصانه، وفي «محيط المحيط» هي: برج في أعلى الجبل، أو كالغار (مغارة) فيه ماء، فهي المغارة في أعلى الجبل التي يخرج منها أحد ينابيع الفرات في جبل غامد من جبال السراة، ثم ما أن يفسد الكهنة أمر العبادة في الهيكل في المغارة حتى تتحول إلى «مغارة للصوص»، وليس مغارة للعبادة.

2 . يؤكد لنا أن كلمة «النصارى» ليست نسبة إلى مدينة الناصرة، أي انها ليست نسبة مادية، بل تسمية معنوية وتعني الزهاد، العبّاد، المتبتلين، الرهبان.. يقول برنابا: «فآمن بيسوع جمّ غفير من اليهود وبعض الفريسيين لأن الآية كانت عظيمة. وانصرف الذين لبثوا بدون إيمان وذهبوا إلى أورشليم وأخبروا رئيس الكهنة بقيامة لعازر، وان كثيرين صاروا نصارى، لأنهم هكذا كانوا يدعون الذين حملوا على التوبة بواسطة كلمة الله التي بشر بها يسوع» (194:34 – 36). فالتسمية دينية معنوية وليست جغرافية.

والدليل الآخر على ان يسوع وجماعته كانوا يلجأون إلى الكهوف فيعتزلون ويصومون ويتعبدون، ولهذا دعي اتباعه بـ «الحواريين» (نسبة إلى حورا = المغارة)، هو أن يسوع ما أن كان يفرغ من تعليم الجموع حتى يعود إلى كهف الرهبان: «ولما خلا يسوع بكهف في البرية في «تيرو» على مقربة من الأردن، دعا الاثنين والسبعين مع الاثني عشر. وبعد أن جلس على حجر اجلسهم بجانبه» (99:1 – 2).

والحقيقة أن «تيرو» المنقولة كما هي عن الايطالية إلى العربية، والانكليزية، هي «طيرو»، وفي القاموس السرياني تعني: حظيرة، صيرة، دار، دير للرهبان، مغارة مرتفعة أو في الجبل. لكن الذي نقل الإنجيل من السريانية إلى الايطالية والانكليزية لم يفهمها فاعتبروها اسم علم جغرافياً، فتركها كما هي، مثلها مثل «شيلو» في التوراة التي تعني المغارة أيضاً، فنقلت إلى كل اللغات كاسم عَلَم، وكذا أعيدت إلى العربية، ولقد أشار المترجم الدكتور خليل سعادة في هامش الصفحة إلى «تيرو» التي أبقاها كما هي بقوله: «عبارة الأصل الايطالي مبهمة».

أما «الأردن» فهي «يردن» (مياه أو برك التطهير أو التعميد) وليست نهر الأردن، وقد سبق أن شرحناها كثيراً.

3 . ومن ناحية التواصل، ونقصد به الارتباط العضوي بما قبله وما بعده، فإننا نتوقف عند الأمور المهمة التالية:

أ. التواصل مع ما قبل. لنقرأ:

«حينئذ أجاب يوحنا: يامعلم انغتسل كما أمر الله على لسان موسى؟ قال يسوع: اتظنون أني جئت لأبطل الشريعة والأنبياء؟ الحق أقول لكم، لعمر الله أني لم آت لأبطلها، ولكن لأحفظها، لأن كل نبي حفظ شريعة الله، وكل ما تكلم الله به على لسان الأنبياء الآخرين» (38:1 – 4).

و«لأنه لما كان الله واحداً كان الحق واحداً. فينتج من ذلك أن التعليم واحد وأن معنى التعليم واحد، فالإيمان إذاً واحد. الحق أقول لكم إنه لو لم يُمحَ الحق من كتاب موسى لما أعطى الله داود أبانا الكتاب الثاني. ولو لم يفسد كتاب داود لم يعهد الله بإنجيله إليّ، لأن الرب إلهنا غير متغير. ولقد نطق رسالة واحدة لكل البشر .فمتى جاء رسول الله يجيء ليطهر كل ما أفسده الفجار من كتابي» (6:124 – 10).

ب ـ التواصل مع ما بعد، والذي يتمثل بالتبشير بمحمد:

«أجاب يسوع: إن الآيات التي يفعلها الله على يدي تظهر أني أتكلم بما يريد الله، ولست أحسب نفسي نظير الذي تقولون عنه. لأني لست أهلاً أن أحلّ رباطات جرموق أو سيور حذاء رسول الله الذي تسمونه مسيّا، الذي خلق قبلي وسيأتي بعدي، وسيأتي بكلام الحق ولا يكون لدينه نهاية.

فانصرف اللاويون، والكتبة بالخيبة، وقصوا كل شيء على رؤساء الكهنة الذين قالوا: إن الشيطان على ظهره وهو يتلو كل شيء عليه» (13:42 – 16).

وليس عسيراً أن نجد هذا التبشير بالذي سوف يأتي بعد، قد جعل في الأناجيل الأربعة على لسان يوحنا المعمدان، وأن المقصود بالرسول القادم عيسى المسيح، لكن من المعروف أن عيسى ويوحنا ابنا خالة، وقد ولدا وعاشا في زمن واحد، وقد ولد يوحنا قبل عيسى بستة أشهر فقط، فمن العسير عقلياً ومنطقياً أن يكون أحدهما مبشراً بالآخر في الزمن الواحد.

ويقول برنابا حول تبشير يسوع بمحمد:

«الحق أقول لكم إن كل نبي جاء فإنه إنما يحمل لأمة واحدة فقط علامة رحمة

الله. ولذلك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذي أرسلوا إليه. ولكن رسول الله متى جاء يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم يده. فيحمل خلاصاً ورحمة لأمم الأرض الذين يقبلون تعليمه، وسيأتي بقوة على الظالمين، ويبيد عبادة الأصنام بحيث يخزي الشيطان، لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلاً: انظر فإني بنسلك أبارك كل قبائل الأرض. وكما حطمت ياإبراهيم الأصنام تحطيماً هكذا سيفعل نسلك.

أجاب يعقوب: يامعلم، قل لنا بمن صنع هذا العهد؟ فإن اليهود يقولون بإسحق، والاسماعيليون يقولون باسماعيل. أجاب يسوع: ابن من كان داود ومن أي ذرية؟

أجاب يعقوب: من إسحق، لأن إسحق كان أبا يعقوب، ويعقوب كان أبا يهوذا الذي من ذريته داود.

فحينئذ قال يسوع: ومتى جاء رسول الله فمن نسل من يكون؟

أجاب التلاميذ: من داود.

فأجاب يسوع: لا تغشوا أنفسكم، لأن داود يدعوه في الروح رباً قائلاً هكذا: قال الله لربي اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك موطئاً لقدميك. يرسل الرب قضيبك (سيفك) الذي سيكون ذا سلطان في وسط أعدائك. فإذا كان رسول الله الذي تسمونه مسّيا ابن داود فكيف يسميه داود رباً، صدقوني لأني أقول لكم الحق إن العهد صنع باسماعيل لا بإسحق.

حينئذ قال التلاميذ: يامعلم هكذا كتب في كتاب موسى أن العهد صنع بإسحق.

اجاب يسوع متأوهاً: وهذا هو المكتوب. ولكن موسى لم يكتبه ولا يشوع بل أحبارنا الذين لا يخافون الله. الحق أقول لكم إنكم إذا عملتم النظر في كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبتنا وفقهائنا لأن الملاك قال: ياإبراهيم، سيعلم العالم كله كيف يحبك الله. ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله؟ حقاً، يجب عليك أن تفعل شيئاً لأجل محبة الله. فأجاب إبراهيم: ها هو ذا عبد الله مستعد ان يفعل كل ما يريد الله.

فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلاً: خذ ابنك بكرك اسماعيل واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة. فكيف يكون إسحق البكر وهو لما ولد كان اسماعيل ابن سبع سنين؟

فقال حينئذ التلاميذ: إن خداع الفقهاء لجليّ، لذلك قل لنا أنت الحق لأننا نعلم

أنك مرسل من الله» (13:43 – 1:14;30 – 13).

إن الرسول المدعو إذن، وكما هو واضح، سوف يكون قوياً، يستخدم السيف ضد الشرك والباطل، ولقد استخدمت الأناجيل الأربعة بدلاً من «السيف» كلمة «الرفش» وبدل «القوة» كلمة «النار» والحقيقة إن عيسى المسيح لم يستخدم القوة لا بالسيف ولا بالرفش، وهو لم يكد يؤخذ حتى تفرّق عنه تلاميذه وأنكره بطرس (الذي هو صخرته) ثلاث مرات قبل صياح الديك.

ويضيف يسوع: «صدقوني إنني رأيته، وقدمت له الاحترام كما رآه كل نبي، لأن الله يعطيهم روحه نبوة» (29,28:44).

وحينما التقاه الكاهن الموفد من قبل الملك، «ولما انتهت الصلاة قال الكاهن بصوت عال: قف يايسوع، لأنه يجب علينا أن نعرف من أنت تسكيناً لأمتنا.

أجاب يسوع: أنا يسوع بن مريم، من نسل داود، بشرمائت، ويخاف الله، وأخاف أن يعطى الإكرام والمجد إلا لله.

أجاب الكاهن: إنه مكتوب في كتاب موسى أن إلهنا سيرسل لنا مسّيا الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله، وسيأتي للعالم برحمة الله، لذلك أرجوع أن تقول لنا الحق، هل أنت مسّيا الذي ننتظره؟

أجاب يسوع: حقاً، إن الله وعد هكذا، ولكني لست هو، لأنه خلق قبلي وسيأتي بعدي.

أجاب الكاهن: إننا نعتقد من كلامك وآياتك على كل حال، أنك نبي وقدوس الله، لذلك أرجوك باسم اليهودية كلها وإسرائيل أن تفيدنا حباً في الله بأية كيفية سيأتي مسّيا.

أجاب يسوع: لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي إني لست مسّيا الذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلاً: بنسلك أبارك كل قبائل الأرض، ولكن عندما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأني الله وابن الله. فيتنجس بسبب هذا كلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمناً. حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذي كل الأشياء لأجله، الذي سيأتي من القبلة بقوة وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام، وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر، وسيأتي

برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون.. ومع أني لست مستحقاً أن أحلّ سير حذائه قد نلت نعمة ورحمة من الله لأراه» (1:96 – 15;2,1:97).

... وقال حينئذ الكاهن: ماذا يسمّى مسّيا، وما هي العلامة التي تعلن عن مجيئه؟

أجاب يسوع: إن اسم مسّيا عجيب لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي. قال الله: اصبر يامحمد، لأني لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجماً غفيراً من الخلائق التي أهبها لك، حتى أن من يبارك يكون مباركاً ومن يلعنك يكون ملعوناً. ومتى أرسلتك إلى العالم اجعلك رسولي للخلاص، وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والأرض تهنان ولكن إيمانك لا يهن أبداً. إن اسمه المبارك محمد» (13:97 – 17).

«ولكن يقول الله على لسان حزقيال النبي: «أبعدوا عني ذبائحكم هذه، إن ضحاياكم مكروهة عندي، لأنه يقترب الوقت الذي يتم فيه ما تكلم عنه إلهنا على لسان هوشع النبي قائلاً: إني أدعو الشعب غير المختار مختاراً. وكما يقول في حزقيال النبي: سيعمل الله ميثاقاً جديداً مع شعبه ليس نظير الميثاق الذي أعطاه لآبائكم فلم يفوا به، وسيأخذ منهم قلباً من حجر ويعطيهم قلباً جديداً، وسيكون كل هذا لأنكم لا تسيرون الآن بحسب شريعته وعندكم المفتاح ولا تفتحون بل بالحري تسدون الطريق على الذين يسيرون فيها» (1:67 – 5).

ويقول للمرأة السامرية: «ولكن صدقيني إنه يأتي وقت يعطي الله فيه رحمته في مدينة أخرى» (8:82).

ويقول للتلاميذ: «لا تضطرب قلوبكم ولا تخافوا لأني لست انا الذي خلقكم بل الله الذي خلقكم هو يحميكم. اما من خصوصي فإني قد أتيت لأهيء الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص للعالم. ولكن احذروا أن تغشوا لأنه سيأتي أنبياء كذبة كثيرون يأخذون كلامي وينجسون إنجيلي.

حينئذ قال أندراوس: يامعلم اذكر لنا علامة لنعرفه.

أجاب يسوع: إنه لا يأتي في زمنكم، بل يأتي بعدكم حينما يبطل إنجيلي ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً. في ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء يعرفه أحد مختاري الله، وهو سيظهر للعالم.

وسيـأتي بقـوة عظيمـة على الفجـار، ويبيد عبـادة الأصنـام من العـالـم...» (15 – 1:72).

وحينئذ قال الكاتب (الذي هو برنابا): لقد رأيت كتيباً قديماً مكتوباً بيد موسى ويشوع خادمَيْ ونبيي الله، وهو كتاب موسى الحقيقي، ففيه مكتوب أن اسماعيل هو أب لمسّيا، وإسحق أب لرسول مسّيا، وهكذا يقول الكتاب إن موسى قال: أيها الرب إله إسرائيل القدير الرحيم اظهر لعبدك في سناء مجدك. فأراه الله من ثمّ رسوله على ذراعي اسماعيل، واسماعيل على ذراعي ابراهيم. ووقف على مقربة من اسماعيل إسحق وكان على ذراعيه طفل يشير بإصبعه إلى رسول الله قائلاً: هذا هو الذي لأجله خلق الله كل شيء.

فصرخ من ثـمّ موسى بفرح: ياإسماعيل، إن في ذراعيك العالم كله والجنة، اذكرني أنا عبد الله لأجد نعمة في نظر الله بسبب ابنك الذي لأجله صنع الله كل شيء..

لا يوجد في ذلك الكتاب أن الله قد حصر رحمته في إسرائيل فقط، بل إن الله يرحم كل إنسان يطلب الله خالقه بالحق. لم أتمكن من قراءة هذا الكتاب كله لأن رئيس الكهنة الذي كنت في مكتبته نهاني قائلاً: «إن اسماعيلياً قد كتبه».

فقال حينئذ يسوع: انظر ان لا تعود أبداً فتحجز الحق. لأنه بالإيمان بمسّيا سيعطي الله الخلاص للبشر، ولن يخلص أحد بدونه» (191:3 – 1:192;10 – 6).

وكان هذا القول سبباً في أن يسوع المسيح سأل برنابا قائلاً: «قل لي أيها الأخ، وأنت الفقيه المتضلع من الشريعة، بأيِّ ضَرب موعد مسّيا لأبينا إبراهيم؟ أبإسحق أم بإسماعيل.

أجاب الكاتب (برنابا): يامعلم أخشى أن أخبرك عن هذا بسبب الموت، فأجاب يسوع: إني آسف أيها الأخ أني أتيت لآكل خبزاً في بيتك لأنك تحب الحياة أكثر من الله خالقك. ولهذا السبب تخشى أن تخسر حياتك ولكن لا تخشى أن تخسر الإيمان والحياة الأبدية التي تضيع متى تكلم اللسان عكس ما يعرف القلب من شريعة الله. حينئذ بكى الكاتب وقال: يامعلم، لو عرفت كيف أثمر لكنت قد بشرت مراراً كثيرة بما أعرضت عن ذكره لئلاً يحصل شغب في الشعب. فأجاب يسوع: يجب عليك ألا تحترم الشعب ولا العالم كله ولا الأطهار كلهم ولا الملائكة كلهم

إذا أغضبوا الله. فخير أن يهلك العالم كله من أن تغضب الله خالقك ولا تحفظه في الخطيئة لأن الخطيئة تهلك ولا تحفظ، أما الله فقدير على خلق عوالم عدد رمال البحر بل أكثر» (190:1 – 10).

أما مضمون ذلك التواصل فيمكن أن نرسم ملامحه ضمن النقاط البارزة التالية:

1) أن الله أحد قادر، خالق كل شيء، ولا تدركه الحواس:

«فقال يسوع: إنه مكتوب هناك أن الله لا يُرى، وهو محجوب عن عقل الإنسان لأنه غير متجسد وغير مركب وغير متغير» (9:95).

2) خلق آدم من الطين واسكنه وزوجه الجنة، فأغواه الشيطان فأهبط إلى الحياة الدنيا دار البلاء، ورحمه الله بأن أرسل له الأنبياء لتذكيره من اجل خلاصه وعودته. وأن عيسى أحد هؤلاء الأنبياء.

«قال يسوع: إنه مكتوب هناك أن إلهنا في كل مكان وأن لا إله سواه الذي يضرب ويشفي ويخلق كل ما يريد..

أيها الرب إلهنا، هذا هو إيماني الذي آتي به إلى دينونتك شاهداً على كل من يؤمن بخلاف ذلك. ثم التفت إلى الشعب وقال: توبوا لأنكم تعرفون خطيئتكم من كل ما قال الكاهن. إنه مكتوب في سفر موسى عهد الله إلى الأبد. فإني بشر منظور وكتلة من طين تمشي على الأرض وفانٍ كسائر البشر، وإنه كان لي بداية وسيكون لي نهاية، وإني لا أقدر أن ابتدع خلق ذبابة» (145:15 – 20).

وحينما شهد الناس آياته العجيبة تجمهروا عليه قائلين إنه الله أو ابن الله، حينئذ «صفع يسوع وجهه بكلتا كفيه فحدث على إثر ذلك نحيب شديد حتى لم يسمع أحد ما قال يسوع. فرفع يده مرة أخرى إيماء للصمت ولماهدا نحيب القوم تكلم مرة أخرى: أشهد أمام السماء، وأُشهد كل شيء على الأرض اني بريء من كل ما قد قلتم، لأني إنسان مولود من امرأة فانية بشرية وعرضة لحكم الله، مكابد لشقاء الأكل والمنام وشقاء البرد والحر كسائر البشر. لذلك متى جاء الله ليدين يكون كلامي كحسام يخترق كل من يؤمن بأني أعظم من إنسان» (93:6 – 11).

3) وأن الله خلق الإنسان ليكون خليفته على الأرض في الجنة التي هي المحلة الآمنة:

«لأن إلهنا لم يخلق الإنسان ليبقيه في العالم بل ليضعه في الجنة» (1:140).

4) وأن الله أخزى إبليس بخطيئة الكبرياء:

«الحق أقول لكم إن إبليس لم يُخز إلا بخطيئة الكبرياء، كما يقول النبي اشعيا موبخاً إياه بهذه الكلمات: كيف سقطت ياكوكب الصبح، يامن كنت جمال الملائكة، حقاً إن كبرياءك قد سقطت للأرض» (34:11 – 13). ولقد كان إبليس رئيساً للملائكة في الجنة لما كان عليه من الإدراك العظيم (8:35)، فمسخه الله شيطاناً قبيحاً «فلما رفع الملائكة الأطهار رؤوسهم رأوا شدة قبح الهولة التي تحول الشيطان إليها» (18:35). و: «ألا تعلم أن خطيئة واحدة مسخت أجمل ملاك إلى شر شيطان مكروه؟ وأنها قد حولت أكمل إنسان جاء إلى العالم وهو آدم مخلوقاً شقياً وجعلته عرضة للمعاناة، ولما نكابد نحن وسائر ذريته» (6:129 – 7).

وفي النصوص السورية القديمة تتكرر عبارة «نهاية الزهو مخافة الله» في كل النصوص. وإن الآيات التي تنهى عن الزهو والتكبر أكثر من أن تحصى في القرآن الكريم. والتكبر أو الاستكبار كان خطيئة إبليس التي سببت في مسخه وهبوطه من الجنة.

5) وإن الحياة في هذا العالم هي مكابدة للخطيئة:

«قولوا لي أيها الأخوة هل هذا العالم وطننا؟ لا، البتة، فإن الإنسان الأول طرد إلى العالم منفياً، فهو يكابد فيه عقوبة خطأه» (17:140 – 18).

6) وأن الله يرسل الرسل والأنبياء رحمة بالبشر لمساعدتهم من أجل الخلاص والعودة إلى الجنة فيرثون الأرض من غير شر.

أما تعليم الأنبياء فهو عن طريق الوحي الذي ينزل على القلب (الروح + العقل)، لأن الله نفخ في الإنسان من روحه وبه يتم تلقي الوحي: «الحق أقول لكم إن إلهنا لما خلق الإنسان لم يخلقه باراً فقط، بل وضع في قلبه نوراً يريه أنه خليق به خدمة الله. فلئن أظلم هذا النور بعد الخطيئة فهو لا ينطفىء» (15:78 – 16). «لذلك وجب أن يعلم الإنسان عن أنبياء الله لأن النور الذي يعلمهم طريق العودة إلى الجنة وطننا بخدمة الله واضح» (18:78).

والوحي ينزل على القلب: «صدقوني إنه لما اختارني الله ليرسلني إلى بيت

إسـرائيل اعطـاني كتـابـاً يشبه مرآة نقية نزلت إلى قلبي حتى ان كل مـا اقول يصـدر عن ذلك الكتـاب، ومتى انتهى صدور ذلك الكتـاب من فمي أصعد عن العالم. أجاب بطرس: يامعلم، هل مـا تتكلم به مكتوب في ذلك الكتاب؟
أجاب يسوع: إن كل مـا أقوله لمعرفة الله ولخدمة الله ولمعرفة الإنسان ولخلاص الجنس البشري، إنمـا هو جميعه صـادر من ذلك الكتاب هو إنجيلي» (168:2 – 6).

إن هذا يؤكد مـا سبق أن بيّناه من أن القلب لطيفة ربانية ظاهرهـا العقل وباطنها الروح، وأن الوحي ينزل بشكل برنـامج مرمّز يترجمه العقل من خلال اللغة المحفوظة لديه في الذاكرة إلى كلمات. وهذا هو قصد يسوع حينما قـال: «نزل على قلبي.. ومتى انتهى صدوره من فمي...» وكلمة «إنجيل» تعني الوحي.

ولهذا قـال ايضـاً: «أيها الرب الإله القدير الغيور الذي ينتقم في عبادة الأصنـام من أبناء الآبـاء عبدة الأصنـام حتى الجيل الرابع، إلعن إلى الأبد كل من يفسد إنجيلي الذي أعطيتني عندمـا يكتبون أني ابنك، لأني أنـا الطين والتراب خادم خدمك، ولم أحس نفسي قط خـادمـاً صـالحـاً لك لأني لا أقدر ان أكافئك على مـا اعطيتني لأن كل الأشيـاء لك، أيهـا الرب الإله الرحيم الذي تظهر رحمة إلى الف جيل يخافونك، ارحم الذين يؤمنون بـالكلام الذي اعطيتني إياه لأن كلمتك التي تكلمتهـا هي حقيقيـة، كمـا انك أنت الإله الحقيقي لأنها كلمتك أنت، فـإني كنت اتكلم دائمـاً كمن يقرأ ولا يقدر أن يقرأ إلا مـا هو مكتوب في الكتاب الذي يقرأه. هكذا قلت مـا قد أعطيتني إياه» (212:5 – 11).
ولمـا كـان العقل هو الذي يترجم عن الروح إلى الحـواس فهـو يحتل مـرتبـة متوسطة بينهـا وبين حواس الجسد: «لأنهم لو عـاشوا بحسب العقل الذي اتخذ موضعـاً متوسطـاً في الإنسـان لاتبعوا شـريعة الله وخلصوا من الموت الأبدي» (142 – 21).

7) ولمـا كانت اللغة أعجز دائمـاً من أن تستوعب الوحي الإلهي. وتنقله كمـا هو، فقد بقي الإشكـال أو التشـابه فيمـا ينقل عن طريق الكلام ممـا يجعل له معنى قريبـاً ظاهـراً ومعنى بعيداً بـاطنـاً.
«قال متّى: يـامعلم، إنك لقد اعترفت امـام اليهودية كلها بأن ليس لله من شبه

كالبشر، وقلت الآن إن ا لإنسان ينال من يد الله، فإذا كان لله يدان فله، إذن، شبه البشر.

أجاب يسوع: إنك لفي ضلال يامتّى، ولقد ضلّ كثيرون هكذا إذ لم يفقهوا معنى الكلام. لأنه لا يجب على الإنسان أن يلاحظ ظاهر الكلام بل معناه، إذ الكلام البشري بمثابة ترجمان بيننا وبين الله. الا تعلم أنه لما أراد الله أن يكلم آباءنا على جبل سيناء صرخ آباؤنا: كلمنا أنت ياموسى ولا يكلمنا الله لئلا نموت. وماذا قال الله على لسان أشعيا النبي، أليست كما بعدت السموات عن الأرض هكذا بعدت طرق الله عن طرق الناس وأفكار الله عن أفكار الناس» (7:104 – 12).

وفي مكان آخر نقرأ:

«أجاب فيليبس: ولكن كيف يجب فهم قول النبي عاموس أنه لا يوجد شر في المدينة لم يصنعه الله؟

أجاب يسوع: انظر الآن يافيليبس، ما أشد خطر الاعتماد على الحرف كما يفعل الفريسيون الذين قد انتحلوا لأنفسهم اصطفاء الله للمختارين على طريقة يستنتجون منها فعلاً، أن الله غير بار، وأنه كاذب وخادع ومبغض، (للدينونة التي ستحل بهم). لذلك أقول إن عاموس نبي الله يتكلم هنا عن الشر الذي يسميه العالم شراً، لأنه لو استعمل لغة الأبرار لما فهمه العالم، لأن كل البلايا حسنة. فهي إمّا حسنة لأنها تطهر الشهر الذي فعلناه، وإما حسنة لأنها تمنعنا عن ارتكاب الشر، وإمّا حسنة لأنها تعرّف الإنسان حال هذه الحياة لكي نحب ونتوق إلى الحياة الأبدية. فلو قال النبي عاموس: ليس في المدينة من خير إلا كان الله صانعه لكان ذلك وسيلة لقنوط المصابين متى رأوا أنفسهم في المحن، والخطأة في سعة من العيش، وأنكى من ذلك أنه متى صدّق كثيرون أن للشيطان سلطة على الإنسان خافوا الشيطان وخدموه تخلصاً من البلايا» (15:161 – 23).

وإن في قوله «فهي إمّا حسنة لأنها تطهّر الشر الذي فعلناه» تأكيداً آخر على الفكرة التراثية العربية القائلة بأن ما يصيب الإنسان في حياته الدنيا من محن إنما هو حساب يوفيه عن شرّ فعله من قبل ﴿كي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾.

8) وإن الشيطان يدخل على القلب (على الروح) كما يدخل الوحي إذا لم يلق

مقاومة، إنه «برنامج» يدخل ليترجم إلى الحواس عن طريق العقل أو النفس عملاً أو قولاً شريراً.

يقول يسوع: «فلأي غاية يرمي سليمان إذ يقول «احفظ قلبك كل الحفظ». لعمر الله الذي تقف في حضرته نفسي يقال كل شيء في الأفكار الشريرة التي تكون باعثاً على ارتكاب الخطيئة، لأنه لا يمكن ارتكاب الخطيئة بدون فكر. ألا قولوا لي متى غرس الزراع الكرم ألا يزرع النبات على عمق غائر؟ بلى، وهكذا يفعل الشيطان الذي إذا زرع الخطيئة لا يقف عند العين أو الأذن، بل يتعدى إلى القلب الذي هو مستقر الله». (6:74 – 11).

«إن الله يفعل صلاحاً بالإنسان كما ان الشيطان يفعل شراً. لأن الإنسان بمثابة حانوت، من يدخله، برضاه، يشتغل ويبيع فيه» (7:94 – 8).

9) وإن للجحيم سبعة أبواب أو دركات:

«ياتلاميذي، إن الجحيم واحدة، وفيها يعذب الملعونون إلى الأبد، إلا أن لها سبع طبقات أو دركات الواحدة منها أعمق من الأخرى» (1:59).

وكما أكد القرآن الكريم أنه ما من أحد ﴿ إلا واردها ﴾ ويعني الجحيم، فإن هذا هو ما ذكره برنابا عن لسان عيسى المسيح: «فذعر التلاميذ لما سمعوا هذا وقالوا: أيذهب إذن المؤمنون إلى الجحيم؟

أجاب يسوع: يتحتم على كل أحد اياً كان أن يذهب إلى الجحيم.. أما الأبرار فإنهم لا يكابدون إلا الخوف. وأما المؤمنون فسيكون لهم تعزية لأنه لعذابهم نهاية» (6:136 – 5,9).

ومن الواضح جداً هنا أن المقصود بالجحيم الحياة الدنيا بكل درجاتها وطبقاتها. ولقد حدّد السيد المسيح مدة البقاء في التقلب في عذاب هذه الحياة الدنيا بسبعين ألف سنة حتى لبعض المؤمنين: «أما ما يختص بالمؤمنين الذين لهم اثنان وسبعون درجة، مع أصحاب الدرجتين الأخريين الذين كان لهم إيمان بدون أعمال صالحة فسيمكثون في الجحيم سبعين ألف سنة» (17:136). وأما الكافرون الذين لا أمل فيهم «ففي هذه البقعة الملعونة يقيم الكافرون إلى الأبد، حتى لو فرض أن العالم مليء حبوب دخن، وكان طير واحد يحمل حبة واحدة منها كل مائة سنة إلى انقضاء العالم لَسُرَّ الكافرون لو كان يتاح لهم بعد

انقضائه الذهاب إلى الجنة. ولكن ليس لهم هذا الأمل إذ ليس لعذابهم من نهاية، لأنهم لم يريدوا أن يضعوا حداً لخطيئتهم حباً في الله» (136:1 – 3).
إن في قوله «أما ما يختص بالمؤمنين.. الذين كان لهم إيمان بدون أعمال صالحة فسيمكثون في الجحيم سبعين ألف سنة» تأكيداً على فكرة التناسخ التراثية الأخرى، «وسيكون لهم تعزية لأن لعذابهم نهاية» إذ يخلصون بعدها من كرّة الحياة والموت إلى الحياة الخالدة في مقام الأبرار.
إن هذا هو ما أكده القرآن الكريم أيضاً. غير أنه لابدّ من التوقف قليلاً عند دخول المؤمنين الجحيم ممن لا يعملون أعمالاً صالحة، أو الذين يعملون أعمالاً صالحة دون إيمان. فقد رأينا كيف أن القرآن الكريم يقرن دائماً عبارة ﴿ الذين آمنوا ﴾ بعبارة ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ تأكيداً على أن الإيمان وحده لا يكفي للخلاص من عذاب العالم الفاني إلى العالم الخالد الذي لا موت فيه. وهذا يؤكد مرّة أخرى فكرة تناسخ الأرواح، وأن الحياة الدنيا هذه بعض أبواب الجحيم.
أما النقطة الأخرى الملفتة هنا للنظر إلى درجة كبيرة فهي تحديد يسوع المسيح بمدة بقاء هؤلاء في هذا النوع من الجحيم سبعين ألف سنة. إن هذا الرقم انفرد به إنجيل برنابا وحده بين الأناجيل الأخرى والتوراة. ولم يرد أي ذكر لهذا الرقم إلا في القرآن الكريم.
ففي سورة «الحاقة» نقرأ: ﴿ ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانيه. خذوه فغلّوه، ثم الجحيم صلوه، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم، ولا يحضّ على طعام المسكين ﴾ (الحاقة: 28 – 33).
ففي هذه الآيات ثمة أمران مميزان: الأول هو أن هذا الذي لم يكن مؤمناً بالله العظيم، ولم يحض على طعام المسكين، فقد وفّي أجره في حياته الدنيا بالمال والسلطان ثم يصلى الجحيم. كيف؟ «ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه»، وهذا هو الأمر المميز الثاني في هذه الآيات. فنحن هنا أمام واحدة من الصيغ القرآنية المحكمة المعجزة التي لم تلفت أنظار جميع الشراح والمفسرين حتى اليوم، وذلك نتيجة لتمسكهم بحرفية الكلام القرآني وبتسطيحهم لكل معانيه من خلال تشبثهم بالمعنى الحرفي الظاهر لمدلول الكلمة القريب. ألم يسأل أحد شرّاح هذه الآية نفسه: لماذا استخدم القرآن

الكريم كلمة «ذرع» بمعنى مقياس، واختار الذراع تحديداً للقياس؟ ثم كيف «يُسلَكُ» الإنسان في سلسلة؟ وهل «السلسلة» في معناها الظاهر تدلّ على شيء مجوّف كالأنبوب أو الدهليز أو ما شابه؟ ألا يحدث الإسلاك أو التسليك في «سلسلة» تناقضاً عقلياً يدفع بالشارح إلى إعمال العقل خلف المدلول الأبعد للكلمات؟

أوليس يقودنا ذلك إلى الاعتقاد بأن هذه الآية هي من الآيات المتشابهات؟ إننا نقول ــ دونما تردد ــ بلى، إنها من الآيات المتشابهات التي أحكمت كلماتها بدقة لا تترك المجال لأية كلمات أخرى في قاموس اللغة العربية أن تحلّ محلّها، فجاءت «ترجمة» مذهلة كلاماً ورقماً، للترميز الرباني الذي نزل وحياً على الروح. إن كلمة «ذراع» هنا هي قياس فعلي، لكن ليس للطول أو للمسافات، وإنما هي هنا قياس للزمن، ومقدارها متضمن في حروفها، وهذا هو أحد أبواب الإعجاز القرآني الذي تحدّى به الإنس والجن. فلو حسبنا قيمة أحرف «ذرع» أو «ذراع» لوجدنا الآتي: ذ =700 ، ر =200 ، ا =1 ، ع =70 ، فتكون القيمة العددية للكلمة هي 971 سنة شمسية التي تعادل الف سنة قمرية بالضبط. إذ من المعروف أن كل مائة سنة شمسية تقريباً (لأن هناك كسوراً زهيدة جداً لا تكاد تذكر) تعادل 103 سنة قمرية.

وبناء على هذا فإن الألف سنة القمرية تعادل 970 سنة شمسية، ومع حساب الكسور الزهيدة فهي 971 بالدقة والتحديد. وعليه فإن «ذرع» السلسلة هو 1000x70 سنة قمرية = 70 الف سنة قمرية، وهو حساب يسوع المسيح الذي نقله إنجيل برنابا، وهو ما يعادل 971x70 سنة شمسية = 67970 سنة شمسية.

إنها المدة التي يقضيها المعاقبون في جحيم الحياة الدنيا في النسخ، ثم ــ وبناء على إنجيل برنابا ــ «فحينئذٍ يقول رسول الله : يا رب، يوجد من المؤمنين في الجحيم من لبث سبعين الف سنة. إني أضرع إليك، يا رب، أن تُعتقهم من هذه العقوبات المرة.... ويكون من مبلغ جدوى دين رسول الله (محمد) أن كل من آمن به يذهب إلى الجنة بعد العقوبة التي تكلمت عنها حتى ولو لم يعمل عملاً صالحاً لأنه مات على دينه» 137:1 – 6,3 .

10) أما عن الجنة فقد «قال يسوع لتلاميذه: ما هو ظنكم في الجنة؟ هل يوجد

عقل يدرك مثل ذلك الغنى والمسرات؟ فعلى الانسان الذي يريد أن يعرف ما يريد الله أن يعطي لعبيده أن تكون معرفته عظيمة على قدر معرفة الله» 1:171 – 2 .

«ولقد رأى هذه المسرات أبونا داود نبي الله، فإن الله أراه إياها إذ يسّر له أن يبصر مجد الجنة. ولذلك لما عاد إلى نفسه غطى عينيه بكلتا يديه وقال باكياً: لا تنظري فيما بعد إلى هذا العالم يا عيني لأن كل شيء فيه باطل، وليس فيه شيء جيد» 5:169 – 7 . «ولذلك اخبركم أن أبانا داود، على كونه قد رآها حقاً لم يرها بعينين بشريتين، لأن الله أخذ نفسه إليه، وهكذا لما صار متحداً مع الله رآها بنور إلهي. لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته لما كانت مسرات الجنة غير متناهية وكان الانسان متناهياً فلا يقدر الانسان أن يعيها كما أن جرة صغيرة لا تقدر أن تعي البحر» 10:169 – 12 . «قال بطرس: أيذهب جسدنا الذي لنا الآن إلى الجنة؟. أجاب يسوع: إحذر يا بطرس من أن تصير صدوقياً، فإن الصدوقيين يقولون إن الجسد لا يقوم أيضاً... ولكن صدقوني إن جسدنا يتطهر على كيفية لا يكون له معها خاصة واحدة من خصائصه الحاضرة، لأنه سيتطهر من كل شهوة شريرة. وسيعيده الله إلى الحال التي كان عليها آدم قبل أن أخطأ» 11,8:173 – 13 . «فمجد الجنة هو طعام الجسد. أما النفس والحس فلهما الله ومحادثة الملائكة والأرواح المباركة. وأما ذلك المجد فسيوضحه بأجلى بيان رسول الله الذي هو أدرى بالأشياء من كل مخلوق لأن الله قد خلق كل شيء حبّاً فيه» 5:176 – 7 .

11) الإيمان الصحيح بالله مع العمل هو الأساس: «إن الله لم يقل إني أغفر للخاطىء في الساعة التي يصوم ويتصدق ويصلّي ويحجَ فيها، وهو ما قام به كثيرون، وهم ملعونون لعنة أبدية. ولكنه قال: في الساعة التي يندب فيها الخاطىء خطاياه أنسى إثمه فلا أذكره بعد. ثم قال يسوع: أفهمتهم؟.

أجاب التلاميذ: فهمنا بعضاً دون بعض.

سأل يسوع: ما هو الذي لم تفهموه؟

فأجابوا: كون كثيرين من الذين صلوا مع الصيام ملعونين.

حينئذ قال يسوع: الحق أقول لكم، إن المرائين والأمم يصلّون ويتصدقون ويصومون أكثر من أخلاء الله، ولكن لما لم يكن لهم إيمان لم يتمكنوا من التوبة،

ولهذا كانوا ملعونين» (89:11 – 18). «ولذلك لا يحاول الشيطان أن يبطل الصوم والصلاة والصدقات والحج، بل هو يحرّض الكافرين عليها لأنه يسرّ أن يرى الإنسان يشتغل بدون الحصول على أجرة» (10:90).

وعن قرن العلم بالعمل قال يسوع: «لعمر الله إن من يعرف الحق ويفعل عكسه يعاقب عقاباً أليماً حتى تكاد الشياطين ترثي له. ألا قولوا لي اللعلم ام للعمل أعطانا الله الشريعة. الحق اقول لكم إن غاية كل علم هي تلك الحكمة التي تفعل كل ما تعلم» (3:77 – 5). «ما أتعس العالم ليس لأن الناس لا يجتمعون اليوم للصلاة، بل إن الشيطان في أروقة الهيكل بل في الهيكل نفسه». «ولعله يخطر في بالكم أن الله أعطى الشريعة حباً في الشريعة. حقاً إن هذا لباطل. بل منح الله شريعته ليفعل الإنسان حسناً حباً في الله. فإذا وجد الله إنساناً يعمل حباً له افتظنون انه يمتهنه؟ كلا ثم كلا، بل يحبه اكثر من الذين أعطاهم الشريعة. إني اضرب لكم مثلاً: كان لرجل أملاك كثيرة وكان من أملاكه أرض قاحلة لم تنبت إلا أشياء لا ثمر لها. وبينما كان سائراً ذات يوم وسط هذه الأرض القاحلة عثر بين هذه الأنبتة غير المثمرة على نبات ذي ثمار شهية. فقال هذا الإنسان حينئذ: كيف تأتّى لهذا النبات ان يحمل هذه الثمار المشهية هنا؟ إني لا اريد أن يقطع أو يلقى في النار مع البقية. ثم دعا خدمه وأمرهم بقلعة ووضعه في بستانه. إني اقول لكم هكذا يحفظ إلهنا من لهيب الجحيم من يفعلون براً أينما كانوا» (7:79 – 15).

إن هذه التعاليم هي التي تعبر حقيقة عن شخصية السيد المسيح احد الأعمدة المتوهجة في تاريخنا العربي وفي تاريخ البشرية على هذا الكوكب ككل. وعلى الطرف النقيض تماماً من هذا نقرأ ما يقوله بولس في رسالته إلى اهل غلاطية: «قولوا لي أنتم الذين تريدون أن تكونوا تحت الناموس، الستم تسمعون الناموس، فإنه مكتوب انه كان لإبراهيم ابنان واحد من الجارية والآخر من الحرة. لكن الذي من الجارية ولد حسب الجسد، وأما الذي من الحرّة فبالموعد، وكل ذلك رمز، لأن هاتين هما العهدان أحدهما من جبل سيناء الوالد للعبودية

الذي هو هاجر، لأن هاجر جبل سيناء في العربية(*)، ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة فإنها مستعبدة مع بنيها. وأما أورشليم العليا التي هي أمنا جميعاً فهي حرة. لأنه مكتوب افرحي أيتها العاقر التي لم تلد. اهتفي واصرخي أيتها التي لم تتمخض، فإن أولاد الموحشة أكثر من التي لها زوج. وأما نحن أيها الأخوة فنظير إسحق أولاد الموعد. ولكن كما كان حينئذ الذي ولد حسب الجسد يضطهد الذي حسب الروح هكذا الآن أيضاً، لكن ماذا يقول الكتاب: اطرد الجارية وابنها لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة. إذ، أيها الأخوة، لسنا أولاد جارية بل أولاد الحرة» (21 – 31). ذاكم هو تعليم «بولس الرسول» الذي يتفجر تعصباً يهودياً صرفاً لا يمتّ إلى شخصية عيسى المسيح بصلة. وهو بولس الذي لم يكن أحد الحواريين والذي كان من ألد أعداء نصارى المسيح وأكبر مضطهد لهم. ثم انضم إلى التلاميذ وكان برنابا هو الذي توسط له كما تتحدث الأخبار والتواريخ. وهو نفسه الذي رافق برنابا في التبشير باسم يسوع المسيح، ثم «اتخذ» لنفسه طريقاً مغايراً حول المسيح، ما لبث أن لقي تشجيعاً من اليهودية، فبرز على السطح، وتلاشى ذكر برنابا. يقول ول ديورانت: «فوضع رؤساء الكنيسة أيديهم على برنابا وبولس وبعثوهما فيما يسميه التاريخ «رحلة القديس بولس التبشيرية الأولى».. وهي تسمية تستخف بشأن برنابا»[1] وإن هذا نفسه هو الذي حدا ببرنابا لوضع إنجيله مع مّتى والذي دعاه «الإنجيل الصحيح ليسوع المسمّى المسيح» (نبي جديد مرسل من الله إلى العالم بحسب رواية «برنابا رسوله»). ويبدأ برنابا إنجيله هكذا:

«برنابا رسول يسوع الناصري المسمّى المسيح يتمنّى لجميع سكان الأرض سلاماً وعزاء.

أيها الأعزاء، إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم. والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن

(*) هذا دليل آخر على أن المقصود هو طور سيناء الذي في شبه جزيرة العرب والذي مازال موجوداً حتى اليوم شرق العقيق وجبل غامد. فالعربية هي «عربت» التي هي برية شبه جزيرة العرب.

(1) ول ديورانت، المرجع السابق، ص254 .

الله، ورافضين الختان الذي أمر الله به دائماً، مجوّزين كل لحم نجس، الذين ضلّ في عدادهم أيضاً بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي ليسوع لكي تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله. وعليه فاحذروا كل أحد يبشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه لتخلصوا خلاصاً أبدياً»[1].

وينهي برنابا إنجيله بهذه الكلمات.

«وبعد أن انطلق يسوع تفرقت التلاميذ في أنحاء إسرائيل والعالم المختلفة، أما الحق المكروه من الشيطان فقد اضطهده الباطل كما هي الحال دائماً، فإن فريقاً من الأشرار المدعين أنهم تلاميذ بشروا بأن يسوع مات ولم يقم، وآخرون بشروا بأنه مات بالحقيقة ثم قام، وآخرون بشروا ولا يزالون يبشرون بأن يسوع هو ابن الله، وقد خدع في عدادهم بولس. أما نحن فإننا نبشر بما كتبت للذين يخافون الله ليخلصوا في اليوم الأخير لدينونة الله. آمين».

أما ما يقوله النقاد حول «أعمال الرسل»، التي تؤلف أعمال ورسائل بولس معظمها، فيلخصه لنا ول ديورانت قائلاً: وقد ضمت في القرن الثاني عدة «أعمال» و«رسائل» مختلفة مشكوك في صحتها، حذفت من الكتاب المقدس تحتوي على عدد من القصص الخرافية تروي حياة الرسل بعد المسيح. وكانت هذه «الأعمال» بمثابة الروايات الخيالية التاريخية لذلك العصر، ولم تكن بالضرورة محاولات يقصد بها الخداع والتمويه، وقد رفضتها الكنيسة المسيحية، ولكن أتقياء المسيحيين آمنوا بها وخلطوها خلطاً متزايداً بالتاريخ الصحيح.

«وينزع النقاد إلى الاعتقاد بصحة معظم ما جاء في رسالة بطرس الأولى، وهي إحدى الرسائل الواردة في العهد الجديد معزوة إلى الرسل الأثني عشر. وننزع كذلك إلى القول بأن صاحب رسالات يوحنا هو نفسه صاحب الإنجيل الرابع الذي لا يزال مؤلفه مثاراً للنزاع. أما باقي الرسائل فيرفضونها لأنهم يشكون كثيراً في صحتها»[2].

---

(1) انجيل برنابا، ص3 .

(2) ول ديورانت، المرجع السابق، ص241 .

12) يؤكد إنجيل برنابا على الختان كجزء من الشريعة، وعلى اختتان عيسى الطفل منذ أن أكمل يومه الثامن، كما يؤكد أن الختان بدأ بآدم الأول، والحقيقة ان الختان تقليد عربي بدءاً من آدم إلى اليوم. وقد كان قدامى المصريين والبابليين يختتنون قبل إبراهيم. فالسوريون كانوا يقومون بالاختتان في يوم عشتار تقدمة لها. ويؤكد ادولف إرمان أن قدامى المصريين كانوا يلتزمون بالختان إلى درجة الصرامة ممّا جعله يعتقد أنهم هم أول من سنّه كتقليد. يقول بهذا الصدد: «كما أنهم كانوا يتميزون عن غيرهم بكثير من العادات ومنها الختان الذي كانوا أول من سنّه، وكان ذلك حقاً بقصد النظافة والطهارة، ومنها كذلك نفورهم من الخنازير»[1].

إن ما استعرضناه من مضامين إنجيل برنابا تجعله يقف بحق حلقة حقيقية في خط التواصل التراثي التاريخي العربي. وإن هذا يجعلنا نعتقد بثقة كبيرة أنه هو إنجيل النصارى الذي كان في أيدي بحيرا الراهب والقس ورقة بن نوفل وغيرهما، وهو الذي اطلع عليه محمد، وهو الذي عناه القرآن الكريم في أكثر من موضع حينما يقول ﴿ مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ﴾ وهو الذي جعل رؤساء النصارى العرب يتعرفون على صحة نبوة محمد من خلال ما علموه في إنجيلهم.

13. وأن الموت والحياة للنفس يقترنان دائماً بمعرفة الله. وكثيراً ما فرّق عيسى المسيح في كلامه بين مفهومي الوفاة والموت.

لنقرأ: «... فمتى رأى الشيطان ذلك أضاف نفسه مع الجسد والحس، وأتى بمقدار وافر من الأوراق اي مقدار من الأشياء الأرضية التي يعطي بها الخطيئة، فمتى اخذها الانسان اعتلّ وأمسى على وشك الموت الأبدي» (2:134 – 4). و«... اذبحوا حالاً العجل المسمّن فيطرب، لأن ابني كان ميتاً فعاش، كان ضالاً فوجد» (20:147 – 27). و«ولكن اسمعوا ما يقول الله على لسان يوئيل النبي: لعمري – يقول إلهكم – لا أريد موت الخاطىء بل أود أن يتحول إلى التوبة» (1:165).

---

(1) ادولف إرمان، المرجع السابق، ص376 .

أمـا النـوم المقصـود فهو نوم النفس أي غفلتها ونسيانها. لنقرأ: «وكما أن المرض الروحي أشـد خطراً من الجسدي فشفاؤه أشد صعوبة. أفيفاخر إذاً تعيس كهذا بعد النوم بالجسد الذي هو ساق الحياة، بينما هو لا يرى شقاءه في أنـه ينـام بـالنفس التي هي رأس الحيـاة؟ إن نـوم النفس هـو نسيـان الله ودينونته الرهيبة» (108:7 – 10)؛ «لعمر الله الذي في حضرته تقف نفسي إنه يجوز الرقاد قليلاً كل ليلة، إلا أنه لا يجوز أبداً الغفلة عن الله ودينونته الرهيبة. وما رقاد النفس إلا هذه الغفلة» (109:5).

ولقد رأينا كيف أن هذه الفكرة التراثية المركزية قد لخصتها لنا بمجملها الآية القرآنية ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها. فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى﴾. فالوفاة والموت والنوم لها مضمون تراثي واحد مستمر في الانجيل والقرآن الكريم.

تلكم كـانت بعض نمـاذج التـواصل التـراثي العربي، والأمثلة أكثر من المجال المتـاح لنـا هنـا للاستطراد خلفها، وحسبنا منها ما تحدثنا عنه إشـارة أو تفصيلاً.





الحلقة الرابعة عشرة

الحضارة العربية السورية والفرع اليوناني

لقد اعتاد كتبة التاريخ في الغرب أن يبتزوا كل شيء. إنهم أحد الوجوه المعبّرة عمّا يدعونه اليوم بـ «حضارة الغرب»: كل شيء مبرّر من أجل امتلاك كل شيء! فبعد أن زوروا التاريخ العربي كله وشرعوا يكتبون تاريخ هذا «الغرب» بدءاً من اليونان، كان لابدّ أن يفصل اليونان عن جذورهم الأصولية واللغوية والحضارية. وكيف السبيل إلى ذلك؟ لا سبيل إلا الإيمان بـ «المعجزات»! ليس للعقل الإنساني أية قيمة إذا كان هذا العقل يقف عثرة في طريق أن يمتلك الغرب كل شيء حتى التاريخ!

يقول كيتو: «إن الازدهار (المفاجيء) للثقافة الأثينية في القرن الخامس كثيراً ما يسمّى «معجزة». وقد كان يطلق على أمراض معينة كذلك في التعبير الدارج عند الإغريق كلمة «معجزة» أو «آتية من الرب». غير أن أحد أصحاب المؤلفات الطبية من الاغريق عبرَ عن حكمة عظيمة بقوله إنه لا يوجد مرض يشذّ عن القاعدة، بل كل الأمراض طبيعية، وكلها آتية من الرب»[1].

هكذا! إن الحضارة تأتي «كالمرض» «من الرب»، وهذا يعبّر عن «حكمة عظيمة»!

ويقول برتراند راسل: «ليس في تاريخ البشر ما يثير الدهشة ويتعذر تعليله كالظهور المفاجيء للمدينة اليونانية»[2].

فهل حقاً تحوّل المفكر و«الفيلسوف» البريطاني هو الآخر «فجأة» و«بمعجزة» إلى الإيمان بالمعجزات، وأسقط دفعة واحدة كل الأسس التي بنى عليها عمارته الفكرية التي بها عرف واشتهر، أم أنه، كغيره، كان ضمن «الجياد» المؤطرة عيونها تجرّ من خلفها عربة السياسة البريطانية الاستعمارية؟ أما نحن فلنا نهج آخر.

لمّا كان ثمة عوامل وشروط أساسية لابدّ من توفرها في «المركز» الذي كان الموطن الأول لنشوء الانسان والحضارة على هذا الكوكب، ومن أجل إزالة كل لبس أو تشويش في ذهن القارئ، أو الباحث المتابع، فقد كان لابدّ من أن نتناول – ومنذ الآن – واقع ذلك الفرع الذي يصرّ الدارسون في الغرب على

---

(1) كيتو، الاغريق، ص123 .

(2) برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة، 1954 .

و: حنا الفاخوري، خليل الجسر، تاريخ الفلسفة العربية، مؤسسة بدران، بيروت، ص26 .

تسميته بـ «معجزة اليونان الحضارية»، من النواحي الطبيعية والسكانية واللغوية، لأن هذه الأشياء الثلاثة هي التي تحكم الانسان وحضارته نشوءاً وتطوراً، كما أن اللغة هي التي تحدّد الهوية القومية للانسان ولحضارته. فما هي حقيقة «اليونان» التاريخية على ضوء هذه العوامل الثلاثة: الأرض (أو الجغرافيا)، السكان، اللغة؟

شبه جزيرة المورة: الجغرافيا والمناخ

إن كلمة «المورة» عربية فينيقية تعني ورقة التوت. وإن نظرة واحدة إلى الجزء الشمالي الشرقي من حوض البحر المتوسط ترينا بالفعل كيف تمتد قطعة من اليابسة في هيئة ورقة توت عملاقة تخرمت أطرافها، وتناثرت من حولها، ولاسيما في الجانب الشرقي منها، في هيئة مجموعة كبيرة من الجزر الصغيرة المتقاربة. وهي شبه جزيرة صغيرة تتفرع عن شبه جزيرة البلقان الكبيرة، وتتصف، على العكس منها، بالضيق والنحافة والتفكك. إنها بلاد صغيرة لا يزيد طولها على 400 كم، وعرضها على 300 كم، تؤلف الأراضي الجبلية منها ثمانين في المئة من مجموع مساحة البلاد، وهذه النسبة تزيد حتى على ما يقابلها في سويسرا. وإذا كانت جبال الألب المركزية أعظم من جبال اليونان واكثر ارتفاعاً فإن الانتقال من مكان إلى آخر أسهل في سويسرا مما هو في اليونان.

«وإذا كانت سويسرا أيضاً قد قسمتها الجبال إلى مقاطعات مستقلة فإن هذه المقاطعات ليست منعزلة كل العزلة بعضها عن بعض، بل إن الطبيعة قد ربطت بينها وهي تدفعها إلى التساند والتعاون في سبيل الدفاع المشترك، وذلك بخلاف بلاد اليونان، فإن جبالها لا يزيد ارتفاعها أبداً على ثلاثة آلاف متر قد قلبتها إلى حواجز ضيقة متشابكة يتيه الإنسان بينها، ولا يستطيع في الغالب، اجتيازها»[1].

وفوق هذا فإن هذه الجبال المتداخلة والمتناثرة في شكل فوضوي هي صخرية

---

(1) محمد كامل عياد، المرجع السابق، ص28.

جرداء في معظمها، تحجز بؤراً ضيقة فقيرة في تربتها لا يصح ان تطلق عليها تسمية السهول. ففي الشمال مقاطعة «طسّاليا» (طست الربة) وهي عبارة عن جوبة منخفضة مستديرة مغلقة كالطاسة أو الطست، تحيط بها الجبال من كل جانب لولا اتصالها بالبحر في خليج باغازاي. وهي أكثر المناطق برودة كما انها أشدها فقراً واكثرها خطراً، إذ هي في الطريق الذي كانت تسلكه قبائل الشمال الهمجية إبّان الغزو مما جعلها فقيرة بسكانها. «وإلى الغرب من «طسّاليا» توجد مقاطعة «ابيرو» التي يدل اسمها على صلابتها كما يقول هوميرو، (وهي من الكلمة الفينيقية أبرو = إسرب، رصاص، والفعل إبَرْ = رصّص) وهي تتألف من هضاب صخرية مجدبة.

أما مقاطعة «أتيكا» («عتيقا» تسمية فينيقية، وتعني القديمة، العتيقة، العجوز، اليابسة) أرض الاثينيين «فهي ذات تربة رقيقة لاتجتذب الفاتحين والمهاجرين»[1]. كما أنها محاطة بسور من الجبال يعزلها عن الداخل تماماً ويجعلها تتجه بكليتها نحو البحر لتستقبل الوافدين من الخارج وليس من الداخل.

وإذا ما انتقلنا إلى شبه جزيرة البيلوبونيز في الجنوب نجد في وسطها مقاطعة «ارقاديا»[*] التي هي، كغيرها، تتألف من مجموعة من الهضاب المفككة المحاطة بمرتفعات وعرة تحول دون اتصالها بباقي أجزاء البلاد، فتتركها كئيبة منعزلة ممّا برّر إطلاق هذه التسمية عليها.

وهي، في الغالب، تستخدم كملاجيء حصينة وتصلح للرعي فقط.

وهكذا تتكامل الصورة لدينا عن شبه جزيرة المورة التي صارت تدعى اليوم «اليونان». إنها رقعة من الأرض الفقيرة تملأها الجبال الصخرية الجرداء الموزعة في كل اتجاه مما يخلق في الأرض جوبات أو منخفضات صغيرة معزولة لا تصلح لقيام أي تجمع بشري كبير ولا لقيام حضارة زراعية. «ولكي ندرك أثر الظروف الجغرافية الطبيعية في مجال تقسيم بلاد اليونان إلى هذه

---

(1) كيتو، المرجع السابق، ص11.

(*) الكلمة تعني في العربية القديمة: الحزن، الندب، وهي في القاموس السرياني من الفعل «رقد» = ندب، بكى، حزن، توحّد، اغْتمّ، ضجر.

الكيانات الصغيرة التي شاعت بينها النزعة الانفصالية سأشير إلى بعض الأمثلة للسلاسل الجبلية الوعرة التي فرقت بلاد اليونان وادّت إلى هذا التقسيم أو التفتيت. فبين قورنثة واتيكا (وهي المنطقة التي تتكون من أثينا والقرى والأراضي المحيطة بها) تقوم جبال جيرانيا Geranea وجبال كيراتا Kerata التي تعترض المضيق الذي يقع بين هاتين المنطقتين. والطريق الوحيدة الموصلة عبر هذه الجبال لا تزيد عن ممرّ ضيق يمتد على الحافة الشرقية لجبال كيراتا لمسافة ستة اميال على ارتفاع يتراوح بين 600 – 700 قدم، وهو ارتفاع يجعل الذين يعبرونه عرضة للرياح التي تهب بين الحين والحين متجهة نحو البحر بقوة شديدة تعرّض حياتهم للخطر. كما يصل هذا الممرّ في بعض الأحيان إلى درجة من الضيق تجعل المسافر يكاد يتأرجح على حافة الهوة السحيقة التي تحدّه من الشرق. وقد ظلت هذه الطرق الخطرة على ما هي عليه حتى شق الامبراطور هادريان (في عصر السيطرة الرومانية) طريقاً أخرى أكثر أمناً تقوم على قاعدة أعرض، وقد اضطر إلى شقّها خصيصاً لهذا الغرض.

«والشيء نفسه ينطبق على الممرّ الذي يصل بين قورنثا وبويوثيا، والذي يمتد على حافة جبل قيثرون Kitheron. ومن أمثلة الخطورة التي يتعرض لها الذين يعبرون هذا الممرّ ما يحدثنا به المؤرخ كسينوفون عمّا حدث في 378 ق.م حين اضطرت قوة اسبرطية أمام خطر الرياح الشديدة أن تلقي بدروعها جانباً حتى يستطيع الجنود أن يعبروا هذا الممرّ على أيديهم وأقدامهم. وليست هذه هي السلاسل الجبلية الوحيدة التي يصعب عبورها، بل هناك أمثلة أخرى كثيرة من بينها جبال هليكون Helikon(*) التي تفصل بين بويوثيا وفوقيا. وجبال «فندو» Pindo(**) التي تفصل بين طسّاليا وابيرو، وكلها لا تقل وعورة عن الجبال التي

(*) من العربية القديمة (السريانية والفينيقية) وتعني المشاء، الماشي على قدميه. وهي من الفعل «هلك» في القاموس السرياني ويعني مشى. ومن الكلمة جاءت تسمية مدرسة «هليكي» (المشائين) التي أسسها ارسطو في اثينا. ثم تحولت الكاف في اللاتينية إلى (C) وصارت «هليسيي» أو «اليسيي» بمعنى مدرسة المشائين، ثم انتقلت إلى اللغات الأوروبية الحديثة فصارت بالفرنسية Lycée وتعني معهد، مدرسة.

(**) تعني كلمة «فندو» في القاموس السرياني الشعلة.

نكرت شيئاً عنها، كما أن الممرات التي تخترقها تتميز بنفس الاتجاه نحو الارتفاع الذي يصل في المتوسط إلى 3000 قدم فوق سطح البحر. وقد يزيد كثيراً عن ذلك في بعض الحالات، وهو ارتفاع يقف عقبة في سبيل الاتصال السهل، كما رأينا، إلى جانب أنه يجعل هذه الممرات مغطاة بالثلوج طيلة فترة الشتاء، ويفقدها، بالتالي، قيمتها كوسيلة للانتقال في هذا الفصل»[1].

وإذا كان المناخ في اليونان يمتاز بالاعتدال فإن الأرض، على العكس من ذلك، فقيرة، مجدبة، إنها، كما ذكرنا، ارض جبلية صخرية وعرة قاسية جرداء، تنقصها التربة الضرورية للانبات بوجه عام. وإن الأراضي الصالحة للزراعة تكاد تكون نادرة، وحتى المراعي تكاد تكون نادرة هي الأخرى ومثلها الغابات.

«أما لماذا كانت بلاد الاغريق فقيرة على هذا النحو، وإلى تلك الدرجة، فإن بإمكاننا أن نجد جواباً «رصيناً» على الأقل عن هذا السؤال في وصف «أتيكا» الذي كتبه أفلاطون في «كريتيا» وهو وصف شيق جداً يقول فيه: «إنها مجرد هيكل لما كانت عليه في الماضي، لأنها تبرز من الجزء الرئيسي من البلاد إلى البحر مسافة كبيرة مثل الصخرة العالية والبحر من حولها عميق كله، وأثناء هذه التسعة الآلاف من السنين هبت كثير من العواصف العاتية، غير أن التربة التي جرفتها من الأقاليم العالية لم تكوّن أي سهل رسوبي يستحق الذكر كما حدث لجهات أخرى، ولكنها تلاشت في كل مكان وضاعت في قاع البحر. ولو أننا قارنّا ما بقي منها الآن والذي يوجد كذلك في الجزر الصغيرة بما كان موجوداً عندئذ لرأيناه أشبه بهيكل عظمي لجسد أنهكه السقم، فقد زالت التربة الخصبة تاركة هيكل الأرض فقط»[2].

«ثم إن بلاد اليونان تنقصها، قبل كل شيء، المياه اللازمة للزراعة، وهذا النقص لا يرجع سببه إلى قلة الأمطار، إن الكمية التي تهطل فيها يبلغ معدلها السنوي أكثر من 400 مم، ولكنها ليست موزعة بصورة متناسبة على مختلف الفصول.

---

(1) لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص38 .

(2) كيتو، المرجع السابق، ص38 .

إنها تنحصر في أشهر الشتاء القصيرة، بل في أيام معدودات من هذا الفصل، وكثيراً ما يحدث أن ينهمر في يوم واحد من المطر ما يعادل ربع الكمية السنوية كلها. ولكن هذه المياه إنما تؤلف سيولاً وتصب في البحر فلا تستفيد منها الأرض شيئاً.. ينتج عن ذلك أن الأرض في أشهر الصيف يسودها الجفاف المطلق، وتنضب الينابيع وتنقطع الأنهار بالمرة أو تنقلب إلى جداول حقيرة»[1].

إن شبه جزيرة المورة كانت في الألف الأول قبل الميلاد، وما تزال تمتد مثل هيكل عظمي عتيق كثير النتوءات والتجاويف. فلقد وصفها افلاطون كما وصفها الكاتب السوري هيسيود الذي اضطر أن ينزح مع أبيه من شمال سوريا إلى سقارة»[*] في بويوثيا حيث كان قد استوطن قدموس وجماعته من الفينيقيين قبله بألف عام، وكثيراً ما ردّد تذمّره من فقر الأرض وسوء المناخ «الكريه في الشتاء والصعب في الصيف». وفي إحدى الرسائل القصيرة المنسوبة إلى ابو قراط عنوانها «الأهوية والمياه والأماكن» نجد تلك الصورة الكئيبة عن المناخ هناك الذي حرم اليونان منذ القدم من أن تكون بلداً صالحاً للتجمعات البشرية الزراعية.

ولقد دهش كيتو مؤلف كتاب «الإغريق» حينما زار اليونان ولمس فيها على حد تعبيره «طرفاً من اعمال زيوس المهتاج». فقد كتب يقول: «كنت اشقّ طريقي مصعداً في احد وديان ارقاديا.. فوصلت فجأة إلى قطعة من الأرض تمتد اثني عشر فداناً على وجه التقريب، كانت تتناثر عليها صخور مستديرة كبيرة أو صغيرة بحيث لم يكن يرى منها سطح الأرض. فكانت تبدو كأنها شاطىء البحر الصخري. وكان في وسطها منزل مدفون إلى وسطه في الحطام، وقد كانت هناك مزرعة قبل ذلك بيومين، غير أن عاصفة هبت عليها من فوق جبل «طور طوفانو» Tour Tofano (جبل الطوفان) على بعد أميال كانت هذه نتيجتها»[2].

اما من حيث ثروات الأرض المعدنية فقد كانت بلاد الإغريق فقيرة في المعادن،

---

(1) محمد كامل عياد، المرجع السابق، ص36،35 .

(*) «سقارا» في الفينيقية تعني الحقيرة، المقيتة (انظر القاموس السرياني).

(2) كيتو، المرجع السابق، ص39 .

فقد كان يوجد فيها القليل من الذهب والفضة والرصاص والنحاس، ولم يكن هناك حديد بالمرة، وفضلاً عن ذلك فلم يكن هناك فحم حجري[1].

ولم تكن طبيعة الشواطيء الصخرية المرتفعة ومياه البحر العميقة المحيطة بها تصلح لبناء الموانيء مما لم يشجعّ السكان الأصليين إلى التوجه نحو التجارة أو البحر. «ولم يكن الإغريق تجاراً في تلك العهود القديمة. فأدوات الترف التي كانت توجد بوفرة في بيوت الأغنياء كانت تأتي من الشرق في السفن الفينيقية»[2]، «وكانت التجارة الدولية إذ ذاك في أيدي فينيقيا، وقد ظل الفينيقيون محتفظين بها في البحر الأبيض المتوسط حتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد»[3].

إن هذه الصورة الكئيبة لشبه جزيرة المورة تربة ومناخاً، مياهاً وأنهاراً، ثروات وشواطيء وموانيء، تضاريس وسكاناً، لم تكن صالحة لقيام أي تجمع سكاني حضاري سواء على صعيد الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو حتى الرعي، وذلك على خلاف الصورة التي نجدها في البلاد السورية القديمة او في بلاد وادي النيل وحتى في شبه جزيرة العرب حيث السهول الخصيبة العظيمة الممتدة مئات الكيلومترات ترويها انهار الدواسر، وبيشه، والفرات والدجلة وبردى والعاصي، والنيل، وحيث اقيمت على ضفافها أولى مدن الحضارة في التاريخ منذ عشرة آلاف سنة قبل الميلاد، وازدهرت فيها أول حضارة للانسان على كافة الصعد الثقافية والاقتصادية والعلمية والفنية والدينية وغيرها.

إن هذا الواقع من شأنه أن يسقط من حسابنا الشرط الأول لنشوء التجمعات البشرية الأولى، الا وهو شرط الأرض والمناخ الملائمين. ومن شأن ذلك ايضاً أن يدفعنا إلى البحث عن حضارة وافدة إلى تلك المنطقة لا نابعة منها، خاصة ونحن أمام حقيقة تاريخية ثابتة لا يماري فيها أحد، وهي أن شبه جزيرة المورة خلو من كل مظاهر الحضارات الأخرى ما قبل الزراعية بشتى مراحلها،

---

(1) المرجع نفسه، ص34.

(2) المرجع نفسه، ص48.

(3) ول ديورانت، المرجع السابق، حياة اليونان، ص94.

تلك التي تطفح بها الأرض العربية السورية والمصرية على حد سواء دونما انقطاع، ومن الخليج العربي شرقاً حتى شواطىء الأطلسي غرباً.

شبه جزيرة المورة: السكان، المدن

نحن الآن زمنياً مابين الألفين الثاني والأول قبل الميلاد. إن نظرة واحدة نلقيها على الخارطة السكانية والحضارية للعالم القديم في أوروبا وآسيا تكشف لنا الصورة التالية: إنسان أوروبا يسكن المغاور والكهوف، يعيش على الصيد وعلى أكل لحوم البشر، وقد دعته المصادر الكلاسيكية القديمة بـ «الصقلاب»(*) Syclop. إن إنسان الكهف الهمجي هذا هو الذي اصطدم به قدموس الصوري وجماعته في أرض بويوثيا(**) إبان عزمه على بناء مدينة طيبة أولى المدن في شبه جزيرة المورة، وظل يقاتله لثلاثة اجيال إلى ان انضم إلى جماعته خمس قبائل ممن كانوا قد سبقوه من السوريين المهاجرين ودعوا بـ «الآخيين» (من أحينو = قريب، نسيب، حليف، ابن العشيرة) إن هذا الإنسان الهمجي القاتل المدمّر المعادي لكل اسباب الحضارة هو ما كان يطلق عليه السوريون الأقدمون في كتاباتهم لقب الثعبان ساكن الجحور: «وكان ثمة غابة قديمة لم تمسسها بلطة، يتوسطها غار تكسوه غصون صفصافة كثيفة، وتشكل جدرانه الصخرية قبواً منخفضاً يتدفق من تحته ينبوع ثرّ، وكان بالغار ثعبان.. وبلغ الرحالة القادمون من مدينة صور إلى الغار المشؤوم، واخذوا يغترفون الماء بجرارهم، فأزعجوا الثعبان الذي اخرج راسه من أعماق الغار.. وحينما امتلأت الأرض بجنود مسلحين بالتروس فزع قدموس حينما رأى هذا العدد من الأعداء الجدد، وشهر سلاحه مستعداً للنضال. فصاح به احد المحاربين الذين أنبتتهم الأرض قائلاً: «لا تشهر سلاحك، ولا تقحم نفسك في هذا الصراع القبلي». وكانت الربة قد طلبت إلى أحد الخمسة الباقين وهو «أخيون»، مساعدته فاستجاب لها، ووعدها الا يقاتل، وطلب إلى إخوته الأربعة ان يفعلوا فعله.

(*) الصقلاب والصقلاب تعني النهم، الشره، الأكول، جيل من الناس غليظ العظم احمر الشعر..

(**) بيوثيا هي في القاموس السرياني تعني: اهل البيت، الأقارب، العشيرة، القبيلة، الرهط، العائلة، الأهل، الهيكل.. اي ارض العشيرة.

وفي صحبة هؤلاء الرفاق الخمسة الباقين بدأ قدموس القادم من فينيقيا يشيد مدينته التي أوصاه الوحي في دلفي ببنائها. وشيدت مدينة «طيبة»، وفيها بدا لقدموس أنه وجد السعادة في مغتربه. وتزوج النبيلة هارمونيا، وأنجب منها أبناء وبنات، أنجبوا له أحفاداً أعزاء وضعوا تقاليد الأسرة وأرسوا روابط التعاطف بين أفرادها»[1].

إن جماعة قدموس ـ كما هو واضح من القصة الأسطورة ـ اصطدموا بسكان الكهوف (الثعبان أو التنين)، وتعرفوا في تلك الحرب على رفاق لهم كانوا قد سبقوهم إلى هناك، هم عشيرة الآخيين، الذين أمرتهم الربة بالانضمام إلى أبناء جلدتهم القادمين الجدد، ومساعدتهم في بناء مدينة طيبة. وإن السكان الأصليين لم يعرفوا تقاليد الأسرة والزواج وبناء المدن قبل مجيء قدموس، وهم الذين أذاقوا الأخوات السوريات راهبات الربة «سيريس» (الزرّاعة) الأمرّين من أجل تعليمهم زراعة حبوب القمح وطقوس ديانة الخصب السورية[2]. وإن هذا الإنسان الوحشي هو الذي تحدث عنه السوريون المستوطنون في جنوب ايطاليا للكاهن الطروادي عنيا (أنياس) وجماعته النازحين إلى هناك: «لقد شرع الملك أفاندر يخبر عنيا (انياس) بالكثير من أحوال البلاد، وكيف كانت في الأيام الماضية مأهولة بشعب متوحش، يعيش عيشة الوحوش»[3]... «ولما هرب رفاقي من هذا الشاطىء اللعين، تركوني في كهف الصقلاب، وهو مخيف الهيئة، وحشي المنظر، قد جاوز الحدّ في ضخامة الجسم، ويتغذى بلحم البشر. وقد رأيت بهاتين العينين كيف مدّ يده وقبض على اثنين من رفاقي، وسحقهما على الحجارة سحقاً، أجل، وقد رأيت أطرافهما ترتجف بين أسنانه»[4].

إن إنسان أوروبا هو ذاك في ذلك الزمن، وهو نفسه فيما وراء النهروشمال البحر الأسود بعد أكثر من ألفي عام من ذلك التاريخ كما وصفه الرحالة العربي

---

(1) أوفيد، مسخ الكائنات، ص116 .

(2) المرجع نفسه، ص167 – 168 .

(3) فرجيل، الأنيادا، ص179 .

(4) المرجع نفسه، ص56 .

الذي أرسله الخليفة العباسي بمهمة استطلاعية إلى ما وراء النهر وجنوب روسيا في كتابه الشهير «رسالة ابن فضلان».

وإن ما تحدثت به الأساطير السورية القديمة، التي صارت تدعى «إغريقية» حول إنسان أوروبا آكل لحوم البشر زمن قدموس وبعده، أكدته المكتشفات الآثارية حديثاً. «ولقد كشفت الأبحاث الأثرية التي أجريت مؤخراً أن الألمان وسائر الشعوب الأوروبية كانوا يأكلون لحم البشر. وذكرت «أنباء الشرق الأوسط» أن الأبحاث التي أجريت في جنوب ألمانيا كشفت أن الشعوب الأوروبية كانت منذ ألفين وأربعمائة سنة (أي في القرن الرابع قبل الميلاد) تعيش في العصر الحجري وتأكل بعضها بعضاً. وقالت هذه الأبحاث إنه في الوقت الذي كان فيه السوريون والمصريون قد بلغوا درجة عالية من الثقافة والتقدم والتحضر فإنه كان من عادة القبائل التي سكنت جنوب ألمانيا تعليق قلائد حول أعناقهم من الجماجم البشرية وعظام الأعداء الذين كانوا يأكلونهم»[1]. ويؤكد ول ديورانت «أن سكان ايرلندا وإيبريا وبريطانيا والدانمارك ظلوا من أكلة لحوم البشر حتى القرن الحادي عشر بعد الميلاد»[2].

وفي الوقت الذي يتبين لنا فيه أن شبه جزيرة المورة كانت أبعد الأمكنة لأن تكون صالحة لقيام تجمع سكاني حضاري، وأن أوروبا كلها كانت، حتى زمان بزوغ مادعي بـ «المعجزة الحضارية اليونانية»، فإننا نرى السوريين (أو الفنيقيين) يملأون حوض البحر المتوسط بما فيه حوض بحر إيجه، والبحر الأسود، بمدنهم ومستوطناتهم، وبمنجزاتهم الحضارية الزاهرة عمرانياً، وزراعياً، وثقافياً، وصناعياً، وتجارياً، وغير ذلك.

يقول جيمس هنري بريستد: «في العصر الحجري المتأخر كانت جزر بحر إيجه مراكز فرعية لمدنيات الشرق العظيمة التي وجدت قديماً في أرض النيل والفرات، فأول نشوء المدينة الأوروبية لم يكن في برّ اليونان بل في جزر إيجه... وكانت كريت من أول عهدها في الرتبة الأولى حضارة بين جميع الجزر الإيجية.. وكانت عند أول فجر المدنية تعدّ كأنها جزء من الشرق مثل

(1) صحيفة تشرين السورية، العدد 5555 تاريخ 1993/1/26 .

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء 1 ، ص20,19 .

القسطنطينية اليوم»[1]. «أما الجانب الآسيوي من بحر إيجه فقد سبق الجانب الأوروبي في مضمار التقدم زمناً مديداً»[2].

فالحضارة، إذن، ودون مواربة، قادمة من الشاطىء الشرقي للمتوسط إلى الجزر أولاً، فشبه جزيرة المورة، وليس من أي اتجاه آخر. فالسوريون (أو كما يحب المؤرخون أن يطلقوا عليهم «الفينيقيون») كانوا وحدهم سادة البحر المتوسط دونما منازع، وأصحاب الحضارة الوحيدة على شطآنه في الوقت الذي كان إنسان أوروبا ما يزال فيه قابعاً في أعماق الكهوف يخشى الظهور حتى لا يفترس بعضه. إن هذا هو ما يؤكده جميع المؤرخين الذين تهمهم الحقيقة ويسعون إليها. «فمنذ حوالي 1200 ق.م أضحى الفينيقيون سادة البحر المتوسط. وكشفوا رأس الرجاء الصالح قبل أن يكشفه فاسكو دي جاما بنحو ألفي عام.. ولقد اقاموا لهم حاميات في نقط منيعة على ساحل البحر المتوسط مازالت تكبر حتى أضحت مستعمرات أو مدناً غاصة بالسكان، اقاموها في قادس، وقرطاجنة (في اسبانيا) ومرسيليا، ومالطا، وصقلية، وسردينيا، وقورسيقا، بل وفي انجلترا البعيدة، واحتلوا قبرص، وميلوس، ورودس، ونقلوا الفنون والعلوم.. ونشروها في اليونان، وفي أفريقيا، وايطاليا، واسبانيا، وربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية، وشرعوا ينتشلون أوروبا من براثن الهمجية. وازدهرت المدن الفينيقية التي كانت تغذيها هذه التجارة الواسعة، والتي كانت تحكمها طبقة من التجار الأثرياء خدمت فنون السياسة الخارجية والمالية، وضنّت بثروة البلاد أن تبدّد في الحروب الخارجية، وأصبحت هذه المدن على مرّ الأيام من أغنى مدن العالم وأقواها»[3].

لقد ساد الفينيقيون جزيرة قبرص واسسوا فيها مدينة كيتيون Kition[4]، وقد

---

(1) جيمس هنري بريستد، المرجع السابق، ص244 – 245 .

(2) المرجع نفسه، ص258 .

(3) ول ديورانت، المرجع السابق، الجزء 2 ، ص313,312,311 .

(4) فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ترجمة انيس فريحة ونقولا زيادة، مؤسسة فرنكلين للطباعة، بيروت 1958 ، ص18 .

سورية تنسج السلال

عشتار والحية رمز تسلل الرغبة الجنسية إلى روح الخصب، والرجل والمرأة عند منهل الماء قوام الحياة الفانية. رسم سوري في بلاد اليونان

عشر في كيتيون على الآثار السورية التي تعود إلى مابين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد. واستولى السوريون على جزر البحر الايجي مثل جزر السقلاتي Cyclades وثيرا Theara وميلو Melos والبارو Oliaros وعلى شبه جزيرة المورة. وكانت لهم مراكز متنقلة في كل من طيبة واثينا[1]، وورد في شعر هوميروس بأن المراكب الفينيقية كانت تؤم بلاد اليونان محملة بالأطايب الفينيقية. ومن مدينتهم قادش في اسبانيا انطلقوا إلى جزر القصدير (بريطانيا) وكورنوال جنوب بريطانيا بحثاً عن القصدير والرصاص[2]. وفي الحوض الغربي للمتوسط كانوا يسيطرون على جزيرة سردينيا، وقد اكتشفت كتابة «حجر نورا» في الجزيرة والتي قدّر أولبرايت أن زمنها يعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد»[3].

فوق هذا وذاك فقد دلّت المكتشفات الآثارية على أن السوريين كانوا أول من أسس طرق التجارة الدولية في البر والبحر، وأنهم مؤسسو كل موانىء أوروبا، وأنهم وصلوا القارة الأمريكية قبل كريستوف كولومبوس بما ينوف عن ثلاثة آلاف عام، تشهد على ذلك آثارهم المنتشرة في القارة كلها وكتاباتهم العربية الفينيقية[4].

اسماء المواقع واللغة:

ونحن، لو القينا نظرة سريعة إلى أسماء المواقع والمدن والجزر في كل أماكن انتشار أولئك العرب السوريين الأقدمين من قبرص إلى البحر الكاريبي غرباً، وإلى شواطىء البحر الأسود الشمالية شمالاً لتأكدت لنا حقيقة تسمياتها العربية القديمة. وبالتأكيد إن من كان سيداً في تلك المواقع هو الذي منحها

---

(1) Warmington, Carthage, p.36

Harden, The Phoenicians, p. 171

(2) Jean Mazel, avec le Phoeniciens, p. 164

(3) فيليب حتي، المرجع نفسه، ص224,225 .

(4) انظر: فان دين براندن، (مجلة Melto) الصادرة عن جامعة الروح القدس، العدد الثاني، 1964 ؛ وجوزي داكونيا بربوزا، مجلة التاريخ والجغرافيا البرازيلية، المجلد الأول، عام 1939 ، ص66 .

و Heinke Sudhoff, Sorry Kolombos, Germay, 1991

أسمـاءهـا. إن اسـم «أوروبا» التي هـي أميرة سـورية بنت أجينور ملك صـور وشـقيقـة فينيق وكيليك وقدمـوس وسكـودا، أطلق على شمـال المتـوسط. وإن «ليبيـا» (وتعني الـراغبـة، المشتـاقة، المرغبة، المثيرة) هو اسـم جدتها لأبيها اطلق على جنـوب المتـوسـط، أي على الشمـال الافريقي أولاً ثـم على القـارة بـأكملها. وإن «قبرص» هـي بـالعربية الفينيقية «جفرو» وتعني الظفر، المخلب، (وكـانت الفاء في العربية القديمة تلفظ P) وشكل الجزيرة كـالمخلب فعلاً. وإن قصيدة Gypria[1] (القبـرصيـة) تـؤكد ذلك. وإن اسـم «كريت» هو في العـربية الفينيقيـة «قريت» ويعني الاصبـع الإبهـام، أو خشبة النول. وإن من ينظر إلى خـارطة البحر المتوسط يرى جزيرة كريت تمتد كـالإصبع الإبهام، أو كخشبة النـول فعـلاً. وكلمـة «سقـلادي» التي أطلقهـا السـوريـون على الجـزر الكثيـرة الصغيرة المتنـاثرة في حوض بحر إيجه، هـي في الأصل العربي القديم «ككلاثي» وهـي في القـاموس السرياني جمع «ككلا» أو «ككلتـا» وتعني، قرصـة، حبة، كرة، قطعة مدورة، رقطة، بقعة سوداء... الخ. فـانقلبت في اللاتينية الكاف الأولـى إلى C لوقوعها قبل حرف صوتي هو e، كمـا تحولت كل ثاء للتأنيث في جمع التأنيث الفينيقي إلى d في اللاتينية. وإن جزر الـ «ككلاثي» تتنـاثر مثل قرصـات الخبز لترقط سطح البحر ببقع كثيرة متنـاثرة، كما تتوزع اقراص العجين في «الميْزر» قبل خروجها إلى التنور. وفي «محيط المحيط» السقلاوة الزورق الصغير.

وهذه التسميات التي وضعها السوريون الأقدمون تدلّ على أن المسـافر في تلك المنطقة يرى كل شيء حوله بشكله الحقيقي وكأنما على بسـاط. وهذا مـا أكده المؤرخون أنفسهم.

يقول «كيتو» في كتابه «الإغريق»: «إن البحارة الذين يسـافرون في هذا البحر لا يغيب البـر عن أنظـارهم من جميـع الجـوانب حيث اتجهوا. إنه يمكن من رأس ماليثا في جنوب شبه جزيرة البيلوبونيز رؤية جبال كريت، ومن شرقي جزيرة كريت تشاهد جبال رودس، كما أننـا من شواطئ جزيرة رودس نستطيع أن نـرى شـواطئ آسيا الصغرى، وأكبر الجزر في بحر إيجه قريبة بعضها من

---

(1) عبد اللطيف احمد علي، المرجع السابق، ص94.

بعض إلى درجة أن الانتقال من إحداها إلى الأخرى لا يستغرق اكثر من ساعة أو ساعتين. إن لكل جزيرة وكل رأس وكل خليج في بحر إيجه شكلاً خاصاً ومظهراً مختلفاً يمكن تمييزها به من بعيد»[1].

وإن «أرجوس» هي «أرقو» بالعربية الفينيقية وتعني عظيم السلاحف، ويقول المؤرخون إن أول من اسسها هو «أرقو» الفلاجي من شمال سوريا والذي يعني اسمه عظيم السلاحف. ولذلك فحينما صكّت فيها أول نقود في بلاد اليونان جعلت السلحفاة شعاراً لها وضربت على النقود، وصار يطلق على القطعة النقدية اسم السلحفاة[2]. ونحن لو فتحنا قاموس «محيط المحيط» اليوم لوجدنا أن كلمة «الرَّق» تعني عظيم السلاحف حتى اليوم.

وإن «البحر الكاريبي» هو تسمية عربية فينيقية وتعني بحر الدوامات، وهي من الفعل «كرِبَ» = كرَبَ، لفَ، دوّر، دوّم... و«كاريبو» = كارب، دوّار، دوّامة، وجمعها «كاريبي» دوّامات. وإن تسمية «برمودا» هي في العربية الفينيقية «برموثا» وتعني برّ الموت. وفي شواطىء البحر الأسود يقول ول ديورانت إنهم استولوا كذلك على شبه جزيرة «سلاسيديس» وهي ممتدة بشكل ثلاث أصابع ويعني اسمها ذات الأصابع الثلاث، فسمّوها بهذا الاسم[3]. أما الحقيقة فالتسمية عربية فينيقية هي «ثلاث إيدي» أي «ثلاث أيدي» وليس ثلاث اصابع.

ولقد أنشأ سكان ميليثا التي هي في كيليكيا السورية بلدة «أبيدو» في حوالي 560 ق.م على شاطىء الدردنيل الجنوبي للاشراف عليه، وهي لا تزال قائمة حتى اليوم. وقد دعوها بهذا الاسم تيمناً بمدينة «أبيدو» المقدسة موطن الأرباب في البقعة المقدسة من شبه جزيرة العرب، وكان من دعوا بالعرب العبيديين قد أنشأوا مدينة «أبيدو» في جنوب العراق قبل أن تدفع مياه البحر المرتفعة بفعل ذوبان الجليد بسكان قاع الخليج من العرب الآخرين والذين دعوناهم فيما بعد بالسومريين[4]. كما كانت قد أنشئت مدينة «أبيدو» المقدسة في بلاد وادي

---

(1) هـ.د. كيتو، ص 24 – 25.

(2) محمد كامل عياد، المرجع السابق، ص198 .

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد 7 – 8 ، ص287 .

(4) من أجل مزيد من التفاصيل راجع كتابنا «العرب والساميون والعبرانيون وبنو اسرائيل واليهود».

النيل تيمناً بالبلدة المقدسة الأصلية وقد ضمّت رفات أوزيريس. «فمنذ أن أقام ملوك الأسرة الأولى في ابيدوس ودفنوا فيها نشأ الزعم بأن أوزيريس «أول سكان الغرب» وكان يعبد في هذه المدينة.. فيها كانت كذلك أهم أشلائه، وهي رأسه مدفونة في صندوق صغير، كما كان يحتفل بجانب مقبرته بأعياده العظيمة.. لهذا فلابد أن كانت أعزّ امنية لكل مصري أن يدفن في أبيدوس»[1]. بينما كان قبر إيزيس في شبه جزيرة العرب[2]. وكانت ابعد المدن التي أسسها السوريون في الشمال السوري تدعى فوقياً Fokia (أي التي فوق، في الأعلى) ولا تزال قائمة إلى اليوم.

أما المضائق فقد كان أحدهما يدعى مضيق بعل والثاني مضيق إيل، وهذا ما أكدته الوثائق الفينيقية المكتشفة في «قره تبه» حيث جاء في العمود الثالث ـ الظهر، من رقيم تمثال الملك ما نصه حرفياً مايلي:

وكنت أولم (أقيم المآدب) تكريماً لكل من
ينتشل أفلاكاً (سفناً) في مضيق
البعل ومضيق إيل وكان في
خليجي سبع موانيء (شبع منعم)

وما أن اكتشف السوريون الفينيقيون وجود الرخام في المنطقة حتى تحوّل اسم المضيق الأول إلى «بوسفوري» أي فم الرخام. إذ أن كلمة «سفورو» (وكانت تلفظ Sporo تعني الرخام بالعربية القديمة[*]. وبهذا الاسم دعيت ايطاليا أي بلاد «هسفوريا» أي بلاد الرخام[3]. وهناك مجموعتان من الجزر أولاهما مجموعة «الفوقاني» وتسميتها العربية واضحة، وهي غنية بالرخام الذي أكسب البحر اسمه العربي المعروف «بحر مرمرة» اي بحر الرخام. أما المضيق الثاني فقد تحوّل اسمه من «مضيق إيل» إلى «دردن إيل» وذلك بعد أن استوطنت على شاطئه قبائل الدردانيين الذين يعودون في أصلهم إلى طفقير

---

(1) أدولف إرمان، المرجع السابق، ص302 .

(2) المرجع نفسه، ص474 .

(3) انظر: فرجيل، الأنيادا.

(*) انظر القاموس السرياني.

الصوري وقد هاجر قسم منهم واستوطن في جنوبي ايطاليا وصقلية[1]. وفي أقصى الطرف الجنوبي أنشأ السوريون الميليثيون ثغر سيزيكو العظيم، ومدن فنورمو (المظلة العالية)، وأفاميا (وهي بالعربية الفينيقية أفحاميا = المثيلة، النظيرة) تخليداً لأفاميا العتيقة في وسط سوريا وهي من أسماء الربة، و«حلقي دون» (قرابة السيد). ثم تقدموا عبر البوسفور طلباً للمعادن وأنشأوا كثيراً من المدن من بينها «كينوفي» Kinope (الحامية، الحاضنة، الملاذ، الملجأ) والتي يصفها سترابون بأنها مزينة بأفخم زينة، وبها ملعب رياضي عظيم، وساحة كبرى، وأروقة مظللة ذات عمد، وبها ولد الفيلسوف السوري ديوجين الكلبي. ثم تليها حمصو Ameso تذكيراً بحمص في وسط سوريا، وأطلقوا على النهر اسم «دوني يَفْرِ» (دونيبر) أي ربي اكثرْ، أخصبْ، وانشأوا عليه مدينة «حلبا» تذكيراً بمدينة حلب السورية وهي نيقولايف الحالية.. ثم اتجهوا جنوباً على طول الشاطىء الغربي وأنشأوا مدينة عشتار عند مصب نهر الدانوب (وهي قنسطنطة الحالية في رومانيا)، وأطلقوا على النهر اسم «نهر عشتار» أولاً ثم «نهر الدانوب» أي الحية، والدانوب بالفينيقية مجموعة كواكب في السماء لها شكل الحية، كما أطلقوا عليه اسم نهر السيد أو الرب أدونيس «أدوناي» وبقيت التسميتان قائمتين إلى اليوم، ثم أقاموا مدينة «تومي» (أي التوأم) التي مات فيها الشاعر السوري أوفيد بعد أن نفي من روما لأنه أعاد كتابة الأساطير السورية القديمة في بلاد اليونان وبيّن حقيقة أنساب اليونانيين إلى أجداد سوريين من السادة الأشراف، فاتّهم بالتجديف على الآلهة وبالدعوة إلى الفجور والفساد بحجة كتابه «فن الهوى» لكنه أنكر صحة هذه الذريعة ولم يفصح عن السبب الحقيقي. ثم انشأوا هناك مدينة «وارنا» (وهي فارنا الحالية) على البحر الأسود..

يقول ول ديورانت: «إن الرحالة الذي يدرك طول الأعصر التاريخية ليذهله قدم هذه المدائن التي لا تزال باقية إلى الآن[2]».

---

(1) فرجيل، الانيادا.

(2) ول ديورانت، المرجع السابق، ص285.

ولقد سافر بعض المغامرين في البحر الأدرياتي حتى وصلوا إلى المنطقة التي بنوا فيها فينيقيا (فينيسيا) تيمناً بموطنهم الأصلي،وهي التي يدعوها العرب اليوم بالبندقية..

ويجمع المؤرخون على أن أول من سكن بلاد اليونان الفلاقيون (أو الفلاجيون، والاسم العربي القديم هو «فالج» أي القاسم) وهم من بني يافث... ولقد تكبد المهاجرون الأوائل معاناة كبيرة حتى جعلوا الأرض صالحة لصدّ الهمج والوحوش ومن المستنقعات»[1]

إن هذا الواقع جعل جميع المؤرخين حتى أشدهم تعصباً يقرّون بالسيطرة الفينيقية على شتى أرجاء البحر الأبيض المتوسط[2] دونما منازع قبل أن تظهر أثينا نفسها إلى الوجود وبعد وجودها لعدة قرون. «لقد كانت التجارة الدولية إذ ذاك في أيدي فينيقيا. وقد ظل الفينيقيون محتفظين بها في البحر الأبيض المتوسط حتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد» ـ كما قال كيتو ، وذكرنا من قبل.

بعد هذا كله آن لنا أن نطرح السؤال التالي: هل الحضارة في شبه جزيرة المورة نابعة أم وافدة؟ وبكلمة أخرى: هل اليونانيون هم سكان شبه جزيرة المورة الأصليون أم هم وافدون، وإن كانوا وافدين فمن أين؟

اليونانيون وافدون من الشرق

نحن الآن أمام الخارطة السكانية الحضارية: أوروبا ماتزال في العصر الحجري، إنسانها إنسان الكهف المتوحش وآكل لحوم البشر، لم تعرف الزراعة ولا المدن ولا الكتابة قبل القرن السادس قبل الميلاد[3]. والعرب السوريون في شرق المتوسط بلغوا أوجاً من التقدم الحضاري لم تبلغه أية أمة أخرى، كان عمره عدة آلاف من السنين. لقد كانت الدولة العربية السورية في مرحلتها الأشورية «أعظم مملكة رآها العالم منذ أن وجد، ولم تكن دولة ما في الأرض

---

(1) محمود فهمي، تاريخ اليونان، مطبعة الواعظ، بمصر، 1910، الطبعة الأولى، ص22,11 .

(2) اندريه إيمار وجانين اوبوايه، المرجع السابق، الجزء 1 ، ص291 .

(3) اندريه إيمار وجانين أوبوايه، المرجع السابق، ص515 .

تجرؤ على مناوأتها»[1]. والسوريون الفينيقيون مسيطرون على تجارة البحار وموانئهم تغطي كافة سواحل البحر المتوسط، وقد نشروا ثقافتهم وديانتهم ولغتهم وسلعهم وعاداتهم وأسماءهم في كل الأصقاع. ولو اردنا أن نرسم خارطة حضارية مستخدمين اللونين الأخضر والأصفر، لنجعل اللون الأخضر للمناطق الحضارية، والأصفر للهمجية، والأخضر الفاتح للمناطق المتحضرة أو المتأثرة لقربها من الحضارة لحصلنا على النتيجة التالية: منطقة شرقي المتوسط وجنوبه (الأخضر الغامق)، جزر المتوسط والموانيء السورية المنتشرة على كل شطآنه من البحر الأسود إلى بحر إيجه إلى شواطيء الأطلسي (الأخضر الفاتح)، وما تبقى من قارة أوروبا (اللون الأصفر).

وسنلاحظ كيف أننا كلما اقتربنا من الشرق السوري كلما ازددنا مدنية (واخضراراً) وكلما ابتعدنا عنه كلما بعدت عنا الحضارة. ولتأكيد ذلك لنسمع إلى شهادات بعض المؤرخين الغربيين المتعصبين أنفسهم ومن نقل عنهم.

إن الحضارة السورية انتشرت في قبرص وميلو وجزر بحر ايجه قبل أن تنتشر في كريت، يقول أندريه إيمار: «على الرغم من جودة مناخها (أي كريت) فإن الإنسان لم يظهر فيها إلا بعد ظهوره في مناطق الشرق الأدنى الأخرى بزمن طويل، ولم يترك في الواقع أي أثر قبل عهد الحجر المصقول، في حال أن آثار عهد الحجر المشطوب وافرة جداً في مصر وفلسطين وبلاد ما بين النهرين [طبعاً المؤرخ ملتزم بعدم استخدام اسم سوريا!]، وهي لم تسجل، طوال قرون عديدة، أي تقدم على أرخبيل السيكلاد. وإن هذا الأرخبيل قد تأهل بالعنصر البشري نفسه الذي تأهلت به آسيا الصغرى. وهو عنصر لا يمت بصلة إلى العناصر المعروفة الكبرى وأطلق عليه لذلك لقب «المتوسطي» [وهنا تبرز ظاهرة التعصب في أبشع صورها، المهم الاّ يعترف بانه العنصر العربي السوري، لذلك اخترع له هذا الاسم «المتوسطي» وكأنما نبع من قاع البحر!]. وربما كانت جزيرة ميلوس في البدء أكثر ازدهاراً من جزيرة كريت. ويصح القول نفسه عن جزيرة قبرص الغنية بالنحاس.. والقريبة من آسيا التي كانت

---

(1) بريستد، المرجع السابق، ص166 .

حضـــاراتهـا بمثابة المرشد لها»[1] [واضـح ان «آسيا» هنـا استخدمت بدلاً من «سوريا»!]. «وإن كريت لم تأخذ في البروز إلا في النصف الأول من الألف الثالث، اي قرونـاً طـويلـة بعد مصر وبلاد مـابين النهرين التي أغدقت الطبيعة عليهما نعمها»[2] [لاحظ أن الحضارة هنا من فعل الطبيعة!]. «وأخذ اليونـان من ليديا العدد الكثير من الكنوز (ليديا هي الحيديا = الاتحـاد، وهو اتحـاد مجموعة مدن وعائلات في شمـال سـوريـا دعي «الاتحـاد الليدي» لعدم معرفتهم معنى الكلمة العربية القديمة. والمهم تجنب استخدام اسـم «سـوريـا»!]، إذ غدت هذه البلاد، وهي قريبـة من مدنهـم الآسيـويـة، إحدى الطرق، لابل الطريق الرئيسية، التي سمحت لهم بالاحتكاك مـع الشـرق الذي اقتبسـوا عنه الطرق التقنية الصناعية والفنية، والعقائد والعبادات الدينية، والأمثال الميثولوجية والمعلومات العلمية. وهكذا غدت اقتبـاسـات اليونـان من الشرق كثيرة العدد وثقيلة الوزن»[3]. [لاحظ استخدام كلمة «الشرق»!].

«أمـا الجـانب الآسيـوي من بحر إيجه فقد سبق الجانب الأوروبي في مضمار التقدم زمنـاً مديداً»[4] وفي بلاد اليونـان (المورة) «منذ أوائل القرن الثـامن حتى أواخر القرن السـادس ليس هنالك سـوى مقدمـات فقط»[5] والحقيقة إن جميع المصـادر في الشرق والغرب تؤكد أن أصحاب الحضـارة التي دعيت «إغريقية» قدمـوا من «الشـرق» أو من «آسيـا»، وإن أحداً لـم يجـرؤ على الـزعم بأن هذه الـ «آسيا» المقصودة، والتي وضعت لتمييع الحقيقة، تشمل الهند، أو الصين، أو اليابان، أو كوريـا، أو الأتراك، الذين لم يكونوا قد ظهروا على مسرح التاريخ بعد[6].

«ولم يكتف الفينيقيون بالاتجار في بحر إيجه، بل طلبوا لسلعهم أسواقاً أخرى

---

(1) اندريه إيمار، المرجع السابق، الجزء 1، ص236 - 237.

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه، ص213.

(4) بريستد، المرجع السابق، ص258.

(5) أندريه إيمار، المرجع السابق، ص280.

(6) انظر: علي نور، أريستوفانيس، دار المعارف في مصر، ص30.

في الغرب، وبذلك اكتشفوا الجهة الغربية من البحر المتوسط حيث أسسوا بعد ذلك مستعمرات بلغوا بها سواحل الأطلسي بجوار إسبانيا، وظلوا ثلاثة قرون بعد سنة 1000 ق.م أعظم تجار البحر المتوسط.. وبعد ذلك التاريخ أصبح الفينيقيون الصناع الفنيين لعالم شاسع الأطراف يمتد من نينوى شرقاً إلى بلاد اليونان غرباً.. وشاع فن الزخرفة والتزويق الشرقي في اليونان.. ويرجّح كل الترجيح أن اليونان جاروا الصناع الفينيقيين واشتغلوا معهم جنباً لجنب في دكاكين فينيقية بجزر بحر إيجه، وتعلموا كيف يصنعون قوالب مجوفة من البرونز، وأشياء أخرى كثيرة.. ولذلك كانت أشغال اليونان الفنية في هذا العصر من سقط المتاع لا تكاد تضاهي أشغال أهل العصر الحجري المتوسط»[1].



عازف المزمار (المزوج) وراقص بملامحه العربية الواضحة

---

(1) بريستد، المرجع السابق، ص290 – 292 .



صحن سوري من قورنثا. أوائل القرن السادس قبل الميلاد. وترى فيه ملامح الفن العربي السوري في أجلى التعابير



آنية سورية لحفظ الزيت أو النبيذ. ويرى عليها الرب أدونيس بملامحه العربية وبزيه العربي الواضح وأحد اتباعه يقدم له-أثينا، القرن السادس قبل الميلاد

ويمكننا من خلال هذا القول أن نتابع مسيرة الحضارة من شرق المتوسط إلى غربه. وكلما توغلنا غرباً ونحو الشمال الغربي بعيداً عن الشرق (المركز) كلما خفّت كثافة وجودها إلى درجة التلاشي.

وحركة السكان الذين يحملون الحضارة هي دائماً من البر السوري. «ويطلق المهاجرون على الأنهار والجبال في وطنهم الجديد الأسماء التي ألفوها في بلدانهم الأولى»[1]. ولهذا فقد ظهرت الحضارة اليونانية في الشرق أولاً «وعن طريق المستعمرات انتقل ميراث الحضارات الشرقية القديمة إلى شبه جزيرة اليونان»[2].

وقبل أن يشدنا وقع أقدام الحضارة السورية إليها فيبعدنا عن ايقاع التسلسل الذي اخترناه للبحث، نرى أن من الضرورة الآن أن ننتقل إلى المظاهر الأساسية السكانية والحضارية للمدن الرئيسية في شبه جزيرة المورة من حيث طابعها وجوهرها لنتبين ما إن كان «نابعاً» أم وافداً، ولنبقى ضمن إطار الجواب عن السؤال.

كنا قد ذكرنا أن «طيبة» أقدم مدن شبه الجزيرة، وقد اسسها قدموس الصوري وجماعته، كما بنى فيها قلعة «قدميا» المسماة باسمه، واكتشفت آثارها الفينيقية.

أما «أثينا» فهي في أتيكا (عتيقا). وقد جاء سكانها مهاجرين على دفعات[3]، أول دفعة كانت من الفلاحين من شمال سوريا. وقد تأكد للباحثين «أن الفلاحيين ساميون من آسيا»[4]. وكنا قد اوضحنا في كتابينا السابقين كيف اصطلح المؤرخون في الغرب تسمية العرب بـ «الساميين» وأثبتنا خطأ هذه التسمية، وقلنا إن سام بن نوح فرع من فروع العروبة وليس كلها، والعرب موجودون قبل سام، ولا يصحّ أن ينسب الأجداد إلى الأحفاد. ثم وفدت إليها عشيرة يونان بن حيلان من أبناء يافث بن نوح من الشمال السوري. وكان أول

---

(1) محمد كامل عياد، المرجع السابق، ص127 .

(2) المرجع نفسه، ص128 .

(3) فوستيل دي كولانج، المرجع السابق، ص211 .

(4) علي نور، المرجع السابق، ص30 .

من أسسـهـا رجل من الفـلاجيين يـدعى «قيـق روف Kyk roph»(*). وقد أقـام المدينة عند التلة التي دعيت فيما بعد «عكروبولي»(**) Acropolis، ودعا سكان المدينـة «أثينـاي» وهـي جمع أثينايو في العربية القديمة وتعني الاثينيين، أي أتباع الربة أثينا القادمة من سوريا كما سوف نرى لاحقاً.

أمـا أتيكا (عتيقا) وتعني العتيقة العجوز «فكان الفينيقيون أول من نزل فيها واستخرجـوا منهـا المعـادن وخـاصـة الفضـة، قبل قدوم اليونـان من شمال سـوريـا.. لأنها بلاد صخرية قاحلة عجفاء.. ثم جاء الايونيون (اليونان) من شمال سـوريـا واستقروا في السهل، وجعلوا قراهم الأثنتي عشـرة (على عدد أسباطهم) على رؤوس الصخور لتكون في مأمن من القراصنة واللصوص»[1].

أمــا «مـجـد وازدهــار أثـيـنــا فهمـا مـديـنـان، إلى حد بعيد، لعمل الأجـانب المقيمين»[2]. و«كثيـرون ممن شـرّفوا بلاغة المحـامـاة في أثينا كـ «ليزياس» كانوا أجانب مقيمين. وكانوا أجانب مقيمين بأكثريتهم أيضاً، لاسيما في القرن الـرابـع أولئك الذين مـارسـوا المهن الصغيرة والتجـارة التفصيليـة (المفـرّق) وأولئك الذين أداروا مشـاريـع عظيمة بحرية وحتى تجـارية»[3]. وإن «كل عابر يرتبط بأثينا، ويبدو كأنه جزء من رصيدها ليس بالضرورة أثينياً بنوع خاص، فالأجـانب المقيمون وغير المقيمين يلعبون فيها الدور الكبير»[4]. وإن آلهتها

(*) «قيق روف» كلمتان تعنيان الطائر الرؤوف، الشفوق، إن «قيق» في القاموس السرياني اسم لطائر مائي ابيض في صدره حمرة، يحب فراخه حباً جماً، فإذا مات أحدها يشق صدره ويرش عليه من دمه فيعيده حياً، ولذا فقد شبه به الرب المخلص في الأساطير السورية القديمة، كما اطلق هذا اللقب ايضاً على السيد المسيح. و«روف» من «رحوف» وقد اختفت «الحـاء» وتعني الرؤوف، المنقذ، المخلص، الشافي، الرحيم..

(**) «عكروبولي» كلمتان تعنيان في القاموس السرياني سلالة الأمراء، وحصن الأمراء، لأن «عكرو» تعني: سلالة، ذرية، محتد، إعاقة، حصن، اما «بولي» فهي جمع «بول» وتعني «امير».

(1) محمود فهمي، المرجع السابق، ص60,14 .

(2) أندريه إيمار، المرجع السابق، ص351 .

(3) المرجع نفسه.

(4) المرجع نفسه.

كلهم وافدون من سوريا ومصر[1]، وإن التمثيليات المسرحية جاءت إليها من سوريا مع أعياد أدونيس، وقد تأخر بناء المسرح فيها عن الشرق بل وعن مينائها (البيريه) نفسه «إذ أن المسرح الرخامي والحجري الدائم لم ينجز في منحدر القلعة الجنوبي قبل أواخر القرن الرابع بعد أن انجز إقليم البيرة إعداد مسرحه»[2].

أما «البيرة» فقد أنشأها الفينيقيون على مسافة سبعة كيلومترات من «أثينا» في القرن الخامس قبل الميلاد، وجهزوها بملاجيء للمراكب ودور لصناعتهم البحرية المتفوقة. و«إن جميع سكأنها من الأجانب.. ويجد البحارة فيها كل أسباب اللهو التي طالما حلموا بها في عزلتهم وأسفارهم المحفوفة بالأخطار»[3].

أما المؤرخون فكلهم من شمال سوريا من هيكاتو الميلي إلى هيرودوت الكيليكي الذي يؤكد هو نفسه «أن كيليكيا فينيقية»[4] إلى قدموس الميليثي وغيرهم. وكذلك الفلسفة فمن «ميليثا» (= المعينة، وهي من أسماء الربة عشتار) في شمال سوريا حيث ابتدأت بطاليس الفينيقي ومروراً بزينون السوري مؤسس الرواقية، ثم كريسيو الكيليكي الذي «لقب بالمؤسس الثاني للرواق»[5]... أما الأدباء فجميعهم سوريون: اسخيلو، سوفوكلي، ميناندر اللاذقي، سافئو (زبد البحر) اللسبوسية، كالي ماخو، هيسيود، وغيرهم، «ومنذ منتصف القرن الثالث برزت الفصاحة المعروفة بالـ «آسيوية» المفخمة تارة والمفصلة تارة أخرى»[6] على الساحة مرة أخرى.

أما «اسبارطة» فاسمها عربي قديم يعني الصبر، الجلد، تحمّل المشاق، التقشف، كما تعني: البشرى، البعث، القيامة، الأمل، الرجاء، وهي في القاموس

---

(1) المرجع نفسه، ص366 .

(2) المرجع السابق، ص369 .

(3) المرجع نفسه، ص355 .

(4) هيرودوت، الكتاب السابع، الفصل التاسع.

(5) اندريه إيمار، المرجع السابق، الجزء 1 ، ص534 .

(6) المرجع نفسه، ص535 .

الســريـاني من الفعل أسبر = رجا، أمل، بشر، رجّى، سيبر = صبر، احتمل، تجلّد، قاسى، دافع، قاوم. سبارتا = جائزة، مكافأة، هدية المبشرّ. سيبرتا = صبر، احتمال، عفة، جلد... الخ. «وكان أول من سكنها الدوريون (من الكلمة العربية الفينيقية» دورو= المكافح، المقاتل) وهم والاخائيون والايوليون أبناء «حيلا» أو «حيلان» (وتعني القوي، الشجاع، وهي كلمة عربية قديمة حديثة إذ «الحيل» أو «الحول» تعني القوة، وقد صارت فيما بعد تلفظ «هيلا» و«هيلاس» باليونانية المتأخرة)، وهم من جنوب غرب آسيا، وقد دعي سكان أسبارطة الأوائل بـ «القدمونيين» أي السـابقين، القـادمين أولاً الـروّاد، الأبطـال. ولقد استوردت الفنانين والموسيقيين والصناع من الجزر والبر الآسيوي.
وإن فيلوف Pelop «الذي أضفى اسمه على البيلوبونيز (جنوب شبه جزيرة المورة) قد جاء من ليديا في آسيا الصغرى»[1] «وبالاعتماد على تواريخ الأنساب فإنه عَبرَ بحر إيجه وتزوج من الأسرة المالكة بأليس قرب أولمبيا في النصف الأول من القرن الثالث عشر لأن حفيده الأكبر أجاممنون قاد الآخيين المتمدّنين إلى طروادة»[2]. وإن الإيونيين (اليونان) أبناء «يونا» حفيد «هيلاس» هم من آسيا الصغرى. و«إن إيونيا في آسيا هي التي عرفها هوميروس»[3].
وهؤلاء الايونيون الذين جاؤوا عبر الجزر إلى بلاد المورة كان أهم ما جاؤوا به ليرسخوه ويثبتوه هناك هو لغتهم العريقة المتطورة الجاهزة التي انحدرت فيما بعد إلى اليونانية الحديثة ثم اللغات الأوروبية، وهذا مما أدهش ويدهش علماء اللغات في الغرب اليوم. يقول «كيتو»: «إن هؤلاء الهيلينين لم يأتوا معهم بفن فقط، وإنما الذي جاؤوا به كان لغة بالفعل.. وكلما استطاع الإنسان أن يرجع إلى عهود أقدم في تاريخ اللغة وجد التغييرات التي تطرأ على أواخر الكلمات أكثر إتقاناً، ووجد ترتيب الكلمات في الجمل أدقّ بطرق شتى.. ولقد تميزت بالأسلوب البلاغي[4]... إن عدم الدقة، والافتقار إلى الوضوح في

---

(1) هـ.د. كيتو، المرجع السابق، ص24 .

(2) المرجع نفسه، ص25 .

(3) المرجع نفسه، ص23 .

(4) المرجع نفسه، ص28 .

التعبير، وهما اللذان تنحدر إليهما اللغة الانكليزية، أمران غريبان تماماً عن اللغة الاغريقية»[1].

أليس في هذا اعتراف واضح بأن اللغة جاءت من الشرق جاهزة، متطورة، دقيقة في التعبير، وكلما تقدم بها الزمن كانت تنحدر وتفتقر؟ إن ظاهرة انتشار اللغة من المركز السوري، مثله مثل انتشار اية ظاهرة حضارية أخرى سوف يتلاشى ويضمحل كلما ابتعد عن المركز.

لكن لنسمع إلى «كيتو» نفسه كيف يتحول إلى «مخلوق» آخر حينما تواجهه قصة «الفرقة من العسكر» الفينيقيين التي ارغمها قورش أولاً على القتال معه، ثم تمكنت من الفرار، وصعدت عبر الجبال سيراً على الأقدام إلى أن وصلت شواطيء البحر الأسود، فهتف أفرادها «تلاسا، تلاسا» أي: البحر، البحر! ثم الف قائد هذه المجموعة كتاباً عن تلك المسيرة دعاه «أناباصي» أي «الطالعون».

يقول كيتو:

«يحكي لنا كسينوفون Xenophon قصة باقية على الزمن يمكننا أن نذكرها هنا لأنها خالدة، وهي خاصة بحادث وقع أثناء زحف العشرة آلاف جندي نحو البحر الأسود وسط جبال أرمينيا الرهيبة. كان هؤلاء الجنود من المرتزقة الذين جندهم قورش الأصغر لمساعدته على عزل أخيه من أبيه عن العرش الفارسي (وإن لم يبح قورش لهم بذلك) لأنه كان يعلم حق العلم أنه لم يكن هناك جيش اغريقي يقبل طائعاً أن يبتعد عن البحر مسيرة ثلاثة أشهر. ولكنه مع ذلك أخذهم إلى أرض الجزيرة عن طريق الخداع والملق. وقد هزم الاغريق المنظمون والمسلحون تسليحاً جيداً الجيش الفارسي بسهولة، غير أن قورش لقي مصرعه فأصبح الموقف مربكاً للجميع. فقد أتيح للفرس على حين غرة جيش مدرب لم يكن في وسعهم أن يفيدوا منه. وكان الاغريق على مسافة ثلاثة أشهر من وطنهم دون قائد ودون من يدفع لهم رواتبهم وبدون أي هدف. فقد كانوا فرقة دولية غير رسمية لايدينون بالولاء إلا لأنفسهم. وقد كان من الجائز أن يجن جنونهم وتسوء حالهم فيتحولون إلى شراذم من اللصوص، ويتفرقون

---

(1) المرجع نفسه، ص30 .

شذر مذر، كما يمكن إدماجهم بالجيش الفارسي. ولكن لم يحدث شيء من ذلك، بل قرروا العودة لوطنهم دون أن يسيروا بطول آسيا الصغرى، وهي التي كانوا قد شاهدوا منها ما فيه الكفاية كل الكفاية. ولذلك صمموا على الاتجاه شمالاً أملاً في الوصول إلى البحر الأسود، واختاروا قائداً لهم كسينوفون نفسه..

وقد ظل هؤلاء الاغريق، الذين تركوا في حالة اضطراب متحدين أسبوعاً بعد أسبوع، واخترقوا تلك الجبال المجهولة بهذا النظام الذي راضوا أنفسهم عليه والذي كثيرا ما أظهروه.. وقد هلك البعض منهم لا الكثير، وكتبت لهم الحياة لأنهم كانوا قوة منظمة، وقد حدث ذات يوم ـ كما جاء في قصة كسينوفون التي لا تضفي على هذا الزحف صفة البطولة أبداً ـ أنه كان يقود حرس المؤخرة، بينما كان جنود المقدمة يصعدون أحد الممرات، حتى إذا بلغوا القمة أخذوا يصيحون أيضاً، وهكذا دواليك فصيلة بعد أخرى. فكان الكل يصيحون ويشيرون إلى الشمال بتأثر شديد، وأخيراً استطاعت المؤخرة التي شاع بينها القلق أن تسمع ما كان يهتف به الجميع، وهو «تلاسا، تلاسا» وبهذا انتهى الكابوس الطويل. لأن «تلاسا» في الاغريقية تعني «البحر» فقد كان يلتمع الماء الملح عن بعد، وحينما وجد الماء الملح كانت اللغة الاغريقية مفهومة، والطريق إلى الوطن مفتوحاً، أو كما قال أحد العشرة آلاف جندي «يمكننا أن نتمم رحلتنا ونحن نرقد على ظهورنا مثل أوديسيوس».

«لقد أعدت رواية هذه القصة، من جهة، اتباعاً لمبدأ هيرودوت الممتاز القائل بأن القصة الجيدة لا يمكن للقارىء الحصيف إلا أن يرحب بها، ومن جهة ثانية: تقديراً للحقيقة العجيبة التي تقول إن كلمة «تلاسا» اي الماء الملح ليست كلمة اغريقية بالمرة على ما يبدو... إن الكلمة الاغريقية التي تعبر عن شيء إغريقي صميم مثل البحر ليست هندية أوروبية، فأين ياترى وجدها الاغريق؟

«إن رواية شبيهة بتلك التي ذكرها كسينوفون يمكن أن تفسر لنا الموضوع ولو أن أقدم مرجع لها هو مؤلف هذا الكتاب (أي المؤلف نفسه يستشهد بما يكتب). فقد كانت عصبة ممن يتكلمون الاغريقية تشق طريقها نحو الجنوب قبل زحف العشرة آلاف جندي بعشرة قرون أو خمسة عشر قرناً بعيداً عن جبال البلقان.. فرأوا

أمامهم على حين غرة مقداراً هائلاً من الماء وهو اكثر مما كانوا قد رأوه هم أو اسلافهم من قبل، فحاولوا لشدة دهشتهم ان يسألوا الأهالي عنه، فقال الأهالي وقد تملكهم شيء من الحيرة «إنه تلاسا بالطبع» وهكذا بقيت كلمة «تلاسا» بعد ان اندثرت كل الكلمات في هذه اللغة تقريباً.

«إن من الطيش البالغ بطبيعة الحال أن نبني أي نظرية عن أصل أي شعب على كلمة واحدة، فقد تكون الكلمات الأجنبية التي تقضي على الكلمات الوطنية بسهولة عظيمة مقتبسة..

وإن هناك نوعين من الكلمات التي ليست اغريقية الأصل (مثل تلاسا) وهي تنتهي بالمقطع «أسوس» أو «إسوس» وهي في الغالب أسماء أمكنة مثل هليكرناسوس مسقط رأي هيرودوت، كما أن هناك كلمات تنتهي بالمقطع «انتوس» مثل كورنثوس، ولابيرنتوس، وكلها مألوفة لنا، فهل هي آتية من الخارج؟ وهل كانت كورنثافي اصلها مستعمرة أجنبية؟ من الجائز ذلك. غير أن الذي يثير العجب أكثر من كورنثا هو أن أثينا ليست اسماً إغريقياً وكذلك الإلهة أثينا، إن العاطفة، على الأقل، فضلاً عن تقاليدنا الموروثة لتثور على الفكرة القائلة إن أثينا مدينة باسمها لأجانب أقحموا أنفسهم على الاغريق»[1].

أجل هؤلاء هم «المؤرخون» في الغرب الذين يتتلمذ على أيديهم «أساتذتنا» في الجامعات العربية! الذين يعودون إلينا مدعين «الموضوعية» و«عدم تسييس التاريخ»!

لنتوقف عند قصة العشرة آلاف وما يكتبه الأستاذ المؤرخ «كيتو»:

1 . إن أي قارىء عادي يقرأ هذا النص سوف يجد نفسه مباشرة، ووجهاً لوجه، ليس أمام باحث أو عالم ومؤرخ. بل أمام جندي غرّ مراهق في أحد الجيوش الأوروبية الحديثة، يتكلم عن مجموعة من الجنود الفارين فيجعلهم في قمة النظام والانضباط والبطولة والتعصب للغرب ضد الشرق، ظناً منه، لجهله، أنهم «هندوأوروبيون»! علماً أن الكاتب القديم كسينوفون نفسه تحدث عن نفسه وعن جماعته «دون أن يضفي أي صفة من البطولة» على ماقاموا به، وهذا ما

---

(1) المرجع نفسه، ص8 – 11 .

يعترف به كيتو مبدياً استغرابه.

2 . إن «كيتو» لم يتورع عن اختلاق «قصص» مما يمليه عليه مزاجه الصبياني: فقد جعل هؤلاء العشرة آلاف جاؤوا من اليونان إلى بابل نتيجة «للخداع والملق» وبغير ذلك، اي بالقوة، كان يصعب على قورش، بل ويستحيل أن يقدر على جلبهم، لأنهم «غربيون» أقوياء! علماً أنه ليس في القصة الأصلية أي ذكر للمكان الذي «جلبوا» منه، وقد هزموا جيش قورش! كيف هزموه وهربوا منه إلى أعالي الجبال؟ هكذا تقضي عاطفة المؤرخ التي تملي عليه كل ما يكتب!

3 . إن كلمة «تلاسا» وللغرابة، ليست إغريقية وليست «هندوأوروبية».. لكن من الطيش أن نحدد هوية قوم بناء على كلمة واحدة. لكن هناك كلمات أخرى كثيرة ليست إغريقية، وهي في صميم الوجود الاغريقي مثل أثينا المدينة، وأثينا الربة، وقورنثا، وهليكرنو (بلدة هيرودوت) فماذا يعني هذا؟ «إن العاطفة وتقاليدنا الموروثة لتثور على هذه الحقيقة». ونحن نقول: بالتأكيد، أيها السيد! إن «ثعبان الكهف» مازال يعشش في أعماق ما «تكتب»!

أما الحقيقة حول هذه القصة، قصة العشرة آلاف، فهي التالية: لقد أكد معظم المؤرخين، ومنهم هيرودوت، أن الفرس حينما سيطروا على بابل استخدموا بالقوة جيشاً من السوريين وتقدموا إلى آسيا الصغرى، وأن أسطولهم كله كان من الفينيقيين المرغمين قبل أن يوحدوا جهودهم في الشمال السوري وفي المستعمرات. ثم إن الأسطول الفينيقي هو الذي هزم الأسطول الفارسي في سلاميس. ولم يكن السوريون (أو الفينيقيون) يقاتلون مع الفرس إلا ظاهراً. وإن هذا الواقع هو الذي حدا بالعشرة آلاف إلى ان يتركوا جيش قورش ويهربوا شمالاً عبر الجبال إلى البحر الأسود. فهم وحدهم كانوا سادة البحار، وهم وحدهم الذين كانوا حينما يرون البحر يحسّون بأنهم وصلوا إلى الوطن، فالبحار كلها كانت ملكاً لهم وحدهم وهم سادتها، ولغتهم هي لغة التفاهم الوحيدة في شتى أرجاء الأرض المعمورة بالمدن وبالحضارة.

4 . أما المعنى اللغوي لتلك المفردات فهو:

كسينوفون، هي أحزي كينوفون، وتغني بالعربية القديمة قائد الجماعة من العسكر أو الفرقة أو الفوج. وهي في القاموس السرياني أحزيو = نبي، قائد،

مقدام، زعيم، حكيم. وقد اختفت منها الحاء كالعادة، أو تحولت إلى g مثل «تراحي» (تيوس) صارت «تراجي» كما سبق أن رأينا. وهي كما في الاسم إيزوقراط وهو الذي صار سقراط، وتعني الحكيم النحات، لأن «قراط» تعني بالفينيقية والسريانية: النحات، المثال، الحفار، النقاش، وهو ابن نحات (نقاش) فعلاً، وقد ورث المهنة عن أبيه.

أمّا «كينوفو» فتعني: كتيبة، فرقة، عصابة من العسكر، جناح، كنف، حامية، حماية. والفعل «كنفَ»= جمع، حشد، كنف، حمى. وأمّا «ثلاسا» فهي في القاموس السرياني عربية قديمة جداً وتعني البحر. ومنها «أتلسي» (اطلسي= البحر المحيط الكبير، مجموعة بحار) و«طَلاس» تعني البحر.

وإن الكتاب الذي وضعه قائد تلك العصبة من العسكر الفارين دعاه «أناباصي» Anabasis وهي كلمة عربية قديمة تعني حرفياً «الصاعدون». وهي في القاموس السرياني من الفعل نبضَ= نبض، برز، ظهر، طلع، صعد، نبع، نبت، لاح وهذه التسمية كناية عن الجماعة التي صعدت تلك الجبال العالية ثم لاح لها البحر «ثلاسا». وقد ورد في النص: «بينما كان جنود المقدمة يصعدون أحد الممرات، حتى إذا بلغوا القمة أخذوا يصيحون «تلاسا، تلاسا»».

5 . أما أن يلجأ «المؤرخ العالم(!)» إلى اختراع قصة من نسج خياله من أجل أن يخلق مصدراً للكلمة، فالقصة نفسها تجعل حتى الأطفال يسخرون من خياله السخيف! والطريف أنه هو «ابتدعها»، ثم يعتمدها هو نفسه كمرجع، ويقول: إن أقدم مرجع لهذه القصة هو المؤلف نفسه!

ونحن، بعد هذا، نسأل: هل سيبقي المؤرخون في الغرب، الذين دبّجوا صفحات كثيرة في مدح بطولة هؤلاء العشرة آلاف من السوريين الفارين من جيش قورش، على ذلك الاطناب نفسه في المديح، بعدما تبين أنهم عرب سوريون؟

أما بقية الأسماء «غير الاغريقية» فقد تحدثنا عنها وعن غيرها.

من كل ما تقدم نصل إلى النتيجة الحاسمة التالية: إن شبه جزيرة المورة لم تكن مؤهلة لنشوء الحضارة، وإن سكانها الأصليين، مثلهم مثل باقي سكان أوروبا، كانوا همجاً متوحشين يسكنون الكهوف ويأكلون لحم البشر، ولم يعرفوا الاستقرار او حياة المدن، أو الزراعة، أو الحرفة، او الكتابة او صناعة

الخزف، أو ركوب البحر، قبل مجيء من دعوا فيما بعد بـ «اليونان» من شرق المتوسط الآسيوي عبر الجزر. وإن هؤلاء السكان «اليونان» ليسوا من السكان الأصليين لشبه جزيرة المورة، بل وافدون من البر الآسيوي الشرقي للمتوسط، وجاؤوا معهم بلغتهم، وآلهتهم، وتقاليدهم، وفنونهم، وحضارتهم الزراعية، وهم الذين شيدوا المدن، ونشروا الحرف، وإن مسيرة الحضارة كانت تتبع دائماً خطاً واحداً: من شرق المتوسط إلى غربه، وليس من أي اتجاه آخر.

ومن المصادر الكتابية التي تكشف حقيقة اللغة التي دعيت «إغريقية» وتمَّ إخفاؤها، تلك الذخيرة من مؤلفات الأدباء السوريين في اليونان والتي عثرت عليها بعثات التنقيب والاستكشاف في قرية البهنسا في مصر، ومازال السؤال عنها وعن مصيرها يطرق آذان تلك الأوساط الدولية المهيمنة على الواقع المزور للتاريخ البشري و«حراسته» وقد رهنته في محابسه خلف أسوار من التكتم الشديد. ومن بين أولئك الذين رفعوا الصوت عالياً بهذا الخصوص الكاتب العربي المصري علي نور حيث كتب يقول:

«إننا نسأل جامعاتنا عن هذه الذخيرة ماذا تم بشأنها من فحص فيلولوجي، وقد مرّ على كشفها سنوات عديدة، من بين هذه المكتشفات ذخيرة من الأدب اليوناني الكلاسيكي مشروحة ميسرة للدراسة، وعلى رأسها هوميروس، وهسيود، وسافئو، وميناندر، وكاليماخو، وبندار، ومقتطفات لابأس بها من مسرحيات اسخيلو المفقودة، ومن المستطاع التعرف على ما يقرب من أربعين من رواياته، ذلك عدا عن الكثير غيرها من شعر سوفوكل، ويوروبيد، وأرستوفان، وشعر الأغاني.. إن في جامعاتنا الأربع دراسات كلاسيكية مثل كل جامعات العالم، ومع ذلك فإن المراجع التي بين يدي وآخرها دراسات مستفيضة من جامعة موسكو عن أرستوفان بمناسبة الاحتفال بيوبيله، وليست فيها إشارة واحدة إلى ما كشف في مصر من ذخيرة عن أرستوفان، وغيره من العصر الهلنستي»[1]

وهنا لابدّ من التنبيه إلى الأساليب التي اتبعها المؤرخون في الغرب من أجل

---

(1) علي نور، المرجع السابق، ص70 .

طمس اسم سوريا، ودورها التعليمي الأول في التاريخ البشري.

لقد بذلت جهود كبيرة في القرنين الأخيرين من أجل تزوير تاريخ المنطقة، واخترعت، من أجل ذلك، فرضيات ونظريات واصطلاحات كثيرة، منها ما جرى تطبيقه قسراً على الأرض العربية والتاريخ العربي، والآخر انحصر دوره في إبراز كل ما هو خارج الوطن العربي وكأنما وجد بـ «معجزة».

يقول بيير روسي:

«إنه لمن المدهش أن كتبنا المدرسية تعاند في ذلك معتبرة المدينة الاغريقية مخلوقة من العدم، ومنبجسة بإعجاز من «العبقرية الهيلينية» دون أن تقيم أي اعتبار لأصولها القانونية الأكيدة[1] ... وإنه لأمر أكثر إدهاشاً كذلك أن معظم مؤرخينا قد تكلموا عن سيطرة إغريقية على الشرق، بينما كانت قوة المدن اليونانية، لدى مقارنتها بالامبراطورية المصرية او البابلية، لا تعدو كونها مشابهة لإمارة «آندورا» بالقياس للولايات المتحدة الأمريكية. إن بلاد اليونان، وكلنا يعرف ذلك، كانت تملك ارضاً فقيرة، وغير قادرة على إطعام شعب كان يجد نفسه مضطراً من اجل ان يأكل، أن ينتظر إرساليات القمح من سوريا ومصر، وكان يعوزها الخشب لبناء سفنها، والكتان لألبستها والبراري للخيول ولقطعان الماشية[2].. فماذا يمكن أن تزن اليونان الفقيرة أمام الاقتصاد الزراعي المصري أو السوري الضخم، وأمام هذه التنظيمات الصناعية، والبحرية، والمالية، الموطدة في الشرق وسط ملايين العمال والمهندسين والعلماء الذين تسوسهم وتدير أمورهم دول مركزية منذ عهود سحيقة[3].. لقد بدأنا نرى بجلاء، رغم ظلمات التاريخ ومبتذلات تعليم جامعي مضلل، إلى ذلك النور الذي غمر العالم العربي قبل أن تكون اثينا قد خلقت[4].. فيجب علينا أن نرتفع إلى ما هو ابعد من «الحقائق» الضيقة التي علمونا إياها، وان نتجاوز كثيراً أثينا واسبارطة لكي نصل إلى المنابع الحقيقية لما نسميه اليوم بالثقافة الغربية»[5].

---

(1) روسي، المرجع السابق، ص128 .

(2)،(3)،(4) المرجع نفسه، ص155,158,148 .

(5) المرجع نفسه، ص57 .





الحلقة الخامسة عشرة

التاريخ والأثنوجرافيا



نتيجة لما أصاب التاريخ العربي من تزوير وتشويه على أيدي خصومه في الخارج والداخل، ونتيجة لإهمال العرب لتاريخهم، قرابة عشرة قرون أو يزيد، فقد انبثقت وترعرعت على سطح هذا الواقع الآسن فرضيات، ونظريات، وقوميات، تتغذى على الجسد الذي يوحي بأنه آخذ بالتحلل، وتتنفس كل الرياح الغريبة والمسلّطة بإحكام من الخارج، لعلّ ذلك، مع غياب المؤسسات الثقافية العربية الحقيقية، يكسبها لوناً وانتماء وهوية.

إن العلم الذي يدعى في الغرب اليوم بـ «الاثنوس» أخذ موقعه ومكانته الراسخة في علم التاريخ. وإن الباحثين في علوم الإنسان، في البلدان التي كانت تسمى اشتراكية منذ فترة قريبة، لم يقدروا على تجاهل «الاثنوس» ونكران أهميته في دراسة تاريخ الشعوب. لكنهم، وكما أثبتوا من ذي قبل بأنهم أكثر الناس تخلفاً في كتابة التاريخ، فقد أكدوا مرة أخرى أنهم أبعد الناس عن فهم التاريخ البشري بكل فروعه، ومنها ما دعي مؤخراً بـ «علم الأثنوس».

إن لهذا أسبابه بالطبع، كان من أهمها:

1 . تسخير المقولات الماركسية، والاقتصادية منها على الخصوص، من أجل تأكيد مقولة «الشعب السوفييتي» الذي يوحده الاقتصاد الواحد والدولة الواحدة، وذلك على حساب العوامل الأخرى المكونة تاريخياً.

2 . الشعور المدمّر بالنقص أمام كل ما أنجزه العقل في الغرب وخاصة في مجال علم التاريخ، ممّا أدّى إلى الأخذ به، وتبنّيه، في الوقت الذي كان يتناقض مع كثير من المقولات الماركسية الجاهزة نفسها، فصارت كتابات أولئك الباحثين مستودعاً عجيباً يعج بالمتناقضات. وكمثال على ذلك الصنف من «الباحثين» سوف نأخذ كلاً من بروmليه، وبودولني وغولوبيف، ونعتمد في الدراسة كتاب «الاثنوس والتاريخ لمؤلفيه بروmليه وبودولني.

3 . السيطرة الكاملة للفكر اليهودي الصهيوني على كل ما له مساس بتاريخ العرب القديم في تلك البلدان.

ولنتابع ما ينقله ويقرره أولئك «الباحثون»:

الاثنوغرافيا

يقول الكاتبان: «إن مصطلح «الاثنوغرافيا» مشتق، شأن أغلب تسميات العلوم،

من كلمتين يونانيتين. إحداهما «اثنوس» ومعناها شعب، والأخرى «جرافيا» وتعني كتبَ، وصف»[1].

أما الحقيقة فالكلمتان عربيتان قديمتان اختارهما واضعو هذه الصيغة في الغرب حديثاً، كعادتهم مع كل المصطلحات، من كلمات حسبوها «إغريقية»، ظناً منهم أن تلك اللغة التي يمتحون منها «إغريقية» بالفعل.

أما كلمة «أتنو» فأصلها العربي القديم «حتنو» وتعني الأقارب من الأمهات أو النســاء تحديداً، عن طريق الزواج والمصــاهرة، وذلك في العصر الأمومي لعشتار، إذ كان الزواج لغاية التناسل فوضوياً. وكان انتساب السلالات إلى الأمهات. وقد تحولت الحاء، كالعادة، إلى «ألف» والكلمة هي في القاموس السرياني من الفعل حتنْ= خاتن، صاهر، قرن، زوّج، تزوج، اقترن. اتحتن= خاتن، صاهر، ناسب، تزوج، اقترن، حتون= ختن، صهر، زوج جديد... الخ وفي قاموس «محيط المحيط» نجد: خاتنه مخاتنة تزوج إليه وصاهره. والختن الصهر أو كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ جمع أختان. وفي الصحاح الختن كل من كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ، هكذا عند العرب.

وهكذا نجد أن الكلمة تدل على السلالة الأمومية.

أما كلمة «جراف» فهي تحوير في بلاد اليونان عن الكلمة العربية الأصل «جلف». ففي القاموس السرياني نجد: جلف، جلافا = جلف، خرط، نحت، حفر، كتب في الحجر خاصة، نقش، صور، رسم، زخرف، صنع، صاغ، وصف، نقّح الكلام. جلوفو= نحات، نقاش، مصور... الخ. جليفو = منحوت، منقوش، مصوّر، مرسوم، مكتوب.. جليوفو= لوح، سجل، مدرج. ومن الكلمة كانت «هيروجليفي» أي الكتابة بالنقش أو التصوير على اللوح (لوح الطين) أو الحجر. ومنها في اللغة العربية اليوم: الجلف= برية القلم، واللوح اليابس. وهكذا يكون معنى «اتنوجرافيا» الوصف السلالي الأمومي.

وعلى أية حال فإن المقصود بهذا الاصطلاح اليوم هو «علم السلالات». ومن هنا فإن مصطلح «السلالة» و«الشعب» لا يتطابقان إلا مع توفر شروط معينة هي

---

(1) برومليه، بودبولني، الأثنوس والتاريخ،دار التقدم، موسكو، ترجمة طارق معصراني، ص88 .

وحدة اللغة والقرابة والأرض والثقافة وغيرها..

يقول الكاتبان: «إن العلوم التي تدرس الإنسان ليست، في الواقع، اقل تعقيداً أبداً. والقضايا التي تواجهنا ليست، بالطبع، اقل جدية أبداً. إن اكتشافات علم التاريخ إجمالاً، والاثنوغرافيا جزء هام منه، يتمتع بكامل الحقوق، تمارس في حياة البشرية تأثيراً جباراً لا يقل أبداً عن اكتشافات العلوم الدقيقة. ومعروف منذ زمن بعيد أنه بدون دراسة الخاص يستحيل فهم العام والمبدئي. وإذ يدرس علمنا الخاصية السلالية لهذا الشعب أو ذاك، يؤدي قسطه الذي لا يستغنى عنه في معرفة الإنسان والبشرية والتاريخ.

«يعود إلى شيروكوغوروف أول وصف مسهب للاثنوس في مراجعنا الروسية، وبناء على تعريفه فإن «الاثنوس هو مجموعة من الناس الذين يتكلمون بلغة واحدة، ويعترفون بأصلهم الواحد، ويملكون جملة من العادات ونمط العيش تحفظه وتكرسه التقاليد التي تميز هذه المجموعة عن المجموعات الأخرى المماثلة».

«ويضيف بعضهم إلى هذا رابطة الأرض والوعي السلالي.. وينوه أحياناً في إطار التصنيف نفسه بالخصائص الانتروبولوجية، وتضاف أيضاً إلى عداد السمات السلالية رابطة الأصل، وكذلك الجنس»[1].

وما هي روابط الناس التي يمكن عزوها إلى الاثنوسات؟ وما هي صفاتها المميزة؟ «إن إحدى هذه الصفات، والتي ربما كانت اكثرها وضوحاً هو ما يلي: كل من الاثنوسات يملك سمة جلية وأكيدة هي التسمية التي يطلقها على نفسه وما يرافقها من اسم خاص به..»[2].

اما بالنسبة للأجناس الكبرى «فإن كلاً من الأجناس الكبرى يملك مناطق شاسعة جداً تشمل عادة عدداً كبيراً من الاثنوسات ذات القربى من وجهة نظر جذورها التاريخية»[3].

---

(1) المرجع نفسه، ص9,8 .

(2) المرجع نفسه، ص10 .

(3) المرجع نفسه، ص14 .

«وإن نقل معلومات الثقافة السلالية، شأن المعلومات الأخرى في المجتمع البشري، يجري بأشكال مختلفة.. ولكن الشكل الرئيسي لهذا النقل هو اللغة ـ الاعلام الكلامي الشفوي أو الكتابي»[1].

«اللغة، اللغة! إنها روح الشعوب، وفيها يقرأ مصيرها» ـ هذا ما يقوله الشاعر الفرنسي العظيم جان بيير جان بيرانجيه في سيرته الذاتية. وفي هذا يتفق الشاعر والعالم: فقد أصر الفيلولوجي الألماني الشهير من القرن التاسع عشر ياكوب غريم على أن لغتنا هي تاريخنا نفسه»[2].

وتخضع الاتنوس الكبرى لعمليات تجزيئية: «فالعمليات التجزيئية هي حينما ينقسم الشعب الواحد إلى عدة اتنوسات مستقلة، أو تنفصل عنه أجزاء تغدو اتنوسات مستقلة»[3].

«ولما كانت الاتنوجرافيا واحدة من المواد التاريخية فإنها تنطوي، بين أمور أخرى، على نقاط تماس غير قليلة مع التاريخ المدني العام في دراسة العصر المشاعي البدائي ومسائل التاريخ السلالي. وإذ يبحث الاتنوجرافي مسائل الاتنوجنس (أي الجنس، السلالي) يتوجه باستمرار إلى مواد الأرخيولوجيا. أما الأرخيولوجيا فتستخدم معطيات الاتنوغرافيا على نطاق واسع من أجل استقصاءاتها، بما في ذلك تحديد الانتماء السلالي للآثار الأرخيولوجية. وتلامس الأرخيولوجيا تاريخ الثقافة ونقد الفن والأبحاث الفولكلورية لدى دراسة الانتاج الفني الشعبي.. وتربط الاتنوغرافيا بفقه اللغة دراسة القربى اللغوية بين الشعوب، والظواهر والاقتباسات اللغوية المتبادلة، وتفاعل العمليات اللغوية والسلالية (فقه اللغة السلالي)»[4].

وثمة نقطة أخرى لا تقل أهمية يعتمدها العلم الاتنوغرافي (السلالي) وهي شجرة النسب.

يقول المؤلفان: «من المحتمل جداً وجود نسب بالدم، قريب أو بعيد، بين

---

(1) المرجع نفسه، ص25 .

(2) المرجع نفسه، ص106 .

(3) المرجع نفسه، ص93 .

(4) المرجع نفسه، ص102 .

البشكيريين وكل الشعوب التي تتجلّى آثارها في تسمياتهم العشائرية ـ القبلية. وفي رأي الانتروبولوجيين، إن البشكيريين بأغلبهم يشبهون بشكل خاص من حيث المظهر الخارجي التتر القاطنين في ضفاف الفولغا.. ولكن الصلات اللغوية تدرج البشكيريين بثبات في عداد الشعوب التركية، وبهذا تقربهم إلى التتر، الأتراك أيضاً، ولكنها تفصلهم عن الادمورتيين والماريين الناطقين بالفنلندية، كما تفصلهم عن الهنغاريين والهنود الأوروبيين. «يمكن أحياناً تتبع قرابة الدم القديمة بين الشعوب إلى حد بعيد للغاية.. ومن شكل الجمجمة، وصورة الشفتين ودرجة بروز الأنف، ومن سعة الوجه.. ومئات السمات الأخرى يجد الانتروبولوجيون مكان الإنسان المعني في تعاقب الأجيال.. ونعرف من رفات الناس التي يعثر عليها لدى الحفريات كيف كان مظهرهم. ولكن مظهرهم هذا لم يكن عرضياً، بل يحتمه التاريخ دوماً.. وكل الناس أقرباء في نهاية المطاف. تذكروا منذ عشرات الآلاف من السنين، أو منذ مئات قليلة من آلاف السنين كحد أقصى، كانت حفنة من المخلوقات التي اختارها قانون «الارتقاء» لتتحول إلى هومو سابيانس، أي أناس عاقلين، تضم في ذاتها أسلاف كل شعوب العالم من أقزام أفريقيا الوسطى إلى الاسكيمو الغرينلانديين. كلنا أخلاف أسلاف مشتركين.. ولكن ليس كل الأقرباء ككل الأقرباء، ولا يقتصر الأمر على درجة القربى، فالقربى نفسها يمكن أن تكون متباينة»[1].

إن الأصل الواحد للبشر، إذن، أمر صار معترفاً به بين العلماء. وإن سلاسل النسب خط حقيقي ولا يمكن تجاهله، وهو من العلوم الأساسية المساعدة، إن وجد، لعلم التاريخ.

وحينما كان العربي منذ بدء التاريخ يصر على المحافظة على النسب وتسجيله فقد كان بذلك، عن وعي أم عن غير وعي، يقدم لعلم التاريخ أحد أسباب نشوئه ودقته، حتى اضحى العربي الوحيد في هذا العالم الذي حفظ نسبه واعتز به على مدى العصور، وبقيت المرأة العربية، منذ نشوء الأسرة وحتى اليوم، هي المرأة الوحيدة التي لم تتخلّ عن نسبها، ولم تلتحق بنسب زوجها بعد الزواج.

---

(1) المرجع نفسه، ص127 – 130 .

وهكذا يصير من الواضح الآن أن ثمة عدة عناصر أساسية في تحديد السلالة يعتمدها علم «الاتنوجرافيا» هي: النسب، اللغة، والثقافة المشتركة، الدين والتقاليد...

وهذه هي العناصر التي يضعها ويستعرضها المؤلفان من أجل تقرير نتائج سلالية في كتابهما.

فكيف كانت النتائج التي خرجا بها من خلال تطبيق هذه النظرية، التي ينقلانها ويسهبان في شرحها، على الشعوب عامة، وعلى الشعب العربي بوجه خاص؟

إن في إمكان الرجل العادي والبسيط أن يستنتج مما استعرضناه من فهمهما للعلم السلالي أنه ثمة سلالات بشرية تكبر وتتسع بالتزاوج، تتكلم لغة واحدة ويجمعها نسب واحد، وتعيش نمط حياة واحدة، وتجمعها ثقافة واحدة وتاريخ واحد عن طريق اللغة الواحدة، وقد تنقسم السلالة الكبرى إلى سلالات جزئية مستقلة. وبالتالي هناك سلالة «أم» وسلالات «بنات» أو فروع، ولو صارت مستقلة، وتاريخياً: هناك سلالة قديمة وأخرى حديثة أو احدث عهداً. ومنطقياً لا يصح أن تنتسب «الأم» إلى «البنت» بل العكس هو الصحيح.

وتمهيداً لما سوف يتوصلان إليه من نتائج فهما يؤكدان أن «الدين اضطلع، وما زال يضطلع، بدور هام في تاريخ الشعوب»[1]، «وأن الزراعة والحضارة إجمالاً قد ظهرتا في البلدان الجنوبية بالذات»[2]، وأن «الشمال كان مغطى بجبال الجليد العملاقة حتى أواسط أوروبا وحتى ما قبل تسعة آلاف سنة، وكان انحساره مسافة مائة كيلومتر يستغرق مائة سنة كاملة.. وأن تاريخ أوروبا قبل ثلاثة أو أربعة آلاف سنة غامض بالنسبة إلينا»[3]، ومع هذا، وفوق هذا، فإليكم ما يقررانه من نتائج:

1 . لقد عكسا الآية، فقررا رغماً عن كل شيء، وشئنا أم أبينا، أنه ثمة سلالة أوروبية، وبالتالي لغة أوروبية، تضم ثلاثة أرباع العالم، والعرب أوروبيون ولغتهم «أوروبية»! لنسمع:

---

(1) المرجع نفسه، ص66 .

(2) المرجع نفسه، ص50 .

(3) المرجع نفسه، ص208,207 .

«لا يقطن الجنس الأوروبي في أوروبا وحدها، كما تفترض تسميته إنه يشغل أفريقيا الشمالية كلها وآسيا الغربية بأسرها، والعرب من الجنس الأوروبي. وهو يشغل سيبيريا (الروس) وإيران وأفغانستان والهند»[1].

كيف؟ لماذا؟ هكذا! لا أحد يعلم. ثمة «أم» «أوروبية» كانت «تقبع» تحت الجليد في الألف الخامس قبل الميلاد (لأن الجليد لم ينحسر عن وسط أوروبا قبل ذلك التاريخ) و«تنسل» تحت الأرض العرب القدامى من سوريين ومصريين الذين تعود مدنهم القديمة المكتشفة إلى الألف العاشر قبل الميلاد!

أما كيف يفهم هؤلاء المؤرخون قيام العرب ببناء أولى الحضارات والدول في التاريخ، لنقرأ:

«هذا الوضع التاريخي يمكن وصفه بإيجاز على النحو التالي: إن الأرض، وثمة رأي كهذا في الأدبيات الاتنوغرافية، شحت، فلم تعد تستطيع إطعام قطعان الرحل المتزايدين باستمرار. وحينما كانت تحدث جوائح طبيعية تسبب القحط كانت شبه جزيرة العرب تبدو على الفور أراضي غاصة حتى الامتلاء. فكان السكان الزائدون الذين يدركون بشكل عفوي أنهم أصبحوا أناساً فائضين في وطنهم غير المضياف يغادرونه. ربما على هذا النحو بالذات جرت عملية استيطان مابين النهرين وفلسطين التي أدت فيما بعد إلى قيام بابل وآشور وأوغاريت واسرائيل القديمة، أما الصحراء فكانت تتابع هجومها. وفي غضون ذلك ظهرت على الحدود الشمالية لشبه الجزيرة بمساهمة القادمين منه دول قوية، كثيفة السكان، فعرقلت المخرج السابق من الأزمة الايكولوجية (يعني البيئية) الذي كان يتم عن طريق الهجرة المتتابعة. وبالنتيجة أصبح شبه جزيرة العرب في مستهل القرن السابع يشبه مرجلاً عملاقاً تجاوز ضغطه الداخلي منذ أمد بعيد حدود الممكن... وانفجار هذا المرجل وضع نصف العالم تحت أقدام البدو السابقين»[2].

ماذا يمكن ان نقول لأمثال هؤلاء «العلماء»؟ إنهم:

---

(1) المرجع نفسه، ص51.

(2) المرجع نفسه، ص40 – 41.

1 ـ ضربوا عرض الحائط بما علمتهم الماركسية لمدة سبعين عاماً حول القانون العلمي الشهير الذي لا ينكره علماء الغرب وباحثوه بمن فيهم المعادون للماركسية، وهو: ليس في التاريخ البشري طفرة حضارية تنبثق من عدم، بل تنجم عن عمليات تراكمت تاريخياً فأدت إلى تحول نوعي.

2 ـ لقد ضربوا أيضاً صفحاً عن كل المكتشفات الآثارية التي أدهشت العالم كله في الغرب والشرق، والتي أظهرت أن المدن العربية السورية القديمة هي أقدم مدن عمرها الإنسان في التاريخ، وهي تعود إلى الآلاف العاشر والتاسع، والثامن، والسابع، والخامس قبل الميلاد... وقد كشفت أسماء الأرباب والمدن والمواقع والملوك أن لغة هؤلاء السكان عربية قديمة.

3 ـ إن علم الأركيولوجيا والمناخ والانتروبولوجيا أكدت جميعاً أن شبه جزيرة العرب كانت جنة الله على أرضه، تغذيها أنهار غزيرة وكثيرة، وتضم بحراً من الماء العذب يغطي منطقة الربع الخالي، وأن أمطارها كانت على مدار العام، وأن مناخها كان ربيعاً دائماً، كل هذا في الوقت الذي كانت كتل الجليد بسماكة مئات الأمتار تغطي أوروبا كلها من أقصى القطب حتى أواسط وجنوب فرنسا.

4 ـ لقد أظهر المؤلفان التزاماً صارماً بما يمليه الفكر الصهيوني: فهما قد حذفا اسم سوريا من التاريخ القديم وذكرا «إسرائيل» في الوقت الذي صارت الأصوات في الغرب، التي تدحض علمياً وتاريخياً وآثارياً وجود «دولة اسرائيل» في التاريخ القديم، من الكثرة بحيث يصعب حصرها.

وكان آخرها ما كتبه أكبر علماء الآثار الأمريكيين (طومسون) حول هذه الحقيقة في أواسط عام 1993 مما أدّى إلى طرده من الجامعات الأمريكية لتحتضنه جامعات الدانمارك.

5 ـ لقد تناسيا كل ما نقلاه حول العلم السلالي، وتحول التاريخ فجأة على أيديهما إلى حركة ميكانيكية فيزيائية بحتة: إنه انفجار مرجل وضع نصف العالم تحت أقدام البدو السابقين!

لقد سقطت في هذا القول كل أسس ومناهج علم التاريخ في الشرق والغرب، الماركسية منها والرأسمالية، ليبقى «المنهج» الواحد الوحيد: الحقد الصهيوني الدفين، والكراهية للعرب! وأمام هذا ليس من وسيلة للجدال أو البحث.

6 . ويكفي ان نشير إلى أن هؤلاء «البدو» أعطوا العالم أسماءه، وعلّموه القراءة والكتابة والأبجدية، والحساب والجبر والكيمياء والمكاييل والموازين، واعطوه ديـاناته كلها، وبنوا مدنه القديمة، وعلّموه الزراعة، والحرفة، والنسيج، والتعدين، وصناعة السفن والإبحار، واعطوه قوانينه وشرائعه، ونظام الأسرة وتقاليد الزواج... وإن احداً في هذا العالم لن يعرف معنى لاسمه (إذا كان اسماً دولياً ومنتشراً) إذا لم يعد إلى اللغة العربية القديمة والحديثة. ولم يعد مثل هذا القول وقفاً على احد: إن الآثار والمخطوطات العربية العلمية والفنية والأدبية تملأ تسعين في المائة من متاحف العالم بدءاً من الألف العاشر قبل الميلاد وحتى القرن الخامس عشر بعد الميلاد.

7 . وفوق هذا كله لقد جعلوا «إسرائيل» شعباً قديماً، أما العرب «فشعب معاصر! لنقرأ: «إن الروايات الاتنوجينيسية (لاحظ كلمة «جنس» العربية صارت هي الأخرى «إغريقية») تساعد، في رأي الكسييف عند الطرف الآخر من سلم الزمن، إنها لا تحتفظ في الذاكرة إلا بالقرون الأخيرة، وبالألف سنة الأخيرة كحد أقصى. إن ذاكرة البولينيزيين التي تمتد ألفي سنة أمر نادر على أي حال. وإن التكون النهائي لعدد كبير من الشعوب المعاصرة يعود إلى هذه الألف سنة الأخيرة بالذات: الأوكرانيون، العرب، الليتوانيون، السكوتلانديون...»[1]. هكذا! العرب شعب معاصر يعود إلى هذه الألف سنة الأخيرة بالذات، إنها الألف سنة الأخيرة فعلاً، لكن التي شهدت انحسار دور العرب. ماذا نقول لأولئك الذين أقاموا أكبر دولة في التاريخ في الزمنين العربيين الأموي والعباسي إذن؟ لقد كان ذلك قبل ألف وثلاثمائة عام. وماذا نقول لأولئك العرب السوريين الذين امتدت امبراطوريتهم لتشمل العالم القديم كله سواء أكانت العاصمة أجادا، أم بابل، أم روما نفسها؟ أولَمْ يصر الأباطرة السوريون، وهم على رأس الامبراطورية في روما على أنهم عرب: من سبتيمو سفيرو إلى فيليب العربي؟ وكيف يتكلمون عن اللغة بأنها هي التاريخ، ثم ينكرون عروبة الحضارة القديمة كلها، بعد أن ثبت بما لا يقبل الجدل أن العربية القديمة كانت هي لغة الحضارة

---

(1) المرجع نفسه، ص119 .

الوحيدة من أقصى الهند شرقاً وحتى الأطلسي غرباً! ثم اليس بنو إسرائيل في التوراة هم بنو يعقوب العربي الآرامي، وهل كان ليعقوب، أو لإبراهيم، أو لآرام بن سام، أو لسام بن نوح، لغة أخرى غير العربية بلهجتها السريانية الشرقية!

إنه حينما يكتب التاريخ بالحقد والتزوير الصهيونيين يتحول إلى أشياء أخرى أشبه بالشتيمة، ولولا حرصنا على أجيالنا الناشئة من ألاّ تتأذى نقاوتها ولا يتضلل تفكيرها بمثل هذا السيل من الكتب التي تُنقل وتتصدر مكتباتنا لما تكلفنا عناء التعليق على مثل هذه «الشتائم» الموجهة إلى تاريخنا العربي.

المركز والتسميات السلالية (الاثنية):

تؤكد مصادر التراث العربي أن الحياة على الأرض شهدت عدة «أوادم» (جمع آدم) قبل «آدمنا» هذا، وأن كلاً منهم يبقى مع ذريته خمسين ألف سنة قمرية، وأن «آدمنا» هذا أوشك على بلوغ نهاية زمانه حيث يتم الحساب، وتبدّل النشأة بنشأة أخرى. ولقد ذكرت تلك المصادر أسماء سبع من هذه «الأوادم» أتت، في معظمها، متفرقة في المصادر هنا وهناك هي: حن، بن، طم، رم، دن، جن، جان... يقول محمد بن أحمد بن إياس الحنفي في كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور»: «عن ابن عباس أنه قال: لما أكمل الله تعالى خلق السموات والأرض.. وأرسى الجبال ونشر الرياح، وخلق فيها الوحوش والطيور صارت الثمار تجف وتقع على الأرض، ويتولد العشب في الأرض ويركب بعضه بعضاً، فعند ذلك شكت الأرض إلى ربها من هذا الأمر، فخلق الله تعالى من الأرض أمماً كثيرة، وهم على صور مختلفة وأجناس مجنسة يقال لهم الجن. وقد خلقهم الله تعالى من الريح ومن البرق والسحاب، وهم ذوو نفس وحركة، فانتشروا كالذر لكثرتهم، فامتلأ منهم السهل والجبل، وسائر أقطار الدنيا، فأقاموا على وجه الأرض ما شاء الله من الزمان، وكان منهم الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والأبقل والأبقع... والحسن والقبيح... والأنثى والذكر. فتناكحوا وتناسلوا وسموا الجن لاجتنانهم أي لاختفائهم. فلما كثروا في الأرض وضاقت بهم الدنيا لكثرتهم زاد بأسهم، فأرسل الله عليهم ريحاً عاصفة فأهلكتهم ولم يبقَ

منهـم إلا القليل. وهـم أول من ابتدع عمـارة البيـوت (ربمـا الكهوف)، وقطـع الصخور، وصيد الطيور والوحوش. فاستمروا على ذلك دهراً طويلاً، ثم بغى بعضهم على بعض فتقاتلوا، ولم يكن قتالهم بسلاح، وإنما كان يفني بعضهم بعضـاً بالمحاصرة في البيوت حتى يهلكوا جوعاً وعطشـاً. فلما تزايد أمرهم بـالفسـاد أخرج الله تعالى لهم أمماً، وهـم اعظم اجسـاداً منهم، واعجب خلقة يقال لها البن، فحاربوهم، فهلكت الجن ولم يبق منهم أحد...

«وملك الأرض بعدهم البن، وتنـاكحوا وتناسلوا وكثروا حتى ملأوا الأرض... فهم أول من حفر الآبار، وشق الأنهار، واجرى المياه إليها من العيون والبحار، وهـم أول من صنع الدواليب، وبنى القناطر على الأنهار، وتسلطوا على الأسمـاك في البحر بالصيد، وعلى الوحوش في القفار... ثم خلق الله تعالى الجان».

«وقد خلقهم من مارج من نار، وهـم على أجناس مختلفة، فمنهم امم يقال لهـا النهـابر وامـم يقـال لهـا النهـامر. وهذه الأمـة كبني آدم، يأكلون ويشربون، ويتناسلون، ومنهم المؤمنون والكافرون. و«يروى» أن الله جعل سكان السمـاء الملائكة وسكـان الأرض الجـان... وتحـاربـوا مـع البن، فقـوي الجـان عليهم فأهلكوهم عن آخرهم، ولم يكن لهم بقية. فبقي الجان في الأرض فتناكحوا وتناسلوا حتى ملأوا الأرض. ثم وقع بينهم التحاسد والبغي، وكثر فيهم سفك الدماء. فعند ذلك بعث الله إليهم جنوداً من الملائكة، ومعهم إبليس، وكان اسمه عزازيل، وكـان رئيس المـلائكـة، فطرد الجان من الأرض، فتوجهوا إلى شعب الجبال وسكنوا بهـا. فملك إبليس الأرض منهم. فكان يعبد الله تعالى في الأرض وفي السمـاء. فأعجب بنفسه، وداخله الكبر، فاطلع الله على مافي قلبه، فقال عز من قائل: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك. قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾. وقول الملائكة: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» يعني كمن تقدم ذكرهم من الجن والبن، فإنهم كانوا يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء»[1].

(1) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور.
دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، 1982 ، ص55 – 59 .

أما الطبري فيقول في تاريخه: «إن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا وكان له سلطان الأرض.. وأنه كان يسوس ما بين السماء والأرض، فعصى، فمسخه الله شيطاناً»[1].

ثم لما خلق الله آدم، وجعله خليفته على الأرض، يدبر أمرها بإذنه، وضعه في الجنة، في محلّة آمنة تحت الجبل المركز لا يوصل إليها إلا بالروح. ثم لما أضلّه الشيطان أهبطه من الجنة إلى الحياة الدنيا على الأرض.

وقد عاش ونسل أولاده «شرقي عدن الجنة»[2] وهناك قتل هابيل، ودفن في غار الكنز[3]. وهو الغار الذي ذكرته الأساطير السومرية باسم جنزير (جنزحور = كنز المغارة أي الغار، إذ أن «جنز» بالسريانية تعني الكنز).

آ . السوريون العرب ـ هم السلالة الكبرى:

من خلال كل ما تقدم، ومن خلال ما أكدته ـ كما رأينا ـ جميع مصادر التراث العربي القديم، يمكننا أن نستنتج بسهولة:

1) أن «المركز» الذي شهد خلق آدم الانسان العاقل الأول هو في إحدى المغاور الخفية في وسط جبال السراة من شبه جزيرة العرب.

2) وأن ذلك المكان هو المحلة الآمنة حيث الجنة الأرضية وعين الخلد التي لا يوصل إليها إلا بالروح.

3) وأن ذلك الانسان عُلّم فيها اللغة التي تكلمها أبناؤه بعد هبطته منها وكل ذريته، فدعيت في موقع الأرض الجنة بالعربية، وفي مناطق انتشار الذرية في جبال السراة بالسريانية أو السورية.

4) ومن منطقة جبال السراة (سرت بالعربية القديمة) انتشر أولئك السوريون العرب إلى جميع الرقعة التي دعيت فيما بعد بـ «سوريا الطبيعية»، ومن ضمنها شبه جزيرة العرب، وإلى بلاد وادي النيل، في إحدى مراحل انتشارهم المبكرة،

---

(1) تاريخ الطبري، الجزء 1 ، ص56 .

(2) المرجع نفسه، ص95 .

(3) المرجع نفسه، ص109 .

ثم إلى كافة المناطق الصالحة آنذاك لنشوء التجمعات البشرية وثقافاتها. وكان آدم يتكلم في «الأرض الجنة» العربية، ثم بعد أن أهبط منها تحوّل لسانه إلى السريانية[1].

وهنا لابدّ من أن نتوقف قليلاً عند أصول هذه التسميات: آدم، عرب، سريان أو سوريين.

فلو اننا امعنّا قليلاً في هذه التسميات لوجدنا أنها تعود لمسمّى واحد لكن في مكان وزمان مختلفين.

إن كلمة «آدم» هي في اصلها «دم» وتلفظ بالسريانية «دمو» وتعني: الدم، الأصل، الشخص، المثال، الشبح، المثيل، النظير، الشبيه، الند. وهي التسمية التي الصقت بالانسان العاقل الأول حينما تدخّلت في خلقه «القوة الإلهية» التي هي الروح، أو رب الأرباب، أو رئيس الملائكة، أو «الرحمن» في مصادر التراث العربي القديم، إذ أن هذه القوة خلقته على مثالها او شاكلتها، فدعي بـ «المثيل» أو الشخص، أو الشبح... ومن الكلمة جاءت «دميتا» وهي المؤنث، وهي «دمية» في العربية الحديثة أي المثيلة، الشبيهة، نسخة الشيء المراد استنساخه ولو بصورة مقزمة. وقد رأينا كيف أن مصادر التراث العربي القديم أكدت أن هذه القوة الخالقة هي التي خلقت الانسان بإذن ربها وهي غير «الله». وهذا عينه ما وجد استمراراً له في الفكر الاسلامي إذ نجد أن أبا حامد الغزالي يؤكد هذه الفكرة حينما يقول: «وإن كان لهذه الحضرة المشتملة على اليد واللوح والقلم والكتاب ترتيب منظوم فمثاله «الصورة». وإن كان يوجد للصورة الإنسية نوع ترتيب على هذه الشاكلة، فهي على صورة الرحمن. وفرق بين أن يقال «على صورة الرحمن» وبين أن يقال «على صورة الله» لأن الرحمة الإلهية هي التي صوّرت الحضرة الإلهية بهذه الصورة»[2].

وهكذا نجد أن الانسان العاقل الأول هو «دم» أو «دمو» أو «آدم» أي المثيل، الشبيه، الشخص، حينما خلقته «القوة» بإذن ربها على شاكلتها ليكون خليفتها

---

(1) المسعودي، أخبار الزمان، ص72.

(2) أبو حامد الغزالي، مشكاة الأنوار، ص71.

على الأرض يدبر الأمر. وقد جندت له «الأرباب» أو «الملائكة» ليكونوا في خدمته، وينجز مهمته من موقعه الخالد في المحلّة الآمنة.

وفي هذه المرحلة صار «رباً» أي سيداً، يقوم بتدبير الأمر بإذن ربه، وليس «إلهاً». لكن تمرّد أحد الملائكة، ورفضه الانصياع له، وإصراره على إفساد أمره وإحباط مهمته، ثم نجاحه في ذلك، استدعى القرار بإخراجه من دار الخلد إلى دار الفناء وتكاثر الذرية. وكان أول هبوطه إلى ما حول «الجنة» في جبال السراة.

وهنا نتوقف قليلاً عند هذه التسمية التي هي من «سر» بمعنى السيد، العالي، والتي الصقت به. فهل جاءت نسبة إلى تسمية المكان، أم أنه العكس، أي أطلقت تسمية «سرت» (السراة) نسبة إلى «سر» (السيد) التي هي من أسماء آدم؟.

إن التاريخ العربي يؤكد بمجمله أن الناس هم الذين أطلقوا أسماءهم على المكان، وليس العكس، ومايزال هذا التقليد حياً إلى يومنا هذا.

فقبل آدم الانسان العاقل الأول لم تكن قد وجدت هذه اللغة التي عُلّمها في منطقة الأرض الجنة ثم انتشرت معه ومع ابنائه في المناطق المحيطة وهي جبال شبه جزيرة العرب المركزية. فالانسان ـ مع توسعه وانتشاره ـ نشر لغته وبالتالي أسماءه.

ولو تحرّينا هذه التسميات من الناحية اللغوية الصرفة لوجدنا أن كلمتي «رب» و«سر» تعنيان السيد، المرتفع، المتشامخ، وهكذا بقيتا إلى يومنا هذا. فالسريّ: السيد، العالي، المرتفع، وسراة القوم سادتهم، والسراة والسروات الأعالي، والمرتفعات، والجبال. ومؤنث «سر» في العربية القديمة «سرت» وتعني السيدة، الملكة، المتكبرة، المتشامخة. وهي «سارة» فيما بعد.

وغني عن الشرح أن كلمة «رب» تعني أيضاً السيد، ورب البيت سيده ومالكه أو ملكه. ومؤنثه «ربت» في العربية القديمة، وهي «ربة» فيما بعد وتعني السيدة، الملكة.

ولما كانت عقيدة الخصب العربية السورية ـ وكما تأكدنا آنفاً ـ هي أقدم عقائد الخصب في العالم، وهي عقيدة الخصب المركزية الأولى على هذا الكوكب، فقد وجدت انعكاسها العقائدي على بنية وتكوين اللغة العربية

السورية، أو السورية العربية، لا فرق، في المركز.

فالأبجدية العربية، أو السورية، منذ أن وجدت، أو وضعت، كانت اثنتين وعشرين حرفاً هي: أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت.

ولما كان الألف في العربية القديمة يعني: الثور، العشير، المخصب، الأليف، الشريك، والثور هو المخصب في عقيدة الخصب، وهو الرب (السيد) الذكر المخصب، فإنه إذا ما أضيف إلى نهاية كل من «رب» و«سر» صارت كل منهما تعني الوفرة والكثرة والخصب.

إن «ربأ» تعني زاد وارتفع وكثر، وأخصب، وبالابدال الشائع في العربية بين الهمزة والعين، تصبح «ربع» أي اخصب. والربيع أي الخصيب، وربيع رابع شديد الخصب، وإن سرأ» تعني خصب وزاد، وسرأت السمكة باضت، وسرأت المراة كثر أولادها.

ولما انقسمت هذه اللغة إلى لهجات مع تباعد انتشار السلالة استخدمت إحدى اللهجات «الياء» في الجمع وهي لهجة جبال السراة (السريانية، أو السورية) فصارت «أربي» أو «عربي» جمع اربيو أو عربيو (للابدال بين الهمزة والعين) وتعني العرب. أما في لهجة «أربت» أو «عربت» التي هي منطقة السهل الخصيب في شبه جزيرة العرب في البداية وقبل تصحره فقد أضيفت «النون» علامة للجمع فصارت «سرن» أي السوريين أو السريان، و«أربن» أو «عربن» اي عرب وعربان. وكنا قد بيّنا في بحث اللغة كيف ان العربية القديمة (أو السورية) لم تكن تكتب الأحرف الصوتية (ا، و، ي) اي الأحرف اللينة الساكنة في تعريفنا لها اليوم. ولما كانت تلك الجبال تمثل في التراث: الجبل المركز الأول، والأرض الجنة، والمحلة الآمنة، وفيها المغارة المقدسة التي تنبع منها الأنهار المقدسة التي تخرج لتروي جنة عدن، وهي الفرات، والنيل، وسيحان، وجيحان[1]، وفيها «الكعبة»، موضع «الياقوتة» أو البيت المرفوع، الذي هو القبلة، وفيها ظهرت عشتار للمرة الأولى ممسكة بضفيرتها ودعيت «افروديت ذات الضفيرة»، وفيها مياه «أردن» الطاهرة المقدسة (جمع رديا) وفيها قبر كل من

---

(1) المسعودي، المرجع السابق، ص245 .

اوزيريس وإيزيس، وآدم، ونوح وغيرهم، فقد بقيت هي المركز المقدس، بعد انتشار سكان السراة، عند العبيديين، والسومريين، والآكاديين، والبابليين، والفينيقيين والمصريين، والهنود، واليونان، وغيرهم، كما نقل منهم السوريون ـ كما سبق أن رأينا ـ كل الأسماء المركزية المقدسة إلى شتّى مواقع وجودهم وانتشارهم. وبقيت اللهجة العربية السريانية أو السورية هي اللهجة العامة والسائدة في كل تلك المناطق. فدعي السكان سرياناً أو سوريين، كما دعيت الأرض «سوريا» (من سري = أي السيدة) أو سوريت (سورية، من «سرت» أي السيدة). فالتسمية السلالية هي «السوريون»، أما بقية التسميات فقد أطلقها المؤرخون نسبة إلى المواقع أو العواصم. فالعبيديون نسبة إلى «ابيدو» المدينة، والسومريون نسبة إلى أرض سومر في جنوب العراق (وسومر وشومر = المنقذ المخلص، وهو اسم مركزي انتقل للتيّمن)، والآكاديون نسبة إلى عاصمة الدولة المركزية «اجادا» وهي تيمناً بالجبل المقدس «الجودي» في المركز، والبابليون نسبة إلى عاصمة الدولة المركزية «بابل»، والآشوريون نسبة إلى عاصمة الدولة المركزية «آشور». فتبقى التسمية السلالية هي السوريين أو السريان أبناء «سر» ومن منطقة الجبال السراة، ولغتهم العربية السريانية.

فالعربية السورية أو السريانية، كانت لغة الدولة الرسمية، منذ أن تأسست في الألف الرابع قبل الميلاد، وهي أول دولة في العالم بالمعنى السكاني والاداري والحقوقي والاقتصادي والعسكري والثقافي. وكانت تمتد لتشمل الرقعة كلها ما بين البحر الأعلى (الأسود) والبحر الأسفل (بحر العرب). وبهذه اللغة تكلم آدم الرسول الذي يعود زمنه إلى أواخر الألف السادس قبل الميلاد وسلسلة ذريته: هابيل، وقابيل، وشيث، ومهلائيل، ويارد، وقينان، وإدريس، ونوح، وسام، وآرام، وغيرهم. وقد أورد الطبري حديثاً عن أبي ذر الغفاري قال: «قال لي رسول الله (ﷺ) يا أبا ذر أربعة من الرسل سريانوين آدم وشيث ونوح وخنوخ (إدريس)»[1]. وهذا كله معروف ومشهور في التاريخ العربي. غير أن

---

(1) تاريخ الطبري، الجزء 1 ، ص116 .

المستشرقين أنكروا وجود سوريا والسوريين (أو السريان) قبل المسيح، وجعلوا الكنيسة السريانية هي أصل السريان، وزعموا أنها دعيت كذلك للتفريق بينهم وبين الآراميين الوثنيين، فجعلوا بذلك «آرام» بن سام بن نوح هو الأصل للسكان وللّغة وقد اقتطعوه عن جسد آبائه وأجداده، ونسبوا إليه السوريين (أو السريان) نزولاً عند التزوير السكاني والجغرافي في تفسيرهم لأحداث التوراة، وردد رجال الدين المسيحيون هذا التزوير دونما أي تفكير، فتحول الفرع إلى أصل والأصل إلى فرع، ومازال كتبة التاريخ المسيحي يرددون هذه المقولة حتى اليوم.

إن آرام بن سام بن نوح لم يخترع شعباً أو لغة، بل تكلم لغة أبويه وأجداده التي هي العربية السريانية الموجودة قبله لعشرات الآلاف من السنين. ثم إن ابراهيم العربي الآرامي، وكذلك جميع أولاده، وإن موسى وعيسى من بعده، تكلموا العربية السورية (السريانية) التي ظلت هي السائدة في كل مواقع انتشار العرب السوريين من الهند شرقاً إلى جزر الأطلسي غرباً، إلى بحر العرب وشواطىء افريقيا، إلى أن بعث الله محمداً في منطقة العربية العرباء، فحلّت هذه محل شقيقتها، وعمّمت عن طريق القرآن الكريم.

أما زمن «سر» أو «رب» فإن أحداً لا يستطيع تقديره. وكل ما نعرفه هو أننا كلما أوغلنا عمقاً في الزمن الماضي اكتشفنا أسماء ومسميات تعود إلى هذه اللغة التي تكلمها إنساننا القديم شفوياً قبل أن يخترع الكتابة بعدة آلاف من السنين، وإن أحداً لا يستطيع اليوم تقرير من الأقدم ابناء «رب» أم أبناء «سر» وأقصد العرب أم السوريون (أو السريان)، فكلاهما ينتميان إلى أرومة واحدة أكدتها المنطقة الواحدة واللغة الواحدة بلهجتيها الجبلية والسهلية. فكلاهما «عرب» وكلاهما «سوريون».

أما المصادر التاريخية القديمة فلم تغفل ذكر «سوريا» و«السوريين» منذ الألف الثاني قبل الميلاد[1] على الأقل وحتى اليوم. ولقد ورد ذكر اسم «سوريا» في

---

(1) انظر: ادولف إرمان، المرجع السابق، ص129 .

نشيد أخناتون في مدح «أتون» (الشمس) منذ الألف الثاني قبل الميلاد[1].

اما هيرودوت الذي تعرض أصله السوري للتزوير، فهو من بلدة «هلك أرنو» (تعني بالسريانية مدرج الوعل) في كيليكيا، وقد أكد هو نفسه أنه كيليكي، وكيليكيا فينيقية[2].

وكانت كلمة «سوريين» و«فينيقيين» تستخدم الواحدة بدل الأخرى كاطلاق اسم الكل على الجزء أو بالعكس. ولقد كان هيرودوت مدركاً لمساحة الانتشار الكبيرة لأولئك السوريين سكاناً ولغة وحضارة، حتى أنه كان يعترض على فصل اوروبا عن آسيا، وكثيراً ما كان يستخدم كلمة «سوريا» بدلاً من «آسيا». ففي حديثه عن نهر النيل يقول: «لكن هناك أنهاراً عديدة في سوريا وأنهارا عديدة في ليبيا لا تتعرض لما يتعرض له النيل»[3]. ومن المعروف انه كان يقصد بـ «ليبيا» قارة افريقيا وليس القطر العربي الليبي كما هي الحال عليه اليوم. ولقد كانت «سوريا» التي يعرفها هيرودوت هي التي تمتد من البحر الأسود إلى وادي النيل وبحر العرب. ففي الجنوب أكد هيرودوت أن «الخليج العربي (وهو الاسم الذي كان يطلق على البحر الأحمر) يمتد من البحر الجنوبي إلى سوريا»[4]، و«أن سكان كابادوكيا على ضفاف نهري تورمودون وبارثينيوس في الشمال سوريون»[5]. وهو حينما يصف تقدم جيش داريوس في مناطق إيونيا وأعالي الأناضول والمضائق يصف كيف «خرّب الجيش هناك حقول السوريين»[6]. وذكر أيضاً «ان فينيقيي صيدا يقطنون سوريا»[7]، و«أن مناطق السواحل العربية (سواحل البحر الأحمر وبحر العرب مأهولة بالسوريين»[8]. وفي عهد الامبراطور الفينيقي الليبي سبتيمو سفيرو الذي

---

(1) انظر: ديورانت، المرجع السابق، الشرق الأدنى، مصر، ص172 .

(2) هيرودوت، الكتاب السابع، الفصل التاسع.

(3) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص96 .

(4) المرجع نفسه، ص82 .

(5) المرجع نفسه، ص220 .

(6) ا.ج.إيفانز، هيرودوت، ترجمة أمين سلامة، ص34 – 35 .

(7) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص236 .

(8) المرجع نفسه، ص83 .

أصرّ، وهو امبراطور على عرش روما، أن يكون «العربي» أحد ألقابه الثلاثة، «أمر بتقسيم سوريا إلى ولاية شمالية دعاها «قلحو سوريا» (قلحو بالقاموس السرياني أو الفينيقي تعني قلب، جوف، وصارت تكتب باللغات الأوروبية «كل»و» ويترجمونها «سوريا المجوفة» وهي قلب سوريا أو داخلها) وسمح فيها بفرقتين، وإلى ولاية جنوبية دعاها «فينيقيا السورية» وسمح فيها بفرقة واحدة»[1].

وها هو الكاتب السوري لقيان السميساطي (وقد جعل هو الآخر في جامعات الغرب «إغريقيا»)، وهو من سميساط في أعالي الفرات يتحدث في كتابه الذي أسماه «الإلهة السورية» عن عبادة الربة السورية تحديداً وليس عن ربة «آرامية» أو سواها، ويقول في مقدمة كتابه حرفياً ما يلي:

«إنني اكتب كسوري، وما سأرويه لكم قد تأدّى إليّ من خلال مشاهداتي الخاصة»[2]. فهو عندما يقول عن نفسه بنفسه إنه سوري، تسقط، بعد هذا، منهجياً كل الأقوال الأخرى التي اخترعها أولئك المؤرخون الذين كتبوا التاريخ ممالأة لسياسات بلدانهم التي تقضي بإلغاء اسم «سوريا» و«السوريين» من التاريخ، والتزم بذلك السوريون بغباء منقطع النظير. وإن الأمثلة لأكثر من أن تحصى... وعلى اية حال فإن ما نكرناه يؤكد الحقيقة التاريخية التي لم يعد يجادل فيها إلا كل جاهل أو مغرض، وهي أن العرب السوريين، أو السوريين العرب، أو السوريين (لأن هذه الكلمة ـ كما اتضح ـ تحوي كل هذه المضامين) هم السلالة الأم الكبرى في هذه المنطقة المهد، وهم صانعو الوطن العربي منذ البداية، والمدافعون عنه حتى اليوم. وإن هذه الحقيقة لم تغب عن أذهان الأوساط الاستعمارية التي سرعان ما عمدت إلى تشظية هذه المنطقة دون غيرها من الوطن العربي الكبير، وبذلت جهوداً محمومة من أجل إلغاء اسم «سوريا» و«السوريين» من التاريخ القديم في كل جامعات العالم ومعاهده، وملأت المنطقة بأسماء مجموعة من العشائر التوراتية البدوية الرعوية

---

(1) فيليب حتي، تاريخ سوريا، الجزء 1 ، ص337 .

(2) انظر: أعمال لقيان السميساطي المفكر السوري الساخر في القرن الثاني الميلادي، ص168 .

كالآراميين والكنعانيين، والحثيين، والحوريين، والفلسطينيين، وغيرهم مما لم يرد لهم ذكر في أي مكان آخر خارج مدونات التوراة، بعد أن نقلتهم من مضـارب خيامهم في بقعة جد ضيقة من برية شبه جزيرة العرب لتغطي بهم المساحة السورية التقليدية من الفرات إلى النيل. وهذا ما التزم به العرب عامة، والسـوريـون خاصـة، في مؤسسـات التعليم الجامعي والمدرسي، كما في مؤسسات الثقافة والاعلام، جاعلين من هذه المؤسسات الوطنية بذلك امتداداً للخصم في عقر الدار. وقد كنا قد تحدثنا عن ذلك مفصلاً في كتابنا الثاني[1].

وإن ما يدعى اليوم بـ «آسيا الصغرى» كانت جزءاً من الدولة العربية السورية سكاناً ولغة وحضارة، كما هي اليوم آثارياً جزء من سوريا. لقد «كان للمملكة في زمن حمورابي جيش منظم يقوم بحماية الثغور وتوطيد الأمن في البلاد. فكان الأمن ناشراً أعلامه حتى أن قوافل الحمير كانت تمشي على رسلها حاملة سلـع التجـار إلى مختلف المدن والأقوام الذين رغب التجـار السـوريـون في الاتجـار معهم. وكـان هؤلاء كثيرين جداً على ضفاف الفرات العليا»[2]. «اما سنحـاريب فقد فاق أبـاه سرجون الثاني عظمة وجلالاً، وعدّ من أعظم رجال السياسـة في زمانه (705 – 681 ق.م) حنكة ودراية ليس في بلاده فقط، بل في سائر بلدان الشرق القديم. وكان مجرد ذكر اسمه كافياً لالقاء الرهبة والمهابة في قلوب الناس في داني البلاد وقاصيها ومنها آسيا الصغرى، لأن طرسوس وسـائر الحصـون اليونانية كانت ضمن سيطرته قبل المسيح بـ 700 سنة»[3]. ولقد أكد ديلابورت أن الآثار السورية التي اكتشفت في كبادوكيا في الأناضول تعود إلى 2400 ق.م[4]. وأن أسماء الشهور التي كانت مستخدمة هناك منذ ذلك الزمن هي نفسها أسماء الشهور السـورية[5]. وإذا ما عرفنا أن اليونان

---

(1) من أجل المزيد من التفاصيل راجع كتابنا «العرب والساميون والعبرانيون وبنو اسرائيل واليهود».

(2) جيمس بريستد، المرجع السابق، ص144 .

(3) المرجع نفسه، ص164 .

(4) ديلابورت، المرجع السابق، ص292 .

(5) المرجع نفسه، ص293 .

سوريون أرضاً وسكاناً ولغة وثقافة، وقد نزحوا من الشمال السوري لبناء مستوطناتهم في الجزر والبر القاري في الغرب اتضح لنا فيما بعد كل شيء.
إن السوريين هم السلالة الأم، وكل التسميات الأخرى هي تسميات لسلالات فرعية كثرت عبر الأحقاب الطويلة، وابتعد بعضها عن بعض بهذه النسبة أو تلك، مكوناً سلالات مستقلة أو شبه مستقلة كما سوف نرى لاحقاً. وإن «سر» و«رب» ينتميان لأرومة واحدة، وهما من منشأ واحد، ومن بقعة من الأرض واحدة، وتكلما لغة واحدة بلهجتين جبلية وسهلية (سورية وعربية). ولهذا فلسنا نميز بين سوري وعربي، فما قلناه عن السوريين يقال نفسه عن العرب، فالعربي سوري منذ البداية، والسوري عربي منذ البداية أيضاً. وكما أن اللهجة السورية كانت هي السائدة لآلاف السنين قبل الميلاد فإن اللهجة العرباء هي التي سادت فيما بعد بفضل القرآن الكريم الذي تنزل بها، فحلّت محل شقيقتها في كل مناطق انتشارها حتى اليوم.

ب ـ السلالات الفرعية:

1 ـ الفينيقيون:

منذ أن تولى الغرب الاستعماري كتابة التاريخ لم يترك جانباً من جوانب التاريخ الحضاري للعرب إلا وأخضعه لعملية التزوير القائم على أساس من التعصب البغيض الذي لم يشهد له تاريخ البشر مثيلاً من قبل.
فبعد أن حول «سوريا»، التي هي مهد حضارة الانسان على هذا الكوكب بحق، والتي كانت تشمل كل عرب آسيا في الزمن القديم، إلى مجموعة متنافرة من العشائر البدوية الرعوية المتخلفة، نقل كل شيء ليجعل مركزه في شبه جزيرة المورة، بصرف النظر عن كل الحقائق والمكتشفات الآثارية والشواهد التي ما ينفك يرددها هو نفسه في كثير من الأحيان. ومن جملة تلك التزويرات الجسورة والمكشوفة و«المتهورة» على حد تعبير بيير روسي، كانت تسمية «الفينيقيون». إن المؤرخين الغربيين يزعمون أن هذه التسمية أطلقها اليونانيون على سكان الساحل السوري، مدعين أن الكلمة يونانية وتعني «الحمر» لأن هؤلاء كانوا مشهورين بتجارة صباغ الارجوان!. حتى التسمية

اطلقها «الاغريق» على شعب وجد قبل «الاغريق» بعدة آلاف من السنين، ثم ظل ينتظر دون اسم ليتصدق عليه فيما بعد الآخرون باسم يعرف به بين الأقوام الأخرى!

أما الحقيقة فهي أن التسمية عربية صميمة وتعني: السادة المنعمين المرفهين، المتمتعين، أصحاب العيش الرغيد. وهي في العربية القديمة (السريانية والفينيقية) من فعل «فَنِقْ» = نعَم، رفَه، دلّل، متعَ، عظَم... فونيقو = منعَم، مدلّل، رغيد، مجيد. وفي قاموس «محيط المحيط» نجد: فنق وفَنق = نعَم. وعيش مفانق = ناعم ورغيد، والجواري الفنق = الناعمات.

ولقد كتب المؤرخ السوري كتابه «تاريخ فينيقيا» في الألف الثاني قبل الميلاد اي قبل أن يوجد أول إغريقي على الأرض، وذكر فيه أن «قْناع» الذي هو اخو أوزيريس كان أول من لقب نفسه بـ «فينيق»[1].

ثم إن «فينيق» كان أحد أولاد الملك أجينور ملك صور، وهو اخو قدموس وكيليك وأوروبا، وهم الذين أعطوا أسماءهم لقارة أوروبا وللعالم وليس العكس. وكنا قد ذكرنا كيف أن قدموس كان أول من بنى مدينة في بلاد «الاغريق» حينما كان السكان مايزالون همجاً يسكنون الكهوف ويأكلون لحوم البشر. وإن هؤلاء «الفينيقيين» هم الذين منحوا شبه جزيرة المورة كل أسباب حضارتها ونقلوها من براثن الهمجية إلى عتبات المدنية بدءاً من تعلم الزراعة وبناء البيوت إلى الآداب والفلسفة وجميع أنواع الفنون الأخرى، مما جعل «أدريانو»، المحامي والبليغ والفيلسوف السوري، الذي ما أن هاجر من مدينته صور إلى أثينا حتى تبوأ كرسي البلاغة فيها «وفي الخطاب الافتتاحي الذي وجهه إلى الاثينيين اسهب في الكلام ليس عن حكمتهم بل عن حكمته لأنه بدا كلامه بقوله: للمرة الثانية تأتي الآداب من فينيقيا»[2].

فكما أن منطقة من الساحل السوري سميت باسم فينيق بن اجينور، فإن باسم

---

(1) انظر: يوسف الحوراني، المرجع السابق.

(2) فيليب حتي، تاريخ سوريا، ص335,334 .

و: Philostratus and Eunapius, The Lives of the Sophists, ed. and tr. Wilmes C.Wright, London, 1922, 1927

أخيه كيليك دعيت منطقة الشمال السوري باسم كيليكيا، كما دعيت قارة اوروبا كلها باسم الأميرة السورية أوروبا. ثم صار سكان الساحل السوري يطلق عليهم اسم «سوري» أو «فينيقي» دونما تمييز، مرة بإطلاق اسم الكل على الجزء، ومرة بإطلاق اسم الجزء على الكل، لأن الفينيقي هو فينيقي وسوري كما اكد هيرودوت حينما ذكر أن فينيقيي صيدا يسكنون سوريا.

أما عملية الخلط الأخرى بين «فينيقي» و«كنعاني» فهي ناجمة عن التزوير الذي احدثته جمعية «جغرافية الأرض المقدسة» التي نقلت عشائر التوراة من مضارب خيامها في شبه جزيرة العرب إلى المنطقة الممتدة ما بين الفرات والنيل. ففي تاريخ سوريا كله وفي آثارها كلها ليس ثمة ذكر لتلك العشائر الكنعانية. ولقد تحدثنا عن ذلك مفصلاً في كتابنا «العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود».

2 . **المصريون**:

إن المقصود بالتسمية سكان وادي النيل قديماً وحديثاً. لكن هذه التسمية ليست تسمية سلالية، فهي لا تدل على جنس من الناس مستقل من حيث سلالته، ولغته، وديانته، وثقافته، وتقاليده، لأن سكان وادي النيل عرب سوريون منذ أن وجدوا.

1) فهم، من حيث الأصل ــ وكما رأينا سابقاً ــ من جبال السراة في شبه جزيرة العرب. فماذا يقول علم الانتروبولوجيا؟.

«لقد قام باحثون عديديون أمثال «ديري» Derry، ومورانت Morant، وفاوست Fawcett بقياس جماجم بشرية ترجع إلى فترة تمتد ما بين عصور ما قبل الأسرات، ونهاية عصر الأسرة السادسة، حيث اكتشفت تلك الجماجم في أماكن عديدة في مصر، تمتد من الجنوب إلى الشمال، اي انها شملت كل مصر تقريباً. كما يلاحظ المرء نتيجة لمقارنة متوسط أرقام قياس الجماجم البشرية المنكورة آنفاً أنه أمام مجموعتين من البشر، لكل منهما خصائصه: الأولى (وهي الأقدم) إنسان صغير الجسم نسبياً، له جمجمة متطاولة ولكنها ضيقة بحيث لا يزيد متوسط عرضها عن 132 مم. ويمثل المجموعة الثانية (وهي الأحدث بالنسبة إلى الأولى) إنسان بجسم أكبر، وله جمجمة أعرض تصل إلى

حوالي 134 مم. أما ارتفاعها فيقل عن عرضها، برغم أنه أعلى من المجموعة الأولى. وقد أوحى كل هذا لبعض الباحثين بوصول عناصر بشرية جديدة إلى مصر خلال عصر ما قبل الأسرات الأخيرة، حيث أطلقوا عليها اسم «عنصر الأسرات».

أما عن الجهة التي جاء منها عنصر الأسرات هذا فيقول ديري: «من المعتقد أن هذا العنصر لايمكن أن يكون قد هاجر إلى مصر من الجنوب، وذلك لأن دراسة الجماجم البشرية التي عثر عليها في مصر، والتي تخص ذلك العنصر (عنصر الأسرات)، لا تمتّ بأية صلة قربى للزنوج. وكذلك لا يمكن أن يكون هذا العنصر البشري قد دخل إلى مصر من جهة الغرب، بسبب الصعوبات الكبيرة التي قد تواجهه في اجتياز الصحراء. كما أن ذلك العنصر البشري ذا الخصائص المحددة غير معروف على الاطلاق في غرب مصر. ولو فرضنا أن ذلك العنصر البشري قدم من الشمال فهذا يعني أنه قدم إلى مصر عبر البحر، وأنه دخلها عبر الدلتا، ولكن مادام أنه لم يعثر على أي أثر له في الدلتا حتى الآن، وأن الدلتا كانت في ذلك الزمن المبكر مليئة بالمستنقعات التي لا يمكن اجتيازها، إذن فإن هذا العنصر لم يدخل مصر من هذه الجهة. وهكذا لم يبق سوى جهة الشرق التي صار مرجحاً دخوله منها»[1].

ويقول الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور: «وتدل الشواهد الأثرية على أن أتباع حوريس وصلوا إلى وادي النيل عن طريق وادي الحمامات، واستقروا بالقرب من قفط، حيث كان إلهها المحلّي «مين»».. وكان حوريس واتباعه محاربين متفوقين بما لديهم من أسلحة، فلم يمكثوا طويلاً في قفط أو ما جاورها، فتحركوا شمالاً حتى استقروا في غرب الدلتا. ثم وفدت عليهم اقوام من شرق الدلتا يدينون بنفس الدين ويعرفون الأسلحة المعدنية، وقد أطلق عليهم اسم «أصحاب الرمح»..

ثم جاءت بعد ذلك هجرة من غرب آسيا تحت قيادة أوزير الذي كان على ما

---

(1) انظر:

Derry, D.E. The Dynastic Race in Egypt, J.E.A. Vol. 42 pp 84,85,83,11

و: محمود عبد الحميد أحمد، الهجرات العربية القديمة، دار طلاس، دمشق، 1988، ص111 - 112.

يحتمل ملكاً عُبد ثم ألّه فيما بعد، وقد استقر هؤلاء في شرق الدلتا. ولم يكونوا من المحاربين بل رعاة ورجال سلم، وسرعان ما اندمجوا في سابقيهم الذين رأوا في أوزيريس صورة للإله الطيب. كما أن أوزيريس وقومه كانوا يميلون إلى أهل شمال الدلتا وإلهته إيزيس. وفي نفس الوقت جاءت كذلك مجموعة أخرى من المهاجرين، اخترقت الدلتا، واستقرت عند رأسها في هليوبوليس. وكان «رع» هو قائدهم وإلههم، ويحتمل أنهم جاؤوا من الشمال الشرقي للمتوسط... وكانوا على جانب من الثقافة والفهم، ومعظمهم من التجار وأصحاب الحرف... وبفضل النشاط الحربي لحوريس وطرق أوزير السلمية، وثقافة رع، تكونت مملكة في مصر السفلي، وكانت عاصمتها «بوطو». وكان طابع هذه المملكة سلمياً، وفقاً لما تميز به أوزير الذي نشط اتباعه في التبشير حتى امتد نفوذه إلى أبيدو أو ما بعدها. ويعدّ هذا أول اتحاد بين الدلتا والصعيد»[1].

ويضيف: «ولابد من الاشارة هنا إلى ما تذكره الأساطير المصرية من أن المصريين كانوا ينتمون إلى أتباع حور، وأن هؤلاء الأتباع هم الذين جاؤوا من الجنوب والشرق، وعلموا المصريين الحضارة، وأخضعوا البلاد لسلطانهم. ويرى كثير من الباحثين بأن في هذا إشارة إلى أن اتباع حور قد جاؤوا من شبه الجزيرة العربية، وعبروا البحر الأحمر، وتجولوا على طول الساحل الافريقي، ثم تقدموا شمالاً حتى وصلوا إلى مصر. كما أن الاتصال المستمر بين مصر وبلاد «بونت» وهذه الأخيرة قد دعا كثيراً من المؤرخين إلى الربط بينها وبين جنوب شبه الجزيرة، بل ويرجحون أن «بونت» هي نفسها بلاد اليمن الجنوبية وليس كما يقول بعض المؤرخين الآخرين بأنها هي شاطىء افريقيا في منطقتي أرتريا والصومال»[2].

والحقيقة إننا كنا قد شرحنا معنى الكلمة. وهي في القاموس السرياني «فونط»

---

(1) محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص77 – 78.

(2) المرجع نفسه، ص152 – 153.

وتعني: المعبر، القنطرة، الممر، المضيق.. وكانت الفاء تلفظ في العربية القديمة P. ويقصد بها مضيق باب المندب حيث عبر العرب الأوائل من شبه جزيرة العرب إلى بلاد وادي النيل كما أثبتت ذلك اللغة والمكتشفات الآثارية والأساطير والمعتقدات الدينية حيث كان قدامى المصريين ـ كما سبق أن مرّ معنا ـ يتوجهون إلى «المركز» حيث «القبلة» وأرض الأرباب، ومقر الأبرار، وموطن الآلهة... وحيث جميعاً إلى الشرق من مصر حيث الجبال التي تشرق منها الشمس. وقد أطلق العرب الأقدمون هذا الاسم على الأرض العربية المتاخمة للمضيق (أو البحر الأعلى) التي صارت فيما بعد (عيلوس فونط) ثم اختفت العين ودخلت هاء التعريف «هيلوس بونت». وكانوا دائماً يحددون حدود بلادهم «من المضيق (أو البحر) الأعلى إلى المضيق (أو البحر) الأسفل».

أما التحديد الجغرافي للمنطقة التي قدم منها سكان مصر القدامى فقد ظهر جلياً من خلف التسميات التي طالما استخدمت قناعاً لاخفاء الحقيقة مثل «الشرق»، «شمال شرق المتوسط»، «غرب آسيا»، إنه المشرق العربي القديم الممتد من شرق المتوسط إلى الخليج العربي، وبكلمة أكثر تحديداً: إنه سوريا القديمة.

2) «أما فيما يتعلق بالأدلة اللغوية التي يقدمها الباحثون دليلاً على هجرة بعض القبائل العربية إلى مصر في عصر ما قبل الأسرات فإنها تتضمن بعض أوجه التشابه الموجودة بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية التي سادت منطقة المشرق العربي، مثل التشابه في بنية الكلمة الأساسية، وفي الحروف، والضمائر، وبعض الخصائص النحوية، وبعض المفردات. فمن حيث بنية الكلمة الأساسية تبيّن أنها في المصرية القديمة (كما في العربية) مؤلفة من انضمام ثلاثة حروف ساكنة... مثل «حسب» hsb بالمصرية و«حسب» في اللغة العربية، أي أن المصدر الثلاثي هو الشائع بين افعال اللغة المصرية القديمة وافعال اللغة العربية»[1].

أما عن تشابه الحروف (الأصوات) فإن حروف اللغتين متقاربة ومتشابهة،

---

(1) انظر: عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، القاهرة، ص1962، ص28،27.

وتضمان بشكل خاص الأصوات الحلقية مثل ح، هـ، ع، ق.... الخ. وإن الضمائر هي نفسها مثل كاف المخاطب، وياء المتكلم، وواو الجماعة.. كما أنها تستخدم التاء للتأنيث، وهي ميزة انفردت بها اللغة العربية ومنها انتقلت إلى كثير من اللغات الأخرى. وبإضافة الميم إلى أول الكلمة للدلالة على اسم الآلة أو المكان مثل درس ـ مدرسة، فتح ـ مفتاح.. وبوجود المفرد والمثنى والجمع، وفي ترتيب الجملة حيث يتقدم الفعل على الفاعل.... الخ[1].

وعلاوة على ما مرّ معنا من أمثلة لغوية في الحلقات الماضية يمكن أن نقدم نماذج من المفردات العربية القديمة في سوريا ووادي النيل:

المصرية القديمة	العربية القديمة والحديثة
حتم	حتمو، حتما، ختم
حسي	حسي، خسيء
حطم	حطم
وحت	واحة
مو	ما، مي، ماء
سيب	ذيبو، ذئب
سمر	سمير
مرت	مرد، مرض
إدن	إدنو، إذن
طفن	طفل
ثنو، سنو	اثنان
أح	أحو، أخ
حت	حتو، أخت
كمحو	قمحو، قمح
كرمو	كرمو، كرم، عنب...

وكنا قد تحدثنا من ذي قبل كيف أن لغة سكان وادي النيل القديمة هي العربية

---

(1) المرجع نفسه.

السريانية (أو السورية) أي عربية جبال السراة القديمة، ولا يمكن فهم معنى أية كلمة منها إلا من خلال القاموس السرياني، وتشمل هذه الحقيقة أسماء الأرباب والملوك والمدن جميعاً في وادي النيل.

إن «مينا» الذي أنشأ أول مدينة في وادي النيل (وهي «طيبة») هو من عرب السراة. وإن كلمة «مينا» تعني في القاموس السرياني: الأصل، النسل، العشيرة، القبيلة، السلالة، الذرية، أبو العشيرة، أبو السلالة. إنه مؤسس السلالة الملكية التي حكمت وادي النيل منذ القدم. وقد اعتاد العرب السوريون المؤسسون القدامى أن يطلقوا هذا الاسم على الأب المؤسس في مواقع الانتشار. إن هذا عينه هو ما حدث مع ابن الأميرة السورية أوروبا في كريت، حيث أسس سلالة الملوك هناك ودعي «مينا» كما دعيت حضارة كريت بالـ «مينوية» من قبل المؤرخين نسبة إليه. أما «طيبة» فهي تمثيل «طبت» أو الطوبى، أو دار النعيم المركزية المقدسة. وهذا ما فعله قدموس السوري شقيق أوروبا في شبه جزيرة المورة فيما بعد حيث بنى مدينة «طيبة» هناك تيمناً بالمدينة المقدسة في المركز. يقول الدكتور جواد علي نقلاً عن ديودور الصقلي: «ومينا هو أول ملك حكم مصر بعد حكم الآلهة. وهو الذي علّم الناس العبادة وأمور الحياة»[1].

ولقد رأينا كيف أن جميع مدن وادي النيل القديمة كانت استنساخاً للمغاور (المدن) المقدسة في الأرض المقدسة المركزية في جبال السراة.

ويؤكد مونتيه أن سكان وادي النيل القدامى جاؤوا من الشرق، ومن جزيرة العرب تحديداً. وعن الطائر «الحرّ» (الصقر) الذي تقدس في وادي النيل يقول: «إن الاسم «حورو» خاص بالإله الذي صوره المصريون كصقر خلال كل التاريخ المصري، وإن له الاسم نفسه الخاص بالصقر المسجّل في قواميس العرب. لقد أتى هذا «الصقر» من شبه جزيرة العرب، التي غالباً ما اجتاح سكانها مصر خلال مسيرة التاريخ ودخلوا وادي النيل»[2].

ويرى هنري فرانكفورت «أن التأثيرات الحضارية السورية دخلت (إلى وادي

---

(1) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء 1، ص405.

(2) Montet, P. Eternal Egypt, New York, 1964, p.20

النيل) عن طريق وادي الحمامات، لأن هذا الطريق كان مستخدماً منذ زمن مبكر جداً، بدليل العثور في قفط الواقعة عند نهاية هذا الطريق على تماثيل قديمة للإله «مين» ترجع إلى نهاية الفترة الجزرية، أو إلى الأسرة الأولى، وهي تحمل رسوماً محفورة على جوانبها تتضمن أسماك البحر وأصدافه»[1]. «وكان مكان الالتقاء ربما في إقليم يقع على الطريق الجنوبي بعيداً عن سومر، أي في الأقاليم التي كان يجلب منها البخور، وهي شبه جزيرة العرب»[2].

وإن «انجلباك» يؤكد بدوره ان عنصر الأسرات الذي قدم إلى مصر في الجزء الأخير من عصور ما قبل الأسرات هو من أصول عربية، وقد استدل على ذلك من الوجود القوي للغة العربية في اللغة المصرية القديمة[3].

وإن عالماً آخر هو وورد Ward يرى الرأي نفسه الذي ذكره أنجلباك، ويؤكد «ان عنصر الأسرات عربي الأصل، وأن موطنه الأصلي كان في سوريا»[4].

ويدعم وورد رأيه بعدة أدلة منها: أن المنظر المصور على مقبض سكين جبل العركي يمثل حرباً خاضها عنصر الأسرات، إذ صوّر هذا المنظر معركة نهرية بين سفن سورية ذات مقدمات ومؤخرات مرتفعة وسفن نيلية مسطحة، كما صور معركة برية. ويرى وورد أن المقاتلين بهذه الحرب لا يمكن أن يكونوا سومريين ابداً، لأنهم صَوروا بلحى وشعور طويلة وبقراب عورة، فهم من سوريا أو ليبيا. وإن شعورهم الطويلة اكدت أصلهم العربي كما أكدته سفنهم ذات المقدمات والمؤخرات المرتفعة أنهم سوريون، وهذا ما أكده الدليل اللغوي ايضاً كما يؤكد وورد.

3) أما العقيدة، فقد رأينا كيف أنها واحدة في سوريا ووادي النيل، من عقيدة

---

(1) H.Frankfort, The Birth of the Civilization in the Near East, London, 1951, pp.110 – 111

(2) H. Ftankfort, The Origin of Manumental Architecture in Egypt, A.J.S.L. vol. Lviii, 1941, pp355 – 358

(3) R. Engelbach, an Erray on the Advant of the Dynastic Race in Egypt and in Consequences, A.E. Vol XL11, 1943. p. 197

(4) W.Ward, Relations between Egypt and Mesopotamia from Prehistoric times to the End of Middle Kingdom, J.E.S.H.O. vol, VII, 1964, p36.

التوحيد، إلى الخلق، والبعث، والحساب، والعقاب، والتوجه إلى المركز الواحد حيث دار المقام للأرباب وللأرواح الخالدة. وتأكد لنا أيضاً أن عقيدة الخصب واحدة، وأن إيزيس وأوزيريس عربيان اسماً ومنشأ، وولادة، وثقافة، وماتا ودفنا في جبال السراة من شبه جزيرة العرب، لكنهما قاما بتعليم سكان وادي النيل الديانة والزراعة والأبجدية، فتقدسا هناك، وارتقيا إلى مرتبة الأرباب النجميين وليس إلى مرتبة «الإله». وكانت إيزيس إحدى كاهنات عشتار وإحدى نبياتها، ثم إحدى تجلياتها.

يقول إرمان: «وإنا لنعلم من شواهد القبور المصرية، ومن التوابيت والنقوش التي نذرها هؤلاء الكهنة، أي آلهة كانوا يتعبدون لها في معابدهم.. وإنا لنقرأ فيها أنهم كانوا كهنة عند هذا الملك وعند تلك الملكة، وأنهم كانوا يشرفون على حراسة الابن الإله لمعبدهم... ويؤكدون لنا في زهو وفخر أن الأب والجد والأسلاف جميعاً من قبل الآباء والأمهات كانوا كذلك كهنة ممتازين»[1].

وفوق هذا وذاك فإن «القِبلة» التي شهدت عملية الخلق الأول هي واحدة، وهي في قلب جبال السراة.

ثم لما أخذ المركز بضخ النصرانية ثم الاسلام كانت سوريا ثم وادي النيل ساحتهما الأولى إلى هذا اليوم. وما أن حلّت العربية العرباء محل العربية السريانية وجرى تعميمها بفضل القرآن الكريم حتى عاشت سوريا ومصر رسوخ الظاهرة الجديدة قبل غيرهما إلى هذا اليوم.

4) أما التسمية فقد عاشت عدة مراحل. فقد دعيت البلاد باسم الوادي ـ وهو وادي النيل ـ حقبة من الزمن. فدعي الملك «ملك الوادي». أما تسمية «النيل» نفسه فهو استنساخ لتسمية نهر النيل الذي يتفجر من الأرض الجنة في البقعة المقدسة من جبال السراة. وهو أحد الأنهار الأربعة المقدسة في المركز وهي: سيحان، وجيحان (مدقلة = الدجلة) والنيل، والفرات، التي تخرج جميعاً من منبع الأنهار في مغارة عشتار المقدسة. يقول المسعودي: «وقد ذكر قوم من أهل الأثر أن الأنهار الأربعة تخرج من أصل واحد من قبة في أرض الذهب التي من

---

(1) إرمان، المرجع السابق، ص442 .

وراء البحر المظلم وهي سيحان وجيحان والنيل والفرات. وذكر بعضهم انها من الجنة، وان تلك القبة من زبرجد، وأن جمع هذه الأنهار، قبل ان تسلك إلى البحر المظلم، أحلى من العسل وأطيب من رائحة المسك»[1].

ثم إن الاسم الذي اقترن بالبلاد في عهد إيزيس وأوزيريس هو «أكبتو» أو «هكبتو» وتعني في العربية القديمة الكآبة، الحزن، الحداد. وهذه التسمية اشتقت استنساخاً من البقعة التي قتل فيها أوزيريس في شبه جزيرة العرب ودعيت في الأسطورة بـ «ارض الكآبة أو الحزن أو الحداد»[2].

اما «اكبتو» الثانية فكانت في الشمال السوري. وتروي الأسطورة أنه كان يعيش أخوان عند أحدهما خمسون ولداً وعند الآخر خمسون بنتاً هو داناؤو. تقدم أبناء عمهّن لطلب أيديهن فرفضن الزواج منهم ووافقهن أبوهن. وهاجر الأب ببناته إلى أرقوس ولجأن هناك إلى الغابات فزعاً من أبناء عمهن. لكن هذا أرسل عصبة من الرجال لحملهن إلى ابنائه ليتزوجوهن قسراً. فما كان من داناؤو الأب إلاّ أن أعطى كل بنت من بناته سكيناً وامرهن ان تقتل كل واحدة منهن زوجها ليلة زفافهن المشتركة. وقد أمضى البنات جميعاً امر ابيهن إلا واحدة لم تقتل زوجها «آنسي» الذي أحبته. وهكذا حصلت المأساة فدعي ابو الشباب القتلى «أكبتو» أي الكئيب، الحزين، لابس الحداد، ودعيت مدينته بهذا الاسم ايضاً[3]. وقد استخدم هذه المأساة أسخيلو في إحدى مسرحياته ودعاها «دانايثي» أي الدانائيات، أو بنات داناؤو.

والغريب أن كلمة «اكبتو» هذه نقلت إلى العربية باسم «مصر» دون ان يفكر أحد بالموقع والمساحة والسكان والمنطق. ولقد تحدث عنها هيرودوت في تاريخه، ومرّت في مواضع كثيرة عنده، لكن الدكتور محمد صقر خفاجة الذي ترجم جزءاً من عمل هيرودوت تحت عنوان «هيرودوت يتحدث عن مصر» جمع كل الـ «مصرات» في مصر واحدة هي مصر وادي النيل، وإن الدكتور أحمد بدوي

---

(1) المسعودي، اخبار الزمان، ص243 .

(2) السير ولس بدج، المرجع السابق، ص85 .

(3) انظر: فوستيل دي كولانج، المرجع السابق، ص337 .

الذي تولى عملية الشرح والتعليق لم يلحظ شيئاً غير أنه اتهم هيرودوت بالجهل الجغرافي!

وها هو شوقي عبد الحكيم في كتابه «الفولكلور والأساطير العربية» يقع في الخطأ نفسه حينما جعل «فيق روحفو» الذي ذهب من شمال سوريا ليؤسس أثينا «مصرياً» و«كذلك داناؤو، وهو مصري آخر، أدخل الفلاحة في مملكة أرقوس»[1].

إن هذه الـ «أكبتو» (أرض الكآبة والحداد) في الشمال السوري لا علاقة لها بوادي النيل. وهي التي نقلت منها بنات داناؤو الاحتفال بعيد «التيس المجيد» (تيس مهفوري) إلى أرقوس[2]، وهي التي مرّ بها الكسندر بن فريام (باريس)[3] بعد خطفه لهيلين وليست مصر وادي النيل التي ليست على الطريق بين إسبارطة وطروادة، وهي التي مر بها مينلاوس بعد أن «دفعت الرياح سفنه إلى شاطئها بعد أن غادر جزيرة لسبوس[4] مباشرة، وبعدها اقلع يريد بلاده»، والغريب أن المترجمين «المصريين» لا يترددون في ترجمة كلمة «اكبتو» الفينيقية القديمة أينما عثروا عليها إلى «مصر»، بصرف النظر عن أي شيء، وكأن «مصر» وادي النيل نكرة، أو بحاجة إلى التباهي بالعثور عليها في نصوص «الاغريق»!. وهي التي مرّ بها هرقل، فوضع «الاكبتيون» (سكان أكبتو) الأكاليل على رأسه وأخذوه في موكب ليضحوا به لزيوس، «فلزم الصمت برهة، وما أن بداوا بإقامة الشعائر للتضحية به أمام المذبح حتى لجأ هرقل إلى العنف وقتلهم عن بكرة أبيهم»[5]. وهي التي تقع على الطرف المقابل لكيليكيا السورية عند مصب نهر عشتار الذي هو نهر الدانوب. ويقول هيرودوت «إن المسافة منها إلى مدينة سينوب على البحر الأسود مسيرة خمسة أيام فقط للرجل المجدّ. وتقع

---

(1) شوقي، عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، دار ابن خلدون، بيروت، الطبعة الأولى، 1978، ص43.

(2) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص303 – 304.

(3) «الاغريق بين الأسطورة والابداع»، 216.

(4) المرجع نفسه، والأدويسا.

(5) المرجع نفسه، 142.

سينوب تجاه نهر عشتار حيث يصب في البحر»[1].

وهي التي مرّ بها أنياس وجماعته الطرواديون بعد خروجهم من طروادة.

وهي التي مرّ بها وافتتحها الاسكندر المكدوني قبل لقائه جيش داريوس في معركة إسوس في الشمال السوري، وليست مصر وادي النيل التي لم يدخلها الاسكندر، ولم يبن فيها الاسكندرية التي كانت موجودة قبله بعدة آلاف من السنين. وبمناسبة ذكر الاسكندرية، فقد دعيت بهذا الاسم، كغيرها من المدن الأخرى، تيمناً بالاسكندرية الأولى في الأرض المقدسة من جبال السراة في شبه جزيرة العرب. وهذه الاسكندرية الأولى بنيت في أرض مصريم بن بيصر بن حام بن نوح[2] الذي دعيت الأرض باسمه «مصريم». وهي لا علاقة لها بوادي النيل، وقد خلط التوراتيون والمترجمون العرب بينها جميعاً. أما «اسكندرية» البحر المتوسط فلقد كانت جزءاً من الامتداد السوري أو الفينيقي الذي غطى الشمال الافريقي كله منذ أقدم العصور، وهذا ما أكده الكثير من المؤرخين والباحثين الموضوعيين، ومنهم بيير روسي[3].

ولقد تحدثنا في كتابنا الثاني وبيّنا كيف أن وادي النيل لم تعرف في تاريخها حاكماً بلقب «فرعون» وإنما «مصريم» التي في شبه جزيرة العرب هي التي كان حاكمها يلقب بـ «فرعون». وإن القارىء النبيه الذي يقرأ قصة استيلاء قمبيز على مصر سوف لن تفوته فرصة ملاحظة أن «مصر» المقصودة هي «مصريم» في شبه جزيرة العرب، حيث وادي «كارا» الذي يرفد وادي الفرات شرق بلاد غامد، وحيث ملوك البدو العرب يمدونه بقُرب الماء في صحراء شبه جزيرة العرب. قبل أن يجد نفسه وجهاً لوجه أمام جيش مصريم[4].

أما التسمية اللاحقة لبلاد وادي النيل فهي «القبط» بعد دخول النصرانية. والكلمة بالفينيقية هي «هقبطو» إذ الهاء للتعريف، أو «إقبطو» للابدال بين الهاء والهمزة في التعريف. وكتبت باللغات الأجنبية Egypto فاختلطت مع «اكبتو» القديمة،

---

(1) المرجع نفسه، ص116 .

(2) المسعودي، أخبار الزمان، ص180 .

(3) روسي، المرجع السابق، ص195 .

(1) انظر: إيفانز، المرجع السابق، ص114 .

وظلت تدعى بهذا الاسم إلى زمن محمد. ففي الكتاب الذي وجهه النبي محمد إلى المقوقس جاء ما يلي: «من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط...».
أما تسمية «مصر» فلم تلحق بها إلا مؤخراً. وذلك أن عمراً بن العاص عسكر بجيشه عند قرية في وادي النيل تدعى «بابليون». وفي المكان الذي نصبت فيه الفسطاط (خيمة القائد عمرو) أمر ببناء بلدة ودعاها «الفسطاط» ثم الـ «مصر» أي البلدة. ثم جددها المعز لدين الله الفاطمي ودعاها «القاهرة». ومازال حتى هذا اليوم ابن وادي النيل الذي يقصد القاهرة من الصعيد أو الاسكندرية أو أية جهة أخرى يقول «نازل مصر» أي القاهرة. وقد جرى تعميم المدينة المركز على القطر ككل، كعادة العرب في كثير من مواقع انتشارهم.
واما ما يدعوه المؤرخون بسيطرة الاغريق المزعومة على وادي النيل من خلال الديانة والثقافة واللغة وبعض المدن مثل «نقريتي» فلم يكن، في الحقيقة والواقع، سوى الديانة والثقافة واللغة العربية السورية المركزية التي شملت بلاد اليونان وإيطاليا وحوض المتوسط كله. وإن مدينة «نقريتي» أو «نيتوقريث» في حوض الدلتا فقد بناها التجار السوريون لا الاغريق، ودعوها باسم إحدى ملكاتهم الشهيرات التي تحدث عنها هيرودوت فكتب يقول:
«حكم مدينة بابل هذه عدة ملوك بذلوا جهوداً ومساعدات في بناء أسوارها وتزيين معابدها... وكان من بينهم سيدتان، وتسمّى أولاهما سميراميس، وتولت الحكم خمسة أجيال قبل أن تأتي بعدها الملكة التالية. ومن أعمالها أنها أقامت بعض الجسور الجديرة بالذكر في السهل المجاور لمدينة بابل للاشراف على النهر الذي كان، حتى ذلك الوقت، يفيض على جانبيه، فيغرق جميع الأراضي المحيطة به.
أما الملكة الثانية فهي نيتوقريث(*)، وكانت أكثر حكمة من سابقتها... فلما رأت قوة الميديين، وأنهم استولوا على عدد كبير من المدن، وتوقعت أن تهاجم بدورها، بذلت كل مجهود مستطاع لتقوية وسائل دفاع امبراطوريتها. فبدأت

(*) نيقريث أو نيتوقريث تعنيان سيدة المدينة أو ربتها. إذ أن «ني» و«نيت» تعني السيدة الربة. و«قريث» المدينة، القرية. فمعنى الاسم «ربة البلدة» وهو أحد أسماء عشتار التي كانت تستعار كأسماء أو ألقاب للملكات السوريات.

بنهر الفرات الذي كان يخترق المدينة في خط مستقيم. فحفرت بعض المجاري على مسافة من أعلى النهر، وبذا صار يدور ويحف بالقرية نفسها ثلاث مرات، وهي قرية في آشور كانت تسمّى أرديريكا، وإلى يومنا هذا كل من يذهبون من بحرنا إلى بابل عندما ينزلون إلى ذلك النهر يمرون بنفس تلك البقعة ثلاث مرات في ثلاثة أيام مختلفة. كما أقامت جسرا بطول كل من جانبي نهر الفرات. وكانا عجيبين في عرضهما وفي ارتفاعهما. وحفرت حوضاً لبحيرة على مسافة بعيدة من بابل إلى جوار هذا النهر. وكان الحوض عميقاً في كل نقطة يصل فيها إلى المياه. وكان عرضه هائلاً حتى أن محيطه ليبلغ 420 فورلنجاً. واستخدمت الأتربة الناشئة من حفر هذا الحوض في تعلية الجسور بطول مجرى الماء. وبعد أن أتمت حفره أحضرت الأحجار وأقامت بها حوائط تبطن محيط الحوض بأكمله. وهكذا أتمت هذين العملين، وهما التفاف النهر وحفر البحيرة، حتى يصير التيار أبطأ بسبب عدد الانحناءات التي يدور فيها، وتغدو الرحلة طويلة دائرية حتى يضطر القائم بها إلى المرور حول البحيرة فيقطع شوطاً بعيداً. كل هذه الأعمال تمّت على جانب مدينة بابل حيث تقع الممرات. وكانت الطرق المؤدية إلى ميديا أكثر استقامة. وكان غرض الملكة هو أن تمنع الميديين من الاتصال بالبابليين، وبذا لا يكونون على علم بشؤونها.
واستخدمت التربة المستخرجة من حفر البحيرة في إقامة وسائل دفاع المدينة..

كانت هذه الملكة نفسها هي التي دبرت الخدعة الشهيرة: فقد شيدت مقبرة لها في الجزء العلوي من أحد الأبواب الرئيسية للمدينة في مستوى يرتفع فوق رؤوس المارين. ثم كتبت عليها هذه العبارة: «إذا احتاج أحد الملوك الذين سيخلفونني على عرش بابل إلى الأموال فليفتح قبري ويأخذ منه ما يشاء، ولا يفعلن ذلك إلا إذا كان محتاجاً حقاً إلى الأموال، وإلا فلن يفيد منه شيئاً». وظل ذلك القبر كما هو لا يمسّه أحد حتى جاء داريوس إلى المملكة، فرأى من الوحشية ألاّ يكون في مكنته استخدام أحد أبواب المدينة،وأن يبقى مبلغ من المال محبوساً دون أن ينتفع به. وعلاوة على هذا شقّ على نفسه أن يمنع يده من الوصول إلى ذلك الكنز. فامتنع عليه استخدام الباب، لأنه عندما يمرّ بعربته

تكون الجثة الميتة فوق رأسه. وبناء على كل ذلك فتح القبر، ولكنه، بدلاً من ان يرى الكنز، وجد الجثة الميتة ليس غير، وبجوارها كتابة تقول: «لو لم تكن جشعاً مولعاً بجمع المال الحرام، ولا يهمك من اي طريق تحصل عليه، لما تجرأت على هتك ضريح الموتى»[1].

تلك هي «نيقريتي» أو «نيتوقريث» الملكة التي كان كثيراً ما يعتز بها السوريون القدماء ويروون عنها أخبار الحكمة والذكاء البالغين، والتي دعوا مدينتهم في دلتا النيل باسمها.

إن سكان وادي النيل الأقدمين ـ كما سبق أن رأينا في كل حلقات هذا الكتاب ـ هم عرب سوريون، من سراة شبه جزيرة العرب أصلاً ولغة وديانة وعادات وتقاليد. ولقد شهدت بلادهم كما شهدت سوريا جميع التحركات السكانية والعقائدية التي شهدتها سوريا وانبعثت من «المركز»، في معظمها، الكائن في قلب شبه جزيرة العرب.

3. الفرس.

إن الفرس، من حيث نسبهم السلالي، مختلف فيهم ما بين سام ويافث ابني نوح. لكن هذا الخلاف كان يرجع إلى النسبة للأب السامي أو الأم اليافثية.

فالمؤرخون والأخباريون والنسابون العرب يرجعون جميعاً نسب الفرس إلى سام بن نوح. يقول الطبري في تاريخه: «فنكح لاوذ بن سام بن نوح شبكة ابنة يافث بن نوح فولدت له فارس وجرجان وأجناس فارس. وولد للاوذ مع الفرس طسم وعمليق، ولا أدري أهو لأم الفرس أم لا. فعمليق أبو العماليق كلهم امم تفرقت في البلاد»[1].

وكنا قد بّينا في كتابينا السابقين كيف ان المقصود بـ «الشام» هو اليسار، أي كل ما على يسار المركز والتوجه إلى الشرق، والمقصود باليمن اليمين، أي كل ما على يمين المركز. وأن عشائر الكنعانيين ومصريم (المصريين) هم في جبال غامد وبرية العرب، والدليل هو أن الطبري نفسه ذكر أسماء أولئك الفراعنة من

---

(1) إيفانز، المرجع السابق، ص68 – 71 .

(2) تاريخ الطبري، الجزء 1 ، ص140 .

الوليد بن الريان (فرعون يوسف) إلى مصعب بن معاوية (فرعون موسى).

وقال المسعودي: «أجمع أهل الأثر أن أول من ملك مصر بعد الطوفان مصرايم بن تنصر بن حام بن نوح... ونكح مصرايم بنتاً من بنات الكهنة فولدت له ولداً فسماه قبطيم.. ثم تزوج مراة أخرى فولدت له أربعة نفر: يقطويم، وأشمون، وأبريت، وصابي، فكثروا وعمروا في الأرض وبورك لهم فيها.. وتولى الأمر بعده ابنه قفطويم، وكان أكبر ولد أبيه، وكان جباراً.. وهلكت عاد بالريح في آخر أيامه»[1].

أما «إيران» فهو إيران بن الأسود (أو آشور) بن سام بن نوح[2]. وابنه بّوان. و«بوّان بن إيران بن الأسود بن سام بن نوح هو الذي ينسب إليه شعب بّوان من بلاد فارس. وهو أحد المواضع المشهورة في العالم بالحسن وكثرة الأشجار، وتدفق المياه»[3]. وإيران هو أخو باشل بن آشور الذي منه الجرامقة[4].

والفرس القدامى كانوا يتكلمون العربية بلهجتها السريانية (التي يدعوها المؤرخون بالآرامية)، وقد اوردنا الشواهد الكثيرة في بدايات الكتاب. اما الديانة فكانت ديانة الخصب السورية. وقد تقدست ربة الخصب تحت اسم «ميثرا» = (المكثرة، الموفرة، المخصبة، المثرية) ثم يذكر المسعودي أن المتقدمين من الفرس قبل الاسلام كانوا ـ مثلهم مثل كل القبائل العربية الأخرى ـ «يطوفون بالكعبة ويحجون إليها.. وكان آخر من حجّ منهم ساسان بن بابل، وهو جد أزدشير بن بابل، وهو أول ملوك ساسان...

«وفي ذلك يقول الشاعر في قديم الزمان:

زمزمت الفرس على زمزم ... وذاك من سالفها الأقدم

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الاسلام بذلك، فقال من قصيدة:

ومازلنا نحجّ البيت قِدماً ... ونُلفى بالأباطح آمنينا

---

(1) المسعودي، المرجع السابق، ص180 – 184 .

(2) المسعودي، ص237 .

(3) المرجع نفسه.

(4) المرجع نفسه.

وســـاســـان بن بــابك ســـار حتى أتــى الـبيت الـعتيـق يطـوف ديـنـا
فطـــاف بـــه وزمـــزم عنـد بـئـــر لإسـمــاعيل تـروي الـشــاربيـنـا

«وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان وجواهر. وقد كان ساسان بن بابك أهدى غزالين من ذهب وجوهراً وسيوفاً وذهباً كثيراً قذفه في زمزم»[1].

اما بعد الاسلام، فقد بقي الفرس على الاسلام حتى اليوم، كما أن لغتهم تتضمن أكثر من ثمانين في المئة من الكلام العربي القديم أو الحديث. إن في ذلك كله دليلاً على أن الفرس إحدى السلالات التجزيئية من السلالة العربية (أو السورية) الكبرى.

اما البدعة العرقية التي اخترعتها مخيلة اللغويين الألمان مؤخراً حول «الآرية» المشتقة من «إيران» لغايات استعمارية مفضوحة في الزمن النازي، وفي مقدمة تلك الغايات السيطرة على الخط الشمالي لنفط المنطقة، فقد سقطت تلقائياً عند العلماء، ومازالت تتحرك بين الفينة والأخرى لمآرب سياسية مكشوفة. كما انطلت هذه البدعة على العشائر الكردية التي ربما وجدت في التنكر لأصلها اليوم وفي الانتماء إلى هذا (العرق!) المختلق رفعاً لشأنها، وربما يفضي إلى تحقيق مآرب سياسية في زمن تفكك العرب وضعفهم!.

اما أخبار القبائل الفارسية الأولى فقد كانت مساكنها هي مساكن أبناء سام في برية شبه جزيرة العرب، لكن في القسم الشرقي من الأرض. وكانوا في معظمهم من رعاة الإبل، وهذا ما يؤكده هيرودوت.

وإذا ما تتبعنا سيرة شيوخ وزعماء القبائل الفارسية من خلال سيرتهم الشعبية الشهيرة (الشاهنامة) فإننا نجد أن ملوك (زعماء تلك القبائل) كانوا يتأدبون ويعهدون إلى العرب بتأديب أبنائهم ويحرصون على التزاوج من الأسر العربية الكريمة: «أخذ أفريدون ينظر في شؤون رعيته. فبسط العدل والانصاف، وهدم قواعد الجور والظلم، وطاف في المشارق والمغارب حتى

---

(1) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار المعرفة، بيروت، الجزء الأول، 1983، ص242 – 243.

عُرف بحسن السياسة، ووفور الرحمة والرأفة. ولما بلغ الخمسين رزق ثلاثة أشبال من بنتي جمشيث، فأخذ يربيهم كما ربّي على الطاعة والإيمان. فلما بلغوا أراد أن يزوجهم، فاستدعى وزيره جندل وأمره بالتطواف في أنحاء البلاد مفتشاً عن أخوات ثلاث من البيوت الكبار والقبائل الشريفة يصلحن للاتصال بهؤلاء الأشبال. انطلق جندل في تطوافه سائلاً، باحثاً، مدققاً حتى عثر على بغية ملكه عند «سرو» ملك اليمن، الذي وافق على طلبه بعد التحاور والتشاور...

ذهبت الأشبال الثلاثة إلى حضرة ملك اليمن، فبقوا عنده ردحاً من الزمن. ثم عادوا مع زوجاتهم إلى حضرة أبيهم. وبينما هم راجعون، أراد والدهم أن يمتحنهم، فتنكر بشكل تنين ضخم، تكاد الأسود من منظره ترتطم. فتنطح لهم طالباً منازلتهم. فهرب الابن الأكبر آثراً السلامة، فسماه والده فيما بعد «سلم». وأخرج الأوسط سيفه لمحاربته، فسمّاه «تور»، أما الأصغر فهدده باسم والده الملك افريدون، وأمره بالانصراف إن هو أراد البقاء حيّاً، فسمّاه «أيرج». ثم قسم ممالك الأرض فيما بينهم»[1].

ويسهل علينا أن نلاحظ كيف ان هذه الأسماء هي جميعها عربية. أما اسم «إيرج» فهو من الفعل العربي القديم «رجي» ويعني: رجا، أمل، أخصب، طري، كان غضاً ليناً، وهو ما ينطبق على الولد الأصغر الذي كان مايزال غضاً طري العود لكنه يعوّل عليه فيما بعد.

ونلاحظ أيضاً أن اختيار الملوك الفرس لأبنائهم زوجات عربيات من شبه جزيرة العرب كان يعني الحرص على نقاوة السلالة في الأمهات في الوقت الذي كانت فيه القبائل الفارسية مجاورة للكثير من القبائل الأخرى الهجينة أو الغريبة في الشمال والشرق.

ثم إن هذا الاختيار للعربيات كأمهات للأولاد من الملوك لم يكن عرضياً أو طارئاً، إذ أن تأديب هؤلاء الأولاد كان يعهد به إلى المؤدبين العرب وحدهم دون سواهم، خاصة إذا ما لوحظ أن الفساد يدبّ في أخلاق الملوك:

---

(1) الفردوسي، الشاهنامة، دار العلم للملايين، بيروت، 1981 ، ص19 – 20 .

«جلس يزدجر الملقب بالأثيم واستلم، وبالظلم والجور حكم. فعظمت افعاله وكبرت أعماله. فخاف الناس من شرّه، ولم يتجاسروا في اتخاذ مشورته. واستوى عنده العالم والجاهل، والصالح والطالح. ولما استكمل من ملكه سبع سنين ولد له ابن سماه بهرام. فخاف العلماء عليه من ظلم ابيه واستفحال أمره. فأشاروا على الوالد بتربية الابن في إحدى الممالك المجاورة. فاجتمع عنده الملوك. فاختاروا المنذر بن النعمان ملك العرب وولده النعمان ليكونا كفيلين، وللآداب والفضائل معلّمين. فأخذه المنذر إلى بلاد اليمن، ووضعه تحت إشراف نساء اكابر العرب والعجم. فأرضعنه وربينه ولم يفطمنه إلا بعد أربع سنين. ولما بلغ سبع سنين طلب من المنذر تعليمه الفروسية والآداب السلطانية. فتعجب من ذكائه وشدة بأسه، وأرسل في طلب العلماء لتعليمه كالنجباء. فاجتمع عنده أربعة منهم: الأول للخط والكتابة، والثاني للصيد والطرد، والثالث للرماية واللعب، والرابع لسرد حياة العظماء والتمثل بالحكماء. فلما بلغ الثامنة عشرة صرفهم النعمان بعدما خلع عليهم أموالاً باهرة وحللاً فاخرة. واختار بهرام من كل خيل العرب فرسين كالريح الهوجاء في مسابقة العنقاء»[1]... ثم عزله أبوه بعد عودته، ونصب أخاه خسرو (كسرى)، فاستنجد بهرام بالعرب وبالنعمان، فنصروه واستلم التاج[2].

إن ما تحدثنا به السيرة الشعبية لملوك الفرس قد يكون أصدق حديث، لأن الأحداث تعيش في الذاكرة الشعبية بكامل نكهتها بعيداً عن ميول الفرد أو نزعاته السياسية. واسم «بهرام» في القاموس السرياني يعني النور. ونحن أمام مثل هذا الواقع لا نكاد نميز بين القبائل العربية والعجمية إلا بما نميز بين اللهجتين في اللغة العرباء والسريانية الشرقية.

وأما لغة الفرس القديمة وكتابتهم فيعترف المؤرخون الألمان اساتذة البدعة «الآرية» أنفسهم بأنها العربية السريانية التي يدعونها «آرامية». يقول المؤرخ الألماني جيمس هنري بريستد: «تعلم الفرس الكتابة بعد دخولهم الهلال

---

(1) المرجع نفسه، ص147 .

(2) المرجع نفسه، ص148 .

الخصيب، وصاروا يكتبون بعد أن كانوا جاهلين الكتابة أمداً طويلاً»[1].

«وصارت اللغة الآرامية، وهي لغة التجار الذين كانت تغصّ بهم اسواق بابل، لغة الهلال الخصيب قاطبة. فكانت الصكوك التجارية تكتب بها على ورق البردي بالقلم والحبر بدلاً من كتابتها على الآجر بالخط الاسفيني والمسماري الذي كانت شمسه آخذة بالأفول. واضطر موظفو الحكومة إلى استخدام الآرامية في جميع أعمالهم، فكانوا يرسلون بها الأوامر حتى إلى مصر وآسيا الغربية»[2].

اما النظام الاداري «فقسموا البلاد إلى مرزبانات» جعل على كل منها عامل يدعى مرزبان كان يعينه الملك. وهو اللقب الذي كان يعرف به ملك الفرس، وكانت هذه التنظيمات موجودة لدى البابليين والكلدانيين والآشوريين والمصريين[3].

والحقيقة إن كلمة «مرزبان» عربية قديمة وهي في القاموس السرياني تعني: الوالي، حافظ الحدود. ويؤكد بريستد أن هذا التقسيم كان موجوداً عند البابليين والمصريين، وأن الملك الفارسي نفسه كان مرزباناً عند ملوك بابل قبل أن يقوم بـ «انقلابه» ويستلم الحكم في بابل، (وهذا ما سوف نتناوله في كتاب آخر)، ولم يكن احتلالاً من دولة لدولة، بل انقلاباً قبلياً بدوياً على الدولة البابلية.

اما عن الأسطول الفارسي فيقول بريستد: «ليس بالأمر السهل على شعب بزّي سكانه رعاة وفلاحون تفصلهم عن البحر سواحل رملية أن يسيطروا على البحر.. لذلك اضطر داريوس أن يستخدم بحّارة أجانب»[4]. «فكانت جميع سفنه فينيقية»[5].

أما عن العمارة والبناء فيقول: «ورأى بناؤو الفرس أن الحاجة تدعوهم أن يتعلموا أصول فن البناء من الشعوب الشرقية التي دانت لهم. فأخذوا عن

---

(1) جيمس بريستد، المرجع السابق، ص201 .

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه، ص205 .

(4) المرجع نفسه، ص206 .

(5) المرجع نفسه، ص208 .

البابليين اسلوب بناء السطوح العظيمة التي كانوا يشيدون عليها قصور ملوكهم، واخذوا عن الآشوريين وعن الأجزاء الغربية أسلوب نحت الثيران المجنحة. واقتبسوا تشييد الأبنية والأروقة ذات الأعمدة الهائلة وكانت هذه الأعمدة أقدم أنواعها في آسيا.. وكذلك صناعة الآجر المرصع بالمينا»[1]. «ولا مراء في أن الفرس قد جنوا فوائد جمة من المدنيات التي سبقت مدنيتهم»[2]، «وكانت مدة الحكم الفارسي نحواً من مائتي عام»[3]. إنها المدة نفسها التي أمضاها المثقفون السوريون في نزوحهم، إبان الانقلاب الفارسي، إلى المستوطنات السورية في بلاد اليونان، بدءاً من أواخر القرن السابع قبل الميلاد وحتى القرن الرابع قبل الميلاد. فظهرت تلك «المعجزة الحضارية اليونانية المفاجئة»، ثم اختفت مع عودة السوريين إلى الأبد.

وهكذا نجد أن الفرس سلالة عربية (أو سورية) فرعية: نسباً، ولغة، وآداباً، وتقاليد، وأرضاً، وديناً، وإذا كان أصحاب النظرية «الآرية» يعتمدون على ثلاث كلمات لبناء هذه البدعة هي «أب، ام، اخ»[5] والتي تعتبر واحدة من الهند إلى غرب أوروبا، فقد كنا قد ألمحنا إلى أن أحداً في الغرب لا يعرف كيف أتت وما هي أصول هذه الكلمات، وبيّنا اشتقاقاتها وأصولها العربية السريانية إن كلمة Mater وMother (الانكليزية الحديثة)، وMat (الروسية) هي من الكلمة العربية القديمة «مات» وتعني الرحم، الأم، الخصب. وإن Pater، وFather (الانكليزية الحديثة). هي من الفعل العربي القديم «فتي» ويعني أخصب. وكنا قد بينا أن الفاء كانت تلفظ P. وإن النهاية er هي عربية قديمة للدلالة على فاعل الشيء (وكنا قد شرحنا ذلك من ذي قبل) فيكون معنى الكلمة المخصب، الذي هو الأب للولد والمخصب لأمه، فالأم، في عقيدة الخصب العربية القديمة هي الخصيبة والخصب، والأب الرجل هو المخصب، والابن هو ابن الخصب وثمرته. وهي الأقانيم الثلاثة في عقيدة الخصب. ولما كانت التسمية منبثقة من

---

(1) المرجع نفسه، ص209 .

(2) المرجع نفسه، ص200 .

(3) المرجع نفسه، ص214 .

(4) المرجع نفسه، ص191 .

صميم عقيدة الخصب العربية السورية القديمة فإن المخصب Pater كانت تعني مرتبة دينية مرادفة لكلمة «الكاهن» التي تعني في القاموس السرياني حرفياً المخصب دون أن يكون والداً بالجنس. وهذا مالاحظه الباحثون في الغرب. يقول فوستيل دي كولانج: «وكذلك في اللغة القضائية كان يمكن أن يعطي لقب Pater لرجل ليس له أولاد وليس متزوجاً.. ويرينا الشعراء أنهم كانوا يستعملونه لجميع من كانوا يريدون تكريمهم.. ونفس الاسم الذي يطلق عليه Pater يحمل في ذاته معلومات غريبة، واللفظ هو بذاته في اللغات الاغريقية واللاتينية والسنسكريتية، ومن ذلك يمكن أن نستنتج أن هذا اللفظ يرجع إلى أصل كان أسلاف الاغريق والايطاليين والهنود لازالوا يعيشون معاً في آسيا الوسطى. فماذا كان معناه؟ وأية فكرة كان يمثلها عندئذ في ذهن الناس؟ من الممكن أن نعرف ذلك إذ انه احتفظ بهذا المعنى الأول في صيغ اللغة الدينية وفي صيغ اللغة القضائية. فعندما يكون القدماء يدعون جوبيتر، لم يكونوا يريدون أن يقولوا إن جوبيتر كان والد الآلهة والناس، إذ أنهم لم يعتبروه كذلك أبداً. بل على العكس كانوا يعتقدون أن الجنس البشري كان موجوداً قبله. وكان يطلق اللقب نفسه على أبولون وباخوس وفولكان.. ومن المؤكد أن الناس لم يكونوا يعتبرونهم آباء لهم. وكذلك كان يطلق لقب Mater على فينوس وديانا وفستا اللواتي اشتهرن بأنهن إلهات عذارى»[1].

أما لفظة «جوبيتر» فهي عربية قديمة مؤلفة من كلمتين: «جوف» (وتلفظ الفاء P) وتعني في القاموس السرياني النسر، الجناح، و«فاتر» (والفاء تلفظ P) وتعني المخصب، أي إنها نسر الخصب، أو جناحاه، وهو رمز رب الخصب السوري منذ الزمن الموغل في القدم، وقد التصق بالرب «حدد» اكثر من غيره. وإن معبده في دمشق هو أقدم معبد قائم على الأرض (حيث الآن الجامع الأموي)، وإن إطلاق تسمية معبد جوبيتر عليه في زمن حكم الأباطرة السوريين لم يغير من الأمر شيئاً، فقد بني منذ الألف الرابع قبل الميلاد على الأقل وقد دعيت المدينة ديماس، وديمستا، التي تعني القبة، الهيكل باسمه منذ أن وجدت،

---

(1) فوستيل دي كولانج، المرجع السابق، ص115,116 .

وصارت إلى دمشق. وهذا ما كنا قد بيّناه في كتابنا الثاني وقد بقي الرب «نسر» أحد أرباب العرب الرئيسيّن حتى ما قبل الاسلام. وفوق هذا نقول: إذا كان جهابذة مخترعي النظرية الآرية يعتمدون على وحدة هاتين الكلمتين من الهند إلى ايطاليا دون أن يعرفوا لهما أصلاً أو اشتقاقاً أو معنى، فماذا يمكن أن يقول العربي إذن الذي يجد في كل من الفارسية والهندية والتركية ثلاثة أرباعها من العربية القديمة أو الحديثة، وإن في اللغات الأوروبية جميعاً من الكلام العربي القديم والحديث ماتزيد نسبته عن النصف؟ أما «الاغريقية» القديمة و«الايطالية» القديمة، فهي، في مجملها العربية الفينيقية، كما أثبتت جميع الدراسات الجادة والموضوعية اليوم. أما عن وضع القبائل الفارسية البدوية حين غزوها لبابل عاصمة السوريين فيصفه لنا هيرودوت على النحو التالي:

«ولو فكر البابليون فيما قصد إليه كورش، أو لاحظوا الخطر المحدق بهم» لما سمحوا للفرس بدخول مدينتهم، بل كان بوسعهم أن يبيدوهم عن بكرة أبيهم، إذ كان في إمكانهم أن يقفلوا جميع الأبواب المطلة في الطرقات على النهر، ويصعدون إلى أعلى السور بجانب النهر، وبذا كان يمكنهم أن يقبضوا على العدو كما لو كان داخل مصيدة. ولكن الذي حدث هو أن الفرس أخذوهم على غرّه، وبهذا استولوا على المدينة. ونظراً لاتساع المدينة العظيم، فإن سكان الأجزاء الوسطى (كما نكر سكان بابل) ظلوا مدة طويلة بعد استيلاء العدو على الأجزاء الخارجية من المدينة لا يعلمون شيئاً عمّا حدث، لأنهم كانوا مشغولين بالاحتفال بأحد أعيادهم، فاستمروا يرقصون، ويحتسون الخمر، حتى علموا بسقوط مدينتهم بعد فوات الأوان»[1].

وحينما أراد اقريسيوس التصدي لجيش قورش في الشمال السوري نصحه سوري من اتحاد المدن الشمالية (الاتحاد الليدي) واسمه سان داني (قمر الرب) بقوله:

«أيها الملك، إنك على وشك محاربة قوم يرتدون سراويل من الجلد، وكذلك جميع ملابسهم الأخرى من الجلد أيضاً. انهم قوم لا يأكلون ما يشتهون، وإنما

---

(1) آ.ج. إيفانز، المرجع السابق، ص73 .

يتغذون بما يمكنهم الحصول عليه من أرض جدباء قاسية. قوم غير مولعين بشرب الخمر، بل يشربون الماء. قوم ليس لديهم تين ولا أية فاكهة أخرى يأكلونها. فإذا فرض وهزمتهم فماذا يمكنك الحصول عليه منهم وقد رأيت أنهم لا يملكون شيئاً على الإطلاق. أما إذا هزموك فانظر إلى جميع الطيبات التي ستخسرها»[1].

وفي هذا دليل آخر على أن القبائل الفارسية هي فرع بدوي عربي لم يكن لديها غير ما تغنمه من الغزو. وكان موطنها الأصلي الصحراء الشرقية من شبه جزيرة العرب.

4 . **الأكراد:**

تجمع المصادر العربية على أن الأكراد أشتات من القبائل العربية الرعوية التجأت إلى الجبال الشمالية الشرقية وابتعدت عن المركز. ولما كانت تلك العشائر قد حافظت على وضعها ونمط عيشها الرعوي المنعزل في الجبال النائية أمداً طويلاً، فقد بقي كلامها شفوياً، واختلطت مع القبائل الرعوية المتاخمة الأخرى، مما أكسب كلامها الشفوي عناصر لغوية غريبة، وأفقدها عناصر أصيلة من اللغة العربية الأم. فصار الأكراد، من ناحية اللغة، عرباً في المركز، أو في الأرض العربية، وكلما أوغلوا عمقاً في الجبال الشمالية والشمالية الشرقية، كلما ابتعدوا عن اللغة الأم حتى كادت أطراف عشائرهم تفقد أية صلة معها. ولما كانت مجاوراتهم ومناطق تماسهم تجعلهم يتعاملون مع قبائل رعوية شتى ما بين المغولية والقفقازية فقد تكونت لديهم في تلك المناطق عدة لهجات مختلفة تكاد تكون كل منها لغة شفوية خاصة بهذه العشيرة أو تلك ضمن السلالة الكردية نفسها.

يقول المسعودي: «وأما أجناس الأكراد وأنواعهم فقد تنازع الناس في بدئهم. فمنهم من رأى أنهم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، انفردوا في قديم الزمان، وانضافوا إلى الجبال والأودية، ودعتهم إلى ذلك الأنفة، وجاوروا من هنالك من الأمم الساكنة المدن والعمائر من الأعاجم والفرس، فحالوا على

---

(1) إيفانز، المرجع نفسه.

لسانهم، وصارت لغتهم أعجمية(*). ولكل نوع من الأكراد لغة لهم بالكردية.
ومن الناس من رأى أنهم من مضر بن نزار، وأنهم من ولد كرد بن مرد بن صعصعة، وأنهم انفردوا في قديم الزمان لوقائع ودماء كانت بينهم وبين غسان، ومنهم من رأى أنهم من ربيعة ومضر، وقد اعتصموا في الجبال طلباً للمياه والمراعي، فحالوا عن اللغة العربية لما جاورهم من الأمم.
«ومن الناس من رأى أن الضحاك ذا(**) الأفواه.. أنه خرج بكتفيه حيّتان، فكانتا لا تغذّيان إلا بأدمغة الناس، فأفنى خلقاً كثيراً من فارس. واجتمعت على حربه جماعة كثيرة وافاه أفريدون بهم، وقد شالوا راية من الجلد تسميها الفرس درفش(***) جاوان. فأخذ أفريدون الضحاك وقيده في جبل دن باوند.. وقد كان وزير الضحاك في كل يوم يذبح كبشاً ورجلاً ويخلط أدمغتهما، ويطعم تينك الحيتين اللتين كانتا في كتّفي الضحاك، ويطرد من تخلص إلى الجبال، فتوحشوا وتناسلوا في تلك الجبال، فهم بدء الأكراد، وهؤلاء من نسلهم، وتشعبوا أفخاذاً. وما ذكرنا من خبر الضحاك فالفرس لا يتناكرونه، ولا أصحاب التواريخ القديمة ولا الحديثة»[1].
«وما قلنا عن الأكراد، فالأشهر عند الناس، والأصح من أنسابهم، أنهم من ولد ربيعة بن نزار، فأما نوع من الأكراد ـ وهم الشوهجان ببلاد مابين الكوفة والبصرة، وهي أرض الدينور وهمذان ـ فلا تناكر بينهم أنهم من ولد ربيعة بن نزار بن معدّ. والماجردان ـ وهم من الكونكور ببلاد أذربيجان والهلبانية والسراة وما حوى بلاد الجبال من الشادنجان واللزبة والمادنجان والمزدنكان والبارسان والخالية والجابارقية والجاوانية والمستكان ومن حلّ بلاد الشام

(*) أي السريانية التي لم تخضع لقواعد الصرف التي خضعت لها العرباء.
(**) هو الملقب بالأرقم أي الثعبان. واسمه عند اليونان «ترخاموس» أي الأرقم.
(***) الكلمتان عربيتان سريانيتان، فالـ «درفش» في القاموس السرياني تعني الراية، البيرق. و«جاوا» أو «جاوتا» تعني الرق، الجلد.
(1) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء 2 ، ص122 – 123 .

من الدبابلة وغيرهم ـ فالمشهور فيهم أنهم من مضر بن نزار، ومنهم اليعقوبية والجورقان، وهم نصارى، وديارهم ممايلي بلاد الموصل وجبل إرارات»[1] .
أما الأيوبيون فلم يختلف أحد على صحة نسبهم العربي، ولقد أكد ذلك شجرات النسب التي دوّنها وحفظها بنو أيوب أنفسهم. فهناك النسب الذي كتبه الملك الأمجد حسن بن الملك الناصر صلاح الدين ، ضمّنه كتابه المسمّى «الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية» وهو مخطوط محفوظ في أيا صوفيا تحت رقم 4823 ، كما توجد نسخته في المتحف البريطاني تحت رقم ث 557 ، ولقد أكد المؤرخون هذه الحقيقة، ومنهم اليعقوبي، وابن واصل في كتابه «مفرج الكروب» كما أكدها الشعراء الأيوبيون أنفسهم، ومنهم الخليل ابن الملك الأشرف، الذي كان يؤكد في شعره أن نسب الأيوبيين عربي يعود إلى عبد مناف، وهذا ما أكده المؤرخون والنسّابون أيضاً، وعلاوة على هذا فإن أحداً من الملوك الايوبيين لم يتكلم لغة غير العربية، ولم يمارس تقليداً غريباً عن العروبة، وهم بذلك أشد عروبة من الأكراد، فلم تختلط أنسابهم.
أما الأكراد أنفسهم ضمن الأرض العربية فلم يشعروا يوماً بانتماء لغير العروبة، مثلهم مثل كل القبائل العربية الأخرى. لكن لما بدأ التنافس الاستعماري الغربي على ثروات المنطقة، أخذ كل فريق يبحث في المنطقة عن «ركيزة» تمكنه من وضع قدمه من أجل الوثوب ـ من ثمّ ـ إلى منطقة المصالح النفطية، فاستخدمت تلك السلالات الفرعية: «الفينيقية»، الآشورية، الكلدانية، الكردية.. وغيرها أدوات سياسية، وجرت عملية تغذيتها وتحريكها لمآرب سياسية خارجية مكشوفة، فانطلت هذه «اللعبة» على بعض، ورفضها آخرون.
أما الديانة والعادات والتقاليد فهي ديانة الخصب السورية القديمة قديماً، وما يزال الأكراد يتمسكون بعيد النيروز السوري القديم اعتقاداً منهم بأنه «عيد قومي» للأكراد، بالرغم من انهم جميعاً مسلمون. ثم وبعد أن ساد الإسلام المنطقة العربية تحول الأكراد، كما الفرس والأتراك، بأجمعهم إلى الإسلام.
وهكذا فإن الأكراد هم سلالة فرعية من السلالة العربية السورية الكبرى.

---

(1) المرجع نفسه، ص124 .

5 . **الأتراك:**

في «سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب» للبغدادي نجد أن الترك أبناء جومر بن يافث بن نوح. قال: ويدخل في نسب الترك القبجاق وهم الفخشاخ والطفرغر وهم التتر، والخزنحية، والخوروهم الغن الذين كان منهم ملوك السلاجقة، والهياطلة وهم الصغد، والغور، والعيلان، ويقال للآن، والشركس، والأزكش، والروس.

وفي تاريخ ابن خلدون نجد: «وشعوب الترك كلهم من بني جومر».. والظاهر أنهم من توغرما، ونسبهم ابن سعيد إلى الترك ابن عامور بن سويل بن يافث. والظاهر أنه غلط، إذ أن عامور هو جومر صّحف عليه. وهم أجناس كثيرة منهم الطفرغر وهم التتر، والخطا، وكانوا بأرض طغماج، والخزلقية، والغزّ الذين كان منهم السلجوقية والهياطلة الذين كان منهم الخلج. ويقال للهياطلة الصغد أيضاً. ومن أجناس الترك الغور والخزر والقفجاق، ويقال الخفشاخ، ومنهم يمك والعلاّن. ويقال الأزّ ومنهم الشركس وأزكش»[1].

لكن هذه السلالات ابتعدت جميعاً عن المركز، وتوغلت مختلطة مع القبائل الرعوية الهمجية الشمالية وكانت تسطو على المناطق والمدن الحضارية المستقرة منذ عهد سرجون الأكادي، فكان ملوك الدولة السورية ــ كما يؤكد هنري فرانكفورت في كتابه «فجر الحضارة في الشرق الأدنى» ــ «قدّ تعهدوا بواجب شغل جميع خلفائهم من حكام البلاد. حتى أنه في الألف الأول قبل الميلاد كان اقتحام الجيش الآشوري السنوي جبال أرمينيا، ثم اتجاهه نحو الغرب، محاولة سنوية منظمة مركزة لصد الجبليين عن حدود الدولة، لأن إخضاعهم بصورة دائمة، وعندهم هذه الإمكانية غير المحدودة للانسحاب إلى وديانهم البعيدة، كان مستحيلاً. ومنذ عهد سرجون الآكادي أدرك الملوك السوريون ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة مركزية، لقد كان لابدّ من السيطرة على الحدود سيطرة تكفي لمواجهة العدوان هناك»[2].

---

(1) تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الجزء 3 ، ص17 .

(2) هنري فرانكفورت، فجر الحضارة في الشرق الأدنى، ترجمة ميخائيل خوري، دار مكتبة الحياة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت ــ نيويورك ــ 1959 . ص 94 .

ونتيجة لتوغل تلك القبائل الرعوية الجبلية المتخلفة ولانعدام وجود التعليم بينهم، فقد حالوا عن اللغة العربية السريانية إلى لغة هجينة، هي خليط من كل لهجات قبائل جبال الشمال مع ما بقي من العربية المحوّرة. وكلما ازدادوا إيغالاً في البعد شمالاً ونحو الشمال الشرقي كلما تلاشت معهم لغتهم الأصلية. ثم إنهم لم يكادوا يظهرون على ساحة الأحداث في المنطقة قبل القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين.

لقد وصف تلك القبائل، ومن بينهم الروس والبلغار، ابن فضلان في الكتاب المسمى «رسالة ابن فضلان» نتيجة رحلة استطلاعية بعثه بها الخليفة العباسي في حوالي القرن التاسع الميلادي، فكانت وصفاً تفصيلياً دقيقاً لنمط العيش الهمجي الذي كانت وما تزال تعيشه تلك السلالات في ذلك الزمن.

6 . السقوديون:

إن التسمية عربية سورية قديمة أطلقها السوريون على منطقة جبال القفقاز الحالية، وهي في القاموس السرياني من الكلمة «سقودا» وتعني: الضيق، الشدّة، الكدر، صعوبة العيش، تنغيص، منغصّ، مكدّر، مرّ.... الخ.

وتقول الروايات القديمة إن الاسم أطلقه أحد إخوة الأميرة أوروبا الذي بلغ تلك المنطقة بحثاً عن شقيقته، ثم لم يعد، واسمه «جيلون» أي البهي، الجميل، الجليّ، النبيّ.. وبني هناك مدينة «جيلاني» على اسمه.

ويروي لنا «أوفيد» كيف أن الربة السورية الزراعة (زِرْعث = سيريس) التي كانت تؤدي رسالة تعليم فن زراعة حبوب القمح وصنع الرغيف لتحضير همج أوروبا، ما أن تفقدت «فتياتها» في بلاد المورة واطمأنت عليهن حتى «عهدت بمركبتها إلى تريبتوليمو، وأسلمته بذوراً أمرته أن ينثر بعضها في الأرض البكر التي لم تفلح من قبل قط، وأن ينثر الباقي في الأراضي البور. فتوغل الصبي عالياً في أوروبا وبلاد آسيا، ثم اتجه صوب مملكة سقوديا، حيث كان يرتقي عرشها الملك لنكوس، ودخل القصر الملكي. فسألوه عن اسمه وبلده وعن مجيئه وسببه. فأجاب قائلاً: اسمي تريبتوليمو.. ولقد جئت حاملاً معي هدايا سيريس التي ما تكاد تنثر فوق الحقول الشاسعة حتى تثمر حصاداً وفيراً وغذاءً

شهياً»[1].

وتروي لنا أسطورة «ياشون وميديا» السورية الشهيرة كيف عاني مجموعة من البحارة السوريين من أجل الوصول إلى تلك المنطقة للحصول على الفرو الذي كانوا يبيعونه بكمية كبيرة من الذهب ودعي بالفرو الذهبي. ومنه أطلق هؤلاء السوريون على المنطقة اسمها الآخر وهو «القوقوز» (القوقاز حالياً).

والتسمية تعني بلاد الفرو. وهي في القاموس السرياني مؤلفة من كلمتين: قوي = مهد، موطن، بلاد، مكان، سرير، وقوزا = نمس، سنجاب، حيوان شعره في غاية النعومة يتخذ من جلده أحسن الفراء[2].

ولقد اختلط المستوطنون السوريون هناك بالقبائل المحلية الهمجية، فانتقلت العربية القديمة لتختلط بلهجات قبائل الجبال المتوحشة مكونة خليطاً هو ما دعي اليوم باللغة القفقازية.

أمّا عن أوضاع تلك القبائل الهمجية التي دعاها السوريون «سقودا» فيصفها لنا هيرودوت على النحو التالي:

«وهاكم عادات السقوديين وتقاليدهم، فيما يختص بالحروب، يشرب الجندي السقودي دم أول رجل يصرعه في الحرب. ومهما بلغ عدد الذين يقتلهم فإنه يقطع رؤوسهم جميعاً ويحملها إلى الملك. وبذا يكون له الحق في انقسام الغنائم، في حين يضيع منه كل حق إذا لم يحضر أي رأس. ولكي يسلخ جلد الرأس يقطع حزاً حول الرأس فوق الاذنين، ثم يمسك بفروة الرأس ويقذف بالجمجمة بعيداً. بعد ذلك يأخذ ضلع القتيل ويكحت به ظهر الفروة حتى ينظفها تماماً من اللحم، ثم يطرّيها بأن يدعكها بين يديه، ويستعملها «فوطة» بعد ذلك. ويفخر الرجل السقودي بفروات رؤوس القتلى هذه، ويعلقها في عنان حصانه، وكلما كان عدد الفروات التي يعرضها كبيراً عظمت منزلته بين مواطنيه. ويصنع كثير منهم لنفسه معطفاً من هذه الفراء اشبه بعباءات فلاحينا. وذلك بأن يخيط عدداً من الفروات معاً. ومنهم من يسلخ جلد الأدرع اليمنى لأعدائهم

---

(1) أوفيد، مسخ الكائنات، ص180 - 181.

(2) انظر القاموس السرياني حول معنى الكلمتين.

القتلى، ويصنع من الجلد، الذي ينزع بما فيه من الأظافر، كسوة لجعبة سهامه، وإن جلد الإنسان لسميك ولامع، ويفوق في بياضه سائر الجلود الأخرى تقريباً. وبعض منهم يسلخ جلد الجسم كله، ويشدّه فوق إطار يحمله معه أينما ذهب.

وإليك الطريقة التي يعالجون بها جماجم الأعداء.. بعد أن يخيطوا اسفل الحواجب وينظفوا ما بداخل الجمجمة، يكسونها من الخارج بالجلد، هذا كل ما يفعله الرجل الفقير. أما الغني فيبطن داخل الجمجمة بالذهب. وفي كلتا الحالين تستعمل الجمجمة كأساً يشربون منها. وكذلك يفعلون الشيء نفسه مع أصدقائهم وأقاربهم إن كان بينهم ثأر وهزموهم.. وعندما يزورهم الأعراب يطلعونهم على هذه الجماجم، ويشرح لهم المضيف قرابة أصحابها له

وعندما يموت الملك.. يدفنون مع الملك إحدى محظياته، وكذلك حامل كأسه، وطاهيه، وسائسه، وخادمه الخاص، وحامل رسائله، وبعض خيوله، وأوائل ممتلكاته الأخرى، وبعض الكؤوس الذهبية. [وهذا ما ذكره عنهم ابن فضلان بعد أكثر من 1500 عام].

وبعد مرور عام على موت الملك تقام احتفالات أخرى، فيؤخذ خمسون شاباً خيرة خدم الملك المتوفى، وكلهم من السقوديين الوطنيين.. ويشنقون، كما يقتل خمسون جواداً من أجود الخيول...»[1].

«أما قبائلهم فهم الأجاتورسيون.. وزوجاتهم مشاع فيما بينهم. أما الأندروفاجيون فأشد وحشية من أي شعب آخر، فهم لا يعرفون العدالة ولا يخضعون لأية قوانين. إنهم قوم رحل، يلبسون الزي السقودي، ويتكلمون لغة غريبة.. وعلى خلاف أي شعب آخر في هذه المنطقة فهم يأكلون لحوم البشر.

والبودونيون امة ضخمة قوية، أعينهم جميعاً زرقاء، وشعورهم حمراء زاهية اللون. ويطلقون على المدينة اسم «جيلونوس»... ويتكلم أولئك القوم لغة نصفها إغريقي (أي فينيقي) ونصفها الآخر سقودي.

ولا يتكلم البودونيون نفس اللغة التي يتكلمها الجيلونيون (أي سكان جيلوني) كما أنهم يختلفون عنهم في طريقة معيشتهم. إنهم الوطنيون الأصليون لهذه

---

(1) أ.ج.إيفانز، المرجع السابق، ص165 – 166.

المنطقة. وهم شعب رحّل، وعلى خلاف كل جيرانهم يأكلون القمل». [وهذا أيضاً ما ذكره ابن فضلان].

«اما الجيلانيون فعلى عكس ذلك: يفلحون الأرض، ويأكلون الخبز، ولديهم حدائق، ويختلفون عن البودونيين في كل من الهيئة ولون البشرة»[1].

إن ما يرويه هيرودوت يؤكد لنا الحقيقة التاريخية التي روتها الأساطير السورية القديمة (التي دعيت اغريقية) والتي يمكن أن نلخصها بمايلي:

1 . إن منطقة القوقاز كانت ضمن إطار الهمجية البدائية حينما كان العرب السوريون يكافحون في كل الاتجاهات من أجل نشر رسالتهم الحضارية.

2 . إن الفرع الجيلاني الذي يحرث الأرض، ويزرع القمح، ويختلف بالهيئة ولون البشرة وبالعادات، هو الفرع السوري الذي استوطن منذ أيام جيلان شقيق الأميرة أوروبا والذي يدعى احياناً «سقوداً» لاستيطانه هناك، وإن لغتهم كما اكد هيرودوت ـ هي العربية الفينيقية التي يدعونها إغريقية. وإن «الجيلانيين» اليوم المنتشرين في سوريا والعراق ليسوا إلا أحفاد تلك السلالة العربية الفينيقية التي كانت بمثابة «حديقة» وسط تلك القبائل المتوحشة.

3 . إن هذه الصورة التي رسمها هيرودوت عن حياة أقوام تلك المنطقة الأصليين ظلت هي نفسها كما وصفها الرحالة العربي «ابن فضلان» في رسالته إلى الخليفة العباسي بعدما يقرب من ألف وخمسمائة عام من زمن هيرودوت.

وهكذا يتبين لنا بجلاء كيف اننا كلما ابتعدنا عن المركز العربي السوري في كل اتجاه كلما ابتعدنا عن الحضارة، حتى تصير الهمجية «نقية» خالصة من أي مايمت إلى الإنسان أو الحضارة بصلة.

7 **الهنود**:

لقد سميت البلاد «هند» تيمناً بجبل «ند» المركزي والذي اهبط عليه آدم الأول من الجنة ودفن فيه بعد موته، والهاء للتعريف، وهذا ما سبق أن شرحناه.

يؤكد علم الجغرافيا والمناخ والسكان واللغات والآثار ان ظاهرة ذوبان الجليد عن اوروبا مع بدء عصرنا الدافىء الحالي الذي بدأ في حوالي 14000 قبل الميلاد

---

(1) المرجع نفسه، ص171 - 172 .

أدت إلى ارتفاع مناسيب مياه البحار والمحيطات خلال عشرة آلاف سنة ارتفاعاً بطيئاً وتدريجياً، ممّا أدى إلى تقدم مياه بحر العرب في منطقة ما يدعى اليوم بالخليج العربي دافعة أمامها بالسكان العرب ـ السوريين الأوائل في اتجاهين: إلى جنوب العراق الحالي، وإلى شواطىء الهند الغربية. إن هذا هو ما أكده أكبر علماء المناخ في أوروبا اليوم وهو «جاك لابيري»، كما أكده عالم الآثار الأمريكي جوريس زارينس، وعلماء سفينة الأبحاث الألمانية «متيور» التي تعمل في قاع الخليج منذ مدة طويلة[1].

لقد تأكد أن سكان الهند القديمة جاؤوها من شبه جزيرة العرب. وأن لغتهم المكتشفة، والتي أطلق عليها الباحثون تسمية من شأنها فقط أن تطمس هويتها هي «الدرويدية» أو «الدروفيدية» هي لغة شقيقة للعربية القديمة، بل هي نفسها. يقول كوندراتوف: «ويجد اللغويون معالم التشابه بين لغة الدرويديين ولغة العبيديين الذين عاشوا في وادي دجلة والفرات قبل السومريين. وكثيراً ما كانوا يتحدثون عن الوطن الجد الغريق، وعن «مملكتهم التي ابتلعتها مياه البحر»[2].

وإن هذا هو ما ردده العرب الآخرون الذين دفعتهم مياه البحر المتقدمة من قاع الخليج إلى جنوب العراق ودعاهم المؤرخون بـ «السومريين»، إذ كثيراً ما ندبوا في وثائقهم «الوطن الغريق» و«جنة دلمون الغريقة في البحر».

ولقد صار من الواضح والمؤكد اليوم «أن الحضارة التي ازدهرت على ضفتي الهندوس قبل نزوح «الهنود» إليهما هي حضارة مزيج من سومرية ودراويدية»[3].

---

(1) من أجل مزيد من التفاصيل راجع: أحمد داوود، «العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود»؛ و: مجلة الصقر، عدد أغسطس 9 آب، 1987، تصدر عن شركة انترسبايس للنشر بالتعاون مع المركز العربي للدراسات الدولية، ص41؛ ومجلة Smith sonian الأمريكية عدد أيار/ مايو 1987، ص127 – 134.

(2) أ. كوندراتوف، المرجع السابق، ص62.

(3) حنا الفاخوري، خليل الجسر، تاريخ الفلسفة العربية، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، ص17.

فقدامى الهنود عرب من شبه جزيرة العرب سكاناً ولغة. وهذا ما يعترف به مؤلفا كتاب «الاتنوس والتاريخ» لكن بعد أن يعكسا الآية بما يوحي للقارىء أن الأصل ربما يكون في الهند الصينية! في فيتنام! لنقرأ: «لقد أتى الناس الأوائل إلى استراليا، وثمة مسوغات كثيرة لهذا الافتراض، من جنوب شرقي آسيا.. ربما من الهند الصينية الحالية عبر أندونيسيا، ثمة بين الشعوب القاطنة في فيتنام وكمبوديا شعوب تتجلى فيها بوضوح سمات القربى بينها وبين الاستراليين. وتوجد في رأي الكثير من الأنتروبولوجيين ملامح تشابه بين الاستراليين وأقدم سكان الهند، الدرافيديين، ذوي البشرة القاتمة.. لقد استوطن الدرافيديون في وقت من الأوقات الهند بأسرها. وعلاوة على ذلك توجد آثارهم في ايران ومابين النهرين وشبه جزيرة العرب، وحتى في مصر. ولكن ليس واضحاً متى ومن أين بالذات ظهر أسلاف الدرافيديين في هذه الأماكن»[1].

هكذا هي الصهيونية! لم تترك حقيقة على هذه الأرض دون أن تزوّرها أو تقلبها رأساً على عقب. إن مجرد الحديث عن التشابه أو عن وجود اللغة الواحدة في شبه جزيرة العرب والهند سوف يجعل أي باحث موضوعي في العالم يعتقد بيقين أن الأصل في شبه جزيرة العرب، وذلك لما قدمته المكتشفات الآثارية والدراسات الانتروبولوجية. ولما كان العلماء الأوروبيون والأمريكيون قد قرروا أخيراً بصورة حاسمة ان سكان التربة اللحقية الخصبة في قاع الخليج والتي كانت تعتبر امتداداً للسهل السوري العظيم، هي الوطن الغريق، وأن سكانها هم من العرب الأوائل بعد ان أكدت الأبحاث ان اللغة الدرافيدية هي العربية القديمة في شبه جزيرة العرب، وأن شبه جزيرة العرب هي المركز والمنشأ والموطن الأول للإنسان العربي أقدم إنسان عاقل على الأرض وليست الهند، فقد كان لابدّ من فبركة وجهات نظر أخرى تنطلي على الإنسان العربي الذي ــ في نظرهم ــ يصدق كل ما يقوله الأجانب، وينقل ولا يبحث، لأنه قد عطل عقله منذ زمن ليس بالقليل. فلماذا، إذن، لا تكون فيتنام وكمبوديا هي

(*) بروملية، بودولني، المرجع السابق، ص237 .

الجد الأول للهنود والعرب والاستراليين والمصريين معاً؟!

لقد ألفنا وعرفنا كل الكتابات الصهيونية التي تتدفق علينا من كل اتجاه، سواء من الشرق أو الغرب أو من قلب الأرض العربية المحتلة، والتي جعلت من التاريخ الحقيقي للإنسان على الأرض كنزاً مخفياً، لكن البصمات التي تدل على الأيدي الفاعلة، اشتهر أمرها في كل البلدان، وصار من العسير إخفاء هوية أصحابها أياً كانت الأسماء أو الأقنعة التي يمكن أن تتستر خلفها.

أما في زمن سام بن نوح، الذي يمثل فرعاً من فروع العروبة، فتؤكد مصادر الأنساب العربية أن أبناء سام سكنوا الهند أيضاً وأن «الفرس والنبط والهند والسند من ولد سام بن نوح»[1]. «وأن كل فريق من هؤلاء الثلاثة سام وحام ويافث قصد أرضاً فسكنوها ودفعوا غيرهم عنها»[2]. فسار أبناء حام أيضاً إلى السواحل الجنوبية والشرقية واختلطوا هناك مع أبناء عمومتهم، ولو أن الحاميين غلبوا على السواحل «وفي القرنين الأول والثاني قبل المسيح نزحت جموع من السوريين واليونانيين إلى البنجاب، ففتحوه، وأقاموا فيه هذه الثقافة.. التي ظلت هناك مايقرب من ثلاثمائة عام»[3].

أما اللغة والكتابة فهي العربية القديمة بلهجتها السريانية الشرقية. وهذا لا يعني أن الهند لم تكن ملأى بشتى صنوف القبائل والسلالات التي لا تكتب ولا تقرأ، والتي تكلمت لهجات قديمة تطورت مع الزمن إلى لغات قبلية كثيرة.

وإن الديانة الأساسية في الهند القديمة هي ديانة الخصب العربية السورية، ثم كثرت وتعددت الديانات بحيث يكاد يكون لكل عشيرة، وأحياناً لكل أسرة، ديانة خاصة بها.

8 . الأحباش:

يقول ابن خلدون نقلاً عن الطبري: «إن الهند والسند والحبشة من بني سودان من ولد كوش، وأن النوبة وفزّان وزغاوة والزنج منهم من كنعان.. أما حام فمن ولده أيضاً السودان، والهند، والسند والقبط وكنعان باتفاق.. وقال ابن سعيد:

---

(1) تاريخ الطبري، الجزء 1 . ص143 .

(2) المرجع نفسه، ص142 .

(3) ول ديورانت، المرجع السابق، المجلد الثاني، الهند، ص108 .

أجناس السودان كلهم من ولد حام، ونسبت ثلاثة منهم إلى ثلاثة سمّاهم من ولده غير هؤلاء: الحبشة إلى حبش، والنوبة إلى نوابة أو نوى، والزنج إلى زَنج. ولم يسمّ أحداً من آباء الأجناس الباقية. وهؤلاء الثلاثة الذين ذكروا لم يعرفوا من أولاد حام، فلعلّهم من أعقابهم أسماء أجناس»[1].

أما الاسم الآخر «أثيوبيا» الذي أطلق مؤخراً على البلاد فليس تسمية سلالية بل معنوية تعني أرض النعيم، وهي «أطوبيا» في العربية القديمة وتعني «الطوبى» النعيم، الجنة. وقد تحولت الطاء في الغرب إلى ثاء. «إن اثيوبيا، البلاد الواقعة في شرقي أفريقيا، اتخذت هذا الاسم رسمياً منذ بضع عشرات من السنين فقط. و«الاثيوبيون» تعني باليونانية «الذين لفحتهم الشمس»[2]. هكذا يفسر «الجهابذة» في الغرب كما يحلو لهم. فكل شيء يوناني، من باب أنه أوروبي، واليونان ـ كما رأينا ـ جزء من سوريا، ومن أصغر أجزائها، أما التفسير فاعتباطي ولا أساس له في أية لغة في العالم. ومنذ أن سكن الكوشيون (أبناء كوش بن حام) تلك الأرض صار يجري الخلط بين ارض كوش في المركز في شبه جزيرة العرب، وبين منازل الكوشيين في الحبشة، وكثيراً ما ترجمت أرض كوش في التوراة باللغات الغربية إلى «أثيوبيا»[3].

إن لغة الأحباش هي العربية القديمة، وهي لغة التبابعة والحميريين في اليمن نفسها. وحتى اليوم إن اللهجة الحبشية هي أقرب إلى العربية العاربة من السريانية في كثير من الكلمات. ولقد كانت ديانة الأحباش القديمة هي ديانة الخصب السورية، ثم النصرانية. وكان الأحباش، والنجاشي ملكهم، أول من التجأ إليهم أصحاب محمد عند بدء الدعوة، وأعانهم ولم يؤذهم.

وقد عزلت عن الوطن العربي بفعل خارجي لكونها على دين النصرانية، من جهة، ولأهمية موقعها على الطريق التجاري إلى الهند، من جهة ثانية.

---

(1) تاريخ ابن خلدون، الجزء 3 ، ص20 – 21 .

(2) برومليه، بودولني، المرجع السابق، ص70 .

(3) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا الثاني «العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود».

9 . البربر:

إن التسمية ليست سلالية، بل وضعية لغوية، لرطانتهم بالعربية نتيجة لايغالهم في حياة الرعي القبلية البعيدة عن المركز.

يقول ابن خلدون في تاريخه: «يقال إن أفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وافريقية، وقتل الملك جرجيس وبنى المدن والأمصار، وباسمه زعموا، سميت افريقية، لمّا رأى هذا الجيل الأعاجم وسمع رطانتهم، ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال: ما أكبر بربرتكم! فسمّوا بالبربر. والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة. ومنه يقال بربر الأسد زأر بأصوات غير مفهومة.

«وأما شعوب هذا الجيل وبطونهم فإن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس وماذغيس. ويلقب مازغيس بالأبتر، فلذلك يقال لشعوبه البتر، ويقال لشعوب بُرنس البرانس.. وبين النسابين خلاف هل هما لأب واحد. فذكر ابن حزم عن أيوب بن أبي يزيد صاحب الحمار أنهما لأب واحد، على ما حدث به يوسف الورّاق، وقال سالم بن سليم المطماطي، وهاني بن مسرور، والكومي، وكهلان من أبي لوا، وهم نسّابة البربر: أن البرانس بتر، وهم من نسل مازيج ابن كنعان. والبتر بنو برّ بن قيس بن عيلان، وربما نقل ذلك عن أيوب بن أبي يزيد، إلا أن رواية ابن حزم أصحّ لأنه أوثق.

«وأما شعوب البرانس فعند نسابتهم أنهم يجمعهم سبعة أجذام، وهي: أزداجة، ومصمودة، واوربة، وعجيسة، وكتامة، وصنهاجة، وأوريغا..

«وقال الكلبي: إن كتامة وصنهاجة ليستا من قبائل البربر، وإنما هما من شعوب اليمانية، تركهما أفريقش بن صيفي بأفريقية مع من نزل بها من الحامية. هذه جماع مذاهب أهل التحقيق في شأنهم..».

«وقد اختلف الناس فيمن أخرجهم من الشام(*). فسبب خروجهم عند المسعودي والطبري والسهيلي: أن افريقيش استجاشهم لفتح افريقية وسماهم البربر، وينشدون من شعره:

(*) أي اليسار، كل ما كان على يسار الكعبة في السراة في شبه جزيرة العرب.

بـــربـــرتْ كـنـعـــان لـمـــا سـقـتـهـــا   من أراضي الضـنك لـلعيش الخصيب[1]،

وفي هذا دليل آخر على انه لم يكن المقصود بـ «الشام» «سوريا» الغربية إذ أن «عيش الضنك» لا ينطبق عليها بل على شبه جزيرة العرب بعد تصحرها، وأن عشائر كنعان ـ كما أثبتنا في كتابنا الثاني ـ هي في عسير من شبه جزيرة العرب ولم تكن في الساحل السوري.

ولقد كانت تلك القبائل على ديانة الخصب العربية السورية القديمة، ثم صارت على الإسلام.

إن وضـع قبائل البربر بتماسها البعيد مع القبائل البدائية الافريقية الكثيرة ابتعدت كثيراً عن المركز فحالت عن اللغة العربية بما يتناسب وهذا البعد، فمن بقي مستقراً بين العرب في الشمال الأفريقي لم يشعر بانتماء آخر لغير العروبة، مثلهم مثل العشائر الكردية في الشمال الشرقي من الوطن العربي.

ومثلما تسعى المانيا اليوم لاقتلاع الأكراد من جذورهم العربية لأسباب تتعلق بالمصلحة الألمانية وحدها، كذلك سعت فرنسا وما تزال تسعى من أجل اقتلاع البربر من جذورهم العربية.

10 . **اليونان**:

اليونان اسم عشيرة سورية اطلق على أسماء العشائر الأخوات الأخرى فيما بعد، وصار يعمها جميعاً عند المؤرخين الغربيين.

يقول الدكتور محمود فهمي في كتابه «تاريخ اليونان»:

«أول من سكن إغريقية الفلاجيون وهم أقوام من بني يافث نشأوا في آسيا، وأقاموا بها طويلاً. ثم عبروا مجاز البوسفور.. وإليهم ينسب كثير من الآثار التي لا زال بعضها باقياً إلى اليوم. ويشهد لهم بالقوة والنشاط بمدينة مكينة وأرقوس.

وبعد ذلك بزمن طويل وفد الهيلينيون فرقاً متمايزة في أوقات مختلفة. فحضر منهم أولاً اليوليون والاخائيون وإليهم ينسب تأسيس الجمعيات المنظمة... وهؤلاء وفدوا من السواحل الآسيوية عن طريق جزر بحر الأرخبيل.. فكانت

---

(1) تاريخ ابن خلدون، الجزء 11 ، ص176 – 185 .



عشتار الأوجاريتية في موكيناي. نقش بارز على العاج لعشتار 1500 - 1200 ق.م. متحف اثينا القومي

حضارتهم أحدث من حضارة سابقيهم. وعلى ذلك تكون الجزر هي التي استفادت من هذه الحضارة. ثم حضر أخيراً في القرن الثاني عشر الدوريون. وهم.. مولعون بالحروب مشغوفون بالغارات..

فأشهر القبائل التي تكونت منها (اليونان) هي اليوليون والاخائيون واليونيون والدوريون، وقد بقيت هذه القبائل منفصلاً بعضها عن بعض إلى ما بعد القرن الحادي عشر قبل الميلاد. ثم جمعتهم وحدة اللغة والدين وصاروا كأبناء أسرة واحدة أطلق عليها اسم هلينيين نسبة إلى حيلان (القوي، الشجاع) وحفظوا وحدة جنسهم.. وقد اندمج فيهم الفلاجيون بحيث لم يبق لهم ذكر أصلاً»..

«وكان الفينيقيون الذين يجمعون ثرواتهم من التجارة البحرية كثيراً ما يترددون على سواحل أتيكا وجزر الأرخبيل قبل وصول القبائل الهيلينية الأخيرة إليها. وكانوا يستخرجون المعادن، ولاسيما الفضة، التي كانت



عملة سورية فضية في اليونان من القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد

بالطرف الجنوبي من شبه جزيرة أتيكا. وقد عثر على آثار الطرق التي احتفروها في المناجم للحصول على ذلك المعدن النفيس، وهم الذين بثوا فيهم الميل إلى الفنون وتشييد الآثار والأبنية.. وإن ما عثر عليه من الأشياء الدقيقة والتيجان وصور وجوه الموتى التي وجدت في التوابيت فإنها كانت من صناعة الفينيقيين، أو ممّا نسج على منوالها.. ولقد كان قدموس الفينيقي قد شيد قلعة «قدميا» وأقام حولها مدينة طيبة»[1].

أما هذه الأسماء التي يثبتها، كما وردت، كل من كتب في تاريخ اليونان فهي:

---

(1) محمود فهمي، المرجع السابق، ص11 – 15.

● الفلاجيون، من «فلجو» بالعربية الفينيقية أو السريانية وتعني الفالج، القاسم.

● هيلان، أو هيلا، هو حيلان أو حيلا ويعني القوي، الشديد. والكلمة من الحيْل والحوْل أي القوة.

ايوليو، وتعني المعين، المغيث، وهي في القاموس السرياني «إيولو».

● إخائيون، أي الاتحاد، الأخوة، وهي في القاموس السرياني من «أحو»= أخ، وأحينو = حليف، مثيل، نسيب، ابن القرابة. والجمعيات التي شكلوها هي «الأخويّات» العشائرية. (أحيني).

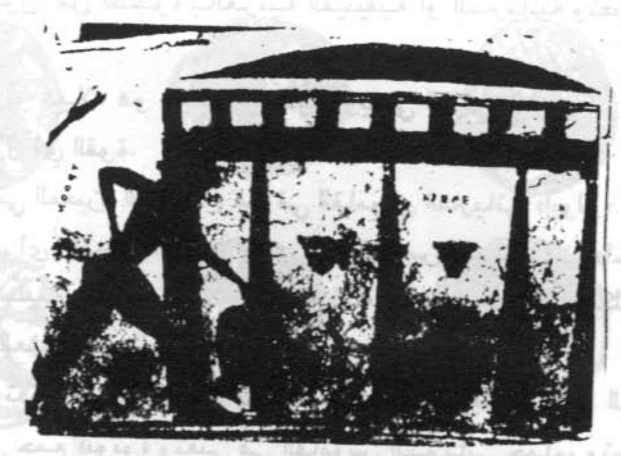
● دورو، وتعني في القاموس السرياني: المقاتل، المصارع، البطل. أما «يونان» فهي جمع «يونو» وتعني في القاموس السرياني حمام، وتميزوا عن أشقائهم بدخولهم السلمي، وبحضارتهم الرقيقة.

وتجمع كل المصادر على أن موطنهم الأصلي هو سوريا وليس شبه جزيرة المورة. وبانتقالهم من البر السوري انتقلت معهم الحضارة السورية لتعم الجزر أولاً، ثم أرض المورة القارية فيما بعد.

أما المصادر العربية فتجمع على أن هؤلاء جميعاً من نسل يافث بن نوح رجل الطوفان الذي دعوه «دوقليون» أي صاحب الصومعة، في العربية السريانية أو الفينيقية، وهذا ما أكدته المصادر اليونانية ثم الرومانية ودعته «يابيتوس» Japitus.



صورة لسفينة فينيقية على الإناء الذي دعي «إناء فرنسوا» وترى عليه الكتابة بالعربية الفينيقية: إلى اليمين «قايدي» وتعني القائد



جزء من لوحة على الإناء المدعو بـ «إناء فرنسوا» الذي اكتشفه. تصوّر «تريون» (وتعني السّقاء من تري = شراب، سقاية) يتقدم بالجرة إلى سبيل الماء. ونلاحظ الكتابة بالعربية الفينيقية: إلى اليسار «ترع عن» تقرأ «ترعاعينا» أي باب العين، وإلى اليمين «كروني» أي الحوض أو الصنبور

أما النزوح الكبير الذي سبب الظهور المفاجىء للحضارة في شبه جزيرة المورة، وفي أثينا تحديداً، فهو ما نجم عن تقدم الجيش الفارسي إلى الشمال السوري للسيطرة على خط التجارة مع جزر إيجه والبحر الأسود والبر الأوروبي. يؤكد المؤرخون أن «ليديا» في الشمال السوري وقبرص، ومن رودس إلى أثينا كانت تحت سيطرة السوريين في القرن السابع قبل الميلاد[1].

ونتيجة للانقلاب الفارسي خسر السوريون هناك مواقعهم الهامة وخطوطهم التجارية، فانتقل الناس الفاعلون إلى المستعمرات في الغرب مما أدّى إلى بروز أثينا وصقلية المفاجىء في القرن الخامس قبل الميلاد[2].

وتؤكد جميع المصادر الأدبية والتاريخية اليونانية أنساب الرواد الأوائل لبلاد المورة على النحو التالي: لقد أنجب دوقليون (صاحب القلاية أو الصومعة أو الكوخ الذي هو رجل الطوفان) من امرأته فرتا (تلفظ برتا، وتعني الخصيبة

---

(1) المرجع السابق، ص132 – 253 .

(2) المرجع نفسه، ص346 .

المثمـرة، السـيدة) يـافث ثـم حيلان، الذي أنجب أحيو ويونـا، فسكن أحيو البيلوبونيس ويونا في أتيكا (عتيقة)، فأنجب هذا قيق روحفو (كيك روف) الذي يعني اسمـه الطـائر الرؤوف، وهو مؤسس اثينا، وهو أول من نقل التشريع السوري والعادات والعبادات إلى أثينا[1]. أما نسل قدموس في طيبة، فبعد أن تزوج النبيلة السورية حرمونيا (خيراموني = ربة السلالة) أنجب بولو دورو (= أمير الذرية)، ثم تسلل النسل إلى لبدكو، ثم لايو، ثم أوديب، إيتوكلي، الذي طرد أخاه بولونيس (بولو = أمير، نيس = معجزة)، فذهب هذا إلى أدراستو ليسـاعده على أخيه. وفي عام 1213 قامت حرب الأبنـاء السبعـة من سـلالة قدموس على طيبة، فقتل الأخوة بعضهم بعضاً ودمرت المدينة لأول مرة[2].

ولقد تحدثنـا عن اللغة والديـانة عند تلك العشـائر السـوريـة المتنقلة مـابين السـاحل السوري والجزر والبر اليونـاني.

11 . الاغـريق:

إن جهل معظم المؤرخين في الغرب الذين كانوا ينطلقون دائماً في كتابة التاريخ من نظرة عنصرية تعصبية ضيقة، فأغمضوا أعينهم عن كل الحقائق الباهرة التي تؤكد الأصـول السـورية للحضـارة التي دعيت فيما بعد «إغريقية»، وإن تجـاهل البعض الآخـر للحقـائق، جعلهـم يعمدون إلى التـزويـر و«الاختـراع» فطمسـوا بذلك كل شيء، وأصبح المـزوّر هو المعمَّم اليوم في كل الجـامعـات ومعـاهد الدراسـة، ممـا أحدث، مع الزمن، عملية غسل حقيقية لأدمغة معظم الناس في الشرق والغرب. ولا تقل عملية طمس الهوية للغة اليونـان القديمة، التي هـي العربية القديمة، بشـاعة في هذا الميدان.

إن عملية الخلط بين «اليونـان» و«الاغريق» هـي عملية تزوير أخرى أسـاءت إلى التـاريخ كعلم، من جهة، كما أسـاءت إلى التـاريخ العربي بخـاصة، وتـاريخ العـالم ككل.

فالتسمية الأولى «يونـان»، التي فرغنا منها لتونا، هـي تسمية أطلقت على افراد

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص78 – 80 .

(2) المرجع نفسه.

عشيرة «يونا» ابن حيلا، الذي هو من أبناء يافث بن نوح كما أجمعت كل المصادر، والنون هي للجمع في العربية القديمة، كما نقول: عُربان، سِريان، طليان، أرمان (آراميون) وخاصة مع الأسماء الثلاثية الأحرف. ثم عمّمت التسمية على بقية العشائر الأخوات.

أما التسمية الثانية «الاغريق» فموضوع آخر مختلف تماماً. ومن أجل إيضاح فحوى هذه التسمية لابدّ من التمهيد بلمحة عامة.

عرفنا كيف أن العرب السوريين القدامى كانوا ينطلقون في شتى الاتجاهات حاملين معهم مشاعل الحضارة الأولى متمثلة في الزراعة والاستقرار المدني مع كل ما يرتبط بها من عقائد، وطقوس، ومعابد، وفنون، وتقاليد، ولغة، في الوقت الذي كان فيه سكان أوروبا مازالوا يعيشون همجية العصور الحجرية الأولى، يسكنون الكهوف ويأكلون لحوم البشر.

وحينما انطلق أوائل السوريين إلى شبه جزيرة المورة كانوا قد تجاوزوا في المركز مرحلة الزواج العشوائي العشتاري، ودخلوا مرحلة عشتارت أو عناة، مرحلة الزواج الأسروي وتقاليد بناء الأسرة المكونة من زوج وزوجة وأولاد.

لكن أولئك الآباء المؤسسين الأوائل للمدن في بلاد المورة اصطدموا منذ البداية بالهمج من سكان الكهوف الأصليين في البلاد، فدخلوا معهم في معارك ضارية



الربة السورية الزرّاعة (سيريس) في رسالتها التعليمية الزراعية
وهو رسم على الخزف في اليونان

من أجل تـأليفهـم وتعليمهـم فن حـراثـة الأرض والـزراعة والاستقرار. إن هذا العصر تحديداً هو الذي دعي عصر الأبطال، أو الآباء المؤسسين.

لكن هؤلاء «الآباء» المتفوقين في المأكل والملبس والمسكن، وفي جميع أنواع الفنـون، وفي أدوات العمل، وبكل أسبـاب الحضـارة الأخرى، مـا لبث سكـان الكهوف الأصليون ان صاروا ينظرون إليهم وكأنهم آلهة أو أبناء آلهة هبطوا من السمـاء، لشدّة البون، وعمق الهوة الحضـارية التي تقدّر بآلاف السنين، وسرعان ما تحول أولئك «الآباء» المؤسسون إلى آلهة هنـاك بـالفعل.

إن «زيـو» (في القـامـوس السـرياني) يعني: السني، البهي، المتلألىء، الشعاع الذي هو ابن قرونو (إيل) وزوجته «حيرا» أكبر مثال على ذلك.

فقد ذكرت وأكدت المصـادر القديمة كلها، ومن ضمنها اليونـانية، أن «زيو» هو من أبناء «قرونو» فهو وزوجته «حيرا». من أسرة نبيلة سورية عريقة، كما يدل



جزء من صورة على الإناء السوري المدعو باسم «فرنسوا حيرا» جالسة، وقد كتب اسمها بالعربية الفينيقية الأصيلة «حيرا».

عليه اسماهما. (كنا قد شرحنا معنى «حيرا» وقلنا: الحرّة، السيدة، الشريفة، الأصيلة، بنت الأصل، بنت النسب). وزيو هو الزوج، وحيرا الزوجة. لكنه ما أن لمح مرة جمال الأميرة السورية أوروبا بنت أجينور حتى هام بها. فاحتال عليها إلى أن اختطفها من شاطىء صور، وفرّ بها إلى قبرص (الفينيقية آنذاك بكاملها) أولاً، ومنها إلى كريت الفينيقية أيضاً. وهناك تزوجها وأنجب منها «ردامنتا» و«مينا». أما «ردامنتا» فيعني أصل السلالة أو الذرية إذ «ردا» = أصل، جذر، مني، زرع، و«مينا» و«منتا» = سلالة، ذرية، عشيرة... وهما اللذان أنجبا السلالة الملكية التي حكمت كريت القديمة ودعيت الحضارة باسمهما «المينوية» بعد أن صارت كلمة «مينا» لقباً لكل الملوك الكريتين.



عشتار المعلّمة، وفي يديها «الميجانا» لعصر الزيت والخمر ودق الحبوب. ويرى إلى اليسار فتاتان تحملان وعاء للزيت وآخر لحبوب القمح المدقوق (البرغل). كريت، الألف الثاني قبل الميلاد

لكن «زيو» الذي تنتظره زوجته الغيور «حيرا» في أرض المورة لم يجرؤ على أن يصطحب معه زوجته الثانية «أوروبا»(*)، فتركها في كريت بعد أن وعدها أن يطلق اسمها على شمال المتوسط، وهكذا كان، بعد أن أظهر لنا مدى نفوذه وسلطانه على تلك البلاد.

(*) إن «أوروبا» تعني: السيدة، المجيدة، المعظمة، العظيمة، الشريفة. وهي في القاموس السرياني من الفعل «يربْ» = كبر، عظم، رفع مجّد، عظّم، شرف، نما، زاد، اكثر، أخصب، و«أورِبْ» = علّم، هذب، ثقّف، زاد، اكثر، أخصب... الخ.

وإذا كان الناس في الغرب قد أضافوا زخرفاتهم الخرافية المعهودة على القصة الأسطورة، فقد ابتعدوا بها عن مادتها التاريخية، وتحولت إلى نوع من الخرافة. لقد ذكروا أن «زيوس» حوّل نفسه إلى ثور، حملها على ظهره في البحر، ثم كشف لها عن «ربوبيته»، والحقيقة أن «الثور» في عقيدة الخصب السورية هو رمز للخصب، ورمز، بالتالي، للقوة الاخصابية، أي لرب الخصب، سواء كان اسمه إيل أو البعل أو غيرهما. وهو حينما أظهر لأوروبا «ربوبيته» لم تكن تعني غير «سيادته» في تلك البلاد المتخلفة. إنه «رب» هناك بمعنى سيد ومسيطر، صار ينظر إليه مثل إله، وإنه الثور، رب الخصب.

وهناك، في بلاد اليونان القارية، حيث يهيم سكان الكهوف في البراري، من كهف إلى كهف، ومن نبع ماء إلى آخر، يجولون في الغابات، رجالاً ونساء، كثيراً ما كان أولئك الأرباب (السادة) يلتقون بنساء الكهوف اللاتي يتمتع بعضهن بجمال بكر طبيعي أخاذ، فيطاردهن «الأرباب»، ويضاجعوهن سراً عن زوجاتهم النبيلات، وينجبون منهن أبناء وبنات يطلقون عليهم أسماء عربية قديمة. إن ما سجلته أخبار اليونان في أساطيرهم عن زيجات «زيو» الكثيرة، ومغامراته الكثيرة أكثر من أن نحصيها، ولقد أطلق أولئك الأرباب (السادة) السوريون على تلك النساء الهائمات بين الكهوف والغابات اسم «حوراي» وهي في العربية القديمة جمع «حورايا» أي ساكنة الكهف أو المغارة الذي هو بالفينيقية والسريانية «حورا». وصارت بالعربية الحديثة «حورية» وتجمع على حوريات، وقد أغفل أصلها العربي القديم، وهي غير «حوراء» التي تعني شديدة سواد العينين مع شدة البياض.

لقد كان أولئك «الأرباب» يتسابقون ـ كما قلنا ـ في السر عن زوجاتهم إلى «صيد» تلك «الحوريات» في الكهوف والغابات وعند ينابيع المياه، ولقد انجبوا منهن خلقاً كثيراً كانت تلك الأمهات تنسبهن إلى الآلهة. إن هذه الحقيقة هي التي نقلها الدكتور محمد كامل عياد دون أن تستثير انتباهه أو يتوقف عندها[1] أما تلك السلالة الجديدة الناتجة من الآباء السوريين ومن حوريات الكهوف

---

(1) محمد كامل عياد، المرجع السابق، ص93 .

والغابات فقد أطلق عليها السوريون اسم «اجريق» وتعني أولاد الزنا، أبناء الحرام، الأنغال.

والكلمة في القاموس السرياني من الفعل العربي القديم «أجر» (كانت الجيم تلفظ مثل الجيم المصرية) ويعني: جار، تغرّب، فسق، فجر، زنى. جير = نسب إلى قوم غريب، جعله يزني ويفسق. جيور = فاجر، فاسق، زانٍ. جور = فجور، فسوق، زنا. برْجورا = ابن زنا، ولد الزنية، نغل. جيورا = غريب، أجنبي، دخيل على النسب. «اجريقا» هي الاسم العام الذي يطلق على السلالة. والنهاية (يقا) هي نهاية عربية قديمة انتقلت إلى اللغات الأوروبية.

إن «لوجو» مثلاً، تعني: نطقٌ، لغة، قول. ومنها لوجيقا = منطق، وقد انتقلت إلى اللغات الأوروبية كلها Logica = منطق.

وإن فعل «درزْ» في العربية القديمة تعني في القاموس السرياني: درزَ، خاط، خيطَ، و«دريزقا» تعني خيّاط، دريزقوتا = خِياطة..

وبناء على هذا فقد كان المستوطنون السوريون أصحاب الحضارة في بلاد اليونان يعتبرون أنفسهم هم المواطنين، ولا يعترفون بمواطنية أي إنسان آخر إذا لم يثبت انه من ابوين سوريين. ولهذا فقد لجأوا إلى عملية تسجيل ولاداتهم في بلاد اليونان، ولا يدخل في السجل (قراطي) إلا من ثبت أنه من أبوين نبيلين اي سوريين. امّا من تبقوا من ابناء ساكنات الكهوف بفعل الزنا فلم يعترف بهم كمواطنين بل دعوا اجانب، أو أغراباً، أو أنغالاً، أي أبناء الزنا.

ومن أجل هذا فقد كان على الأب أن يقسم على ذلك، «فكان الأب يقدم صغيره لـ «الأخوية» (أحيني) ويحلف انه ابنه. وكان يتم القبول بشكل ديني»[1]

«ولم يكن في استطاعة الغريب، أو الدخيل على النسب[*] أن يكون مالكاً في اثينا او في روما. ولم يكن في استطاعته أن يتزوج، او على الأقل لم يكن معترفاً بزواجه. والأطفال المولودون من زواج مواطن صحيح بأجنبية كانوا يعتبرون انغالاً... ولم يكن يستطيع أن يتعاقد مع مواطن، أو على الأقل، لم يكن

---

(1) فوستيل دي كولانج، المرجع السابق، ص156 .

(*) يترجمونها عادة خطأ بـ «الاجنبي» بمدلولها الحديث.

القـانـون يعتـرف بقيمـة مـا لمثل هذا العقد. وفي الأصل لـم يكن لـه حـق المتاجرة(*)..... وكان يعامل العبد من بعض النواحي بأحسن مما كان يعامل به الأجنبي، إذ أن العبد، باعتباره عضواً في أسرة يشارك في عبادتها»[1].

وكيف يمكن فهـم المقصـود بـ «الأجنبي» هنا كما يفهمه المؤرخون في الغرب اليوم، أي أن لا يكون من سكان البلاد الأصليين، في الوقت الذي نرى فيه ان واضعي هذه القـوانين هـم أنفسهـم من السـوريين الوافدين من الشـرق، وهـم السـادة، والملاكون، والأغنيـاء، والمعلمون، وبنـاة المدن والحضـارة!

إن هذا هو أسـاس النظام الذي ابتدعه السوريون هنـاك من أجل تنظيم عملية الجنسية والمواطنية، ودعوه «ديمي قراطي» أي النـاس المسجّلين. إن «ديمي» هي في القـاموس السـرياني جمع «ديمو» وتعني: شخص، إنسـان، و«قراطي» جمـع «قراطيو» أي: مكتـوب، مسجّل. وهي في القاموس السـرياني من الفعل قْرَطْ = رقم، كتب، نقر، حفـر، نقش في الحجـر. قـاروط: منقـاش، مرقم، قلم، مداد، حبر. لكن البـاحثين والمؤرخين الغربيين الذين لا يعرفون كيف يخترعون مجداً عنصرياً قديماً، حولوا هذا الواقع كما أرادوا هم أن يفهموه إلى عكسه، وفسـرّوه حسبما أملت عليهم نزعـاتهم، لا اللغة الاغريقية المزعومة، على انه «حكم الشعب»! والصقوه بالجنس «الاغريقي» العظيم!

وبـالرغم من التنـاقضـات الكثيرة التي أحدثها هذا التفسير العجيب المختلق لكلمـة «ديموقراطي» وصارت عنواناً لكل نظام يريد أن يتباهى بـ«عصريته» اليوم فإن أموراً كثيرة ـ كالعادة ـ بقيت صعبة وعصية على الفهم نتيجة لهذا التزوير اللغوي.

يقول أندريه إيمار وجانين أوبوايه:

«من أوجه التنـاقض أيضـاً أن تتبنّى أثينا في عهد متـأخر، بنـاء على اقتراح أوسـع رجـال الدولـة الديمـوقراطيـة نفـوذاً وأشهَـرهـم ذكـاء، تشـريعاً يتصف بنزعته العنصرية الظاهرة. فخلال وقت طويل ـ وفي غير أثينا ـ أيضاً ـ حقّ لمن كان

(*) لأن التجارة كانت حكراً على السوريين او الفينيقيين وحدهم.

(1) المرجع نفسه، ص267 – 268 .

أبوه مواطناً وأمه أجنبية أن يكون مواطناً. وهذه كانت حال كليستين وحال كيمون ابن ميليتاتي مثلاً. ولكن القانون الصادر في السنة 451 – 450 ق.م. والذي اقترحه بركلي نفسه يقصر المواطنية على الأولاد الشرعيين على أن يكون كلا الوالدين أثينياً. أما الأولاد الآخرون فلا يستطيعون الحصول عليها إلا بقرار فردي، لأن القانون يجعل منهم أنغالاً أو أجانب. وليس استصدار هذا القرار بالأمر السهل، فقد وجب، بصورة خاصة، أن يفقد بركلي أولاده الذين أنجبتهم له أمهم الأثينية حتى يصدر مرسوم بمنح صفة المواطن للولد الذي انجبته له أسباسيا الميليثية»[1].

إن هذا القول يوضح الحقيقة المزورة التي طالما تغنّى بها الغرب زوراً، ودعاها «حكم الشعب»! فكيمون ابن ميليثاتي يعني ابن الميليثي أي من «ميليثا» في كيليكيا السورية. إنه من النبلاء السوريين من ناحية الأب، لكن أمه غريبة، أجنبية، من سكان البلاد الأصليين، فلم يدخل في المواطنين الأثينيين، وبركلي نفسه (وهو السوري الأصل أيضاً) لم يسمح له بتسجيل أولاده لأنهم من أم أثينية من السكان الأصليين، بينما ابنه من أسباسيا (= الخصيبة) السورية من ميليثا كان لابد من صدور مرسوم يمنحه حق المواطنية.

إن «الديموقراطية» كما يفهمونها اليوم ينبغي ألا يبحثوا عنها في تاريخ اليونان بل في المشرق العربي من عهد سومر (حيث مجلسان للشيوخ وللشباب) إلى عهد زنوبيا (مجلس الشورى في تدمر). أما في شبه جزيرة المورة فقد كانت «الشورى» في «دار الندوة» (بولي) مقتصرة على المواطنين السوريين وحدهم دون غيرهم. وهم «الأناس المسجلون»، وهذا أمر مبرّر لهم تاريخياً. إذ أن الهوة بينهم وبين سكان البلاد الأصليين كانت كبيرة وشاسعة. لقد كان عليهم أن يعلموهم أولاً كل شيء: اللغة، والكتابة، والزراعة، وبناء المساكن، والتخلي عن سكن الكهوف وأكل لحوم البشر، والدين، والحرفة، وهي الرسالة التي نهض بها السوريون هناك وفي كل بلدان أوروبا المتوسطية.

كان «الاخائيون» (الاخوية، الأنسباء، الأقارب، أبناء العشيرة) أولى الجماعات

---

(1) اندريه إيمار، وجانين أوبوايه، المرجع السابق، الجزء 1 ، ص338 .

التي نزحت من الشمال السوري قبل جماعة قدموس. فاكتفوا بغزو سكان الكهوف، وكانوا يقتلون الرجال ويسبون من النساء الجميلات فقط دون أن يعتبروهن زوجات شرعيات. فيبقى أولادهم منهن خارج نطاق الأخوية. وهذا ما نقله لنا الدكتور محمد كامل عياد في كتابه تاريخ اليونان حيث كتب يقول: كان الاخائيون إذا ما استولوا على منطقة «يقتلون رجالها أو يبيعونهم كأرقاء، ويسبون النساء ويتخذوهن محظيات إذا كن جميلات أو خادمات مستعبدات إذا لم يكن لديهن شيء من الجمال»[1].

إن هذا «التناقض» لا يمكن فهمه أو حلّه من خلال التزوير الذي أحدثه المؤرخون الغربيون في تاريخ اليونان سكاناً ولغة وحضارة. وقد اعتدنا على وقوعهم في التناقضات المربكة الناجمة عمّا أحدثوه من تزوير في التاريخ العربي، وعلى الأخص منه، العربي السوري. إن هذا يذكرنا بما كنا قد بيّناه في كتابنا الثاني حول تزويرهم لجغرافيا الأحداث التوراتية التي نقلوا مواقعها من منطقة عسير في برية شبه جزيرة العرب إلى المساحة السورية الممتدة من الفرات إلى النيل، ثم لم يعودوا قادرين لا هم ولا غيرهم على تفسير كيف تقف عشيرة بني اسرائيل عند أريحا على «الأردن» وينظرون إلى الغرب فيرون الأرض الموعودة تمتد أمامهم من جبل لبنان إلى الفرات! مما دعا الإنكليزي جارني في مؤلفه «الحثيون» إلى القول: إن هذا غير معقول جغرافيا!

إن «الاجريق»، إذن، هم السلالة التي انجبها السوريون هناك من نساء الكهوف بزيجات غير شرعية، فدعوا «أنغالاً». وقد كانوا في أسبارطة كما كانوا في اثينا محرومين من حقوق المواطنية. وهم لا يقرأون ولا يكتبون، ومتخلفون، ولا يحق لهم الاشتراك في مجلس الشورى «أورحوفقحو» (أريوفاجوس). «فالمواطنون المنحطون والأنغال والمحرَّرون وغيرهم كثيرون ممّن يتوقون إلى مثل أعلى هو العودة أو الانضمام إلى طبقة المتساوين»[2]. وهم، لتخلفهم، كانوا غير قادرين على الاسهام في تلك التنظيمات الحضارية التي جاء بها

---

(1) محمد كامل عياد، المرجع السابق، ص93 .

(2) المرجع نفسه، ص347 .

السوريون الوافدون، إذ أن هؤلاء الوافدين الأغراب «يدين لعملهم مجد أثينا كله»[1].

وإن هذا نفسه هو الذي يفسر القول الذي توصل إليه كيتو حينما كتب يقول: «إن الدولة الاغريقية كانت نظرياً وعاطفياً مجموعة من الأقارب لا مجرد سكان منطقة ما»[2].

ومع تحفّظنا الشديد على كلمتي «دولة» و«إغريقية» فإن هذا الكلام صحيح. فهذه «الدولة» التي يتحدث عنها المؤرخون في الغرب هي ترجمة خاطئة لكلمة «بولي» boule التي هي في القاموس السرياني جمع «بول» وتعني الأمير. و«بيت بولي» دار الندوة، مقر الأمراء. وقد كان التقليد العربي منذ القدم وحتى عصر الرسول يقضي بأن يلتقي وجهاء العائلات أو القبيلة في دار لتدارس شؤونهم يدعونه دار الندوة. وفي قصة إسلام حمزة شاهد على ذلك. إذ بينما كان عائداً من الصيد التقى بامرأة أخبرته عن إهانة أبي جهل لأبن أخيه محمد، فما كان منه إلاّ أن عرج على «دار الندوة» حيث زعماء قريش كلهم مجتمعون، وضرب أبا جهل بالقوس على رأسه، حتى شجّه، وأعلن منذ تلك اللحظة إسلامه ووقوفه إلى جانب محمد.

إن «دار الندوة» هذه هي التي ذهبت مع العرب السوريين إلى بلاد اليونان، وفسّرها المؤرخون في الغرب بمعنى «دولة»، ثم نفخوا فيها بحيث لم يبق شيء في تاريخ اليونان المكتوب يحوي شيئاً من الحقيقة. ففي الوقت الذي يتحدث فيه كيتو عن «الدولة الإغريقية» نراه يصطدم بحقائق أخرى تجعله يقول شيئاً آخر مناقضاً: فقد كانت «البوليس (التي هي البولي= الندوة) نوعاً من الأسرة الفائقة، والحياة العائلية تعني الاشتراك اشتراكاً مباشرة في شؤون الأسرة ومشاورتها»[3].

وهو نفسه يقول في مكان آخر: «لقد كان «البوليس» مجتمعاً حياً مؤسساً على صلة الرحم الحقيقية أو المفروضة. بمعنى أنه كان عائلة كبيرة يتحول فيها

---

(1) المرجع نفسه، ص351 .

(2) كيتو، المرجع السابق، ص162 .

(3) المرجع السابق، ص168 .

أكبر قدر من الحياة إلى حياة عائلية، وفيه بالطبع منازعاته العائلية التي كانت مرارتها أشد لأنها كانت منازعات عائلية»[1].

وإن الصراع الذي شهدته بلاد اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد، وانتهى بتدمير المدن جميعاً: اسبارطة، وأثينا، وطيبة، وغيرها لم يكن غير هذا الصراع القبلي بين القبائل السورية المتنافسة على السيادة هناك. وقد استمرت تلك الحروب طيلة ذلك القرن، ولم تتوقف إلا عشرة أعوام فقط أسفرت عن تدميرها جميعاً. فأي منطق بعد هذا يقبل بأن يكون قرن تلك الحروب المدمرة هو نفسه القرن الحضاري الذهبي لبلاد اليونان إن لم تكن تلك الحضارة وافدة مع النازحين السوريين، ثم كيف يستقيم عقلياً ومنطقياً أن تكون تلك المدن الصغيرة المدمرة، وهي قرى يتسع المسرح لكل سكانها، هي التي هزمت جيش داريوس، ثم «احتلت» آسيا؟.

وليس عسيراً على الباحث المدقّق أن يدرك أن جميع الكتاب المسرحيين كانوا سوريين بأسمائهم ولغتهم وانسابهم ومواطنهم، وأن جميع شخصيات المسرحيات الرئيسية تدور حول بطلات وأبطال سوريين في المستوطنات السورية: سبعة ضد طيبة، الفينيقيات، صاحبات الحمية (حيمانيثي، يترجمونها «المنتقمات»)، أوديب... حتى أن مسرحية «العاهرة»(*) يكتبونها «إنايرا» وقد حسبوها اسماً، ولم يعرفوا لها معنى بعد أن سقط منها لفظ العين. يقول «كيتو» معلقاً على بعض مقاطع هذه المسرحية: «لقد أبرزت المسرحية ضخامة الجرم الذي اقترفه ستيفانوس بدس أرومة أجنبية فاسدة على الدولة (بولي = الأمراء، الأشراف). وليس هذا من قبيل التظاهر بالنبل، فهو يرجع في أصله إلى الفكرة القائلة بأن البوليس تنتظم قوماً تربطهم وشائج القربى. ولهذا فهو يقول «لا بأس من وجود الخليلات والجواري، ولكن حين نصل إلى الأساس الصلب الذي تقوم عليه حياة بوليسنا وجوهر وجود أسرنا كل على حدة، إلى

(*) العاهرة كلمة عربية قديمة حديثة. وهي في القاموس السرياني من الفعل «عهز}»= عهر، هاج، اغتلم، عاهيرا= عاهر، عاهرة، عهيروت = عهر، غلمة، اهتياج.

(1) المرجع نفسه، ص98.

من نتجه؟ إلى زوجاتنا»[1].

وهكذا نلاحظ كيف أن في بلاد اليونان حياتين: حضارية تمثلها الأسر السورية الوافدة التي توهجت بوجودها المنطقة حضارياً، ومتخلفة من سكان الكهوف الأصليين في البلاد. والـ «بولي» (دار الندوة) مقصورة على السوريين، أما الأبناء الذين يولدون من آباء سوريين (من الأمراء) لأمهات محليات متخلفات فهم لا يسجلون في عداد الأسر، إنهم «الاجريق» أو الأنغال، أو ابناء الزنى، وهم عند العودة إلى الوطن ـ كما حدث في القرن الرابع ـ سوف يبقون في أرض الأمهات.

وممّا يؤكد أن نظام «الندوة» (البولي) هو نظام القبيلة العربية الذي ذهب إلى هناك كما هو انتقال التقاليد العربية معها أيضاً من توريث الابن البكر، وحق البكورية على باقي الأبناء، وزواج الأرملة من قريب الزوج المتوفى من أجل أن تنجب نسلاً لاسم الأسرة أو العشيرة، والختان الذي نشأ عربياً منذ آدم، وفي عهد عقيدة الخصب، في سوريا ووادي النيل، ثم في اليهودية وعند نصارى عيسى الأوائل، وفي الإسلام..

ولقد أكد هذه التقاليد المؤرخ الفرنسي المتعصب فوستيل دي كولانج دون أن تستثير انتباهه إلى شيء.

يقول دي كولانج: «وعند الاثينيين كان قائماً ما يسمّى امتياز الابن الأكبر، وفحواه، فيما يلوح، هو المحافظة على المنزل الأبوي خارج القسمة، وهي ميزة هائلة من الناحية المادية، وأعظم منها من الناحية الدينية»[2].

«وكانت الديانة تقول إن الأسرة يجب الا تنقرض وعلى كل عاطفة وكل حق طبيعي ان يتراجع أمام هذه القاعدة المطلقة.. وكانت التشريعات القديمة تفرض زواج الأرملة بأدنى اقارب زوجها إذا لم يكن لها أولاد، والولد الذي يولد يشهر بأنه ابن المتوفى»[3]

---

(1) المرجع نفسه، ص303 – 304 .

(2) فوستيل دي كولانج، المرجع نفسه، ص109 .

(3) المرجع نفسه، ص66 .

ويوم الطهور، أو الختان، عند العرب هو اليوم الثامن، كما سبق أن رأينا من ذي قبل. وهذا ما حافظت عليه تلك الأسر السورية في بلاد اليونان: ففي ذلك اليوم يجمع الوالد الأسرة، ويدعو الشهود، ويضحي لموقده، ويقدم الطفل لآلهة المنزل (في الحقيقة هي ربة الشعلة عشتار التي سُنّ الختان تقدمة لها بدلاً من الخصاء). فكانت تحمله امرأة بين ذراعيها وتطوف به وهي تجري حول النار المقدسة عدة مرات.. وكان الغرض من تطهير الطفل أن يماط عنه الدنس الذي كان يظن القدماء أنه قد لحقه بمجرد عملية الحمل»[1]

وكانوا يسمون السلالة «الجنس» genes أو genus، وهو إذ لم ينتبه إلى أصل الكلمة العربي، «يخترع» تفسيراً لها كالعادة قائلاً: «في المعضلات الصعبة التي كثيراً ما يجود بها التاريخ يستحسن أن نتلمس في مصطلحات اللغة كل المعلومات التي تستطيع أن تعطيها.. فلفظ genes هو بالضبط لفظ genus إلى درجة أنه كان من المستطاع استعمال الواحد بدل الآخر.. إنها: الراضعون من لبن واحد»[2].

ولقد حافظت الأسرة العربية السورية في اليونان وإيطاليا على تقاليدها حتى بطريقة النسب إلى الأب، وذلك بالتقليد العربي الشائع المعروف: فلان ابن فلان. وهذا تقليد انفرد به العرب وحدهم بين شعوب الأرض، وأينما ظهر فهو دلالة على عروبة الأسر لا جدال فيها. ورابطة الأسرة كانوا يسمونها «دمو» أي رابطة الدم أو الرحم، أو الأصل، ويترجمونها «الفصيلة» وهي صحيحة إلى حد ما، فالفصيلة في النظام القبلي العربي موجودة، وتمثل رابطة الدم. يقول دي كولانج: «أسماء الفصائل في بلاد الاغريق كما في روما موضوعة في الصيغة المستعملة في اللغتين لأسماء الأبوة: كلوديوس ابن كلوسوس، بوتاديس ابن بوتس»[3].

لقد كان لابدّ من إيراد بعض التفاصيل التي من شأنها أن تلقي الضوء على

---

(1) المرجع نفسه، ص68 .

(2) المرجع نفسه، ص136 .

(3) المرجع نفسه، ص137 .

مضمون التسميتين السكانتين: «اليونان» و«الاغريق». لقد شوّه المؤرخون في الغرب تاريخ البشر، وجعلوا الأبيض أسود والأسود أبيض، ولعبت الجامعات دوراً تواطئياً في سبيل ترسيخ التزوير وتعميمه والدفاع عنه. وصار التعصب المقيت عنواناً لكل صفحة من التاريخ الذي يدرس في جامعات الغرب حتى اليوم.

وإن موضوع الاسكندر و«فتوحاته» المزعومة ليست إلا جزءاً من ذلك التزوير.

يقول بيير روسي: «إنه لن يكون قابلاً للإدراك أن تخوض المقاطعة اليونانية الصغيرة معركة ضد امبراطورية فارسية، أو سورية، أو مصرية واسعة. إن ذلك ضد كل ما يتوقع. فالتاريخ الكلاسيكي، كما درسونا إياه في المدرسة، قد علمنا أنّها لم تخض الحرب ضد آسيا فحسب، بل وإنها قد انتصرت عليها أيضاً... وإنها لقصة من قصص الجن الخرافية. فهيرودودت، وديموستين، وتوكيديو، وآريان فلوطارك، يرون هم أنفسهم أن الأمور حدثت على شكل آخر. وتيسيراً لكل حقيقة يجب الرجوع إليهم، وإلى بضع من الوثائق التي نملكها لتوضيح هذه الحروب الميدية المزعومة، ومعها أيضاً قصة فتوحات الاسكندر»[1]. «فلم تكن مكدونيا.. ولا سلاميه، ولا بلاثيا، ولا أثينا سوى لعبة بين يدي السياسة الكبرى التي تثيرها بابل على ضفاف الدانوب وعلى شواطيء البوسفور[2].. وإن الاسكندر كان يتصرف أثناء حملته الآسيوية كواحد من رعايا الملك.. إن تصرفه ليشبه انقلاباً عسكرياً أكثر من كونه حرباً خارجية، فلقد كان في منزله عندما وصل آسيا[3].

لقد قيل إن مقدونيا قد ولدت مع فيليب، فيليب البربري الهابط من السحب، مع أن فيليب هذا كان وارث تقاليد ما قبل التاريخ التي تصل إلى اسمى ثقافة للشرق الآرامي.. وإذا كان فيليب المقدوني قد استطاع مد سلطته على غالبية بلاد اليونان فلأن الملك (المركزي) الكبير بالتأكيد قد أعطاه يده، وأعطاه معها الذهب الضروري لأمثال هذه المحاولات»[4].

---

(1) بيير روسي، المرجع السابق، ص161.
(2) المرجع نفسه، ص167.
(3) المرجع نفسه، ص168.
(4) المرجع نفسه، ص174.

«لقد كان المسرح ملائماً للحصول على الاسكندر الذي كان دوره، ولنفكر في ذلك جيداً، دمج الاغريق تأسيسياً بالعالم الآرامي (السوري). ذلك العالم الذي لم يعرفه اليونان إلا ثقافياً.. وتبقى صورة «الفتح» التي حدثونا عنها، وهو فتح ابن فيليب الذي يتركنا مبهوتين. فلقد قالوا لنا إن الجنرال الاسكندر قد «سحق بواسطة حفنة من الرجال (فقط 35000 رجل) حشود داريوس الثالث، وأن معركة أربيل قد كانت معركة أوروبا ضد آسيا. وأن الامبراطورة الآسيوية «قد غلبت في عدة سنوات، وأزيلت، واحتلت». لقد احتلها خمسة وثلاثون ألف رجل فقط. سذاجة؟ سوء نية؟ مجموعة أخبار ملفقة؟ كسل في مراجعة الفكرة المتلقاة؟ وكيف لا نخجل من هذه التهاويل، وهذه البيانات المعلنة من أعالي المنابر؟ إن أسطورة الاسكندر قد سحرتنا إلى حد أنها أفقدتنا عقلنا»[1]. «إن ما ندّعيه حتى الآن من أن غزوة الاسكندر ضد آسيا قد كان حرباً أوروبية ضد آسيا لم يكن إلا تمثيلية مضحكة. فلقد أخذ الاسكندر، في الحقيقة، جانب الحزب الشرعي البابلي ضد الهيلينيين»[2]. لقد كان على الاسكندر أن يوحد مدن اليونان المتنافسة والتي تتلقى الرشاوي من الزعامة الفارسية الجديدة صاحبة الانقلاب على الشرعية في المركز، ويضم جهوده إلى جهود المدن السورية المتمردة في الشمال السوري من أجل انقلاب معاكس يعيد الأمور إلى نصابها.

فجيش الاسكندر وأسطوله الذي هزم الفرس في معركة سلاميس هو الأسطول السوري الفينيقي الشهير، و«استسلام» المدن السورية في المضائق حتى بابل كان ضمن خطة الانقلاب المعاكس. وإذا تمردّت صور لاستغراقها في التجارة البعيدة وجمع الثروات بعيداً عمّا يحصل للدولة في المركز فقد دفع ثمنه، ولم تقف إلى جانبها أي من المدن السورية الأخرى. ويؤكد المؤرخون، بل وأشدهم تعصباً للغرب ضد الشرق، أن فيليب كان صنيعة للسوريين تربى في جيش طيبة الفينيقي[3] وتسلّم مهمة صد غزوات البرابرة في الشمال في ما وراء الدانوب، وكذا ابنه الاسكندر الذي قاتل بالسوريين وبالأسطول الفينيقي بعدما وحدوا

(1) المرجع نفسه، ص178 .

(2) المرجع نفسه، ص180 .

(3) كيتو، المرجع السابق، ص201 .

جهودهم في كل الجزر والمستعمرات والشمال السوري، وأحدثوا انقلاباً معاكساً للانقلاب الفارسي، وأعادوا كل شيء إلى نصابه من جديد، وعادت بابل عاصمة للدولة السورية ثم سلوقيا على الدجلة ثم انطاكية.

وتكاد تجمع المصادر العربية القديمة على نسب الاسكندر العربي. فقد «قال أكثر أهل السير انه الاسكندر بن فيليب بن فطريو بن هرمس بن هروديو بن فيطون بن رومي بن لطين بن يونان بن حيلان بن يافث بن نوح»[1]. «فلم يكن الأمر بعد كل ما جرى سوى غياب رجل لا يمثل إلا نفسه. واستمرت الامبراطورية. وعاد الكاتب إلى قلمه، والفلاح إلى معزقته، والصائغ إلى خيطه الذهبي. ولم يتغير شيء، ولم يتحرك شيء من مكانه في الامبراطورية الواسعة. ولم يكن مرور الاسكندر البطل الذي باركته الآلهة، سوى تجعيدة على سطح آلاف من السنين المتراكمة محتفظة بالإيمان والمعرفة، ومذهب الشك، كما لو ان العالم العربي قد احتوى الاسكندر والمجتمع الهيليني الذي وجد فيه تكملته. ولنلاحظ جيداً أن معركة المقدوني الآسيوية لم تتطلب إلا قليلاً من التحركات الحربية، وكانت الخسائر فيها ضئيلة جداً»[2].

«ولقد بذل جميع جهوده لينسى الناس انهم ليسوا في بلادهم. ولقد توصل إلى أكثر مما يريد وبسهولة، لا بالعرقية، ولا بالثقافة ولا بالديانة، ذلك ان اليونان والآسيويين ـ الافريقيين لا يتمايزون في الحقيقة، فلقد كان الأعداء «القوميون» كما نعرفهم اليوم، غير معروفين في ذلك العصر»[3].

وإن «الاسكندر، كملك (سوري) آرامي، يؤلف جزءاً من التقاليد العربية على الأقل. ويظهر أن غالبية شراح التاريخ ينسون ذلك. وتلاميذنا يرتكبون الخطأ نفسه متجاهلين ان شارلمان، مثلاً، لم يكن حصراً «فرنسياً»، وإن اسم الاسكندر، أو اسكندر، أو بشكل ابسط سكندر، قد استمر يعطى اسماً للأطفال العرب (قبل الاسكندر وبعده). وإن هذا مثير للاهتمام.. إن الاسكندر اسم آرامي

---

(1) ابن اسحق احمد بن محمد إبراهيم الثعلبي، قصص الأنبياء المسمّى بالعرائس، مطبعة الحاج عبد السلام بن محمد شقرون بمصر، ص200 .

(2) المرجع نفسه، ص182 .

(3) المرجع نفسه، ص183 .

قديم خلق الاغريق انطلاقاً منه الكسندروس الذي كان يومذاك اسم الطروادي (باريس ابن فريام). وعكس (علماء الاشتقاق» مرة أخرى الأمر.. عكسوا الأدوار وأعطوا مشتقاً آرامياً لجذر كان، حسبما يرون، اغريقياً، وهكذا وضعوا مرة أخرى العربة أمام الحصان. فإذا كان العرب قد سموا اسكندر فليسوا مدنيين به لابن فيليب، إنه هو المدين لهم باسمه»[1]. والحقيقة إن «اسكندر» اسم عربي قديم يعني اصل الكندر أو روحه أو اسّه، والكندر هو شجر البخور أو المرّ أو الصنوبر. إنه شجرة عشتار المقدسة منذ بداية زمن عشتار.

ومن الشخصيات الشهيرة في التاريخ العربي القديم التي دعيت بهذا الاسم اسكندر ذو القرنين الذي هو من جنوب شبه الجزيرة العربية، والذي تحدثنا الأخبار أنه قام بزيارة الأرض المقدسة طلباً لعين الحياة، ودعي بـ «ذي القرنين» لأنه كان من القلائل الذين بلغوا الجبل المقدس فيها ذا القمتين، ودخل في سراديبه من القمة التي تطلع عليها الشمس إلى التي تغرب عندها. وقد جرى الخلط بينه وبين الاسكندر المقدوني الذي جاء بعده بعدة قرون.

كما أن بين أبناء الملك فريام ملك طروادة السورية من دعي الكسندر وأخته ألكسندرا. أما الكسندر فهو الذي لقب فاريصو (Paris) أي الشهواني، المتهتك، بعد حادثة خطفه لهيلين الجميلة وما سببّه من حرب ودمار لمدينته وأهله بسببها.

أما الاسكندرية على ساحل المتوسط فلم يدخلها الاسكندر المقدوني، ولم تسمّ باسمه ولم يدخل مصر وادي النيل، ولم يؤسس فيها أو في سوريا اية قرية أو مدينة، وهي أقدم منه بقرون كثيرة، وقد دعيت على اسم الاسكندرية في المنطقة المقدسة في المركز، في جبال السراة، تيمناً بها.

يقول المسعودي عن ملوك مصر التي في شبه جزيرة العرب زمن إبراهيم: «فأرسل (ملك مصر) سارة زوجة ابراهيم إلى ابنته حوريا، وكانت من العقل والكمال بمكان كبير. فألقى الله محبة سارة في قلبها، فأكرمتها وعظمتها..

---

(1) المرجع نفسه، ص188 .

ووهبت لها جارية قبطية من أحسن الجواري، وعزمت عليها في قبولها فقبلتها، وهي هاجر أم اسماعيل.. وعاش طوطيس (ملك مصريم) إلى أن وجهت إليه هاجر من مكة انها بمكان جدب وتستعينه. فأمر بحفر نهر في شرقي مصر، ثم بسفح الجبل حتى ينتهي إلى مرفأ السفن على البحر المالح. فكان يحمل إليها الحنطة وأصناف الغلال، فتصل إلى جدة، وتحمل من هناك على المطايا إلى مكة. فأحيا بذلك الحجاز مدة...

«وطوطيس هذا أول فرعون كان بمصر..وكان حريصاً على سفك الدماء، حريصاً على الولد، فلم يرزق غير ابنته حوريًا.. وملكت حوريًا المملكة بعده، وجلست على سرير الملك.. واجتمع الناس كلهم بمصر وجهاتها على حوريا، ففتحت خزائن أبيها وفرقت أكثرها على الناس...

وكان المقدم على جيش الكنعانيين بالشام (أي شمال المركز) قائد جليل يقال له جيرون، واغرته حوريا في الزواج منه، ففرح بذلك وكان افتخارهم حينئذ بالبنيان وإقامة الاعلام والأصنام وعمل العجائب، فقالت له: انتقل من موضعك إلى غربي بلدنا.. فانتقل إلى حيث أمرته وبنى مدينة بصحراء الغرب تدعى أندومة.. ثم أرسلت إليه إن لنا مدينة حصينة كانت لأوائلنا وقد خربت وخرب حصنها، فانتقل إليها، وانظر في بنيانها وإصلاح حصنها، واتقن أمورها.. فإذا فرغت من إصلاح تلك المدينة أنفذ إلى حينئذ فأسير إليك لأبعد عن مدينتي وأهل بلدي، فإني اكره أن أدخل إليك بالقرب منهم فمضى حيث أمرته، وجّد في إصلاح الاسكندرية الثانية، وإليها أمرته أن يمضي»[1].

إن في هذا دليلاً ساطعاً على وجود الاسكندرية في جزيرة العرب منذ عهد إبراهيم، وهي الاسكندرية الثانية، والتجديد للاسكندرية الأولى التي، كما هو واضح، أقدم منها بكثير.

لقد سلك الاسكندر خط االمضائق، فالشمال السوري وصولاً إلى بابل، وحدود الهند ثم عاد إلى بابل حيث مات هناك. ونحن نسأل السادة المؤرخين: كيف يكون الاسكندر في إفسوس في شمال سوريا أمام الجيوش الفارسية، فيتركها

---

(1) المسعودي، أخبار الزمان، ص232 – 235 .

(أو يتركونه) ليذهب إلى مصر وادي النيل، فيفتحها، ويبني مدينة الاسكندرية التي سمّاها باسمه، ثم يعود إلى شمال سوريا حيث «تنتظره» الجيوش الفارسية ريثما يفرغ من «إنجازاته» في وادي النيل ويعود! الم يفكر أحد في مثل هذا السياق الخرافي للحروب؟ إن «مصر» التي مرّ بها الاسكندر في الشمال السوري عند المضائق هي «أكبتو» (أي ارض الكآبة والحداد) وقد سميت بهذا الاسم بعد القصة الشهيرة لبنات «داناؤو» اللاتي رفضن الزواج بأبناء عمّهن، وقد سبق أن سردناها من قبل والقصة معروفة، لكن الخلط بينها وبين Egypt (مصر وادي النيل) مستمر في كل الكتب التاريخية. وهذه البلدة هي التي مرّ بها الكسندر بن فريام (باريس) بعد خطفه لهيلين في طريقه إلى طرواده وليست مصر وادي النيل. وكان الأجدر بالدكتور أحمد بدوي الذي قدم لترجمة كتاب «هيرودوت يتحدث عن مصر» وتولّى عملية شرحه أن ينتبه إلى هذه القضية المهمة والواضحة في ماكتبه هيرودوت.

إن الأمر جد واضح. لقد كان على المترجم السيد المرحوم الدكتور محمد صقر خفاجة أن يترك كلمة «أكبتو» كما هي في الأصل دون أن يترجمها إلى كلمة «مصر» ليحدث مثل هذا الخلط متهماً هيرودوت بالجهل. ومن المعروف أن نهر «أسترا» هو نهر الدانوب، وإسترا هي عشتار، وقد مررنا على ذلك قبلاً.

إن على النقلة العرب أن يفكروا جيداً فيما ينقلونه، فالاسكندر لم يترك الفرس عند أفسوس ليمر على مصر وادي النيل ويعود، وكأنما استأذنهم بذلك!

لقد أقام المؤرخون في الغرب أسلافاً وهميين في التاريخ القديم، وأغدقوا عليهم حلل المجد من كل لون، وجعلوا العرب متخلفين، متطفلين على حضارتهم منذ بدء وجودهم، ثم إذا ما تكلم أحد العرب ببعض الحقيقة البسوه تهم التعصب، والتوهم، والغيبيات، وإسقاط حب الوطن اليوم على الماضي البعيد دونما أساس. لقد عكسوا كل شيء. إن هذا عينه هو ما حدا ببعض العلماء الموضوعيين في الغرب نفسه لأن يرفعوا أصواتهم عالياً ضد هذا التزوير الظالم. يقول الباحث الفرنسي الشهير بيير روسي بهذا الصدد: «إن إسقاط «حب الوطن هذا» على الماضي، والذي حصل حديثاً في اوروبا سيكون نوعاً من انواع التخييل.. إن شرح ذلك يمكن أن يوجد في مجموع المخطوطات الاغريقية

أو اللاتينية التي هي منسوخات محدثة لا أصيلة.

وعليه فإن الوثائق الوحيدة الأكيدة التي نملكها من العهود القديمة هي الأبنية الأثرية والكتابات المنقوشة على الحجر، أو الوثائق المسمارية المخطوطة في الواح الطين، وهذه قد نجا قسم منها من حمية «مكيّفي» التاريخ»[1].

على أية حال إن هؤلاء «الاجريق» هم الذين بقوا في الأرض بعد انسحاب السوريين مع الاسكندر العربي الفينيقي (وهذا ايضاً ما أكده بيير روسي وفيكتور برنار وغيره) إلى الوطن الأم، بعد هزيمة الفرس في سالاميس على يد الأسطول الفينيقي، ثم تحرير الأرض حتى أقصى الشرق بعد أن توحدت جهود السوريين لإنجاز ذلك في القرن الرابع، وفجأة خلت بلاد اليونان من كل مظاهر تلك «الحضارة المعجزة». ولن نخوض أكثر في تفاصيل الأحداث لأن هذا من شأن كتابنا الرابع.

12 . **الطليان:**

إن التسمية عربية سورية قديمة أطلقت على بعض الحكام أو الملوك المؤسسين، ثم على الأرض التي تعرف اليوم باسم إيطاليا.

وقبل أن نشرح أصل التسمية، لابدّ من التذكير بالنقاط الأساسية التالية التي اجمعت عليها جميع المصادر، وأكدها حتى المؤرخون المتعصبون، هذه النقاط هي:

1 . كانت إيطاليا قبل وصول السوريين جزءاً من العالم الهمجي في أوروبا، السكان الأصليون يسكنون الكهوف ويأكلون لحوم البشر. ففي حوالي 1000 ق.م وصلت جماعة من المهاجرين واستقروا في الجزء الجنوبي من ايطاليا. «ولا يعرف أحد هل غلب هؤلاء المهاجرون من وجدوهم في تلك البلاد من السكان الأصليين الذين كانت ثقافتهم في ذلك العهد لا ترقى عن ثقافة أهل العصر الحجري الحديث، أو أبادوهم، أو اكتفوا بالاختلاط بهم والزواج منهم. ومهما يكن ما فعلوه بهم فقد أخذت القرى الزراعية تقوم في هذا الاقليم التاريخي العظيم بين نهر التيبر وخليج نابولي، وينضم بعضها إلى بعض حتى

---

(1) بيير روسي، المرجع السابق، ص226 – 227 .

تكون منها عدد قليل من دويلات المدن المستقلة المتحاسدة التي لم تكن تتحد بعضها مع بعض إلا في الأعياد السنوية... وكان أكبر هذه المدن ألبالأنجا Alba Langa القائمة عند سفح جبل ألبان»[1]. فالسكان الأصليون همج متخلفون. والقادمون زراعيون. و المدينة هي حَلبا الأنجا، وتعني مغارة الربة القاهرة، المنتصرة، أي مغارة عشتار الربة.

إذ أن «حلبا» في القاموس السرياني تعني المغارة، و«أنجا» هي «أنقا» تعني الغالية، القاهرة، المنتصرة. وقد بناها أحفاد الطرواديين المهاجرين مع «عنيا» الكاهن.

أما جبل «ألبان» فهو جبل «لبان» أي البخور أو الكندر، أو الصنوبر، شجرة عشتار المقدسة في المركز.

«ولقد حكم أحد الكهنة السوريين جاعلاً من نفسه تجسيداً للرب المبعوث أو القائم من الموت «نحوما» (من نحم = بعث، قام من الموت). ويقول عنه المؤرخ السوري ــ الروماني ليفي (لاوي = الرفيق): «عمل على أن يبعث في قلوب الشعب الخوف من الآلهة. ويجعل ذلك الخوف أقوى أثراً في قلوب الأقوام الهمج»[2].

وحينما مرّ «عنيا» (انياس) الكاهن الطروادي بجماعته الهاربة من طروادة المدمّرة للبحث عن أرض جديدة يؤسس فيها مدينة جديدة، دأب السوريين القدامى، ومرّ عند سفح جبل أتنا (التنّ، البركان) في صقلية التقى بأحد السوريين الآخيين الذي نبذه جماعته بعد تدميرهم للطرواديين فروى لهم مشاهداته على النحو التالي:

«أتوسل إليكم يارجال طروادة بالنجوم والأرباب، وبهذا الهواء الذي نستنشقه بأن تأخذوني من هذه الأرض إلى حيث تشاؤون. ولن أسألكم إلى أين المصير. ولا أنكر أنني من اليونان. واعترف بأنني حملت السلاح ضد طروادة. فأغرقوني في البحر إذا شئتم، وإذا لم يكن من الموت بدّ، فلأمت بيد البشر.

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، الحضارة الرومانية، ص26 .

(2) المرجع نفسه، ص32 .

«وتشبث بركبهم، فطلب إليه عنيا أن يخبرهم عن نفسه وعن سبب وجوده في هذا المأزق، فأجابه الرجل قائلاً: إنني رجل من أتيكا، وأنا أحد رفاق التعس أوديسيو... ولما هرب رفاقي من هذا الشاطىء اللعين، تركوني في كهف السيكلوب (الصقلاب = إنسان أوروبا المتوحش). وهو مخيف الهيئة، وحشي المنظر، قد جاوز الحد من ضخامة الجسم، ويتغذى بلحم البشر. وقد رأيت بهاتين العينين كيف مدّ يده، وقبض على اثنين من رفاقي، وسحقهما على الحجارة سحقاً. أجل، وقد رأيت أطرافهما ترتجف بين أسنانه»[1]. ذلك هو إنسان إيطاليا في زمن طروادة.

وطريف هنا أن نعرّج مع «عنيا» وجماعته على قرطاجة والسيدة ديدو أو اليسا (حليصا = الشجاعة، القائدة، المدبرة، المقدامة) ولنتعرف على الصورة الأخرى للسوريين الحضاريين كما يصفها بابلون فرجيل[*] نفسه:

لقد تجلت الربة عشتار للكاهن الطروادي «عنيا» بهيئة عذراء من صور وقالت له: «لتكن من تكون أيها الغريب. فإن قدومك إلى هذه الأرض الصورية لا يدع مجالاً للريب في أنك محبوب من الآلهة، فاذهب الآن وقدّم نفسك للملكة..

«قالت هذا وألوت راجعة، فشع من عنقها نور وردي، وعبق من شعرها أريج العنبر اللطيف، وطالت ثيابها إلى قدميها، فعرف فيها أنياس أمّه (أي الأم السورية الكبرى) وناداها قائلاً: أي أماه، لم تسخرين مني، وتظهرين لي غالباً بمظاهر زائفة. ولا تدعينني أضع يدي في يدك؟.. ومضت إلى هيكلها حيث المحاريب الكثيرة تصعد البخور.

«وتابع الرجال مسيرهم مسرعين، فصعدوا هضبة تطل على المدينة التي أدهشتهم رؤيتها. فقد كانت بلدة عظيمة كبيرة حقاً، ذات أبواب جبارة، وشوارع تسير فيها الجموع وتحتشد. وكان منهم القائمون على بناء الأسوار والقلعة يدحرجون لذلك الحجارة الضخمة بأيديهم. بينما عمد غيرهم إلى تخطيط أمكنة المنازل. وكانوا إلى ذلك يختارون من يرجع إليهم القول الفصل

---

(1) فرجيل، الأنيادا، ص55 – 56 .

(*) فرجيل كاتب سوري عاش في إيطاليا. اسمه الكامل بابليون فرجيل مارو. وفرجيل تعني (فرج الله).

في المدينة ومن يعهد إليهم بحكمها. كما كان منهم من يحفر الموانىء، ومن يبني أسس دار التمثيل، ومن يقطع الأعمدة الحجرية الضخمة، فكانوا أشبه بالنحل الدائب الذي تحتشد جموعه عند اقتراب الصيف، منتشرة هنا وهناك، أو كالعمال منه تكدّ بالعمل لملء الخلايا بالعسل، فيلقي بعضها أحمال الراجعين من الحقول، ويقف بعضها لحراسة القفير من اليعاسيب، أجل لقد كان شأن رجال صور شأن النحل الدائب المجدّ...

وكانت ديدو تبني هناك لعشتار هيكلاً رائعاً له عتبة من البرونز ودرجات ترتقي للدخول، كما كانت قوائم الأبواب والبوابات من البرونز أيضاً. وهنا حدث ما ملأ (أنياس) شجاعة وراحة، فرأى أن معارك طروادة قد أدرجت رسومها بنظام على الأسوار..

بينما كان عنيا (أنياس) يشهد هذه الأمور ويعجب، قدمت ديدو يتبعها حشد كبير من الفتيان، فكانت أجمل النساء طراً، لها حسن ديانا.. وقد ألقت على كتفها جلداً، وعلت الجميع قامة، فكان منظرها داعياً لسرور أمّها لاتونا (الربة) وهي تنظر إليها بسكون. كان لديدو جمالها، ولها منظرها وهي تختال بإباء وشمم في الوسط، منهمكة في أعمال مملكتها، ثم جلست على عرش سامق عند باب الهيكل، ووقف من حولها عدد كبير من الرجال المسلحين، وقد وزعت العمل في المدينة بالتساوي، أو قسمته بالقرعة».

وبعد أن أخبرها عنيا بقصته، أجابته ديدو:

«لا تخشوا يارجال طروادة أمراً، وإذا خيل إليكم أن في معاملتنا لكم شيئاً من الخشونة، فاصفحوا عنا لأننا لم نقم بهذه الأرض إلا حديثاً. ولذا وجبت علينا الحراسة ومراقبة شواطئنا. أما أعمال رجال طروادة في فنون القتال فمن الذي يجهلها؟ ولا يذهبن بك الظن إلى أننا هنا في ليبيا (أي افريقيا) فاترو القلوب، أو أن بعدنا القصي جعلنا على جهل بهذه الأمور، وسواء أرغبت في الابحار إلى إيطاليا أم فضلت الرجوع إلى صقلية عند الملك حسيتو (الطاهر) فاعلم أنني مقدمة لك كل عون ومانحتك كل حماية. أما إذا شئت الإقامة في أرضنا هذه فإن هذه المدينة التي أبنيها هي مدينتكم، ولن افرق بين طروادي وصوري»[1].

---

(1) فرجيل، الأنيادا، ص75 – 78 .

إن في اللوحتين اللتين يقدمهما الكاتب السوري ـ الروماني بابلون فرجيل ابدع تعبير عن وحدة السكان من أقصى الشمال السوري (طروادة) إلى ليبيا (الشمال الافريقي) من جهة، وعن عمق الهوة بين حضارة السوريين وهمجية أوروبا في ذلك الزمن، من جهة أخرى، هذا مع التأكيد على ان بناء المسارح ودور التمثيل يعود إلى السوريين كما هو واضح وليس إلى غيرهم، وذلك منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد على الأقل وهو زمن حرب طروادة. ونحن هنا لن نفصل في تاريخ إيطاليا فنتحدث عن جميع الهجرات العربية السورية المتعاقبة التي نقلت اللغة والاستقرار والزراعة ونظام الأسرة والفن والدين إلى هناك، لأن هذا هو موضوع كتابنا الخامس، غير أن ما نود فقط أن نشير إليه، قبل أن نتحدث عن أصل تسمية «الطليان»، هو أن من دعوا بالـ «اتروسك» الذين كانوا أول من نقل الحضارة إلى هناك هم عرب سوريون سكاناً ولغة وديناً وحضارة.

«فالأتروسك من ذوي أصول شرقية»[1]. «وهم آسيويون من آسيا الصغرى»[2] و«الأشراف الغرباء»[3]، وبيوتهم على الطراز الشرقي، والفن شرقي، والديانة هي ديانة الخصب السورية، والأعياد كذلك، واللغة والأبجدية، والزواج ونظام الأسرة[4].

ولقد كنا «فندنا» هذه التعابير الأقنعة: شرقي، آسيوي، آسيا الصغرى.

«إن الأتروسك ـ حسبما روى هيرودوت ـ ينتسبون إلى الليديين (حيدي = الاتحاديين في شمال سوريا)، وسيغادرون تحت حكم آتيس بن مانيس المنطقة ليذهبوا إلى ايطاليا بعد استقرار في إزمير وجزر بحر إيجه. وعندما نفكر أن الرومان، من جهتهم، يعلنون أنهم ينتسبون إلى طروادة الإيونية (نسبة إلى يونا = حمام) فإنه يجب أن تستنتج أن شبه الجزيرة الايطالية تدين بحضارتها إلى آسيا الصغرى. إن إنشاء قرطاجة.. قد أكمل إعطاء الطابع العربي للمتوسط الغربي، وهو الطابع الذي ما يزال موجوداً حتى أيامنا هذه، لا في افريقيا

---

(1) اندريه إيمار وجانين أبوايه، المرجع السابق، ص222 .

(2) ول ديورانت، المرجع السابق، ص11 – 12 .

(3) المرجع نفسه، ص46 .

(4) المرجع نفسه، ص23،20 – 135،17،24 – 136 .

الشمالية فحسب، بل في صقلية وفينيقيا (البندقية).. «وليس هناك عملياً أية مدينة يونانية أو صقلية أو ايطالية لا تزدهي وتتزين بمجد أجداد آسيويين»[1].
أما تسمية إيطاليا فقد دعاها السوريون أولاً «حسونيا» أي المنيعة، الصعبة، وهي في القاموس السرياني من الفعل حسنْ = حصن، صعب، عسر، كان حصيناً، منيعاً، وذلك للسور الجبلي في شرقها المانع، ولجبل أتنا البركاني الذي ما ينفك يقذف بحممه في الجنوب، فكان استيطانها من قبل السوريين فقط في جنوبها الغربي. وصارت التسمية فيما بعد «أوزونيا» لاختفاء الحاء. ثم بعد أن اكتشفوا الرخام فيها دعوها «هَسْفيريا» أي أرض الرخام. والكلمة في القاموس السرياني «سفيرا» تعني الرخام، وكانوا يلفظون الفاء P . وهكذا دعاها الطرواديون.
أما تسمية «إيطاليا» و«طليان» فقد اختلف فيها بين منحيين: الأول نسبة إلى مُرضعة الطفلين التوأمين «ريمو» و«روملو» والثاني نسبة إلى إيطالو أحد الحكام السوريين في صقلية.
أما «إيطالو» فيقول توكيديديس إنه كان ملك الصقليين، فاحتلّ «حنتريا» (حانة الشاطىء أو البر).
[وهي في القاموس السرياني «حَنْ» و«حَنو» تعني حانة، خمارة، ماخور. و«تريا» تعني: البر، اليابسة، الأرض، ومنها جاءت الكلمة Terra اللاتينية. ولقد اختفت الحاء في الجذر «حن» وتحولت إلى حرف صوتي هو W، وهكذا انتقلت إلى اللغات الأوروبية، فصارت بالإنكليزية Wine تعني الخمر، وبالفرنسية Vin وبالروسية Vino وتعني الخمر].
وهي في الشاطىء الجنوبي الغربي لإيطاليا، فدعيت باسمه، «وكما أن الرومان قد أطلقوا على الهيلينيين جميعاً اسم الاغريق، فإن الاغريق توسعوا في معنى ايطاليا حتى شمل هذا الاسم جميع أرض شبه الجزيرة من جنوب نهر (الفوح) PO أي شم النسيم إلى أقصى طرفها الجنوبي».

---

(1) بيير روسي، المرجع السابق، ص56 – 57 .

والمنحى الآخر هو الذي اعتمد على القصة الأسطورة حول ريمو وروملو. تقول القصة:

بعد أن تزوج الكاهن السوري الطروادي «عنيا» (أنياس) من «لأفينيا» (الخصبة) جلس على عرش حلبا الأنجا نحومي تور (القائم، النحمان، الرب الثور) بعد ثمانية أجيال من هذا الزواج. ثم اغتصب العرش منه رجل اسمه إميليو، وأخرجه من المدينة، وأراد أن يقضي على اسرة عنيا (أنياس) كلها، فقتل جميع أبنائه الذكور، وأرغم ابنته الوحيدة «رحيا صيبيا» على أن تصبح كاهنة للربة فصحتا (السنية، المتلألئة) التي صارت تدعى «فستا»، وأن تترهب وتقسم أن تظل عذراء حتى الممات. وبهذا يتحول اسمها إلى «إيليا» (أي الربانية، أو كاهنة الربة، المنذورة لها).

وفي يوم من أيام الربيع البهيجة نزلت «إيليا» الراهبة من الهيكل إلى شاطىء النهر، فأغراها منظر العشب والزهر يلتمعان تحت أشعة شمس الربيع الدافئة، مما جعلها تستلقي على العشب، وتكشف عن نهديها الجميلين مغمضة عينيها مستسلمة لانتشاءة حلوة. رآها مارس الطحّان (من الفعل مرس= طحن) وهو أحد السادة السوريين الذين يملكون طاحونة ماء على النهر، فأسر جمالها قلب الرجل، واغتصبها في مكانها، فحملت منه بتوأمين. فهربت خوفاً من الفضيحة إلى أن ولدتهما في الكهف الذي تنبع منه مياه النهر الذي يملكه الطحان. ثم وضعتهما في صندوق والقت بهما في النهر. فالتقطتهما «لُحوفا» [الغسالة. وهي في القاموس السرياني من الفعل حف = غسل، دلك] التي كانت تغسل الثياب على النهر وزوجة لأحد الرعاة، [وصارت تكتب «لوفا» بعد اختفاء الحاء] وكان اسمها «طليا» وتلقب بـ «عَسْقا العَرِنْتا» أي الصعبة، القاسية، العنيدة، البرية، وفي القاموس السرياني: عسقا = قاس، صعب، عسير، وعرنتا = قاسية، صعبة، عنيدة، جاهلة، وأرضعتهما وربتهما إلى أن شبّا وكبرا، ودعتهما «ريمو» و«روملو». وبعد أن صارا بمرتبة الرجال قتلا إميليو، وأعادا نحومي تور إلى العرش، وسارا تحدوهما قوة الشباب وعزيمته لكي ينشئا لهما مملكة على تلال روما.

ثم بنيا المدينة، واختلفا على تسميتها، فقتل رومل أخاه، ودعاها «روما».

وهكذا، فإن سلالة الكاهن السوري الطروادي «عنيا» الكاهن هي التي تولت السيادة على إيطاليا وهم «سادة روما فيما بعد»[1]. إن أمهم هي الأم السورية الكبرى عشتار[2]، وهم ككل السوريين الآخرين في بلاد اليونان وإيطاليا «السادة المعلمون أبناء الآلهة».

أما كيف جاءت التسمية هنا، فهي من اسم المرأة المرضعة «طليا» التي تعني في العربية القديمة والحديثة: الشابة، الفتية، الصغيرة من كل شيء. وفي قاموس «محيط المحيط» نجد الكلمة ما تزال محافظة على كل معانيها: فالطلا، والطلو ولد الظبي والصغير من كل شيء جمع أطلاء وطلاء وطليّ وطليان. والطلو الذئب والقانص اللطيف الجسم، والطلوة الصغيرة من الوحش.

وهكذا نجد أن «طليا» تعني الظبية كما تعني الذئبة، وقد اعتاد العرب على تسمية أبنائهم وبناتهم بهذه الأسماء منذ القديم وحتى اليوم، فنحن اليوم نجد ديب، وديبة (ذئبة) وغزالة، وظبية.. الخ.

أما «ريمو» فهو الرئم، أي الظبي الخالص البياض، و«رومل» الظبي الأبيض المنقطة قوائمه بالسواد. وهما اللذان أرضعتهما «طليا» فلم تُعرف لهما نسبة لغيرها فدعيا طليان أي صغار «طليا» أو لغوياً: صغار الذئبة.

غير أنهم في الغرب لم يفهموا من القصة غير جانبها الخرافي: فاعتقدوا أن التي انتشلتهما وأرضعتهما ذئبة حقيقية، وأن الذي اغتصب أمهما الراهبة هو مارس كوكب المريخ! لنقرأ ما يقوله ول ديورانت: «لكن إيليا رقدت يوماً على شاطىء مجرى ماء، وفتحت صدرها لتتلقى النسيم. واستغرقت في النوم وهي واثقة أكثر مما يجب بطهارة الآلهة والآدميين. وأسر جمالها قلب المريخ Mars فحملت منه بتوأمين. فلما وضعتهما أمر إمليون بإغراقهما، فوضعا فوق رمس، وأشفقت عليهما الأمواج، فحملتهما إلى البر. وأرضعتهما ذئبة دعيت لوفا Lupa، أو في رواية أخرى زوجة راع تدعى «أكّا الأرنتيا» Acca Larentia، ويكنونها «لوبا» لأن حبها عارم كحب الذئاب»[3].

---

(1) فرجيل، الانياذا، ص188 .

(2) المرجع نفسه، ص203,214 .

(3) ول ديورانت، المرجع السابق، ص27 .

وهكذا نرى كيف تتحول الأساطير السورية في الغرب الهمجي آنذاك إلى قصص خرافية، كما اشار فيلون الجبيلي وذكرنا سابقاً.
إن هذا يذكرنا بحادثة أخرى رواها هيرودوت عن نشأة قورش الفارسي. يقول هيرودوت: لما ولد الطفل كوروش لوالديه قمبيز وماندانى أمر الملك ــ خوفاً على ذهاب العرش ــ احد اعوانه بقتل الطفل. لكن هذا، بدلاً من ان يقتله، أرسله إلى احد رعاته في الجبال البعيدة حيث الوحوش الكاسرة. ففرحت زوجة الراعي به لأنها كانت قد ولدت لتوها طفلاً ومات. وكان اسمها «قونو»، فأرضعته، وربته حتى كبر. ثم لما عرف كوروش حقيقة الأمر جاء إلى والديه. «وعندما وصل الغلام إلى بيت قمبيز شاهد والديه اللذين عندما عرفا شخصيته عانقاه بحرارة.. واخبرهما أنه لم يكن يعرف من أمره شيئاً إلى ما قبل ذلك بفترة قصيرة... ثم تحدث عن زوجة الراعي التي ربته، وأفاض في الثناء عليها. فكان يكرر دائماً في حديثه عن نفسه اسم «قونو». كانت «قونو» كل شيء. فلما سمع أبواه الاسم من فمه أذاعا بين الفرس أنه عندما لزم كوروش الجبال أرضعته خنزيرة. هذا هو منشأ تلك الاشاعة»[1].

وللإيضاح إن كلمة «قونويا» في القاموس السرياني تعني: خنزيرة، عنزة. و: يمّوذ قونوي = بحر الخنازير الذي هو بحر الخزر. و«حزر» في القاموس السرياني تعني الخنزير، والخنازير، وهو الآن «خزر».

أما بالنسبة لايطاليا، فقد اعتقد ــ كما رأينا ــ السكان الأصليون أن «طليا» هي ذئبة حقيقية، فصنعوا لها تمثالاً، وبعد عدة قرون اضافوا إليها تمثالين للطفلين التوأمين يرضعان من أثدائها. واعتبر الناس هناك أن جدتهم «ذئبة» وأنهم أبناء الذئبة أي «طليان» ودعيت الأرض مقام الذئبة «إيطَلْيا».

إن كل ما في ايطاليا القديمة من مظاهر حضارية هو من عمل السوريين الذين كانوا أول من عمّر صقلية والمدن الايطالية، ونشروا فيها حضارتهم.
«فالإيطاليون لم يحققوا أي اكتشاف حقيقي. وهم، شأنهم شأن الاغريق، لم

---

(1) أ.ج. إيفانز، هيرودوت، ص55.

يفكروا بابتكار الآلات»[1] وكانت العملة هي السورية: الدرهم الفضي والدينار الذهبي. ثم «الليرا» الفضية، وهي من كلمة «حويرا» أي فضة، بيضاء وقد اختفت منها الحاء كالعادة. ولقد أطلق السوريون اسم «الليّريا» على البلاد التي تدعى اليوم البانيا، أي بلاد الفضة، لأنهم كانوا قد أحدثوا فيها مناجم لاستثمار الفضة بعد أن اكتشفوها بوفرة هناك. ثم إن الدينار والدرهم والليرة بقيت عملة عربية سورية منذ الزمن الذي صكت فيه العملة لأول مرة، وما يزال الدينار والدرهم مستخدمين في بعض أجزاء سوريا، كما ان الليرة بقيت في كل من سوريا ولبنان وإيطاليا، وكان الدرهم والليرة للعملة الفضية أما الدينار فللذهب. والكلمتان عربيتان قديمتان. فالدينار في القاموس السرياني يعني الأصفر، مخ البيضة، والدرهم هو «دْرَكمْا» في القاموس السرياني وقد لطف الفينيقيون الكاف كعادتهم إلى خاء. وفي لهجة «غامد» المندائية لفظ هاء، واستمرت في العربية الحديثة. واللغة العربية القديمة هي لغة السكان الحضاريين في ايطاليا إلى فترة جد متأخرة من ميلاد المسيح المفترض وتغلغلت هذه اللغة حتى في أعماق الريف الايطالي والبلاغة كلها جاءت من «آسيا» وبالتالي بالعربية القديمة[2].

وإن ما تزدهي به روما من تحف كلها مجلوبة من الشرق[3]. وإن الفينيقيين كانوا سادة البحر المتوسط الذين كشفوا واستطلعوا وبنوا وأقاموا المدن والمرافيء وعلّموا الزراعة والتعدين والأبجدية. «وليس من يشك في أن الفينيقيين أطلوا على تلك الأرجاء في أواخر الألف الثاني ق.م سائرين مع الشاطيء يتعرفون على مهل إلى الخلجان والمرافيء يؤمونها ليلاً بعد أن يكونوا قد قطعوا في النهار ما يقرب من أربعين كيلومتراً.. وعلى كل استطاع الفينيقيون بسط نفوذهم على المنطقة والقضاء بالتالي على كل منافس لهم فيها»[4].

---

(1) اندريه إيمار وجانين أبوايه، المرجع السابق، ص175 .

(2) المرجع نفسه، ص251 .

(3) المرجع نفسه، ص225 .

(4) المرجع نفسه، ص40 .

ولن نتحدث عن القبيلة، والجنس، ورابطة الدم، وتفاصيل اللغة والعادات، إذ سوف يكون لها جميعاً حديث مفصل، غير أننا لابدّ من أن نشير إلى ما اعترف به مؤلفا «تاريخ الحضارات العام»، وهما من أشد المؤرخين المتعصبين في كتاباتهم ضد العرب عامة والسوريين خاصة، وهو أن بناء المسرح الحجري نقلته روما عن سوريا وليس العكس. فقد أكدا أن «بومبي شرع في روما بتنظيم ميدان مارس وراء الكابيتول. وبعد عودته من الشرق شيد فيه أول مسرح مبني بالحجر في المدينة»[1].

إن مؤلفيْ الكتاب ـ كما نلاحظ ـ «يغصّان» بالتسمية الحقيقية لأصحاب الحضارة الحقيقيين. ففي الوقت الذي رأينا فيه من قبل اعتراف المؤرخين من مختلف البلدان الأوروبية والنزعات بأن الفرس لم يقدموا شيئاً في القرن السادس الذي استولوا فيه على بابل بانقلاب داخلي دام قرنين فقط استغرقتهما الحروب، نجد هذين المؤلفين «الملتزمين» بالأكذوبة الهندو أوروبية يقرران «أن بناء الأبراج والقلاع والحصون والمعكسرات كان وفقاً لتقنية غدت أعظم مهارة بفضل العلائق بالفرس؟ فاقتبست في الغرب بعض النماذج الشرقية»[2].

هكذا يكتب التاريخ على أيدي بعض المتعصبين والمزورين في الغرب! المهم إلغاء دور العرب عامة والسوريين خاصة. إن هذا هو الثابت المعمّم على الجامعات ويردّده معظم الأساتذة العرب كالببغاوات وقد تتلمذوا على أيدي أولئك المزورين.

لكن باحثاً آخر وفرنسياً أيضاً يضيق ذرعاً بذلك التزوير الذي يطمس كل الحقائق ويجعل من التاريخ علماً واقفاً على رأسه. إنه بيير روسي، لنسمع إلى ما يقوله بيير روسي بهذا الصدد:

«كان الشرق النيلي ـ البابلي، عندما ولدت روما، قد كبر بدون حساب، حاملاً لغته.. حتى الهند والدانوب، مدخلاً في ثقافته مالا يقل عن خمسين مليون إنسان. وإذا ما وضعنا الغرب والشرق في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد

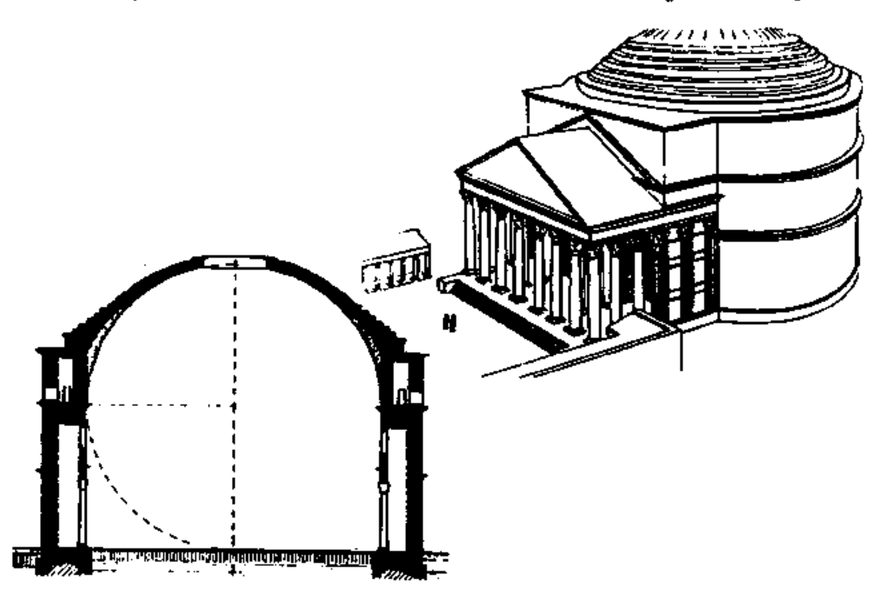
---

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه، ص542 .

في كفتي ميزان فإن علينا أن نظهر كفة الغرب فارغة تقريباً، هذا الغرب الذي تحمله الكفة الشرقية الساحقة، فلم تكن المدينة الرومانية مطوقة من جميع جهاتها بالفتح الآرامي فحسب، ولكنها كانت هي نفسها مشربة بالتقاليد العربية الآسيوية بتأثير أنياس جدها المؤسس، وبالديانة والعقلية الأتروسكية.. وبالتأثير القرطاجي الذي ينفذ حتى الأعماق بدءاً من الضفاف التونسية والجزائرية والليبية، فماذا يمكن أن يكون وزن روما أمام مثل هذا النفوذ، لا شيء يذكر.

«لقد أخذت روما من العمارة الآرامية ذوق المنحني، ومضاعفة القباب، والأقواس الصغيرة الكاملة، وغدت القبة صفة مميزة للمباني العامة، والقبة نصف الكروية البابلية الطابع.. وكان حضور مهندسين معماريين عديدين، ومعلمي بناء مزيني ديكور سوريين إلى روما أمراً مؤكداً منذ وقت مبكر»[3].



معبد البانيثون في روما (بانيثون تعني الكعبة، البنية)، وهو أروع المباني الدينية، صممه وأشرف على تنفيذه المهندس المعماري السوري الشهير ابولودور الدمشقي، وتعتبر قبته اكبر القباب في العالم القديم.

---

(3) بيير روسي، المرجع السابق، ص215،242،199 .

«لقد لاحظ المهندس المعماري حسن فتحي انه «لم تعرف أية عمارة كيف تدعو السماء كما عرفت العمارة العربية». وكان جوستنيان يعتبر كنيسة القديسة صوفيا رائعة حياته والتعبير عن العظمة السورية الآسيوية.

وإن الفن البيزنطي يجسد مقدماً التأمل الإسلامي لأنه فن عربي يعرف أن الأرواح السامية هي الأرواح المتوارية التي تصنع حولها الفراغ لكي تدع روح الله تتنفس بحرية.. لقد كان على القبة التي دفعها السوريون إلى الكمال أن تظهر لأول مرة في أوروبا مع برونوليتش في فلورنسا.. وابتداء من مخازن حبوب رعمسيس... ومروراً بمنازل قرطاجة (وقبة الصخرة)، حتى تنتهي في القصور العربية في غرناطة أو طليطلة، وبمسجد القيروان، وبقصور النورمانديين في باليرمو، وكاتدرائيات البندقية.. يبدو الفن في هذه الأبنية جميعاً واحداً. القبة ملكة، والمثمن منتصر، إننا أمام فن عربي.. وكنيسة القديسة صوفيا تعطينا فكرة تامة عنه. ونقلت صقلية هذا الفن إلى توسكانيا، بينما أدخلته رافينا وفينيقيا (البندقية) إلى ايطاليا اللومباردية.. ثم حمله الصليبيون مرة ثانية إلى فرنسا وبقية أوروبا بشكل كامل»[1].

وواضح هنا أن ما يعنيه بيير روسي: بـ «الآراميين» إنما هم العرب السوريون، بعد أن عمّمت تسمية «الآرامية» من التوراة على سوريا القديمة كلها دون أن يتصدى لتصحيحها أحد. فالآرامية كنسب تقتصر على أبناء آرام بن سام بن نوح، والآرامية كلغة هي العربية السريانية التي كانت وحدها لغة الحضارة في شتى أصقاع الأرض في الزمن القديم في ما دعي فيما بعد بسوريا الطبيعية، وشبه جزيرة العرب، ووادي النيل، والحبشة وفارس والهند، وصعوداً إلى الشواطىء الشمالية للبحر الأسود، كما غطت العربية بلهجتها الغربية الفينيقية حوض المتوسط كله بشاطئيه الشمالي الأوروبي والجنوبي الافريقي وصولاً إلى الشواطىء الأمريكية. وهذا ما كان قد أكده ــ ومررنا على ذكره ــ الأستاذ بيير روسي نفسه.

ويكفي أن نشير أيضاً إلى أن أعظم الأباطرة الذين حكموا روما وبنوا مجدها

---

(1) المرجع نفسه، ص254 .



الامبراطورة السورية جوليا دومنا. و«دومنا» بالعربية القديمة تعني السيدة، النظيرة، المثيلة، نظيرة الربة. عبدها الرومان وحولوها إلى إلهة. وهي بنت كاهن بعل حمص، وزوجة الامبراطور العربي الفينيقي الليبي سبتيموسفيرو.

هم سوريون. فالمؤسسون الأوائل هم سوريون وفينيقيون من شرق المتوسط أو من الشمال الافريقي. والأباطرة المثقفون جميعاً من السوريين: من الانطونيين الأول، إلى الأسرة الحمصية جوليا دومنا، وجيتا، وكركلاً، وجوليا سوميا، جوليا ماميا، هيلا جبال (وجميعهم من حمص)، وجوليا ميزا، وفيليب العربي من شهبا.. وآخرون كثيرون. وإن كتائب الجيش التي كانت تنصب الأباطرة هي من السوريين، وإن سيبيون الفينيقي الافريقي هو الذي هزم أخيراً القائد الفينيقي العظيم هانيبعل في معركة زاما، ثم ظل بعدها ثلاثة عشر عاماً يبكي قرطاجة في عزلته ويتنبأ لروما بمصير مشابه. فالحرب كانت بين السوريين أنفسهم في تنافسهم من أجل السيطرة على التجارة العالمية، وهذا نفسه هو الذي دعا



الامبراطور السوري الفينيقي سبتيمو سفيرو امبراطور روما. وقد أصر أن تكون كلمة «العربي» أحد ألقابه الثلاثة.



الامبراطورة السورية «جوليا سوميا» بنت أخت جوليا دومنا. (متحف الكابيتول. روما)



الامبراطورة السورية «جوليا ماميا» متحف الفاتيكان



الامبراطور السوري «كركلا» (وهي في الأصل «قرقلا» وتعني في القاموس السرياني العباءة الشفافة. اشتهر بها فلقب بها، ثم صارت تقليداً يرتديها الأباطرة على عرش روما من بعده).



الامبراطور السوري فيليب العربي الذي أصر أن يكون «العربي» لقبه الأوحد وهو امبراطور لروما (متحف الفاتيكان)

مـؤرخي ذلك الـزمن إلى تسميـة تلك الحـرب بـالحـرب الفينيقيـة، لأنهـا بين الفينيقيين أنفسهم.

ثم بعد أن اعتنقت روما المسيحية تبوأ كرسي البابوية فيها السوريون واحداً في إثر آخر.

«لقد أبرز لويس برهيه، وبول شيفر بواشورست (في مدونته البيزنطية) منذ فجر القرن العشرين، تأثير الفكر السوري في الغرب. لقد حكم سبعة باباوات عرب على الأقل الكنيسـة الأولية: القديس أنيست (655 – 666) والقديس يوحنا الخـامس (685 – 686)، والقـديس سـرجيـوس الأول (687 – 701)، والقـديس سيسنيوس (708)، والقديس قسطنطين (708 – 715)، والقديس غريغوار الثالث

(731 – 741)، وليون الثالث»[1].

إن الشعب الايطالي الذي تكون فيما بعد تاريخياً هو خليط من العرب السوريين الحضاريين، والهمج سكان البلاد الأصليين، وإن هذا هو ما دعا المؤرخين القدامى في روما إلى القول: «لقد حكم روما جيلان من الأباطرة، جيل من النبلاء المثقفين السوريين وجيل من الهمج اللاتين». وإن الأغلبية الساحقة من كلمات اللغة الايطالية الحديثة هي إمّا ما تزال كما هي في العربية الفينيقية أو محوّرة عنها بعد أن امحّت الأصوات الحلقية واحتفظت الايطالية الحديثة بصوت حلقي واحد هو K، علاوة على ما أحدثته اللاتينية من تغييرات في الأصوات الأساسية وفي الأبجدية مثل ج الذي حولته إلى C وغير ذلك مما كنا قد مررنا على بعضه في بحث اللغة.

إن روما لم تكن إلا إحدى المحطات العربية السورية على طريق الهيمنة على الاقتصاد والتجارة العالميين. والتنافس لم يكن إلا بين الأطراف السورية نفسها: بابل، صور، قرطاجة، أنطاكية، الاسكندرية، فرغام، أوجاريت، طروادة، بيزنطة، كريت..

«لقد انغمرت روما في بحيرة الشرق الإنسانية. إن روما الجمهورية لم تكن في الواقع، حسب تعبير جوفينال من قبل، إلا «حجر سملاة». وكان قصر مجلس الشيوخ فيها قاعة طولها 25 متراً في ثمانية عشر متراً، مقاعدها من الخشب، وفيها سدة للرئيس. ويكاد عدد السكان أن يبلغ فيها خمسين ألف نفس. وكانت الأرياف فارغة تقريباً، لا تتجاوز الأملاك، حسب قول كاتون، خمسين إلى ستين هكتاراً، وبضعة هكتارات لحقول الكرمة، وكانت تقوم بالعمل الثيران أو الحمير. ولم يكن هناك أية مقارنة ممكنة بين الاستثمارات المصرية أو السورية الرافدية الفنية وبين استثمارات روما.

«ويصف تيتي ـ ليوي ـ المزارع الايطالي عاملاً عارياً تقريباً تحت الشمس المحرقة «مستصلحاً صخور وحجاوة الجبال في (السامنيوم)، شارباً في نهاية عمله قليلاً من الخل والماء، إنه عبد وحسب». إننا بحاجة إلى كثير من الخيال أو

---

(1) بيير روسي، المرجع السابق، ص251 – 252 .

الامبراطور السوري «جيتا» ومعنى اسمه بالفينيقية: المنعّم، المرفّه، المدّلل، المفنّق، الجليل، العظيم، وهو ابن جوليا دومنا. المتحف الوطني، روما



الامبراطورة السورية «جوليا ميزا» متحف الكابيتول، روما.



الامبراطور السوري هيليوجبال. وهو الذي وطد الحكم في روما. وحارب برابرة أوروبا في منطقة ما وراء الدانوب وانتصر عليهم، واستعان بأقربائه السوريين في الحكم. وجعل أخاه قائداً على جيوش الشرق. متحف الكابيتول.

من السذاجة لتصديق أنه بمثل هذه الأعمال، وبمثل هذا الاقتصاد المحدّد ببضعة هكتارات من الحنطة الرومية والثوم والبسلية قد وصلت روما إلى السيطرة العالمية..

«وإننا لمزودون بمعلومات تلقيناها من مؤلف لشيشرون عن الحركات المصرفية والاسراع في الاثراء الفاحش الذي حصلت عليه الأسر المشاركة في المصارف الشرقية. فلقد كان الدفاع لصالح حاكم قديم من سوريا... تكشف كم كانت سلطة بعض المصرفيين الشرقيين مخيفة.

«ولقد أعلمتنا دراسات أكثر حداثة أن إميليوس لابيديس (من لبدة في ليبيا) المتوفى سنة 152 قبل الميلاد قد طلب في وصيته ألاّ تتجاوز نفقات جنازته

مليون آس (285 ألف فرنك). وكان دروسوس (الدارس، المعلم) المحامي يملك آنية فضية ثمنها تسعماية ألف من الفرنكات.. وكانت ثروة الممثل إيزوب ستة ملايين.. وثروة ماركوس أنطونيوس (وهو من السلالة الأنطونية السورية) أحد عشر مليوناً.. وكان بالاس (فالاح = الفلاّح) العبد المحرّر المشهور يملك في حسابه 300 مليون من السيتريس (60 مليون فرنك)... ولكن من أين أتت هذه الثروة الكبيرة؟ إنها ليست من المواد الأولية، ولا من الصناعات أو من عمل الرومانيين. بل أتت من الثروة التي تأتي من الخارج لدفع ثمن خدمات، وتقديم هدايا للأشراف الرومان ثمن شراء سلطة تسمح لهم باستيراد منتوجات من إسبانيا.. وبابل وشبه جزيرة العرب، ومصر والسودان أكثر من البلاد التي اتصلت بشبكات رجال المصارف والأعمال من آسيا الذين لم يكن أفراد الأسر في روما سوى موظفين لديهم.

«وهكذا اشترى الشرق روما، إن هذا يعني أن سيادتها لم تكن أكثر من سيادة نظرية غير حقيقية. لقد تحول المجتمع الروماني إلى مستهلك للثروات ولم يكن أكثر من هذا، لأن تدفق النقود العينية مصحوباً بتضخم مدوّخ قد حطم الطبقات العاملة: فلم يكن في روما مكان للصناع والعمال وصغار الصناعيين أو التجار المحليين. أما الزراعة فلم يمارسها البتة سوى العبيد. وكان القمح والنبيذ والملح والجلود وقطعان الماشية، وحتى العسل، مستوردة كلها. لقد حدث في روما ماسبق أن حدث في أثينا: لقد سقط اقتصادها في التبعية الخارجية. إن هذه الاعتبارات ستساعدنا على فهم أفضل لما كانت عليه الديلوماسية الرومانية التي زينوها كثيراً بريش الطاووس.

«وسرعان ما وجدت الفروق مابين روما والاسكندرية وانطاكية.. أوفرغام. فلقد كان الناس يتكلمون في كل هذه المدن اللغة نفسها العامة للجميع.. ويرتدون اللباس نفسه، ويأكلون وجباتهم في المتكآت، كما أنهم كانوا يمارسون العبادات نفسها..

«إن سير السياسة الرومانية الظاهر، كما تعرضه كتبنا المدرسية، ليس إلا انعكاساً لقرارات تتخذ في مكان آخر.. إن روما تحيا، على كل حال، وتفكر، وتعمل ووجهها ملتفت إلى الشرق، فالشرق ينيره ويجذبه إليه..

«إن الجيوش الرومـانية كانت مستعملة كعناصر مأجورة(*) مع قوادها، وقد اعترف بذلك سالوست بدون حياء. وكانت تقاتل للحصول على المال ولغايات انتخابية..

«لقد آزر الذهب والفضة في هذه السعادة. فإلى أي مكان تقود السعادة؟ إلى آسيا، موعد الأمل السامي، ونهاية كل روماني يحترم نفسه. إن الحصول على تقدير آسيا، والسعي للمرحلة إليها للوصول إلى منابع الحضارة وعظمتها والتمتع بالاستقبال في الحفلات الشرقية الشهوانية، والاسهام في جني المعرفة الإنسانية والإلهية.. تلك هي الأحلام.. وبما ان هذا لا يتسنى إلا للأغنياء، وليست آسيا موعودة إلا لهؤلاء الذين يشار إليهم بمجدهم ورصيدهم المالي لذا وجب أن يحصلوا عليها بأية وسيلة.. فماذا منع ماريوس عندما قيمّ نفسه بأموال بوكوس ونصره العسكري؟ لقد رحل إلى آسيا. وماذا فعل ملازمه سيلا الذي يشاركه مصيره؟ لقد ذهب إلى آسيا... ولماذا قام يوليوس قيصر بحملته على بلاد الغال؟ ليستحق آسيا. والتتمة تفهم على هذا الشكل. ليس هناك قنصل أو دكتاتور أو امبراطور روماني قد تخلص من تبعية هذا العمل حتى اليوم الذي استقرت فيه أوضاع روما نهائياً كنهر عاد القهقرى إلى منبعه»[1].

لقد بدأت روما محطة سورية، ومشروعاً منذ البداية للسيطرة على تجارة المتوسط من جهة، ولصد هجمات البرابرة الأوروبيين كالقبائل الجلتية والجرمانية التي لم يكن لها من همّ سوى الغزو والنهب من جهة أخرى. وما أن جاء القرنان الثاني والثالث الميلاديان حتى كانت السيطرة السورية كاملة حكماً، وديانة، ولغة، واقتصاداً، وجيشاً، على الساحة العالمية «لقد حصل استعمار حقيقي لبلاد البحر المتوسط، وخاصة في القرنين الثاني والثالث، من قبل السوريين Syrie، وهو لفظ أطلق على السكان الذين اصلهم من شرقي

(*) لقد قامت روما بدور طيبة المتقدم من ذي قبل في اليونان من أجل صد غزوات برابرة أوروبا عن مواقع السوريين واستثماراتهم التجارية ولو بشكل أكثر اتساعاً. وكما ربّت طيبة حاميات وضعتها عند الدانوب لصد تلك الهجمات وكان منهم فيليب المكدوني وابنه الاسكندر، هكذا فعلت روما فيما بعد، وهذا كان دورها.

(1) بيير روسي، المرجع السابق، ص212 – 218.

المتوسط، وملأت السفن السورية البحر كما في الأيام السالفة. وقد انتعشت الخصائص الفينيقية القديمة، وهي النشاط والتكيف وحب التجارة المربحة، والمقدرة على عقد الصفقات وإتمام العمليات التجارية الكبيرة والصغيرة. وكان السوريون من بين جميع شعوب الامبراطورية أكثرهم نشاطاً في هذه المغامرات التجارية»[1].

«لقد احتكر السوريون التجارة، وكصيارفة لم يكن لهم منافس. وكانت سلعهم الرئيسية تتألف من الخمور والتوابل والحبوب والأواني الزجاجية والمنسوجات والمجوهرات. وكانت بعض هذه السلع تستخدم كنماذج يتعلم أصحاب المهن الوطنيون تقليدها بالتدريج. وحينما كان التجار السوريون يقيمون فهناك كانوا يشيدون معابدهم. فكان بعل غزة يعبد في أوستيا [حوستيا = الطاهرة] وبعل بيروت يعبد حتى اسبانيا.. ووجد في بيتولي بإيطاليا مذابح لآلهة تدمر قدم أحد المصلين عليها جملين من الذهب إلى الرب النبطي ذو الشرى.. كما عثر في روما على كتابات بالآرامية موجهة إلى الآلهة التدمرية»[2].



الرب السوري البعل، وترى رموزه الاخصابية الذي يخصب البيضة، وطائر البوم الذي يرمز إلى الموت والقيامة، إنها دورة الخصب، وقد دونت إلى اليمين من الأسفل إلى الأعلى بالعربية الفينيقية كلمة «بال» (أي بعل باحدى اللهجات التي تلغي العين) وفي الأسفل كلمة «يبعل» أي يابعل.

(1) Arthuer E.R.Boak, AHistory of Rome to 565 A.D. New York, 1930. p.319
و: فيليب حتي، المرجع السابق، ص383 – 384 .

(2) المرجع نفسه، ص384 – 385 .

وإن الأباطرة والمهندسين والمعماريين السوريين هم الذين شادوا كل مازهت به روما فيما بعد وعلى مر العصور. ولو عددنا ما أنجزه المعماري السوري الشهير أبولو دور الدمشقي وحده مع «ورشته» المعمارية التي ذهب بها من سوريا تلبية لنداء الامبراطور لكان كافياً للدلالة على ما قام به السوريون في روما. «إن عدد منجزات أبولو دور هي خمسة عشر على الأقل نذكر منها في روما: السوق على سفح رابية الكورير نيالي، الميدان (الفوروم)، دار العدل الأولبية، المكتبتان، عمود تراجان، حمامات وجمنا زيوم، مؤلف في آلات الحصار أهداه لها دريان، معبد البانثيون، ثم قوس النصر في مدينة بنيغانتوم، قوس النصر في مدينة أنكونا، توسيع مرفأ أوستيا، الجسر العملاق على نهر الدانوب، تجفيف المستنقعات الفونطية..»[1] إلى غير ذلك من الأعمال الأخرى المدنية والعسكرية.

ولم ينس المهندس والعبقري الموسوعي السوري أن يخلدّ أبناء وطنه على عمود تراجان الذي خلّده به. فقد زين العمود بصورة الرماة التدمريين الذين لم تكن لشهرتهم حدود في ذلك الزمن. ولابد أن نذكّر هنا بأن تراجان نفسه يعود في أصله إلى فينيقيي إسبانيا.

لقد انتشرت الحواضر السورية بمظاهرها الاقتصادية والاجتماعية والدينية على طول شاطىء المتوسط، وانبعثت في الداخل الطرق التجارية الرئيسية، ومجاري الأنهار الكبرى، ومن جملة الجزر كانت ديلوس وصقلية مراكز جاليات سورية قوية، ومن الموانيء الايطالية كانت نابولي (نيحابولي = استراحة الأمراء) وأوستيا (حوسيتا= الطاهرة). وقد وصل التجار السوريون عن طريق الدانوب إلى فانونيا Pannonia كما وصلوا عن طريق الرون إلى ليون، وكان لرجال الأعمال السوريين مراكز في اسبانيا، ولكنهم في بلاد الغال كانوا ناشطين بصورة خاصة. وقد اكتشفت في لبنان رسالة تعود إلى أواخر القرن

---

(1) انظر: عدنان البني، ابولودور الدمشقي اعظم معمار في التاريخ القديم، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1990 .

و W.L.M. mac, Donald, The Architecture of the Roman Empire, New Haven and London, 1965,p.129:

الثاني موجهة إلى البحارة في مدينة آلي المكلفين بشحن الحبوب[1]. وتذكر كتابة كتبت بلغتين وجدت على قبر من القرن الثالث في بلاد الغال تاجراً سورياً من قناتا Kanatha كان يملك معملين في حوض الرون حيث كان يستورد البضائع من أكيتانيا[3]، وكان اسمه تيّم Thayym ابن سعد.

أما في مجال الفكر فقد كان كل من عمل وأنتج وأبدع في عهد ما دعي بـ «الامبراطورية الرومانية» من أصل سوري سواء أكان من شرق المتوسط أو من الشمال الافريقي أو من الجزر أو المستوطنات المنتشرة على السواحل أو في الداخل.

نذكر من هؤلاء على سبيل المثال:

الفيلسوف السوري «ملك» وهو من صور، تتلمذ على يد أستاذه السوري لونجين، وهو الذي دعاه فرفريو (أي المزهو، المنعمّ). وقد سكن وعلّم في روما حتى حوالي 405م. كان مؤلفاً خصب الانتاج في الفلسفة، والنحو، والبلاغة، والرياضيات، وعلم النفس، والموسيقى، والنبات. وكان يعتبر الرجل العالم بين الأفلاطونيين.

يمبليخو، الفيلسوف الكوني واللاهوتي من عنجر. ظل مقيماً في سوريا إلى أن توفي حوالي 325 م.

نحومينو الأفامي، عاش في عهد حكم سلالة الأنطونيين السوريين لروما. اعتبر المؤسس الحقيقي للأفلاطونية الحديثة.

إميليو، من أفاميا أيضاً، أسس مركزاً للأفلاطونية الحديثة تحت رعاية زنوبيا ملكة تدمر. وهو من تلاميذ نحومينو (المبعوث، النحمان).

أدريانو. بليغ والفيلسوف، وهو من مدينة صور. هاجر من صور إلى أثينا حيث تبوأ كرسي البلاغة فيها. وفي الخطاب الافتتاحي الذي وجهه إلى الاثينيين أسهب في الكلام ليس عن حكمتهم بل عن حكمته، لأنه بدأ كلامه بقوله: «للمرة

---

(1) J.P. Waltzing. Etude Historique sur les corporations Proffessionnelles, Chex les Romains, Vol, iii (houvain 1988) PP. 526 – 527

(2) Cumont, les Religions orientales dane le paganisme p.100

الثانية تأتي الآداب من فينيقية»[1].

وكان يسميه التلاميذ «الفينيقي» وحاول البعض تقليد لهجته. وعندما كان أدريانو في أثينا قابل ماركو أوريليو الأنطونيني فدعاه في طريق عودته إلى بلاطه في روما.

أنتيباتر، البليغ من منبج الذي امتاز بخطبه المكتوبة والمرتجلة وفي فن كتابة الرسائل، استدعاه سبتيمو سفيرو إلى بلاطه وعينه كاتباً خاصاً له ومعلماً لولديه السوريين اللذين اعتليا عرش روما جيتا وكركلا.

لقيان السميساطي، من مدينة سميساط على الفرات، صاحب كتاب «المحاورات» و«قصة حقيقية» و«الإلهة السورية»، وقد كان يركز دائماً على أصله السوري في كل ما يكتب.

أما في التاريخ فهناك يمبليخو الذي تحدث عن نفسه بأنه سوري الأبوين، وكتب تاريخ بابل؛ وفيلون الجبيلي الذي نقل تاريخ سانخونياتن ودافع ضد التزوير والتشويه لتاريخ السوريين؛ وميناندر اللاذقي الذي دوّن أخبار الفينيقيين وفقد مؤلفه.

وفي الجغرافيا برز على الساحة مارينو من صور الذي زها في منتصف القرن الثاني. «وكان مارينو أول من وضع المصورات المرسومة على أسس رياضية حسب خطوط الطول والعرض بدلاً من تلك التي كانت مبنية على رحلات المسافرين فقط، وفي تعيين خطوط العرض والطول بالنسبة لكل موقع جغرافي.. وبذلك أصبح مؤسس الجغرافيا العلمية، ويستشهد بطليموس بأقواله حتى أنه يعترف بأنه بنى كل مؤلفه على كتابات مارينوس»[2].

وعلى الصعيد الحقوقي كان معهد بيروت للحقوق هو الوحيد في العالم. وكان الحقوقي الشهير بابينيان من حمص مدرساً فيها. استدعاه سبتيمو سفيرو وزوجته جوليا دومنا الحمصية هو وتلميذه الصوري أولبيان إلى البلاط في روما ليكونا مستشاريهما الخاصين، ومعلمين لولديهما الأميرين

---

(1) Philostratus and Eunapius the Lives of the Sophists, London, 1922, p227

(2) فيليب حتي، تاريخ سوريا، الجزء١ ، ص353 – 354 .

الامبراطوريين، وليضعا تشريع روما لأول مرة الذي استمد منه جوستنيان موجزه.

«يقول أحد كبار شارحي القانون في القرن السادس عشر: «إن بابينيان هو أول المحامين الذين وجدوا، والذين سيوجدون، .... لم يتجاوزه أحد قط في المعرفة القانونية ولن يوازيه أحد، وعلمه الذي تسيطر عليه الحصافة الفكرية والنزاهة الأخلاقية قد جعل منه نموذج المحامي الحقيقي»[(1)].

مرة أخرى نقول: إن السلالة الحضارية في ايطاليا عربية سورية. ظلت قروناً منعزلة عن السكان الأصليين ضمن إطار طبقة الأشراف والحكام والمثقفين، ثم، وبالإختلاط والتناسل التدريجيين، تكونت سلالة الطليان. ويؤكد المؤرخون جميعاً، حتى المتعصبون منهم، أن ما تزهو به روما اليوم من تحف وتماثيل وآثار فنية يعود كله إلى شرق المتوسط[(2)]، إلى السوريين تحديداً.

13 . **الكلتيون:**

إن ما عرف بـ«الكلت» أو «السلت» أو «الجالات» قبائل أوروبية همجية شمالية، عرفت بالعيش القائم على الغزو والسلب والنهب، ظلت تهيم قروناً طويلة في انحاء أوروبا دون أن تعرف الاستقرار. ولقد كانت غزوات تلك القبائل الهائمة احد الأسباب الهامة التي دفعت السوريين في اليونان إلى اتخاذ قواعد أو معاقل على نهر الدانوب من أجل صد هجمات تلك القبائل. وهذا ما قامت به مدينة طيبة التي دأبت على تدريب ووضع حاميات في تلك المنطقة كان من بينها فيليب المكدوني وابنه الاسكندر اللذان تربيا في جيش طيبة وتسلّما تلك المهمة. ثم، وبعد أن تسنم السوريون العرش الامبراطوري في روما دابوا على هذا التقليد. وكان سبتيموسفيرو العربي الفينيقي أحد الذين اوكلت إليهم هذه المهمة قبل ان يصعد إلى كرسي الأمبراطور. أما التسمية فهي عربية سورية، وهي في الأصل «جليوت» وتعني النهابين، السلابين، الغزاة، وهي في القاموس

---

(1) فيليب حتي، المرجع السابق، ص361 .

(2) اندريه إيمار وجانين اوابوايه، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص225 .

الســريـاني من الفعل جلـوي= سبي، أجلى، نهب، سلب، فضح، هتك. جلوي= ساب، ناهب، طارد..

ومنه أطلق قدامى السوريين اسم «جاليا» أو «جاليتا» على الأراضي التي كانوا يجوبونها ويتربصون فيها كمنطلق للغزو على الشواطىء الشمالية للمتوسط، وتعني أرض الغزاة أو النهابين، وهي بلاد الغال، أو «غاليا».

ولقد تحولت الجيم (g) في اللاتينية إلى (C) كالعادة، وفي بعض اللغات الأوروبية الأخرى إلى K. يقول مؤلفا «تاريخ الحضارات العام» حول الكلت: «أغاليون هم؟ فالمصطلح الذي وصلنا بالتقليد المتواتر يفتقر للدقة. ففي مصطلح الفتح الروماني أطلق يوليوس قيصر هذه التسمية على فريق من سكان غاليا، احتل رقعة من الأرض تقع بين نهري السين والمارن، من جهة، وبين الغارون والرون من جهة أخرى. وعرفت مقاطعتهم باسم «جالوي» Galoe...

أما الاغريق فقد استعملوا في التعريف بهم كلمة «كلتي» ثم كلمة جالاتي Galate في العهد الهيليني الحديث، تعبيراً منهم عن شعوب وأقوام سكنت مناطق أخرى تمتد من شبه الجزيرة الإيبيرية إلى آسيا الصغرى»[1]. «وهذه التسمية لا يمكن ردها على الإطلاق إلى واقع اثنوجرافي.. وقد صوروا لنا الكلتي فارع القامة، شديد البأس، أزرق العينين، أمغر الشعر أشقره»[2].

أما عن سلوك هذه القبائل الهمجية الأوروبية فيقولان: «وبين غزوات البرابرة ابتداء من مطلع القرن الثالث للميلاد، كانت موجات الكلتيين من أبرز الأحداث البشرية في هذا المجال، ادت إلى نتائج تاريخية غاية في الأهمية، وإن فاتتنا معرفة الكثير منها لعدم توفر المعلومات الخاصة بالوضع السائد قبل وقوعها. فقد جرّت على بعض المناطق تبديلات جذرية، من حيث طبيعة السكان. واغرقت بين لجج موجاتها امبراطوريات، كما الحقت الهوان، وانزلت الضعف والمهانة بالبعض الآخر، من بينها مدنية الأوتروسك مثلاً، فقد شلوا والقوا الرعب في قلب مجتمعات تحضرت منذ عهد بعيد. كما جعلوا الهلع يدب في قلب مدنيات

---

(1) اندريه إيمار وجانين ابوايه، المرجع السابق، ص69 .

(2) المرجع نفسه، ص73 .

بلغت شأواً عالياً من التطور. فالمعلومات المتوفرة لدينا لا تترك مجالاً للشك في مبلغ الخراب الذي انزلوه في إيطاليا والعالم الهليني، فقد كان الشعور العام الذي استحوذ على العالم المتمدن إذ ذاك، ولمدة قصيرة، الشعور نفسه الذي تملكه عندما رأى نفسه وجهاً لوجه أمام غزوات البرابرة التي دكت العالم الروماني. فهل استشعر العالم إذ ذاك أنه أمام كارثة دهماء؟... ومهما يكن، فالصمت الذي تعتصم فيه مصادرنا لا يخولنا الجزم نفياً، أو إثباتاً.. والظاهر أن الأمر نتج في الغالب، ليس عن انتقال شعب أو قبيلة من القبائل الكبرى بأسرها، بل تمّ تباعاً بهجرة جماعات في إثر جماعات هامت على وجهها في شتى المناحي والاتجاهات.. سيان عندهم أزاحوا الجماعات التي سبقتهم لاحتلال المنطقة، أو انتهزوها فرصة سانحة للنهب والسلب. وهمهم الأكبر أن تقودهم خطاهم إلى أراض جديدة يحتلونها ويقيمون فيها، وهم على أتم استعداد لبسط سيطرتهم عليها بحد السيف، ولو اقتضاهم الأمر ذبح السكان. إن هجرة على هذا النحو من الدوران، لاضابط لها ولا وازع، لا يمكن أن تقع تحت مراقبة التاريخ وحصره. إلا أننا نستطيع عن طريق المعلومات المشعّثة التي يمدنا بها علم الأركيولوجيا، وعلم الألسنية، إلى جانب ما سجّله الكتاب القدامى، النتائج التي توصلوا إليها، وهي نتائج تتسم بالعظمة خليقة بالإكبار والتقدير العالي[1]».

إن هذا الذي استعرضناه يؤكد لنا الحقائق التالية:

1 . إن الكلتيين أو «الجلتيين» اقوام من همج أوروبا هائمة على وجوهها، همّها الغزو من أجل النهب والسلب والتدمير.

2 . إن التسمية العربية القديمة «جلويثي» هي الصحيحة والمعبرة عن هذه الأقوام.

3 . إنها، اي هذه الأقوام، وأعمالها، لا يمكن أن تتسم «بالعظمة» ولا يمكن أن تكون «خليقة بالإكبار والتقدير العالي» إلاّ لدى «مؤرخين» مرضى بداء التعصب لأي شيء غربي، حتى ولو كان هذا التعصب للهمجية، والقتل، واكل لحوم البشر،

---

(1) المرجع نفسه، ص73 – 74 .

وتدمير الحضارات! إن هذا يكشف كيف أن أمثال هؤلاء «المؤرخين» مازالوا يحملون ذلك «الجلتي» في أعماقهم حتى اليوم.

4 . إن التسمية، كما هو واضح، وصفية وليست سلالية. وهي تشمل كل تلك الأقوام الهمجية الهائمة على وجهها في أوروبا ذلك الزمن، دون أن تعين جنساً أو عرقاً أو سلالة. وحينما انتقل المركز من روما إلى بيزنطة خلت الساحة لتلكم الأقوام، فتدفقت على الأراضي الأوروبية حتى أقصى الجنوب في ايطاليا، فدمّرت، ونهبت، وكانت أول اتصال جرماني ـ إيطالي الذي ـ في كل الأحوال ـ لا يمتّ إلى الحضارة بصلة.

14 . الاسبان:

إن التسمية ليست تسمية سلالية، بل موضعية للأرض التي تعني: الحدّ، النهاية، التخم. والتسمية عربية فينيقية، وهي في القاموس السرياني من الكلمة «سْفا» وتعني: شفا، حد، تخم، طرف، ساحل، شاطيء، نهاية، كما تعني شفة أيضاً.

فلما كان الفينيقيون يقتصرون في البداية على حوض المتوسط ولا يتجاوزونه إلى المحيط الأطلسي الذي كان مخيفاً مجهولاً لا يقدرون على مغالبته بسفنهم قروناً طويلة، فقد اعتبروا آنذاك أن الشاطيء الاسباني هو نهاية طموحهم في الغرب، فاعتبروه الحدّ الطبيعي لحركتهم، ودعي ذلك الشاطيء الغربي «سفا»، والفاء كانوا يلفظونها P، كما صاروا يطلقون على الفينيقيين الذين شادوا المدن والمرافيء واستقروا هناك إسفان (إسبان، إذ النون للجمع، والفاء تلفظ P، والهمزة أو الهاء للتعريف)، وتعني سكان النهاية، الحافة.

كانت الأرض التي دعيت فيما بعد «إسبانيا» مسرحاً للأقوام الهمجية من سكان الكهوف وآكلة لحوم البشر، مثلها مثل كل البقاع الأوروبية الأخرى، وإن أول شعب متمدن نزل تلك البقاع واستوطن فيها السوريون الفينيقيون. ويبدو أن أولى مدينة أسسها السوريون في تلك البلاد «ترشيش». و«ترشيش» عربية قديمة تعني في القاموس السرياني اليشب، حجر كريم أبيض اللون. وهي غير «ترشيش» التي كانت على ضفة وادي الفرات في شبه جزيرة العرب التي كانت تمدّ سليمان بالذهب والأحجار الكريمة حينما كان «ملكاً» على عشيرة بني إسرائيل هناك. وقد تهدمت هذه المدينة وأقام السوريون على انقاضها مدينة

جادس الشهيرة والباقية حتى اليوم. وقد اختلف في معنى تسميتها.
فبينما تكتب اليوم «جادس» فقد أكد كثير من الباحثين والمؤرخين القدامى أن اسمها الفينيقي القديم كان «جادير» فإن صح هذا، وهو الراجح عموماً، تكون التسمية استنساخاً للمحطة الفينيقية الأخرى «أجادير» في المغرب العربي.
والتسمية هي في القاموس السرياني تعني الذي يجذب ويجرّ ويشدّ ويستحيل ويثير ويفتن، وهي من الفعل «جدر» كما تعني البركة، الغدير، النافورة، إذ هي فعلاً كقلب النافورة المحاط بالماء من كل الجهات.
وأشار إلى هذا المؤرخ بليني Pline فقال: «إن معنى الجادس مكان حصين أو قلعة، وإنها بنيت في مكان ترشيش القديمة»[1].
ويقول فيليب حتي: «وقد اشتق اسم قادس Gades من كلمة فينيقية معناها «جدار»[2]. ويضيف: «كان الفينيقيون يبنون ويؤسسون أينما ذهبوا.. وقد سيطروا بالتدريج كمستعمرين ومنظمين، وأدخلوا النشاط في عالم كان يبدو فيه الجمود ووسعوا آفاقه. وتطورت المراكز التجارية الواحد بعد الآخر إلى مراكز للسكن، وتطورت هذه إلى مستعمرات. واتصلت هذه المستعمرات بعضها ببعض، وبالمدن الأصلية الأم بطرق الملاحة. وانتشرت من شمالي الدلتا المصرية إلى سواحل كيليكيا واليونان وغيرها من بلاد البحر المتوسط. وأسست جادس في اسبانيا وأتيكا في المنطقة المسماة تونس اليوم حوالي عام 1000 ق.م»[3] وبلغ هذا النشاط التأسيسي في غربي البحر المتوسط ذروته، كما يبدو، في منتصف القرنين العاشر والثامن. ويشير نجاحه العظيم إلى وجود طبقة أقدم من المستوطنين العرب السوريين في شمال أفريقيا وفي جنوبي شبه جزيرة إيبيريا. وقد تكون الهجرة التي حملت (العرب السوريين[*])

---

(1) Pline, Vols, IV. p.120

(2) فيليب حتي، المرجع السابق، ص110 .

(3) المرجع نفسه.

(*) اعتاد المؤرخون ومن ينقل عنهم من العرب على استخدام كلمة «الساميين» بدلاً من العرب السوريين حتى ولو كان الحديث يعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد كما هو واضح اعلاه، اي قبل أن يولد سام نفسه بألف سنة!

في الألف الرابع إلى مصر قد استمرت إلى أبعد من ذلك. وهناك ذكريات غامضة لمرويات تجعل العرب القدماء في مناطق غربي البحر المتوسط، واحتفظت بها الكتابات الكلاسيكية والعربية»[1].

لقد أدى تأسيس جادس وراء أعمدة هرقل (وهما الرأسان الصخريان عند مضيق جبل طارق) إلى دخول الفينيقيين إلى المحيط الأطلسي. واسفر ذلك عن اكتشافه بالنسبة للعالم القديم. ويعتبر هذا الاكتشاف على حد تعبير توينبي «من أعظم ما قدمته الحضارة السورية للتقدم العالمي»[2]... ويقول هيرودوت إنه ليس لديه معرفة خاصة بجزر كاسيدير (القصدير) «التي يجلب منها قصديرنا»[3] وهذه الجزر هي جزر سكيلي الواقعة قرب طرف كورنوال البريطانية. ويؤكد سترابو الذي كتب نحو عام 7 ق.م بأن جزر الكسيدير تحوي القصدير والرصاص، وأن السكان يبادلونها بالخزف والملح والأواني النحاسية. وكان الفينيقيون وحدهم في العصور الأولى يقومون بهذه التجارة من جادس ويكتمون الطريق عن الناس. ويضيف سترابو بأن السفن الرومانية مرة تعقبت سفينة فينيقية لكي تجد هي ايضاً تلك الأسواق. ولكن قائد السفينة قذف بسفينته عمداً على اليابسة وقبض من دولته ثمن المحمول الذي فقده. وهذا يشير إلى احتكار حقيقي لتجارة القصدير، وإلى نوع من الضمان من قبل الدولة[4].

أما معنى «جادس» أو «جادش» فهي في القاموس السرياني تعني: السعد، الحظ، البركة، الطائر الميمون. كما تعني السفينة الطويلة العظيمة وفي «محيط المحيط» نجد أن القادس السفينة الطويلة العظيمة. وهذا ما يؤكده شكلها المتطاول في المحيط.

وإلى جانب جادش قامت هناك عدة مدن سورية أخرى توزعت في جنوب شبه جزيرة إيبيريا نذكر منها:

- مالجا، Malga، ويقول المؤرخون «إنها كانت مخصصة لتجفيف الأسماك

---

(1) انظر: فيليب حتي، المرجع نفسه.

(2) A. Toynbee. Astudy of History, vol II, oxford 1954, pp. 50,52,386

(3) Herodot Bk III, Ch.115

(4) Strabo IV, Ch, 45

وتمليحها. وقد قيل إن اسمها هي الأخرى سامي»[1]. والحقيقة هي عربية سورية قديمة، وفي القاموس السرياني من الفعل ملَغ = نزع، جرد، قشر، حلق، قطع الراس. إن هذا هو كل ما يعمل من أجل تحضير وتنظيف السمك فعلاً.

● أبديرا، وهي استنساخ للمدينة في الشمال السوري التي تحمل نفس الاسم.

● قرطاجة، أو قرطاجنة، التي أسسها القائد القرطاجي أسدر بعل (أي فتح الرب البعل).

● وهناك مدن وموانىء ومحطات أخرى كثيرة في جزر البليار مثل «إيبيزا» التي عثر فيها على أحواض قديمة أثرية، وأخرى مخصصة لتجفيف الأسماك وصناعة صباغ الأرجون، كما عثر فيها على معبد للربة تانيت[2].

وفي سردينيا كانت أهم مدينة أسسها السوريون الفينيقيون مدينة «نورا» التي بنيت على شبه جزيرة، وتتمتع بأهم ميناء في الجزيرة على الإطلاق. وقد عثر المنقبون الأثريون في مدينة نورا على بقايا أثرية من بينها نصب تذكاري وجدت عليه كتابة فينيقية، قيل بأنها تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد، واعتبروها معاصرة لبناء مدينة قرطاجة[3]. والحقيقة إن بناء قرطاجة كان قبل ذلك بعدة قرون. وقد عرفنا أن تجديدها في عهد ديدو كان معاصراً للحرب الطروادية التي حدثت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

وإن «قرطبة» هي القرية الطيبة أو مدينة الطوبى، أي النعيم، وغرناطة هي «جرناثا» وتعني الشمس المشرقة، و«ماربيا» هي «مغربية»، وغير ذلك كثير من أسماء المدن والمواقع الكثيرة التي يعتز بها الإسبان والعرب معاً على مر عصور التاريخ.

ومن المعروف أن اسبانيا كانت تحت سيطرة السوريين الفينيقيين الذين كانوا اول من عمرها وأقام فيها المدن. ولقد ضمّها كلها هملقار، والد هنيبعل.

---

(1) محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1979 ، ص 85.

(2) Donald Harden, The Phoenicious, Thames and Hudson, london, 1963, p.63

(3) هشام الصفدي، تاريخ الرومان، دار الفكر الحديث، لبنان، 1967 ، الجزء الأول، ص153 ، حاشية رقم 1 .

وانطلق منها القائد السوري العظيم هانيبعل فيما بعد، وعبر جبال الألب إلى ايطاليا من أجل حسم حدة التنافس والزعامة على احتكار تجارة المتوسط التي استعرت بين السوريين الطروادييين المنحدرين من شمال سوريا وأسسوا قاعدتهم في روما، وبين السوريين الآخرين الذين جعلوا قرطاجة مركزاً للزعامة في الشمال الافريقي دون أن يجرؤ أحد على منازعتها قروناً طويلة.

لقد كانت إسبانيا منذ القدم جزءاً من المشروع العربي السوري القديم بجعل البحر المتوسط بحيرة سورية. ولقد تحقق لهم ذلك في عدة عصور: فقد دعي أولاً بحر أمورو حينما أسس العرب الأموريون (وهم سكان سوريا الغربية) الدولة البابلية بزعامة حمورابي والملوك الذين خلفوه بعده. ثم دعي بالبحر السوري العظيم، وبالبحر الفينيقي، وما أن قامت الدولة العربية الاسلامية حتى هب الخلفاء إلى إعادة تنفيذ هذا المشروع، فانطلقوا من المغرب إلى اسبانيا، وعمّروها سبعة قرون ونيف حتى جعلوا منها منارة لأوروبا كلها، ومنها انطلقوا إلى جنوب فرنسا.

يقول الدكتور يولي بركوفيتش تسيركين في كتابه «الحضارة الفينيقية في إسبانيا»: «لقد وطىء الفينيقيون أرض ترشيش في وقت سابق لبنائهم مستوطناتهم هناك. وهذا ما تشهد عليه رواية ديودوروس [V.35:305] الذي يروي: أن الفينيقيين كانوا يبادلون سلعهم بالفضة التي نقلوها لاحقاً إلى اليونان وآسيا وغيرها من البلدان، حاصلين بذلك على ربح وفير، وقد مارسوا تلك التجارة لفترة طويلة، قاموا بعدها ببناء مستوطناتهم العديدة في صقلية، والجزر القريبة منها. وليبيا (الشمال الافريقي)، وسردينيا، وإيبريا أي إسبانيا. ويصف ديودورس السكان الإسبان المتعاملين مع الفينيقيين بالسذّج لعدم درايتهم بقيمة الفضة.. ويشكل توافر المصنوعات الشرقية الطابع في القسم الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة البيرينه كالخرز الخزفي، والأختام الاسطوانية السورية، وشظايا بيض النعام، والأصنام المصنوعة من عظام فرس النهر دليلاً مادياً على الوجود الفينيقي..

وترجع بداية الاستعمار الفينيقي في إسبانيا، حسب التقليد القديم، إلى الألف الثاني قبل الميلاد. وتعتبر المدينة المسماة «قادس» أقدم المستوطنات الفينيقية

واهمهـا في تلك البـلاد. وقد دعـاهـا الفينيقـون قـادير.. وقد تنـاول كل من ديودوروس، وسترابون، وفيلّي باتروكلي، وبومبونيوس ميلا ظروف وزمـان بنـاء هذه المدينـة. ويـروي ديودوروس [V.20] أن الفينيقيين الذين كـانـوا يمخرون عباب البحار منذ القدم بهدف التجارة أقاموا العديد من المستوطنات في ليبيا والقسم الغربي من أوروبا، وخرجوا إلى ما وراء المضيق، واقاموا عند ضفافه مدينة قادس التي بنوا فيها هيكلاً فخماً لهرقل(*)، إلى جانب معالم أخرى.

ويقـول سترابـون [V,III:5,5] الـذي يستند إلى أقوال أهل قـادس، إن وسيط الوحي أمر الصوريين بأقامة مستوطنة عند أبواب المضيق..

ويـؤرخ فيلي بـاتروكلي، وميلا Mela تـأسيس قـادس على الشكل التـالي: يذكر الأول بأنه في العام الثمانين على سقوط طروادة اقام الأسطول الصوري (او السوري) الأقوى في البحر، مدينة في آخر الدنيا، في اسبانيا(**)، على جزيرة يلفها المحيط هي مدينة قادس [Vel. Pat. 1,2]... وقد دّون «ميلا» المولود هناك بالقرب من قادس أخبار التقليد المحلي، وتتيح لنا طريقة إيلائه الاهتمام للمعبد

(*) هرقل اسم سوري واحد الآباء السوريين المعظمين. وقد كتب عنه هيرودوت يقول: «لما كنت أرغب في معرفة معلومات أوضح بشأن هذه الموضوعات على قدر المستطاع، أبحرت لذلك إلى صور فينيقيا ذلك لأني سمعت بوجود معبد مقدس لهرقل هناك. ولاحظت ان هذا المعبد قد زينته نصب كثيرة، ومن بينها عمودان، أحدهما من الذهب المصقول، والآخر من حجر الزمرد الذي يلمع في الليل بشكل غير مالوف، واثناء حديثي مع كهنة المعبد سألتهم منذ متى اقيم المعبد عندهم، فوجدت انه لا يتفقون ايضاً مع اليونانيين إذ قالوا إن هذا المعبد قد بني في نفس الوقت الذي اسست فيه صور، وانه قد مرّ على سكناهم بالمدينة الفان وثلاثمائة عام، ولقد رايت في صور معبداً لهرقل يسمى الثاسوس، وذهبت بالفعل إلى ثاسوس حيث وجدت معبداً لهرقل بناه الفينيقيون الذين اسسوا ثاسوس اثناء تجوالهم للبحث عن اوروبا. كان ذلك قبل خمسة اجيال من ميلاد هرقل بن امفيتريون (حفيد قدموس الصوري في طيبة) في بلاد اليونان». [هيرودوت يتحدث عن مصر، ص140 - 141]. إن في هذا دليلاً لا يمكن دحضه على ان «هرقل» اصلاً، واسماً، ومعبداً، وتقديساً، واعمدة في فم المحيط يعود إلى اصل سوري.

(**) وهذا دليل على معنى اسم «اسبانيا» المشتق من اسبا (اسفا) اي الآخر، الحافة، الطرف كما ذكرنا سابقاً.

بشكل أساسي القول بأن كهنة قادس كانوا مصدر معلوماته»[1].

«وقد عرف في اسبانيا نوعان من المعابد الشبيهة بتلك التي كانت قائمة في الوطن الأم: النوع الأول ــ الهياكل العادية، والثاني ــ المعابد المغاور، وهي الأقدم. وقد وصلنا ذكر معابد: ملقارت، وعشتار، وبعل ــ حمون في قادس أو بالقرب منها. وبعل حمون في مالاجا. وفي قرطاجة الجديدة، وأشمون وفي عاصمة البرقيين أيضاً. أما المعابد المغاور فكانت مازالت مرتبطة بالربة الأنثى فقط: عشتروت ــ قبالة قادس؛ وتينيت ــ بالقرب من قادس»[2].

«أما عن الكهنة في المدن الفينيقية في اسبانيا فلا نعرف سوى القليل القليل. ويعود هذا القليل بكامله تقريباً إلى كهنة ملقارت في قادس. مرة واحدة فقط اتى أعرق نقش في اسبانيا على ذكر كهنة عشتروت. ويروي سيليوس إتياليك أن الكهنة في المدن الفينيقية في اسبانيا كانوا يعيشون منفصلين عن سائر سكان المدينة، ويشكلون فئة مميزة»[3]. «ونرى أن المدافن في إسبانيا كانت تبنى عادة وفق القواعد العامة التي كان يتبعها الفينيقيون في الوطن الأم»[4].

أما عن الآثار الفنية والدينية «فإن إلهة الخصب ــ الأم السورية العظيمة ــ التي تظهر صورها في فن النحت الاسباني، وفي فن الرسم على الأواني في المشرق الاسباني، كانت تحتل مكانة رفيعة في البنيثون الترشيشي ــ الايبيري. وما عثر عليه في الدفائن والمدافن من تماثيل صغيرة شرقية (فينيقية وصلتنا من خلال الفينيقيين) كان يمثل هذه الإلهة أيضاً... وإلى هذه النماذج يجب أن ننسب تماثيل عشتروت البرونزية في كارامبولو.. وتظهر على أواني الجنوب الشرقي هيئة امرأة مجنحة برفقة حمائم أو أحصنة.. وقد عثر في المدافن الاسبانية على كميات كبيرة من تمائم مختلفة منها ما هو فينيقي ومنها ما هو تقليد عن الفينيقيين... وقد كان للأختام معنى الحرز، من بينها، مثلاً، الختم الذي عثر

---

(1) يولي بركوفتيش تسيركين، الحضارة الفينقية في إسبانيا، ترجمة الدكتور يوسف ابي فاضل، بيروت، 1987 ، ص41 – 43 .

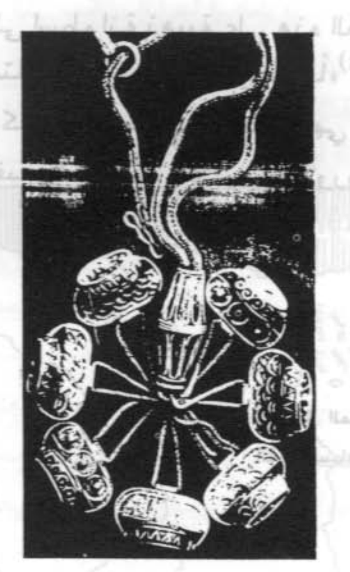
(2) المرجع نفسه، ص128 .

(3) ص128 – 129 .

(4) ص130 – 131 .



خارطة تبين اهم مواقع التواجد السوري (الفينيقي) في اسبانيا
من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس قبل الميلاد



عقد ذهبي سوري من كارامبولو (كرم الأمير) القرن السادس قبل الميلاد
متحف الآثار في سيفيليا بإسبانيا

عليه في كنز إليسار ويحمل الرسوم التالية: شجرة الحياة، وطائر الفينيق (وكان يسمى أيضاً «جريفون» أي الطائر، وهي في القاموس السرياني من الفعل جرف = حلّق، ارتفع الطائر، غرق، غار في الماء أو الذنوب)، شجرة نخيل، وإلى جانبها إلهان وصقر «حورا» (الحُرّ = الصقر)»[1].

«ويعتبر تمثال عشتار الصغير.. أقدم منحوتة فينيقية تم العثور عليها في شبه جزيرة البيرينه. وتؤكد الكتابات المنقوشة على قاعدتها مصدرها الفينيقي. وقد اكتشف هذا التمثال على هضبة كارامبولو المشهورة بكنزها الذائع الصيت»[2]. «وقد نشر المستعمرون السوريون عبادة هذه الإلهة في جميع أنحاء منطقة المتوسط. ففي قبرص ومالطا وصقلية وساردينيا شواهد على شيوع هذه العبادة ويشهد النقش الذي اكتشف منذ فترة قريبة في مدينة بيرجا

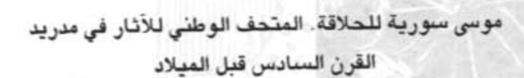
(1) المرجع نفسه، ص140 .

(2) المرجع نفسه، ص146 .

الأترورية والمثبت على اسطوانة ذهبية على هذه العبادة لعشتار. وبطبيعة الحال كانت عبادة عشتار منتشرة في اسبانيا أيضاً»[1].

أما اللغة والكتابة التي كانت مستعملة في اسبانيا فهي «الفينيقية التي أصبحت أساساً للأبجدية السلافية والسيريلية واللاتينية والأوروبية الغربية»[2].





موسى سورية للحلاقة. المتحف الوطني للآثار في مدريد
القرن السادس قبل الميلاد



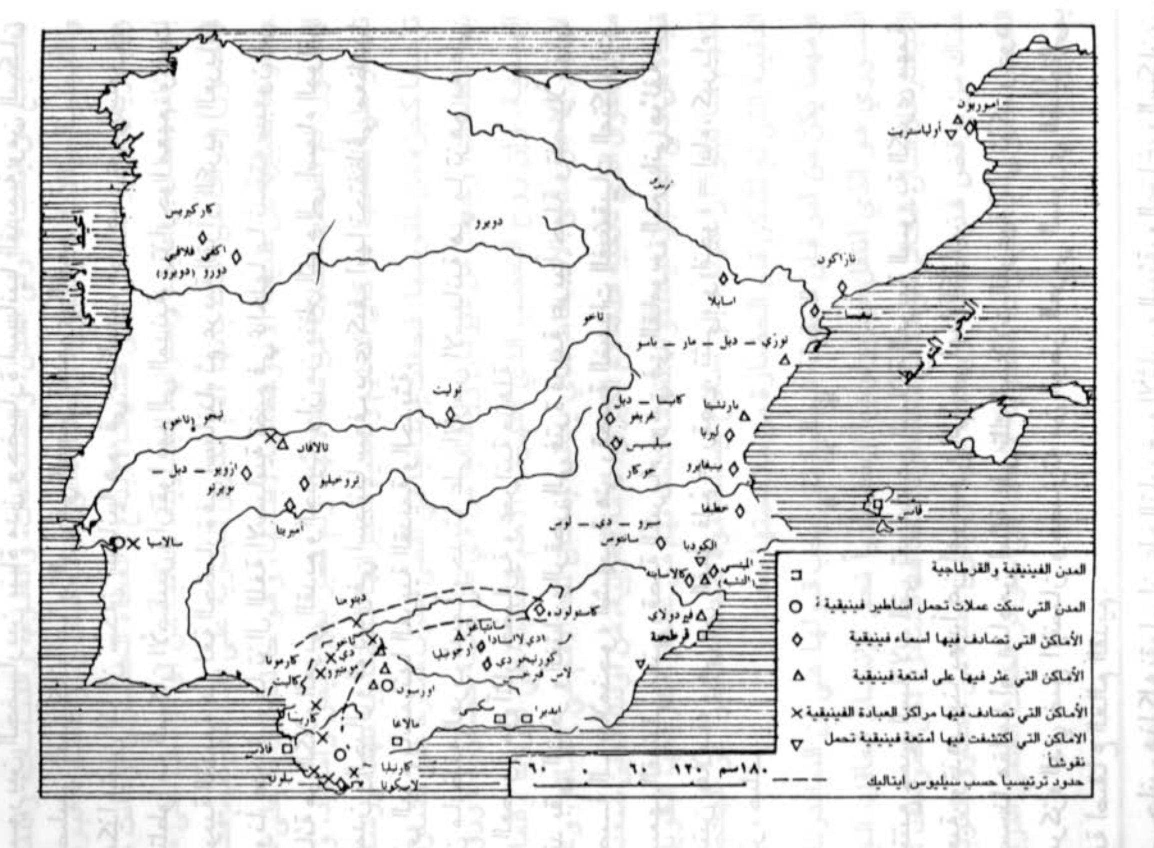


من الآثار السورية المكتشفة في اسبانيا. القرن السادس قبل الميلاد

---

(1) المرجع السابق، ص120 .

(2) المرجع السابق، ص197 .



خارطة الحضارة السورية (الفينيقية) في اسبانيا

العهد الذي دعي بـ «الروماني»

تلكم كانت بعض الشواهد التي يمكن، إذا ما استطردنا خلفها، أن تؤلف كتاباً مستقلاً. لكن حسبنا هنا ما يتأكد للباحث والمؤرخ وللقارىء العادي من خلاله أن «السلالة» الاسبانية إن صحت تسميتها بـ «السلالة» إنما هي مزيج من السوريين الحضاريين بناة مدن وحضارة اسبانيا القديمة ومن السكان الأصليين الذين كانوا ما يزالون في العصر الحجري القديم.

وهكذا يتبين لنا أن سكان إسبانيا هم، في معظمهم، من أصل عربي سوري، اختلطوا مع السكان الأصليين وارتقوا بهم إلى المدنية، وتزاوجوا معهم، وبقيت العربية القديمة هي لغة الحضارة في اسبانيا، ثم عربية القرآن الكريم (العرباء) قروناً عديدة. وما تزال اللغة الاسبانية تضم في داخلها ما نسبته سبعون في المائة من الكلام العربي القديم والحديث. وإن من ينظر اليوم إلى أسماء المواقع والمدن والجبال والوديان في اسبانيا سوف يرى كيف أنها تحتفظ في معظمها حتى اليوم بأسمائها العربية القديمة والحديثة.

وإن ما خلفه العرب قديماً وحديثاً على الأرض الاسبانية هي ما تزهو به على مرّ العصور من آثار حضارية وعمرانية مذهلة.

ولقد بقي الشعر والغناء والرقص إلى فترة قريبة عربياً جملة وتفصيلاً. وإن رقصة الـ «فلامنجو» الشهيرة هي رقصة السيدات الفينيقيات المتكبرات. واسمها الفينيقي يعني رقصة الكبرياء. وهي في القاموس السرياني مؤلفة من كلمتين «فلاما» وهي من الفعل فلمْ = رقص، تثنى، و«انجو» = إباء، كبرياء، تكبّر، صلف.

* * *

إن تتبع جميع السلالات التي تفرعت عن السلالة العربية السورية الكبرى مهمة صعبة، وتذهب بنا بعيداً عن الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب.

وحسبنا هنا ما أوردناه من أمثلة على تلك السلالات الفرعية التي تؤكد وجود «المركز» الذي ضخ الإنسان وحضارته من الوطن العربي السوري القديم إلى كافة أصقاع العالم القديم.

وإلى جانب هذا كله نقول: إن علم التاريخ، والآثار، والبيئة، والمناخ، والسكان،

واللغات، وغيرها من العلوم المساعدة الأخرى، قد اكدت جميعها ان الأرض العربية هي مهد الإنسان الأول، فيها انجز أولى تجمعاته، وإبداعاته، من صناعة الأدوات الأولى، إلى أول ثورة زراعية في العالم وتدجين الحيوان، وما استتبع من إنشاء أولى المدن، والصناعات، والعلوم، والديانات، واللغة، والأبجدية، والآداب، والفنون، والعمارة، وركوب البحار، والتجارة البرية والبحرية.. وغير ذلك من شتى صنوف الابداع والعطاء الحضاري. وكانت كل إنجازاته عطاء وتعليماً رسولياً للبشرية، خالياً من أي تعصب على مرّ العصور، إدراكاً من امتنا بأنها الأم الكبرى للبشرية على هذا الكوكب، فكان عطاؤها تعبيراً عن طبيعة الأم وعطائها لأبنائها، وهو ما انفردت به على مرّ العصور. لم تضطهد سلالة من سلالاتها، ولم تميز بين أبيض واسود، ولم تحتكر علماً لنفسها، بل كان التعليم وتعميم منجزاتها الحضارية مهمة ورسالة تؤديها كجزء من طقوسها. فجعلت إسبانيا في اقصى الغرب منارة على مشارف بحر الظلمات، وجعلت من اليونان وإيطاليا من ذي قبل واحة حضارية لأوروبا الهمجية. وإن روح التعصب الذي أظهرته الأمم الحديثة في أوروبا والعالم لايعبّر إلا عن مدى الانحطاط الذي يعانيه إنسان تلك الأمم في أعماقه، وعن مدى العقوق الذي تلاقيه هذه الأم الكبرى، الأمة العربية، من أولئك الذين صعدوا فجأة من قاع الهمجية ليمتلكوا أعنة ما قدمته لهم من عصارة تاريخها الطويل، لكنهم ما لبثوا أن حولوه إلى سلاح ليستخدموه ضدها، تعبيراً عن الهمجية الدفينة التي لم تتمكن قيم الحضارة من ملامستها بعد.

«ومهما يكن من أمر فإن الحقيقة الحالية التي يجب قبولها هي أن النياندرتال السوري هو الذي انتقل فيزيولوجياً وحضارياً نحو الإنسان العاقل، الجد المباشر للإنسان الحالي، وصانع الحضارة بمعناها الشامل. لكن المؤسف أن هناك من يرفض هذه الحقيقة ويصعب عليه أن يكون أصله من المشرق العربي القديم، مدفوعاً باعتبارات عنصرية لا تمت إلى جوهر البحث العلمي النزيه بصلة»[1].

---

(1) سلطان محيسن، المرجع السابق، ص61 .

يقول الباحث الفرنسي بيير روسي حول تركيز الغرب على إبراز السلالات الفرعية للشعب العربي السوري: «إنه هوسنا المحب للخصام هو الذي فرق الشعب إلى شعوب اقرباء كالمؤابين، والعموريين، والكنعانيين، والآراميين، والسوريين.. الخ، ولماذا؟ لأننا نتقصد ان نميز فيهم خصوصيات عرقية أو طائفية تجبرنا على ان نضع بينها العبرانيين، وذلك لكي نقدّم الدليل بكل ثمن على صحة العهد القديم»[1].

إن كل علم هو شرقي، «وكل علم شرقي هو علم تطبيقي. وهو، في اتصاله العميق بالطبيعة الحساسة والمتينة، يدرس السماء والأرض لغايات عملية»[2].

«والحقيقة تجبرنا على القول إن الرياضيين الاغريق الذين وصلتنا أسماؤهم كانوا جميعاً ودون استثناء من أصل عربي»[3]. «وإن اللقى التي قدمتها لنا الحفريات الأثرية التي كشفت لنا ان سارجون الأول الذي يؤرخ حكمه في سنة 3800 ق.م قد انشأ مكتبة فلكية. لقد عرفت بابل منذ زمن موغل في القدم قانون الاعتدالين الربيعي والخريفي، ودائرة الخسوف القمري، ووضع النجوم الثابتة، والسنة ذات الـ 365 يوماً وربع اليوم. كذلك عرفت نظام التعداد الذي كان قد اسس على الهندستين المنحنية والخطية، لأنه كان يوجد، إضافة إلى نظام الحساب العشري، والاثني عشري، مجموعة الستين دقيقة، والدائرة المقسمة إلى 360 درجة، والدرجة إلى 60 ساعة، وهكذا....[4]».

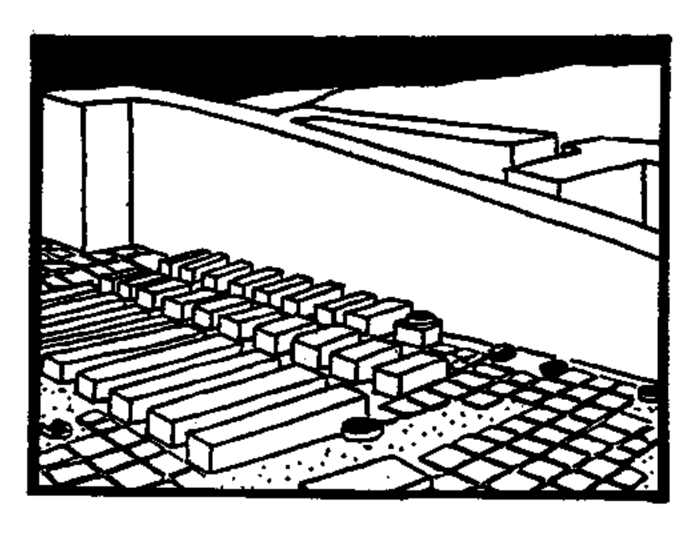
وفي مجال السياسة والقانون فمن المؤكد أن المصريين والسوريين «كانوا اساتذة المدينة الاغريقية ـ الرومانية، واساتذة مدينتنا بالتالي... فالعربي فقيه قانوني منذ ولادته، وهو يفهم بحذر شديد نص البرهان والحذر الدستوري»[5]. «وإن مصر وسوريا قد برعتا في خمسة ميادين على الأقل فارضة فيها عبقرية تقنية لم تتعادل حتى اليوم: التعدين، والصياغة، والزجاجيات، وقطع الحجر، والنسيج»[6].

«إن المسافر المنطلق من ضفاف الفرات أو النيل لا يشعر بالغربة عندما يصل

---

(1) بيير روسي، المرجع السابق، ص65 .

(2)،(3)،(4)،(5)،(6) المرجع نفسه ص152,156,146,151,145.



صورة لمدرسة في ماري في سوريا. تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد

إلى روما. لقد كانت المساكن الخاصة منقولة حسب الطراز التقليدي السوري (الآرامي)... إن عربي القرن العشرين سيجد بالطبع منزلاً رومانياً حسب ذوقه في عصر القياصرة، لأن المنازل كانت سورية الطابع بناء وأثاثاً. وكان حضور مهندسين معماريين عديدين ومعلمي بناء ومزيني ديكور سوريين إلى روما أمراً مؤكداً منذ زمن مبكر»[1].

«لقد عاشت قروننا الوسطى وكلها رغبة في عزاء، وأبصارها متلفتة نحو الشرق الذي انتهى بأن اتخذ في عقلها صفة أسطورية مانوية. ولم تكن الشعوب الشرقية من جانبها ـ على الرغم من أنها غالباً ما كانت مستثارة وحائرة من موقف أوروبا تجاهها ـ لم تكن لتستسلم لفكرة اعتبار أوروبيي المتوسط غرباء، وهم الذين ترى فيهم إخوة التاريخ والثقافة. وإنه لصحيح، انه لا الحروب ولا الاذلالات، ولا منازعات الدول قد قطعت يوماً هذه الصلات الأخوية، إذ انه لم ينقطع تيار حيّ آت من الشرق، وفي أية لحظة يسكب في الغرب وفرة

(1) المصدر نفسه، ص215 .

في الفن وتـأمـلات خلاقة. لقد بقينا عرباً في إيماننا، مثلما نحن غربيون في شكوكنا..

«فأمـام فكرنـا المستبدل والمغلوط، وأمام الأفكار الآلية التي تسكننا، وأمام إحساسنا المحتضر.. أما ذلك كله، يبدو من المؤكد أن الشرق هو الذي يقدم لنا الارتقاء الصعب نحو البعث»[1].

«أجل، نحن أبناء آسيا، وأبناء العروبة النيلية ـ الرافدية، أجل، نحن أولئك في الحقيقة، وهذا هو مجموع الوصية التي ينبغي أن نطالب بها»[2].

إن نظرة واحدة على مجمل هذا التراث العربي يؤكد الحقيقة القائلة بأنه هو والتعصب ضدان لم يجتمعا مرة واحدة. وأن العرب لم يعرفوا التعصب إلا وافداً من الخارج سـواء أكـان عرقياً، أو سياسيـاً، أو دينيـاً. وإن كل الرسـالات التعليميـة التي أبلغتها الأمة العربية للبشـرية، كانت في جوهرها، وتعاليمها، وممارساتها، رسالات قيمية عالمية إنسانية نبيلة.

﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نـؤمن ببعض ونكفـر ببعض ويـريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهينا﴾[3].

فقد أكد التراث العربي على أن الاسلام هو دين التوحيد، وهو «فطرة الله التي فطر الناس عليها» وهو يعني أن يسلم الإنسـان وجهه لله الواحد دون أن يشرك به. وأركانه هي الإيمان بالله الواحد وبملائكته وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر. فآدم كان مسلماً موحداً، وإدريس، ونوح كانا مسلمين قبل إبراهيم بعدة آلاف من السنين ﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت... فإن توليتم فما سألتكم من أجر إنْ أجري إلا على الله وأُمرت أن أكون من المسلمين﴾[4]. والإيمـان بـالانبيـاء والـرسل جميعاً أحد أركان الاسلام، ومن يؤمن ببعض ويكفر ببعض فليس مسلماً. ذاكم

---

(1) المرجع نفسه، ص267 – 268.

(2) المرجع نفسه، ص28.

(3) سورة النساء 150 – 151.

(4) سورة يونس 71 – 72.

هو التراث العربي الذي تربّى عليه وحفظه أبناء الأمة العربية جيلاً بعد جيل.

وفي الوقت الذي أجمع فيه التراث العربي على وحدة الإنسان والفكر والدين، وعلى وحدة مصدرها جميعاً، نرى الصورة خارج الوطن العربي، ولاسيما في الغرب، وقد انقلبت رأساً على عقب منذ بدء عصر النهضة وحتى اليوم.

إن ظاهرة التعصب التي أصبحت اليوم هي المهيمنة في عملية كتابة التاريخ قد انبثقت ثم نمت وتضخمت على أساس الجهل بتاريخ الإنسان الحقيقي وبوحدة هذا التاريخ وليس العكس.

لقد رأينا كيف أن كل الشواهد الآثارية، وكل معطيات العلوم الأخرى المساعدة لعلم التاريخ أكدت، وتؤكد كل يوم، على وحدة الجنس البشري ووحدة حضارته، وعلى وجود مركز هو الذي قام بعملية ضخ الإنسان وحضارته عبر الأحقاب المديدة في كل الأنحاء، وأن هذا المركز هو في قلب الوطن العربي. ثم جاء العلم المعاصر ليؤكد صحة هذه النظرة التراثية العربية «كلكلم لآدم وآدم من تراب». وإن هذا من شأنه أن يزيل من الوجود أية نظرة تعصبية إلى التاريخ، سواء أكانت قائمة على أساس عرقي أو ديني أو سياسي. إن العلم والتعصب ضدان لا يمكن أن يجتمعا في رأس واحدة. وإن الحقيقة التاريخية العلمية المؤكدة بالشواهد والوثائق والبراهين هي التي ينبغي لها وحدها أن تقود كل الباحثين والمؤرخين في العالم، وهي وحدها القادرة على ترسيخ وحدة الإنسانية، وإقامة نظام عالمي إنساني بحق، لا نظام وحوش الغابة.

إن التاريخ العربي منذ أن وجد آدم الإنسان العاقل الأول يتلخص بهذه الرسالة التعليمية العالمية التي لم تنقطع. وإن المؤرخين العرب، الذين هم أول من كتب التاريخ وجعلوا منه علماً، كانوا هم وحدهم الذين استوعبوا هذه الحقيقة.. الرسالة، ووضعوها نصب أعينهم، فكانت كتابتهم للتاريخ منذ البداية تعتمد هذا المبدأ في وحدة الأصل. فكانوا يعمدون دائماً إلى بدء كتابة التاريخ منذ قصة الخليقة الأولى، هذه القصة التي صارت ركناً أساسياً في الاحتفال بأعظم أعيادهم منذ الزمن الموغل في القدم وحتى اليوم. ثم صار هذا النهج في كتابة التاريخ تقليداً لم يشذ عنه أحد منهم سواء من كان داخل الوطن العربي أو خارجه ممن صاروا يدعون اليوم إغريقيين.

بيد أنه ما أن خرجت عملية كتابة التاريخ من أيديهم حتى تحولت إلى أشياء أخرى لا تمت إلى الحقيقة والعلم. فقد خضعت إلى كل ما أفرزته عصور الهمجية الأوروبية حتى نهاية العصور الوسطى، وقد سخّرت لظاهرة التعصب بكل أنواعه: العرقي، والديني والسياسي، فخرج كتاب التاريخ البشري في المحصلة كتاباً مزوراً، فاسداً، أشوه، متناقضاً، لا يمتّ إلى الحقيقة بأية صلة.

ونحن لو استعرضنا بعض صفحات التاريخ الحقيقي لوجدنا أن العرب، والسوريين منهم تحديداً، كانوا أول من كرّس فكرة الوحدة الإنسانية و«العالمية»، عالمية الإنسان وحضارته بشقيها الروحي والمادي على السواء.

لقد تحدثنا في الحلقات السابقة مافيه الكفاية عمّا قدمه هذا «المركز» للإنسانية كلها. لكن دور العرب السوريين في ضخ تعليمهم العالمي لم يكن ينطلق دائماً من المركز، بل كثيراً ما أوجدوا مراكز كثيرة أخرى سرعان ما تتحول إلى مراكز إشعاعية جديدة، وأكبر الشواهد على ذلك ما أنجزه السوريون في روما وإسبانيا، في الاسكندرية وفرغام.

فمنذ أن أسس السوريون الدولة الرومانية التي دعيت نسبة إلى المدينة «روما» وليس نسبة إلى عرق أو جنس، ثم حكمها الأباطرة السوريون واحداً في إثر آخر سواء من أسرة الأنطونيين أو من أسرة السفيريين الحماصنة، السبعة، تحولت روما إلى مركز للفكر السوري العالمي. إنهم لم ينتزّوا إيطاليا الفقيرة لينقلوها إلى موطنهم الأصلي كما فعلت الدول الأوروبية بعد نهضتها، بل حولوا قنوات الثقافة والحضارة من سوريا، التي كانت زاخرة بكل شيء، إلى روما، حتى قال فليني قولته الشهيرة: «إن نهر العاصي ليصب في التيبر» ويحدثنا جول فري تورتون في كتابه: «أميرات سوريات حكمن روما» كيف أن الأمبراطورة السورية جوليا دومنا أدنت إلى بلاطها الأدباء والفلاسفة والمثقفين والحقوقيين وجميعهم من أصل سوري. وكانت تشاركهم في وضع المؤلفات وتناقشهم فيها. ومن بين هؤلاء فيلوستراتو الذي وضع كتاب «حياة أبوللونيو» وهو مفكر سوري آخر. ويقول: «ومع أن وفاة جوليا حدثت قبل إنهاء الكتاب ونشره، إلا أن فيلوستراتو يصرّح أن ذلك الكتاب قد كتب بالتشاور معها، وقد حاز على رضاها وتشجيعها. وهذا الكتاب يعوّض عن افتقاره

للقيمة الأدبية بما يقدم من ومضات لا توجد في أي مكان آخر إلا في عقل امرأة لعبت دوراً بارزاً في فترة حاسمة من التاريخ الروماني، والتي كانت مجهوداتها، لو قدّر لها النجاح، ستعمل على إحراز الوحدة والاتحاد الديني في جميع أنحاء الامبراطورية... فلم تكن هي مسيحية بنفسها، فقد حدثت بعض الاضطهادات للمسيحيين زمن زوجها كانت نتيجة لنشوء شعور من الحقد لدى بعض الضباط في الولايات، والذين لم يرغب الامبراطور، أو لم يستطع، كبحها، ولكن هذا الحقد لم يكن موجوداً لدى جوليا. فقد كانت المربيّة التي استخدمتها في لوجدونيوم لتربية ابنها الأكبر أول مسيحية تبعها الكثيرون من المسيحيين الذين أدخلتهم في خدمتها.. والحقيقة أنه لم يكن من الموافق لطباعها وأخلاقها، وهي ذات الأفكار والذهن المتوقد والمنفتح لمعرفة كل جديد، إلاّ تدرس التعاليم المسيحية وتختار منها ما يلائمها»[1] وكان بين الأشخاص المتعلمين الذين كانوا يؤمون البلاط الامبراطوري المحامون. فمنذ أن اسس السوريون الامبراطورية الرومانية اتبعوا عادة تعيين عدد مناسب من المختصين بالقانون من أساتذة وخريجي معهد الحقوق في بيروت الذي كان الوحيد من نوعه في العالم في ذلك الزمن. لقد جاءت جوليا بـ «فافنيان» (تلفظ الفاء P) وهو ابن عمها وأحد أصدقائها الخلصاء والأستاذ في معهد الحقوق ببيروت، وبتلميذه أولفيان الأقل شهرة منه، وكلفتهما بوضع التشريع الروماني لأول مرة في التاريخ: «وبعد زمن طويل جمعت هذه القوانين في زمن جوستنيان وعرفت باسم المختارات من القانون الروماني»[2]، وقد استمدت أوروبا كلها قوانينها من تلك القوانين التي وضعها ذانك الحقوقيان السوريان اللذان جعلتهما جوليا مستشارين لها في القصر الامبراطوري.

والذي يهمنا هنا هو ما يعترف به الباحثون الموضوعيون في الغرب اليوم إذ يؤكدون أن هذين السوريين «وضعا البصمات الإنسانية على القانون الروماني... وقد عملت الأفكار الجديدة التي قدماها على حماية المظلومين

---

(1) جود فري تورتون، أميرات سوريات، حكمت روما، ص91 – 92 .

(2) المرجع نفسه، ص97 .

والضحايا من الظلم والاستبداد، وعلى تقييد سلطة الوالد على ابنائه، وعلى تقيد سلطة السيد على حياة وأملاك عبيده، وعلى تقييد السلطة المركزية على الولايات. وقد تمّ ذلك التغيير بواسطة تشاريع جديدة بدلاً من إعادة تفسير القوانين القديمة، وبذلك حصل تعديل جذري لتلك القوانين على ضوء العدل والمساواة. ففي هذا العصر من أواخر الامبراطورية الرومانية (عصر الأباطرة السوريين من حمص وشهبا) أصبحت القيم الإنسانية والشعور الشخصي يتمتعان باعتبار عظيم يزيد عما كان عليه الحال في أي زمن من أزمنة العالم القديم والتاريخ القديم..

«ولإن حصة الأسد في الفضل ترجع إلى الدور الذي لعبته الأوجستا جوليا في هذا المضمار بذلك التشجيع الذي أظهرته للرجال الموهوبين وتمتعها بصحبتهم»[1].

ومن ناحية أخرى «فلقد كانت التقاليد الرومانية تلزم سيادة الذكور على الإناث حتى عصرها (عصر جوليا) المفعم برعاية الفنون، ولم يخلُ من التعصب. فاتهمها أعداؤها، وعرضوا بسمعتها بصفتها امرأة سورية، واتهموها بممارسة المغامرات الشهوانية تحت غطاء الاهتمامات العقلية والعلمية. وقد زاد في حدة حقدهم توجهها نحو الشؤون السياسية وكانت تحتاج للحكمة والتعقل لاخفاء الدور الذي كانت تلعبه اثناء حكم ابنها الذي ترك لها تصريف كثير من الشؤون الادارية في الدولة. ولقد اكتفت بممارسة حقيقتها من وراء الستار ودون إظهار قوتها، وهي تتذكر بكل أسى وأسف أعمال وإنجازات ومغامرات سميراميس ملكة بابل»[2]. لقد كان وطنها الأم الوطن الوحيد في العالم الذي أنجب سيدات عظيمات متفوقات حكمن دونما عائق.

وهكذا يتكشف لنا كيف ان السوريين هم الذين صدّروا إلى الغرب قيم العالمية، والعدالة، والأخوة، والمساواة، وليس العكس. وهم الذي قهروا همجية إنسان الكهف الأوروبي الآكل للحوم البشر، ورفعوه إلى مراتب الإنسانية، وهم الذين

---

(1) المرجع نفسه، ص97 – 98 .

(2) المرجع نفسه، ص98 – 99 .

تصدّوا للظلم والاستبداد هناك وأذاقوا إنسان الغرب طعم الحرية التي مارسوها منذ أيام سومر وأكاد، أي منذ الألف الرابع قبل الميلاد على الأقل، تلك الحرية التي لم يعرف تاريخ البشر لها مثيلاً حتى في العصر الراهن، والتي تحدث عنها هنري فرانكفورت بقوله: «كان للمجلس (مجلس الشيوخ السومري) القائم على أساس المساواة سيئة: الحرية التي تبلغ درجة غير مألوفة. وكان الخضوع لإرادة الأكثرية، كما يعبر عنها في الاقتراع، غير معروف. لقد كان المجلس يستمر في المناقشة تحت إرشاد الكبار حتى يتوصل إلى الاجماع العملي.. وعلى كل حال لم يكن يتوصل إلى هذا بسهولة، وفي حالة الطوارىء عندما تدعو الحاجة إلى قرار سريع أو عمل له غاياته الخطيرة كانت المدينة في ما بين النهرين تضع نفسها في يدي دكتاتور»[1].

ومع هذا فقد ظل كتبة التاريخ يصمون هذا الشرق بالاستبداد منذ أن وجد! وإن نقلة أخرى إلى ما فعله العرب المسلمون، والسوريون خاصة، في اسبانيا تضعنا أمام الحقيقة التاريخية للانسان العربي كما هي في الواقع بعيداً عن سخافة ما تنفثه بعض أقلام المؤرخين الكذبة وبعض أبواق الاعلام والدعاية في الغرب الاستعماري حتى اليوم. وحسبنا أن نشير إلى أن هؤلاء العرب السوريين جعلوا من اسبانيا جنة في جحيم أوروبا الهمجية قرابة سبعمائة عام، ومنارة للمعرفة والحضارة الإنسانية العالمية الزاهرة. لقد علّموا العالم هناك أن التماس بين الشعوب لم يكن تماساً عدائياً لا من حيث الجنس ولا من حيث الدين أو الثقافة. وهذا ما عبرّ عنه العالم في التاريخ الأستاذ جورج هرنشو في كلمات بليغة مؤثرة، وكنا قد أوردنا بعضاً من أقواله بهذا الشأن.

إن الأمة العربية كانت تدرك على مدى عصور التاريخ رسالتها التعليمية الإنسانية العالمية، وبقيت من خلال هذا الإدراك تنظر إلى كافة الشعوب نظرة الأم الوالدة إلى أبنائها. وقد أثبتت حقائق التاريخ أنها الأمة الوحيدة التي كانت تحتضن كافة الشعوب المضطهدة، وترعاهم وتحنو عليهم حنو الأم على الأبناء. وفي مثال الأكراد والأرمن خير دليل. ولقد نظرت، وظلت تنظر، إلى

---

(1) هنري فرانكفورت، فجر الحضارة في الشرق الأدنى، ص85 – 86 .

جميع الديانات نظرتها إلى وديان تفجرت من ينبوع واحد. ولقد تعاقب الهداة والأنبياء واحداً في إثر آخر كجزء من الرسالة الموكلة إليها من أجل الارتقاء ببني الإنسان من مرحلة القطيع البهائمي إلى مستوى الحياة الإنسانية الكريمة. فاعتبرت أبناء الديانات الثلاث جميعاً أبناءها، فكانت الأمة الوحيدة التي لم يلق أبناء الديانة اليهودية منها اضطهاداً، بل على العكس من ذلك، إذ هم لم يعرفوا في تاريخهم أمناً إلا في أحضان الأمة العربية.

فماذا كان المقابل الذي بادلها به الغرب، وماذا كانت المكافأة؟ إنه يتلخص في كلمة واحدة ـ التعصب.

لقد تعصب الغرب للمسيح ضد محمد. وزحفت أوروبا الهمجية من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها لقتال العرب مسلمين ومسيحيين تحت ستار الصليب ثلاثمائة عام.

وماذا كان ردّ فعل بعض المفكرين والأدباء «الانسانيين» من منوري عصر النهضة؟ إنه الكره والتعصب الذي طمس كل الملامح الانسانية لدى الكثيرين منهم.

فهاهو «دانتي» لم يجد في مؤلفه المنحول «الكوميديا الإلهية» ما يعبر فيه عن جهله بالتاريخ وعن فقره المدقع إلى السمو العالمي بإنسانية الإنسان وعمّا يجيش في أعماقه من التعصب والكراهية للآخرين غير التهجم على محمد. لقد وضعه هو وعلي بن أبي طالب في الدرك الأسفل من نار جهنم. وجعل تسلية الإله الوحيدة التمتع بتعذيبهما بصورة تتقزز منها نفوس الهمج بله نفوس الناس المتنورين[1]. وحينما أقدم العرب على ترجمة هذا المؤلف الهجين ربأوا بأنفسهم عن نقل تلك الصور التعصبية المقيتة حرصاً منهم على عدم نقل روح التعصب إلى القارىء العربي.

أما الاستشراق، وما اجترحه بحق التاريخ العربي. فالحديث معه يطول. ولسنا هنا في صدده. لكن حسبنا أن نقول هنا كما قال إدوار سعيد: «إن الاستعمار وضع الشرق طرفاً مقابلاً ينبغي الحط منه وإذلاله، ومن ثمّ امتلاكه. فأوجد فنّ

---

(1) ادوار سعيد، الاستشراق، ص97 .

الاستشراق من أجل تسهيل هذه العملية، وفي اللحظة الحاسمة التي كان فيها على المستشرق ان يقرر ما إذا كان ولاؤه أو تعاطفه مع الشرق أو مع الغرب الفاتح، اختار المستشرق الغرب دائماً منذ زمن نابليون وحتى اللحظة الحاضرة»[1].

لكن هذا لا يعني أن الغرب خلو من الأصوات العلمية الموضوعية التي ما تنفك تعلن عن الحقيقة بأصوات مدوية.

فكما ان فلوبير وفكتور هوجو أخذتهما العزة بفتح نابليون الهمجي لمصر، وأخذا يدبجان القصائد في قهر بلاد الأهرام، نرى على الطرف المقابل فرنسياً آخر هو أناتول فرانس يعلن بحسّه الفرنسي المرهف، وبإنسانيته، أن أفدح ما ارتكبه الغرب بحق البشرية هو تعطيله للعبقرية العربية، وأضاف قولته الشهيرة «لو أن العرب انتصروا في بواتيه لكان تقدم أوروبا يسبق ما هي عليه اليوم بلاثمائة عام على الأقل».

وثمة الكثير من الباحثين الفرنسيين والأمريكيين ومن البلدان الغربية الأخرى تطالب اليوم بإعادة النظر بكل هذا التاريخ المكتوب والمتداول اليوم في الجامعات والمدارس الذي هيمنت فيه روح التعصب ضد الحقائق، للغرب ضد الشرق، وضد العرب تحديداً. وإذا كانت الأمة العربية قد جردت اليوم قسراً من قواها الثلاث: الوحدة، الثروات، العلم، فإنها لن تجرد من الذاكرة. وذاكراتها جيدة ومشهود بها، حتى لقد قال ديفيد بن جوريون مرة: «لقد ابتلانا الله بعدو لا ينسى». وقد تُزوّر كتب التاريخ، لكن الحقائق هي التي تبقى في ذاكرة الشعوب. والتاريخ العربي هو تاريخ الرسالات التعليمية إلى بني البشر، إنه تاريخ القيم سواء بأيام نهوضها أو انحطاطها، نحوسها أو سعودها. ولن تسمّى منجزات شعب من الشعوب «حضارة» و«انسانية» إذا ما ألقت بعيداً بذلك الأكليل الخالد الذي نسجته الأمة العربية عبر عشرات الآلاف من السنين ليزهو به رأس الإنسان على هذا الكوكب: إنه إنسانية الانسان ووحدته وأخوته. إن هذا هو ملخص تاريخ العرب السوريين الذي أوجزه شاعرهم القديم مليغر منذ

---

(1) المرجع نفسه.

ما يقرب من ألفي عام بقوله:

«جزيرة صور كانت مربيتي.. وجدرة التي هي أتيكا ولكنها تقع في سوريا ولدتني.. أنا مليغر الذي سرت بجانب عرائس منيفو، بمساعدة ربة الشعر، فإذا كنت سورياً أين هي الغرابة؟ أيها الغريب إننا نقطن بلداً واحداً هو العالم، وشيء واحد أنبت كل البشر»[1].

● ● ●

الإهـداء

إلى أمي «غزالة»

إن سحر كلامك العتيق لفت قلبي وعقلي، منذ حداثتي، إلى عمق الزمن وعراقة الهوية.

إليك وإلى كل الأمهات السوريات اللاتي أنجبن، على مر كل العصور، «السادة المعلمين أبناء الآلهة» أهدي صلواتي ومجد كلماتي.

أحمد

---

(1) Greek Anthology, BK, VII, S.417

المراجع

أ. بالعربية

1 . سلطان محيسن، عصور ما قبل التاريخ، دار المستقبل، دمشق، 1986 – 1987 .

2 . بيير روسي، مدينة إيزيس التاريخ الحقيقي للعرب، ترجمة فريد جحا، مطبعة مؤسسة الوحدة، دمشق، 1980 .

3 . فاستيل دي كولانج، المدينة العتيقة، ترجمة عباس بيومي بك، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1950 .

4 . جورج هرنشو، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي.

5 . وليد الحجّار، رحلة النيلوفر أو آخر الأمويين، مطبعة الكاتب العربي، 1984 .

6 . ول ديورانت، قصة الحضارة، لجنة التأليف والترجمة والنشر في جامعة الدول العربية.

7 . أ.كوندراتوف، الطوفان العظيم بين الواقع والأساطير، دار وهران، دمشق، 1987 .

8 . محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، الجزء الأول، دار الفكر، دمشق، 1985 .

9 . النصوص المكتشفة في قره تيبيه، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الأثرية، تحقيق وبحث كميل أفرام البستاني، بيروت، 1985 .

10 . أحمد داوود، تاريخ سوريا القديم، تصحيح وتحرير، دار المستقبل، دمشق، 1986 .

11 . أحمد داوود، العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود، دار المستقبل، دمشق، 1992 .

12 . مجلة «الصفر»، تصدر عن شركة انترسبايس للنشر بالتعاون مع المركز العربي للدراسات الدولية، العدد آب/اغسطس 1987 .

13 . جاك كوفان، القرى الأولى في سوريا وفلسطين، ترجمة قاسم طوير تحت عنوان «الوحدة الحضارية في بلاد الشام»، دار المجد، دمشق، 1984 .

14 . فيليب حتي، خمســة آلاف سنـة من تـاريخ الشـرق الأدنى، الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1982 .

15 . جـاك كـوفـان، ديـانـات العصر الحـجـري الحديث في بـلاد الشــام، ترجمة سلطان محيسن، دار دمشق، 1988 ، الطبعة الأولى.

16 . جيمس هنري بريستد، العصور القديمة، ترجمة داود قربان، مؤسسة عز الدين، بيروت، 1983 .

17 . فيليب حتي، تـاريخ ســوريا، ترجمة جورج حداد، عبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، 1982 ، الجزء الأول.

18 . أندريـه إيمـار وجـانين أوبـوايـه، تـاريخ الحضـارات العام، دار عويدات، بيروت ــ باريس، الطبعة الثانية، 1986 ، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان.

19 . أشتـور، التـاريخ الاجتمـاعي والاقتصــادي للشـرق الأوسط في العصـور الوسطى.

20 . جـان بـابليـون، امبـراطورات ســوريـات، تـاريخ فترة التأثير السـوري في الامبراطورية الرومانية، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر، دمشق 1987 ، الطبعة الأولى.

21 . د.م. دنلوب، تـاريخ يهود الخزر، ترجمة سهيل زكـار، دار الفكر، بيروت، 1987 ، الطبعة الأولى.

22 . فرجيل، الانيـادا، ترجمة عنبرة سلام الخـالدي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 1980 .

23 . شــابيرو وهندريكس، معجم الأســاطير، ترجمة حنا عبود، دار الكندي، الطبعة الأولى 1983 .

24 . هـ.د.كيتو، الاغريق، ترجمة عبد الرزاق يسري، دار الفكر العربي 1962 .

25 . ب.أوفيد، مسخ الكائنات، ترجمة ثروت عكاشة.

26 . أ.ج.إيفانز، «هيرودوت».

27 . إميل إدّه، الفينيقيون واكتشاف أمريكا، دار النهار، بيروت، 1969 .

28 . مجلة «الشرق»، سان باولو، 15 أيلول 1928 .

29 . يوسف الحوراني، نظرية التكوين الفينيقية وآثارها في حضارة الاغريق،

دار النهار، بيروت، 1970 .
30 . صموئيل كريمر، من ألواح سومر، مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بالقاهرة، ترجمة طه باقر.
31 . أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الجلبي وأولاده بمصر، ترجمة عبد المنعم ابو بكر ومحمد أنور شكري.
32 . علي بن صالح السلوك الزهراني، المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران.
33 . ناجية مّراني، مفاهيم صابئية مندائية، شركة التايمز للطبع والنشر، بغداد، 1981 .
34 . حمد الجاسر، في سراة غامد وزهران، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، 1971 .
35 . تاريخ الطبري، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
36 . «ألف ليلة وليلة».
37 . السير ولس بدج، الديانة المصرية، ترجمها يوسف سامي اليوسف تحت اسم «الديانة الفرعونية» دار المجد، دمشق، الطبعة الأولى.
38 . ملحمة جلجامش.
39 . أحمد سوسة، مفصل العرب واليهود في التاريخ، الطبعة الخامسة.
40 . فريدريك ديليتش، بابل والكتاب المقدس، ترجمة إيرينا داود، العربي للطباعة والنشر، دمشق 1987 .
41 . إيفلين كلينكل ـ براندت، رحلة إلى بلاد بابل القديمة، دار الجليل، دمشق، الطبعة الأولى، 1984 .
42 . أخبار الزمان للمسعودي، دار الأندلس، بيروت.
43 . الفهرست لابن النديم.
44 . جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ومكتبة النهضة ـ بغداد.
45 . أحمد غسان سبانو، هرمس الحكيم بين الألوهية والنبوة، دار قتيبة، دمشق، 1982 ، الطبعة الأولى.
46 . هويمارفون ديتفورت، تاريخ النشوء، ترجمة محمود كبيبو، دار الحوار،

اللاذقية، الطبعة الأولى، 1990 .
47 . س.هـ. هوك، ديانة بابل وآشور، ترجمة نهاد خياطة، دار العلم، دمشق 1987 .
48 . د.انزارد، م. بوب. ف. رولينغ، قاموس الآلهة والأساطير في الحضارة السورية، ترجمة محمد وحيد خياطة، مكتبة سومر، حنب، الطبعة الأولى، 1987 .
49 . الشيخ نديم الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن.
50 . هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، دار القلم، 1966 .
51 . ل. ديلابورت، ميسوفاطاميا (مابين النهرين)، ترجمة محرم كمال، المبطعة النموذجية، القاهرة.
52 . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي، دار الهدى الوطنية، بيروت.
53 . أبو حامد الغزالي، مشكاة الأنوار، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1964 .
54 . تفسير ابن كثير، دار الأندلس، الطبعة الثانية.
55 . لقيان السميساطي، الربة السورية، ترجمة عدنان ابن ذريل، مجلة الحوليات الأثرية السورية.
56 . مسند الإمام أحمد.
57 . أبو الفداء اسماعيل بن كثير، قصص الأنبياء، المكتبة التوفيقية، القاهرة.
58 . أبو منصور الطبرسي، الاحتجاج، طباعة بيروت.
59 . هـ. إ. ديل ميديكو، التوراة الكنعانية من خلال النصوص المكتشفة في راس شمرا، ترجمة جهاد هواش، وعبد الهادي عبادس، دلر دمشق، دمشق، 1988 ، الطبعة الأولى.
60 . فؤاد حمزة، تاريخ عسير.
61 . إيفا شسترو مينغر، كاي كولماير، ارض البعل، الآثار السورية، مجموعة ابحاث اثرية لمجموعة من الاختصاصيين بالآثار السورية، ترجمة نايف بللوز.
62 . فوزي مكاوي، تاريخ العالم الاغريقي وحضارته، دار الرشاد الحديثة،

الدار البيضاء، 1979 .
63 . الأب متري حاجي أثناسيو، الموسوعة المريمية، دمشق، 1982 .
64 . فرانتس ألتهايم، إله الشمس الحمصي والديانات الشرقية في الامبراطورية الرومانية، ترجمة إيرينا داود، دار المنارة، دمشق 1990 .
65 . صموئيل كريمر، طقوس الجنس المقدس عند السومريين، دار الغربال، دمشق، 1986 ، ترجمة نهاد خياطة، الطبعة الأولى.
66 . عبد اللطيف أحمد علي، محاضرات في العصر الهللينستي، كريدية إخوان، جامعة بيروت العربية، 1971 .
67 . لطفي عبد الوهاب يحيى، اليونان، دار النهضة العربية، بيروت، 1974 .
68 . أرنست وبل، المعبد السوري في ديلوس، مجلة الحوليات السورية، المجلد 1 ، دمشق 1951 .
69 . ليلى الصباغ، دراسة في منهجية البحث التاريخي، دمشق.
70 . أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، مصور عن طبعة دار الكتب، القاهرة، 1963 .
71 . محمد عزة دروزة، عصر البني وبيئته قبل البعثة.
72 . محمد عزة دروزة، العرب والعروبة، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثانية 1981 .
73 . القرآن الكريم.
74 . الأناجيل الأربعة.
75 . إنجيل برنابا، ترجمة الدكتور خليل سعادة، المنارة، القاهرة، 1958 .
76 . التوراة السبعونية (العهد القديم).
77 . أعمال الرسل.
78 . برتراندراسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة زكي نجيب، محمود، القاهرة، 1954 .
79 . حنا الفاخوري، خليل الجسر، تاريخ الفلسفة العربية، مؤسسة بدران، بيروت.
80 . صحيفة «تشرين» السورية، العدد 5555 ، تاريخ 1993/1/26 .

81 . فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ترجمة أنيس فريحة ونقولا زيادة، مؤسسة فرنكلين للطباعة، بيروت، 1958 .
82 . فان دين براندن، مجلة Melto الصادرة عن جامعة الروح القدس، العدد الثاني، 1964 .
83 . جوزي داكونيا بربوزا، مجلة التاريخ والجغرافيا البرازيلية، المجلد الأول، عام 1939 .
84 . محمود فهمي، تاريخ اليونان، مطبعة الواعظ بمصر، 1910 ، الطبعة الأولى.
85 . علي نور، ارستوفانيس، دار المعارف في مصر، القاهرة، 1965 .
86 . برومليه، بودولني، الأثنوس والتاريخ، دار التقدم، موسكو، ترجمة طارق معصراني، 1988 .
87 . محمد بن أحمد إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1982 .
88 . أعمال لقيان السميساطي المفكر السوري الساخر في القرن الثاني الميلادي.
89 . محمد عبد الحميد احمد، الهجرات العربية القديمة، دار طلاس، دمشق 1988 .
90 . عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، القاهرة، 1962 .
91 . المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار المعرفة، بيروت، الجزء الأول، 1983 .
92 . الفردوسي، الشاهنامة.
93 . تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
94 . هنري فرانكفورت، فجر الحضارة في الشرق الأدنى، ترجمة ميخائيل خوري، دار مكتبة الحياة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت ـ نيويورك 1959 .
95 . عدنان البني، أبولودور الدمشقي اعظم معمار في التاريخ القديم. منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1990 .

96 . محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي في غرب البحر المتوسط، الجزائر.
97 . هشام الصفدي، تاريخ الرومان، دار الفكر الحديث، لبنان، 1967 ، الجزء الأول.
98 . يولي بركوفيتش تسيركيل، الحضارة الفينيقية في أسبانيا، ترجمة يوسف أبي فاضل، بيروت، 1987 .
99 . جوزي فري تورتون، أميرات سوريات حكمن روما، ترجمة خالد أسعد عيسى وأحمد غسان سبانو، مطبعة خالد بن الوليد، دار الريم للنشر، 1987 .
100 . إدوار سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الثانية.
101 . محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، بيروت، 1981 .
102 . إميل بريهية، الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الاسكندري، ترجمة محمد يوسف موسى، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1954 .
103 . جيمس ميلارت، أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ترجمة محمد طلب، دار دمشق، 1990 ، طبعة أولى.
104 . سير روس هولوي، موسوعة العملة، ترجمة ملاذ الحفار، مأمون عابدين، دار المعرفة، دمشق، 1988 ، الطبعة الأولى.

ب. المـراجـع الأجنبيـة

(1) Joseph Campbell, Primitive Mythology, Penguin Books, London, 1977.

(2) Alexiou, Margaret, The Ritual Laments in Greek Tradition, Cambridge, 1974.

(3) O. De. Jouron, hes Pheniciens a Ile d'Haite'et sur le Continent Americain, houvain, 1887 – 89.

(4) M. hidzbarky, Ginza, der Chatz Oder das grosre Buch der Mandaer, Gottingue 1925

(5) M. Ester Harding, Woman's Mysteries, Harper and Row, NwYork.

(6) Robert Briffault, The Mothers, NewYork.

(7) J. Campbell, Oriental Mythology, Penguin Books, London, 1077.

(8) C.H. Cordon, Ugarit.

(9) Paul Schmitt, Ancietn Mysteries and Their Transformation.

(10) Walter Will, The Meaning of Eleusinians Mysteries.

(11) W.Willi, The Orphic Mysteries, In «the Mysteries», Edited by J. Campbell, Princeton, NewYork, 1978

(12) Watts, A. Myth and Ritual in Cristianity, Thames and Hudson London, 1954

(13) F. Guirand, Greek Mytholgy, Hamlyn, London, 1963

(14) James Frazer, The Golden Bough, Maemillan, New York, 1971

(15) Charles Redman, The Rise of Civilization.

(16) Cordon Child, The Most Ancient Near East, Nortorn Lifrary, Newyork, 1969.

(17) Arkell, A.J.Review of Predynastic Developments in the Nile valley. In Current Anthronology, 6, 1965.

(18) J. Cauvin, Religions Neolothiques Centre de Recherches d,Ecology et de Prehistoire, Paris, 1972.

(19) Pulver Max, Jesus Round Dance According to the Acts of Jonn, «In Mysteries», Edited by J. Campbell, Prineeton NewYork, 1978.

(20) Philostratus and Eunapius, The Lives of the Sophists, ed, and tr Wilmes C. Wright, London, 1922.

(21) Derry, D.E. The Dynastic Race in Egypt, J.E.A vol, 42

(22) Montet, p. Eternal Egypt, NewYrok, 1964

(23) H.Frankfort, The Birth of Manumental Architecture in Egypt, O.J.S. vol. Lviii, 1941.

(24) R.Engellback, an Erray on the Advant of the Dynastic Race in Egypt and in Consequences, A.E. vol XLii, 1943.

(25) W. Ward, Relations Between Egypt and Mesopotamia from Prehistoric Times to the End of Middle Kingdom, J.E.S.H.O. vol. vii, 1964.

(26) Arthur, E.R.Book, Ahistory of Rome to 565 A.D. NewYork, 1930.

(27) J.P.Waltzing, Etude Historique sur les Corporations, vol, iii, Houvain, 1899.

(28) W.L. mac Donald, the Architecture of the Roman Empire, New Haven and London 1969.

(29) A. Toynbee, Astudy of History, vol. II. Oxford, 1954.

(30) Herodot, Bk. III.

(31) Strabo, III.

(32) Donald Harden, The Phoeniciens, Thames and Hudson, London, 1963.

(33) Greek Anthology, BK. VII.

(34) Shapiro and Hendricks, A Dictionary of Mythology, Granada London, 1981.

(35) Harrison, Jane, Epilegomena to the Study of Greek Religeon University

Book, New York, 1966.

(36) S.H.Hooke, Babilonian and Assyrian Religeon, Hutchinson University Library, London, 1953.

(37) Kramer, S.N., The Sacred Marrage Rite, Indiana University Press, 1969.

(38) Andrew Moor, North Syria in Neolithic, in «Prehistoire De Levant», CNRS, Paris, 1981.

(39) Heidel, Alexander, The Babilonian Genisses, Phoenix, Chicago, 1969.

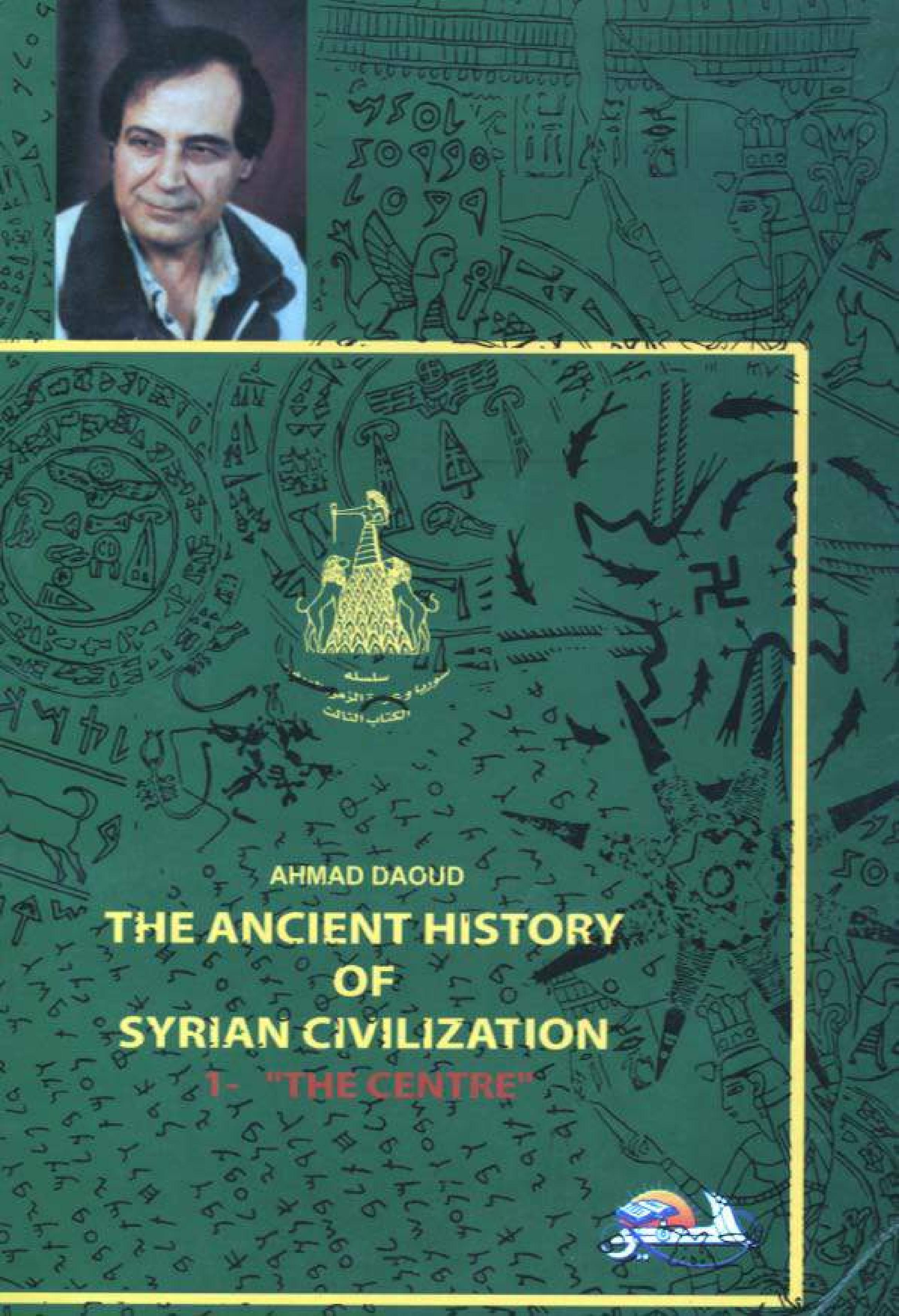
(40) Apuleius, The Golden Ass. Tr. by R. Graves, Penguin, London, 1980.

(41) R. Briffault, The Mothers, Atheneum, New York, 1977.

(42) F. Guirand, Roman Mythology, in «Encyclopedia of Mythology», Hawlyn, London, 1977.

(43) Heinke Sudhoff, Sorry Kolombos, Germauy 1990

الفهرس



AHMAD DAOUD
THE ANCIENT HISTORY
OF
SYRIAN CIVILIZATION
1- "THE CENTRE"